

جرجيس فتح الله

نظرات

في

القومية العربية مداً وجزراً

حتى العام ١٩٧٠

تاريخاً وتخليقاً

أضواء

على القضية الآشورية

(منذ آب ١٩٢٢)

# الجزء الثاني

## سبل ملتوية

اسم الكتاب: نظارات في القومية العربية مدأً وجزراً حتى العام ١٩٧٠ تاريخاً وتحليلاً - أضواء على

القضية الآشورية (مذايح آب ١٩٣٣)

الجزء الثاني: سبل ملتوية

تأليف: جرجيس فتح الله

من منشورات نآراس رقم: ٢٦٥

التصميم والإخراج الفني: شاخوان كركوكي

التنضيد: نثار عبدالله

التصحيح: عبدالرزاق عبدالله - شاخوان كركوكي

الغلاف: آراس أكرم

خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده

الإشراف على الطبع: عبدالرحمن الحاج محمود

الطبعة الأولى: اربيل - ٢٠٠٤

رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل: ٢٠٠٤/٢٠١

## الفصل الخامس عشر

حول الجيش العراقي الجديد . كوكس يوصي بإنشائه . زيادة في قوات الليثي المرتبطة بسلطة الانتداب وفقاً لمقررات مؤتمر القاهرة . الليثي ليس آشورياً خالصاً . النفرة العامة من الجندية تنقلب الى عداء وبغضاء لليثي . الليثي بمثابة أداة قمع محلية الى جانب القوة الجوية البريطانية . فكرة استئان قانون خدمة العلم . رد اللائحة في البرلمان . المعارضة الشعبية . كلمة النائب اسماعيل الرواندوزي حول خدمة العلم . استئان القانون بعد مذابح أب مباشرة . استحداث الكلية العسكرية لتخريج صغار الضباط . الهوة الكبيرة بين الضابط والجندي المكلف . زواج القومية بطبقة الضباط العراقيين . اشتباكات الديرة بون وتأثيرها في إصعاد أسهم الجيش العراقي وزيادة شعبيته . الضباط يتبوأون مركز الصدارة في قلوب دعاة القومية . إمرأء الصحف الكبير للوقفة الصامدة . موقف الاصلاحيين والديمقراطيين المحير من أحداث أب . جريدة الأهالي والتقدميون . الثناء الكبير على ما أنجزه الجيش في الشمال . بدء اتصال الاصلاحيين بالقائد بكر صدقي . الموقف البريطاني المساند للعراق والتخلي عن كانوا يعتبرون أحلفاً له . رأي المؤرخ البريطاني (أرنولد توينبي) في المذابح . تعليق الشاعر محمد مهدي الجواهري . إيمان الاصلاحيين والديمقراطيين بأن الجيش قادر على إحداث انقلاب ديمقراطي إصلاحي . هجوم إعلامي على ياسين الهاشمي لأنه اعترف في عصبة الأمم بما ارتكبه الجيش . القائد بكر صدقي شوقي القائد الذي تتوجه إليه الأنظار . تأمر الضباط بعضهم على بعض بشعارات قومية

عندما أمر سر پرسی كوكس الحكومة العراقية المؤقتة بوجود تشكيل جيش عراقي ، لم يكن لوزير الدفاع فيها وهو (جعفر العكسري) ما يعمله آنذاك غير المشاركة في اجتماعات الوزارة التي لم يمض على تشكيلها غير ستة أشهر .

ففي ٢١ من أيار ١٩٢١ كتب المندوب السامي للحكومة التي أسسها مقترحاً الإسراع في إنجاز ذلك . وفي اليوم عينه على ما يبدو ، أقرت الحكومة قانوناً سمته (قانون التطوع المؤقت للجيش العراقي) . وما من شك في أن هذا الطلب والاستجابة السريعة إليه قد سبقتها

مداولات تمّ خلالها إعداد مسودة القانون ولم يكن معقولاً أن تستحدث وزارة للدفاع في أول حكومة عراقية من غير وجود جيش ، ومن غير وجود نية بريطانية مسبقة وتفاهم حول استحداث جيش<sup>(١)</sup> .

والأمر طبيعي ، فهذا هنا دولة جديدة ، أو فلنقل نقطة شروع في بناء أسس دولة ستحتل موضعاً بين دول العالم حتماً . وكذلك فإن وجود مثل هذه القوة العسكرية يتماشى مع سياسة الإقتصاد في نفقات الإنتداب ويرفع عن كاهل البريطانيين جزءاً من مسؤولية الحماية والدفاع . وقد جرى ذلك كلّه وتمّ تقريره في مؤتمر القاهرة وقام المندوب السامي بإيضاح ذلك بالشكل التالي :

"تقرر في المؤتمر (مؤتمر القاهرة) تكوين جيش محلي من (١٥٠٠٠) جندي تخصص له ٥٪ من إيرادات العراق العامة ، على أن يزداد هذا المبلغ حتى يبلغ ٢٥٪ . وأما بصدد القوات البريطانية المرابطة ، فقد تقرر أن تزداد قوات الليثي المحلية التي ستقوم الحكومة البريطانية بإدارتها وبنفقاتها - من ٤٠٠٠ جندي الى ٧٥٠٠ ، وأن يعزّز ذلك كلّه بستة أسراب من الطائرات البريطانية ترابط في مواقع استراتيجية ، لتسحب القوات البريطانية المحتلة من العراق بالتدريج"<sup>(٢)</sup>

ولو نحن صدّقنا ما كتبه سكرتيرة (كوكس) ومشاورته - لوالدها في ١٩٢٣ وبأعقاب الضجة العارمة التي أثارها الموصليون حول عودة اللاجئين الآشوريين ، لما وسعنا إلا أن نعدّ ما تقرر في مؤتمر القاهرة بهذا الشكل ، أي بوجود قوتين مسلحتين كل واحدة ترتبط بسلطة - غلطة سياسية كبيرة شبيهة بغلطة (شيلوك) في تمثيلية شكسبير .

فقد عللت الآنسة (بل) ما حصل في الموصل الى :

"وجود قدر كبير من التحاقد والاضطغان بين العرب والآشوريين نجم على ما أظنّ عن الليثي الآشوري . وكانت غلطة من الأغلاط القديمة التي ارتكبتها السر پرسی

(١) في ٢٢ من حزيران ١٩٢١ نشرت الصحف بيان وزير الدفاع حول ذلك : "لقد تشكلت ولله الحمد وزارة الدفاع . وعينت لجميع المحلات ضباطاً للتجنيد لأجل تأليف الجيش العراقي الوطني ، الذي هو المستند الحقيقي لحفظ كيان البلاد ودفع الطوارئ العدوانية عنه . فعلى مواطني الكرام ولي الأمل الوطيد والثقة بهم - أن يتهافتوا على الانخراط في الجيش المذكور مبينين بذلك ميلهم الصحيح ووطنيتهم الصادقة للحصول على الضالة المنشودة" . (الحسني : ج ١ ص ٢٢) .

(٢) كوكس : (العراق : دراسة في التطور السياسي Iraq: A Study in Political Development ص ٣١٢) . أنهت خدمات المؤلف في نيسان ١٩٢٣ وخلفه السر هنري دويس .

كوكس، عندما خلق منهم داخل البلاد قوةً عسكرية بقيادة ضباطنا. وقام ضباطنا هؤلاء بتوسيع الخرق وزادوا في الحالة سوءاً في تذكيرهم أفراد الليفي باستمرار بأنهم جنود بريطانيون كفؤون وليسوا عرباً قذرين صغاراً، وتلك نقطة بقيت أنبّه السرّ هنري دويس إليها باستمرار" (٣)

إلا أنها كانت تكذب أو على الأقل تبالغ وتستنّج بعد وقوع ما وقع. فقد كانت تنحاز إلى جانب (كوكس) في اجتماعات مؤتمر القاهرة قبلها بثلاث سنين عندما اقترح إنشاء قوة منهم يبلغ تعدادها ملاك فرقة. وكانت معه أيضاً عندما أشار على حكومة النقيب بتكوين جيش عراقي.

من الخطأ الكبير أن يطلق على تلك الوحدات كلمة (آشوري)، إذ كانت حتى ١٩٢٥ تتألف من الآشوريين النازحين والمحليين ومن العرب والكرد وفيها ضباط عرب وكرد وآشوريون بإشراف ضباط بريطانيين. وقد بقيت كذلك، بل كانت مصدراً له من وجوه عديدة. فهي التي زوّدت بضباط الصفّ المدربين في وحدات الليفي، ولم يكن لدى العراقيين هذا النوع من "العُلمة" قطّ. كما زوّدت بعدد من الضباط العرب والكرد وكذلك ببعض الضباط الآشوريين الملمين بالعربية (٤).

تشير الوثائق البريطانية بصراحة إلى أن السلطات البريطانية حوّلت فعلاً وحدات بكاملها عربية وكردية من الليفي البريطاني إلى الجيش الجديد، وقد بلغ عدد كبير منهم رتبة رئيس عرفاء وعريف وتعودوا أساليب التدريب البريطاني، فكانوا بمثابة العمود الفقري للجيش العراقي الحديث، إلا أن الإقبال على التطوع كان في غاية الضعف. وما من شك في أن صدود العراقيين عن ذلك عموماً - يعود إلى ذكريات أليمة حول مصائر آبائهم في الحرب العالمية (٣) اليزابيث برگوين Elizabeth Burgoyne: أوراق مس بيل Grtruade Bell Papers 1914-1926 لندن ص ٢١٨، ج ٢. الرسالة المؤرّخة في ١ تشرين الأول ١٩٢٣.

(٤) يتحدث العقيد دي كوري في كتابه (ثلاثة ملوك في بغداد) الفصل الثاني عن عملية الانتقال بقوله: "عندما نقل الجنود وضباط الصف العرب في قوات الليفي إلى الجيش العراقي، عيّن (السرّ جون أفنز) أمراً لها يعاونه شاكر الوادي وهو ضابط عراقي صار فيما بعد مرافقاً للملك فيصل". وعن ستيفن لونكريك (المرجع السالف): ما دخلت السنة ١٩٢٩ إلا وكانت آخر وحدة بريطانية قد رحلت عن العراق. ففي العام ١٩٢١ كان فيها ثلاثة أفواج مشاة وست كتائب خيالة و١٦ بطرية مدفعية، وسرية الغام واحدة مع عدد من المصفحات. وفي ١٩٢٦ خفضت القوة إلى ٣ أفواج ثم إلى فوجين في ١٩٢٧ وفوج واحد في ١٩٢٨ وفي ١٩٢٩ سحب آخر فوج. وكان الإعتماد الحقيقي على القوة الجوية... وقوات الليفي التي بلغ عدد مقاتليها (٧٥٠٠) طبقاً لقرارات مؤتمر القاهرة وكانت تتألف من ثلاث كتائب خيالة إثنان كردية وواحدة عربية. وثلاثة أفواج من المشاة إثنان آشوري القوام وفوج من عرب الجنوب، مع بطرية مدفعية آشورية (ف:ج٧).

الأخيرة ما زالت حديثة طرية في الأذهان وإلى الفرقة العسكرية العثمانية التي كانت تختطف أبناءهم وترسل بهم إلى طريق اللاعودة. وقد نوهنا بهذا في فصول سابقة - وقد بقيت تتمثل في هذه القوة القوميّات الثلاث، وإن غلب عليها العنصر الآشوري في مراحل وجودها الأخيرة.

ولد الحقد على الليفي قبل ولادة الجيش العراقي، لأنه كان يمثل عند القوميّين والوطنيين ذراع سلطة محتلة وأداة قمعية لها رغم الخليط العنصري فيه، وكان من الطبيعي أن يردّ ضباط الجيش العراقي الذين تخرجوا في معاهد العثمانيين العسكرية هذا الشعور إلى أسباب أخرى قد يمكن أن ينظر إليها بعين الواجهة، تتعلق بكيفية استخدام البريطانيين هذه القوة. ففي أيار ١٩١٩ ساهمت هذه القوات مساهمة فعّالة في إخماد ثورة الشيخ محمود الحفيد الأولى واحتلت السليمانية. وعادت في ١٩٢٣ لقمع ثورته الثانية لوحدها بمساعدة الطيران البريطاني واحتلت السليمانية مجدداً. ولم يكن للجيش العراقي نصيب في ذلك "النصر" رغم مضيّ سنتين على تأسيسه. لكن وفي تموز ١٩٢٤، ظهرت قطعات رمزية للجيش العراقي في السليمانية، تأكيداً لسلطة بغداد. لم يقتض من الشيخ محمود جهداً في طردها. فاضطرت وزارة الهاشمي إلى الاستنجاد بالطيران البريطاني وبالليفي لإعادة سيطرتها.

وفي آخر ثورة للشيخ محمود (١٩٣٠) وقعت قطعات الجيش العراقي في مأزقٍ عظيم أنقذها منه الطيران البريطاني والليفي.

في ١٩٢٤ لم تشارك قوات الجيش العراقي في صد الهجمات التركية على الحدود في شهر أيلول، وتولى الطيران وقوات الليفي والميليشيات الآشورية وحدها صدّ تلك الهجمات وطرد القوات التركية، إذ بقيت وحداته رابضة في الموصل.

في خلال تلك السنة تكفّل الليفي والطيران البريطاني بالقضاء على الإنتفاضة المسلّحة التي قام بها اليزيدية، كما تكفّل مدرعاته وطيرانه بتشتيت شمل القبائل النجدية المغيرة على جنوب العراق من غير مشاركة للجيش العراقي أو قوات الشرطة.

كان الجيش العراقي في مرحلة التكوين. والمجتمع العراقي في دور محاض، والحكومة في عجلةٍ شديدةٍ من أمرها. وكذلك البريطانيون.

في ٣ من آذار ١٩٢٦، وعلى أثر انتهاء النزاع على ولاية الموصل وضمها نهائياً إلى الكيان العراقي، مال البريطانيون إلى الأخذ برأي جعفر العسكري حول استئنان قانون خدمة العلم (التجنيد الإجباري). وقام الفريق (أ.و. والي) رئيس البعثة العسكرية البريطانية بوضع مسودة أو مخطط للاتحة. وفي ٢٤ من آذار ١٩٢٧ قررت حكومة (العسكري) تقديم هذه

الدافع الحقيقي هو قلة إقبال العراقيين على التطوع، وعدم مبالاتهم بالجندية بله تطيرهم التقليدي منها. وهو الذي أبقى الجيش العراقي طفلاً يجبو على أربع طوال خمس سنوات، فلم يزد ملاكه عن ثلاثة أو أربعة أفواج مشاة مع كتيبة من الخيالة وبطيرتي مدفعية الى جانب عدد كبير من ضباط الجيش العثماني السابقين من بقايا الحرب العظمى لا يعرف الحكم الجديد ماذا يعمل بهم.

عندما اقترح رئيس البعثة العسكرية سنّ هذا القانون أو بالأحرى حبّذه فإنه كان يمثل لأوامر المندوب السامي، إذ يبدو أن قانون التجنيد هذا كان يتفق وسياسة بريطانيا مبدئياً. إلا أنه فوجيء بردة الفعل العنيفة. كما يبدو إنه ما كان يتوقع الأثر السيء العام الذي خلفته هذه النبتة عند الكرد والشبيعة. قال الحسنى:

"الظاهر أن مشروع التجنيد الإجباري لم يلق تأييداً من بعض العناصر التي اكتوت بنار الخدمة في العهد التركي وقاست الأمرين من هولها فأخذت تعارضه بطرق مختلفة... وقد نشر نائب لواء الموصل (السيد إسماعيل الرواندي) الكردي في جريدة الأوقات البغدادية باللغة الإنكليزية بتاريخ ١٢ تشرين الثاني الكلمة التالية: "أرجو نشر الكلمة الآتية خدمة للحقيقة واطلاعاً للجمهور على أمر واقع إزاء الأكراد والتجنيد الإجباري. وهو أن بعض الناس يظنّ إن المخالفين للتجنيد الإجباري هم إخواننا الشيعيون فقط وإني أسف لغفلة هذا البعض عن حقيقة راهنة لم يشعر بها حتى الآن، وهي أن الأكراد مخالفون للتجنيد الإجباري. نعم ليعلموا بأننا نحن الأكراد مخالفون للتجنيد الإجباري. نعم الإتفاق على أن قانون التجنيد الإجباري لا يتفق ووضعنا السياسي وسويتنا العلمية الحاضرة ونحن نعتقد إنه ليس مفيداً ويسبب في الوقت الحاضر مضاراً عديدة، وسيكون بمثابة قبيلة مهولة لبلادنا المحبوبة ولذلك نوصي الحكومة بالإنصراف عن هذه الفكرة".

وقامت ضجة كبيرة في الصحف، وانبرى الشيعة يسقّهون فكرة التجنيد بحرارة وقوة، وكتب الشيخ محمد باقر الشيبسي (أحد رجال ثورة العشرين) ونائب لواء المنتفك في جريدة (العالم العربي) بتاريخ ٢ تموز ١٩٢٧:

"ينظر العراقيون الى التجنيد الإجباري بصدود، ويعارضون فكرته مادامت الأمور على ما هي عليه الآن من عجز المسؤولين عن تحقيق رغبة من رغبات الأمة

أو تدارك حاجة من حاجياتها الكبرى، وقد علت بها أصوات المخلصين، وفاضت ببسطها أنهار الصحف في العالمين...»<sup>(٥)</sup>

لم يكن المندوب السامي يتوقع مثل هذا كما قلنا، وسرعان ما تراجع لنجده يحذر وينصح رئيس الوزراء بالتريث وكتب له هذا:

"اطلعتُ على رأي حكومة صاحب الجلالة (البريطانية)، وقد فوضت لي أن أعرض على فخامتكم ما يأتي: من الواضح أن لا فائدة من تطبيق التجنيد ما لم يعتقد الشعب العراقي بضرورته فيقبل عليه مدفوعاً بعامل الإخلاص والوطنية. فإن استند المشروع الى دعمٍ وطنيٍّ معتدل... تمكنت حكومتكم من تطبيقه دون الإلجاء الى المساعدة البريطانية... إن حكومة صاحب الجلالة بعد التفكير في الأمر - مع شعورها برغبة الحكومة العراقية المشروعة في إنشاء جيش كفو بأقل نفقة ممكنة - ترى من الضرر وخلافاً لمنفعة العراق أن تؤمر القوات البريطانية بإكراه الشعب العراقي على الدخول في الجيش على أساس التجنيد الإجباري والمساندة المالية"

أفكانت الحكومة العراقية تشعر بأنها عاجزة عن تطبيق القانون المقترح. وأنها كانت تعتمد في تنفيذه على سلطة البريطانيين ونفوذهم وكذلك على الدعم المالي؟ أكانت تريد أن تقوم سلطة الإنتداب بإرغام الأهلين عليه أو إنشاء مفارز تعقيب للمتخلفين؟ مثلما كان يجري في العهد العثماني؟

هناك شك قليل في أن الحكومة القومية كانت تتطلع الى هذه المساندة، ودون شعور بالحنج أو التردد. وإن المندوب السامي برده الغاضب لم يسيء قطّ فهم ذلك. رغم مسارعة رئيس الحكومة "لتبديد" ذلك الشك برده هذا المؤرخ في ٢٥ من أيار ١٩٢٧:

"إن جُلّ ما طلبه زملائي (أعضاء الحكومة) هو معاضدة الحكومة البريطانية

(٥) رغم هذا كاد يكون قوام الجيش وقتذاك من المطوعين أبناء الفلاحين الفقراء المعدمين الشبيعة والكرد يفريهم المرتب الشهري المخصص للجندى. وهو مرتب كبير نسبياً يفوق بكثير ما يتقاضاه العامل العاديّ الأجير من عمل اتنتي عشرة ساعة يومياً، فمع الغداء والكساء والإقامة المجانية للجندى، كان يتقاضى شهرياً ٣٠-٤٠ رويية، في حين لم تكن أجرة العامل اليومية تتجاوز عشر آنات، وراتب المعلم والموظف الصغير الشهري يتراوح بين ٨٠ و ١٠٠ رويية [الرويية Rupee هي العملة الهندية التي وضعها البريطانيون في التداول فور الإحتلال بدلاً للعملة العثمانية وهي ١٥ آنة Ana. وتقابل الآنة خمسة أفلس عندما حلت العملة العراقية محلها في ١٩٣١. وقد كان للرويية قيمتها الشرائية الهائلة. فالموظف الصغير ذو العائلة الكبيرة كان بوسعه أن يعيش وعائلته بهذا المرتب دون ضيق].

الأدبية في إمرار هذه اللاتحة من مجلس الأمة وتنفيذها... ويظهر من المكاتبات حول لاتحة التجنيد أن الحكومة البريطانية ترغب في التخلي مقدماً عن كل مسؤولية عما يحدث في المستقبل بسبب التجنيد!

وقبرت لاتحة التجنيد في المجلس، وتنوسي أمرها حتى إن وزارة (السعدون) التي جاءت بعد وزارة (جعفر) لم تنوه بموضوع التجنيد البتة في برنامجها المفصل. إلا أن (السعدون) نوه عند تشكيله وزارته الأخيرة في عين السنة بأنه: "سيعمل على تطبيق التجنيد العام بصورة سريعة"، ولم يفعل.

وفي أول مواجهة للثائرين المحليين (منفرداً) خلال العام، كاد الجيش يصاب بكارثة. إذ وقعت الوحدات التي جردت لتأديب (الشيخ أحمد البارزاني) في حصار أحكمه المقاتلون البارزانيون وكان سيؤدي إلى القضاء عليها أو استسلامها، لولا تلبية القوة الجوية البريطانية طلباً رسمياً من الحكومة بالتدخل لإنقاذ القوة. وقد فعلت ذلك بقصف الشوار وقراهم. وسلمت بقية القوة بعد خسائر جسيمة<sup>(٦)</sup>.

\*\*\*

كان الجيش العراقي في أواخر العام ١٩٣٢ - أي بعد مرور عشر سنوات على تشكيله - يتألف من لوائي مشاة وكتيبتي خيالة مع الصنوف موزعة وحداته على أساس المنطقة العسكرية الواحدة. وضباطه ومدربوه وقادته كادوا يكونون كلهم من مخلفات الجيش العثماني المنحل<sup>(٧)</sup>. يفتقرون إلى الثقافة والعلم ويشق عليهم أن يستوعبوا أو يأخذوا بالأساليب البريطانية العسكرية. لم تكن الأساليب البريطانية من بعض الوجوه موائمة فالضباط المنتدبون منهم للإشراف والتفتيش كان مصدرهم المستعمرات حيث يقودون جنوداً محليين بمعاملة مداها الغطرسة ولحمتها الأزدراء وورث الجيش العراقي مما ورث عن الأسلوبين عقوبة

(٦) في هذه الواقعة كان أمر القوة النقيب (برقي العسكري) شقيق بكر صدقي وقد أبيض نصف قوته فيها. ويذكر (الحسني) ج ٣ ص ١٨١ - الحاشية إن نوري السعيد رئيس الوزراء اتهم وزير داخلية ناجي شوكت بتحبيز فكرة تجريد الجيش لوزير الدفاع جعفر العسكري وإنه كان السبب فيما حصل وطلب منه تقديم استقالته فرفض وطلب من الملك أن يأمر بسوقه ووزير الدفاع إلى المحاكمة فترجع السعيد بعد إباء الملك.

(٧) العارف (أسرار ١٤ تموز، المرجع السالف، ص ٢١): "كان مستوى الضباط المعلمين والمدرسين لا يبعث على التقدير لثقافتهم المحدودة وأساليبهم العسكرية القديمة، التي توارثوها من بقايا ضباط العهد العثماني العراقيين. فلم يكن لديهم شيء من الإبداع والابتكار الذي يخلق روح الطموح والعمل المثمر المتجدد بين الطلاب. فكانت أساليبهم الرتيبة في التدريب والتعليم تشبع الملل وجمود الخيال..." (الملاحظ إنه كان يتحدث حول فترة وجوده طالباً في الكلية العسكرية العام ١٩٣٧ (تأسست في العام ١٩٢٤)."

الجلد، وعن الجيش البريطاني تقليد الجندي الخادم Batman الملحق بخدمة الضباط الخاصة. وكانت الحاجة تدعو إلى تعريب المصطلحات العسكرية - ومنها الرتب والأوامر الشفوية (الإيعازات) وأسماء الأسلحة المختلفة وأقسامها. وقد عكف على ذلك منذ قيام الجيش الأديب واللغوي (عبدالمسيح وزير) - رئيس قسم الترجمة في وزارة الدفاع، ومراجعة إمام اللغويين في عصره الأب أنستاس الكرملي وبتشجيع واحتثات متواصل من (أب الجيش العراقي) جعفر العسكري<sup>(٨)</sup>.

وبعد النصر الذي حازه الجيش في اشتباك (الديره بون) - وارتفاع المعنويات بدا وكأن لا سبيل ثم إلى تأجيل آخر لسن قانون الدفاع الوطني أي التجنيد الإجباري. وقد تم ذلك في ٣٠ من آب ١٩٣٤ إلا أن وضعه موضوع التنفيذ تأخر قرابة السنة<sup>(٩)</sup>. وكانت مذابح آب ١٩٣٣ سبباً في إصداره كما سنرى.

بإخراج الضباط وعدد من ضباط الصف، بدأ الجيش العراقي أمياً، وهذا ليس موطن عجب في بلد يكافح كفاح المستميت للتغلب على الآفة. وبأكثر التقديرات تفاؤلاً يمكن تقدير نسبة المتعلمين العراقيين في العام (١٩٣٢ - ١٩٣٣) بما لا يزيد عن ٢,٨٪ بالمائة، وبضمنهم التلاميذ الذين لم يبلغوا سنّ الجندي وخريجو المدارس الثانوية أو المتوسطة، وليس بينهم إلا من يطمح إلى مواصلة دراسة تضمن له وظيفة وعيشاً لا تؤهله للتطوع في الجيش جندياً أو

(٨) كان جعفر ونوري في أوائل العشرينات متحمسين إلى الدرجة القصوى لترويج هذه المصطلحات وتعميمها وقد خرجت والحق يقال دقيقة محكمة وحقاً للجيش العراقي أن يفخر أن لم يكن لديه ما يفخر به، بأن وجدت تلك التسميات طريقها إلى سائر الجيوش في البلدان الناطقة بالعربية وكانت أساساً للقاموس العسكري الكبير الذي وضعته لجنة عسكرية - مدنية مثل فيها عسكريون من سائر أقطارها في الجمهورية العربية المتحدة (مصر) في منتصف الستينات. وقد روى لي من لا أشك في روايته من الضباط العسكريين الذين عملوا في الجيش خلال تلك الفترة، أن (جعفر) كان يترك مكتبه في وزارة الدفاع ويقصد الوحدات ليقوم بدور المعلم في تلقين الضباط العثمانيين وضباط الصف العرب والكرد المصطلحات الجديدة مستعيناً بإلمامه الواسع باللغات. وقد وجدت في كتاب الكولونيل دي كوري (المرجع السالف، ص ٦١) مصداقاً لهذا، إذ ورد فيه ما نصّه: "كان الجيش يفتقر إلى المصطلحات اللغوية وقد وجدت (جعفر) أول من بدأ في استخدام تلك المصطلحات مستعيناً بكراسة كبيرة كانت وزارة الدفاع قد أعدتها أشبه بمعجم دونت فيه التعابير العربية بمقابل المصطلحات الإنكليزية... ويعزو دي كوري لنفسه (وكان قد ترك الليقي والتحق عضواً في البعثة العسكرية) فضل القيام بطبع هذه المصطلحات بشكل جدول يضمه كتيب في مطبعة الهلال ببغداد، ويلاحظ: أن هذه التعابير الخاصة بالأوامر والإيعازات بدت غريبة لأنستاس يصعب استخدامها". (بالمناسبة كوفيء عبدالمسيح وزير، بأن سمح لشقيقه أنيس بدخول كلية الأركان. فهو والحالة هذه الضابط المسيحي الوحيد المقبول في تأريخ هذه الكلية).

(٩) صدرت إرادة ملكية بتنفيذه في ١٢ من حزيران ١٩٣٥.

ضابط صف ولا أمل له في الترقية الى مصاف الضباط. وكانت ميزانية الجيش تلتهم ربع ميزانية الدولة السنوية وهو مبلغ هائل جداً بكل حسابات ونسب ميزانيات جيوش الدول التي خرجت من الحرب منتصرة وتركزت سياستها على إنقاص ميزانيتها العسكرية في ظرف بضعة عشرة سنة. وبعد وضع قانون خدمة العلم موضع التطبيق. زادت الحاجة الى ضباط من رتب صغيرة. رغم استقبال عدد كبير من أبناء شيوخ العشائر ترغيباً لمسلك الضباط في المدرسة العسكرية - بالقراءة والكتابة - بأمل المعرفة بالقراءة والكتابة. وقد أصبحت فيما بعد (كلية) وفتحت أبوابها لطلاب الصف المنتهي من الثانويات دون انتظار تخرجهم.

كان إغراءً لا يقاوم، فضلاً عن المركز الموقر الذي يتمتع به الضابط ويتيه به على أقرانه من موظفي الدولة - هناك الراتب الشهري الذي يكاد يبلغ ضعف ما يتقاضاه صاحب الشهادة الثانوية من الموظفين لو أسعده الحظ بوظيفة، بل كان حظه في انتقاء شريكة حياته أكثر بكثير من حظ الآخرين. وقد انتشرت بين الجمهور مقولة مسجعة ترددها شفاه الفتيات: «يا ملازم يا ملازم» أي أمّا ملازم وإمّا لا حاجة للزيجة.

وترك عدد كبير من صغار المعلمين والموظفين بسبب من هذا الجاذب - وظائفهم والتحقوا على كبرٍ بالكلية العسكرية. وما أذكر في هذا الصدد أن مدرس الرياضة في مدرستنا الابتدائية كان أحد الملتحقين<sup>(١٠)</sup>.

وأُسست كلية الأركان، لتخريج قادة المستقبل من ضباط الجيش العراقي، كان القبول فيها محدوداً لرتب ملازم أول ونقيب، ومن شروطها أن يكون المقبول حائزاً للشهادة الثانوية، مشفوعة بتقارير طبية من أمره حول سلوكه ومؤهلاته. وكان إغراءً لا يقاوم، فالضابط الركن يضمن لنفسه أفضل المراكز، وكذلك يفتح له باب الترقية دون عائق. بل وأكثر من هذا، فالمتخرج الى جانب علامة على الكتفين توضع قبل الترقية، وهي شريط قرمزي. لا بدع أن

(١٠) إسمه «خضر ألياس عزيزة» وقد تقاعد بعد ما بلغ رتبة رائد وكان لي لقاء معه قبل تقاعده. وأظنه من الدورة التي تخرج فيها عبدالكريم قاسم وأحمد حسن بكر، اللذين تركا مثله سلك التعليم والتحقا بالكلية العسكرية في ذلك الوقت. ومن الصف الخامس الثانوي الذي كنت فيه العام ١٩٣٩ التحق بالكلية العسكرية قرابة الثلث وبينهم عدد من المسيحيين. بعضهم أنهى دراسته الثانوية طمعاً بالدخول في كلية الأركان. وإني لأذكر منهم عدداً سميت به القيادات وكان لبعضهم أدوار في مصائر الجيش أو السياسة العراقية: كزملاء الدراسة محمد نوري خليل (لواء ركن وقائد فرقة)، وحمدون سعيد (عقيد مرافق أقدم للملك)، وعلي أمين أغوان (عميد)، وإبراهيم فيصل الأنصاري (لواء ركن قائد فرقة ورئيس أركان الجيش)، وزاهد محمد صالح (عميد مرافق أقدم لرئيس الجمهورية)، وسليم الفخري (مقدم ركن مدير الإذاعة العراقية بعد ١٤ تموز)، ومحمد عارف يحيى (عقيد أمر فوج وزارة الدفاع أيام الجمهورية)، وغيرهم.

كان المقبول في هذه الكلية موضع حسدٍ وغيره من زملائه المرفوضين أو رفاقه والحمد من الضباط العاديين الآخرين. وتلعب الوساطات والنفوذ لعبتها أيضاً في القبول. ويتوسل الضابط المقبول بكل وسيلة ليضمن نجاحه إذا لزم الأمر ولم يكن بالمستوى الذهني الذي يؤهله للنجاح، فالفشل عارٌ كبيرٌ وخزي لا يحتمل<sup>(١١)</sup>.

أصرّ الضباط القوميون (العثمانيون) على استحداث هذه الكلية الفريدة من نوعها، لتكون على غرار مدرسة الأركان العثمانية. رغم انتقاد البعثة العسكرية الإنجليزية. إذ لم يكن في النظام المسلكي البريطاني أو الأمريكي أو الفرنسي شيء شبيه بهذا الإمتياز، وإنما كانت هناك دورات تخصص معينة بحسب الحاجة لامتحن خريجها امتيازاً كهذا.

وفي هذه الجيوش وغيرها تتم الترقية بناءً على الحاجة وتوفر الملاك والمنصب<sup>(١٢)</sup>، إلا أن الترقيات في الجيش العراقي كادت تكون روتينية، إذ يكفي الضابط أن يقضي الفترة المعينة في القانون ويكون سجله خالياً من العقوبات أو تقرير من أمرية يشير الى قلة كفاءة، وأن يجتاز امتحاناً بسيطاً تقوم به لجنة امتحانية عطوفة عادةً (لأن أعضائها سيجتازون امتحاناً مماثلاً حين يحين زمن ترقيةهم ويحتاجون من ممتحنهم عين العطف) ومن النادر أن تأخرت ترقية ضابط. والتأخير في الترقية يحث الضابط على التوسل للإحالة الى التقاعد بكل وسيلة ممكنة وأفضلها العجز والمرض.

وبسبب من هذا تضخم ملاك الجيش بالضباط من ذوي الرتب الكبيرة بحيث ضاق عن استيعابهم في حين دأبت الكلية العسكرية على تخريج الضباط بالمئات وبدورات تقل عن السنتين أحياناً. وكثيراً ما نسب ضابط أمراً لقيادة وحدة صغيرة لاتتفق ورتبته. ولجئ الى استحداث مناصب إدارية وكتابية لاستيعاب هذا العدد، كما لجئ الى الإحالة الى التقاعد بهذه العلة أو غيرها قبل وصول الضابط سن التقاعد القانونية.

(١١) في العام ١٩٣٨، أقدم النقيب جلال الوتة على قتل نفسه وقتل أمر كلية الأركان العقيد محمد السبتي بتفجير قنبره يدوية شدها على نفسه وذهب ضحيتها بسبب رسوبه في الإمتحان النهائي.

(١٢) الأمثلة على هذا في الجيوش العصرية الكبيرة لاتحصي. وأريد أن أذكر القاريء بالجنرال آيزنهاور (رئيس جمهورية الولايات المتحدة فيما بعد). ففي العام ١٩٤٢ عندما دخلت أمريكا الحرب كان آيزنهاور عقيداً لم ينل ترفيحاً لأكثر من خمسة عشر عاماً. وعندما وقع الاختيار عليه لقيادة الحملة الأمريكية رفّع، ثم توالى ترفيحاته فنال ست ترقيات خلال ثلاث سنوات ونيف، كذلك كان الأمر مع قرينه المارشال مونتغمري. فقد كان عقيداً (كولونيل) في مبدأ الحرب وخرج من الحرب وقد نال خلالها خمس ترقيات، والجنرال ديكول الذي بقي عشر سنوات في رتبته. وكثيراً ما كان يخير الضباط في الجيوش الأوروبية بعد انتهاء حربٍ وتقليص ملاك الجيش - بين الرضا برتبة صغرى أو الاستقالة من الجيش.

كذا كان وضع الجيش عندما شارف العقد الثالث من القرن العشرين على نهايته.

وبقيت الهوة التي تفصل بين الضابط والجندي واسعة، بل زادت سعة وعمقاً بسوق الأعداد الكبيرة من الأميين المكلفين بالخدمة. ولم يخطر ببال أحد التساؤل عمّا يراد عمله بهذا الجيش، فالخزانة العامة لم تعد كما كانت في السابق تشكو عجزاً أو فقراً، بسبب تغذيتها بعائدات النفط. والتعليل الوحيد الذي قدمته الحكومة القومية، والمتحمسون القوميون لسنّ قانون التجنيد ووضعه موضع التطبيق، وبالتالي لتقوية الجيش "عدداً وعدة" هو كما جاء في بيان الحكومة عند تقديم القانون للمجلس:

"التخوف من الجارتين تركيا وإيران، وواقع ضخامة قواتهما العسكرية"

لا أدري مقدار الجدّة في هذا التعليل. فقد كان ثمّ معاهدة صداقة وحسن جوار مع تركيا. وكان هناك اتفاق على تسوية خلافات الحدود مع إيران، عقبه الإتفاق أو الميثاق المعروف بميثاق (سعد آباد) الذي جرت المفاوضات حوله منذ مطلع ١٩٣٦، وبرم بعدها بسنة ليربط الدول الثلاث بتعاون عسكري.

بل وأكثر من هذا - فهناك المعاهدة العراقية - البريطانية، التي توجب على القوات البريطانية التدخل العسكري الفوري لحماية الدولة الجديدة من أي اعتداء.

وحاول البريطانيون بضع سنوات توجيه نشاط الجيش بالشكل الذي يجعله جيشاً محترفاً، ففتحوا أبواب معاهدتهم العسكرية لضباط الجيش العراقي الجدد والعثمانيين في إنكلترا والهند بدورات تعليمية وتدريبية. وتخرج بنتيجة ذلك وفي السنوات التالية ضباط عراقيون ذوو كفاءات وثقافة وفهم وطلاب المعرفة في غير ميادين حرفتهم - يفخر بهم أي جيش عصري لدولة حديثة. كان لي منهم أصدقاء وعشراء اعتززت بصداقاتهم، وكثير من هؤلاء إما طحتهم الانقلابات العسكرية المتوالية أو أصابهم الضرر من نتائجها وإما القوا أنفسهم في أحضانها وخاضوا غمار السياسة وحرب العقائد لتذهب ريحهم، وتقضي على كفاءاتهم ومؤهلاتهم.

وقع الجيش العراقي فريسة سهلة للاتجاه القومي. ووجد القوميون العربيون فيه ضالتههم المنشودة لتأمين نشر مفاهيمهم فيها وللحصول على الشعبية التي ظلوا الى الأخير يفتقدونها في الجماهير العراقية، مثلما وقعوا هم أنفسهم فريسة لطموح الضباط الذين كانوا يتابعون بعين الخنق ومرارة الحبيبة وصول زملائهم الى المراكز الوزارية والوظائف العليا، التي أمّنت لهم الثروة والغنى في حين لم يكن أمامهم غير الخدمة الطويلة الشاقة والاعتماد على الراتب،

ليبلغوا السنّ التقاعدية فيطويهم النسيان؟

من كان يستخدم من؟ ومن كان فريسة من؟

وكيف تمّ زواج القومية بالجيش العراقي؟

كان ذلك في مخاضة وعلى ضفة نهر الفرات حيث نشبت معركة بين سريتين من الجيش العراقي وبين الآشوريين المسلحين الذين عادوا من سورية، تلك المعارك التي عرفت بمعركة الديره بون. وفيها صمدت الوحدة العراقية في موقعها وهو ما أنزله التأريخ العسكري العراقي، والكتّاب والمؤرخون العراقيون منزلة النصر العظيم المؤزر.

أخرج القوميون والحكومة والصحافة والكتّاب تمثيلية رائعة باستخدامها جيشاً بلغ بضباطه الشعور بالفشل المتوالي حد نفاذ الصبر ولقبوا الواقعة: بـ"الفتنة الآثورية أو تمرد التياريين أو الثورة أو العصيان الآشوري". الى آخر الصفات والنعوت التي أطلقها المذكورون سابقاً - بالجملة وبالمفرد على حماقة اثنين من الآشوريين - بدت للرأي العام العراقي امتحاناً لوحدة القومية، واستقلالية الحكومة العراقية في اتخاذ القرار، وطبعت الجيش بالطابع القومي - الوطني بالمفهوم السائد وقتذاك، وأثبتته من خلال ذلك عاملاً في شؤون الدولة لا تابعاً أو جهازاً محترفاً ممثلاً من ناحية نصراً للروح العسكرية التقليدية، ومجسداً من ناحية أخرى انطلاقة متأخرة من إसार التحكم البريطاني.

ومن خلال ذلك صورّ الساسة القوميون الآشوريين بمثابة إهانة قائمة لكل ما تمثله مملكة مستقلة حديثة، وعنصرراً يقف عقبة في سبيل الوحدة الوطنية، مهدداً القومية العربية وتطلعاتها وسبباً لاستمرار التدخل البريطاني. ونشروا على الرأي العام المستنفر قوميّاً ودينياً ما ترك فيه انطباعاتاً مؤداه إن هذه الأقلية المسيحية الصغيرة التي فرضها الإنتداب على العراق، تكره الإندماج في المجتمع الجديد. ونسوا لبرهة من الزمن بأن أولئك الذين نُصبوا أوصياء ومنتدبين على العراق، لو لم يرغبوا في أن يكون هناك عراق لما كان هناك عراق.

من هذا كلّ لم يكن المسلمون العراقيون بحاجة الى جهد كبير لإقناعهم بكل ما أراد رجال الحكم القوميون إقناعهم به، وما أسهل ما تثار عواطف الحقد في الدهماء وفي بلد يسوده الجهل. فكل الآثار الكتابية التي استعرضتها قراءه وتأملاً في أحداث آب ١٩٣٣، كانت تعكس شعوراً بالحقد والسخط على شعب غريب ذي دين غريب يصر على اعتبار نفسه في حماية أجنبي مسيطر، ولا يخفي قلة ميالاته بالاستقلال: وفي الأمثال اللاتينية: (من الصعب عليك أن تقاتل الحقد، فهو يشتري كل ما يريد وإن كان الثمن حياتنا).



كذلك وجدهم ضباط الجيش إهانة للوحدة والإستقلال واعتداء على مشاعر العروبة والإسلام. فمنهم تألف جيش أجنبي يخضع لأجنبي ويكون رهن إشارته<sup>(١٣)</sup>.

ولذلك بدا الخيار العسكري هو الوحيد من الأوّل. ويعين الأسلوب الذي مارسه بعضهم أو عاصره في العام ١٩١٥ وقبلها أثناء المذابح الأرمنية. وكلّ ما دوّنه (ستافورد)<sup>(١٤)</sup> عن المساعي التي بذلت للتوفيق وتدارك الحال في بغداد والموصل ودهوك، كلها كانت غطاءً وتمهيداً لحلّ نهائي تمّ قراره ولا رجوع عنه وهو تلقين الآشوريين درساً لا ينسونه.

إحتجاز البطريرك الآشوري في بغداد، سوق القطعات العسكرية الى الشمال بزعم القيام بالتدريب، خطة الإسكان الجديدة، الجهود الإدارية، كلها كانت مهدات للحلّ النهائي. فقد كان سياسة بغداد على علم بأن في ضباط الجيش ميلاً لا حدود له في أن يتولوا مسألة الحلّ بأنفسهم. وتشاء الأقدار أن تدفع بأيديهم الحجة لإطلاقها. حماقة وغباء نفر لا يتجاوز عدده أصابع اليد نصّبوا أنفسهم زعماء لهذه الطائفة من البسطاء الأميّن الجهلة الذين ملكهم الرعب من المستقبل المجهول، ومن لم يكن لديهم أية فكرة عن حالة الهياج والتأليب الشعبي الذي نجح السياسة القوميون وأتباعهم في إشاعتها ضدّهم.

وذاك الإشتباك الذي رفع من قدر الجيش العراقي ومن قائدة (بكر صدقي) ليجعله في مصاف القادة العظام. لم يكن من الناحية العسكرية الصرفة ووفق أي تقويم لأي خبير عسكري غير عملية دفاعية ضيقة الحدود صغيرة جداً بالمقياس العام للحركات العسكرية، على نطاق سريتين (٢٤٠) جندياً متخذين في مواقع استحكام جيدة فوق أرض مستوية، تمكنت بعد فشل مبدئي، وبمعاونة الطيران من صدّ هجمات بضع مئات من الآشوريين العائدين من سورية. فانتزعت بصمودها هذا خسارة أولية. ما كانت تقتضي لإدارة هذا الإشتباك حدقاً أو براعة عسكرية فائقة<sup>(١٥)</sup>.

إلا أن المزاج العراقي الذي يميل عادة الى المبالغة في الأحداث وتضخيمها - جعل من هذا

(١٣) كان ثم أكثر من خمسة آلاف آشوري من حكاري وشمال الموصل قد مروا بمرحلة الخدمة في الليفي بين أعوام ١٩١٨ و ١٩٣٣.

(١٤) الكتاب الثاني: مأساة الآشوريين (ستافورد).

(١٥) (الآشوريون في العراق: المرجع السالف ص ٣٦٠، الحاشية) والقول للمؤلف: "حدثني العقيد حسين بشار (كان ملازماً وقتذاك) إن بكر صدقي ومجيد حسون والحاج رمضان يتحملون سقوط الربيّة السابقة بأيدي الآشوريين. فقد أرسلوا حسين بشار في بداية الأمر لتحكيمه. إلا أنه انتقد وضعها فنقلوه الى مكان آخر وأحلوا محلّه الملازم الأول عبدالستار سعيد، فأجرى تحكيمات ناقصة مكنت الآشوريين من الاستيلاء على الربيّة وقتله.

الإشتباك الضيق المحدود القصير الأمد - معركة فاصلة توجت بنصرٍ عظيم.

لكنها كانت المرّة الأولى في حياة الجيش - استطاع أن يصمد في اشتباك جبهوي مع قوات غير نظامية لوحده ومن دون معاونة الليفي أو الطيران البريطاني كما كان يحصل في السابق. ولهذا أمكن القول بأن الأثر المعنوي في ضباط هذا الجيش الجديد كان أعظم بما لا يقاس من أثر النصر الفعلي. وإنه وضع حدّاً لإرهاصات عقدة النقص التي كانوا يشعرون بها ازاء تشكيلات الليفي القائمة، ومنها القضاء على خرافة التفوق بواقع أن معظم الآشوريين القبليين المهاجمين كانوا جنوداً سابقين في الليفي. كذلك عدّ هذا الإشتباك نصراً مباشراً على البريطانيين الذين استعبدوا البلاد وعبثوا بمقدراتها واستغلوا مواردها.

وفي الوقت الذي كان (الوايت هول) يتابع بهلع وارتباج تطور المطاردة الى المذبحة مستنتجاً بأن الحكومة العراقية فقدت السيطرة على جيشها، بدأ العراقيون: أهالي وحكومة وكأنهم يعيشون في عيد كبير.

موكب النصر الذي دخل به رشيد عالي وبكر صدقي العاصمة<sup>(١٦)</sup> والخطاب الذي ألقاه أولهما في ٣٠ من أيلول ١٩٣٣ على الجَمّ الغفير من الموصلين كان يمثل المرحلة التي ودّع فيها ضباط الجيش الطموحون الإحتراف وداعاً أخيراً. ليبدأوا مرحلة الجيش السياسي. كما كان إعلاناً غير رسمي باستننان قانون التجنيد الإجباري:

"لاشكّ في أنكم تقدرون حاجة البلاد الى قوة نظامية من أجل بناء أساس مكين لكياننا. وأنا حالياً أجد الفرصة مناسبة لأثير في نفوسكم الكريمة الشعور بالحاجة الملحة لمثل هذه القوة لبناء هذا الأساس المكين، وأقصد به بناء الجيش، نعم جيش (هتافات عالية: يحيا الجيش، عاشت الحكومة، عاش الملك. ثم تصفيق حادّ) نعم يجب أن يدعم الجيش ويتقوى ليكون في مقدوره المحافظة على شرفنا وكرامتنا. الخدمة في الجيش يجب أن تكون عمومية وإجبارية. وهذا ضروري لصيانة شرفنا. في حالة الدفاع عن الوطن يهبّ الشعب كلّ هبة الواجب ليصدق علينا القول إن شئت أن تُحترم فكن قوياً"<sup>(١٧)</sup>

(١٦) راجع الوصف الشيق لهذا الإستقبال في مقالة السيد خلدون ساطع الحصري (الكتاب الثاني).  
(١٧) نشر في جريدة (العمال) الموصلية الأسبوعية (العدد ١٥٧) في تشرين الأول ١٩٣٣. وأنظر كذلك الترجمة الكاملة له في الوثيقة FO. 5585-7-93 ضمن تقرير من السفارة البريطانية ببغداد الى وزارة الخارجية. وكذلك التصريح الذي ادلى به رئيس الحكومة الكيلاني لجريدة (العالم العربي) البغدادية المنشور في العدد (٢٩١٠) المؤرخ في ٣ من أيلول ١٩٣٣ وفيه يقول: "إن معارك الجيش مع الآشوريين =

ويتفق الكتاب العراقيون القوميون تقريباً بأن أحداث آب ١٩٣٣ كانت نقطة التحول الحاسمة، كما بدا واضحاً بأنها أزالَت كلَّ عقبة في سبيل قانون خدمة العلم.

قانون مبتسر، جاء في الوقت الذي لم تكن الدولة تملك إحصاءً دقيقاً بنفوس العراق، وفي الوقت الذي كان الضباط العراقيون يتنازعون السلطة الفعلية والسيطرة عليه مع البعثنة العسكرية البريطانية بحربٍ خفيةٍ، وبالذعوة القومية التي سيطرت عليها الأفكار النازية بتعثرها وعموميتها - وتركيزها فحسب على الإستقلال والخلاص من نفوذ الأجنبي - مشاعر الضباط الكرد، جنود ثمانون بالمائة منهم أميون. إنه سقف بدون جدران، جيش لم يكن من دواعي فخره مطلقاً أن تطلب حكومة بغداد من البريطانيين إنقاذه من المآزق العسكرية التي وقع فيها عند تصديه للإنتفاضات الكردية في ١٩٣٠ و ١٩٣٢ و ١٩٣٧، بل في ١٩٤٥ أيضاً.

هذه الحقائق كانت أبعد من أن تبرر الآمال والتطلعات التي عقدها أمثال الكيلاني عليه. كان الساسة ومنهم عسكريون سابقون لا يقلون رغبةً عن القوميّين ولا شوقاً في أن يصدر من هذا الجيش ما يبرر وجوده والإنفاق عليه، بعد أن قدموه في الماضي رمزاً للعة مدافعاً عن كلّ نكبة أهلية أو كارثة تحيق بالبلاد نتيجة عمل عسكري. بالأقوال التي باتت تتردد على الألسنة وتسطرها أقلام من مدحوا وقفته المشرفة في الديرة بون وبيخير، وتكتموا على مذبحته في سيميل وسنجار وبطائح الجنوب - هذه عاقبة تدخل الجيش في السياسة!

أين كان هؤلاء عندما وضع الجيش أول قدم له على عتبة باب السياسة؟ ان الجيش العراقي ورث أسوء ما في النظامين العسكري العثماني، ونظام المستعمرات العسكري البريطاني.

لم تفعل ممارسة الضباط القوميّين واندفاعاتهم العاطفية التي ستروا بها طموحهم شيئاً يستحق عليه العراق الوصف الذي خلعت عليه الصحافة العربية بأنه (بروسيا العرب) فقد بقي يفتقر الى هوية ليبدو منها قوة كفاءة واثقة بالنفس، يمكن أن تفخر بها تلك البلاد التي بنت عليه آمالاً.

رأها القوميون اللحظة الحاسمة، كما نراها وكما يعرضون بها حتى اليوم. ولكن أي شيء حسمت تلك اللحظة وقالوا:

= قد علّمت الحكومة درساً بأن تعمل على تقويته وتطويره، وإن حركاتهم دفعت السلطة العراقية الى الإسراع في تقديم لائحة التجنيد الإلزامي كخطوة أولى لمساندة الجيش وزيادة عدده وتمكينه من الدفاع عن البلاد وصيانة كرامتها".

"منذ تلك اللحظة التاريخية الحاسمة في ١٩٣٣ أخذ العراقيون ينظرون الى الجيش باعتباره رمزاً للإستقلال وتجسيدياً ملموساً للسيادة الوطنية والتخلص من رواسب ومخلفات الماضي الأسود المشؤوم والتسلط الأجنبي الطويل الأمد" (١٨).

وكتب هذا العبارة البليغة لغوياً - بمقياس البلاغة الأدبي المعروف ما أراهم إلا وهم بعد مرور قرابة أربعين سنة على تلك الأحداث - يرددون عين ما كتبته صحف تلك الأيام وما سطرته أقلام العروبيين عنها - بكل أمانة ودقّة. من دون أن يجدوا حاجة الى مراجعة أو مناقشة للكثير مما كتبته حولها أقلام أخرى وما انكشف من وثائق وحجج وتعاليل تستأهل البحث والمناقشة.

ودونك كاتباً قومياً آخر أحدث عهداً، حفل كتابه بأسماء المراجع التي استند اليها في تأليفه وكان أكثر تفصيلاً وإسهاباً:

"... وكما أن احترام الشعب للجيش منذ الإنتصار على التمرد الآشوري المبنيّ في ١٩٣٣، كذلك كان تعاطف الجيش مع الفلاحين قد بدء عجلة قمع انتفاضتهم في الفرات الأوسط باللجوء الى استخدام القوة العسكرية استخداماً واسعاً وأحياناً قاسياً في ١٩٣٥، تلك الواقعة التاريخية والحقيقية الموضوعية. وإذا كانت سنة ١٩٣٣ بمثابة لحظة تاريخية حاسمة في بداية احترام الشعب لجيشه المغوار كما قدّمنا، كذلك كانت سنة ١٩٣٥ بمثابة لحظة تاريخية حاسمة في بداية شعور الجيش بظلم الإقطاعيين وازدياد عطفه على الفلاحين. ويبدو (كذا!) أن الفريق بكر صدقي الذي عهد إليه قمع الإنتفاضات أراد استخدام العنف في قمع الإحتجاج المسلح للفلاحين بالدرجة نفسها التي كان قد استخدمها من قبل في قمع التمرد الآشوري المسلح وربما بدرجة أكبر. وقد شعر الضباط بالاستياء العام والغضب الشديد من هذا الوضع لأنّ القسوة، إن كانت مشروعة ومبررة في مواجهة التمرد الآشوري المدعوم بقوة المستعمر الأجنبي، فإنها غير واردة على الإطلاق في مواجهة فلاحين مظلومين يقاومون إقطاعيين ظالمين. ومن الجدير بالذكر أن الأثوريين وإن كانوا الطرف المقابل الذي دخل في صدام مسلح مع القوات العراقية، إلا أن المواجهة الحقيقية المباشرة كانت بين العراق وبريطانيا التي كان

(١٨) الجيش والحركة الوطنية: تأليف فريق من الباحثين بإشراف الدكتور أنور عبدالمك، ط. دار ابن خلدون، بيروت. السنة ١٩٧١ ص٤٦.

الآثوريون من مخططاتها المشبوهة. ومن هنا كان نجاح الجيش العراقي في قمع التمرد الآشوري بمثابة انتصار على بريطانيا أدّى الى إفشال مشاريعها الهادفة الى تمزيق الوحدة الوطنية الإقليمية للعراق" (١٩)

لم ينوه الكاتب طبعاً بما ينير السبيل الى التعرف على أي مشروع من تلك المشاريع التي تهدف الى تمزيق وحدة بذل البريطانيون ما لم يبذله أحد قبلهم أو بعدهم على خلقها - بالقوة، بالكذب، بالمناورة، بالرشاوى، بكل شيء متصور يمكن استخدامه لخلق العراق الموحد.

والقسوة هي جريمة، واستخدام الجيش أساليب قاسية هي جريمة حرب، أياً كانت الجهة التي ارتكبت بحقها. فما الذي كان يدعو هذا المؤلف الى فرز نوعين من القسوة: نوع مُبرّر باستخدامه ضدّ الآشوريين ونوع يستوجب الإستياء والتعزير باستخدامه ضدّ الفلاحين العراقيين.

وربما ساعدني القاري على فهم ما رمى إليه المؤلف القومي من قوله بتعاطف الفلاح في الجنوب مع ذلك الجيش الذي جرد عليهم فأحرق قراهم ودمر مزرعاتهم وأهلك مواشيهم وعلّق أبناءهم على أعواد المشانق خلال انتفاضات ١٩٣٥-١٩٣٦ المسلحة. وبعضها كما هو معروف انتفاضات قام بها شيوخ الإقطاع بتحريض معارضي الحكم في بغداد، وإلا فيذكر لي اسم شيخ واحد أو رئيس عشيرة من هؤلاء فقد حيّاته أو حكم عليه بالموت أو صودرت أملاكه، أو فقد سلطانه.

كان من مقتضى سياسة بريطانيا ومصالحها أن تبقى الوحدة العراقية التي خلفتها متماسكة، ومن الخرق والجنون التصور بأن بريطانيا لو شاءت تمزيق هذه الوحدة المصطنعة في أي وقت للجأت الى أسلوب أكثر ضماناً وفعالية من اعتمادها على فئة صغيرة من شعب طريد ناله من الكوارث والبلايا ما لم ينله أحد من الشعوب خلال فترة لا تزيد عن ربع قرن.

صادرت بريطانيا حربة مليون كُردي في سبيل خلق هذه الوحدة، وقمعت ثوراتهم واحدة بعد الأخرى في سبيل المحافظة على هذه الوحدة. أفما كان من المنطق والأضمن أن تعتمد على هذا

(١٩) (دور الجيش العراقي في حكومة الدفاع الوطني والحرب مع بريطانيا في سنة) الدكتور فاضل البراك. (الدار العربية للطباعة - بغداد ١٩٧٩ ص ٨٤-٨٥). وهو بالأصل رسالة موسّعة نال بها صاحبها شهادة الدكتورية من معهد الإستشراق في موسكو. ذكر في مقدمة كتابه أن أستاذه المشرف لم يكن غير صاحبنا (كانتولوف)، مؤلف كتاب (ثورة العشرين العراقية التحررية) وقد نوهنا به. وبكيفية تحويره وتزوير نصوصاً استخدمها خدمة للفكرة التي أرادها. (كان البراك وقتاً ما مديراً للأمن العام في حكومة البعث الحالية، وقد تمّ إعدامه الحياة بأمر من صدام حسين القائد العام للجيش العراقي في العام ١٩٩٤).

الشعب المسلح برد حقه في تقرير المصير إليه، لو شاءت تمزيق تلك الوحدة التي يتحدث عنها مؤلفنا؟

ثم إن سمعة الجيش وكرامته إنما تصان عندما يترفع أفرادها عن ارتكاب الجرائم، بل بفضحتها والإقتصاص من فاعليها حين يتجاوزن الحد الذي قررته مبادئ الحرب والإتفاقات الدولية. وفي تخصيص المجرم منه والجناح من وحداته وتشخيصه يتم إنقاذ سمعة الجيش كلّ.

ولذلك لم يحط من قدر الجيش الأمريكي أو تصاب سمعته بسوء عندما سيق الضابط الذي أمر بمذبحة (ماي لاي) في فيتينام وحكم عليه بالأشغال الشاقة. ولا ترددت قيادته في تسليم ثلاثة من جنودها اتهموا باغتصاب فتاة يابانية الى القضاء الياباني. ومسؤولية الجيش كله في حالة تعدد كتمان جريمة ارتكبتها فرد منه أو وحدة من وحداته، هي مسؤولية تضامنية.

كان بوسع الحكومة العراقية مثلاً أن تنقذ سمعة جيشها وسمعتها هي بالذات لو أمرت بتحقيق قضائي حول حصد (٣٠٧) من النساء والأطفال والرجال الآشوريين العزل الموالين للحكومة، الذين اجتمعوا في قرية سيميل وسلّموا أسلحتهم طواعية - والقضاء عليهم بنيران المدافع الرشاشة والحراب. وعن أكثر من ثلاثمائة من القتول التي ارتكبت في ضواحي دهوك وشعاب بيخير بحق الآشوريين المستسلمين. بدلاً من إغراق الأمرين والضباط المشاركين بالأوسمة والترقيات والمنح المالية والخطب ومواكب النصر، وبتعيين الأمرين والضباط القائمين بتلك المذابح بمناصب أرفع يتم إنقاذ سمعة الجيش. فلا غرابة والحال هذه أن اتهمت وسائل الإعلام العالمية الجيش العراقي كلّ ولم يقتصر اتهامها على الوحدة المنفذة.

هناك مرجع قومي آخر أحدث عهداً لمؤلف عراقي ما أظنه قرأ كلمة واحدة عن أحداث آب ١٩٣٣ أو القضية الآشورية، وإنما اعتمد على ما روي له ونقلته الأفواه، فيه صور الأحداث وكأنها نزاع على منصب الملكية في العراق - إدعاه البطريك الآشوري لنفسه. وهذا ما كتبه نصاً:

"كان يرأس الطائفة الآشورية المار شمعون في ذلك الوقت. وكان يوجد داخل العراق لواءان من قوات الليثي الآشورية، التي دخلت العراق ضمن القوات البريطانية الغازية سنة ١٩١٧ ولم تخرج منه. وكانت بريطانيا تحاول أن تضمّ هذين اللوائين الى الجيش العراقي دون طائل حيث أبرمت معاهدة ١٩٣٠ دون أن تشير الى قوات الليثي.

بدأت حركة الآشوريين بإعلان العصيان في مدينة كركوك وأعلن المار شمعون

نفسه ملكاً على شمال العراق الذي أعلن فيه الدولة الآشورية، فاستدعاه رشيد عالي الى بغداد للتفاوض معه على أن يأتي معه حرسه ورجاله. وقد حضر بلباسه الديني باعتباره قسيساً. وحين التقى ورشيد عالي الكيلاني سأله الأخير عما إذا كان يعلم أن الملك فيصل الأول هو ملك العراق، وأن إعلانه لنفسه ملكاً هو تجاوز للدستور العراقي وعما إذا كان يعرف عقوبة ذلك التصرف. فأجاب أنه ملك الآشوريين وإنه لا يعترف بالدستور العراقي حتى يعترف بالعقوبات التي تترتب على مخالفتها. وقد قدم المار شمعون للقضاء الذي حكم عليه بالإعدام، غير أن الحكم لم ينفذ. وأطلقت القوات البريطانية سراحه بعد أن احتلت العراق في مطلع حزيران ١٩٤١ بعد فشل ثورة الكيلاني.

وغادر المار شمعون العراق الى سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة، حيث قتل هناك على يد أحد أعوانه. وكان قبل مقتله قد عاد الى العراق في زيارة قام بها في العام ١٩٧١ أو ١٩٧٢ حيث أعيد له اعتباره وأعيدت كنيسته. وأثناء اعتقال المار شمعون كانت قوات الليفي تستعد للهجوم على الموصل. فاتخذت القوات العراقية بقيادة بكر صدقي استعداداتها وركزت في خنادق حفرت في محيط المدينة. وكانت أوامر بكر صدقي أن لا يفتح الجنود المدافعون النار إلا بعد أن تصل القوات المهاجمة الى مسافة ٢٠٠ ياردة فقط من الخنادق، مما تسبب في مقتل جميع المهاجمين، ولم يبق منهم أحد ليقع في الأسر وكانت مذبحة حقيقية. ورغم الإبادة الكاملة لجيش الليفي، فإن الحكومة العراقية لم تتحرج بالآشوريين أبداً بعد المعركة كما إنها لم تنفذ حكم الإعدام في المار شمعون... (٢٠)

لا أعتقد أن هذا الكاتب ومن سبقه يتعمدون الكذب في الرواية. انهم يكتبون عن تعيين

(٢٠) (التاريخ لم يبدأ غداً: حقائق وأسرار عن ثورتي رشيد عالي الكيلاني في ٤١ و ٥٨ في العراق، بقلم الدكتور نجم الدين السهروردي: الطبعة الثانية - بغداد شركة المعرفة. الص ٣٢-٣٣). قدم المؤلف نفسه في مؤلفه الذي يزيد عن (٥٠٠) صحيفة، فقال إنه عميد كلية التربية الرياضية، والسكرتير الشخصي لرشيد عالي الكيلاني وواحد من أختائه والكتاب بجملة دفاع عن حميه. ما يلت نظر فيه هو الخطأ اللغوي الفاضح في عنوانه (ربما كان الكتاب الوحيد بالعربية الذي تميز بخطأ لغوي في العنوان) فقد جمع له حالتي الماضي والمستقبل لأن دخول حرف لم الجازم على الفعل المضارع - ينقله الى حالة الماضي، وكلمة الغد في العنوان تفيد المستقبل. وما أظن المؤلف إلا وقد تعمد هذا الخطأ وتقصده، إذ لم نعثر على مثله أو ما هو في درجته من الأخطاء اللغوية في سائر كتابه (وقد حفل بالسقطات اللغوية التي تشبع اليوم بين الكتاب مع هذا). وتحاليلنا هو أن كثيراً من الطبايع البشرية التي تتميز بالشذوذ - تأتي أحياناً بتصرف غريب بغية لفت نظر الآخرين إليهم، وعلى قاعدة "خالف تُعرف".

ونزعة قومية غلابة تسدّ عليهم مذهب التمحيص، والمراجعة ولايشعرون بحاجة الى النظر فيما سبق ودوته الآخرون عن هذه القضية أو تلك على إنني لا أنزههم قطّ عن الإستهتار بالقراء، واحتقارهم الى الحدّ الذي لايعودون معه يبالون بكم يملك قارئهم من القابلية على إدراك المعقول واستخلاصه من اللامعقول بتحكيم قوة المنطق والبديهية common sense.

ولو التمسنا لما كتبناه عن هؤلاء عذراً، فكيف نجد عذراً لذلك الذي نال شهادة الدكتوراه لرسالته الموسومة (الآثوريون في العراق). لم يجد في كلّ المراجع التي ادعى انه إعتمدها وقد استغرقت أسماؤها عشر صفحات في كتابه، الذي تزيد عدد صفحاته عن الخمسمائة - ما يقوله عن مذبحة سيميل غير هذه الفقرة:

"لعلّ أهم حدث في حركة الآثوريين ضدّ الحكومة العراقية في آب ١٩٣٣ هي حادثة سيميل. وكان معظم سكانها البالغين أكثر من (٧٠٠) نسمة من الآثوريين أما الباقون فكانوا من العرب. بعد مطاردة الجيش والشرطة لهم قاموا بإنشاء مواضع شمال القرية المذكورة لمهاجمة القطعات العراقية أثناء مرورها. فقامت الطائرات العراقية بالقاء النشرات عليهم مطالبة إياهم بالاستسلام غير أنهم لم يستجيبوا لذلك. ولهذا فقد حاصرت في ١١ آب قوات من الجيش والشرطة والعشائر هذه القرية. فتصدّى لها الآثوريون وأطلقوا عليهم النيران وكانت الأعمال التي قام بها الآثوريون في معارك (!) ديره بون وقيامهم بالتمثيل بجث بعض القتلى من الجيش وإحراق بعضهم الآخر، قد تركت انطباعاً سيئاً عنهم لدى القوات والعشائر العراقية. ففعل الحقد في قلوبهم وتشوقوا لساعة الثأر والإنتقام، كما أن مواقف (غازي) المتصلبة مع الإنكليز شجعت بكر صدقي على انتهاز هذه الفرصة. فأمر الجيش باستخدام القسوة والعنف معهم، ودارت معركة رهيبه! مع الآثوريين في سيميل استمرت حتى المساء مارس خلالها الجيش والعشائر أساليب لا إنسانية معهم، فقتل منهم أكثر من (٤٨٠) رجلاً و(٦) نساء و(٤) أطفال كما قتل من العشائر (١٥) رجلاً وجرح ما يقارب العشرين منهم أيضاً. ولم يخسر الجيش أحداً في المعركة وقامت العشائر بعد ذلك بنهب بيوتهم وتدميرها" (٢١)

(٢١) رياض رشيد ناجي الحيدري (مدرس مساعد في كلية القانون والسياسة - جامعة بغداد): (الآثوريون في العراق ١٩١٨-١٩٣٦ القاهرة ١٩٧٧، الص ٣٦٥-٣٦٦).

والطريقة التي ابتكرها هذا الكاتب لرواية المسألة لانستغرب في أنه أهمل إسناد أي جزء منها الى مرجع واحد من المراجع التي أثبتتها في عشر صفحات من الكتاب، ومن بينها كتاب (ستافورد) وقد نوه بالرجوع إليه في أماكن من كتابه لا تحصى، بل ولم تحظ منه روايات الآخرين بأي مناقشة أو تعليق. وهو الذي ما كتب في كتابه سطرأ أو سطرين إلا ودون مصدره أو أشار إليه.

كان الرأي العام العراقي في حينه يجهل تماماً ما حصل، فقد ضربت الحكومة والجيش حصاراً محكماً وتتابع الأحداث بتكنم مطلق، وبقيت الصحافة المحلية تجهل حقيقة ما حدث في بيخير وسيميل. ومصدرها الوحيد هو البلاغات الرسمية ومزاج الأهالي الذين شحنوا في المدن شحناً متقناً ولم يكونوا بحاجة كبيرة للتحريض، بسبب من آثار الماضي.

ولذلك كان رد فعل الصحافة العراقية عنيفاً جداً على ما راحت تكتبه وسائل الإعلام الأوروبية عن المذابح، بعد أن تسربت أنباءها تفصيلاً<sup>(٢٢)</sup>. كان الصحفيون العراقيون يرون فيها محض اختلاق وتجن على العراق ولذلك وجدوا من واجبه أن يتصدوا، ولا عجب فهناك برقيات تأييد وثناء من الأصناف، من علماء الدين: مسلمين ومسيحيين ويهوداً، من رؤساء العشائر والطوائف المذهبية من الجنوب والشمال والشرق والغرب تنهال على تلك الصحف في بغداد فتنتشرها بعناوين مثيرة كبيرة.

سأتجاوز عن تقديم عينة مما كتبه الصحف القومية، وأختار بدلاً منها تلك الجريدة التي عرفت بالدقة والإلتزام والإتزان، وتحرري الحقائق. وأقصد بها الصحيفة التي كان يصدرها جماعة الأهالي<sup>(٢٣)</sup>، وهم يمثلون في حينه الفكر الديمقراطي التقدمي. وفيهم نظريون

(٢٢) في الصحيفة الأخيرة من كتاب (طريق في كردستان من ترجمتنا إلى العربية: بغداد - دار العروبة للنشر، يذكر مؤلفه (هاملتون) المهندس الذي شق طريق أربيل - أومران. إنه كان يسير في شارع فكتوريا بلندن مستعيداً لنفسه ذكريات أيامه بين الكرد والأشوريين: أخرجني من أحلامي بائع صحف بلوحة عناوينه المثبتة على سياج حديدي. وهو يصرخ منادياً على بضاعته. فابتعت صحيفة ورحت أقرأ العناوين البارزة: "مذبحة للأشوريين، ٣١٥ ضحية تم العثور عليها. الأسرى يرديهم رصاص الجيش. مذبحة للأشوريين قرب بلدة سيميل الصغيرة شمال الموصل بمسافة ٤٠ ميلاً. القرى غاصّة بالنساء والأطفال أسلمهم الرب إلى الجنون. ١٤ أسيراً آشورياً يقتلون صبراً".

(٢٣) مالبثت الجريدة في ١٩٣٦ أن صارت لسان حال جمعية الإصلاح الشعبي. ومؤسسها الحقيقي هو الأستاذ عبدالفتاح إبراهيم وكان ماركسياً أصيلاً. وقد عرفته شخصياً وربطتني به صلة وثيقة، مثلما عرفت وربطتني بقطب آخر من أقطابها هو محمد حديد أحد تلامذة المفكر الإشتراكي الكبير هارولد لاسكلي. وكذلك الأستاذ عزيز شريف أقربهم صلة. دامت علاقتنا حتى وفاته في ١٩٨٩. وابتدأت منذ أن قمنا بتأسيس حزب الشعب في ١٩٤٦ مع زملاء آخرين.

أشتراكيون وماركسيون وديمقراطيون. خلفوا آثاراً لا تمحى في الفكر العراقي وفي عالمه السياسي.

ركبت سفينة (الأهالي) الموجة العالية الكاسحة التي أثارها حكومة الكيلاني القومية (كما لقيت بعدها) ضدّ الآشوريين، وسبقت جريدة (الإستقلال) لسان حال القوميّين العراقيين في حينه الى حدّ ألجأت تلك الحكومة الى تعطيلها فترة بسبب ذلك.

في ٢٥ من حزيران ١٩٣٣ ظهر عددها المرقم (٢٠٥) موشحاً بمقال رئيس عنوانه (الآشوريون والحليفة) ومنه:

"إن المشكلة الآثورية كانت نتيجة عهد قطعته بريطانيا للآشوريين على حساب العراق... إن الموقف الأخير (لمارشمعون) لا بد من أن يواجه بكل حزم، وأن تُمنع بريطانيا من التدخل في هذه الشؤون وأمثالها مما عودنا الإنكليز التدخل لغير صالحنا. إنهم لا يتعاونون معنا على ما يوافق مصلحة العراق، بل إن مداخلتهم إنما لتوطيد نفوذهم وإبقاء سيطرتهم علينا. يجب علينا أن نفهم الحليفة إنها لذلك وقفت موقفاً لا يتفق ومصلحة سكان البلاد، وإنها إذا ظلت تنمادى في غرس النعرات الدينية والطائفية والعنصرية في بلادنا، فإن ذلك يدعونا الى جعل مصالحها في خطر"

مما يلفت النظر هنا أن الوعد الذي قطعتة بريطانيا للآشوريين (لو اعتبرنا نصوص معاهدة سيقر وعداً) لم يكن على حساب أحد، وبالأخص على حساب العراق، إذ لم يكن ثم بلاد تسمى بالعراق في كتب الجغرافية والخرائط الدولية. وبطبيعة الحال لم يكن قاريء الجريدة في حينه يدري بهذه الحقيقة. لكن كاتب المقال، أماكان يدري؟

وفي ٢٩ من تموز ظهر عددها المرقم (٢٣٣) بمقال رئيس إثر خروج المسلحين القسليين الآشوريين الى سورية وفيه:

"إننا نحمل بريطانيا ما قد يحصل للآشوريين. إننا ننصح هذه الفئة (المقصود الآشوريون) نصحاً حقيقياً لا نصحاً رسمياً ظاهرياً - بأن ينتزعوا من نفسيتهم هذا العداء الذي يحملونه لأهل البلاد، وأن تُقطع كل صلة بهم (أي الذين عبروا الحدود) سواء كان مباشراً أو غير مباشر وإلا ستجرّ عليهم هذه النفسية أكثر المصائب والويلات!"

ولم تكن الجريدة تعلم أن أكثرية الآشوريين وبضمنهم (٣٠٧) ضحية قطعوا صلّتهم بأولئك

المسلحين وأعلنوا تضامنهم مع السلطة وسلموا أسلحتهم؟ إلا أنها دأبت على تحميل البريطانيين المسؤولية الرئيسية. ففي اليوم التالي ٣٠ تموز (وبعده في ٤ آب) أشارت الى أن: "بريطانيا هي وراء الإعتصاب الآشوري وإنها المحرّض الأكبر المسؤول. والغاية هي زيادة الإضطراب وخلق المناخ المواتي لإحكام نفوذها وسيطرتها على مقدرات البلاد"

كان هذا أكثر مما يطيقه السفير البريطاني، فبعث باحتجاج رسمي شديد اللهجة الى الحكومة في ٢ من آب، فأندرت الجريدة. وكان ردّ الجريدة على الإنذار يتضمّن واقعاً لاينكر وحقيقة لا مراة فيها:

"أما غيرنا في المقالين اللذين أنذرتنا الحكومة من أجلهما عن الإعتقاد الراسخ في عقل الناس وعن الشعور العميق الكامن في قرارة نفوس العراقيين عن وضع بريطانيا في العراق"

كانت الأهالي تقضي فترة التعطيل أيام ١١-١٢ من آب. إلا أنها واصلت فور استئناف صدورها نهجها السابق في الحديث عمّا نعتته بالمشكلة الأثورية. وفي أعداد متتالية كثيرة، أثنت من خلاله ثناءً كبيراً على "الإنتصار العظيم" الذي حققه الزعيم (العميد) بكر صدقي ونجاحه "المنقطع النظير" في تأديب الآشوريين "والقائه عليهم درساً لن ينسوه". ووصفت في تقارير ضافية إستقبال بكر صدقي وحكمت سليمان. ونشرت في عددها المؤرخ ٢٥ من آب ١٩٣٣ نصّ الخطاب الذي القاه أولهما في الموصل.

وفي العدد المؤرخ في من أيلول ظهر مقال رئيس عنوانه "الإنتصار" أوصت في ختامه بهذا: "يجب أن يُستكمل هذا الإنتصار بعمل سياسي وإعادة النظر في جوهر المشكلة كيلا ينقلب الإنتصار العسكري الباهر الى فشل سياسي سريع"

والترجمة العملية لهذه القطعة من النصيحة لا يخرج من أن يبقى موقف الحكومة العراقية كما كان منذ البداية وأن تستقل بنفسها بالحلّ الآشوري ولاتدع البريطانيين يتدخلون في قراراتها.

وبقيت الصحيفة كسائر الصحف العراقية تنكر بصورة قاطعة وإلى الأخير حصول أي تجاوز وخرق للقانون أو ارتكاب الجيش أي مذبحه - وعلى هذا الأساس تعرض (ياسين الهاشمي) الى نقد لاذع منها في العدد (٣٠٠) الصادر في ٤ من تشرين الثاني بسبب الخطاب الذي

القاه في عصبة الأمم معترفاً بالمذابح فيه فقالت:

"إنه يعترف بجرائم وهمية لا حقيقة لها إلا في أذهان أعداء العراق. لم يحصل شيء من هذا القبيل وإن الجيش العراقي قام بواجبه الملقى على عاتقه خير قيام بضباطه وجنوده. إننا نشجب بشدة ما جاء في خطاب مندوب العراق في العصبة ونعتبره إهانة للحكومة والجيش والشعب العراقي" (٢٤)

المسألة المحيرة في موقف الديمقراطيين هؤلاء، هي أنهم ظلوا يصرون على أن يجعلوا بريطانيا وسياستها وراء عمل أخرق تلقائي دافعه الخوف من مستقبل غامض أو مجهول. ومن

(٢٤) من آثار هذا الدفاع الحار عن مسلك الجيش والثناء الذي خصّ به حكمت سليمان وبكر صدقي. أن نشأت علاقة تعاطف بين هذين وبين جماعة الأهالي (يذكر الجادجي عن لقاء أول تمّ بينه وبين بكر صدقي بتوسط حكمت سليمان). وكانت الجماعة آنذاك قد توصلت إلى النتيجة، وهي إن الوسيلة الوحيدة الكفيلة بتغيير الوضع السياسي - هي استخدام الجيش وهي غلطة كانوا سيدفعون ثمنها الغالي، قذفت بالبلاد في أتون الانقلابات العسكرية المتتالية. مطوّحة بكل ما بقي من آثار باهتة للحكم الديمقراطي. في تلك الأيام كانت الأهالي رغم رداء التقدمية الشفاف الذي ترتديه - ذات اتجاه قومي واضح لا يميزها كثيراً عن الصحف التقدمية الأخرى. رغم وجود عناصر ماركسية كثيرة انحازت فيما بعد إلى التنظيمات الشيوعية. ويغلب على الظن إن كتاب تلك المقالات اللاهبة اتخذوا المحنة الآشورية بالأصل ذريعة - لا هدفاً. ليهاجموا بها النفوذ البريطاني هجوماً عشوائياً، متخلين عن النقد الذي أدبوا على توجيهه للسلطة بشأن مصانعتها البريطانيون وبمواقفها من المشاكل الاقتصادية والإجتماعية. حتى هبت العاصفة الآشورية لتكتسح (الأهالي) كما اكتسحت غيرها من الصحف وأخرجتها عن وعيها.

في العام ١٩٧٤ ضمنتني وعزیز شريف في كردستان داراً واحدة وقضينا معاً أياماً معدودات وهو آخر لقاء بيننا. وكنت آنذاك أؤدرس القضية الآشورية وبين يدي ترجمتي لكتاب ستافورد. كان عزيز شريف أيامها ولدة معينة صاحب امتياز (الأهالي) ومن جماعتها. فسألته معرباً عن استغرابي لموقفهم المتسرع الخالي من الرزانة - وحول مدى معرفتهم بتفاصيل المذابح التي جرت في حينه مستنجداً بعقليته القانونية. وأنا أنكر جيداً جوابه، قال ما خلاصته: "إنهم لم يكونوا يدرون شيئاً عن تلك المذابح. ومن صديق العصبة حكمت سليمان وزير الداخلية علموا فحسب أن بعض القرى أحرقت وإن كل شيء هو على ما يرام ولم يحصل تجاوز. وإنهم كانوا يشاركون في مناقشة المقال الرئيس قبل نشره. وقال إن حسين جميل كان مسؤولاً عن كتابة معظم المقالات في تلك الفترة وهو قومي الميول، لم يكن هناك مجال لاتخاذ موقف معتدل بسبب الأبناء عن جث الجنود والضباط العشرة المحترقة المشوهة. كانت تهمة التعاون مع بريطانيا في انتظار من يناقش مدعيات الحكومة. أو ينظر إليها بالأقل من الشك". وهكذا كان موقفهم من الأول وإصرارهم عليه الى الأخير. فمما نذكره أنها راحت تنشر تباعاً (العدد ٢٧٤، تشرين الأول وما بعده) (الكتاب الأزرق) الذي وضعتة الحكومة حول المشكلة الآشورية. وتوجهت الى الملك غازي وقد أصبحت أفعاله الشاذة وتخلفه العقلي على كل شفة ولسان في الدوائر السياسية - بجارات متبذلة غير لاقئة بمكانتها: "توجت يا صاحب الجلالة ملكاً على العراق وأنت نائل حبّ الشعب في موقفك الأخير الذي وقفته بتصلبك تجاه الدساسس الإستعمارية، فلنا وطيد الأمل أن تحتفظ بثقة الشعب وأن تعمل بموازته في تحقيق أمانيه" (العدد ٢٥٦ في ٩-٩-١٩٣٣).

عهود مقطوعة مثبتة دولياً تقدم بها عضو جديد في الأسرة الدولية. وأي حدٍ كان يبلغ بهم تجاهل استماتة بريطانيا في خلق هذا الكيان السياسي - إن لم يكن لغرض نبيل فلأن مصلحتها اقتضت ذلك. كم كانت وحدة هذا الكيان المتعدد الجنسيات والطوائف والمذاهب ضرورية لاستراتيجية الإمبراطورية وضمان امتيازاتها النفطية فيه؟ كم كان منطقياً وحتماً بالنسبة لبريطانيا أن تبعد نفسها عن المشكلة الآشورية وتتخلى عنهم وتتركهم لمخاوفهم وهمومهم؟ كيف أمكن لهؤلاء الناضجين عقلياً أن ينساقوا دون تحفظ وراء الأكذوبة المفزوعة التي روجتها حكومة الكيلاني القومية حول نية البريطانيين استخدام الآشوريين في زعزعة نظام أقامته هي ودافعت عن استقلاله أمام عصبة الأمم. بقليل من التفكير كان يمكن التوصل إلى فساد هذا التقويم.

فبريطانيا، كأى دولة كبرى ذات مصالح حيوية ونفوذ كبير في بلد صغير كالعراق لم تكن مستعدة لوضع تلك المصالح وذلك النفوذ موضع خطر في مواجهة الأكثرية، بمساندتها دعوى فئة صغيرة لا وزن سياسي لها ولا أثر في أن تكون عنصر تهديد لمصالحها تلك. وبعكس ذلك، فقد كان من حسن السياسة والتدبير أن تنأى عن المشكلة ما استطاعت وقد فعلت ذلك. إلا أنها لم تكن تحسب في كل هذا حساباً للحماقات والتهور من نغر بلغ من السذاجة وقصر النظر السياسي حداً خيل معه لهم أن خدمتهم في الجيش البريطاني ودفاعهم عن مصالحه ستعينهم في إطلاب ضمانات لمستقبلهم الغامض، واكتساح موجة العداة والتأليب التي نجح القوميون في إغراقهم بها وجرهم إلى الحنفة المهلكة.

في العام ١٩٨٦ قال (عبدالفتاح إبراهيم) مؤلف كتاب جماعة الأهالي (٢٥):

"كنا ننظر إلى الآشوريين منذ البداية على أنهم رتل خامس" ونقل المؤلف نفسه عن (محمد حديد) قوله: "إن تأييد جماعة الأهالي لموقف الحكومة من القضية الآشورية لا يعود إلى كون الآشوريين أقلية، بل لأن توطينهم في شمال العراق بعد الإحتلال البريطاني كان مشروعاً إستعمارياً مؤيداً من قبل الإنكليز بقصد إيجاد عنصر بلبلة في المنطقة والتدخل والسيطرة على منطقة النفط في الموصل" (٢٦)

(٢٥) فؤاد حسن الوكيل، جماعة الأهالي في العراق ١٩٣٤-١٩٣٧، الطبعة ٣، بغداد، ص ٢٩٦، (الناشئة).  
(٢٦) تشير الوثائق البريطانية والعراقية (كتب رسمية متبادلة) إلى أن الحكومة العراقية طلبت في ٥ آب ١٩٣٣ من السلطات البريطانية تزويد الطائرات العراقية بالقنابل لإلقائها على الآشوريين العائدين من الأراضي السورية، فاستجابت. وقام بتحميل الطائرات تلك القنابل - أفراد من الليفي الآشوري في مطار الموصل وهو قاعدة بريطانية. (أنظر ستافورد). كان الآشوريون والكرد قد نظموا عرائض حملتها وفود إلى كل =

ونقل المؤلف أيضاً عن (عبدالقادر إسماعيل) مؤسس جريدة (الأهالي) وعضو اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي العراقي فيما بعد قوله: "إن الآشوريين حرّضهم الإستعمار البريطاني على ضرب حركة التحرر الوطني وخدمة مصالحه الإستعمارية" وكل هذه الأجوبة من هؤلاء الخبراء بشؤون العراق تنم عن تجاهل متعمد لكيفية تكوين العراق السياسي. ويتجنب هؤلاء الديمقراطيون أو اليساريون الماركسيون التقدميون ذكر المذبحة في محاولة إلباس القضية رداءً سياسياً عمومياً، ويسقطونها عمداً من كتاباتهم وتصريحاتهم اللاحقة كما رأينا. وهم يلتقون مع القوميّين العروبيين في إنكارهم البات حصول ما اعترف مندوب العراق به أمام عصبة الأمم.

وانصب اهتمام جريدة (الأهالي) بالجيش إلى الحد الذي جعلها تنادي مع المنادين بوجوب الإسراع في تلبية المطلب الشعبي: إصدار قانون الخدمة الالزامية: (٤ من أيلول ١٩٣٣):

"من الضروري الإستجابة إلى مطالب الشعب بإصدار قانون الخدمة الالزامية كيلا نفسح المجال للمستعمرين<sup>(٢٧)</sup> بالتشكيك في مقدرة الجيش على حماية أرضه"

إلا أن جريدة سرية بدأ الحزب الشيوعي العراقي يصدرها في العام ١٩٣٥، باسم (كفاح الشعب) نوّهت في عددها الثاني بمناسبة الذكرى الثانية للإصدار، بالقسوة التي مارسها ضباط الجيش العراقي في معالجة القضية الآشورية وانتقدت ذلك بشدة مثلما انتقدت موقف

= من عصبة الأمم والحكومة البريطانية، أعربوا فيها عن قلقهم بسبب إلغاء الإنتداب الوشيك. وعن مطالبهم بنوع من الإدارة الذاتية قبل إعلان الإستقلال. مذكرين بالشرط الذي بُني عليه ضم ولاية الموصل إلى العراق، بإبقائه تحت الإنتداب لمدة خمس وعشرين سنة، كما أوصت لجنة عصبة الأمم بذلك. لكن بريطانيا كانت قد بنت سياستها الأخيرة على بناء وحدة سياسية من العراق وعلى صيانتها بأي شكل كان ذلك. وكان ردّها على الوفود وعلى عرائضهم رداً حاسماً وبناتاً قوياً "يبلغ الوفود أنه لا يمكن الإخلال قط بالنظام السياسي في العراق، ولا يمكن أن يعطى هؤلاء ما طلبوا". وفي آخر مذكرة قدمها الآشوريون إلى عصبة الأمم جاء هذا الرد البريطاني أنقله هنا نصاً: "إنهم خلافاً لما ذكر - راضون بعد أن نال العراق استقلاله ودخل عضواً في عصبة الأمم، وليس ثم حاجة تدعو بعد (اذن لأي تمييز خاص تحظى به أقلية دينية أو قومية). (أنظر الباب الثالث والرابع من الكتاب)، تزيد عمّا كان قد اتخذ له ضمانات في الماضي ذات صفة عمومية أخذت في الماضي من مرشحين آخرين لعضوية عصبة الأمم". ويؤكد عبدالفتاح إبراهيم نفسه في كتابه: (على طريق الهند، ١٩٢٥) أهمية الوحدة العراقية سوقياً واقتصادياً لبريطانيا في أماكن كثيرة. وهذا موطن العجب!

(٢٧) كلمتا الإستعمار والمستعمرين بقيتا شائعتين في ميدان الكتابة بعد استقلال العراق رسمياً. فقد كان الكتاب واللساسة المعارضون يرون المعاهدة استعماراً مقنعاً. وإن النفوذ البريطاني الجزئي بعد هذا كان ينظر إليه بمنظار الإستعمار.

البطريك الآشوري. ودعت الأعضاء والمؤازرين الى الإنخراط في صفوف الجيش بغية خلق عناصر ثورية نظيفة مناهضة للإستعمار والتخلف.

\*\*\*

كان هناك إجماع إعلامي على وجوب سن قانون الخدمة الإلزامية. فأسّرت الحكومة بالاستجابة الى مطلب الشعب هذا، الملحّ العاجل الذي لم يبق هناك موجب لتأخيره، سيما وإن "هزيمة الآشوريين وإنتصار الجيش هما اللتان أدتا الى المطالبة المستمرة به" (٢٨)

وعلى أية حال كانت فكرة "الديمقراطية الليبرالية" عند جماعة الأهالي وفي كل ما وصلنا من آثارهم القلمية - فكرة غامضة، عبّروا عنها باصطلاح "الشعبية" وهو يقابل لفظة (Popularisme) الفرنسية بأفضل الاحتمال. وفي الكراس الذي نشرته الجماعة بهذا العنوان بوصفه المبدأ الذي تسعى اليه، وردت كلمة الديمقراطية عرضاً عند التطرق الى علاقة الفرد بالدولة هكذا: «أن تكون من حيث علاقة الأفراد بها دستورية ديمقراطية» (٢٩)

ولهذا لم يجد دعاة الإصلاح (الديمقراطي تقريباً) هؤلاء أي تناقض يربط مصير حركتهم برجل معجب الى حدّ الوله بالدكتاتور أتاتورك وما حققه من نهضة لبلاده ودون تبصر في حقيقتها ونزعتها الدكتاتورية، باعتبار الحركة النازية حركة نهضة مفيدة لا لألمانيا وحدها، بل للعالم أجمع.

وضع آمالهم بالإصلاح عن طريق إنقلاب عسكري يقوم به بطل إنتصار الديره بون العظيم. أيد هؤلاء "الشعبيون" فكرة توسيع الجيش، وساهموا بالإنقلاب العسكري الذي تمّ بفضلهم لتجنيبهم منه اللطمة التي لم تُبق في فكوكهم ضرساً سليمة واحدة.

زرعوا بذرة شعبيتهم في تربة غير صالحة وبين أشواك لم تكتف بإعاقة نموها، بل خنقتها ولم تكد تخرج شطناً لها وفرّقهم الجيش وانقلابه العسكري العتيد، فربط بعضهم مصيره بالطبقة الحاكمة وصار فيها قطباً، وألقى بعضهم نفسه في خضم الحركة الماركسية المتنامية والحزب الشيوعي فتزعموا وقادوا. وآثر بعضهم السلامة بالإنسحاب التام من النشاط

(٢٨) من كتاب الآشوريين، المرجع السالف، ص ٣٨٤. وهي عبارة عبرت عن الشعور السائد آنذاك أصدق تعبير.

(٢٩) كان هذا ما ذكره عنه كامل الجادرچي. نقلا عن (فؤاد حسن الوكيل) (المرجع السالف). بقي الجادرچي إلى آخر حياته أميناً على مثله في الديمقراطية، إذ كانت دروس ١٩٣٦-١٩٣٣ كافية بالنسبة إليه على ما يبدو.

السياسي. وعندما أتيح للبقية الباقية فرصة العمل السياسي العلني، ظهوراً ببرنامج ديمقراطي واضح لكن بعد فوات الأوان وضياح الوقت. كانوا أعجز وأضعف من أن يقاوموا التيار القومي الشوفيني الذي غدّى العروبية بالنظريات النازية والفاشية العنصرية أو طغيان الحزب الواحد، أو الدكتاتورية العسكرية والمدنية. وقد بدت الغالبية منهم فيما بعد كلقوميين، لا تحارب دكتاتورية، بل تحارب دكتاتوراً.

ولنقرأ الآن بالمقابل نتيجة غير سارة لهؤلاء المؤمنين بتعليهم، وهي للسرّ أنرولد توينبي المؤرخ الداوي السمعة الذي كثيراً ما يستشهد الكتاب العرب بأرائه الثمينة وهي حصيلة التأمل العميق والحياد التام. إن لهذا المؤرخ الكبير رأي حول ما حصل في آب ١٩٣٣ أنقله نصاً:

"في الواقع حزمت الحكومة البريطانية أمرها بسرعة خاطفة بعد المذبحة (الآشورية)، فأرست سياستها لا على الإمتناع عن القيام بأيّ تدخل لصالح الآشوريين في العراق فحسب، بل على مساعدة العراق في الظهور في جنيف (عصبة الأمم) بأفضل وجه مقبول حول الوضع.

ومن المحتمل جداً أن إرساء البريطانيين على هذا القرار، كان يمليه عليهم مقاصد وغايات أخرى، فوق حرصهم على اجتناب مآزق حصول المزيد من المذابح للآشوريين ولغيرهم من الأقليات المسيحية في لواء (محافظة الموصل). فمن المعلوم إن للحكومة البريطانية وبعض البيوت التجارية العظيمة النفوذ كثيراً من المصالح في العراق يحرس الجانبان على بقائها وصيانتها، وكذلك كانت الحكومة البريطانية ترغب في الإبقاء على قواعدها الجوية في الأراضي العراقية لأنها حلقات وصل في سلسلة من خطوط جوية تمتد من الجزر البريطانية حتى الهند وأستراليا. كذلك كانت شركة النفط العراقية تحرس على سلامة استغلال امتياز التنقيب الذي نالته من الحكومة العراقية والإفادة منه.

في القرن التاسع عشر كانت مصالح وإعتبارات كهذه تدفع الحكومات البريطانية الى الوثوب لانتهاز الفرصة التي تتيحها لها أمثال مذبحة سيميل، لإتخاذ سياسة معاكسة لسياسة العام ١٩٢٩ أو ربما لسياسة العام ١٩٢٠، تنذر بها لتقوم فعلاً بضمّ العراق الى الإمبراطورية. إلا أن هذا النوع من الإمبريالية يتطلب استخدام قوة عسكرية. وفي العام ١٩٣٣ لم تكن هذه القوة ميسورة للحكومة



الدموية. فلقد تجاوز كل الحدود بل تجاوز حتى على مصير أبيه في حملته على الثائرين وإن شئت فالمتمردين، حتى بلغت حد الإغتصاب للنساء فيها. أن يضطر هذا الإبن الوحيد وولي العهد الجديد أباه المريض الى قطع المسافات البعيدة بين سويسرا وبغداد محاولاً أن يخفف ما استطاع ولكن بعد فوات الآوان - من وطأة هذه المغامرة الجديدة أولاً، والتخفيف من الضغط العالمي، ولاسيما ضغط بريطانيا وسفارتها التي كان لها في هؤلاء التيساريين مما يسمّى بالليفي خيرة الجنود والضباط الأقوياء بكل معنى القوة"<sup>(٣١)</sup>

\*\*\*

والواقع أن من جنى على التجربة الديمقراطية هو الموقف الذي اتخذته الشعبيون الدستوريون ابتداءً من أحداث آب وانتهاءً بتصفيتهم وتصفية جمعيتهم على يد الدكتاتور العسكري بكر صدقي. وبمساهمتهم الفعالة في انقلابه وقعوا بسذاجة غريبة شقت على الفهم ضحية يأس مبتسر من التغيير ونبذوا الطريقة الديمقراطية الليبرالية، وسمّوها إن شئت بالتقدمية، حين آل بهم الى الإرساء على ما توصل إليه القوميون فيما بعد ومارسوه عملاً وفي كل حين - وهو أن التغيير لا يمكن أن يحصل بغير إنقلاب عسكري يقوم به ضباط الجيش "الأشواس". وكأني بهم وقد فقدوا الثقة بالمباديء التي دعوا إليها قبل فقدانهم الثقة بأنفسهم، الثقة بمقدرتهم على توجيه الشعب والرأي العام توجيهاً ديمقراطياً وطنياً. وبقيتهم التي فضلت بعد انشعابهم بقيت ضعيفة لا تقوى على الصمود أمام تيار العروبية ولم تستنق قط من صدمة الإنقلاب العسكري.

ركبت جمعية الإصلاح الشعبي موجة ذلك الإنتصار الصغير التي دفعت بها عاصفة التآليب الحكومية، ونادت بوجود سنّ قانون الخدمة الإلزامية فوراً، فالوطن في خطر. ومرّت اللاتحة مرور البرق بعد أن تراكم عليها تراب سبع سنين والفضل يعود لمعركة الديره بون الفاصلة طبعاً، لا بل مذابح سيميل وبيخير ودهوك.

في العام ١٩٣٤ وقت تشريع القانون وفي العام ١٩٣٥ عندما وضع موضع التطبيق، كانت نسبة المتعلمين في العراق كما ذكرنا سابقاً لا تزيد عن ٨,٢٪ من مجموع السكان العام<sup>(٣٢)</sup>

(٣١) محمد مهدي الجواهري (ذكرياتي، ج١، ص٢٩٥، دمشق). (ما في الأقواس هو من وضعنا).  
(٣٢) عبدالرزاق الهلالي، معجم العراق، ج١، ص٢٦٧، بغداد مطبعة النجاح. قال: "لم تزد نسبة عدد المتعلمين في العراق عن ٨,٢٪ من مجموع السكان، وبلغ عدد المعلمين والمعلمات في العام ١٩٣٣ زمن الإستقلال =

البريطانية. ذلك لأن الناخب البريطاني ودافع الضريبة البريطاني ما عاد يرى جدوى أو سبباً وجيهاً لممارسة السلطان السياسي على البلاد الشرقية. وهما (أي الناخب ودافع الضريبة) ما قبلوا بأن تتسلم بريطانيا مسؤولية الإنتداب على العراق إلاّ بسبق إدراكٍ ضمّني بوجود التخلي عن هذه المسؤولية والتخلص منها في أول فرصة تعنّ له. وإن هذا الإنتداب يجب في الوقت نفسه أن لا يورط الناخبين الذين يقررون شكل الحكومة في المملكة المتحدة، في أي مسؤولية محتملة، أعسكرية كانت أم سياسية أم مالية؟ وعلى هذا الأساس يمكن أن يستنتج المرء بأن مقتل عدد من الآشوريين قدر بين ٦٠٠ و ١٠٠٠، لا يمكن أن يعتبر بحسب الرؤية البريطانية من قبيل الاضطرابات الداخلية الكبيرة"<sup>(٣٠)</sup>

وكان من نصيب هذه المأساة الوطنية العظيمة الآثار، أن تزور أحداثها طوال خمسة وخمسين عاماً لتجد بالآخر عربياً واحداً يقول فيها ما يجب أن يقال وما لزم أن يتبناه عنها تأريخ العراق. يتحدث (الجواهري) عرضاً عنها. وهو يتطرق الى وفاة الملك فيصل:

"... وبعد هذا كله وربطاً للتأريخ ومن جديد أيضاً، فقد كانت اليد الطولى في التعجيل بمصيره (الضمير يعود لفيصل) الأخير، لولي عهده حينذاك، أي الأمير غازي. فخلال سفرته الى سويسرا كانت حركة التيساريين وهي حركة آثورية لها أسبابها ومقدماتها، كما لكل الأقليات الأخرى في العراق من أسباب ومقدمات وبطبيعة الحال فتتأجج. ولكن وبصورة أخص فقد كان لهذه الحركة صداها العالمي الذي أضرّ بسمعة العراق وذلك بما كان من شدة بطش القائد العسكري بكر صدقي شبيهه السقّاح (يقصد تشبيهه بالخليفة أبي العباس الملقب بالسفاح) والذي استغوى وليّ العهد الغرّ بمعونة المغامر الآخر حكمت سليمان واللذين ظلّا طوال أربع أو خمس سنوات يستغويانه حتى يوم إنقلاب بكر صدقي هذا وشريكه ذاك وما جرّه من ذيول لسنوات عدّة. لقد أراد بكر صدقي وتحت ستار الوطنية المتطرفة، والتي كان ولي العهد الجديد غويّاً كلّ الغواية بها حتى وإن كانت على حساب أبناء وطنه - أن يبرهن له على مدى كفاءته وقدرته لأداء مثل هذه المهمة

(٣٠) أرنولد جوزيف توينبي Arnold Joseph Toynbee (1889-1975) تقويم للشؤون الدولية Summary of the International Affairs، أوكسفورد، ١٩٢٤، ص١٦٦. يعد واحداً من أعظم المؤرخين للقرن العشرين. أهم وأشهر كتبه (دراسة للتأريخ A Study of History) يقع في اثني عشر مجلداً، أنجزه خلال (١٩٣٤-١٩٦١) وفيه يقسم تأريخ العالم الى (٢٦) حضارة، ويحلل قيامها وسقوطها على أساس دورة "التحدي والإستجابة" - (ما بين الأقواس من إضافتنا).

ويدخل في هذه النسبة كل الطلاب والتلاميذ الذين لم يبلغوا الثامنة عشرة (سن الخدمة العسكرية)، وهم وسائر الموظفين الحكوميين المنضوين أو المؤجلين غير خاضعين للخدمة. ويدخل في النسبة أيضاً المستخدمون في مصالح تجارية وإقتصادية خاصة ورجال الدين والعلماء وطلبة المعاهد المعفوون من الخدمة.

فإن أخرجنا هؤلاء (ما عدا المستخدمين الأهليين الخاضعين للخدمة) فقد لانجد واحداً بالالف من بقية السكان ملمماً بالقراءة والكتابة، ومن بين هؤلاء قد لايزيد من تصلح سنه للخدمة الإلزامية عن ٣ أو ٤ بالمائة.

ثم إن القانون كان عظيم التسامح بأخذه بكثير من مبادئ قانون التجنيد الإلزامي العثماني للإعفاء من الخدمة فضلاً عن رجال الدين وتلاميذ معاهدهم العلمية وتأجيل الخدمة عن تلاميذ المدارس المداومين، فقد أخذ بمبدأ الإعالة والبدل النقدي.

وراح العراقيون الكارهون التجنيد الإجباري غريزياً - بذكرياته الأليمة أيام العهد العثماني، يستخدمون خبراتهم السابقة في التهرب من الخدمة والتحايل على عملية السؤوق بثستى الطرق. ولجأت الحكومة في أحيان كثيرة الى القوة في فرضه. ولم يكن في وسع الحكومة وقتذاك تشكيل مفاوز لتعقيب الهارين منه في مناطق الأهوار وفي مجاهل جبال كردستان، إلا أنها جابهت انتفاضات مسلحة بسبب تطبيقه اقتضى منها استخدام الجيش (٣٣). مع هذا فقد كان عدد المجندين كبيراً جداً والحاجة تدعو الى تخريج المزيد من الضباط. وقد تم ذلك بسبب تخفيف شروط القبول والإغراء بالمركز والمراتب وقد ألمعنا الى هذا بل فصلنا فيه.

إلا أن البرزخ العظيم الذي كان يفصل الضابط المتعلم عن الجندي الأمي لم يُردم، بل لم تجر محاولة جدية لردمه، وبقيت الجسور التي تصل ما بينهما مثلث الطاعة والضببط والثقة العمياء (٣٤).

= (١٣٥٠) معلماً ومعلمة، خمسة أسداسهم من خريجي دار المعلمين والمعلمات". أنظر أيضاً: (تكوين العراق الحديث، هنري فوستر، ترجمة عبدالمسيح جويبة، بغداد ١٩٥٤ (٤٧٨)، لم ترتفع هذه النسبة كثيراً خلال سنتين طبعاً.

(٣٣) في ٢١ من نيسان ١٩٣٦ كانت ثورة الرميثة الثانية بسبب الإمتناع عن تطبيق قانون الخدمة الإلزامية. كما كانت ثورة اليزيدية في تشرين الأول ١٩٣٥، وثورة القرنة في أواخر آب ١٩٣٥، إثر العرائض العديدة التي قدمت الى الملك والحكومة مناشدة عدم تطبيق القانون بحقهم.

(٣٤) يحضرني في هذا ما كتبه العميد الركن جاسم كاظم العزاوي (من ثورة ١٤ تموز، بغداد، ص ٩٤). وهو أحد الضباط الذين شاركوا في انقلاب ١٩٥٨ - قال: "من البيهبي أن عشرة طلاب عسكريين من الكلية العسكرية يقومون بواجب المئات من الجنود الذين يتكون لأهدافهم بحكم الإنضباط فقط دون أن يعلموا =

كان جيشاً أمياً بخلاف ضباطه وقد بقي كذلك جيش ضباط، لا جيش جنود، رغم محاولات ضيقة بذلت بفتح دورات تعليمية للجنود المستجدين أثناء الخدمة.

والجيش على كل حال هو صورة مصغرة للمجتمع. وفي العراق لم يكن من الممكن وبالسهولة التي تصورها المفكرون العروبيون أن يخلقوا جيشاً شبيهاً بالجيش الألماني أو الفرنسي موحد الإتجاه، مستعداً بأفراده ذهنياً للدخول في رابطة روحية أو عقائدية مشتركة على أساس من التفاهم والقناعة الذاتية. وليس من الممكن أن نأخذ برأي الأستاذ ساطع الحصري في دفاعه عن فكرة التجنيد الإلزامي في العام ١٩٢٨، إلا دليلاً على الشغف الذي يشعر به هو وأمثاله في غرس الفكرة القومية على نطاق جماهيري لتغدو حركة شعبية واسعة، وإلا فلا مندوحة من محاولة تحقيق ذلك عن طريق حياة الجندي، التي تقوم على مبادئ الإنضباط والطاعة والثقة العمياء. وهو ما لا يمكن استخدامه بين الجماهير. وعند هذه النقطة إنتقت آمالهم بطموحات الضباط السياسية. وقد باتت واضحة في أوائل الثلاثينات بعد النصر الكبير، ولهذا فالفضل يعود إلى...

"الدور السياسي الذي لعبه الجيش العراقي في مرحلة معينة من مطلع القرن العشرين وأوائل التأريخ الحديث، لاسيما في سنة ١٩٤١. فقد حاول الإنكليز بثستى الوسائل، لاسيما بعد نشوب ثورة ١٩٢٠ الكبرى أن لا يكون الجيش العراقي إلا مجرد قوة بوليسية تحل محل احتلالهم العسكري وانتدابهم المباشر، لكن جهودهم لقيت ما تستحقه من فشل ذريع. فقد نظر الشعب العراقي الى جيشه نظرة وطنية دائماً، وبدأ الجيش يحظى بتأييد الشعب وكافة قواه الوطنية بعد انتصاره في قمع التمرد الآشوري في ١٩٣٣، ونعتقد أن أسباباً عديدة دفعت الشعب الى تأييد الجيش حينذاك، على الرغم من وجود الضباط الإنكليز على رأس قيادته. ومنها ما يعود الى حرمان العراقيين على امتداد قرون عديدة طويلة من كيانهم المستقل وجيشهم المستقل منذ سقوط بغداد بيد هولاء عام ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م بالإضافة الى الإحترام الخاص والتقدير الفائق الذي أولاه المجتمع

= شيئاً عن واجباتهم، حتى أن بعضهم كان يعتقد صباح يوم ١٤ تموز بأن ما حدث كان تمريناً ليلياً. إذ همس أحدهم في أذن صاحبه عندما أشرقت الشمس: ألم ينته التمرين الليلي بعد لنعود الى ثكناتنا؟". أقول: "رأيت بنفسك كم كان الجندي المكلف الكردي يعاني في فهم الإيعازات والأوامر وما يولده ذلك من الإضطراب في التدريب والإنضباط بعد مرور أحد عشر عاماً على تطبيق القانون. كما وجدت عدداً من ضباط الصف الكرد الأتقياء أتعنوا تلك المصطلحات وكانوا يشرحونها للجنود باللغة الكردية في الوقت الذي لم يكن بوسعهم التحدث بالعربية بطلاقة".

الإسلامي للمحاربين دفاعاً عن الوطن والمجاهدين في سبيل الله"

ويؤكد الكاتب تلك الفكرة في موضع آخر بشكل أوضح: "إن قمع تمرّد الآثوريين في العام ١٩٣٣ كان البداية للتقدير الفائق الذي أسبغته الشعب على جيشه الباسل. وإن قمع نهوض الفلاحين في سنة ١٩٣٥ كان البداية للتدخل العسكري في النشاط السياسي"<sup>(٣٥)</sup>

وهكذا ترى الكتاب القوميون يجدون في انتصارات الديرة بون نقطة التحول الكبرى في تأريخ الجيش العراقي السياسي. وعلينا أن نقرّ مرغمين والحالة هذه بصحة ما توصلوا إليه. وكيف لا؟ فهناك أحداث لا تعد ولا تحصى في مجرى التأريخ البشري. أصغر بكثير من واقعة الديرة بون غيرت مصائر شعوب وأحدثت تحولات خطيرة في مجرى التأريخ العام.

هذه مسألة واحدة قد أستحق عليها لوم قارئ بسبب إقحامها في موضوع لا يمت إليها بصلة. وليتسامح معي فيتخذها نموذجاً للنتيجة التي توصلت إليها أنا أيضاً من الكتاب العرويين حول أحداث آب ١٩٣٣.

إنها مسألة تطلب تفسيراً "علمياً" لها من الأكاديميين المؤمنين بالتفسير المادي للتأريخ على أساس النظرية الديالكتية - المادية: بعوضة لا يزيد طولها عن نصف سنتيمتر ولا يرى خرطومها إلا بالمجهر، من النوع الذي يطلق عليه علماء الحيوان اسم (أنوفيليس) الناقل لمكروب الملاريا الخبيثة. استقرت في وقت ما من يوم ١٣ حزيران ٣٣٢ قبل الميلاد على ذراع أعظم فاتح عرفه العالم في كل زمان ومكان. وفي عاصمة لما يدعى اليوم بالعراق - في مدينة بابل، أثناء ما كان هذا الفاتح تلميذ الفيلسوف أرسطو طاليس الذي عرفناه باسم الأسكندر المقدوني منهمكاً في تخطيط مستقبل إمبراطوريته الممتدة من نهر الكنج في الهند شرقاً حتى صحراء مصر غرباً، ومن سواحل البحر الأسود شمالاً حتى نهاية الخليج الفارسي

(٣٥) يمكن أن تتخذ هذه الفقرة وما قبلها (ص ٨٥ المرجع السالف: دور الجيش...) نموذجاً مثالياً لكيفية تطويع الأحداث واستحداث الفكر خدمة لفرض معين يقصد الكاتب القومي منه أن يوحي به القاري. فواضح إنه لم يكن يوجد جيش عراقي في أثناء ثورة العشرين. كما لم يكن هناك ضابط بريطاني واحد على رأس قيادته ولا في أي قيادة أثناء العام ١٩٣٣ أو قبلها أو بعدها، وإنما كان ثم بعثة عسكرية إستشارية لها ضباط ملحقون بالوحدات بصفة مراقبين فحسب. ثم أن إطلاق صفة (العراقيين) على سكنة هذه البلاد وقتذاك وجعلهم ذوي كيان مستقل هو في الواقع تحدّ سمج لا يقرّه من حظي بأقل الإلمام بتأريخ هذه البلاد، التي عرفت قديماً باسم (ميسوپوتاميا). إن الكاتب بطبيعة الحال ينحو منحى الأسلوب الذي جرى عليه البحث العلمي الأكاديمي السوفياتي. وقد كان أولئك العراقيون الباحثون عن لقب الدكتورية في معاهده أنجب طلبة وأكفاهم وأحسنهم إتقاناً للصناعة.

جنوباً بعاصمتها الشرقية الكبرى (بابل). كان يوم لسعته البعوضة كما كتب مؤرخوه المرافقون - عاكفاً على وضع تصاميم الطرق النهرية والبرية والمسالك البحرية التي تخرج فيها وتدخل إليها، فقضت عليه في ظرف أربعة أيّام ولم يتجاوز الثانية والثلاثين.

في مدى عشر سنوات استطاع هذا الفاتح تلميذ أرسطو طاليس أن يقيم أعظم إمبراطورية شهدتها القرون القديمة والوسيطة. ولولا هذه البعوضة، ماذا كان سيؤول إليه مصير العالم لو امتد به الأجل ثلاثين سنة أخرى لتطبيق نظامه السياسي في المزج بين حضارتي الشرق البابلية - الآشورية، وحضارة الغرب الهيلينية؟

من الطبيعي - ولا قياس مع الفارق - أن تبدو بعوضة المقدوني بأثارها أعظم من ديره بون بكر صدقي. بنتيجة واحدة هي أن كليهما قضتا على حياة صاحبيهما، بموت معجل.

ولا عجب والحالة هذه أن تكون قتل آب عاملاً مركزياً في الإنعطف المأساوي لتأريخ العراق الحديث.

وقد رأينا كيف كانت ولادة الجيش العراقي عسيرة، مبتسرة، جنين لم يكمل عدّة الحمل الطبيعية. أخرج من الرحم بصورة قسرية وليداً تحمل (جيناته) استعداداً مرضياً موروثاً. وبدأ منذ قيامه على رجليه طفلاً ضعيف الساقين صغير الرأس كبير البطن. أغدق عليه ضباطه والساسة الذين تعاونوا على خلقه آيات الحمد والثناء، كلّما زادت إخفاقات وحماقات أمره الثوريين. وأمطروه بألقاب التمجيد والتعظيم، فلُقّب بالباسل والبطل والمغوار، والمظفر وما إلى ذلك بزيادة الانقلابات العسكرية الناجحة. فهذه كانت تُعدّ معارك ميدانية في نظر الإنقلابيين وفي نفع الشعب العراقي.

وأولئك الضباط المحترفون الأكفاء منه، الذين وصفتهم ووفيتهم حقهم من الإطراء فيما سبق. كانت جريمتهم وقوفهم على الحياد، كلّما أثارت عصبية صغيرة من زملائهم رفاق السلاح إعصاراً، أو ريحاً نكباً يروح كثير منهم ضحاياها عندما تجرفهم معها، وعندما يبده الإنقلابيون يقتلون بعضهم بعضاً في نزاعهم الشرس على السلطة.

في أحيان كثيرة يبدو الوقوف على الحياد نوعاً من الجريمة لاسيما في أثناء النزاع على السلطة.

من جملة القوانين التي اشترعها (صولون) الأثيني<sup>(٣٦)</sup>، قانون يقضي بنزع حقوق المواطنة

(٣٦) صولون Solon: (في حدود ٦٣٩-٥٥٩ ق.م) مشترع يوناني، وشاعر أحد (الحكام السبعة) انتخب في ٥٩٤ ق.م أرخونا (حاكماً مدنياً)، فالغى القوانين الدراكونية وحرّر العبيد وألغى ديونهم وقسم =

عن كل من يقف على الحياد في أثناء ثورة أو تمردٍ.

كان قانوناً غريباً عَسَرَ على الديمقراطيين آنذاك فهم الحكمة في وضعه، فسألوا واضعه تفسيراً. هذا المشتري البارح لم يكن يرى بقاء أي مواطن فاقداً الشعور بالمصلحة العامة منصرفاً إلى شؤونه الخاصة فحسب، مهتماً بما يعود عليه بالفائدة متجرداً من أي إحساس باضطراب سياسي يداهم بلده، بل وجب عليه فوراً أن يختار الجانب المحق أو المصيب في نظره من الطرفين المتنازعين.

\*\*\*

في لعبة الشدّ والجذب القومي على السلطة التي أطلقها الساسة القوميون. كادت الغلبة تكون دائماً للضباط القوميين والخيبة من نصيب الآخرين. وكثيراً ما ألجأتهم تلك الخيبة إلى التآمر على رفاق الأمس بطاقم قومي آخر من الضباط، فيتذابحون ويكاد يُفني بعضهم بعضاً.

لم يبلغ المفكرون القوميون ودعاة العروبة مطلقاً مبلغاً كافياً من النضوج ليدركوا بأن هؤلاء، ضباط الجيش الذين اعتمدوهم ووضعوا فيهم آمالهم في الوحدة والإستقلال... والسلطان، هم في الواقع يشتغلون لحسابهم ومنهم من اتخذ القومية قناعاً لطموحه، ومنهم من جعل المبادئ القومية أو الوطنية كما يدعونها أحياناً - جزءاً لا يتجزأ من مصالحه الخاصة ولهفته للسلطة.

وكثيراً ما يضيع العامل الشخصي والدوافع الذاتية المصلحية في أثناء محاولة الحكم على الأحداث التاريخية من الوجهة العامة والتنظير العقائدي. فهؤلاء الضباط العقائديون أو القوميون إن شئت، كانوا يتأثرون أبداً بعين الحقد والحسد خطى زملاء لهم في الجيش العثماني وجريرتهم الوحيدة أنهم انحازوا إلى الجانب الغالب بمحض الصدفة، لتصعد بهم المراتب المدنية إلى الوزارة أو الوظيفة الكبيرة. جاء كلهم من طبقة فقيرة، ومكنتهم مناصبهم من الوصول إلى الثروة والغنى، في حين كان على زملائهم المسلكيين الآخرين أن يقنعوا برواتبهم المحدودة وينتظروا الترقية على أيدي هؤلاء زملاء الأمس، ليتقاعدوا بالأخير ويصبحوا نسيباً منسياً.

لم ينجح المفكرون القوميون ودعاتها في خلق حركة جماهيرية عروبية واسعة النطاق قادرة

= المواطنين إلى أربع درجات بنسبة دخولهم وأجرى إصلاحات في النظام الديمقراطي منها إعطاء الحق لجميع الطبقات في انتخاب ممثلين عنهم في الجمعية العامة والمحاكم القضائية وقاوم الإستبداد والحكم المطلق.

على إيصالهم إلى السلطة وتحقيق برامجهم، فكان الجيش أملهم وملاذهم الأخير. وما هم يومها يتطلعون إلى المعجزة العسكرية والإجتماعية التي حققها النظامان القوميان في ألمانيا وإيطاليا، فضلاً عن نهضة تركيا الكبرى. حيث كان الجيش القاعدة التي استند إليها العمل القومي.

الإ أن العراق بتكوينه الديموغرافي لم يكن ألمانيا ولا إيطاليا. كذلك ضباط جيشه، وسائر جيشه. كان لهاتين الدولتين كيان سياسي دولي سابق، وجيوش لها تقاليد خاضت حروباً دولية وتعود ضباطها وقادة جيوشها إطاعة نظام الحكم الراهن بها على علته وكيفما كان. في حين نشأت دولة العراق من العدم ونشأت قواتها المسلحة من العدم، وافتقد كلاهما تلك التقاليد الموروثة، ويقدر ما افتقد العراق المجتمع الحضري المنظم حازت هاتان الدولتان أعلى قدر منه.

لا أريد الإطالة والإسهاب في العموميّات وهو ما جنبت القاريء منه جهدي - وسأضرب هنا مثلاً واقعياً: فبكر صدقي الكردي الأصل كان قبل انقلابه وثيق الصلة بساطع الحصري وسامي شوكت قطبي القوميين العروبيين يتلقى منهما النصح والإرشاد بوصفه وطنياً عربياً تحقّق على يده إنقاذ البلاد من أطماع ونوايا الآشوريين وحليفهم بريطانيا.

وبكر صدقي إنما اعتمد على ضباط عرب في اغتيال جعفر العسكري، وأولى ثقته بضباط عرب ولم يولها لضباط كرد، حتى أنه أوكل إليهم أمر حمايته الشخصية. ووجه المفارقة هو أن زعيم كتلة الضباط العرب الذين ائتمروا على حياة بكر صدقي وهو (العقيد عبدالعزیز ياملكي) كان ضابطاً كردياً، يعاونه صلاح الدين الصبّاح، أشهر دعاة القومية العربية في المؤسسة العسكرية العراقية. وقد بدا (الكيلائي) ذاهلاً حائراً كسير القلب بعد أن قلب بكر صدقي له ظهر المجن واعتزم الفتك به بعد إنجاح إنقلابه:

"كنت ساعدت بكر صدقي منذ أن أبرز كفاءته المشهوددة في حركات تأديب التيارات عام ١٩٣٣ وكان هو يخلص لي إخلاصاً مطلقاً ويتظاهر بالتفاني في محبته لي، حتى إنه كثيراً ما كان يفتح باب سيارتي لأنزل منها أو يمكس بمعطفي لألبسه. وكنت لا أرد له رجاء ولا يرد لي أمراً. فلم يكن والحالة هذه ما يستلزم إساءة الظنّ فيه" (٣٧)

(٣٧) من رسالة كتبها الكيلاني إثر الإنقلاب لصاحب (الوزارات العراقية) وهو في منفاه. أنظر نصها في الكتاب الثالث.

وكان لبكر صدقي كأبي قائد كبير بطانته وشيعته من الضباط يتظاهرون بالإنسحاب إليه صدقاً أو كذباً و"يلتزمهم" هو بالمقابل، ليتتمتعوا بنوع من الحصانة تضمن لهم الترقية أو التنسيب الى وحدات ومراكز مريحة في الجيش، وتجعلهم في مأمن من العقوبات الى حد ما. وتلك عادة أصبحت تقليداً في الجيش العراقي ومرصاً خطيراً لا أظنه برؤ منه حتى هذه الساعة. فيقال مثلاً عن طريق الغمز أو الاضطغان: هذا النقيب مُلتزم من قبل اللواء أو العميد الفلاني. وفي أحيان كثيرة يخترع هؤلاء الضباط انتساباتهم اختراعاً ويعتمدون إشاعتها في دوائرهم سعياً وراء تلك الإمتيازات وما أكثرها. وهم يعملون كل ما في وسعهم للتقرب من ذلك الأمر ذي الحول والطول وإظهار الود والإخلاص له بشتى الوسائل<sup>(٣٨)</sup>.

ما شككت قط في أن كثيراً من الضباط العراقيين كانوا يملكون ذلك القدر من الكرامة وعزة النفس بحيث جعلتهم يترفعون عن أمثال هذه الأساليب، ويعتمدون فحسب على سمو أخلاقهم وكفاءتهم المسلكية، وقد عرفت من هؤلاء كثيرين. وتأملت المصائر من جرفتهم الانقلابات بتيارها أو أصبحوا لها وقوداً وحطاباً.

\*\*\*

عندما لا يعود الكذب والإختلاق والتجني على الحقائق مصدر عجب ودهشة، فعلى المرء أن يدرّب نفسه على العجب والدهشة عندما يواجه بالصدق من الأنبياء وبالحقائق من الأحداث.

وأنا ما ادعيت يوماً بأني المحق الصادق بين المختلفين والمتجنين على الوقائع. فما أفعله هو مجرد عرض لأحداث التاريخ العراقي الحديث بوجه غير مألوف وباستناد على الوثائق والوقائع المرفوضة أو المستورة عمداً. وقصارى أملي فيه هو تحريض القاريء على التفكير والمقارنة والمضاهاة. وأنا أكتب بمعرفة تامة بأن ما أكتبه جديد وما أعزفه هو نعمة غير مألوفة ستشير حتماً نفرةً واستنكاراً وستزيد من خصومي وهم كثيرون والحمد لله. على إنني لست مثل (قولتير) الذي طلب منه أصدقاؤه وهو على فراش موته أن يلعن الشيطان فأجاب: "ليس الوقت مناسباً لأكسب خصوماً جدداً". إذ سألني ألقى كل شيطان، وأنفذ الى أغوار أفعاله ما

(٣٨) أكد عبدالسلام عارف أنه بثّ لنفسه شائعة كونه من المحسويين على رئيس أركان الجيش الفريق الركن رفيق عارف مستفيداً من اللقب المشابه. كما علم أن عبدالكريم قاسم كان مسؤولاً وراضياً بإشاعة كونه من مقربي نوري السعيد، وإن هذا السياسي كان يلقبه تحبباً بـ(كرومي!). وما من شك في أن (ناجي طالب) المرفقه جداً عسكرياً. كان مُحصناً بالتمزام البلاط له متفنياً بظله منذ أن كان واحداً من مرافقي الملك. وهكذا تسلسل المحسويين والملتزمات لتصير تقليداً يساعد في كثير من الأحيان على إخفاء النوايا وسر التامر.

وسعني ذلك وأفضحها وأنا هنا أتصدى - إن شعر القاريء - لمسألة خطيرة بمثابة رأي عام تمّ الإجماع عليه، تمهيداً لإنزاله منازل المسلمات في التاريخ.

الرأي العام في ظرف زمني ومكاني معين قد لا يكون معبراً تعبيراً حقيقياً عن شعور مجتمع ما. ومع هذا فهو ضروري وثمين وفي الوقت الذي نجد يعوق التطور الإجتماعي، يكون عاملاً في المحافظة على حضارة.

وتثقيف الرأي العام هو الأسلوب السليم الحقيقي الوحيد للتقدم الحضاري، والقوة المجردة هي ذريعة مؤقتة. ويتسارع النمو الثقافي، لا بازدياد عدد الأوراق التي تلقى في صناديق الاقتراع، هي السبيل التي لم يجد المجتمع البشري أفضل منها للتعبير عن الرأي العام.

هذا هو درس افتقدته في كل ما قرأت من الآثار القلمية التي خلفها الكتاب القوميون والعروبيون. فهم لم يشجعوا قطّ عملية إحلال صناديق الاقتراع محلّ صناديق العتاد. بل حتى أولئك المدعين بالديمقراطية والمطالبين بإحلال الإرادة الشعبية محلّ إرادة الفرد الدكتاتور. أولئك الذين أطلقنا عليهم اسم الدستوريين نجد الصفوة المثقفة منهم بأعلى الثقافة، يسايرون ذلك الرأي العام الذي أوحى به من فوق لمجتمع متأخر في أدنى درجة من الثقافة بدل أن يحاولوا أن يكونوا هم قادته وموجهيه.

إن انسياق محمد حديد وعبدالفتاح إبراهيم وعبدالقادر إسماعيل وزملائهم وراء هذا الرأي العام يحزنني قدر ما يؤلني الإصرار عليه وبعد مرور أكثر من خمسة وخمسين عاماً. وقد عرفتهم معرفة وثيقة وكانت لي معهم صحبة.

في ٢٣ من شهر آب ١٩٣٣ عاد السفير البريطاني (فرانسيس همفريز) الى بغداد من لندن. وفي حقيبته تأكيد من الحكومة البريطانية للحكومة العراقية، بأنها لا تنوي التدخل بأي شكل كان لصالح الآشوريين "فهداً روع الكيلاني" على حدّ قول ستيقن لونكريك<sup>(٣٩)</sup>.

(٣٩) س. ه. لونكريك S. H. Longrig: (العراق بين ١٩٠٠ و ١٩٥٠ تاريخ سياسي وإقتصادي وإقتصادي (Iraq: 1900-1950, A Political, Social and Economic History).

## الفصل السادس عشر

الملاحقون في البلاد الناطقة بالعربية بسبب نشاطهم العربي. فالعراق والحالة هذه هي الصخرة التي ستنى عليها الوحدة العربية مثلما بنيت الوحدة الألمانية على صخرة بروسيا<sup>(١)</sup>.

لم يكن باليسير مقاومة الإغراء، ولا تجاهل المعجزة القومية الكبرى التي يحققها نائب العريف الألماني في بلاد فاقت ما يحيط بها من البلاد تقدماً، وقطعت أشواطاً في مضمار الحضارة. ونهضت من أعظم كبوةٍ أدخرها التاريخ لشعب، وراحت تنفض عنها غبار الهزيمة الكبرى وتكسر القيود التي فرضها الحلفاء في ١٩١٩، واحداً إثر الآخر من دون عناءٍ أو مقاومة تذكر من آسريها وبسرعة خاطفة.

وبقي الضباط العراقيون الكبار يذكرون بإعجاب وحنين، مدربيهم الألمان والقادة الذين استخدمهم الجيش التركي قبل الحرب وفي أثنائها. وكان عدد منهم قد خدم بأمره الفيلدمارشال فون درغولتسه في العراق أثناء الحرب. ومنهم من كان عضواً في البعثات العسكرية إلى ألمانيا، ولم يفلح الأسلوب العسكري البريطاني الذي طبّقه البريطانيون ولا بعثاتهم العسكرية في طمس تلك الذكريات والإعجاب.

والناس البسطاء الذين يتجمعون في المقاهي لينصتوا بخشوع ورهبة إلى صوت مذبذب (حيّ العرب) القادم من آلاف الأميال عبر الهواء، بوساطة هذا الصندوق السحري الذي أطلقوا عليه إسم (الراديو) على وزن الكرامافون (الهاكي). ظل ذات الصوت الراعد يصبّ حمماً على الإستعمار البريطاني وأذنا به، غير متحرج قطّ من تطريزها بأجمل الشتائم ونعوت الهجاء المحببة إلى قلوب الجمهور ويتعابير سوقية دارجة وكل ما يعافه الذوق السليم طوال عشر سنوات متوالية إلى أن أسكنته المدافع السوفيتية وإلى الأبد وهي تدك برلين.

وأولئك القوميون المثقفون الذين كانت أعينهم في موضعها الصحيح، خلافاً لغيرهم أولئك النزر اليسير من الذين خلقت عيونهم خلف قحوف رؤوسهم، ما كان يوسعهم إلا أن ينظروا

العراق مصدر الإشعاع القومي. الاتجاه نحو ألمانيا الهتلرية والاشتراكية القومية (النازية). طريق العودة بالمفاهيم الفاشية. الدعاية النازية عبر الأثير وفي ميدان الصحافة. بنية الجيش الألماني تثير إعجاب الطبقة العسكرية في العراق. الزائرون تبهرهم في ألمانيا المظاهر وعلائم الانتعاش الاقتصادي الواضحة. ألمانيا النازية معروضة للعالم دون قيود. من أوائل الزوار الدكتور (سامي شوكت). ابتداعه نظام الفتوة. (أنطون سعادة) والحزب القومي السوري. (أحمد حسين) وذوو القمصان الخضري في مصر. رعاية الانكليز للاتجاهات المتشددة في البلاد الناطقة بالعربية وتشجيعهم الصلات مع ألمانيا وإيطاليا الفاشيتين لوقف انتشار المفاهيم الاشتراكية والشيوعية. تطعيم الاتجاه الجديد في الدراسة بمعلمين قوميين من لبنان وسورية وفلسطين. الاستاذ ساطع الحصري، الرابطة بينه وبين الملك. اطلاق الحرية للتوجيه القومي العربي في سياسة التعليم. فشل محاولة فك ارتباط القومية بالدين. نادي المثني وأعضاؤه. الشيوعية في مواجهة الغزو النازي. بقاء الأفكار النازية في تعاليم واتجاهات القومية العربية بعد هزيمة ألمانيا والقضاء على الحزب النازي. التمرد اليزيدي. قضية عبدالله فائق المحامي وزميله. نظام الفتوة وعسكرة التعليم. أصل نظام الفتوة. الشحنة الأمنية في عصر السلاجقة (القرن الثاني عشر الميلادي). مناورة الخليفة الناصر لدين الله. مفارقات في تطبيق النظام. الطابع الهزلي. فضائح. طموح (سامي شوكت). إلغاء النظام بعد القضاء على حركة مايس.

(١) دولة عسكرية. حكمت ألمانيا حتى قيام النازية. كانت واحدة من عشرات الدويلات الألمانية ضمن (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) في العام ١٦١٨ حكمتها أسرة هوهنزلن. وفي ١٧٠١ أعلن ملكها فردريك الأول نفسه ملكاً عليها. وقد تعاضمت قوتها الحربية خلال حكم خلفائه وأظهرهم (فردريك الأكبر) الذي جعلها أعظم قوة عسكرية في شمال أوروبا. أصيبت بروسيا أثناء حروب نابليون بنكسات، إلا أنها ساهمت في سقوطه. وفي العام ١٨٦٢ نصب (أوتو فون بسمارك) مستشاراً أي رئيس وزراء، وتمكن هذا بإرشاد ملكها قلهلم الأول - وبتنتيجة سلسلة من الحروب والدبلوماسية البارعة من إقامة الوحدة الألمانية في ١٨٧١ وإعلان ملكها قلهلم إمبراطوراً على ألمانيا، عقب انتصار ساحق على فرنسا. وبقيت بروسيا تهيمن على مصائر ألمانيا حتى أعلن هتلر في العام ١٩٣٤ بمرسوم الوحدة السياسية الألمانية والغاء الحكم الذاتي الذي كانت تتمتع به دويلات الإتحاد.

لم يكن ترويج لقب (بروسيا العرب) للعراق وليد خيال مجرد ومن قبيل الأوصاف والتشبيهات ذات الإيقاع الجميل التي يتعمدها الكتاب العرب لإحداث أكبر ما يمكن من الأثر، بل كان له وجهٌ من الواقع. فالعراق كان أول دولة منتدبة نالت استقلالها ولها أكبر جيش تعتزّ به، بعد الإنتصار الذي حققه في الشمال والجنوب. وفيها تتابعت حكومات تدعي صدقاً أو كذباً باتجاهها القومي وبروح الأخوة العربية. لمعظم رؤسائها ووزرائها وأصحاب المناصب الكبرى فيها خلفية قومية. وإلى العراق كان يلجأ الكتاب والساسة القوميون

بإعجاب إلى ما حققه النظام النازي، وأن يرقبوا باهتمام بلغ حدّ الهيام المشوب بالحسد والغبطة التحولات الإجتماعية والخط التنظيمي الرائع في توجيه الجماهير، الذي يسلكه هذا النظام بتعبئة عسكرية الطابع، لا يغيب عن أذهانهم لحظة واحدة صور المسيرات والإجتماعات الجماهيرية الهائلة التي ينظمها ويقودها (الشباب الهتلري) و(فرق الصاعقة S.A) ذراع الحزب القومي الإشتراكي لعمال ألمانيا) الذي وثب إلى الحكم في العام ١٩٣٣<sup>(٢)</sup>.

(٢) أرى أن أزوّد القاريء بمعلومات مركزة حول هذا الحزب الذي زجت مفاهيمه وإرادة زعمائه - العالم بأسره في أتون الحرب العالمية الثانية، بكل الأموال والمصائب التي جرتها على الجنس البشري. الاسم (نازي Nazi) أو (نازية Nazism) مشتق من الأحرف الأولى لاسم الحزب الطويل: (الحزب القومي الإشتراكي لعمال ألمانيا National Sozialistische Deutsche Arbeiter Partei) خرج هذا الحزب من بين أنقاض الفوضى الإجتماعية والإقتصادية التي عمت ألمانيا بعد هزيمتها في العام ١٩١٨، وبرز قوة سياسية يعتد بها خلال الأزمة الإقتصادية التي أخذت بخناق العالم العام ١٩٢٩. وبلغ عدد أعضائه المنتسبين إليه في العام ١٩٣٢ ما زاد عن ٩٢٠ ألف عضو. وباستخدام زعيمه أدولف هتلر - مقدرته الخطابية العجيبة ودعاية الحزب التي بلغت حد الإتقان، وضع الحزب برنامجاً سياسياً جذاباً المحب لأوسع مشاعر الطبقات المتضررة والجماهير. والفكرة التي استند إليها البرنامج هي القومية الألمانية المتفوقة والتمييز العنصري ومحاربة السامية، وإخضاع الفرد إخضاعاً كاملاً لمصلحة الدولة (سلطوية الدولة المطلقة على حياة الفرد). وقد ضمّن هتلر مبادئ حزبه في كتابه (كفاحي Mein Kampf)، الذي ألفه في العام ١٩٢٣ مؤكداً فيه أن النهضة الألمانية لا تتم إلا بإعادة تسليحها وبناء جيشها. وبوجوب التوسع الأقليمي، وهو لا يتم إلا بتوفير المجال الحيوي Lebensraum للعنصر المتفوق السيد الألماني، واستعادة الكرامة والعزة القومية بإخضاع الأمة إلى نظام موحد عسكري تحت شعار "رايخ واحد - أمة واحدة - زعيم واحد Ein Reich, Ein Volk, Ein Fuhrer."

ودعت أولى مواد البرنامج النازي إلى وحدة كلّ الألمان في ما دعاه (ألمانيا الكبرى)، وأطلقت واحدة من مواده دعوى معاداة الشعوب السامية بوصفها شعوباً منحطة، وركزت على المجتمع اليهودي في ألمانيا، واعتبرته أساس النكبات التي حلتّ بالأمة الألمانية. فنصت على تجريدهم من حقوق المواطنة في ألمانيا واستبعادهم من الوظائف العامة. ومنعهم من العمل في الصحافة. وطرد كل من اتخذ ألمانيا موطناً له بعد الثاني من آب ١٩١٤. ودعت المادة الثالثة عشرة من البرنامج إلى مساهمة الدولة في أرباح المشاريع الصناعية الكبرى وسيطرتها على الإنتاج. وقضت المادة الرابعة عشرة بإلغاء بدلات إيجار الأراضي وتحريم المضاربة بها بيعاً وشراءً، وفرضت المادة الثامنة عشرة عقوبة الموت على الخونة والمرابين والمتلاعبين بالأسعار. ودعت المادة السادسة عشرة إلى بناء طبقة وسطى في المجتمع قوية (لم يكن وجود اسم العمال في عنوان الحزب إلا مخادعة). وشددت على ضرورة تأمين المخازن الكبرى وتآجيرها لصغار التجار ببدلات إيجار منخفضة، وأوجبت المادة العشرون وتالياتها العمل على إلغاء معاهدتي فرساي وسان جرمان. وأوصت المادة الخامسة والعشرون بخلق جهاز حكم مركزي للدولة. وأعلنت المادة الثانية والعشرون الحرب على الإشتراكيين الديمقراطيين والشيوعيين إلى النفس الأخير، واعتبرت الاتحاد السوفياتي العدو الأكبر لألمانيا. وقد أدرك هتلر وزعماء الحزب أن الخطب الحماسية والبرنامج البراق لا يكفيان وحدهما لاجتذاب الجماهير والحصول على التأييد الشعبي بأفكار قليلة بسيطة يمكن غرسها أينما تريد، بل هي في حاجة إلى رموز ظاهرة، تجمعهم حولها، وكذلك إلى أعمال عنف وإرهاب بحق الأعداء الذين يعملون لغير مصلحة العموم، تزيد من تعلق الأتباع بالحزب وتربطهم إليه بعامل المشاركة في =

أنعش برنامج هتلر في التوسع والصناعات الحربية بصورة مؤقتة وضع ألمانيا الإقتصادي. وقضى تقريباً على البطالة بالاستخدام الإضافي من العمال في التنظيمات العسكرية، وفرق العمل التي يشرف عليها الحزب. وكان الواقع المرئي هو أن الزعيم (الفوهرر) بنظامه شبه العسكري، وبجرائمه التي لم يعرف التأريخ البشري لها مثيلاً - أطلق قوى ديناميكية ذات

= الجريمة في حالة نجاحها، وتمنحهم شعوراً بالتفوق والرضى في ممارسة سلطانهم على الضعفاء الخائري العزم. لذلك قام هتلر نفسه الذي مارس فن الرسم فترة من الزمن بتصميم شكل العلم والشعار والرمز. وصار العلم الذي اخترعه (وهو أرضية حمراء تتوسطها دائرة بيضاء رُسم داخلها صليب معقوف الحواف Hakenkreuz الزخرف الموهل في القدم قدم الإنسان في هذا الكوكب). فقد وجد منقوشاً في خرائب طروادة (٩٠٠ ق.م) وفي مصر الفرعونية والصين عند البوذيين والهنود الحمر في أمريكا. ووصف هتلر اختراعه الفريد في كتابه كفاحي بقوله: "إنه لرمز مؤثر حقاً. ففي الأحمر نجد فكرة الإشتراكية بحركتنا. وفي الأبيض تتجلى الفكرة القومية وفي الصليب المعقوف تبدو رسالة الكفاح لسيادة الرجل الآري والانقياد له". إنه عين العلم الذي يرفعه اليوم أولئك الشباب الطليقو الرؤوس في ألمانيا، أثناء مسيراتهم وأعمال العنف التي يرتكبها بحق الأجانب من العمال الوافدين من الشرق. ونظم زمراً من المحاربين القدماء الغلاظ في فصائل اتخذ لها فيما بعد اسم (فرق العاصفة Stormabteilung) الذي عرف بالحرفين الأولين من اسم عضو الفرقة (إس. إس Slosna Slodat) وجعل لهؤلاء بزة رسمية بنية اللون، على غرار صنوهم الفاشيست في إيطاليا. واخترع لهم نوعاً جديداً للتحية بدلاً من المصافحة يتم برفع الذراع اليمين إلى الأعلى مبسوط الكف، باتت فيما بعد التحية النازية الرسمية. فكانوا الذراع الباطش والجلاد المنفذ.

وفي آذار من العام ١٩٣٣ أنيط تأليف الحكومة بالحزب النازي رغم افتقاره إلى الأكثرية المطلقة وبمساعدة السياسيين والصناعيين، الذين كانوا يأملون بثقة في مقدرتهم على توجيه هتلر لأغراضهم واستخدام قوته السياسية. فبقي مستشاراً للرايخ خلال العامين ١٩٣٣ و١٩٣٤ فقط ثم عكس عليهم الآية بإقامة الدكتاتورية النازية، بفضل الشرطة السرية (الگستابو) وفرق الصاعقة (S.A) ناشراً إرهاباً لا مثيل له على الإشتراكيين الديمقراطيين والشيوعيين والنقابات واليهود والكنيسة، بفتح معسكرات الاعتقال لاستقبالهم أو باغتيال زعمائهم، وبغرف الغاز وغيرها من أساليب القتل الجمعي فيما بعد. في ٣٠ من حزيران ١٩٣٤ وأنجز المذبحة العظمى داخل حزبه، وبها صفى أهم خصومه ومنافسيه من العسكريين والمدنيين وفيهم منافسه الأكبر (الكابتن روهم) رئيس فرق الصاعقة، والجنرال (فون شلايخر) مستشار ألمانيا السابق، والجنرال (فون بربدون)، و(كريگور شتراسر) الأيديولوجي النازي، و(رايخ كلاوسفيين) رئيس منظمة العمل الكاثوليكي، إلى جانب مائة وخمسين قائداً وضابطاً من حرس الصاعقة وضعدوا صفاً واحداً أمام جدار المدرسة الحربية في (ليتيرفلده) وحصدوا برشاشات فصائل الإعدام (الحرس الأسود). وقد بلغ عدد قتلاه بحسب الكتاب الأبيض الذي أصدره المهاجرون بذكر الأسماء ٤٠١. لم ينج من القتل حتى الكاهن (برنهارت شتمگل) الذي ساعد هتلر في كتابه (كفاحي) ونظم له وقوم أسلوبه. عملية التطهير هذا أصبحت مثلاً وسنةً احتذتها فيما يعد سائر الأنظمة الدكتاتورية. واعتمدها (ستالين) بصورة خاصة في عمليات التطهير الدموية الكبرى خلال (١٩٣٥-١٩٣٩) التي شملت آلاف مؤلفة من ضباط الجيش الأحمر (بينهم عدد من الماريشالات والجنرالات الكبار وزملائه أعضاء المكتب السياسي). وفي أواسط العام ١٩٣٧) فصل هتلر الحرس الأسود عن (S.A) وجعل هملر قائداً له. ليصبح جيشاً قائماً بذاته مقابل الجيش النظامي ضماناً لولائه وخضوع قاداته.

طاقة لا تحدّ - كانت كامنةً في الشعب الألماني مدة طويلة ووجهها الى الغايات التي أوضحها في كتاب (كفاحي). والواقع هو أن الرعب الذي نشره الغستابو والخوف من معسكرات الاعتقال، كان يجثم دائماً أبداً على النفوس وينتظر كل من يخرج عن الصفّ القوميّ وكلّ من كان شيوعياً أو اشتراكياً أو ليبرالياً مجاهراً (زائداً عن الحد المقرر) وعلى كل محبذ للسلام ومعادٍ للحرب وكل من كان يهودياً أو عجبياً (كاولياً) أو من الشعوب المنحطة.

في السنوات الأولى لم يصب الإرهاب النازي كثيراً من الألمان. وأولئك الذين يُغرون لزيارة ألمانيا في المبدأ، وللحج فيما بعد من الأقطار الناطقة بالعربية، ماكانوا يشعرون قطّ كغيرهم الوافدين من الأقطار الأخرى، بالضغط والخوف الذي تشييعه الدكتاتورية. ولأن عيونهم كانت في مكانها الصحيح الذي وجب أن تكون فيه - فقد بهرتهم رؤية ما حققه النظام من انتعاش وحيوية في النفوس. من وجوه ضاحكة مفترة الى أجسام متينة للشباب والأحداث لوحتها الشمس، القضاء التام على البطالة، اجتماعات عامة ورفاقية، حفلات رائعة شبه سياسية، الألعاب ودورة الألعاب الأولمبية في ستاديوم برلين الذي شيد خصيصاً للمناسبة ليكون أعظم ساحة ألعاب بنيت بالمناسبة - في العالم. وكان الزوار العرب الذين بدأ عددهم يتزايد بالتدريج يلاحظون تقاطر الأجانب الى (الرايخ الثالث)<sup>(٣)</sup> والبعثات التي تنعم بضيافته.

كانت ألمانيا النازية مفتوحة ومعروضة للرؤية دون قيود، بخلاف الإتحاد السوفياتي مثلاً. ومن هنا تأتي المقايسة. فوكالات السياحة المنبثقة فجأة، أصابتها حمى انتعاش لا مثيل لها وكسبت للبلاد مبالغ طائلة من العملة الأجنبية فضلاً عن الدعاية الضرورية للنظام الجديد. وقد بدا وكأن زعماءه الجدد هؤلاء ليس لديهم ما يخفونه عن عيون الأعراب.

والأجنبي يستطيع دخول البلاد بالغ ما بلغت خصومته للنازية، وبإمكانه أن يرى ويتدارس كلّ ما يريد رؤيته والإطلاع عليه، طبعاً باستثناء المنشآت العسكرية ومعسكرات الاعتقال، التي لم يكن يعرف العالم عنها شيئاً فقد تمّ إخفاؤها بدقة.

كان الدكتور سامي شوكت مدير المعارف المسؤول الأول عن سياسة التعليم في العراق لمدة

(٣) كلمة (رايخ Reich) الألمانية مفردة تعني مملكة أو إمبراطورية. وفي مفهوم النازية أن الرايخ الأول هو الإمبراطورية الرومانية المقدسة، التي ازدهرت في القرون الوسطى. والرايخ الثاني هي ألمانيا التي وحدها أوتو فون بسمارك في العام ١٨٧١ بعد الهزيمة التي ألحقتها بروسيا بفرنسا وكلاهما أضاف مجداً الى الاسم الألماني. أما جمهورية (فايمر) الديمقراطية، التي قامت بعد الحرب العظمى وقضى عليها هتلر، فقد مرّغت ذلك الاسم الجميل في الوحل بحسب رأي الدعاية النازية، فجاء هتلر بـ(الرايخ الثالث) لانتشال ذلك الاسم.

تزيد عن عشر سنوات من أول الزائرين العراقيين الذين بهرت أعينهم أساليب النازيين في تربية جيل من الشباب قوي صحيح الجسم مخلص لدولته القومية معتز بعرقه الألماني النقي. وجد سامي شوكت الشباب وبهذه الوسيلة يتدربون على الحياة والعمل والموت في سبيل (الرايخ الثالث). ومع أن عقولهم كانت تسمم عمداً، ودراساتهم تتقطع. فقد بدا له ولغيره من حبيج البلاد الناطقة بالعربية أن الفتيان كانوا سعداء ممتلئين رغبة في الاستمتاع بالحياة التي توفرها (شبيبة هتلر).

ولا شك في أن عملية جمعهم كما يقول المفكر القوميّ (ساطع الحصري) من كل الطبقات والمراكز الاجتماعية وأنماط الحياة ليسهم الجميع في واجبات واحدة وليعيشوا حياةً واحدة دون تفريق بين من عانى الفقر والخصاصة أو تمتع بالرفاء والغنى. بين من جاء من بيت عامل أو فلاح أو انحدر من أسرة تاجر كبير أو بيت أرستقراطي، ولتغرس فيهم شعوراً واضحاً بوجود الأمة والوطن وتعلمه التضحية بالدم والنفس في سبيل بلاده ووطنه.

كان إغراء لا يقاوم. ولنكن منصفين ومعتذرين للقوميين العربيين في كلّ من العراق وسورية، وللقوميين المصريين في مصر، فهؤلاء الذين زاروا إيطاليا الفاشية، وأولاء الذين تقاطروا الى ألمانيا منهم ما أراهم أكثر ملاماً وانتقاداً من الألوف المؤلفة الذين زاروا ألمانيا وبينهم كثير من الليبراليين والديمقراطيين الأوروبيين، إن لم يعودوا وقد (اهتدوا) الى الدين الجديد، فهم متسامحون على الأقل مع ألمانيا القومية وربما متحمسون بما وجدوه من "إنجازات إيجابية" على حدّ قولهم<sup>(٤)</sup>.

وكان السياسيون والكتاب القوميون العرب في هذا الوقت بالذات يكافحون في سبيل الإستقلال التام أو التخلص من التبعية والهيمنة الأجنبية، المتمثلة في يد بريطانيا وفرنسا الثقيلة. كما كان المصريون من جانبهم يكافحون (وطنياً) في سبيل إجلاء القوات البريطانية وإنهاء الإحتلال.

من سوء حظ هؤلاء أن قامت الدولتان الفاشيتان في تلك المرحلة الدقيقة. ومن سوء حظهم أن يكون زعمائهم وقادة الفكر قليلي الإلمام بتاريخ الشعوب ووضعها الاجتماعي ودرجة

(٤) لم يشذ عن هذا حتى بعض من عرف من الساسة الدوليين العظام بالنظر البعيد الثاقب. فلويد جورج الذي وجدناه يقود انكلترا الى النصر في الحرب العظمى ويدخل معركة الإنتخابات بعد الحرب تحت شعار (أشنقوا القيصر)، عاد من زيارته لهتلر في (أوبرسالزبرغ) العام ١٩٣٦ مسروراً معجباً بـ(الفوهرر) ومدحه علناً ونعته بالرجل العظيم الذي لايفتقر الى النظر الثاقب والإرادة القومية لحلّ مشاكل الشعب الألماني الإجتماعية العصرية. «وهي دملةٌ ظلت تقذف بقيحها في انكلترا» بحسب تعبيره.



تطورها الحضاري، ليتخذوا من ألمانيا وشعبها نموذجاً. وليحاولوا تطبيق ما يحدث فوق أديمها على بلادهم.

ما حصل جديرٌ بالإهتمام حقاً. وقد وقع في زمن كاد يكون متقارباً. ففي لبنان وسورية ظهر الحزب القومي السوري بزعامة (أنطون سعادة) وفي مصر نبط حزب مصر الفتاة بزعامة (أحمد حسين) المعروف بحزب ذوي القمصان الخضر. وهما حركتان غير رسميتين. وفي العراق ابتدع الدكتور سامي شوكت بدعم من الحكومة القومية ومساندة القوميين وتشجيعهم ما عرف بالفتوة أو نظام الفتوة.

وكل واحدٍ من هؤلاء الثلاثة كان يفكر بشكل من وحدة عربيّة، أو وحدة الناطقين بلغة الضاد ولكل كان مفهومه الخاص.

كان الحزب القومي السوري في المبدء يهدف الى تحقيق وحدة سورية الكبرى، ثم أضاف إليها العراق فيما بعد باستثناء كردستان ثم ضمّ إليها جزيرة قبرص. وفكر ذوو القمصان الخضر في أن تكون مصر على رأس اتحاد يتم بين الدول الناطقة العربية.

وسامي شوكت بفتوته، كان يأمل بوحدة عربيّة يقوم العراق على رأسها. وكل هذه الحركات لم تكن تخفي إعجابها وتعلقها بالنظامين النازي والفاشي والنسخ على غرارهما تقليداً حتى في المظاهر.

إن متابعة المراسلات والتقارير التي كانت تصدر من السفارة البريطانية الى الوايت هول حول الوضع الداخلي في العراق وهي كثيرة - لا تنم عن شعور بالقلق أو عدم ارتياح ملحوظ حول التحوّل القومي العاطفي نحو النازية.

وربما كان هناك ما يشير إلى ضيق يسير بنشاط المفوضيتين الألمانية والإيطالية في عالم الدعاية، وبضمنه حفلات الإستقبال لأعضاء نادي المثني والشباب القومي المتحمس، ولقاءات عدة صديقة بين رجال حكم اشتهروا بمواقف معينة متصلبة مع البريطانيين، فضلاً عن ساسة عرفوا عند القوميين بمواليتهم لبريطانيا. ولم يكن البريطانيين يرون في ذلك خطراً على نفوذهم. فالخطر الرئيس عند الاستراتيجيين البريطانيين في ذلك الوقت كان الإتحاد السوفيياتي والكومنترن وتنامي الحركة الشيوعيّة في العراق وهذا هو الذي تكفل لهم هتلر بصده.

من وجه آخر بدا من كان له أي صلة بالبريطانيين في نظر القوميين شخصاً ينبغي الحذر منه على الأقل، وباحتمالات معينة عميلاً وجاسوساً يجب عزله. في حين كان المختلف الى

السفارتين الألمانية والإيطالية والمشارك في أنشطتهما الدعائية قومياً أصيلاً مخلصاً لوطنه وعرويته.

وصدرت تراجم عربيّة لكتاب (كفاحي) ووجدت نسخٌ منها طريقها الى أيدي الناشئة، عزبت إحداها ل(يونس السبعراوي) أحد قادة حركة مايس، وإن ظهرت دون اسم للمترجم. وأدعى (يونس بحري) بترجمة ثانية ل(كفاحي). وعمد المترجمون إلى تغطية وحذف ما كتبه هتلر عن الشعوب السامية ومنها العرب، طبعاً. وفي هذا يقول (السيد بحري) مدافعاً:

"إن أولئك الذين يزعمون بأن الزعيم الألماني هتلر قد وضع العرب في الدرجة السفلى من ترتيب القوميات هم مغرضون وعملاء وضدّ القومية العربيّة. في حين أن من يقرأ ترجمتي لذلك الكتاب وترجمة الشهيد يونس السبعراوي يجد أن العرب هم من أبناء الدرجة الأولى من الأقوام السامية التي وضعها هتلر في الدرجة الرابعة من تسلسل القوميات العالميّة: الآريون (ثم) الأغريق (ثم) اللاتين (ثم) العرب (ثم) السلاف"<sup>(٥)</sup>

(٥) يونس بحري: (أسرار ٢ مايس ١٩٤١ أو الحرب العراقية الإنكليزية، بغداد، ص ٩٥). (أذكر أن الترجمة التي وقعت بيدي في العام ١٩٣٩ أو ١٩٤٠ لم تكن تتجاوز الثلاثمائة صحيفة من القطع المتوسط. وقد وقعت بيدي بعد سنوات عديدة نسخة ألمانية في مكتبة مونيخ العامة (الطبعة الأولى) وهي في جزئين قد يبلغ عدد صفحاتها ٧٨٢. فما الذي حذفه المترجمون العرب وما الذي أبقى عليه منه، وماذا حوروا فيه أو رمجوا أو أضافوا؟ ثم قرأت ترجمة إنكليزية دقيقة له. وقدرت بما لي من خبرة طويلة في الترجمة، أن الترجمة الكاملة العربية له يجب أن لا تتم بأقل من ألف صحيفة. والظاهر أن المترجمين العرب توخوا استخلاص ما وجدوه ملائماً ومناسباً. وأسقطوا ما قد يخلف انطباعاً سيئاً ويولد استخفافاً بالمؤلف. ففي الأصل كثير من الأفكار المرتبطة التي تثير أكثر من الإبتسام والهزء بقائلها. أنت تقرأ فيه آراء شخصية في كل موضوع يخطر بالبال من الحضارة الى الثقافة، الى المسرح والسينما، الى الفن الى الكاريكاتور، الى الأدب والتاريخ والجنس والزواج والفجور والسفلس، (خصص هتلر لموضوع هذا المرض عشر صفحات كاملة).

كما تقرأ في الكتاب تخليطاً لدولة ألمانيا المقبلة والوسائل التي يجب أن تستخدم لجعلها "سيدة العالم" بحسب تعبيره. وحدد كيفية التوسع الأقليمي وقال إنه يجب أن يتم على حساب روسيا ودول شرق أوروبا "إن الحركة القومية الاشتراكية يجب أن تكافح لإزالة عدم التكافؤ بين كثافة نفوسنا ومساحة أراضيها. وإن نحن تكلمنا عن أراضٍ في أوروبا الآن، فبإمكاننا أن نضع روسيا ودويلات الحدود نصب أعيننا أساساً. فهذه الإمبراطورية الجبارة في الشرق تم نضجها للإنتهيار ونهاية حكمها من قبل اليهود هو نهاية حكمها كدولة". وتحدث كثيراً عن الجنس الآري المتفوق ورسم صورة لكيفية صيرورته سيد العالم، بأن يطأ الأقدام الأخرى باقدامه «فمن أجل إقامة حضارة أسمى» كان وجود أنواع منحطة من البشر أمراً لا بد منه - كتهديد سابق! وأهم ما يلفت النظر في «كفاحي» هو محاولة صاحبه تعريف القومية بجهل مطبق في التاريخ وعلم الأجناس. وإليك غاية ما توصل إليه بعد الجهد الجهد ومحاولات عديدة "خلافاً للعالم البرجاسي والعالم الماركسي - اليهودي، تجد في الدولة لا أكثر من وسيلة الى غاية. وغايتها تتأول في =

واستخدمت في العراق كما في ألمانيا النازية، موارد الدولة وسلطتها لنشر مبادئ القومية واث الروح القوميّة العربيّة في المدارس والكليات والمعاهد العلميّة، ناهيك بالجيش. أولى اهتمام بتوجيه مناهج الدراسة إلى هذه الغاية. كما حرصت مديرية المعارف على استقدام واختيار المعلمين المتشربين بالفكرة، وممن يعتمد على مؤهلاتهم في نشر مبادئ القومية بين الطلاب بحماسة ودأب.

وكان المسؤول الرسمي رائد العاملين على نشر تلك الروح الأستاذ ساطع الحصري، الذي أصرّ (فيصل) على تعيينه أوّل مدير عام لوزارة المعارف. كان الحصري موظفاً في وزارة (نظارة) المعارف العمومية العثمانية، ومن موالييد حلب. دُرّب ليكون معلماً. وتولى عدداً من المناصب التعليمية في زمن العثمانيين. وقد أسند إليه فيصل منصب وزير التعليم خلال فترة حكمه سورية. وأسرع باستقدامه الى العراق من دمشق مع رستم حيدر وصفوت العوا.

لا يعلم أي رابطة روحية تلك التي ربطت هذا الرجل بفيصل. ومن يتابع سيرتهما بدقة سيجد حتماً كم هما يختلفان في المشارب والاتجاهات الفكرية. ليس هناك من سبب نجده إلا رغبة شخصية في إحاطة فيصل نفسه في العراق بمن يتوسم فيهم فائدة. والأستاذ محمد مهدي الجواهري - في الفصل الذي عقده للحصري في ذكرياته، لم ينر لنا السبيل أيضاً لاستكناه تلك الرابطة، التي جعلت (فيصلاً) يلتزمه ويطلق له العنان في توجيه سياسة التعليم، متحدياً به أحياناً كثيرة مستشاري الوزارة البريطانية الذين كانوا ينفرون منه بشكل عام - رغم معرفة الجواهري الوثيقة بالشخصيتين. فقد كان قصاره التأكيد بالشرح - كل ما تواتر عن الحصري ومنقول عنه وملاحظ فيه. وأبرز المتواتر المؤكد هو أنه كان في أوّل توليه المنصب يجهل العربيّة ويستعين بترجم تركي. وإنه بقي لا يتقن اللغة ويتكلمها برطانة تركية حتى بلوغه سن الكهولة. وهو أمرٌ من الغرابة بمكان من مؤلفٍ لا تجد له بغير هذه اللغة كتاباً.

= حفظ الوجود العنصري، لذلك فهي لا تؤمن قط بالمساواة بين الأقسام، لكنها وبوجود هذا الاختلاف تعترف بقيمتها العليا أو الدنيا وتشعر بواجبها في انتصار الأصلح والأقوى، وتتطلب خضوع الأضعف والأحط بالنظر الى الإرادة الأبدية التي تحكم هذا الكون... إنها لا تستطيع أن تمنح حق الوجود حتى لفكرة خلقية إن مثلت كخطر على الحياة القوميّة لحملة الأخلاق العليا. ففي عالم مولد نغل يشوبه العنصر الزنجي تشوه الى أبد الأبدن كل مفاهيم الإنسانية في الجمال والجلال، فضلاً عن كل الأفكار الخاصة بمستقبل جنسنا البشري الرفيع. ونحن نشعر جميعاً بأن البشرية ستواجه في المستقبل البعيد مشاكل لا يقوى على حلها إلا أرفع عنصر بشري هو (الجنس السيد) مدعماً بوسائل وإمكانات الكرة الأرضية بأسرها". (كان يُنظر الى كل ما جاء في (كفاحي) نظرة استخفاف ويعد تخريفاً وهذراً لا طائل تحته، حتى بدأ هتلر يطبق برنامج حزبه رسمياً بوجي من أفكاره تلك).

ويشير الجواهري أيضاً، كما أثار (كليفلاند) كاتب سيرته أيضاً، مسألة صدق ادعائه بانحداره من أسرة عربية وهي مسألة ثارت شكوك حولها دون داع. ففي رأينا أن القوميّة والإنتماء القومي هما مسألة شعور. فإن قال الرجل إنه عربي فهو عربي، كمن ينطق بالشهادة عن إيمانٍ ليغدو مسلماً. وقد رأينا من الكرد من هو أشد من العربي عرويةً، ولطالما نعتنا أولئك المتحمسين للنازية بأنهم هتلريون أكثر من هتلر. ولا سبيل لنا إلا اعتباره أول مفكري القوميّة العربيّة أقرت آراؤه وانتشرت في كل أنحاء الدول الناطقة بالعربية. ببروز شخصيته في بغداد في العشرينات والثلاثينات واحتلاله أكبر منصب تربوي في البلاد مما زاد في تعاليمه ثقلاً ومكانة.

بعد حركة رشيد عالي الكيلاني بدء بتطهير وزارة المعارف، التي اعتبرت مركز نشر الآراء القوميّة المتطرفة المشايعة والمعادية للبريطانيين.

ترك الحصري منصبه التعليمي الى منصب فني آخر - لتلميذه الدكتور سامي شوكت الذي زاد على آرائه تطبيقاً عملياً باستحداثه نظام الفتوة شبه العسكري وبإيغاله في الاستمداد من المعين النازي ونظرية التفوق العنصري<sup>(٦)</sup>.

أدرك الحصري بنظرته النافذة ويعين الحاسّة التي نجدها عند صاحب كفاحي، التأثير الديني في عرقلة المسيرة نحو القوميّة وكم وقف الدين عقبة في سبيل الوحدة الألمانية. فاهتم كثيراً بتنفيذ وأدراء هجمات علماء الدين، الذين اعتبروا الإسلام فوق القوميّة ووضعوه في المقام الأسنى، ورأى أن في تأكيد الهوية القوميّة للمسلمين فحسب خطراً على التماسك الإسلامي بحد ذاته، وإن الوحدة العربيّة يجب أن تسبق الوحدة الإسلامية التي سوف لا يتعذر بلوغها. إذن فمعاداة الوحدة العربيّة سيكون في الواقع عقبة أمام وحدة المسلمين.

وأنكر الحصري أن يكون الإسلام أو أي دين قادراً على إقامة وتأمين كيان سياسي. وهو بذلك ينحو منحى مفكري الألمان القوميين ويرجع صدهم ليس غير. مؤكداً كما أكد هتلر، بأن الفرد لا يجد تحقيقاً كاملاً لشخصيته إلا في دمج نفسه بقوميته، وبتسليمه مقدراته ومحض

(٦) ترك الحصري مديرية المعارف إثر الضجة التي أقامتها عليه الشيعة. وعين مديراً عاماً للآثار القديمة. وبتنتيجة عملية التطهير الواسعة التي اضطلعت بها الحكومة العراقية بعد حركة رشيد عالي في مايس ١٩٤١، جرد من جنسيته العراقية وطرد من البلاد، إلا أن نفوذه الفكري بقي يسود الحركة القومية. وفي سورية تولى منصباً تعليمياً، ثم أسند إليه إثر تأسيس الجامعة العربية رئاسة المكتب الثقافي، ففسح له المجال لنشر عدد كبير من الكتب ضمنها آراءه القوميّة، وقيل أن لها الفضل الكبير في هداية جمال عبدالناصر الى فكرة الوحدة العربيّة وجعلها القطب الأيديولوجي لنظامه حتى وفاته.

الولاء الكامل للدولة. نقل (الكاتب) للحصري قوله في محاضرة ألقاها على أعضاء نادي المثني:

"من يرفض أن يفنى في قوميته التي ينتمي إليها. قد يجد نفسه في بعض الأحيان فانياً في قومية أخرى قد تتغلب يوماً ما على بلاده، لذلك أقول دائماً وبدون تردد الوطنية والقومية هما فوق كل شيء بل حتى فوق الحرية وقبل الحرية"  
وكان نادي المثني هذا أول محاولة للتجمع التنظيمي القومي في العراق. واسمه مقتبس من القائد الشجاع البار (المثني بن الحارث الشيباني) أحد أبطال فتوح العراق العربي في 6٣٥م. كان القائد العربي الوحيد الذي قُتل أثناء المعركة.

وبرنامج النادي المسطر ينص على بث الروح القومية العربية والمحافظة على التقاليد العربية وتقوية الشعور بالرجولة العربية عند الشباب والعمل على بناء حضارة عربية جديدة بنتيجة تغذية التراث العربي وتوحيده بما هو ذو قيمة من الحضارة الغربية<sup>(٧)</sup>.

بقي هذا النادي محدود النفوذ والشهرة زمنياً، ثم مالبت أن ارتفعت شهرته وصلب عوده، عندما وثق روايته بعدد من ضباط الجيش ومعظمهم من الموصلين وأبرزهم العقيد صلاح الدين الصبّاح.

كان تيار النازية يجري في عروق الدعوة القومية دون أن يعترضه عائق. بإغضاء البريطانيين ورضاهم وأملهم في أن يكون هذا الوليد، الذي خرج من رحمهم ومن بنات أفكارهم، قادراً على الوقوف في وجه الأفكار الشيوعية، وقد لقيت اهتماماً ملحوظاً في أوساط العمّال وطلاب المعاهد الدراسية العالية بفضل نشاط الحزب الشيوعي الذي تأسس في العام ١٩٣٤. وبعد أن تكاثرت الدلائل على أن أعضاء ومؤازرين له كانوا وراء الإضرابات العمالية والاجتماعات الجماهيرية، مما أقلق البريطانيين إلى حد كبير. وبخاصة تلك البيانات والنشرات التي كانت الجماعات الماركسية والحزب الشيوعي في بغداد يوزعونها، وكلها تنديد بالإستعمار البريطاني. فلأول مرة بدأت كلمة "الإمبريالية"<sup>(٨)</sup> تظهر إلى جانب كلمة

(٧) في العام ١٩٣٦ كان الدكتور صائب شوكت (شقيق ناجي شوكت) رئيساً للنادي ومن أعضائه البارزين الشقيق الآخر الدكتور سامي شوكت، وصديق شنتل المحامي والدكتور عبدالمجيد القصاب وفائق السامرائي المحامي والسيد محمد مهدي كبه والدكتور فريد زين الدين، والأستاذ عبدالرحمن البزاز، وقد بلغ قمة نفوذه خلال الأعوام ١٩٣٨-١٩٤١. فطور بعدها وشتت شمل أعضائه، إلا أن نواة له أخرجت الحزب القومي الذي عرف بحزب الإستقلال في ١٩٤٦.

(٨) استخدمت هذه الكلمة في إنكلترا بحدود أواخر العقد السابع من القرن التاسع عشر - كإدانة لما بدا =

"الإستعمار" أو وحدها في الأدبيات الشيوعية لتأخذ طابع الشتيمة وبكل ما في معناها من استفزاز للنفوذ البريطاني. وأختير تعبير "عملاء الإمبريالية" خصيصاً لتنعت به الطبقة

= تحكماً وسوء استخدام للسلطة البريطانية في المستعمرات خارج أوروبا. ومع ذلك فقد وجدته بناء الإمبراطورية البريطانية مصطلحاً جيداً يصح إطلاقه على أنفسهم فروجوا لاستعماله، وكانوا راغبين جداً في أن تنسب إليهم هذه الصفة (أي الإمبريالية - Imperialists). لكن ما إن جاءت نهاية القرن التاسع عشر، حتى ساد للاسم معنى معاكس جديد. عندما صار المقصود منه استخدام سلطة الدولة البريطانية في ما وراء البحار استخداماً شاذاً وتسخيرها لخدمة المصالح الإقتصادية للوطن الأم. ما هي تلك المصالح الإقتصادية؟ وكيف يعمل الإمبرياليون من أجل تحقيقها وجني فوائدها؟ كان هذا هو الميدان الذي جالت فيه الأقلام وصالت، وكان موضوع مناقشات كثيرة في مفتح القرن العشرين، لاسيما عند طبقة الكتاب الإجتماعيين والإقتصاديين الذين شايعوا نظريات كارل ماركس وبشروا بها، وأشهرهم بلا جدال (لينين) وكتابه (الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية) الذي ألفه في العام ١٩١٦، صور فيه احتكار الرأسمالية المالي الذي سيقع سائر أقطار العالم فريسته الحتمية. وبعد هذا التعريف الذي اشتهر بالتعريف اللينيني للإمبريالية - سار الكتاب الماركسيون على نهجه في استخدام تعبير الإمبريالية لوصف العلاقات بين ما اعتبروه الغرب الرأسمالي وبين بقية العالم. وفي أحوال غير هذه ندر التعبير أن استخدم بشكل علمي دقيق، إذ خرج عن المعنى التكني المرصد له ليغدو من أوصاف التشنيع والتشهير والقذف بكل ما يفترض في السيطرة والتحكم من أي جهة سياسية أجنبية مكروهة عند مستخدمه. لكن وفي أوائل الخمسينات من هذا القرن لم يتردد القوميون العرب من استعادته واستخدامه في أوسع نطاق ممكن للتعبير عن نفوذهم ومحاربتهم النفوذ البريطاني. وقد بقي يطرز أدبياتهم حتى أفلت شمس القومية العربية. وقد بدا في أوائل السبعينات من القرن الماضي وكأن هناك ميلاً إلى إسقاط المؤرخين والكتاب هذا التعبير، فأهملوا استخدامه في الغرب لكن أنفاسه ظلت تتردد في أجواء الماركسية. ففي عرف أولئك أن الكلمة وإن لم يعد لها موضع لصيرورتها تعبيراً مبتدلاً غير دقيق - إلا أنها ذات مفهوم تاريخي ثمين رغم عدم دقتها. إذ آلت المحاولات لإيجاد بديل أدق إلى الفشل. واتخذت كلمة الإمبريالية مفاهيم وأزياء شتى بحسب أدواق الكتاب واتجاهاتهم، إلا أن أشيع التعاريف وأكثرها استعمالاً في الوقت الحاضر على ما يبدو هو "ممارسة مجتمع ما سلطة على مجتمع آخر". وبهذا التعريف المتواضع تكون الإمبريالية ظاهرة اجتماعية من الظواهر التي تلازم كل عصر من العصور التاريخية للمجتمعات البشرية المنظمة، على أن هناك اتفاقاً ذا نطاق واسع بأن الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان العصر الكلاسي للإمبريالية. فهذه الفترة كانت فعلاً فترة نمو القوة الأوروبية نمواً مدهشاً بعامل الفتح العسكري وخلق إمبراطوريات جديدة، ولم تشذ الولايات المتحدة عن هذا. فقد كان لها إمبراطوريتها أيضاً. مع هذا فلو وضعنا في حسابنا الشعوب التي تم إخضاعها والمساحات الشاسعة من الأراضي التي استولى عليها، فإن تراث الإمبرياليات السابقة الأخرى لفترة استعمار الأمريكيتين في القرن السادس عشر، وفترة إستعمار الهند في القرن التاسع عشر، كانت فترات مذهلة لا يمكن أن تقاس بها الإمبريالية العربية. فالأولى لاتقاس كالثانية بمسطرة الفتوح العسكرية: (للتوسع في هذا الموضوع ينصح بالرجوع إلى كتاب ريتشارد كولر وأ.ج. دي. شميدت Richard Kolmer, H. D. Schmidt الموسوم: الإمبريالية: تاريخ ودلالات العالم السياسي Imperialism: The Story and Significance of a Political World ط. كمبرج في ١٩٦٥).

ذكر الحسيني: المرجع السالف ج ٤ ص ٢٩) ما أورده هنا نصاً: "إنتشرت الأفكار الشيوعية بين الأهلين في بغداد انتشاراً كبيراً في أيام هذه الوزارة (وزارة المدفعي) واشتهبت الشرطة بعدد من الكتاب والمحامين ببثهم هذه السموم في العراق. فقبضت عليهم في يوم ٤ تشرين الأول ١٩٣٤ وساقتهم إلى الناصرية =

الحاكمة. ويعين القوة والشراسة كانت الحركات الماركسية تهاجم النازية والفاشية وتنبه طرف غير مباشر الحركات القومية الى خطر انزلاقها نحو تبني مفاهيم وآراء هذين النظامين. إلا أنها انزلت هي نفسها ما إن تورط الدستوريون الى هاوية مساندة دكتاتورية بكر صدقي العسكرية حيناً من الزمن، وانكشف لها ذلك عندما لجأ هذا الدكتاتور في قمع إضرابات العمال وكتم أنفاس النقابات الى عين الوسائل التي أدانوها في أثناء حملتهم على النظامين الفاشيين.

كان كل من القوميون والماركسيين ينتظر زعامة تصلح الأمور وتنقذ البلاد من فساد الطبقة الحاكمة وأنانيتها. القوميون المجدد بدأوا يفقدون ثقتهم بمعظم رجال الحكم القوميون القدماء. والماركسيون كانوا يعملون لثورة پروليتارية شبيهة بما حصل في أكتوبر بروسيا، وبألمانيا وهنغاريا بعد الحرب العظمى، وكلاهما كان يتطلع الى زعامة جماهيرية. وجد القوميون في هتلر مثلاً أعلى. ووجد الشيوعيون صورتهم المثلى في (جوزيف ستالين)، الذي رفعته الأدبيات الشيوعية إلى مقام أنبياء الإشتراكية الثلاثة الكبار وأخفت دكتاتوريته اللاپروليتارية مجاهرة وبدقة فائقة.

= لإجراء محاكمتهم فيها. ولبثوا في السجن مدةً ظهرت براءة البعض منهم وحكم على البعض بعقوبات منوعة» أه.

كان (فهد) على ما أعتقد وتساعفني الذاكرة واحداً ممن حكم عليهم (أنظر ما سبق). والذي يدهشني حقاً أن كتاب (حننا بطاطو) وهو أهم وأكبر مرجع لتاريخ الحركة الماركسية والشيوعية في العراق، المتتبع لحياة ونشاط كل من برز فيها - يخلو من أي تنويه وإن كان عابراً بهذا الحديث المركزي. وبقدر ما يمكنني التعليق على هذا النص. فأننا أذكر أوائل العام ١٩٣٥ وفي الناصرية وكنت قد رافقت طالباً من طلاب المتوسطة وهو في طريقه الى دار الحكومة (السراي)، الذي لايبعد أكثر من مائة متر عن مدرستنا. كان يحمل رزمة فيها ثياب ومناخ لرجل معتقل قال إن اسمه (عبد الحميد الخطيب) وهو شيوعي مشهور تربطه صداقة بقريبه صاحب الهدية. وأذكر أنني منعت من دخول السراي ووقفت أمام المدخل أشاهد زميلي يسلم الرزمة لرجل مرسل اللحية كان جالساً على كرسي أمام حديقة السراي التي تتوسطها. وبعد سنة وبعض سنة تذكرت الرجل والإسم عندما وقعت بيدي كراريس ثلاثة أو أربعة لكتاب مسلسل عنوانه (روسيا الدامية) وعلى جلده صورة قلمية لدب (الشعار الروسي) يحمل اسم عبد الحميد الخطيب مؤلفه، وهو بجملته وصف لمعاناة الروس في ظل الحكم الإشتراكي. كنت آنذاك أقرأ كل ما يقع بيدي وقد تتبعت الكراريس كلها. وأقرأ بأن ما قرأته في هذا المسلسل كان له تأثيره الباقي. وقد ظهر فيما بعد أن ما ورد في الكتاب عن المجاعة الكبرى التي أهلكت ملايين وتصفية الكولاك (الفلاحين الملاك) الدموية التي باشروها ستالين هي حقيقة تاريخية لا مجال للتعن فيها. يذكر (حننا بطاطو) أن هذا الرجل كان أحد المدسوسين على الشيوعيين منذ العام ١٩٣٤ وما أظنه كذلك بواقع الحال. والغالب أنه عقد صفقة مع السلطة أثناء توقيفه وبجالتة التي رأيتُه فيها. أفكان من ضمن الزمرة التي ذكرها (الحسني) عرضاً ولم يعط لها تفصيلاً؟

سرعان ما انكشف للإثنين أن رجل الإنقلاب ليس رجلها وإنما هو لايعدو مغامراً عسكرياً أفاقاً يعمل لحسابه فقط، وشأنه شأن سائر المغامرين العسكريين الذين عزيت إليهم إنقلابات دول أمريكا اللاتينية.

وكان من الطبيعي أن يحظى الإتجاه القومي بنوع من الرعاية والتشجيع من المقامات البريطانية لأنه خط معاد للشيوعية الأمية، التي تجد في الدعوة القومية أياً كان مصدرها خطراً على الوحدة العمالية الدولية، رغم اتفاقهما على التنديد بالإمبريالية والإستعمار والتبعية الأجنبية، بريطانيا وفرنسا، إن شئت تحديداً.

أرجو أن لايعجب القاريء من استطراداتي المسهية حول النظام النازي ومحاولتي عرض صورة شاملة قدر الإمكان لنظرياته ونشاطه وأساليبه الدعائية. فقد بقي تأثيرها عند القوميون العرب ولم يقلحوا في استخلاص أنفسهم منه، وطبعت الحركات القومية العربية كلها بطابعه الخاص واحدة بعد الأخرى. ولم تتخلص منها قط حتى أقل شمسها وعفي عنها. رغم محاولة عدد كبير من المفكرين والزعماء القوميين اضعاف طابع الديمقراطية والليبرالية على برامجهم القومية. محاولات باءت بالفشل دوماً وسحقت تحت أقدام العسكريين القوميين أو المتخذين الزي القومي عند استيلائهم على السلطة. وعلى هذا يمكن القول أن الأفكار النازية عاشت في البلاد الناطقة بالعربية زهاء ربع قرن بعد انهيار النظام النازي على رؤوس بناته بهزيمة ألمانيا في ١٩٤٥.

وإلى حين عمدة رجال الحكم العراقيين إلى مسايرة الإنعطاف القومي المحلي العام نحو ألمانيا النازية. لم يجدوا في ذلك نوعاً من تناقض بين هذا وبين ولائهم لبريطانيا. بل كان مصدر ارتياح لبعضهم من المدنيين والضباط العثمانيين السابقين - ممن احتفظ أبدأ بعطف خاص على ألمانيا والألمان وتألما في قرارة أنفسهم من هزيمتها في الحرب العظمى. فضلاً عن أن التقارب كان يتفق وسياسة بريطانيا الخارجية العامة وقتذاك.

وزاد تقرب الحكام العراقيين من ألمانيا بعد رفع ممثلتها الدبلوماسية إلى مرتبة المفوضية وتوقيع معاهدة التبادل التجاري بين البلدين أيام وزارة (الهاشمي) في آب ١٩٣٥. ولم يكن الموقع العراقي غير نوري السعيد إزاء توقيع الدكتور (فرتز غرويه) الوزير المفوض والعضو البارز في الحزب النازي خريج مدرسة (غوبلز) في الدعاية، التي كانت مفوضيته حتى إغلاقها عشية إعلان الحرب ملتقى كبار القوميين العراقيين ومصدر دعاية واسعة متقنة للنازية ولما حققته من إنجاز.

تلك المعاهدة رفعت ألمانيا الى مرتبة الدولة صاحبة الخطوة الأولى في التبادل التجاري، وهو المقام الذي كانت تنفرد به بريطانيا في العراق. والأهم من هذا إنها صارت وسيلة لتزويد الصهاينة بالمال، الذي كانت هجرتهم اليهودية الى فلسطين بأمس الحاجة إليه، كما سنكشف عنه فيما بعد.

\*\*\*

عنصر المشابهة وعامل استمداد القومية العربية من الفلسفة النازية يقف عند حدود معينة لم يكن من مصلحة العرب أن يتخطوها أو يتجاهلها. ألمانيا كانت تريد أن تتخلص من قيود معاهدة فرساي واحتلال الحلفاء لأغنى بقعة فيها. وإعادة بناء جيشها القوي الطائر الصيت ولم شعث الألمان والأراضي الألمانية، التي ضُمت إلى الدول الأوروبية الوسطى بعد الحرب. وكل هذا يتفق مع تطلعات ومطامح القوميين العرب في التخلص نهائياً من السيطرة الأجنبية واستقلال البلاد الناطقة بالعربية وإقامة الوحدة العربية، التي انداحت فيما بعد وخرجت عن نطاق الهلال الخصيب والجزيرة لتمتد من المحيط الى الخليج، وبناء جيش عربي قوي للدفاع عن التراب العربي ضد الغاصبين. وخصوصاً لادراء هجمة الصهيونية على جزء من الوطن العربي الكبير والعمل على استعادة المجد الموثل بالتذكير بوقائع الفتحين العرب والمزاي والفضائل الخلقية الرفيعة التي تحلى بها الأجداد<sup>(٩)</sup>. مثلما دأب النازيون على التذكير بالمجد

(٩) لم يكن المعلمون الذين أختيروا لتدريس العلوم الإجتماعية من البلاد الناطقة بالعربية، يقدمون لتلاميذهم تاريخ العرب بشكل صحيح. وأذكر ما أذكر الكتاب الذي قررت وزارة المعارف وضعه مقررأ بيد طلاب الصف المنتهي من المدارس المتوسطة عام ١٩٣٧ والذي تزيد عدد صفحاته عن الأربعمئة عنوانه (تاريخ الأمة العربية) لمؤلفه محمد عزة دروزة الفلسطيني. حشر فيه المؤلف حكايات كثيرة حول الخلق العربي تفتقر الى سند تاريخي وتجري مجرى الأساطير. فتحت عنوان (وفاء العرب) وردت حكاية السموال بن عادياء، الذي فضل أن يرى ابنه يقتل أمامه على أن يسلم ما ائتمن عليه. ولم يذكر المؤلف بطبيعة الحال أن السموال كما وردت قصته كان من شيوخ العرب اليهود. وأن اليهودية تعتبر تشريفاً للعربي في مجتمع جاهلي يعبد الأصنام. وفي فصل آخر عن (كرم العرب) قرأنا أسطورة حاتم الطائي الذي كان يوقد ناراً أمام خيمته في الصحراء استجلاباً للضيوف ويطلق عبده في الفيافي ليجلب له ضالاً على أن يعتقد عند ظفزه بواحد، وفي تلك المرحلة من الحداثة ما كان الطالب على مستوى من التفكير ليناقد في مسألة عدد العبيد الذين كان يملكهم هذا المحسن العظيم ويطلقهم من ضيعته في الصحراء ليتصيدوا ضيوفاً. وقرأنا عن (زرقاء اليمامة) من جديس التي كانت تتمتع بباصرتين أشد مضاءً وأبعد مدى من أي ناظور اخترعه البشر. إذ كانت ترى الشيء من مسيرة ثلاثة أيام (خمسسين ميلاً على الأقل) ولا تقف أمامها قلعة أو غابة عائقاً. ولم يكن بمقدور مؤلف الكتاب بطبيعة الحال أن يتحرى الأسباب الحقيقية التي أدت الى سلسلة الحروب المعروفة ب(حرب البسوس) لا لأنها كانت بسبب مقتل تافه اسمه (بسوس)، حروب إن صحت مكانتها في تاريخ الجاهلية، فأسبابها تتعلق بشؤون إقتصادية بحته وهي المنافسة على حقوق الرعي =

الألماني إبتداء من فرسان التيبوتون وانتهاء بفردريك الأكبر وهندنبرگ.

إلا أن النازية استعانت على تنفيذ برامجها بمزاي وصفات في الشعب الألماني يفتقد العرب أغلبها. فالألمان الذين كانوا قد تعودوا النظام، وتميزوا بتقدم حضاري، ووحدة لغوية وعنصرية. وطورا صفحة الخلاف المذهبي منذ أكثر من ثلاثة قرون، وتمرنوا زمناً طويلاً على إطاعة القوانين الصادرة من الأعلى بالغ ما بلغت من الشدة والتعسف، لم يجدوا حرجاً في التناقل مع نظامهم الجديد، الذي تمكن بضربات حاذقة من القضاء على الفوضى والبطالة والتخلص من قيود الحلفاء.

وهذا هو الحد الذي وجب على القوميين العربيين ومفكرهم أن يقفوا عنده، ليخمنوا مثلاً كم ستكون درجة نجاحهم باتخاذهم ما يفعله النازيون هؤلاء مثلاً يحتذى والى أي مدى يمكنهم التوفيق ثم الإستفادة، بين ما أحجزه هؤلاء وما يستطيعون هم إنجازه. وعناصر الاختلاف تبدو كثيرة، ومعقدة.

فالنظرية النازية تقوم على نقاوة العنصر الآري الجرمانى، الذي يكفل بناء الرايخ الثالث من مجتمع قومي خالص توفرت فيه شروط النقاوة كما رسمتها الدولة. في حين لا يرى العربيون مبدئياً - ذلك شرطاً ولا يجعلون منه عقبة فيمن يؤمن بعروبيته وقوميته أياً كان منبته. وكذلك لا يؤمن القوميون العرب بسيادة عنصر متفوق على عنصر آخر - نظرياً على الأقل ولا أن يسخر قوماً لخدمته، مسلماً كان أم غير مسلم. بل يرحب القوميون العرب بالمسيحيين والکرد والمستعربين أو غيرهم ممن اقتبل القومية العربية عن قناعة وإخلاص للفكرة.

على أنهم ينسون في أحيان كثيرة بأن العرب هم آخر الأقوام النازحة الطارئة على البلاد الناطقة بالعربية، من الجزيرة بسبب الفتح ونشر راية الإسلام. وعلى أساس من هذا يعتبرون العراق مثلاً - وبكامل حدوده التي رسمتها قوة أجنبية جزء لا يتجزء من الوطن العربي الكبير، ثم يتفضلون على الأقليات العراقية من سكنة البلاد الأصليين أو الذين استقروا فيها قبلهم بالمساكنة والعيش معاً لكن بالشروط التي يضعونها. ويتغاضون تنازلاً منهم وتفضلاً عن بقاء الكرد في جبالهم ولا يحاولون إجلائهم عنها. كما فعل النازيون بالعناصر السامية.

إلا أن القومية العربية ظلت أبداً تستمد قوتها من العامل الديني. وهو يلوح في تعاليم مفكرها ودعاتها دعامة مركزية لا سبيل للاستغناء عنها. في حين لم يكن للدين أهمية في

= والزعامة. أمثال هذه الحكايات الأسطورية تجدها في تاريخ كل الأمم، إلا أنها لا تدخل متاهة التعليم ولا تروى لبعث الروح القومية. وإنما يتزود بها الأمهات ليقتصنها على أطفالهن إستجلاباً لنومهم.

استعدادها لتكوين فوج يزيدى خاص يضمّ اليزيدية المجندين كافة، فيقوم هذا الفوج بطوقسه وآدابه يرتدي من اللباس ما لا يتعارض وشعائره!"<sup>(١٢)</sup>

واجه الجيش بأسلحته الحديثة ومدافعه لوحده ومن غير معونة بريطانية هذه المرة - بضع مئات من القبليين الكرد بأسلحة تكاد تكون أثرية. وحقق انتصاراً سهلاً بقصف مدفعي وجوي مركز على جبل سنجار. وكان انتقاماً فظاً قاسياً يفوق ما أقدم عليه الجيش في ثورات الجنوب. ويصدد المحاكمات التي أجراها المجلس العرفي العسكري يذكر:

"عشر المجلس العرفي (كذا) على وثائق أثبتت تحريض بعض المثقفين المتصلين بأعداء العراق، على قيام اليزيديين بهذه الثورة، فلم يتوان عن طلبهم لإجراء محاكمتهم، وكان بين الذين صدرت أحكام الأعدام بحقهم شخصان معروفان في الموصل، قيل عنهما إنهما كانا من عمّال الفرنسيين في الموصل. وقد تدخل السفير البريطاني في هذه الأحكام وقال إنه يخشى أن يكون للعاطفة الدينية دخل فيها وطلب تدقيق قضايا المحكومين من قبل هيئة عدلية تؤلف في بغداد لهذا الغرض. فجيء بالأوراق التحقيقية وتولى السيد رشيد عالي الكيلاني بصفه كونه وزيراً للعدلية بالوكالة - تدقيقها بنفسه. فلم يجد ما يستلزم إبدال عقوبة الإعدام بغيرها - لاسيما بوجود إقرارات المحكومين فنفذ الحكم حالاً"<sup>(١٣)</sup>

جريمة المختارين اليزيدية السبعة الذين شنقوا هو امتناعهم عن تقديم قوائم المكلفين بخدمة العلم - أمّا الأثنان اللذان وصفهما الحسنى "بالمثقفين" فأحدهما عبدالله بولص (فائق) المحامي المعروف بـ(عبدالله فائق) وهو رجل قانون كلدآشوري ينحدر من عائلة عريقة مكنته حالته المالية من إكمال دراسته في كلية (مدرسة الحقوق) ببغداد. وهو من مواليد ١٨٩٠ ولابد أنه كان من زملاء (رشيد عالي) أثناء الدراسة. مارس المحاماة في أواخر الحكم العثماني، وكان عضواً منوياً في محكمة الإستئناف وقتذاك. ثم انصرف الى المحاماة وعدّ أبرع المحامين في المنطقة العدلية الشمالية. وكان وهو المسيحي الوحيد موضع حسد وغيره من

(١٢) كذا: ص ١٤٩. معارضة اليزيدية التجنيد الإلزامي والقرعة العسكرية تاريخاً في عهد العثمانيين، سفكت فيها دماء وأرغمت الحكومة بالأخير على إعفائهم منه، لأنه لا يتفق وتقاليدهم الدينية.

(١٣) يورد الحسنى إحصاءً دقيقاً بثمرات المحاكمات العرفية في جبل سنجار: من بين ٥٢٤ رجلاً استسلموا للجيش سبق الى المحاكمة ٣٩٦ متهماً، حكم على ١١ منهم بالموت نفذ بتسعة وأبدل الحكم بحق إثنتين. وبلغ عدد المحكومين بالسجن مدداً مختلفة ٣٢٦ شخصاً. والذين حكم عليهم بالسجن في الإصلاحية لصغر سنهم ثلاثة وعلى ٤٩ بالإبعاد. وحكمت المحاكم المدنية على ٧ بعد إلغاء الأحكام العرفية. (المرجع السالف: حاشية ص ١٥٢).

لو نحينا جانباً تصورات هؤلاء في إمكان خلق مجتمع قومي متجانس بالتربية العسكرية الجماعية، وحياة الثكنات والمخيمات بغية إزالة الفروق الطبقية والفكرية والمذهبية الخ... كما ذهب إليه الأستاذ الحصري وخليفته الدكتور سامي شوكت. فستبقى العقيدة الدينية والمذهبية التي تنعت عادة بـ"الطائفية" تفسد كلّ زواج محتمل بين الأفكار النازية والطموح القومي العربي.

لم يحاول الشيعة والسنية مثلاً، أن يحلّوا فيما بينهم معضلة عدم رؤيتهم هلال العيد في يوم واحد. فلا قوة في الأرض ولا لشهادة أعظم فلكي العالم مقدرة أو تأثير على حل هذا الخلاف بين الفريقين، في حين لا يحتاج الى جهد كبير في تبني الطائفتين موقفاً موحداً عندما يعلن للملا بأن الدين في خطر فالدفاع عن الإسلام ضد المعتدين عليه فرضٌ واجب على كلّ مسلم. ولهذا لم تجد الحكومة العراقية صعوبة تذكر في التآليب الديني ضدّ الآشوريين، ومكّنها في الوقت نفسه من إطفاء أول بوادر الثورة في الجنوب. أو تأجيلها الى حين بتحويل الأنظار الى الآشوريين في الشمال.

من ذيول مذابح آب تبرز واقعة مأساوية وجدت لها نماءً في تأريخ العراق تصحّ مثالاً لفعالية العامل الديني في التآليب القومي، ويأتي في سياق انتفاضة اليزيدية المسلحة احتجاجاً على تطبيق قانون التجنيد الإلزامي، وفيها فاز الجيش بحصّة مكّملة أخرى من الضحايا<sup>(١٠)</sup>.

وفي محاولة ربط قيام يزيديّة سنجار بأحداث آب ١٩٣٣ يقول الحسنى (وهو ينقل الرأي الرسمي):

"كان للآثار التي تركتها ثورة التياريين على الحكومة العراقية في آب ١٩٣٣ والدعايات التي يبثها أعداء العراق في الخارج، تأثير كبير على مشايخ اليزيديين حملهم على امتشاق الحسام في وجه الحكومة... كما أن الأجانب في سورية كانوا يحشونهم على التمرد ليوهموا عصبة الأمم بأن من العبث منح سورية استقلالها بعد فشل التجربة في العراق"<sup>(١١)</sup>

ويستبق (الحسنى) ذلك بالقول الغريب: "عرضت الحكومة على اليزيدية

(١٠) أنظر تفاصيل ذلك في الكتاب الثالث.

(١١) الحسنى: (المرجع السالف) ج ٣ ص ١٥٠.

وجامع البابا وألقيت خطباً نارياً ضد المسيحيين كافة.

قال لي أولئك الذين عاصروا الحادث كان الهياج أعظم بكثير مما حصل قبل تسع سنين في سوق العتمة مع الليثي الآشوري. فأغلقت دكاكين المسيحيين واليهود، وأوصي الصبية بعدم الخروج الى الشارع وملازمة البيوت. وتعطلت الدراسة في المدارس الطائفية، وهو ما أذكره بصورة خاصة ولم أكن أعرف له سبباً في حينه، وساد رعبٌ وقلق نفوس زهاء عشرين ألفاً، الأمر الذي حمل المطران (يوسف غنيمه) الوكيل البطريك على مقابلة متصرف اللواء، وذكره بأن ما يحصل يسيء الى موقف العراق أمام عصبة الأمم في الوقت الذي يجري البحث حول الإستقلال. وعندئذ فقط تحركت ماكنة الدولة في بغداد، ووجهت الى المتصرف رسالة تأمره فيها: "أن يقبض على زمام الأمور فوراً"، فلم تمض ساعات حتى هدأ كل شيء وكان أمراً ما لم يحصل. ثم نقلت قضية "كُفّر" عبدالله بولص الى بغداد للنظر فيها استثنافاً، وقضت محكمتها بإلغاء الحكم وبرأته<sup>(١٤)</sup>.

(١٤) في العام ١٩٤٦ سيق مؤلف هذا الكتاب بتهمة مماثلة. جيء له بشهود معظمهم وكلاء أمن، ليشهدوا عليه بأنه عقد اجتماعاً في جامع النبي يونس بقرية نينوى تطاول فيه على الدين الإسلامي. وكان قد قصد تلك الأنحاء بوصفه مراسلاً لجريدة الوطن لسان حال (حزب الشعب) لاستطلاع أحوال الزراعة بطلب من المزارعين وكتابة تقرير حول ذلك، تأييداً لمطالبتهم بالمعونة الحكومية. فدبرت له تهمة عقد اجتماع غير قانوني مبدئياً. إلا أن القاضي (عبدالباري توفيق) شاء ان يزيد في الكيل بعد الحكم بالحبس على المؤلف بتهمة لا تتجاوز غرامتها عشرة دنانير، بفتح قضية جنائية أخرى وفق المادة ٨٩ فق (أ) الى الأشغال الشاقة لمدة سبع سنين. وفي حينه سحبت وزارة العدالة هذه القضية قبل المرافعة وأغلقتها وفق قرار عام اتخذته الحكومة في حينه بغلق الدعاوى السياسية عن الأحزاب.

وفي مجال عملي القانوني خلال السنوات التالية نشأت بين الكاتب وبين خير الدين العمري رئيس بلدية الموصل علاقة مودّة (أشغل قبلاً منصب وكيل رئيس التشريعات في البلاط الملكي، وكان نائباً أكثر من مرة). وانقلبت العلاقة الى صداقة لتنداح الى عدد كبير من أفراد آل العمري. وكثيراً ما روى لي ذكرياته حول رجال الحكم والأحداث في العراق. من ذلك انطباعاته عن مذبحه (سيميل)، حيث كلفت بلديته بطمر جثث القتلى. ومما أذكره عنه قوله أنه لم يكن يطبق رؤية (إسماعيل عباوي)، وهو الضابط الأمر بتنفيذ المذبحه وأنه أمر فرأشه بمنعه من دخول مكتبه إطلاقاً. ذات مرة وكنت في مكتبه ومعني أكثر من زائر توجه الي بصراحته المهودة قائلاً: "أريد أن أعترف لك وأعتذر". وفي دهشة مني استرسل يقول: "قبل سنوات جاعني عدد من وجهاء البلد يقصون علي باستنكار وسخط رواية عن محام مسيحي اجترأ على الدين الإسلامي في مسجد. وطلبوا أن نباشر عملاً جماعياً ضده". فأجبتهم: "إن كان ما ذكرتموه صحيحاً فمن السخف أن يفعل شيء كما تقترحون، وليس له عندي إلا أن أستقدمه وأضربه عدة أسواط على قفاه كما نفعل بالصبيبة الأشقياء، أو الأفضل أن أدعه لأبناء طائفته ينتصفون منه، لأنه أساء إليهم أكثر مما أساء الى الدين الإسلامي هذا إن كان صحيحاً ما عزوتم إليه. إلا أنني أشك كثيراً فيه. فمسيحي يمتن القانون ويطعن بالإسلام في محلّ عبادة الإسلام وبين جمهور من المسلمين ويخرج سالماً مشيعاً بحفاوة؟ وفي بلد محافظة كالموصل؟ أظن أن الأخلق بالجلد هم الشهود. بل ذلك الموظف المسؤول (وكان المتصرف) هو الذي يستحق الجلد لأنه أمر بتحريك مثل هذه القضية". وقد أطلعتني في وقت ما على جانب من مذكراته =

زملائه المحامين. ولا بد وأن نجاحه في مهنته كان يقابلها عداً واضطغان من الخصوم الخاسرين. عُرف ببعده عن أي نشاط سياسي وانصرافه التام الى ممارسة المهنة. ولم يكن له أي دور في قضية النزاع على ولاية الموصل، رغم أنه كان يعدّ أحد أشهر اثنين بين الطائفة الكلدآشورية وقتذاك.

والثاني هو الكلدآشوري أيضاً ويدعى (عبدالكريم قره گله) كان من أكبر المزارعين وأصحاب الأراضي في نواحي سنجار وفيشخابور. ومن أوائل من استخدم المكننة الزراعية والأساليب الحديثة في استغلال الأرض بنصب المضخات واستخدام آلات الحصد والبذر والجرارات. وأنشأ بسبب من ذلك علاقة زراعية مع البيزيدية والآشوريين. فيها مصالح متبادلة وولاء وثقة، وكلّ هذا أوغر عليه صدور منافسيه من الملاك والمزارعين الموصليين، الذين اعتادوا التعامل مع أهالي تلك المناطق.

والتهمة المضمونة النتائج التي تستخدم عادة في الموصل لغرض الإيقاع بالخصوم المسيحيين واليهود والبيزيدية وتشويه سمعتهم هو التطاول على الدين الإسلامي، فإن لم تنجح فهناك تهمة التعامل مع العدو. ولكثرة استخدام هذه الوسيلة المخيفة عبر الأجيال، كُنّا نتبادل السؤال على سبيل التفكّهة والنكتة عندما يصاب أحداً بأذى لا يستحقّه ماذا عمل فلان؟ ويكون الجواب: "كُفّر". إنها كلمة واحدة فقط لكنها تغني على الشرح.

وقد جريت بـ(عبدالله فاتق) قبل حكم الموت عليه بثلاث سنوات: ففي يوم ١٦ من شباط ١٩٣٢ شخص الى بلدة سنجار للمرافعة في قضية مدنيّة هامّة.

وفي اليوم التالي سيق الى محكمة الجزاء هناك، متهماً ليشهد عليه ثلاثة شهود ملقّنين وإثنان من رجال الشرطة بأنه شتم النبي (محمد). فصدر عليه الحكم بالحبس الشديد لمدة ثلاثة أشهر وأرسل إلى الموصل مصفداً بالحديد ليودع السجن. ومن هناك استأنف الحكم فأخلي سبيله بكفالة انتظاراً لموعد المحكمة.

وبدا أولئك الذين دبروا له المكيدة وهم من أصحاب النفوذ، يثيرون الناس. ويخاطبون المشاعر الدينية عند مسلمي المدينة. فعقدت اجتماعات عامّة ذات طابع قومي - ديني في المساجد والمحلات العامة، قام فيها خطباء من علماء دين ومحامين وعدد من القوميين البارزين. وقامت جريدة (العمال) الموصلية بالقاء النار في الحطب. ضمن الحملة الشعبوية، بنشر قرار التجريم والحكم خلافاً لأحكام قانون المطبوعات بغية إبقاء نار الفتنة حية. فثارت ثائرة القوميين والمسلمين الموصليين. وعقد الشباب القومي اجتماعات عامّة في حمام الصالحية

إلا أن الحال كانت تختلف في صيف العام ١٩٣٥ عن شتاء العام ١٩٣٢، فقد أصبح العراق دولة مستقلة، والأمر بمصائر المواطنين رهن إشارتها ولا سلطان لدار الإعتماد البريطاني.

لم تمر هذه الجريمة القضائية بسهولة على ما يبدو. كان رشيد عالي يريد أن يبرهن على استقلاليتته في الرأي، وحرية في تحديّ البريطانيين وإلقاء درس على الأقليات بأن زمن التشبث بحماية بريطانيا قد ولى إلى غير رجعة. على أن هذا الدرس ارتدّ عليه بشكل غير متوقع<sup>(١٥)</sup>، فقد اضطرت الحكومة بعد قيام الضجّة الى فحص دستورية تحويل القائد العسكري بمقتضى مرسوم الإدارة العرفيّة المرقم ١٨ الذي وضعه الكيلاني نفسه في ذلك العام - فوجد أنه مخالفٌ صراحةً لحكم الفقرة ١١ من المادة ١٢٦ من الدستور العراقي، التي أناطت صلاحية تنفيذ أحكام الموت بالملك وحده، بعبارة قاطعة حاسمة "لا ينفذ حكم الأعدام إلا بتصديق الملك" وتمّ الغاء المادة<sup>(١٦)</sup>.

= التي كان يكتبها في حينه. وما أدري هل أن وحيد (حسن) وهو محام قد نشرها؟ فقد وجدت تنويهاً بها في كتاب أو اثنين وقعاً مؤخراً بيدي طبعاً مؤخراً وفيها إشارة الى أنها مازالت مخطوطة. من المؤسف أن يكون أمثال خير الدين (توفي في ١٩٥٥) في العراق قلّة.

(١٥) علّمت فيما بعد أن وقدأ ترأسه البطريك الكلداني (وكان عضواً في مجلس الأعيان) قد قابل السفير البريطاني ثمّ وزير الداخلية والعدلية (الكيلاني)، وإن هذا الأخير وعد بأن يوصي بعدم تنفيذ الحكم في أبرز شخصيتين من الطائفة.

(١٦) عدلّ المرسوم في ٦ نيسان ١٩٣٦. إن جرائم القتل القضائي التي ارتكبتها مجالس الجيش العرفية في ثورات الجنوب كانت كذلك غير دستورية. وهي تلك التي ارتكبتها قائد القوات بكر صدقي أثناء قمعه تلك الانتفاضات أقول بقيت مأساة عبدالله بولص وعبدالكريم قره كله والمختارين السبعة الذين شنقوا معهما تملاً ذهني سنوات عديدة. بعد أن سمعت زائراً لنا من أقرباء الوالدة كان كاتباً في مكتب حمامة أولهما. وقضى ما ناله هو والموقوفون الآخرون من التعذيب أثناء التحقيق العسكري لحمله على الشهادة ضدّ مخدومه، ثم جاءت ظروف غير متوقعة عرفت خلالها أرملته وأولاده في بغداد وثار في نفسي الفضول لتقصي الأمر. فعلمتُ مما علمت أن دوائر التحقيق حاولت كما يقول (الحسني) إيجاد صلة للإثنين المغدورين بالاشوريين النازحين الى سورية. فزوروا رسائل زعموا إنها صادرة من عبدالله فائق وعبدالكريم الى الاشوريين وإنها وقعت بيدهم. وإن المتهمين أصرراً أثناء المحاكمة على استكتابهما ومضاهاة توقيعهما فلم يستجب لطلبهما.

وفي أوائل الخمسينات حانت فرصة لسؤال أحد الأعضاء المدنيين في المجلس وهو (محمد بهاء الدين اليازجي) وقد تقاعد وزاملني في المهنة. سألته عن الدلائل التي توفرت للحكم فأجاب: "أنا كنت عضواً مخالفاً وأن الحكم صدر بالأكثريّة". ووجهت السؤال عينه للقيب (يحيى زهدي) وقد تقاعد وأصبح صاحب أراضٍ وزراعة في سنجار! فأجاب باقتضاب وشيء غير قليل من العصبية: "هذا شيء مضى وفات. أنا لا أعرف ماذا أكلت قبل يومين".

بعد الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ استعنتُ بواحد من كبار الضباط في وزارة الدفاع ليفسح لي الى ملفّات قضايا المجالس العرفية في خزانتها الخاصة. وكان همي أن أجد فيها علاقة ما بين التهمة وبين القضية الاشورية، كانت ملفات قضايا المجالس العرفية منسقة ومحرومة بعناية. ومن جملتها أصابير المجلس =

والمرء يعجب كيف غفل أو أغفل هذا الوزير هذا الحق الدستوري، عندما أعدّ لائحة مرسوم الإدارة العرفية وهو رجل قانون وأستاذ قانون العقوبات في كلية الحقوق العراقية ووزارته هي التي تعدّ اللوائح القانونية. كان (رشيد عالي الكيلاني) يحقد على الآشوريين وكل من له صلة بهم حقداً شخصياً لا يشرف سياسياً ورجل دولة.

\*\*\*

في العام الدراسي ١٩٣٥ طبّق نظام الفتوة شبه العسكري في المدارس العراقية. ووافق ذلك أول دعوة للمكلفين بالخدمة العسكرية وفق قانون التجنيد الإلزامي.

وفي آب ١٩٣٦ رتبّ على عجل وفد "فتوة" ورياضة لديار ألمانيا بمناسبة استعدت لها ألمانيا النازية استعداداً لم تحظ به دورة سابقة للألعاب الأولمبية. فرصة ذهبية لتدهش العالم بما حققه (الرايخ الثالث) في ظل النظام الجديد.

أزيل من الدكاكين والفنادق والمشارب والمحلات العامة بكل هدوء شعارات ولافتات عنصرية مثل: "اليهود هنا لا يُرحّب بهم Juden unerwünscht" وتوقفت ملاحقتهم وملاحقة المسيحيين المعارضين. وأقام زعماء النازيين كلّ بدوره ولائم فخمة للزوار الأجانب. إنبهرت عيون الشباب العراقيين بما لقوه من حفاوة وتكريم. ودعي أعضاؤه للمشاركة في "الليالي الإيطالية" التي أقامها الدكتور (غوبلز) وزير الدعاية في (فانيسي)، حيث ضمت أكثر من ألف مدعوٍ للعشاء في جوٍّ ومشاهد تذكّر المرء بـ"ليالي ألف ليلة وليلة" على حدّ ما وصفتها الصحافة .

تألّف هذا الوفد من التنظيم الجديد الذي شاءه الدكتور سامي شوكت لناشئة العراق، وهو مدين للفكرة بالأساس الى ما شاهده من تنظيم مماثل أثناء زيارته السابقة لألمانيا. وبتشجيع من سلفه ومعلمه الروحي (الحصري). وهو الخطوة الأولى لعسكرة التعليم في العراق. إلا أن نظام الفتوة الذي استنّه (سامي شوكت) لم يكن بسعة نطاق النظام الذي فرضه النازيون غير

= العرفي العسكري في سنجار، إلا أنه لم يكن بينها ملفّ محاكمة عبدالله وعبدالكريم. ولم أعرّ عليه رغم البحث. وكان هناك دفتر سجلت فيه أرقام القضايا وتواريخها وليس بينها رقم أو عنوان للقضية. فرجحت أن أوراق القضية قد أثلّفت عمداً. وتأكد لي ذلك من قضية مماثلة فيما بعد. وهي قضية المؤامرة الشهيرة التي أحيل من أجلها حكمت سليمان الى المجلس العرفي وحكم عليه مع آخرين بالإعدام في ١٩٣٨. ففي كتاب عنوانه: (نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى العام ١٩٤٥) المؤلّفه سعاد رؤوف شير محمد - طبع بغداد ١٩٨٨. وقعت عيني (ص ١١) على هذه العبارة: "إن أوراق القضية وقعت بيد نوري السعيد لتضيق بعد ذلك".



أن الهدف واحد.

ما إن جاء هتلر الى الحكم حتى بدأت عسكرة التعليم بشكل جدّي وبنطاق شامل، ففضي أن ينتظم الناشئة ذكوراً وإناثاً، إبتداءً من السادسة حتى الثامنة عشرة (وهو سنّ الخدمة العسكرية) في منظمات أطلق عليها اسم (الشبيبية الهتلرية). والانضواء إليها واجب، ويعاقب الآباء الذين يحاولون منع أولادهم من الانخراط فيها بأحكام سجن ثقيلة. حتى ولو أصبح بعضهم ضدّ استخدام بناتهم في واجبات معينة.

إبتداءً من السادسة حتى العاشرة، ينتظم الصبي في تشكيلات تمهيدية للشبيبية الهتلرية. وفي العاشرة وبعد مروره باختبارات في الرياضة وحياة المخيمات والتأريخ القومي يتخرج ليعدوا (فتى Junfolk) ويؤدي اليمين التالية:

"أمام هذا العَلَمِ الدمويّ الذي يمثّل زعيمنا، أقسم بأنّي سأوقف كل نشاطي وقواي لمنقذ بلادنا أدولف هتلر. وسأكون على استعداد تام ورضى أن أبذل حياتي فداءً له دون تردد. فليكن الله في عونني"

في الرابعة عشرة يدخل الفتى في منظمة (شبيبية هتلر) الأصلية، ليبقى فيها حتى يبلغ الثامنة عشرة ليعيش خلالها حياة المخيمات والمعسكرات المؤسسة وفق النظام العسكري. حيث يتلقى الفتيان تدريباً عسكرياً منتظماً على صناعة الحرب، لا على أسلوب التخميم والتعسكر الرياضي والكشفي. كانت هذه الفرق تواجه السائحين والزوار أينما توجهوا - وهي تزحف في الغابات وتتوقّل الروابي والآكام تحمل البندقيات وتشد على ظهورها تجهيزات الجندي الكاملة، وكان ثم أيضاً ما دعي به (عصبة الفتيات الألمانيات Bund Dautscher)، ينتظمن إليها عندما يبلغن الرابعة عشرة بيزة خاصّة ولايحيد تدريبهن عن تدريب أمثالهن من الفتيان في عمر مماثل.

وكما أصدرت الحكومة العراقية في نفس العام ١٩٣٩ نظاماً جديداً أكثر دقة وتفصيلاً لنظام الفتوة السابق، كذلك أصدرت حكومة ألمانيا قانوناً يقضي بإلزام جميع الفتيان والفتيات، بالانضواء الى التشكيلات الطلابية شبه العسكرية بنفس الأسس التي بني عليها قانون الدفاع الوطني. جاء في إحدى الخطب التي القاها وزير الشباب الألماني (بالدر فون شيراخ):

"الغاية من تدريب الفتيان تنمية أجسامهم لتشتد سواعدهم وتصحّ أبدانهم ولتقوية إيمانهم بمستقبل بلادهم وبأنفسهم ولتثبت في نفوسهم شعور الزمالة

والرفاقية، التي تمحو كلّ الفروق الطبقيّة والإقتصادية وتزيل كل الحدود الإجتماعية حيث يعيشون في ثكنة واحدة ويأكلون على مائدة واحدة ويسمرون ويأخذون معاً بأسباب التسلية، ويقوى شعورهم بقوميتهم"

وهي عين الفكرة التي ساورت الأستاذ الحصري عندما كتب في تحبيذ التجنيد الإلزامي كما يذكر القاري.

لايمكن القول بأن فكرة إنشاء الفتوة العراقية قد نبعت في رأس الدكتور سامي شوكت كردّ فعل آني عميق لما شاهده في ألمانيا النازية فحسب، فقد زوّد فكرته بأرضيتها ذلك الإندفاع القويّ نحو العسكرية في العراق بدعم ونشاط القوميّين الجدد. والحكام الذين كانوا يهتبلون كلّ فرصة تعنّ لإثبات عروبيتهم، والبرهنة بأنهم لم يتخلفوا عن ركب القومية، أو يتخلوا عن أهداف الثورة العربيّة الكبرى ومبادئها، ما كان يسعهم أن يظهروا حماسة أقل من حماسة القوميّين الجدد.

وكالتجنيد الإلزامي - كان المشروع عاطفياً بأساسه. إذ لم تسبقه دراسة ميدانية لقياس تحبيذ الرأي العام العراقي. ولم يُستشّر في وضعه ذوو الخبرة من رجال التعليم والسلطة. وقدمت لائحة النظام للمجلس بما يشبه السّرية لتعريضه بسهولة ومن دون مناقشة أو صوت معارض<sup>(١٧)</sup>. وجاءت المادتان الأولى والثانية من النظام بعين الأسس والغايات التي وردت في الفقرة المثبتة آنفاً من خطبة (فون شيراخ):

"الغاية من النظام تعويد الفتيان على خشونة العيش وتحمل المشاق وخصال الرجولة والمفاودة وتدريبهم على التمارين العسكرية والرماية وما يتبعها من خصال حسب النظام والطاعة... ويكون النظام عسكرياً في أوقات التدريب وسائر الأوقات"

وقضت المادة العاشرة بأن تكون ألبسة الفتيان شبه عسكرية. وأن يستفاد من وحدات الجيش في المراكز التي توجد فيها. وأن تدخل في المنهج قمارين أسبوعية خلال السنة الدراسية في التدريب العسكري للصفوف المنتهية من المتوسّطات والثانويات ودور المعلمين والصناعات

(١٧) أصدرته حكومة الهاشمي، ونشر في ١٧ من تشرين الثاني ١٩٣٥، وطبق على من شملتهم أحكامه في مبدء السنة الدراسية التالية، على قدر ما تساعفني الذاكرة وبسبب اقتضابه وعموميات مواده، كانت وزارة المعارف تصدر بين آن وآخر تعليمات وأوامر تفصيلية في كيفية العمل به. من المفيد أن نذكر هنا أن أمور التدريب العسكري للفتوة عهد به إلى المقدمين (ثم العقيدين) صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد. وهما من الضباط القوميّين أقطاب حركة مايس ١٩٤١.

وأن يخص في المنهج لتعليم المصطلحات العسكرية والمعلومات البسيطة عن تأريخ الحرب.

بدا العراق بين الأعوام ١٩٣٥ و ١٩٣٩ رائد القومية العربية الأولى وفارسها المجلى دون منازع. ولا أستثنى منها تلك الفترة القصيرة التي أراد بها خصوم بكر صدقي أن يبدو نظامه فيها خصماً للقضايا العربية، وعدواً للقوميين، لا بدّ وأنها كانت أخطر ما يمكن توجيهه من التهم في بلاد "پروسيا العرب" ولا أدلّ على سخفها وتهافتها الى جانب خطورتها وشدّة وقعها من نجاح الضباط القوميين في القضاء على حياته وعلى نظامه معاً دون صعوبة تذكر.

وبعد هذا بين مقالات الصحف والخطب في تجريد القضية والوحدة العربية، وبين ضجّة إذاعة برلين وصخبها وصبها اللعنات على الإستعمار البريطاني وأذنايه، وإذاعة قصر الزهور - هدية الفوهرر الألماني للملك المعتوه غازي - وهي تهدد باستعادة الجزء المنتزع من العراق ورفع يد البريطانيين عنه. بلغ اعتداد ضباط الجيش بأنفسهم وزهوهم بالانتصارات المتتالية على فلاحى الجنوب وقبائل الشمال، حد العبث بالحكومات واحتكارهم حقّ عزلها ونصبها، وفيمن يكون رئيس الحكومة أو وزيراً ومن لا يكون.

وسواء إن جاز حقاً لنا أن نطلق صفة "القومية" على هؤلاء الضباط وإن لم يكن جائزاً، فالظاهر أنهم كانوا وسط خيالاتهم يعتزون بتلك الصفة ويحاولون إثباتها كلما عنّت فرصة لهم. وغالباً ما كانت تعود هذه الفرصة بالمزيد من المتاعب والفوضى السياسية، وتكاثر عدد الانتهازيين والنفعيين داخل الجيش وخارجه. وبلغ من سلطان الضباط القوميين أن راح السياسيون يخطبون ودّهم توصلوا الى الحكم. وتكررت حكاية (بيگماليون وگالاتيا)<sup>(١٨)</sup> مرات على المسرح السياسي العراقي. وكان نوري السعيد أظهر ممثليها لفترة منذ الزمن. فقد فرضه الضباط القوميون<sup>(١٩)</sup> رئيساً للحكومة، ومن مجهوداته في إثبات قوميته وتبديد الشكوك التي اكتنفت حياته بوصفه صنيعة بريطانية، ان وزارته أصدرت نظاماً جديداً للفتوة

(١٨) في الأساطير الأغرقيية القديمة أن بيگماليون Pygmalion ملك قبرص نحت تمثالاً لگالاتيا Galatia فكان بدرجة من الدقة والجمال أن وقع في غرامه وصار يخطب وده يقدم له الهدايا ويغمره بعبارات الوجد حتى رق قلب (أوفروديت) الإلهة له، فنفتخ في التمثال نسمة الحياة فاستوى امرأة ليتزوجها خالقها. كان نوري السعيد أحد اثنين يعزى إليهما خلق نواة الجيش العراقي.

(١٩) إتفق من تولى الكتابة في هذا أن الزعامة في هذه الكتلة القومية انتهت الى سبعة، هم العقدا صلح الدين الصباغ ومحمود سلمان وفهمي سعيد وكامل شبيب (وهو الشيعي الوحيد فيهم). وعبدالعزيز ياملكي (زعيمهم الأوّل)، واللوائين حسين فوزي (كردى) ومحمد أمين العمري. وقد انفصل الثلاثة الأخيرون بالتالي وانصرفوا الى مهنتهم. ويذكر الصباغ (المرجع السالف ص ٧٠) أن نوري السعيد أثناء اجتماعه بالأربعة الأوائل وبمخضر من رئيس أركان الجيش طه الهاشمي: "أنه وعدّ أن يكون قيام الوزارات وتسلمها الحكم برأي الجيش."

بدل النظام القديم تمّ فيه تدارك ما غفل عنه النظام القديم والإفادة من تجارب تطبيقه.

عمدت الحكومة الى تطبيقه كذلك بجديّة تعادل ما لقيه من استخفاف وعدم اكتراث من طلاب المدارس وذويهم ومن المعلمين أنفسهم<sup>(٢٠)</sup>.

لم تكن الحكومات العراقية تأبه قط بمعرفة ما يريده الأهالي وما يكرهونه.

بالرغم من وضوح مصدر فكرة عسكرية التعليم، فقد حاول مبتدعو نظام الفتوة أن ينأوا به قدر ما استطاعوا عن أصوله النازية. ويظهره بمظهر عربي أصيل، له جذوره التاريخية العميقة في التأريخ العربي وكتبوا في ذلك ما تيسر لهم كتابته.

فكلمة (فتوة وفتوات) المصرية التي ينعت بها الرجال المسيطرون الأقوياء والمعادلة لكلمتي (قبضاي وقبضايات) اللبنانية السورية، تجدها أحياناً في كتب المؤرخين العرب والإسلام الأوائل وحدها وبمفردها، أو مع كلمة عيَّار وعيَّارين، أو مرادفاً لها. قالوا ولم يفصلوا في الأسباب الحقيقية. بأن الفتوة هي منظمة شبه عسكرية من مبتدعات الخليفة العباسي (الناصر لدين الله ١١٨٠-١٢٢٥م). وكنت واحداً من الطلاب الذين طبّق هذا النظام بحقّهم. ومن هنا نشأ اهتمامي بفحص نصيب هذا الزعيم من الصحة بتتبع تلك الأصول التاريخية التي عزوها لفتوة (الناصر لدين الله).

نشأت (الفتوة) في أوائل القرن الرابع الهجري (حوالي ٩٥٠م) وورد أول ذكر لها في كتب الأوائل - كمؤسسة إتحادية شبه عسكرية ضمت عناصر شيعية أصلاً ارتبط أعضاؤها بروح التكاتف والتضامن والرفاقية، وانتشرت في معظم مدن العراق كحركة مناوئة للسلطة، ثم اعتراها التفسخ والتحلل بما انتظم فيها من عناصر غير نظيفة. في أحيان كثيرة عندما تفقد السلطة المركزية سيطرتها أو ينتابها وهن، تجد هؤلاء (الفتيان) ويطلق عليهم المؤرخون أيضاً اسم (العيَّارين) - فرصتهم في ممارسة سلطة إرهاب حقيقية على الأغنياء والتجار في المدن، وعلى الأجهزة الحكومية حتى في بغداد نفسها. وعندما تكون السلطة قوية، تراهم يقفون وراء الخليفة ويستغلون ذلك ستاراً واقياً لمصالحهم عن طريق تقوية السلطة، مثلما كانت المافيا تنتهج مع الحكومات الإيطالية.

على أنهم اختفوا وخرجوا من عالم السياسة والنشاط عندما وضع السلاحقة يدهم على مقدرات العراق وسيطروا على الخلافة وخلقوا نظام الشحنة (الشرطة الأمنية) في بغداد

(٢٠) النظام رقم ٢٧ لسنة ١٩٢٩ نشر في الوقائع بتاريخ ١٥ أيار ١٩٢٩. (أنظر نصّ النظامين في ملحق هذا الفصل).

وغيرها من المدن الكبيرة. إلا أن نشاطهم لم يقض عليه. إذ كانوا يخرجون الى العلى عندما تثور نائرة الأهالي ضد الحكام، فيشاركون فيها سعيًا وراء غنم لأنفسهم.

إن (الناصر) أنهى حكم السلاجقة فعلاً - ربما كان هذا الخليفة أذكى خلفاء العباسيين وأقدرهم إطلاقاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار الظروف السياسية للفترة التي حكم خلالها - لكن كان يوجد هناك رجال طموحون الى السلطة والزعامة ووجهاء وأغنياء كبار انتهزوا فرصة القضاء على حكم السلاطين السلاجقة، فشجعوا عصابات الفتوة وغذوها بالمال والحظوة لاستخدامها في حماية مصالحهم وتمشية أمورهم المالية وتثبيت نفوذهم والانتفاع بقوتهم عند الحاجة. فما كان من (الناصر) الداهية الأريب الذي رأى عهده عودة سلطة الخلافة الفعلية وحرر البلاد من سيطرة السلاطين - إلا وأن سحب البساط من تحت هؤلاء الطامعين في الحلول محلّ السلاجقة بفعل قوة الفتوات، بإعلانه شرعية نظام الفتوة ومساندته لها. ثم أعلن نفسه "حامياً" لها ورئيسها الأعلى الروحي لا التنفيذي - أي أن يكون مرشداً خلقياً وموجهاً بحسب المبادئ التي تؤمن بها وتسلم، وهي المبادئ التي قام هو بوضعها وصياغتها لقلبها الى أداة تعمل من أجل إحلال التعاضد والتكاتف بين أفراد المجتمع. ثم أنه حمل الأشراف وسراة القوم في بغداد على الانضمام إليها. وابتكر للفتوات لباساً خاصاً يميزهم، ومنع من لا يلبس هذا الزي من الانتساب الى الفتوة. وقد أدى هذا وبشكل ما الى أن تتخذ الحركة وبعد أكثر من قرنين على نشوئها - صفة التتلذذ أي الحاجة الى توفر شروط معينة للقبول وإلى مراسيم معينة عند منح العضوية. الأمر الذي جعل بعض المؤرخين والمستشرقين الأوروبيين في القرن التاسع عشر - وهم أول من نبهوا الى وجودها - يظنون خطأ بأنها نوع من الأخويات العسكرية أو تشكيلات الفرسان، مثل عصابة فرسان التيوتون أو فرسان الهيكل (الداوية أو الهيكلين) في الحروب الصليبية.

وفي الوقت عينه استخدم (الناصر) دعاية للفتوة واسعة النطاق<sup>(٢١)</sup> مجدداً للسلاطين

(٢١) عن ابن الأثير في (الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٤٤٠، بيروت ١٩٦٦): "وجعل الناصر لدين الله همّة في سراويلات الفتوة. فبطلت الفتوة في البلاد جميعها إلا من بلبس منه سراويل يدعى إليه. ولبس كثير من الملوك سراويل الفتوة. وعرف هؤلاء كما ذكرنا بالعيّارين". والعيّار في اللغة كل من يطلق نفسه على سجيته وهواها فلا يعترف بقانون ولا يقيّد بأمر صادر من السلاطين والأمراء والخلفاء، وكثيراً ما تكون تلك الأوامر ظالمة مجحفة بحقوق الناس. فكان العيّارون والفتوات يلتزمون جانب العامة. وكثيراً ما ساندوا الفقراء وغصبوا الأغنياء، فيكون على السلطة أن تتدخل في معارك شوارع وتستخدم قواتها المسلحة. مثال ذلك ما ذكره المؤرخون عن حادث اعتصاب (فتنة) أثارها الفتوات في العام ١٠٠٢م. يقول عنها (الكامل): "إنها أُلجأت بهاء الدولة البويهية الى أن يبعث قائد جيشه أبا علي ابن أستاذ هرمز الى العراق =

والحكام المسلمين في آسيا تنظيم فرق فتوة مماثلة في بلادهم تحت رعايته، ووافق عدد كبير منهم لأسباب سياسية بحتة. وماتت الفتوة بموته وانقلب أعضاؤها الى مجرد عصابات معظمها يعيش على المجتمع طفيلياً يحتال على مورد رزقه بأساليب بعيدة عن الأخلاق.

إلا أن أعظم نجاح حققته الفتوة، كان في آسيا الصغرى، وسميت هناك بـ(آخي ورونود) كما عرفت أيضاً بالفتوة. وقد ألفت رسائل عديدة فيها باللغتين التركمانية والفارسية. (لم يُعثر على أي رسالة بالفتوة باللغة العربية) وبالعنوان الواضح (فتوتنامه) أي كتاب الفتوة من ذلك رسالة فيها تعزى الى (آخي أحمددي أردبيلي) وأخرى لفتى آخر هو (آخي أمير محمد) كانت قد قدمت له واحدة من أشهر الفتوتنامات وهي التي كتبها (نصري) من فتوات القرن الثالث عشر الفرس.

هناك رسائل عديدة أخرى في هذا المجال، محفوظة في المكتبات الشهيرة مازال معظمها مخطوطاً. ويظهر منها أنه لم يكن هناك عائق أو اعتراض في أن ينضم الفتى الى مجموعتين أو أكثر منها، وأن يحرز درجة قيادة في أحدها بصرف النظر عن طبقته الإجتماعية التي انحدر منها.

إذن كم كان طريفاً ومقبولاً أن تجتد العسكرية التعليمية في العراق أصولاً عربية لنفسها في زوايا التاريخ؟ ولتلتقي أهدافاً وأساليب بالنظم العسكرية التعليمية للنظام الجديد في ألمانيا وإيطاليا. إلا أن التاريخ يحملنا رغم أنوفنا على الشك في عروبة الفتوة أصلاً. فسكنة بغداد وهي المدينة التي نظمت فيها الفتوة كانت كسائر المدن في العراق العربي - منذ القرن العاشر (الرابع الهجري) خليطاً من أقوام وافدة بينها قلة من العرب لا يعتد بها. كان ثم الغزّ والصغديون والجيورجيون والأرمن والكرد والفرس والديالمة والمغول والتتر، فضلاً عن بقية من سكانها الأوائل. وهذا يفسر لنا خلوّ الآثار الكتابية عن الفتوة من أي رسالة أو بحث باللغة

= ليدبر أمرها، فوصل بغداد وقُعم المفسدون". كما ظهر أمرهم كذلك في العام ١٠١٠ و العام ١١١٣. وفي العام ١١٣٥م أحدث الفتوة العيّارون ثورة في بغداد بسبب "اجتماع العساكر بها" أي احتلالها بجيوش السلاجقة "فضجت الأهالي من أعمالهم". ويظهر أن العامة ساندوا الفتوات أثناء الإشتباكات. فابن الأثير يذكر أن مدير الشرطة (رئيس الشيخية) واجه ثورة شعبية من أهل الأحياء الغربية فيها فأحرق الشارع كله. بعض المصادر تنوه بأن الفتوة كان لها أعضاء تنظيها السري الخاص ودرجاتها وزعمائها ووسائل يتعرف بها أحدهم الى الآخر تماماً مثل أعضاء المحافل الماسونية. كما كانت تتبع تقاليد وقوانين خاصة شبيهة بتلك التي سادت تعامل عصابات العالم السفلي في شيكاغو ونيويورك وغيرها من مدن الولايات المتحدة طوال أكثر من نصف قرن، ومثلها أيضاً كان بعض زعماء الفتوة يتمتعون بمساندة الحكام وذوي السلطة يقاسمونهم أساليبهم ونهت التواريخ بأسماء بعضهم كابن بركان وابن البراز الذين كانا في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي يتمتعان بحماية الوزير وزوجة السلطان (المرجع السالف).

العربية، فالعرب على فرض وجودهم في بغداد هم آنف وأعلى من الرضى بالإنتساب الى نظام مشبوه يضم طبقات منحطة من المجتمع. ولم يكن اهتمام (الناصر) لجمع هذا الشتيت في تنظيم واحد إلا وسيلة للسيطرة عليهم واتقاء شرهم كما ذكرنا. ليس في ما ذكرته الآن عن الفتوة - شيء من تراث الدعاية التي بثتها للنظام وزارة المعارف وقتذاك، في محاولة لإبعادها عن التأثير النازي ورسم صورة مقبولة لها عند الرأي العام، وتشويقها للطلبة والمربين. وما توصلت إليه إنما كان ثمرة متابعة لاحقة. دفعني إليها مما دفعني مروري بمرحلة فتوة سامي شوكت في سنتين من سنوات الدراسة دريت خلالها على شيء من النظام العسكري وفنون القتال والرماية بالذخيرة الحية كما يقولون، بالبندية النظامية التي كان يستخدمها الجيش العراقي والبريطاني من طراز (لي أنفلد ٣٠٣). وربما كان هناك سبب آخر لا أذكره الآن.

فمن كل ما وقع بيدي من كتب التاريخ والمذكرات التي تناولت تلك الفترة من أحداث العراق ضمناً. لم أر أحداً يتطرق الى هذا الفصل المجنون من التمثيلية القومية الحالية محلياً. ولا أستثني من ذلك تاريخ الوزارات العراقية ذا الأجزاء العشرة وبصحائفها التي تزيد عن الآلاف الثلاثة والمائة والست والثمانين، فأنا لم أجد بحثاً ولا تنويهاً مقصوداً مهما صغر عنها، وكل ما عثرت عليه فيها أن ذكرها جاء عرضاً في الفقرة الأولى من المادة (٧) من منهاج وزارة جميل المدفعي في العام ١٩٣٨ بهذه الصورة:

"الاتجاه بمنهاج التعليم الى ناحية تضمن إعداد النشئ قوياً قديراً على الإنتاج محباً للنظام متشبعاً بالشعور الوطني وروح الفتوة"

كما جاء في سجل الحسني لوقائع ١٩٣٨ ما يلي: "في آب ١٩٣٨ أختير عشرون (فتى) من فتيان مدارس العراق لتمثيل الفتوة العراقية في يوم الشبيبة الهتلرية الذي أقيم في أوائل أيلول. وكان برئاسة أكرم فهمي نائب حامي الفتوة. وقضى حوالي الشهرين في ألمانيا وعاد في ١٢ تشرين الأول متمتعاً بضيافة الحكومة الألمانية ورتبت لوفد الفتوة مقابلة رسمية مع أدولف هتلر. وقامت بعض الصحف وفي مقدمتها جريدة (العقاب) لصاحبها يونس بحري، وهي جريدة تسيطر المفوضية الألمانية على سياستها وتزودها بالمال، بنشر تفاصيل عن الحفاوة والزيارات التي نظمت لهذا الوفد" (٢٢)

(٢٢) المرجع السالف: ج ٢.

وبدا لي أن الأستاذ (الحسني) كان يريد أن يجنب نفسه متاعب وإرهاصات لا يحبها بطيه هذه الصفحة، سيما وقد نشر هذا الجزء من كتابه بعد سنوات من التصفية النازية في العراق وخروجه من المعتقل الذي زج فيه مع بضع مئات ممن عرفوا بالنشاط القومي إثر انهيار حركة مايس. وإن كان لهذا أسبابه الخاصة وهو على كل حال كرونيكلي (أي مدون وقائع) وليس مؤرخاً - فما بال الآخرين؟

هذا كتاب الأستاذ (بطاطو) الذي خرج الى يد القراء في العام ١٩٧٨، وقد خلا كنيته وبصحائفه المائتين والثلاث والثمانين والألف من أي ذكر لنظام الفتوة، أي شيء عن مؤسسها وحاميها الدكتور سامي شوكت ونشاطه القومي في التعليم، فيما حفل مؤلفه الضخم بأحداث ووقائع وإحصاءات مفصلة عن الإتجاهات الثقافية والتعليمية في العراق، لم يبخل على قارئه بتفاصيل سفرة عضو في الحزب الشيوعي الى روسيا وعودته منها.

وقس على هذا كتاب المؤرخ البريطاني (ستيفن لونجريك) (٢٣) الذي لم ير ما يستوجب التنويه بهذه المرحلة البارزة من اتجاهات التعليم في العراق بأي درجة من التعليق أو ذكر لهذا النظام في كتابه الكبير بصفحاته الستمائة، وقد تناول أبحاثاً أقل شأناً منها بكثير. وعلى هذا قس البقية.

وجدت بعد لأي تنويهاً "بصناعة الموت" في كتاب الدكتور مجيد خدوري (٢٤) عندما تطرق الى سياسة سامي شوكت في توجيه التعليم، لكنني افتقدت عنصر الفكاهة في تنويته بالفتوة. فقد عرفت هذا الباحث الأملعي لماماً وتميزت فيه خلال لقاء أوجد خاطف - روح انتقاد مرحة وشخصية لا تخلو من ظرف. وقد عاصر تلك الفترة أستاذاً في دار المعلمين العالية ولبس الزي العسكري الذي فرضه (حامي الفتوة) على أفراد أسرة التعليم. وللفتوة جانبها الفكاهة، ففي العادة تخلو كتب التاريخ والمذكرات والأبحاث المتعلقة بأحداث العراق السياسية من الطرافة وعنصر الفكاهة لتشيع في نفوس قراءها شعوراً بالرتابة والملالة، ولا يبدو منها صانعو

(٢٣) س. لونجريك S. Longrig: (العراق ١٩٠٠-١٩٥٠: التاريخ السياسي، الإجتماعي والإقتصادي Iraq 1900-1950: A Political, Social and Economic History)، أوكسفورد ١٩٥٣). خدم المؤلف في العراق ضابطاً سياسياً ومستشاراً مستخدماً لدى الحكومة العراقية. وتجده في كتابه كثير المجاملة لرجال الحكم، حذراً جداً من ذكر ما يسيء، طاوياً صفحات من تاريخه قد تثير حساسيات معينة ولذلك لم يكن كتابه موضوع اعتماد.

(٢٤) العراق المستقل ١٩٣٢-١٩٥٨: دراسة في الشؤون السياسية العراقية: Independent Iraq 1932-1958: A Study of Iraqi Politics، لندن ١٩٦١.

تلك الأحداث كأشخاص أحياء بل كدمى آلية تحركها يد الكتّاب في رقعة ضيقة محدودة بإطار هذه الواقعة أو تلك، وهو عنصر حيّ فاعل هام لا يبخل به أمثالهم من الكتاب الأجانب على قرائهم حيثما وجدوا لذلك سبيلاً، ما أدت هذه الجهامة والجديّة إلى إعطاء صورة غير حقيقية عن صاحب الدور الفعال في تلك الأحداث، طمست فيها تماماً معالم شخصيته ونياته ودوافعه الذاتية، فبدا وكأنه جزءٌ مسيرٌ منجرف في تيار الأحداث، لا عاملاً مسيراً لها. لذلك ولأقدم لقارئتي صورة واقعية لتلك الحقبة التي مرت على سياسة التعليم، قررت أن لا أحرم القاري من ذكرياتي وانطباعاتي عنها.

كانت اللامبالاة وعدم الإكتراث يسود ساعات التدريب الثقيلة. ولا أذكر أحداً منّا تعامل معها بجديّة. ومما أذكره صورة كبيرة جانبية نصفية للدكتور سامي شوكت بوصفه حامي الفتوة الى جانب صورة الملك وهو بنطاقه العسكريّ وبشاربه الشبيه بشارب هتلر المشذب، وقد ثبت تحتها على الجدار رقعة بخطٍ ثلثي كبير فيها هذه الفقرة: "إخشوشنوا فإن الترف يزيل النعم" - حديث نبوي شريف.

وضع هذان الرمزان في كلّ صفٍ من الصفوف، وقد خطر ببالي فيما بعد أن أبحث عن هذا الحديث في صحيح البخاري والصحاح الثلاث الأخرى المعتمدة، فلم أجد له أثراً. فمن هو ذاك المرائي الذي نحله لسان الرسول؟ وسواء في الأمر أكان الحديث صحيحاً أو منحولاً أو موضوعاً لهذا الغرض بالذات، فقد اتخذت كلمة "إخشوشنوا" فيه للدعاية وللتعليقات الشيطانية فيما بيننا، إذ لم يكن بيننا مع الأسف موسر أو مترف بحاجة الى "الاشيشان!" إلا نفر ضئيل. وقد فرض النظام على الفتى أن يخطط على حسابيه بزته العسكرية من قماش (الحاكي) الخفيف المعروف، وكان علينا أن نرتديها صيفاً وشتاءً أثناء التدريب، فنضطر لمواجهة الشتاء القاسي إلى تكديس ما أمكن من الثياب الداخلية تحت القمصلة والسرورال وهو أشبه بسرورال الجندي الألماني. أمّا النطاق الجلدي فكانت الدولة مصدره وهو طبق شكل نطاق الجندي الألماني الذي يرى الآن في أفلام الحرب.

بعد إكمال التدريب دون السلاح، جيء بنا يوماً الى الثكنة الحجزية<sup>(٢٥)</sup> إحدى مقرات الجيش وسلّم لكل منا بندقية غارقة في الزيت الثخين، لنقضي يوماً كاملاً في تنظيفها تحت

(٢٥) بنى هذه الثكنة الفريق محمد إينجه بيرقدار، الذي نصب والياً على الموصل في ١٨٤٠. من الطريف أن نذكر أن الموصل كانت أول مدينة من مدن الإمبراطورية العثمانية أعلن فيها تطبيق نظام القرعة العسكرية. فحصلت ثورة في المدينة الجأت الفريق الى توجيه مدفع الثكنة الى المدينة مهدداً بدكها.

إشراف نواب عرفاء أنيط بهم واجب التدريب برعاية ضابط الجيش في المنطقة. كانت عقوبة التخلف عن التدريب صارمة قد تصل حد الحرمان من سنة دراسية واحدة، وبسبب هذا كان الدوام على التدريب منظماً. إلا أنه بقي ذا طابع هزلي وواجباً ثقيلاً فيه عنصر إرغام.

وارتدى المدرسون والمدرسات البنات العسكرية من الحاكي، وهي بالأصل لا تختلف عن بزة الضباط ابتداء من السدارة ونزولاً الى النطاق والسرورال، وأعطيت لهم رتبهم التي يستحقونها بحسب رواتبهم الشهرية كما جاء تفصيلها في النظام، وقد اتفق بمحض صدفة أن تكون شاراتها مطابقة لشارات ضباط الليثي الأشوري، وهو ما غفل عنه واضعو النظام على ما أظن. فأدى ذلك في الموصل الى مواقف مضحكة كما سيرد فيما بعد. كما قضى النظام أن يكون للفتيات رتب، إلا أن ذلك لم يطبق بحسب علمي. وأعطيت ألقاباً لموظفي الوزارة وأعضاء أسرة التعليم. فوزير المعارف هو (أمير الفتوة) ولم يجد له النظام رتبة أو رزماً، إلا أنه حددها مدير المعارف العام وهو سامي شوكت، فدعي بلقب (حامي الفتوة) ومنح مدير التربية البدنية العام لقب (نائب حامي الفتوة) تليها ألقاب أخرى متدرجة بحسب الراتب والشارات على الكتف، ومنها عرفنا الرواتب التي يتقاضاها كل واحد من مدرسينا ولم ينج أكثرهم من تعليقاتنا الساخرة حول طريقة ارتدائهم بزاتهم وسيهرهم وتبخترهم فيها. كان ارتداء الزي العسكري مقصوراً على أوقات الدوام. إلا أن بعضهم كان يستثقل تغيير ثيابه بعد انتهائهم ساعات الدراسة، فتراهم يخطرون في الشوارع ليثيروا انتباه المارة إليهم.

ولأبد لي من قول الحقيقة هنا، فمما خبرته، وما سمعت عنه في مدن الشمال الكبرى التي طبق فيها النظام خلصت كما خلص واضعوه أنفسهم بالأخير الى هذه النتيجة:

إن كان الغرض من إنشاء الفتوة تنمية الروح القوميّة والشعور بالمسؤولية تجاه الوطن وبذر الروح العسكرية في الطلبة، فقد فشل فشلاً تاماً. ولم ينل (سامي شوكت) معقب التدريب على صناعة الموت غير السخرية والازدراء في آخر المطاف.

"وصناعة الموت" هذه يجملها في خطاب له ألقاه في خريف العام ١٩٣٥ بعد استناب نظام الفتوة مباشرة:

"نحن نقرأ ونسمع بأنه لا يوجد استقلال سياسي بدون استقلال إقتصادي، ولا استقلال بدون التعليم. مع هذا فمصر والهند رغم كونهما غنيتين ومتقدمتين ثقافياً فهما لاتنعمان بالإستقلال، في حين أن أفغانستان حيث الحياة مازالت في القرن الرابع عشر، والمملكة العربية السعودية حيث يعيش الناس على التمر

وحليب الجمال<sup>(٢٦)</sup> ولا حظ لهم من العلوم العصرية واليمن التي بدون ثروة هما مستقلتان... إن لم يكن عند مصطفى كمال أربعين (أربعون) ألف جندي مدرّب على صناعة الموت، هل كُنّا سنرى تركيا تستعيد أمجاد السلطان سليم؟ وفي القرن العشرين لو لم يكن (بهلوي) يملك ألف ضابط أتقنوا هذه الصناعة المقدسة، هل كنا سنرى إعادة أمجاد داريوش؟ ولو لم يكن عند موسوليني عشرة آلاف من ذوي القمصان السوداء الذين تفرسوا في صناعة الموت، لما كان قادراً على وضع تاج الإمبراطور الروماني على مفرق فكتور عمانوئيل. السبب بسيط جداً، شباب العراق وناشئتهم يجب أن يُدربوا ليكونوا جنوداً يتقنون صناعة الموت"<sup>(٢٧)</sup>

أريد لهذه النفايات الفكرية أن يؤمن بها عشرات الألوف من طلبية بلغوا سنّ الوعي والإدراك. ولا أقول سنّ الرشد، وأن يهتدي بها في مجال الممارسة المهنية أكثر من خمسة آلاف معلم ومعلمة أو منتم إلى أسرة التعليم خلافهما. كان الإنديفاع نحو عسكرة التعليم لا يمكن مقاومته كما يبدو، فصالح جبر الشيعي المثقف كان وزيراً للمعارف عندما استنّ نظام الفتوة لم يكن يخفي تأفّفه وسخره بالأمر كله في مجالسه الخاصة. وفي العام ١٩٣٩ كان الدكتور فاضل الجمالي وهو شيعي أيضاً ومن خريجي أشهر المعاهد العلمية في الولايات المتحدة، مديراً عاماً للتدريس والتربية يرتدي بزّة الفتوة بعنوان (الناظر الأول) ويحمل على كتفيه رتبته المقررة وهي شريط من القصب (المذهب) وسيف وقلم متقاطعان فوق لوحة الكتف<sup>(٢٨)</sup>.

(٢٦) في ذلك الحين لم يكتشف النفط هناك بعد.

(٢٧) من كراس نشر في العام ١٩٣٥ ووزع على المدارس يحمل عنوان: (هذه أهدافنا).

(٢٨) أذكر منظره بالضبط وكأنها الباحة: في صيف العام ١٩٣٩ كنت قد نلت الشهادة الثانوية وشخصت الى بغداد أنشد قبولاً في واحدة من البعثات العلمية الدراسية. انتهى المطاف بي فيما بعد الى كلية الحقوق العراقية. حملت أوراقى الى الوزارة بغية تقديمها لمدير التدريس والتربية (الجمالي)، ومعى كتاب توصية له. فإذا به يخرج يحمل أوراقاً ببزة الفتوة كاملة وبسروال قصير يبدو منه ساقان مكتنزتان وينطاق عسكري تنفر منه بطنه الكبيرة وعلى شفّتيه العليا شارب مقطوم هتري، ووجهه الصبوح الذي ينفرج عن ابتسامة لا معنى لها تندّد منه عينان قلقتان تحت نظارتين. ولم أستطع مغالبة ضحكتي، وفيما أنا أحاول سترها شاعت الصدفة أن يمرّ بالمنظر الأستاذ (رفيق حلمي) الوطني الكردي. وكان مديراً لتوسطة الناصرية أيام نقل إليها منفياً وأيام كنت فيها. فإذا به يقف برهة وقد استهواه منظر (الجمالي) مثلي في ما يبدو، لترتسم على وجهه ابتسامته العريضة الملتوية التي عهدتها فيه قبل ثلاث سنين.

وأرغب بهذه المناسبة إلّا أحرم القارئ من واقعة هزلية أخرى. قلت أن الأشرطة التي قضى النظام بوضعها فوق الكتفين تطابق تماماً أشرطة القصب التي تميّز ضابط الليفي الأشوري. شاء سوء حظ مدرس الجغرافية (يعقوب الأخضر) أن يلتقي في الشارع شلة من الجنود الأشوريين. فنظروا الى =

كان الجميع يتحدث عن الوحدة العربية. والجيش والسبيل العسكري لإنقاذ الوطن السليب من أيدي الصهاينة. وراحت تشع الأفكار القومية من نادي المثني بمرشده الروحي (الحصري)، وتلميذه (السيد محمد مهدي كبه) الذي لقبه أحد الصحفيين المصريين بـ(غوبلز القوميين) بسبب المقالات الحماسية التي تنشرها له الصحف القومية، حول الوحدة العربية الكاملة، حيث يتحد فيها العرب شعوراً وفكراً، ويشاركون في آمال وتطلعات واحدة، و... هذا ما يمكن تحقيقه بزرع نفس المبادئ العربية، ويجعل الفرد ملكاً للدولة. وكان هناك أيضاً (علي ناصر الدين) وهو تلميذ آخر للحصري يردد مؤيداً:

"العروبة هي دين الأمة العربية. والفرد العربي يجب أن يشعر أنه الشعب، وأن الشعب هو"

سنرى فيما بعد أن التأثير الذي أحدثته النظرية الألمانية في القومية، مع أفكار (الحصري) وكتابات، انعكست في أفكار (ميشيل عفلق) أحد مؤسسي حركة البعث العربي الاشتراكي. وأفضل مفكر قومي على نهج (الحصري). وآمن الجميع بأن نظام الفتوة هو واحد من الطرق الفعالة التي تفضي الى هذه النهاية.

\*\*\*

ورد نظام الفتوة بصيغة المذكر. وفي اللغة نستخدم ضمير التذكير والمذكر الصرفي وجوباً عندما يراد به الجنسان في حالة اجتماعهما. وقد يكون إغفال المؤنث مقصوداً من المشرع بتفادي ضجة احتجاج شعبية قد يحدثها شمول النظام الجنس اللطيف في مجتمع مازال يعتبر المرأة متاعاً من جهةٍ وجزءاً لا يتجزأ من مقومات الشرف من جهةٍ أخرى. وصدرت تعليمات وزارية بلزوم ارتداء المعلمات الحاكي أيضاً، تحت العباءة السوداء (وهو زي النساء الشائع الذي يخرجن به إلى الشارع وقتذاك) لكن بدون نطاق عسكري كالذكور من المعلمين لابدّ أن ذلك كان للحيلولة دون إبراز صدورهم بشكل مغرٍ وعلى أن يكتفى منهن بحزام جلدي.

= أشرطته الثلاثة التي تميز الفارس الأول وفق نظام الفتوة، ولم ينتبهوا الى سدارة الأستاذ (وكانت الرتبة عندهم تعادل رتبة (راب تريما) أي (أمر المائتين)، فبادروا تلقائياً برفع أيديهم اليمنى بالتحية العسكرية الرشيفة. وارتبك المدرس وأخذ يتطلع يمنة ويسرة ولم يردّ التحية وراح الجنود الليفي الأربعة يتلفتون الى الخلف وقد احتدم جدال بينهم. فيما راقبنا ثلاثتنا نحن تلاميذه الواقفين على الرصيف المنظر الطريف وكان مصدر تعليقاتنا ردحاً من الزمن.

(٢٩) رئيس حزب الإستقلال فيما بعد. وعضو مجلس السيادة بعد الرابع عشر من تموز.

ولبست المعلمات الخاكي، ووقع ما لم يكن في حساب الوزارة مطلقاً. فقد استغلّت بائعات الهوى والقوادات والقوادون هذا الزي. وكانت به فرصتهم الذهبية في تقديم بضاعتهم بلباس الخاكي تحت العباءة على أساس كونهن من أسرة التعليم يتعاطين الفحش سراً. وشاعت حكايات فاضحة وتناقلت اللسان في المجالس والمنازل أنباء فضائح لا أساس لأغلبها. فأسرعت الوزارة الى إلغائها أمرها. وانتهت محنة المعلمات المسكينات، بعد أن نلن الكفاية من الطعون بفضيلتهن والشبهات بسلوكهن بفضل حامي الفتوة.

إلا أن للعملة جانبها الآخر. ففي الوقت الذي بدت تمارين الفتوة عبئاً ثقيلاً وواجباً بغياً عند معظم الطلبة المكلفين لاسيما المجدّ منهم في طلب العلم والمعرفة والتواقين الى مسلک في الحياة لاتسمع فيه قعقعة السلاح ولا صيحة الحرب، بدا وكأن هناك عدداً منهم (ربما هم أولئك الذين اعتمدوا إتخاذ الجيش مسلکاً ومستقبلاً) - راقت لهم الفكرة ووجدوا فيها بغيتهم. فقد عثرتُ وبعد زهاء نصف قرن على واحد من هؤلاء فتى آخر مثلي يشيد بالفتوة وينقل عنها طرفاً مما نشرته وزارة المعارف في حينه عنها على سبيل الدعاية والتحييد<sup>(٣٠)</sup> في كتاب متأخر.

(٣٠) للمقارنة أيضاً (أسرار ثورة ١٤ تموز وتأسيس الجمهورية العراقية، ط، لندن ١٩٨٦، الص ١٨-١٩). تأليف العميد الركن إسمايل العارف. جاء هذا النص: تولى في أواسط الثلاثينات مديرية المعارف العامة الدكتور سامي شوكت فحاول أن يقلد ما كان يجري في ألمانيا النازية عندما زارها واطلع على تنظيمات الشباب الهتلري شبه العسكري فيها. فأدخل نظام الفتوة في المدارس المتوسطة والثانوية في العراق واتخذ له شعاراً عبارة (إخشوشنوا) ونشر مفاهيمه بين الشباب في المدارس والكلبيات. ثم قررت الحكومة تعيين ضابط من الجيش ليدرب طلاب الصفوف المنتهية من الثانويات والمتوسطات تدريباً عسكرياً لمدة ساعة واحدة كل يومين بالأسبوع عصاراً بعد انتهاء الدروس اليومية. ثم وجد لباس الفتوة وبدء الطلبة يرتدونه أيام التدريب العسكري، وكان يتألف من بذلة شبه عسكرية مع لباس الرأس من قماش الخاكي، فكناً ترتدي البذلة أيام التدريب ونخرج من المدرسة بمسيرة عسكرية مخترقين شوارع بغداد الرئيسية ومنتشدين الأناشيد الحماسية ونحن في طريقنا الى ساحات التدريب. لقد كانت تلك محاولة جيدة لإحياء الروح العسكرية بين الشباب وبعث الحماس الوطني بينهم ورفع معنوياتهم واعتزازهم بتاريخهم وافتخارهم بأمّتهم ووطنيتهم، وقد داعب ذلك النظام طموحات الشباب العراقي الذي كان يتطلع الى بناء وطن قوي مستقل يتصدر حركة التحرر الوطني والقومي للشعوب العربية، التي كانت تنظر الى العراق في ذلك الحين على أنه (بروسيا العرب). استخدمت فكرة نظام الفتوة من حركة الفتوة العربية التي تكونت عبر التاريخ منذ أزمان بعيدة بمفاهيمها الخلقية العالية كالشجاعة والصراحة والصدق والدفاع عن الضعيف والتضحية في سبيل الحق والعدل. وانتعشت كنظام إجتماعي وسياسي في زمن واحد من أعظم خلفاء بني العباس المتأخرين هو الناصر لدين الله العباسي. تنبّه الخليفة الى أهمية نظام الفتوة عندما لاحظ وسمع كيف هب فتيان بغداد بغفوية بطولية لمساعدة الخلافة على طرد بقايا السلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية وجعلوا من الخلفاء ألعوبة بيديهم فاتجه (الناصر) الى الإعتماد على القيم الأخلاقية العالية التي يغزرها نظام الفتوة لتوحيد الإمبراطورية العباسية التي وهنت وزالت هيبتها وتمزقت أوصالها وتفرقت الى إمارات منفصلة عن مراكز الخلافة. فاعتبر الإنتماء الى نظام الفتوة شرفاً يباركه الخليفة =

إن الإخفاق الذي منيت به عملية تقليد النازية - في زرع الروح القوميّة أو الوطنية (كما سميت أحياناً) في نفوس الناشئة العراقية قد يعود في نظري وبالدرجة الأولى إلى قلة اهتمام الدعاة القوميين ومفكرهم بطبيعة تكوين المجتمع الذي اتخذه حقلًا لتجاربيهم القوميّة. من المؤسف حقاً أن لا يكون هؤلاء على معرفة صحيحة بتاريخ النفوذ العربي في الأقطار الناطقة بالعربيّة ولاسيما العراق. بل ربما ما كانوا على استعداد ليتدارسوا تقلبات حظوظه وتفاعله مع الرواسب التاريخية والإجتماعية السابقة لمرحلة السيادة العربيّة. كانوا ينظرون الى هذا التأريخ من خلال زجاج ملون بأرائهم السياسية والقوميّة العلمانية. مسقطين من حسابهم النظريّ عاملاً مركزياً فاعلاً في الإتجاه القوميّ لم يستغن القوميون قطّ عنه باطنياً وإن حاولوا استيعاده ظاهرياً. كانوا أعجز من أن يدركوا قوة الركن الديني في تأريخ العرب بوجهيه النافع للقوميّة العربيّة والضرار بها.

فالعرب ما صعّد نجمهم في تأريخ إلا بالإسلام وما بنوا حضارتهم به إلا بالدينامية التي أشاعتها هذه العقيدة في همم أقوام أخرى أخضعوها ردهاً من الزمن بالسلاح. لذلك كان على الذين أرادوا فهم الشرق العربي فهماً صحيحاً، بغية إصدار أحكام صحيحة أن يدرسوا الإسلام وأن يدرسوا على ضوئه بناء مجتمعاته وعن علاقة الإسلام بالأقليات الدينية.

الإمبراطورية العثمانيّة، كما كان الحال في الإمبراطورية العباسية، والأموية التي سبقتها - كانت تتألف من قوميات متباينة وديانات عديدة. والعرب الذين كانوا واحدة من تلك القوميات ظلوا كغيرهم لا يشعرون بأن الحكم التركي هو حكم أجنبي لأنهم معه على دين واحد. ولفظة (الأجنبي) لم تكن في ذلك الحين تعني ما تدلّ عليه في القرن العشرين، أعني الانتماء الى دولة أجنبية أو قومية أخرى. أو إن المقصود باللفظ هو شخص غير مرغوب فيه عند استخدامها سياسياً.

إلا أن الصدمة النفسية جاءت عندما هبت ريح حركات أوروبا القوميّة في شراع البلاد الناطقة بالعربيّة، وبدأ الإتصال الفكري عندما راحت تلك البلاد تأخذ أطرها السياسية لتغدو أعضاء في الأسرة الدولية. هي الصدمة الكبرى الحادّة التي لم يصمد لها القوميون العروبيون عقلاً نتيجة تعرّفهم السريع بالغرب، الذي يدين بسياسة أساسها المصلحة الذاتية والقوة.

= أمير المؤمنين. ونصّب نفسه رئيساً أعلى وحامياً للفتوة فانضم إليها القادة وأعيان القوم والأمراء وحكام الولايات، فكان يرسل البعثات الرسميّة من لدنه لتلخع عليهم لباس الفتوة المهيب باسم أمير المؤمنين... أه. (كان المؤلف أحد الضباط الأوائل الذين فكروا بالإطاحة بالحكم الملكي وانضموا الى المجموعة الأولى التي صممت الانقلاب. وقد عين وزيراً للتربية والتعليم في الفترة الأخيرة من حكم عبدالكريم قاسم.

ولذلك ما عتم ابتهاج النظريين العروبيين بتحرير بلادهم والخلاص من ويلات الحروب، أن انقلب الى خيبة أمل مرة وغضب كاسح وحقدٍ دفين على أولئك الأجانب الذين حرروا بلادهم من حكم - ليخضعوها لحكمهم ونفوذهم.

وأدخل هؤلاء الى الشرق العربي أنظمة سياسية جديدة باسم الديمقراطية لا عهد لهم بها، وحاولوا تطعيم مجتمع إقطاعيٍ مشيخيٍ بطبيعته، دينيٍ تقليدي بروحيته - بمباديء تلك الأنظمة الغربية عنه ولم تكن النتائج جيدة. لم تكن الديمقراطية مادة للإستيراد والتصدير. ولا ضمان في أن ينجح نظام ديمقراطي فوراً في تربة غضةٍ يعدها أصحاب التربة أنفسهم ولذلك تعثرت الديمقراطية في العراق. فالديمقراطيون الليبراليون أو بالأحرى القوميون الديمقراطيون قرنوها بالاحتلال الأجنبي واعتبروها واحدة من وسائله في تحكيم قبضته وتدريب صنائعه المحليين على الإفادة الشخصية، يقابل ذلك نفرة وضيق ونازح صبر من الأساليب الدستورية المعقدة في تنظيم نشاط جهاز الدولة، بتحديد السلطة العامة وتقنينه الدقيق للمسؤوليات وهو ما لم تعرفه الطبقة الحاكمة الجديدة أو تألفه، وهي التي عاشت في جو الحكم المطلق وبحكامٍ يحصر في يده كلّ السلطات وينفذها في آن واحد. لذلك وجدت هوى في نفوس الطبقة الحاكمة، فحاول معظم أفرادها ممارستها تحت ستار النظام الدستوري السائد. واستمد القوميون منها ما وافق أفكارهم. لكن ذلك لم يكن سهلاً كما تبينوا.

فدكتاتورية النازيين والفاشيست ما تمكنت من حلّ المشاكل التي اعترضتها إلا بوجود أرضيةٍ صالحة في مجتمعاتها. وهي مشاكل تختلف اختلافاً جوهرياً عن تلك التي تصدى لها القوميون في البلاد الناطقة بالعربية. فضلاً عن الاختلاف في بعض الأهداف. وقد أتينا في ما سبق الى عناصر المشابهة.

تألف المانيا من الشعب الجرمانى الذي يتكلم لغة واحدة خالية من مشكلة تعدد اللهجات، كما إنه يدين بتراث دين واحد حُلّت مشكلة الخلاف المذهبي فيه حلاً أبدياً منذ زمن بعيد. ونظرية نقاوة العنصر الألماني وهو ليس من ابتكار النازية، ترفع الألمان الى مرتبة العرق الأعلى الذي قُدّر له أن يسود الأقاليم الأخرى ويسخّرهما لخدمته (وقوانين نورمبرگ) التي اشترعها هتلر، وكانت تقضي بطرد كل عنصر غير جرمانى من المجتمع الألماني، لها أصول تاريخية - دينية عند الألمان<sup>(٣١)</sup>.

(٣١) صدرت في ١٥ من أيلول ١٩٣٥. وبمقتضاها جرد اليهود من الجنسية الألمانية وحقوق المواطنة. وأنزلتهم منزلة الرعايا والبعيد. إذ حظرت عليهم الزواج بالأربيين وإقامة علاقة جنسية معهم خارج نطاق الزوجية. ومنعتهم من استخدام خدم ألمان تقل أعمارهم عن خمسة وثلاثين عاماً. وقد صدر خلال السنوات الأربع =

الشعب الألماني شعبٌ متجانس، عبد للنظام، ذو تقاليد عسكرية كانت جزءاً من شخصيته القومية، لا يجد حرجاً في إطاعة الدولة التوتاليتارية أو العسكرية. اقتضت له زلزلة هائلة كالحرب العظمى الثانية لوضعه على الطريق الديمقراطي.

وفي حينه كانت البلاد الناطقة بالعربية تفتقر الى هذه المؤهلات، فمجتمعاتها غير متجانسة بلهجات لغوية متباينة، ونفرة طبيعية من سلطات الدولة المتحكمة، تترجمها ثورة مستديمة صامتة على الحكام المستبدين بها تتفجر أحياناً لتسلك سبيل دولة لا جدوى فيها وترجم بمحاولات مستمرة في التحايل على القانون والنظام بغية الخلاص من تبعاته وأعبائه.

لم يكن لحلم (الحصري)<sup>(٣٢)</sup> يجعل الجيش نواة لهذا التجانس القومي حظّ كبير من النجاح، مثلما لم تتح لطموح (سامي شوكت) في خلق روح عسكرية قومية عن طريق تطبيق نظام الفتوة على الناشئة، أي فرصة من النجاح. وددت لو تابع (الحصري) وأمثاله الملايسات والعشرات التي جلبتها التجربة وكانت في وقت ما الوسيلة المركزية لخلق المجتمع القومي المتجانس المنشود في نظرهم، أي تطبيق قانون التجنيد الإلزامي.

والعراقيون الذين هم من جيلي والجيل الذي تلاه يذكرون جميعاً كيف راح المكلفون بالخدمة وذوهم يلجأون إلى الإفادة من الثغرات والثقوب التي لا ينجو منها أي قانون بغية التخلص من الخدمة البغيضة بذكرياتها الأليمة في نفوسهم. وكان قانون الدفاع الوطني سمحاً، كريماً

= التالية (١٣) قانوناً ومرسوماً ملحقاً بتلك القوانين تتضمن تجريد اليهود من صفة الأدمية، وأخرجوا من الوظائف العامة والمدنية والصحافة والراديو والأعمال الزراعية والتعليم والمسرح والسينما وطرد تجارهم من الأسواق. وحرم المرسوم الصادر في ١٩٣٨ عليهم مزاولة مهن المحاماة والطب والتجارة.

كانت المسيحية الألمانية مدربة تدريباً تاريخياً على كره الساميين، فلم تتر هذه القوانين احتجاجاً عاماً أو استنكاراً. كان (مارتن لوتر) مؤسس المذهب البرتستانتي وهو ألماني، خصماً عنيداً للسامية. ومؤمناً متحمساً بالطاعة المطلقة للسلطة السياسية. أراد أن تتخلص ألمانيا من اليهود تماماً. وحرص مواطنيه ونصحهم "بأن يجردوهم من كل نقودهم وجواهرهم وذهبهم وفضتهم... وإشعال النار في كنائسهم ومدارسهم، وأن تهدم بيوتهم وتدمر تدميراً وأن يحشروا تحت سقف واحد في أسطبل كالفجر... وأن يتركوا في شقاء وعبودية ينحون ويشكون الى الله ما فعلنا بهم دون انقطاع" (أنظر: فروث نيومان Frowt L. Neumann: البهيموث The Behemoth، ط، نيويورك ١٩٤٢، ص ١٩٠).

(٣٢) من كتاباته "يعيش الجندي ضمن مجموعة من أبناء البلاد يؤخذون من مختلف المدن ومختلف العقائد والبيئات فيعيش معهم خاضعاً لنظام واحد يشمل الجميع دون استثناء عاملاً لغاية هي أسمى من كل الغايات، غاية تتوخى حياة الوطن وعزّ الأمة. إن حياة الجندي تجعله يشعر شعوراً واضحاً بوجود الأمة والوطن وتعلمه التضحية بالدم والنفس في سبيل بلاده ووطنه". (أنظر ما سبق). يلاحظ في كتابات الحصري اللاحقة في الستينات أنّ حماسه قلت كثيراً في اعتماد الجيش العروبي سنداً للقومية وأداة لتحقيق آمالها.



بها وقد أخذ بأحكام كثيرة من القانون العثماني المماثل، ولجا الأهلون كالسابق الى الإحتيال عليها والإفادة منها بشكل صريح. فأصبح يدل مما يدل على ضعف المشاعر القومية والوطنية. والكره المتأصل في إطاعة قوانين الحكومة وأوامرها.

أجل، فرغم كل هذا إزداد الجيش كمّاً. ولم يتقدم خطوةً واحدةً كيفاً، إلا أن القوميون والحكومة ظلوا يقيسون قوته بضباطه فحسب. في حين بدت الهوة العقلية بين الضابط والجندي تزداد وضوحاً واتساعاً بعد سوق المجندين. ولم يكن هناك من سبيل الى ردمها ولا فكرت الحكومات في محاولة ما. وظلّ قياس قوة الجيش العراقي عندهم بالعدد والتسلح لا بالروح القتالية أو المعنويات. وكانت كفاءات الضباط المحترفين، وقد أعطيتهم حقهم من الثناء، تضيع بدءاً بين سواد وأوزاع جنوده وبين الضباط السياسيين الطموحين قومياً وتحكمهم وبين جمود الضباط العثمانيين السابقين وبلادتهم. ولا مبالاة الذين انتظموا في السلك العسكري بدوافع أخرى آخرها خدمة الوطن والدفاع عنه<sup>(٣٣)</sup>.

(٣٣) ليس في وسعي أن أعزو الى الحاكمين والقوميين تلك الدرجة من الغفلة والعناد، بل الجهل بمدى صدود العراقيين عن التجنيد الإلزامي. سيما بعد أن اضطروا بعده الى إخماد الإنتفاضات المسلحة التي نشأت عن تطبيقه باستخدام الجيش. وأظن أن بعضهم كان يحسب لذلك حسابه ويخشى ردود فعله، ولا يخفى عني مثلاً لبقافة (الهاشمي) في الإغفال العمدي ذكر نية تطبيقه في منهاجه عند تطرقه الى الجيش. إذ جاء ما نصه: "توسيع الجيش على أساس الكفاءة للدفاع ضدّ التجاوز الخارجي وللسير بالبلاد لبلوغ الأمان الوطني وذلك بتزويد وحداته ومعدّاته وبتوسيع القوة الجوية الى الحد الذي يطمّن البلاد على سلامتها". (الحسني: المرجع السالف ج ٣. ص ١٤٩). لقد استُخدمت الوسائل الشرعية وغير الشرعية للتخلص من خدمة العلم، ومن بعض انعكاساتها في مؤسسة الضباط، أن نشأ خلال فترة تطبيقه طبقة من ضباط التجنيد خربي الذم يقبلون الرشاوى والوساطات لإعفاء الكلفين، حتى بات هذا الفرع من الجيش بمثابة منفى يبعد إليه كل مغضوب عليه من الضباط، أو من شك في ضعف كفايته.

من الأساليب التي يلجأ إليها المكلفون للإعفاء مثلاً الانخراط في المدارس الدينية أو الدوام في المدارس الأهلية ودفع أجورها العالية بعد الرسوب المتوالي في المدارس الرسمية، كفرصة أخيرة لنيل الشهادة الثانوية وهي أحد أبواب الخلاص من الخدمة، ومحاولات الإعفاء من الخدمة بحجة الإعالة تؤدي أحياناً الى زواج المكلف ببيتيمة الأبوبين. أو باصطناع عجز طبي للآب. ومما أذكره خلال السنوات ١٩٤١-١٩٤٣ حين كنت أسنّعين على نفقاتي الدراسية بإلقاء دروس في اللغة والتاريخ على طلاب مدرستين أهليتين في بغداد. ففي ثانوية (أنيس عادل) بالباب الشرقي، كان ما يقارب نصف مجموع طلاب الصفوف المنتهية ممن تجاوز الثامنة عشرة (وهو سن الدعوة للخدمة) أو ناظرها، وأكثر من ثلث أمثالهم في مدرسة الثانوية الأمريكية الأهلية بحلة السنك. وفي العام ١٩٤٥ كان معظم الطلاب في مدرسة الثانوية الأهلية بالموصل ممن تجاوزت سنة الثامنة عشرة تكرر فشلهم في المدارس الرسمية. فانتتموا الى هذه المدرسة بدلاً من دفعهم الى الكتلة العسكرية.

فضلاً عن هذا فقد أخذ القانون بالبدل النقدي الذي يختصر التدريب الى ستة أشهر بدلاً من السنتين. وكانت ثم تلك الإمتيازات الإستثنائية الخاصة التي تدخر لأبناء الذوات والأثرياء المنتفذين منهم =

كان على القومية العربية ومفكرها أن يستمدوا عنصر الحيوية والقوة الجماهيرية من معين آخر، وهو الإسلام بطبيعة الحال. فالنبيّ عربي النجاد. ويفضل الإسلام خرج العرب ليمثلوا على مسرح التاريخ البشري دوراً حضارياً مشمخراً، وكثيراً ما كان المؤرخون يفضلون تعبير (الحضارة الإسلامية) بدلاً عن (الحضارة العربية) بفضل ذلك الدور العظيم. وتأريخ العرب وتراثهم مرتبط بالإسلام إرتباطاً لا انفصام له. وقد لا تجد مثيلاً لهذه الرابطة في تأريخ أمم غير الأمة العربية.

كان يتعذر على العربي أن ينأى بنفسه عن الإسلام أو يسقطه من حسابه في مجال العمل القومي والدعوة له. ولم يحصل في مدى علمي أن تقرب مفكر بآرائه الى الجماهير المسلمة المؤمنة، أو بنشاطه بينها إلا وهو حريص على إظهار إيمانه، أو التظاهر به والمشاركة غير الصميمية في شعائره.

إلا أن الإسلام هو كالمسيحية دين تبشيري وليس ديناً قومياً منغلماً على نفسه كاليهودية والهندوسية. لذلك أدى استخدامه عربياً الى مشاكل وخلف آثاراً بعيدة المدى. لم يكن من الناحية العقائدية مورداً صافياً في كل وقت وحين. بل إن حصيلته في بعض الأوقات كانت التعصّب الأعمى، والحقد المتبادل، وزيادة التنافر بين المذهبين الرئيسيين السنية والشيعية لاسيما في العراق. فهؤلاء الأخيرون وإن كان الشعور الديني يدفعهم أحياناً الى مظاهرة السنية ومساندتهم. إلا أن نظرتهم الى الإسلام بوصفه ديناً تبشيراً بقيت قائمة والشيعي الهندي عند الشيعي العربي أقرب إليه من السني العربي، تعامللاً وتطبيقاً رغم التظاهر بغير ذلك.

والدين هو بصورة عامة سكين ذات حدين كلاهما ماضٍ قاطع. بتر أحد حديها القوميون العرب المسيحيين الذين أخذوا يناون بأنفسهم عن الحركات العربية، وكانوا كما رأينا روادها الأوائل ونفيضتها ومن جهة أخرى استخدم القوميون العرب الإسلام في إثارة الجماهير وتوجيهها في محاربة الخصوم السياسيين، كالشيوعيين والديمقراطيين الليبراليين بقذف تهمة

= لايعدمون علاقة بالمؤسسة العسكرية المحلية، وعن طريقها يضمنون أن لايبقى أبناؤهم يوماً واحداً في ساحات التدريب. وتقع الخدمة من نصيب من لايقوى على ذلك. ففي العام ١٩٤٧ وأنا في الوحدة العسكرية المرابطة في الموصل، جرى سوق المكلفين للدروة السادسة والعشرين على ما أذكر. لم أجد بين المئات الستة أو حوالها الذين سيقوا للخدمة إلا نفرأ معدوداً من أهل المدينة. أما بقيتهم فمن الفلاحين وأهالي القرى والقصبات. قليل منهم من كان يفهم العربية. وأقل من قليلهم نال حظاً من التعليم. ومما أذكره أيضاً إني خلال الأشهر القليلة من خدمتي عالجت أكثر من ثلاثمائة قضية هروب من الجيش بقيت معلقة ضد الهاربين منذ أن تمزق الجيش إثر الهزيمة التي أعقبت حركة رشيد عالي في ١٩٤١.

الإلحاد في وجوههم، لشلّ نشاطهم السياسي بين الجماهير المؤمنة. وفي بعض الأحيان لم يسلم الشيعة من طعن القوميين السنيين بعروبتهم. ووقتما كان يردون على المطالبة الكردية بالحقوق القومية والسياسية بأنهم في غنى عنها لأن رابطة الإسلام كافية.

وفي الوقت الذي وجدت حكومة الجيلاني القوميّة، ومساندوها القوميون أن الظروف تستدعي قيام حملة دعائية ضدّ الآشوريين لتأليب الرأي العام، صورتهم صحافة ذلك الحين بالأول، بأنهم خصوم الكرد البارزانيين وغيرهم من القبائل الكردية المسلمة يريدون الانتقاض على أراضيهم ونزعها منهم عنوةً. ولما فشلت الحملة في تحريك مسلح للكرد ضدّهم، عادت الصحافة فصورتهم حلفاء للكرد يساندون بعضهم بعضاً ضدّ العرب العراقيين ضدّ حكومة بغداد. وعندما تتابعت ثورات الكرد وانتفاضاتهم عادت الصحافة للمرّة الثالثة فصورت الجهتين دمي وخدماء للبريطانيين يحركونهم بقصد زعزعة الحكم الوطني.

ليس من المعقول أن تلجأ مجموعة من المواطنين أو جزءاً من البلاد الى رفع السلاح ومقاومة الحكومة دون أن يكون هناك سبب. والسبب هو أكثر من مجرد حلم رآه الشيخ أو الرئيس في المنام. أو لأن مسؤولاً إدارياً سجن شخصاً من أتباعه لأنه لم يدفع ضريبة عن غنماته. إن الحكومة كانت دائماً تحبس الأسباب الحقيقية ولا تحاول مناقشة الأمر على صعيد الصحافة، إلا بما يتفق وإخراج القضية بمثابة تمرد أو عصيان أهوج. ففي موضوع قيام الشيخ أحمد البارزاني مثلاً صورت الحكومة حملتها العسكرية عليه بمثابة حملة جهاد إسلامية بسبب زيغته وارتداده عن الدين الإسلامي.

وبعين المنوال لم يكن كافياً عند القوميين أن يضعوا أحداث آب في صيغة: "أحفاد آشور ضدّ أبناء يعرب". فقد كان الأسلم والأضمن أن يضعوها للأغلبية العراقية بصيغة: "الإسلام ضدّ المسيحيّة". وهكذا كان.

كانت المناسبة الأولى لزواج القوميّة بالعقيدة الدينية. وقد لحقتها مناسبات أخرى أرغمت خلالها القومية العربية على أن تبدو مسلمةً أولاً وعربيةً ثانياً. فخلفت عند أفول شمسها وفي أعقابها حركة التشدد الإسلامي الذين عرفوا بالأصوليين. وما هم من الأصالة الإسلامية في شيء - بالدماء التي سبحت بها البلاد الناطقة بالعربية وغير الناطقة بالعربية سواء بسواء.

كما بقيت تحمل في رحمها نطفة النازية وعقابيلها الى الأخير.

## ملحق

### نظام الفتوة رقم (٥٠) لسنة ١٩٣٥

نحن ملك العراق، بعد الإطلاع على المادة الثانية من قانون المعارف العامّة وبناءً على ما عرضه وزير المعارف ووافق عليه مجلس الوزراء أمرنا بوضع النظام الآتي:

**المادة الأولى:** يسمّى هذا النظام بنظام الفتوة.

**المادة الثانية:** غايته تعويد الفتيان على خشونة العيش وتحمل المشاق، وخصال الرجولة والمفاودة وتدريبهم على التمارين العسكرية والرماية وما يتبعها من خصال حسب النظام والطاعة.

### الباب الأول: المخيم

**المادة الثالثة:** تقوم وزارة المعارف بإنشاء مخيم صيفي سنوي في بقعة مناسبة من الجبال لفتيان المدارس الثانوية ودور المعلمين والصنائع.

### المادة الرابعة:

(أ) يكون الإشتراك في هذا المخيم اختيارياً على الطلاب في المدارس والصفوف التي تعينها وزارة المعارف وفي الوقت الذي تعينه.

(ب) لا تقلّ دورة المخيم عن الشهر الواحد.

### المادة الخامسة:

(أ) تقوم وزارة المعارف بتجهيز المخيم بكل المعدات وإعاشة الفتيان ودفع أجور نقلهم من المخيم وإليه.

(ب) تعين وزارة الدفاع من تعتمد عليهم من فضلاء الضباط للقيام بالتدريب العسكري وتقديم الأسلحة والعتاد لهذا الغرض.

**المادة السادسة:** يجوز لفتيان المدارس الخصوصية من المستوى المعين للمدارس الرسمية أن يشتركوا في المخيم على أن يحصلوا على موافقة وزارة المعارف وعلى أن يدفعوا أجور نقلهم ونفقات إعاشتهم.

**المادة السابعة:** (أ) تقوم وزارة المعارف بوضع منهج لدورة المخيم بعد استشارة وزارة الدفاع فيما يتعلق بتنظيم المخيم والتدريب العسكري والرماية.

## نظام الفتوة رقم (٢٧) لسنة ١٩٣٩

بعد الإطلاع على المادة الثانية من قانون المعارف رقم (...) لسنة (...) وبناءً على ما عرضه وزير المعارف ووافق عليه مجلس الوزراء أمرت بوضع النظام الآتي:

**المادة الأولى:** الغاية من الفتوة والكشافة هي تعويد الفتيان على خشونة العيش وتحمل المشاق والمفاداة واث الروح العسكرية وصفات الرجولة والفروسية وما يتبعها من خصال حسب النظام والطاعة وذلك بواسطة التدريب العسكري على اختلاف أنواعه.

**المادة الثانية:** يشمل هذا النظام موظفي وزارة المعارف وتلاميذ مدارسها باستثناء موظفي دار الآثار القديمة والموظفين الآخرين وفقاً لتعليمات وزارية.

**المادة الثالثة:** يطبق على تلاميذ المدارس بما يخص تدريب الكشافة فقط وذلك بموجب تعليمات وزارية.

### الباب الأول: المراتب والرتب

**المادة الرابعة:** ينقسم موظفو المعارف الى ثلاثة مراتب ويعتبرون ضباط فتوة: أولاً: برتبة النظار: الموظف (كذا) من راتب ٤٢ ديناراً فما فوق.

ثانياً: الفرسان: الموظف من راتب ١٨-٣٦ دينار.

ثالثاً: النظراء: الموظف من راتب ١٥ ديناراً فما فوق.

**المادة الخامسة:** تطلق العناوين التالية لضباط الفتوة بموجب منصبهم ورواتبهم كالتالي: أ- المدير العام: عنوان حامي الفتوة.

ب- مدير التربية البدنية والتدريب العسكري: عنوان نائب حامي الفتوة.

ج- الناظر الأول: الموظف براتب ٦٠ ديناراً.

د- الناظر الثاني: الموظف براتب ٤٨ ديناراً.

هـ- الناظر الثالث: الموظف براتب ٤٢ ديناراً.

و- الفارس الأول: الموظف براتب ٣٦ ديناراً.

ز- الفارس الثاني: الموظف براتب ٣٢ ديناراً.

ح- الفارس الثالث: الموظف براتب ٢٥ ديناراً.

(ب) يشجع الطلاب في أوقات الفراغ على القيام بأعمال مختلفة، كالمطالعة والأسفار القصيرة والأعمال اليدوية والألعاب الرياضية والرسم والتصوير الشمسي وغير ذلك. وتعد وزارة المعارف المعدات لذلك على قدر الإمكان.

**المادة الثامنة:** يكون النظام في أوقات التدريب في المخيم عسكرياً وفي سائر الأوقات عسكرياً - تربوياً. وتطبع وزارة المعارف التعليمات اللازمة لكيفية سير المخيم بمساعدة وزارة الدفاع.

**المادة التاسعة:** يعتنى بعناية خاصة بصحة الفتيان وتقديم الطعام من نوع الطعام الذي يقدم للجيش وتعيين وزارة المعارف طبيباً خاصاً للمخيم.

**المادة العاشرة:** تكون ألبسة الفتيان شبه عسكرية وبسيطة ومن طراز تصنعه وزارة المعارف.

**المادة الحادية عشرة:** (أ) لوزارة المعارف أن تستفيد من وحدات الجيش في المراكز التي توجد فيها وأن تدخل في منهجها تمارين أسبوعية خلال السنة الدراسية في التدريب العسكري للصفوف المنتهية في المتوسطات والثانويات ودور المعلمين والصنائع، وعلى وزارة الدفاع أن تقوم بتعيين المدرسين وتقديم الوسائط والعتاد لهذه الغاية.

(ب) على وزارة المعارف أن تخصص الوقت المناسب في المنهج لتعليم المصطلحات العسكرية والمعلومات البسيطة عن تاريخ الحرب.

**المادة الثانية عشرة:** تسعى وزارة المعارف في تعيين أمري الحظائر والطلّاع من تشكيلات الكشافة من الناجحين في التدريب العسكري والمشاركين في الرمي.

**المادة الثالثة عشرة:** على وزير المعارف والدفاع تنفيذ هذا النظام.

(كتب ببغداد في اليوم الثالث من شهر شعبان سنة ١٣٥٤ هجرية واليوم الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول سنة ١٩٣٥ ميلادية)

الملك غازي، ياسين الهاشمي (رئيس الوزراء)، رشيد عالي (وزير الداخلية)،

نوري السعيد (وزير الخارجية)، جعفر العسكري (وزير الدفاع)،

صادق البصّام (وزير المعارف)، رؤوف البحراني (وزير المالية)

ومحمد زكي (وزير الإقتصاد والمواصلات)

نشر في الوقائع العراقية: العدد ١٤٦٩ بتاريخ ١١/٧/١٩٣٥.

- ط- المؤيد الأول: الموظف براتب ٢١ ديناراً.  
 ي- المؤيد الثاني: الموظف براتب ١٨ ديناراً.  
 ك- النصير الأول: الموظف براتب ١٥ ديناراً.  
 ل- النصير الثاني: الموظف براتب ١٢ ديناراً.  
 م- النصير الثالث: الموظف براتب ١٠ دنانير.  
 ن- العاضد الأول: الموظف براتب ٨ دنانير.  
 س- العاضد الثاني: الموظف براتب ٦ دنانير.

**المادة السادسة:** يطلق عنوان (أمير الفتوة) لوزير المعارف.

**المادة السابعة:** يخضع تلاميذ المدارس المتوسطة والثانوية ودور المعلمين ومدارس الصناعة والمدارس العالية لمباديء الفتوة.

**المادة الثامنة:** يعتبر جميع تلاميذ المدارس الوارد ذكرها في المادة القانونية فتيناً وتمنح الرتب الآتية للناجحين منهم في التدريب.

(أ) رئيس الفتیان، (ب) الفتى الأول، (ج) الفتى الثاني، (د) والفتى الثالث.

**المادة التاسعة:** يكتسب موظفو وزارة المعارف وتلاميذ المدارس لباس الفتوة بموجب تعليمات وزارية ويذكر فيها شكل اللباس ونوع التجهيزات والموظفين الذين يكتسبون ذلك اللباس. ولا يجوز اكتساء لباس الفتوة إلا لأغراض التدريب وفي المعسكرات والإستعراضات.

### الباب الثاني: الشارات

**المادة العاشرة:** يحمل ضباط الفتوة الشارات الآتية حسب رتبهم وتعين قياس الشارات ونحلاتها بموجب تعليمات وزارية:

أ- لأمير الفتوة: عنوان حامي الفتوة.

ب- لحامي الفتوة: شريط واحد من القصب وسيف وقلم متقاطعان على قاعدة من القصب فوق البندقية.

ج- للناظر الأول: شريط واحد من القصب وسيف وقلم متقاطعان فوق البندقية.

د- للناظر الثاني: سيف وقلم متقاطعان على لوحة الكتف من البندقية بدون شريط.

- هـ- الناظر الثالث: أربعة أشرطة من القصب بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.  
 و- الفارس الأول: ثلاثة أشرطة من القصب بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.  
 ز- الفارس الثاني: شريط واحد من القصب بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.  
 ح- الفارس الثالث: شريط واحد من القصب بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.  
 ط- المؤيد الأول: أربعة أشرطة من القصب بعرض نصف سنتمتر فوق لوحة الكتف.  
 ي- المؤيد الثاني: ثلاثة أشرطة من القصب بعرض نصف سنتمتر فوق لوحة الكتف.  
 ك- النصير الأول: شريط واحد من القصب بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.  
 ل- النصير الثاني: شريط واحد من القصب بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.  
 م- النصير الثالث: ثلاثة أشرطة فقط بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.  
 ن- العاضد الأول: شريط واحد فقط بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.  
 س- العاضد الثاني: شريط واحد فقط بعرض سنتمتر فوق لوحة الكتف.

**المادة الحادية عشرة:** يحمل الفتیان الشارات التالية:

(أ) رئيس الفتیان: أربعة أشرطة من الكتان الأبيض بعرض سنتمتر على العضد.

(ب) الفتى الأول: ثلاثة أشرطة.

(ج) الفتى الثاني: شريط واحد.

(د) الفتى الثالث: شريط واحد.

### الباب الثالث: تدريب الفتوة والمعسكرات

**المادة الثانية عشرة:** تدخل الوزارة المعارف في مناهجها التدريبية تدريب الفتوة وتعين أوقات التدريب والصفوف التي يشملها بتعليمات وزارية.

**المادة الثالثة عشرة:** تعين وزارة الدفاع، الضباط وضباط الصف للقيام بتدريب الفتوة على الأسلحة. وتقدم الأسلحة والعتاد والمواد الأخرى لإجراء هذه الغاية.

**المادة الرابعة عشرة:** يعفى من التدريب للفتوة والإشتراك في المعسكرات التلميذ والموظف الذي يشبث بالفحص الطبي إنه غير لائق لخدمة الفتوة بموجب وصايا اللياقة البدنية للخدمة العسكرية، على أن يجري الفحص من قبل هيئة طبية تعينها وزارة

المعارف.

**المادة الخامسة عشرة:** تخصص على الأقل ساعة في الأسبوع لتدريس المعلومات العسكرية من قبل الضباط بموجب منح تخصصه وزارة الدفاع وتعين ساعات التدريب في الصفوف بموجب تعليمات وزارة.

**المادة السادسة عشرة:** تقوم وزارة المعارف بإنشاء معسكرات صيفية سنوية في الأماكن التي تختارها مديرية التربية البدنية للفتوة بالذاكرات مع وزارة الدفاع. يشترك تلاميذ الصفوف التي تعينها وزارة المعارف مع معلميه في المعسكرات على أن تراعى في ذلك النقاط الواردة أدناه:

(أ) لا تزيد مدة المعسكر على شهر واحد.

(ب) تقوم الوزارة بالمعارف بتجهيز المعسكر بالمعدات اللازمة وإعاشة الفتيان والمعلمين ودفع أجور نقلهم من المعسكر وإليه.

(ج) تساعد وزارة الدفاع وزارة المعارف بما تحتاج إليه من تأسيس ذلك المعسكر.

### الباب الرابع: الإنضباط

**المادة السابعة عشرة:**

(أ) يعتبر التلميذ راسباً في صفه إذا لم ينجح في موضوع المعلومات العسكرية في تلك السنة.

(ب) يعتبر التلميذ راسباً في صفه إذا تخلف عن حضور التدريب والمحاضرات العسكرية والمعسكرات بدون عذر شرعي أكثر من ربع مجموع المدة المقررة للتدريب العملي والنظري.

**المادة الثامنة عشرة:** يخول مدير التربية البدنية ومدراء المدارس بموجب تعليمات وزارة تطبيق العقوبات التالية على الفتيان:

أولاً: التدريب الإضافي.

ثانياً: خصم درجات من الخدمة النهائية للتدريب العسكري.

ثالثاً: إلغاء الرتبة.

**المادة التاسعة عشرة:** لوزير المعارف إصدار تعليمات لتطبيق مواد هذا النظام.

**المادة العشرون:** يلغى بهذا نظام الفتوة رقم ٥٠ لسنة ١٩٣٥.

**المادة الحادية والعشرون:** على وزير المعارف والدفاع تنفيذ هذا النظام.

كتب ببغداد في اليوم الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٨ هجرية واليوم العاشر من شهر مايس سنة ١٩٣٩ ميلادية.

الوصي عبدالله، نوري السعيد (رئيس الوزراء ووزير الداخلية وكالة)،

وطه الهاشمي (وزير الدفاع)، وعلي جودت الأيوبي (وزير الخارجية)،

ومحمود صبحي الدفتري (وزير العدلية). ورستم حيدر (وزير المالية)،

وعمر نظمي (وزير الإقتصاد والمواصلات) وصالح جبر (وزير المعارف).

نشر في العدد ١٦٩٩ من جريدة الوقائع العراقية ١٥ مايس ١٩٣٩.

## الفصل السابع عشر

"إن هزيمة العرب في فلسطين ليست مجرد نكسة أو نتيجة سوء حظ مؤقت. إنما هي كارثة بكل معنى الكلمة، هي واحدة من أصعب النكبات التي ألمت بالعرب عبر تاريخهم الطويل."

وعقبَ باحثاً عن أسباب النكبة ليكتشفها في الأنظمة السياسية والاجتماعية التي تسود البلاد الناطقة بالعربية:

"إن النصر الذي حققه الصهاينة لم يكن نتيجة تفوق (قومية) على قومية أخرى، بل بالأحرى هو تفوق نظام على نظام آخر. إنه نابع من واقع كون الصهيونية ذات جذور عميقة بالحياة العصرية في حين أننا في معظم الأحوال بعيدون عن الحياة لا نساهم فيها. هم يعيشون في الحاضر والمستقبل ونحن بقينا غارقين في أحلام الماضي. نقصر همناً على الإعتزاز به... الحياة العربية بحاجة الى إصلاح داخلي متطرف، يعني بين أمور أخرى عملاً تقدمياً ثورياً وزعامة حقيقية."

وبعد أن سلخ (زريق) خمسة وثلاثين عاماً أخرى من حياته المديدة نجده ينقلب على رأيه السابق، فينطلق ويبيده مصباح ديوجينيس<sup>(٢)</sup> باحثاً للأمة العربية عن:

"القيادة المخلصة الصحيحة الواعية والقادة، فهي خشبة الخلاص<sup>(٣)</sup> في جميع الأحوال وفي حالة البلبلة والهيجان بخاصة. فعلى كل قائدٍ أو مدعٍ بالقيادة أو

= المطابع له كتاب نظري عنوانه (مطالب المستقبل العربي: هموم وتساؤلات، دار العلم للملايين، ط ١٩٧٣) وهو مجموعة من مقالات. ومنه اقتبسنا الفقرة التي تلت (ص١٦). وقد وجدت في كتاب له عنوانه (الوعي القومي) نشره في العام ١٩٤٠ عبارة أشكل علي فهمها في حينه ولا أجد تفسيراً لها الآن. ففي هذه الفقرة أيضاً تضيع الفكرة التي يريدنا في ضباب غموض العبارة وهي نصاً: "ليس هناك أمل في بعث قومي عربي ما دام قاصراً على أن يستمد من الفلسفة القومية ما يعطيه شكلاً مادياً لروحه يحدد اتجاهاته وبعين أهدافه ويقرر سبل نهجه". ص (١٩-٢٠). وفهم القوميون العرب منها على الأرجح ما دعاهم الى محاولة تحديد محتوى القومية وأهدافها عن طريق وضع فلسفة لها. أما أنا فأقر بعجزى وبجهلي عن فهم هذه المعانيات. وبالمناسبة فقد طرق سمعي أن بعض القوميين المنتنعين الذين رأوه كانوا يشكون بإخلاص الدكتور زريق للقومية العربية لا لسبب إلا لأنه أبيض البشرة أحمر الشعر أزرق العينين أقرب سيماً الى الأسكتلنديين من الإنجليز أنفسهم، ويقولون إنه من أحفاد الغزاة الصليبيين! لذلك لا يحق له التحدث باسم العروبة والقومية وهذا أعجب العجائب.

(٢) Diogenes (بحدود ٤٢٣-٤١٢ ق.م) من فلاسفة الإغريق. نبذ التقاليد والأعراف الاجتماعية وسخر من معاصريه واحتقرهم. كان يدور ويبيده مصباح "يبحث عن الرجل" في مجتمعه. ولقب بالكلب وسمي أتباعه بال(كلبيين Kgnikas) ترك مقتنياته وعاش على الصدقة وكان يسكن برميلاً.

(٣) تعتبر "خشبة الخلاص" كما أرجح كناية عن الصليب الذي علق عليه المسيح وبات فوقه من أجل خلاص البشر.

ابعاد القضية الفلسطينية . الركن المركزي للقوميين العرب . قسطنطين زريق في "معنى النكبة" . النازيون يشجعون يهود ألمانيا على النزوح الى فلسطين ازاء فرض البريطانيين قيوداً صارمة على الهجرة . بيوتات عربية تسهل الهجرة اليهودية . قواني نورمبرغ ١٩٣٧ . علنية التشجيع الألماني على الهجرة . (البارون فون ملدنشتاين) الميدالية الألمانية - اليهودية . غوبلز ومفتي فلسطين الحسيني . الحسيني يرسل (موسى العلمي) مندوباً عنه الى ألمانيا . سلام الماني عبر العراق الى الفلسطينيين وسلام چيكي ونساوي لليهود (فرقتا شتيرن وهاكاناه) . ياسين الهاشمي يقتحم الميدان . كراس (ايخمان) . تدريب الشباب اليهودي في ألمانيا قبل إرسالهم الى فلسطين . القوميون ينسبون كل الجرائم الى بريطانيا ويحملونها كل التبعات . (صلاح الدين الصباغ) عقلية قومية غريبة . كتاب (فرسان العروبة) خلط أيديولوجي ونقائض . الإسلام ركيزة للقومية لا غنى عنها في ميدان العمل القومي . تصنيف لرجال الحكم العراقيين على أساس أرومتهم العربية . الطابع السلبي للشكوكي للقومية العربية بعد الحرب . رسوخ الأيديولوجية النازية في فلسفة العمل القومي . آراء (الريحاني) تأرجحه بين القومية السورية والقومية العربية . الديمقراطية الليبرالية في البلاد العربية . المفتي ، هروبه من فلسطين ووصوله بغداد ، تدخله السافر في شؤون العراق . المفتي يغدو المرجع الوحيد في تشكيل الوزارات العراقية وعزلها بفضل مركزه عند الضباط القوميين . اليسار الاشتراكي ، جماعة الأهالي ، التنظيمات الشيوعية الأولى . قانون مكافحة الآراء الهدامة

في آب ١٩٤٨ نشر الكاتب المؤرخ الدكتور قسطنطين زريق<sup>(١)</sup> كتيباً بعنوان (معنى النكبة) بدأه بهذا القول الأليم:

(١) رئيس الجامعة السورية. ثم أستاذ التاريخ في جامعة بيروت الأمريكية وقتذاك. إهتم طوال حياته بالأمور العربية. وحوله استقطبت حركة القوميين العرب في تلك الجامعة. وقد أطلق كتيبه هذا في حينه الأعلام العربية. وكان لحركته الطلابية العربية التي تسلمها فيما بعد تلميذه (جورج حبش) دورها الكبير في الاتجاهات القومية اللاحقة. وقد ركز في آخر كتاباته على ضرورة التعليم والدراسة. آخر ما أخرجته =

منتنع لها أن يتفحص ما إذا كان بالفعل قائداً أو مقوداً، أي ما إذا كان مهتدياً بأصدق ما يملك من فكر وإيمان أو منجرفاً مع التيارات الجامحة والمتقلبة الجائشة حوله وفي نفسه. إن هذا التفحص هو في آن منطلق لصحة نضاله أو فساده، ونتيجة ومقياس لهما وكذلك يقاس قدر نضال الشعب بأهليته للتمييز بين القيادة الصالحة والفسادة وتهيبه لإحترام الأولى وتوطيدها ولازدراء الأخرى وإزالتها.

قبل ٣٥ عاماً كان الدكتور زريق أقرب في تشخيصه الى الواقع عندما وضع الأنظمة العربية موضع محاكمة، ولم ينس بحرف عن القيادات العربية التي رافقت القضية الفلسطينية أو خرجت من رحمها. كان بعيداً كل البعد عن هذا التخريف والهديان الخطابي المرصع بالجميل المنمقة والعبارات الفخمة المرصوفة باحثاً عن القيادة العربية المستقرة لمحاكمة نفسها وفحص الذات!

ليس في تأريخ البشرية ما يشير إلى قائد أو زعيم، أقدم على فحص الذات ومحاكمة النفس بالشكل الذي أرادته (زريق) للقائد العربي المنتظر. إن المرء ليعجب حقاً من أستاذ اختصاصي في التأريخ، أن يتطلب "قائداً عربياً أو مدعياً بالقيادة، أو المنتنع لها" ليقدم طواعية وبملاء اختيار الى فحص الذات ومحاكمة النفس وإصدار قرار شخصي بجدارته أو عدم جدارته للقيادة؟ وهو ما لم يتطلبه الله في أنبيائه المرسلين.

إنه نموذج لأمثلة كثيرة من أحلام اليقظة والغيبيات التي قاد مفكرو القومية العربية جماهيرهم إليها، دون محاولة منهم في إطلاع صفات سهولة المنال كالتحلي ببعض الواقعية والصدق والأمانة والوضوح.

سبقنا (زريق) إلى متابعة حياة جم غفير من قادة فلسطين ومراقبة نشاطهم، كما مرت أمامه كوكبة إثر كوكبة من الحكام العرب. ولا بُدُّ وأنه واضع طائفة كبيرة منهم على طاولة التشريح الذهني بعقلية المؤرخ، فواعجبي ألم يلحظ كيف كانوا يترامون بتهمة التقصير عن المساعدة والتفريط بالحقوق العربية. تهمة كان يقذف بها تقريباً كل قائد عربي أو رجل دولة في وجه الآخر عندما ينقلب عليه أو يختلف معه؟

ثم ألم يلحظ بأن الإنتصار العربي لمحنة الشعب الفلسطيني أو كارثته كما يسميها - كان له أثره الكبير في صبغ الحركة القومية في البلاد الناطقة بالعربية - بطابع العنف والاستعداد والتعصب؟

ما كتب عن فلسطين حتى اليوم يتخم مكتبةً عظيمة. ولكن وفي الوقت الذي بدأت أيادي

أعداء الأُمس تلتقي والأعناق تشتبك والحدود تزول والزيارات تتوالى، علينا أن نقرّ مرغمين بأنه لا العمل القومي العربي، ولا دروس القومية التي يطلع بها فلاسفة القومية على جمهورهم - بين آن وآخر كان لها أثر في حلها. بل كانت هناك الإرادة وسياسة الأمر الواقع والتجارب والمحن القاسية، التي زُجَّ فيها القوميون المتحمسون البسطاء زجاً ظالماً، ونجم عنها سلسلة من الحروب الدموية لم تعد على محرضيها إلا بالخسران والبلايا.

في العام ١٩٤٨ قضت الإرادة الدولية التي مثلتها الدول الأربع الكبرى بتقسيم فلسطين الى دولتين كاملتي السيادة. فرفضه الحكام العرب وهم يتبارون فيما بينهم في ميدان سباق الحمية العربية والدعوة الى نصرته الشعب العربي في فلسطين. فأضاعوا فرصة ظلوا يحنون إليها ويسفحون دماء شعوبهم لها، ليرضوا بعدها بالأقل من الذي رسمته خارطة تقسيم العام ١٩٤٨. وبالأقل من القليل الذي اقترحه المشروع البريطاني للعام ١٩٣٦، القاضي بإعطاء المساحة الكبرى من الأرض الفلسطينية للعرب وبتدويل القدس. ذلك الإقتراح الذي رفضه العرب بإباء وشمم وقامت من أجله تظاهرات عاجّة ماجّة في سورية والعراق ولبنان وفجر ثورة مسلحة في فلسطين ذاتها وكان للقوميين العرب السهم الأوفر فيها، وأدت في العراق مما أدت إلى قيام حكومة الهاشمي آخر الطوائن على القومية العربية - الى تأسيس ما عُرف بكتلة الضباط القومية السريّة "لمد ثوار فلسطين بالسلح والأرزاق وتدريب المتطوعين" وزاد تقربهم من النظامين النازي والفاشي وعقدوا صفقات سلاح كبيرة معهم.

كلّ هذا معروف وقد كتب فيه أكثر من الكثير، ولا داعي للإفاضة فيه، إلا أنني أريد في الصفائف التالية التطرق الى عملية خداع مزدوجة قد تكون خفيّة، أحكم الزعماء القوميون العرب تغطيتها فباتت أشبه بالسرّ الدفين يكاد أثره يضيع في ملحمة فلسطين الكبرى.

ذات يوم دخل عليّ ابن أخت لي في الرابعة من عمره، وراح ينظر بعينين ملؤهما الرغبة والإستحياء الى صفحة ملأى بالبريق. فأدرت ما يجول في ذهنه وكانت أمامي كأس جعة فيها ثمالة. قلت له - وأنا ما قصدتُ إلا تعويده على الصراحة والجراة: أنظر، لو شربت ما في هذه الكأس فلك أن تأخذ من الصفحة ما تشاء. ففعل وأخذ ما شاء وخرج وهو يكاد يتقيأ، وما أظنه استمتع بما ناله. بهذا ذكرني موقف زعماء القوم.

كان الزعماء القوميون أو أولئك الذين ينعتهم (زريق) بالقيادة انطلاقةً من حقدهم على البريطانيين، يفضلون كابن أختي أن يتجرعوا مرارة النازيين. لقد فرضت سلطة الإنتداب قيوداً صارمة على الهجرة الصهيونية في حين كان النازيون يبذلون مع يهودهم جهوداً كبيرة

لتشجيع هجرتهم الى أرض الميعاد وكان الزعماء القوميون العرب يعلمون بهذا حق العلم.  
واليك مجملًا لحقيقة ما حصل:

في مرحلة الاستيطان اليهودي، أعطى الملاكون الكبار المسلمون والمسيحيون الذين أصبحوا فيما بعد زعماء المقاومة الفلسطينية فرصة كبيرة لليهود لإنشاء الوطن الإسرائيلي. وتسجل دائرة بيع العقارات أسماء بائعين لامعة في سماء القومية، منها موسى العلمي، والشيخ محمد الداودي ويعقوب الغصين، وعوني النشاشيبي وفخري النشاشيبي، والشيخ محمود الداودي، والشيخ اسعد القشيري مفتي عكا، وفؤاد السعد، كما تسجل آل سلام وآل تويني وآل سرسق في لبنان.

وسئل الشقيري مرةً عن هذا فأجاب: نحن نبيع الأرض ليستوفر لنا المال الكافي لمحاربة الإستيطان.

كان الإغراء لايقاوم، فالمبالغ التي تدفع ثمنًا كانت ضخمة تزيد كثيراً عن قيمة الأرض الحقيقية.

في العامين ١٩٣٥ و ١٩٣٦ وما تلاهما تسلّم النازيون عملية استيطان اليهود في فلسطين من بريطانيا ولم يمنعهم عن المضيّ فيها إلا اندلاع الحرب، فسُدّ الطريق أمامهم واستعاضوا عن عملية التخلص من اليهود بإخماد أنفاسهم بأفران الغاز والقتل الجماعي في معسكرات الإعتقال. كانت عملية تشجيع اليهود الالمان على الإستقرار في فلسطين تجري بانتظام وبنوع من العلانية في ألمانيا، وقت كانت اذاعة (حيّ العرب) لمديرها القومي العربي الموصلّي يونس بحري وطاقمه الدعائي يقيمون الدنيا العربية ويقعدونها على جريمة بريطانيا في تشجيع الهجرة اليهودية، ويبدلون كلّ جهد تقوى سواعدهم عليه لإثارة النخوة العربية في الصدور ويملأون الفضاء ببدايات التحريض على حمل السلاح لطرد اليهود والمستعمر واستئصالهما بحدّ السيف العربي. وأذكر مما أذكر ان إذاعة برلين كانت تحفل بالخطب والكلمات الحماسية، تستذكر فيها أحداثًا لامعة من تاريخ الفتوح العربية ومشاهير القادة والزعماء الذين حافظوا على عروبة فلسطين.

في اوائل العام ١٩٣٥ لم يبق من قوانين نورمبرگ التي مرّ ذكرها شيء مستور، كانت تلك القوانين تصدر تبعاً لتجرد اليهود شيئاً فشيئاً من كل آدميتهم، فضلاً عما سبق بيانه حرمت المراسيم الأخيرة عليهم معظم أسباب الحياة وإدامة العيش بالضروريات. وفي أحيان كثيرة وجدوا في عدة مدن صعوبة كبيرة إن لم نقل استحالة في شراء الغذاء. وكثيراً ما رؤيت

لافتات على حوانيت الأغذية واللحوم والمخابز واللبنيات دونّ عليها عبارة "لايسمح بدخول اليهود" وعزّ عليهم في مدن كثيرة الحصول على حليب الأطفال وامتنعت الصيدليات عن بيع أدوية لهم وأبت الفنادق إيواءهم ليلةً واحدة. كانت تطالعهم دائماً وأنى ذهبوا هذه اللافتات المخجلة: "اليهود ممنوعون منعاً باتاً من دخول هذه المدينة." أو "دخول اليهود في هذا المتجر سيكون على مسؤوليتهم الخاصة."

وجد في ألمانيا حينذاك أكثر من سبعمائة ألف يهودي. وفي وقتها لم تكن تخامر النازيين فكرة استئصالهم جسدياً، بل كان شغلهم الشاغل هو البحث عن وسيلة للتخلص من وجودهم في ألمانيا. لذلك كان الوطن اليهودي الذي أقره وعد بلفور ومضى فيه البريطانيون شوطاً قبل أن يدركوا آثاره السياسية في علاقاتهم مع الحكام العرب - كان بنظر الألمان خير حلّ ممكن للتخلص من اليهود. لكن كانت هناك عقبة، إذ مالبتت جمهرة الفلسطينيين أن أدركت المضاعفات الإجتماعية والإقتصادية الخطيرة التي ستنتج عن ورود شعب دخيل. فبدأت فيهم مقاومة حقيقية لعملية الهجرة. ورُفض وعد بلفور رفضاً قاطعاً. لكن العرب في تلك الأيام وبالحدق المتأصل على الدولتين الإمبرياليتين كانوا عند النازيين أداة يحسن استخدامها ضد عدويّ ألمانيا الغربيين.

كان عليهم أن يتقربوا من الطرفين في آن واحدٍ ولم يبد ذلك عسيراً، فهؤلاء العرب يتابعون بدقة الإجراءات القمعية التي يمارسها النازيون ضد اليهود وليسوا بحاجة الى برهان أكثر من هذا.

في العام ١٩٣٤ تمّ التوقيع في برلين على اتفاقٍ ماليّ سرّي بين بنك (الرايخ) وبين الوكالة اليهودية عُرف عند الإسرائيليين باتفاق (هاأفارا). والقصد منه تشجيع هجرة اليهود الألمان الى فلسطين. وبموجب هذا الإتفاق كان اليهود الراحلون الى فلسطين ينالون نسبةً مئوية معينة من قيمة ممتلكاتهم التي يصادها الألمان. ويتم استيفؤها من أثمان البضائع الألمانية المصدرة والمباعة في فلسطين والبلاد العربية الأخرى، ويجري ذلك بإشراف لجنة مختلطة تمثل فيها الوكالة اليهودية طرفاً.

بعده ببضعة أسابيع عقد البنك نفسه مع الوكالة اليهودية اتفاقاً سرياً آخر حول العون المالي والتسهيلات المصرفية التي تقدمها ألمانيا للنازحين اليهود. وأكد الجانبان كما جاء نصاً في الإتفاق "ضرورة إبقاء ذلك سرّاً وعدم فضحه خشية الإساءة بالعلاقة الألمانية مع العالمين العربي والإسلامي."



وبمقتضى الإتفاق الأخير كان اليهود الألمان يُمنحون جوازات سفر تتيح لهم الذهاب الى إحدى دول أمريكا اللاتينية. فيغادرون ألمانيا على متن سفينة مقلعة الى البرازيل أو الأرجنتين أو فنزويلا، حيث تنتظرهم في عرض المحيط الأطلسي سفينة ألمانية يقودها قبطان ألماني مزود بتعليمات صريحة تقضي عليه بالتوجه بهم الى فلسطين. وفي بعض الأحيان كانت السفينة المقلعة تأخذهم الى ميناءٍ من موانئ جزر الأزور وتكون بانتظارهم هناك باخرة ألمانية تقلهم الى أرض الميعاد.

وفي العام ١٩٣٧ عين الدكتور (شاخ) رئيساً لبنك الرايخ، وهو ذو شهرة عالمية مالية. وقد أطلق عليه لقب الخبير المالي الأعظم، وكان مسؤولاً عن تمويل الحرب العظمى والمستشار المالي المقرب من (هتلر).

بعد أن قام (شاخ) بزيارة استطلاعية شبه رسمية لشخصيات عربية وألمانية في الشرق الأوسط، لاسيما في البلاد الناطقة بالعربية، تقرر توسيع شمول اتفاق (هاآفارا) لتغطية هذه البلاد كلها عن طريق السعي الى توقيع معاهدة تجارية مع تلك البلاد تتيح للبضائع الألمانية مجالاً في أسواقها. فعقدت اتفاقية مع مصر وسورية، وبخاصة تلك الإتفاقية التي وقعها نوري السعيد والدكتور گرويه في بغداد. وبمقتضى هذه الإتفاقات تدفقت البضائع الألمانية الى الأسواق العربية بفضل التجار اليهود وغير اليهود. ومن أثمانها كانت تقتطع حصّة اليهود المهاجرين لقاء التعويضات وتبعث بها الملحقيات التجارية في البعثات الدبلوماسية الألمانية الى المستوطنين الجدد القادمين من ألمانيا<sup>(٤)</sup>.

وعملاً بمشورة (شاخ) أمر (هتلر) بتمديد العمل بالإتفاق رغم المخاوف التي ساورت وزارة الخارجية من مصير علاقاتها مع الحركات القومية في البلاد الناطقة بالعربية وبصورة خاصة مع قومي مصر، والقوميين العرب في العراق وكانت قد قطعت شوطاً بعيداً.

وُجدت الإتفاقية مرّة أخرى، لكن بإدخال قيادة الجيش الألماني العليا (الثيرماخت) طرفاً، وبموجبه تقرر أن يقوم (الثيرماخت) بتزويد اليهود النازحين الى فلسطين بمختلف أنواع الأسلحة الخفيفة ابتداءً بالمسدسات والبندقيات والرمانات اليدوية وانتهاءً بالرشاشات. وفي أعوام ١٩٣٦-١٩٣٨ فتحت لهم أبواب مخازن السلاح الجيكوسلوفاكي والنمساوي بعد ضم البلدين الى الرايخ. وبهذه الأسلحة تزوّدت جماعات (الهاگاناه) وفصائل (الأرگون تسفاي

(٤) ك. پولكن K. Polkehn الصلات السريّة: الصهيونية وألمانيا النازية The Secret Contacts: Zionism and Nazi Germany 1933 ، نيويورك ١٩٤١، ص ٢٦٦.

ليومي) الإرهائيتين بزعامة (مناحيم بيگن وإسحاق شامير).

في العام ١٩٣٧ - على كلّ حال - نُزع رداء السريّة عن الجهود الألمانية المحمومة في إنشاء الوطن القومي اليهودي الذي كان يجري تحت غطاء العمل المدني والدبلوماسي. ففي أوائل العام ١٩٣٤ وتنسيقاً مع السياسة المالية والعسكرية كما مرّ، أنشئت إدارة خاصة في جهاز شرطة الأمن (S.S) بعنوان (قسم الشؤون اليهودية). وسلّمت مسؤوليته الى ضابط صغير كان له دورٌ فعّال في ترويج الدعوة للوطن القومي اليهودي، هو البارون فون ملدنشتاين (Von Mildenstein). هذا الضابط قام بدراسة لثورة فلسطين والشعور المعادي لليهود عند قومي البلاد الناطقة بالعربية دراسة مستفيضة، وأفسح له سبيل المشاركة في مؤتمرات عديدة للمنظمات الصهيونية العالمية، وقام بزيارات لفلسطين واجتمع بشخصيات عربية. ثمّ نظم تقريراً قد يعد بالنسبة للظروف السائدة وقتذاك من بين أدقّ التقارير، حول الوضع في فلسطين، بلغ فيه حدّاً ملفتاً للنظر من الأهمية والذكاء ومما جاء فيه:

"إن فلسطين بلد متناقضات تبلغ غايه من الشدة ومن مظاهر العنف. وهي تسيير بخطى حثيثة نحو الانفجار إن لم يجد العرب واليهود صيغة ووسيلة للتعايش معاً بسلام. إن وجود أكثر من ربع مليون يهودي في فلسطين هو واقع لا يستطيع أن ينكره أحد، إلا أنهم ليسوا بحاجة الى دولة خاصة منفصلة، لأن هذا النوع من الكيان السياسي (أي الدولة) لا يمكن أن يعطي ضمانة أتوماتية للبقاء وللحفاظة على الهوية القومية اليهودية. وإن إمكانية عودة اليهود الجماعية الى فلسطين ليست بالأمر العسير، بل هي ممكنة رغم وجود القاعدة الإقتصادية الفلسطينية المتخلفة، شريطة أن يعمد اليهود الى خلق وطنهم القومي باستثمار وتطوير واستغلال أراضيهم."

وانتهى (فون ملدنشتاين) في تقديمه هذا المنشور في صحيفة (در آنكريفت Der Angeriff) اليومية بالقول: "ليس اليهود وحدهم المستفيدين من هذا، بل العالم جميعاً لأنه مؤشّر الى بداية الطريق في تحقيق الشفاء لجرح في جسم العالم دام قروناً عديدة، هو المشكلة اليهودية."

لم يكن (فون ملدنشتاين) صديقاً لليهود، فهو على أية حال عضو في الحزب النازي وضابط من ضباط ال(S.S). إلا أنه كرّسائه يخصّ بعطفه تلك الفئة من اليهود الذين يسمون أنفسهم "صهاينة" أما أولئك الذين يدعون بأنهم ألمان أولاً ويهود ثانياً، أو الذين

ينكرون يهوديتهم جملة وتفصيلاً، أو الذين لا مكان لمشاعر قومية في نفوسهم فهو يسقطهم من حسابه ولا يؤيدهم، فيكون موقفه والحال هذه مطابقاً لموقف حزبه. وبعبارة أخرى إن مساندة حزبه للصهيونية نابعة من الملائمة النفعية فحسب، لأنه لا يتعارض وتطبيق النظرية كما وصفها هتلر في (كفاحي) من أن القومية هي نتاج اتحاد سريّ (Mystical) بين شعب وتربة تأصلت فيها جذوره تاريخياً. وبما أن اليهود يفتقرون حسب ادعاء النازيين - إلى هذه الرابطة مع التربة الألمانية، فهم يعتبرونهم أجنب يعيشون في وسطهم. وصفتهم التي يعرفونها بهم "إنهم فصيلة من البشر منحطة طفيلية وضيعة لا جذور لها".

في واحدة من زيارات (فون ملدنشتاين) فلسطين العام ١٩٣٥ التقى بيهودي وقامت بينهما مودة. فكتب عنه: "إنه يهودي جديد يتعهد أرضه بالفلاحة" اليهودي الجديد هذا تتمثل فيه كل خصائص (بن غوريون) المكتنز، رأى فيه اليهود المكافح بوجه مصاعب عظيمة من أجل مدّ جذوره في أرض الجدود. يهودي يخالف ما أشيع في ألمانيا النازية عن اليهود، بأنهم يأنفون من تلويث أيديهم بالتربة، عاجزون عن التفكير في المثاليات.

مضى (فون ملدنشتاين) في رسم صورة جذابة حافلة بالإطراء لهذا اليهودي بشكل ما عاد يترك شكاً بخصوص نسبه الأري المتفوق. وما من شك في أنها تركت قراء الجريدة يهزون رؤوسهم دهشة غير مصدقين.

ليس في الإمكان معرفة درجة نجاح (فون ملدنشتاين) في تحويل الرأي العام الألماني، رغم أن الجريدة التي يشرف عليها جهاز (هملر) الأمني أمرت بصنع عدة آلاف من المدايات الفضية والبرونزية بمناسبة الزيارة النازية لفلسطين نقش على وجه منها شارة الصليب المعقوف، ونقش على الوجه الآخر نجمة داود السداسية وتم توزيعها في فلسطين بنطاق واسع.

ولأمر ما كتم ذلك عن الرأي العام العربي إذ لم أجد رغم بحثي الطويل إشارة إلى ذلك في صحيفة أو كتاب أو خطاب عربي أو لكاتب عربي.

يتمثل النجاح الذي حققه (فون ملدنشتاين) ومعاونه (إيخمان) ومكتب الإدارة اليهودية الذي عرف رسمياً بـ(٢:١١٢) في قبول وموافقة قيادة الـ(S.S) العليا على خطتهم، ومؤاها أن حلّ المشكلة اليهودية في ألمانيا النازية والدول الأخرى التي أخضعتها (النمسا وچيكوسلوفاكيا) وقتذاك إنما يتمّ بهجرة جماعية ليهوديههم إلى فلسطين. وقد نال (فون ملدنشتاين) جراء تقاريره ومقالاته وأنشئت ترقية سريعة وفي أواخر العام ١٩٣٥ عين رئيساً للمكتب اليهودي في جهاز الأمن الذي كان يرأسه (راينهارد هيدريخ Reinhardt

(Heydrich) وهو ذراع الإستخبارات لجهاز الـ(S.S)<sup>(٥)</sup>. وما أن احتواه منصبه حتى انطلق في وضع خطته موضع تطبيق.

جوهر الخطة هو تسخير طاقات الدولة لترويج وتحبيذ الفكرة الصهيونية وتقوية نفوذ منظماتها عند اليهود الألمان وبالوجود الواقعي لسياسة الإذلال والإرهاب والعزل الإجتماعي وأساليب القمع الأخرى التي يتعرضون لها. وكذلك ترغيب من لم يُظهر منهم اهتماماً كبيراً بالهجرة. ووضعت هذه السياسة خطأً فاصلاً بين ذوي الإتجاه القومي أي الصهاينة الذين يرغبون في الهجرة أو يروجون لها، وبين أولئك الذين انصهروا بالألمان وعدوا أنفسهم ألماناً، أي أولئك الذين "يريدون تدمير الحزب القومي الإشتراكي الألماني النازي".

وراح الـ(S.S) يعمل بدأب على تقوية المركز الصهيوني في المجتمع اليهودي. وزوّد رجاله ووكلاؤه بتعليمات خاصة تقضي ببذل المساعدة والتشجيع لدعاة الصهيونية من الكوادر المتفرغة النشطة. وعلى تشبيط هم اليهود غير الصهاينة والتصديق عليهم. ومُنّع الصهاينة بامتيازات خاصة محرمة على الآخرين منها مرسوم صدر في آذار ١٩٣٥ إلى دوائر الشرطة في ألمانيا، أمر فيه القادة والضباط بصراحة وبشكل واضح بمساعدة ورعاية تجمعات الشباب الصهيوني وتفضيلها على المجموعات الأخرى كالسماح لأفرادها بارتداء أزياء عسكرية. وتشجيع المقرات الصهيونية التي فتحتها الوكالة بإجازة الحكومة للتدريب على الأعمال الزراعية والحرفية والمهنية، تهيئةً لشباب اليهود وتوعيداً لهم على حياة الفلاحة والكبح في فلسطين. كما فتحت الدوائر الحكومية أبوابها لاستقبالهم وحقق نوع من الإتصال والتنسيق مع قيادة الحزب النازي في حين أنها ظلت مغلقة بوجه أولئك المنصهرين (أي اليهود المعتزّين بألمانيتهن). وفي قوانين نورمبرگ نفسها التي جردت اليهود من جنسيتهم الألمانية وأطلقت عليهم اصطلاح "أشخاص بلا وطن" تضمنت استثناء خاصاً للصهاينة. ففي حين حُرّم عليهم رفع العلم الألماني، سُمح لهم برفع العلم الصهيوني (وهو العلم الإسرائيلي الحالي بالضبط بخطيه العرضانيين ونجمته الوسطى)<sup>(٦)</sup> وحمل الشعار الصهيوني. وبمناسبة الحملة المساندة

(٥) حاكم بوهيميا فيما بعد. وقد تمّ اغتياله بيد رجال الحركة السرية الشيكية أثناء مرور سيارته بالقرب من قرية ليديش (تبعد عن براغ بحوالي ١٦ ميلاً إلى الشمال الغربي) في العام ١٩٤٢. فقام الكشتابو بتدميرها تماماً وقضوا على رجالها البالغين رمياً بالرصاص وسبوا نساءها وأطفالها. وقد أقيمت قرية جديدة قربها. وأضحى موقعها مزاراً وطنياً.

(٦) راجت في البلاد الناطقة بالعربية في الخمسينات مقولة بحثها الكتاب بجديّة وخطورة حول هذا العلم. فقلوا إنه يرمز إلى خطة توسع إسرائيلي بعيدة المدى، فالخط الأزرق في الأعلى يرمز إلى نهر النيل غرباً حيث تمتد الإمبراطورية الإسرائيلية والخط الأزرق الأدنى يرمز إلى نهر الفرات حيث تصل إليه حدود =

للمصهيونية كتبت جريدة (دار شفاترته كور) الرسمية الناطقة بلسان الإس. إس (S.S) في العام ١٩٣٦ تقول:

"قرب ذلك الزمن الذي ستتمكن فيه فلسطين استقبال أبنائها مجدداً، أولئك الذين افتقدتهم منذ أكثر من ألف عام. الا فليقصدها مشيئين بخالص تمنياتنا وبأفضل الدولة الألمانية."

في الوقت نفسه كان الألمان النازيون بالتعاون بين وزارتي الدعاية والخارجية مجدين في إقامة صلات حميمة مع الزعماء القوميين العرب لاسيما الفلسطينيين والعراقيين.

ومن ذلك أنه جرى في شهر أيار من العام ١٩٣٧ لقاء بين القنصل الألماني في أورشلين القدس وبين المفتي أمين الحسيني، الذي عينه البريطانيون لهذه الوظيفة قبل عامين - وتناول البحث موضوع توريد السلاح للفلسطينيين ومسألة مدى المساعدة الألمانية في النضال ضد تأسيس الدولة اليهودية. وجرت في الوقت ذاته مداوات مماثلة في بيروت بين ممثلي المنظمات القومية السورية والقنصل العام الألماني هناك.

أصر الدكتور (كوبلز) على عقد هذه اللقاءات، مبيناً في واحد من تقاريره:

"إن الزعماء القوميين العرب يستمدون نفوذهم الحقيقي بين الجماهير من إظهارهم المزيد من العداء لبريطانيا، ونشاطهم في التآليب عليها طالما بقيت سلطتها في فلسطين. لذلك لا يخشى مطلقاً من تكون رأي عام ضد ألمانيا في البلاد العربية بسبب تشجيعنا الهجرة اليهودية الى فلسطين. فأى عاقل تراه مستعداً ليصدق بهذا؟" (هكذا وردت نصاً).

بقي (كوبلز) مصراً على توثيق العلاقات مع القوميين العرب واستغلال روح العداء لبريطانيا الى أبعد حد ممكن وبذل عوداً كبيرة وكانت النتيجة إن أرسل (المفتي الحسيني) مثله في سويسرا (موسى العلكمي) الى برلين للمشاركة مع الزعماء النازيين. ففعل، وفي آب ١٩٣٧ قررت الحكومة الألمانية إرسال دفعتين من السلاح عبر العراق والمملكة العربية السعودية الى (اللجنة العليا للدفاع عن فلسطين) في حين كانت الأسلحة الشيكية والنمساوية تتدفق على سكان المستعمرات الصهيونية في فلسطين لتسليح مجموعات الهاگاناه والشتيرن.

= تلك الدولة. وحقيقة الأمر هي أن الخطين يرمزان الى مثيلهما في الإزار التقليدي الذي ينتز به اليهود في كل العالم عند القيام بالشعائر الدينية ليس إلا.

افتضح أمر وجود (موسى العلمي) في ألمانيا فأسرعت وزارة خارجيتها بإخراجه كشخص متسلل غير مرغوب فيه خشية تأزيم علاقاتها مع بريطانيا، وفي عين الوقت أقدمت سلطات الإنتداب وبوجه الإضطرابات المسلحة الكبرى على حلّ (اللجنة العليا) وأصدرت أمراً بالقبض على (المفتي) المتخفي، الذي لم يجد صعوبة في مواصلة الإتصالات السريّة في القدس مع وكالات الألمان. واتفق على إرسال (سعيد الإمام) رئيس النادي العربي في دمشق وهو من الزعماء القوميين للمداولة في برلين مع وزارة الخارجية بصدد إرسال الأسلحة عبر العراق والعربية السعودية.

في العام ١٩٣٦ وقبل انقلاب بكر صدقي، كان ياسين الهاشمي يحاول الدخول بكل هيبة عربوته وجلالها حلبة المشاركة في المباراة القومية رغم أنه كان آخر الداخلين إليها بحسب التسلسل الزمني. ووافق دخول هذا الوقت العصيب الذي نتحدث عنه داخل العراق وخارجه. وقد بدء كما يظهر بمراجعة خلان الحركة الوطنية القداماء في سورية وهم يفاضون السوريين على معاهدةٍ دستورية مع الفرنسيين، كما واجه الاعتصاب الفلسطيني العام المسلح الذي سمي بالثورة الفلسطينية الكبرى في بعض المآثر، إثر مشروع التقسيم البريطاني المقترح. ولعله كان من بين المسؤولين تأريخياً ولو بصورة غير مباشرة، عن تسلسل كل الأحداث بكارثة مايس الوطنية. وعلى أقل تقدير بإيقاده نار الطموح في نفوس بعض الضباط الذين انتقامهم وفتوا أنظاره إليهم بمجاهرتهم بعروبتهم وقوميتهم في كل مناسبة. وفي ظني أن بداية الأمر قد يؤرخ بيوم اعتزامه مناصرة الإنتفاضة الفلسطينية العنيفة تلك، ولايداخلني شك في أن زعماء الإعتصاب هناك استنجدوا به. فاستعان بشقيقه (طه) وكان يحمل أعلى رتبة ومنصب في الجيش العراقي، وتمّ الإتفاق على إنشاء خلية سرية من ضباط لايشك في إخلاصهم للقضية العربية لتدبير أمر تسريب الأسلحة والتجهيزات الى فلسطين. وكان من الطبيعي أن كلا من المقدمين (ثم العقيدين) فهمي سعيد وصلاح الدين الصباغ وهما اللذان عهد إليهما بالإشراف العسكري على تطبيق نظام الفتوة كما مرّ، ثم ضم إليهما العقيد محمود سلمان والمقدمين والرواد رشيد فليح وحمد السعدون وخيري خورشيد، هذه هي الخلية التي عهد إليها بعمل ذي طابع سياسي عقائدي كان محوره المؤامرة على حكومة إنقلاب بكر صدقي بعد أشهر.

كان الدكتور (فريتز غرويه) الوزير المفوض في بغداد والرياض معاً قد شدّ وأصر صداقة متينة بالشيخ (يوسف الياسين) مستشار الملك عبدالعزيز آل سعود وسكرتيره الخاص، وأقنعه بشكل ما أن ألمانيا النازية تقف بجانب العرب على طول الخط. ولم يكن (الياسين) ولا سيده بحاجة الى كثير من الدلائل. وها هي أنباء اضطهاد اليهود تملأ الصحف الغربية والأمريكية.

ثم أن العربية السعودية كانت دولة فقيرة جداً، كان عليها أن تنتظر عشر سنوات أخرى ليسيل ثراؤها على بطاها ويغرقها بالذهب الذي يكتنزه ابن سعود ويحرص عليه كما أثر عنه وكُلما حانت فرصة لإضافة شيء منه الى مجموعة عملته الذهبية النادرة. وألمانيا على استعدادٍ لتحقيق مبتغاه وقد تمخض هذا - طبقاً للإفادة التي أدلى بها الدكتور (كرويه) أثناء التحقيق معه كمجرم حرب بعد نهاية الحرب - بإرسال الملك السعودي (خالد المهدي) ممثلاً شخصياً له إلى برلين لشراء السلاح وبحث المسألة الفلسطينية.

من العجيب المخجل حقاً أن يعتمد كل هؤلاء الجهل بصلة الصهاينة بالنازيين، وبالمساعدات العسكرية والمالية التي كانت تُرسل إليهم طوال أربع سنين.

ماذا كانت الممثلات الدبلوماسية والقنصلية العربية تعمل في ألمانيا؟ والطلبة العرب بمئاتهم ولا أقول بالآلاف الذين يدرسون في المعاهد الألمانية؟ والصحف الألمانية التي تنشر المقالات عن التعاون النازي الصهيوني؟

أكانت بريطانيا وفرنسا تستحقان هذا "الحقد" من القوميين العرب؟ الظاهر لم يكن أحد منهم يهتم بالتفكير، فالحقد يعمي البصائر كما يقول الشاعر الروماني (فرجيل)<sup>(٧)</sup> و"من الصعب عليك أن تقا تل الحقد. فهو يشتري كل ما يريده وإن كان الثمن حياتنا".

لكن الزعماء العرب الذين ساندوا نضال الفلسطينيين، كانوا رجالاً بالغين راشدين. لا كابتني الذي غامر حُباً بالبرتقالة ليتقيأ ويفسد مزاجه بمراة ما شربه في سبيل الظفر بها.

لا أدري كم التذُّ بالبرتقال بعد التجربة المرّة. لكنني أعرف كما يعرف غيري نتيجة التجربة المرّة من آثار النكبة العظيمة التي انتهت بها التعاون الألماني العربي في حركة مايس ١٩٤١.

ففي أواخر أيلول من العام ١٩٣٧ وهو التساريخ الذي تمّ فيه إبرام نوع من حلف عربي - ألماني حول مساندة الفلسطينيين، كان كلٌّ من (هاكن) و(إيخمان) وهما من ضباط الإ.س. إس (S.S) الكبار في طريقيهما لزيارة أحد قادة (الهاگاناه) في القاهرة حيث كان قد وصلها، وقد تنكرا بصفة مندوبين مراسلين لصحيفة (برلينر تاگبلاط) وما أن افترض أمر الزيارة، وهوية المندوبين حتى راحت إذاعة (حي العرب) تجار وتذافع وتنفني مدعيةً بأن المقصود بالمقابلة هو (المفتي الحسيني) "لإجراء مفاوضات سرية معه من أجل توحيد النضال المشترك ضد الصهيونية العالمية".

(٧) Virgil ١٩-٧٠ ق.م: أحد أعظم شعراء الملاحم الرومان. ومن أعظم ما خلف: القصيدة الملحمة (الأنبياء) وقد اقتبسنا هذا البيت منها.

في العام ١٩٣٨ لم يعد التعاون النازي - الصهيوني سراً، إلا عند جمهور القوميين العرب كما يظهر. فبكل وضوح وصراحة بدأ مكتب أمور الهجرة اليهودية (١١٢:٢) أعماله العلنية. وفيه سعد نجم (أدولف إيخمان) الذي ضمّه (فون ملدنشتاين) فيما بدأت صورة الأخير في المشهد تزول تدريجياً. إذ لم يبلغ عدد الذين أقنعوا بالهجرة فهاجروا فعلاً - غير ستين ألفاً خلال (١٩٣٣-١٩٣٨) في حين كانت تقديرات الكشتابو تفوق هذا العدد بأربعة أضعاف على الأقل لذلك وجد من الضروري استبدال الخطة بأخرى، وهي الدعوة السافرة الى إنشاء دولة يهودية قوية في الشرق الأوسط. ونشر الكشتابو كراساً يتضمن شرحاً مبسطاً للفكرة كان له صدها العميق عند اليهود في العالم أجمع. واضطرب له البريطانيون اضطراباً عظيماً.

لم يكن مؤلف هذا الكراس غير (أدولف إيخمان)! وتلك من مفارقات الدهر العجيبة. إذ ما مرّت بضعة أشهر على نشر كتابه حتى وجد نفسه يدفع الألوفا المؤلفة من اليهود الى غرف الغاز بدلاً من دفعهم الى فلسطين.

في هذا الكراس الطريف ردد (إيخمان) صدى أفكار رئيسه حتى إنه لم يبخل عليه بالإطراء أثناء محاكمته في أورشليم القدس (العام ١٩٦١) بقوله عنه:

"كان إنساناً لين العريكة عطوفاً مخلصاً للقضية اليهودية، وكان العامل الرئيسي في عقد صفقات ترحيل اليهود الألمان الى فلسطين خلال الأعوام التي تلت، وقد ظلت متواصلة حتى أوقفتها الحرب العظمى".

خلال تلك السنوات التي نوه بها (إيخمان) تواصل التعاون بين النازيين والوكالة اليهودية بشكل وثيق، وأنجزت دوراً يتسم بالذكاء والبراعة، حيث أنها أنشأت بموافقة (هملر) وتعاون فصائل (الكشتابو) معسكرات خاصة لتدريب اليهود عسكرياً - ممن اختار الهجرة الى فلسطين والانضواء فوراً الى فرق (الهاگاناه). وقد جرى ذلك في عين الوقت الذي كانت الخطط في دائرة (هملر) تعدّ لجمع اليهود الراضين وإيداعهم معسكرات الإعتقال وهي العملية التي أعطي لها اسم (أندلوزفونك).

في شهر حزيران ١٩٣٩ استقبل هتلر (الشيخ خالد المهدي) مبعوث الملك السعودي، في مقره الصيفي بد(برختسگادن). وتشير الوثائق الألمانية التي ضبطت بعد الحرب وبينها محضر المقابلة. إلى أن (الفوهور) قال للشيخ:

"إن لألمانيا وللعرب أعداء مشتركين. وإنه يتعهد بتقديم الدعم الشامل للعرب مؤكداً احترامه العميق للإسلام وعطفه على المسلمين".

وبنتيجة مفاوضات تالية تعهدت ألمانيا بمنح السعودية قرضاً بمبلغ ستة ملايين مارك لشراء أسلحة وقدمت لابن سعود هدية مقدارها أربعة آلاف بندقية حديثة مع عتادها. (لم يبحث شيء حول القضية الفلسطينية)<sup>(٨)</sup>.

وتشير هذه الوثائق عينها الى أن (هتلر) وبعد شهر ونصف من مقابلته للشيخ خالد المهدي ألقى في ٢١ من آب خطاباً في قادة القوات المسلحة الألمانية، وردت فيه هذه الفقرة:

"إننا سنحث الشعوب العربية على إثارة الاضطرابات ووضع العراقيل في المستقبل. علينا أن نحكم ونحاكم كأسياد وأن نرى في هذه الشعوب (العربية) وفي أفضل الأحوال، نصف قروءٍ مدهونة باللاكسية لا يمكن معاملتها بغير السوط."<sup>(٩)</sup>

بمختصر القول: وقعت القومية العربية في حبال النازية. وغاصت في أحوالها المهلكة. وبدت محاولات مفكراتها ودعاتها للتوصل منها بعد اندحار ألمانيا والقضاء على الحزب النازي غير كافية حقيقة بأن تصمد أمام قوة الأساليب والنظريات القومية التي انبثقت عن الحركات القومية التالية. فقد كانت كلها مشبعة بأفكار النازيين، طابعتها العنف، والتعصب والتفوق القومي<sup>(١٠)</sup> ولم تنل شعبية قط.

(٨) بولكن: المرجع السالف ٧٥-٧٦. وكذلك (وثائق حول السياسة الألمانية الخارجية Documents on Ger-man Policy, واشنطن، ١٩٥٣).

(٩) المرجع ذاته: ١٦٧-١٧٩. وبخلاف هذه المراجع المذكورة آنفاً في هذا الفصل أشير على الراغب المستزيد الى مراجع أخرى اعتمدها أيضاً هنا ومنها: هـ. ج. أدلر H.G. Alder، اليهود في ألمانيا The Jews in Germany، مطبعة جامعة نوتردام في إنديانا ١٩٦٩. وهانا أرندت Hanna Arendt "إيخمان في اورشليم Eichman in Jerusalem، مطبعة فايكنيك - نيويورك ١٩٧٠. وس. م. بلكوسكي S.M. Belkosky، الصورة المشوهة The Distorted Image، مطبعة اليفين - نيويورك ١٩٧٥. وجي. كي. ديكنسن J.K. Dickinson، ألمانيا واليهود Germany and Jews، كودرانك، شيكاغو ١٩٦٧. ولوسي دافيدوريتش Lucy Dawidauricz، الحرب ضد اليهود The war against the Jews، مطبعة هولف ورايهارت وونتسن نيويورك ١٩٧٥. و. ل. موس G.L. Mosse، الألمان واليهود Germany and Jews، ط. هوارد فرنك. نيويورك ١٩٧٠. ووليم شايرير William Shrier، قيام وسقوط الرايخ الثالث The Rise and fall of the third Reich، وقد أنجزنا ترجمتنا لهذا السفر الضخم من طبعته الرابعة عشرة وتم طبعها بجزئين بعناية دار ناراس للنشر - أبريل، ٢٠٠٢.

(١٠) "من الأمثلة: "المواجهة الحقيقية المباشرة بين العراق وبريطانيا التي كان الآثوريون أداة مخططاتها المشبوهة. ومن هنا كان نجاح الجيش العراقي في قمع التمرد الآثوري بمثابة انتصار على بريطانيا أدى الى إفشال مشاريعها الهادفة لتمزيق الوحدة الوطنية والإقليمية للعراق". مقتبس من كتاب: (دور الجيش العراقي... المرجع السالف: ص ٨٥، للدكتور فاضل البراك، ط. بغداد ١٩٧٩). مثل هذا الهذيان تجده في معظم الكتب التي تخرجها مطابع بغداد وأكاديمياتها في عهد التغلب البعثي على الحكم.

لم يتمتع القوميون العربيون في سورية بتلك الحرية التي منحت الحكم البريطاني بها إخوانهم في العراق. كانت يد الفرنسيين ثقيلة. إلا أن روح الجهاد في سبيل التخلص من الإنتداب نشطت بالشكل الذي توقعه الفرنسيون تماماً بعد أن تخلت بريطانيا عن انتدابها على العراق. وبعد اضطرابات وتظاهرات ومجاهدة. شعرت حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية في ١٩٣٦ بأن الوقت قد حان لإجراء بعض تغيير في سياستها هناك. فبادرت الى عقد اتفاق مع سورية ولبنان يعين خطوط المعاهدة البريطانية - العراقية للعام ١٩٣٠. إلا أنها خصت لبنان بحرية أوسع. لكن البرلمان الفرنسي لم يصادق عليهما بسبب معارضة اليمين، والمعاهدتين المعقودتين مع الدولتين الأقليميتين الدرزية والعلوية، اللتين أدمجتا بدولة سورية كما تقدم.

في ذلك الوقت بالضبط أقدم (الهاشمي) ورهطه وجماعة نادي المثني القومي على توثيق الصلة بالوطنيين السوريين العاملين لإلغاء الإنتداب. وزاد التعاون الى الحد الذي وعد قوميو سورية ووطنيوها بتزويدهم بالسلاح وفتح مخازن الجيش العراقي لهم. وتجدر الإشارة هنا الى أن الوفد السوري الذي شخص في العام ١٩٣٦ الى باريس لمتابعة موضوع المعاهدة، حلّ ضيفاً على المفوضية العراقية هناك.

في نهاية العام ١٩٣٨ أعلن وزير الخارجية الفرنسي أنه لن يتابع مسألة تصديق المعاهدة مع سورية. فساد القطر السوري اضطراب عظيم وقام الوطنيون والعربيون والقوميون السوريون بمظاهرات صاخبة عاجلة. وقابل (غابرييل پوو Gabriel Puoue) المندوب السامي ذلك بتعطيل الدستور وحلّ البرلمان السوري في ٩ تموز وإعادة تشكيل دولتي جبل الدروز واللاذقية.

في عين السنة تمّ التخلي نهائياً عن لواء الإسكندرونة للأتراك. والقوميون يعتبرونه جزءاً لا يتجزأ من سورية. كان ذلك لقاء معاهدة التعاون المتبادل بين تركيا وفرنسا.

رغم الإنعطف السوري الى ألمانيا النازية، وقوة التأثير الدعائي لها هناك، فقد بقي العراق مركز الثقل القومي وبسبب ذلك صار ملجأ العربيين السوريين والفلسطينيين عندما كانت تلاحقهم سلطة الإنتداب.

مع قوة الدعاية النازية، والحكايات التي تنشرها الصحف وينقلها (الحجاج) العائدون من بلاد الفاشية حول التقدم والرفاه، فإن الإنعطف العربي إليها ظلّ كما قدمنا - ينبع من العداء لبريطانيا وفرنسا، أكثر مما هو بسبب إنجازاتها. وتركزت أمنية القوميون في أن تقوم نهضة مماثلة في البلدان الناطقة بالعربية في ظلّ شعار قومي موحد، هو الوحدة العربية.

قبل أن يطوي العقد الرابع من القرن العشرين كتابه، أضاف القوميون العرب هدفاً وشعاراً ثالثاً إلى هدفهم السالفين: التخلص من النفوذ الأجنبي والإستقلال الحقيقي. وشارك الجميع في إلقاء الحقد على الإنكليز في العراق؛ الدستوريون، والشيوخيون، والقوميون، والوطنيون الكرّدي، والأقليات المسيحية واليهودية. فأوسع للنازيين باب الغزو الفكري، وفتحت له القومية العربية أبوابها على مصاريعها.

حقد تأصل بالتدرج بعامل التريديد والتكرار المستمرين، حتى تعذر اقتلعه بل مقاومته بل التخفيف من حدته ولا أحد يتعب نفسه بالبحث عن أصوله وأسبابه، فلكل ما يشكوه من بريطانيا. ولو عرضت واحدة من المدالبات التي وزعها عملاء النازية في فلسطين بالآلاف ونجمة داود والصليب المعقوف عليها، لأسرع بإجابتك: «هذه دعاية إنكليزية، الإنكليز صنعوها ووزعوها».

ولو حلفت لشاب قومي من أعضاء نادي المثني أو طالب الثانوية المتحمس (للفتوة) بأن الترجمة العربية لكتاب (كفاحي) ناقصة ومزورة بخصوص العرب، لكذب ترجمته الإنكليزية فوراً بقوله: «الإنكليز هم الذين وضعوا فيه العرب في أدنى درجة من سلم الأجناس البشرية». وعلى سبيل الجدال ردّ عليّ أحد الزملاء القوميين:

"لو صح ما قلت، كيف رضي هتلر بمشاركة الأفارقة الأمريكان في دورة الألعاب الأولمبية وقدم بنفسه الميدالية الذهبية لأحد الفائزين منهم."

الحق يقال إنه أفحمني في حينه ولم أجد له جواباً وقتها.

وقوي الحقد الممتزج بالرهبة والمهابة على البريطانيين إلى الحد الذي صار يعزى إليهم كل ما يحلّ بالبلاد من أرزاء وبلايا. فقبلوا دون مناقشة عقلية الكذبة التي روجتها المفوضية الألمانية حول يد الإنكليز في حادث الإصطدام الذي أدى إلى مقتل ملك لا يملك من الملكات العقلية مقدار ما يملكه طفل. وإن الإنكليز أيضاً كانوا وراء ثورات الشيخ محمود والشيخ أحمد. كما كانوا أيضاً وراء إنقلاب بكر صدقي، ثم وراء اغتياله. وهم وراء أحداث آب ١٩٣٣، وهم الذين شجعوا مار شمعون وسراة الآشوريين على الإنتفاضة، لأنهم كانوا يريدون أن يخلقوا منهم دولة ضمن دولة بنينة زعزعة الحكم الوطني العراقي. وليس هذا من قبيل المبالغة. فمن العيب والعار على هذا القلم أن يعمد إلى التضليل، وصاحبه أحد الآف مؤلفة من أدمتهم وعبثت بحياتهم أنانية السياسية البريطانية.

بلغ بالقوميين وبالناس الآخرين جنون اتهام البريطانيين بكلّ كبيرة وصغيرة في هذا البلد أن

ضاع معه المجرمون الحقيقيون أو تنوسي أمرهم وغفرت لهم أدوارهم، حتى بدا وكأن للمارد الإنكليزي واحدة من صفات الخالق: الوجود في كلّ زمان ومكان.

كثيراً ما كان البريطانيون يستنكرون ويحتجون رسمياً على تصرفات مسؤول حكومي، ويحار المرء في تلك الأجوبة المسكتة التي يخترعها ذلك المصاب بعقدة الحضور الإنكليزي، كذلك الذي فسر احتجاج بريطانيا واستنكارها لمذابح آب ١٩٣٣ بأنها ما كانت إلا لتغطية دورها فيها.

من أعجب ما سمعت من تعليل للإجراءات البربرية التي اقترحتها وزير الداخلية (الغيلاني) لتأديب ومعاقبة ثوار الجنوب على القيادة العسكرية، وبرغم وجود كتاب رسمي بهذا موقع بتوقيعه يقضي باجتثاث النخيل والشجر وإحراق المزرعات وإتلاف الماشية وتدمير القرى وتنفيذ أحكام الموت بتفاصيل تبعث الرعدة في البدن، فقد سمعت مما سمعت أن هذا الوزير أرغم على ذلك. فالأمر الحقيقي هو مستشار الداخلية البريطاني وإن الإحتجاج والإستنكار الذي أبدته السفارة وقتذاك إنما كان بمثابة تغطية لدورها فيها!

بعد قيام دولة إسرائيل وارتفاع علمها بين أعلام الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، روج بعض الكتاب القوميين في البلاد الناطقة بالعربية مقولةً، مؤداها إن التهاويل المختارة لهذا العلم ترمز إلى خطة التوسع الإقليمي على حساب تلك الدول. فقبلتها حكوماتها وشجعت انتشارها بوصفها حقيقة لا مرية فيها. وانطلقت الأقلام تنذر وتحذر من الخطر الصهيوني. ولم ينبر واحد من مئات زاروا ألمانيا في وقت التعاون النازي الصهيوني، ولا ممن درس وعاش في الأقطار الأوروبية والولايات المتحدة بتصحيح الإشاعة. وليس بينهم من فاتته رؤية ذلك العلم يرتفع رسمياً على مقرات الوكالات اليهودية المنتشرة في تلك الأقطار، قبل أن يتحقق حلم اليهود بإقامة كيان سياسي لهم بأكثر من عشرين سنة. وقد ذكرنا فيما سبق معنى الرمز الحقيقي له.

ويطيب للسان في العراق أن تعزى هذه الصفات الإلهية للإنكليز بين آن وآخر ليستروا بها تصرفاتهم المعيبة، وليعتذروا عن أعمال قبيحة أقدموا عليها - فيساعدوا على ترويجها ويستخدمونها هم أنفسهم أحياناً.

قلنا، ساهم الدستوريون الديمقراطيون في الإعداد للإنتقلاب العسكري وإنجاحه كما ساهموا مبدئياً في جهازه الحكومي. وكل هذا لا يتفق ومبادئهم وما كانوا عليه وقتذاك، وهذا موطن العجب - يرون داعياً للشك في خطر الانقلابات الفاشية العنيفة في أوروبا الوسطى فضلاً

عن ألمانيا وإيطاليا - على الديمقراطية التي بشروا بها. فقد ركزوا كالقوميين على الإمبريالية البريطانية وبدوا أشدّ وطأة عليها من أولئك. والأمر يصدق أيضاً على الشيوعيين الذين رحبوا كذلك بالإنقلاب واعتبروه عملاً وطنياً، ثم مالبتوا أن أدركوا مغبة حمايتهم، بعد أن نزلت يد (بكر صدقي) الثقيلة بضربتين قاتلتين، على الدستوريين من جهة بغلق وإلغاء (جمعية الإصلاح الشعبي)، وقمع إضرابات العمال بقسوة وصرامة من جهة أخرى.

وعندما انسحب الدستوريون من الحكومة، وعظمت جريدة (الأهالي) وأسقطت الجنسية العراقية عن الشقيقين عبدالقادر إسماعيل البستاني والدكتور يوسف من أقطاب (الأهالي)، أسرع (الجادرجي) بمغادرة العراق خوفاً على حياته كما يبدو، وعقيب الحملة النكراء التي حملتها الصحف القوميّة على الجهتين.

وأكد بكر صدقي في حديث له مع المحامي والصحافي علي محمود الشيخ علي، وهو قوميّ معروف أسندت إليه فيما بعد وزارة العدلية في حكومة الدفاع الوطني الكيلانية التي أعلنت الحرب على بريطانيا، أكد دعمه للقوميين العربيين وللقضايا العربية فصاروا يتقربون إليه ظاهرياً لاحتلال المراكز التي تركها الدستوريون. وكانت في الواقع مناورة متبادلة بين الدكتاتورية الجديدة والقوميين. فهؤلاء لم يكونوا يقصدون من وراء التقرب للحكم الجديد غير إبعاد العناصر الأخرى العدوّة. وربما كانت هناك خطة مشتركة بين أعضاء نادي المثني وبين الضباط الناقمين ورجال الحكم، الذين طردهم الإنقلاب وهي كتلة تزعمها نوري السعيد وطه الهاشمي والكيلاني. فقد كان القوميون والكتلة المؤثرة بحكومة الإنقلاب وحياة صاحب الإنقلاب - وراء الحكاية التي ثبتت في تأريخ العراق كحقيقة - رغم سخفها وظاهر تصنيعها. حول نية بكر صدقي في إقامة دولة كردية مستقلة. فهذا الدكتاتور كان يعمل لحسابه ليس إلا. والقوميون ورجال السلطة المباداة كانوا أعرف بهذا من غيرهم<sup>(١١)</sup>.

من هاتين الجهتين برزت كتلة الضباط القوميين الذين اعتمدتهم طه الهاشمي والسعيد والكيلاني وأضرابهم للقيام بالإنقلاب المضاد. وقد نجحوا وقضوا على حياة الدكتاتور وحكومته. إلا أنهم لم يفعلوا أكثر من إعادة الطبقة الحاكمة القديمة الى السلطة دون محاولة تقديم وجوه جديدة، أو عرض برنامج قومي أو وطني للإصلاح.

(١١) استرعت انتباه القاريء (الكتاب الثالث) إلى أنّ الإشاعة الأخرى التي أطلقها القوميون إسناداً لهذه المقولة - حول تربيته الضباط الكرد وإبعاده الضباط العرب هي الأخرى مصنعة مكذبة واقعياً. فالمقربون الحقيقيون من هذا العسكري كادوا يكونون كلهم من العرب وليس بينهم كردي، وأولئك الذين انتمنهم واختارهم لاغتبال جعفر العسكري كانوا عرباً، ومرافقوه وحراسه الشخصيون كانوا عرباً ورئيسهم كردي لأسرته تاريخ في العمل الوطني. والواقع هو أنه لم يكن يولي ثقة تامة بأيّ ضابط كردي.

ماذا كان هؤلاء الضباط القوميون يريدون من وراء إغتتيال بكر صدقي؟ كانوا يريدون القضاء عليه فحسب.

ذات مرّة نفذ صبر رجل الدولة الروماني (كاتو)<sup>(١٢)</sup> الأكبر عندما وجد زملاءه أعضاء مجلس الشيوخ يريدون إعادة تعيين عين أولئك الرجال الذين ثبت فساد ذمهم وقلة درايتهم في تمشية أمور الدولة وعدم لياقتهم لمراكز الحكم، فقال لهم ساخراً: "من هذا يبدو لي إماماً أنكم لا تضعون للحكم قيمة كبيرة. أو أنكم ترون بأن الجديرين بالحكم نقرأ قليلاً".

والواقع هو أن الصفقة على رأس بكر صدقي عقدت على مثلث: الحقد والثأر واللهفة الى إستعادة السلطة المنزوعة، وكلها غطيت بعباءة القومية الشفافة. ومع هذا فقد كانت الدعاية لما أنجزه الضباط القوميون متقنة الى أقصى حدّ. وبدا العراق إثر ذلك وكأنه يحتل الموقع المركزي الذي تشع منه أنوار القومية العربية. ونال صحافيو سورية ولبنان المرتزقون مكافآتهم السخية من الخزينة العراقية عن الضجة التي أقاموها قبلاً حول الانتفاضة العربية وحكومة الإنقلاب وراحوا بعدها ينعمون بهبات الحكومات العراقية، التي أسرعت بتبني قضيتي الوحدة العربية وجهاد فلسطين في تلك الفترة بشكل صريح.

لو غيّبنا عن أذهاننا لفترة وجيزة تقهّم الضباط السياسيين وأتباعهم من الضباط الصغار ميدان السياسة بدعوى القومية، والمتحمسين لهم من قلة من طلاب المدارس، وبخروجنا من دائرة الماضي الى الحاضر وإلى ما عقب هذه المرحلة الخطيرة حتى الوصول الى زمننا هذا، وبتأملنا كل القياديين القوميين الذين برزوا خلال هذه العقود الستة من القرن الماضي، لانجد المنتصر إلا الدولة أو أولئك الذين يهيمنون على الأنظمة والحكومات أو يصنعونها. وفي كلها تقريباً كانت العسكرية صاحبة الدور الرئيس الفاصل، بمساندة الطلاب والغوغاء، وهما مادتان مستعدتان دوماً للإستفزاز والإستنفار. وهؤلاء الذين ائتمروا بحكم (حكمت سليمان) لم يكونوا عرباً، بل هم خليط من الضباط العرب والترک مثلما كانت جماعة الدكتاتور. فالقاتل كان تركمانياً، والشريك المحرض كان كردياً، ومن جاء به الى محل الحادث كان عربياً ورئيس المؤامرة هو كردي.

إلا أن شخصية العقيد (صلاح الدين الصباغ) مالبتت أن هيمنت على الموقف كله، سياسياً وقومياً. إن حصيلته فترة الإعتقال والتشرد التي عاشها هذا الضابط بعد سقوط حكومة الدفاع الوطني في ١٩٤١، وقبل أن تنتهي حياته بتنفيذ حكم الموت عليه - كانت كتاباً (١٢) Cato: ماركوس بورشوس ١٤٩-٢٣٤ ق.م: خطيب وكاتب روماني شهير تولى منصب القنصلية وقتاً ما.

ضمّنه آراءه القومية وشرح فيه عقيدته وأفكاره السياسية - تماماً مثلما أخرجت لنا فترة إعتقال هتلر إثر حركته الفاشلة في ١٩٢٣ كتاب (كفاحي). وما ندري أهو الذي اختار لمخطوطة كتابه عنوان (فرسان العروبة)، أم أن ناشريه هم الذين اختاروه له. وقد طبعه القوميون أكثر من مرة وتلاقفته الأيدي سرّاً في وقت ما، ثم عُرض علناً وتهافت القوميون عليه، وراح كتابهم يقتبسونه منه، ويسندون آراءهم إليه. فأتيح لنا أن نطل منه على ما كان في خاطر صانع الحكومات، مُقيمها ومقعدّها، معزّها ومذلّها، كما يدعي رئيس تلك الكتلة العسكرية التي زجت الجيش العراقي في مغامرة عسكرية خائبة مأساوية<sup>(١٣)</sup>.

ذكر الصباغ إنه مصري الأصل من مدينة دمياط، عربي النجاد من ناحيتي الأم والأب. نزح جده من المدينة المصرية فسكن صيدا في نهاية القرن التاسع عشر. ثم نزح أبوه منها، فسكن قرية نينوى التي تقع على بعد ميل من مدينة الموصل على الضفة اليسرى من دجلة. وأنه ولد في هذه القرية في العام ١٨٩٨. وأنه دخل الكلية العسكرية بأستنبول في العام ١٩١٤، وفي ١٩١٧ منح رتبة ملازم ثانٍ ولم يكد يبلغ الثامنة عشرة. وخدم في جبهات مقدونيا وفلسطين في عين الوحدة التي خدم فيها الملازم (محمد أمين الحسيني) مفتي فلسطين فيما بعد.

ولم يكن له دور في ثورة الشريف حسين. إلا أنه سارع الى الإنخراط في صفوف الجيش العراقي حال تشكيله بعين رتبته الأولى، ثم رقي الى رتبة نقيب وانخرط في صفوف الخيالة ودخل مدرسة الأركان في أول تأسيسها. وفي العام ١٩٣٦ كان برتبة مقدم ركن. وقد أرسل خلالها في بعثة عسكرية الى إنكلترا في العام ١٩٢٥ وهناك بنى بفتاة إنكليزية، توفيت بعد عامين أو أقل بمرض عضال هو (اللوكيميا) كما قيل.

نشأ صلاح الدين في أسرة رقيقة الحال واحترف أبوه مهنة الصباغة ومن هنا جاء لقبه. والظاهر يؤيد فقر الحال من انتقال الجدّ والأب بين مصر وفلسطين والعراق، ثم الاستقرار في قرية حفيرة (آنذاك) كنينوى التي ماكان يزيد عدد بيوتها عن خمسمائة، ثم دخوله في السلك العسكري في هذه السن المبكرة، وهو كما قدّمنا المسلك الوحيد الذي يتيح لأبناء الفقراء فرصة التقدّم.

لانعرف بالضبط مبدأ سريان حمى القومية العربية في عروق الضابط صلاح الدين. وبقيناً (١٣) الصدف وحدها هي التي دفعتني الى الاستقصاء والاهتمام بتعقيب حياة هذا الضابط قبل اطلاعي على كتابه. ففي أوائل الخمسينات أوكلني وزير المالية في قضية نزاع على ست أو خمس قطع أراض زراعية في أنحاء قرية نينوى أمام محكمة إستئناف تسوية الموصل، مسجلة باسم مالكها صلاح الدين الصباغ. كانت السلطات قد صادرتها واعتبرتها ملكاً للخزينة ضمن قرار الإدانة والحكم الذي صدر عليه. فادعى بعض الأهالي في القرية (ربما كانوا من أفراد أسرته) بحق التصرف بها ونازعوا الحكومة ملكيتها.

أنه لم يكن قد أصيب بها عندما ربط حياته الخاصة بالزواج من الفتاة البريطانية. إلا أن (يونس بحري)، الذي كان قد جاء بجهاز الإذاعة المسماة (إذاعة قصر الزهور) هدية من هتلر للملك غازي، يذكر بأن (الصباغ) كان واحداً من الضباط القوميين الذين يحفون بهذا الملك الشاب ويحتفلون به. كما أن العميد الركن إسماعيل العارف، نوّه بأن (الصباغ) الذي كان كثير الزيارات للكلية العسكرية في العام ١٩٣٧ أيام تلمذته فيها، تراه يصفه بهذا:

"لم يكن يفهم معنى الوطنية أو القومية، في حين يزداد إلحاحه على المناقشة فيها. وغالباً ما كان يحاول عند إتقائه بمجموعات من الضباط (الصغار)، أن يتحدث إليهم في شتى المواضيع السياسية. وبالرغم من التفسيرات التي يدلي بها أمامنا لمفهوم الوطنية، فقد خرجنا من تلك المناقشة أكثر تشوّشاً بصدد تلك المفاهيم."<sup>(١٤)</sup>

وأقرّ، بأنني خرجت بعد قراءة كتابه بعين النتيجة التي توصل إليها تلميذ الكلية العسكرية (إسماعيل العارف) آنذاك. أسفاً من جهة على الأشهر التسعة التي عاناها الصباغ في كتابته، أكثر من أسفي على الطريقة اللإنسانية الى انتزعت بها حياته والحقد البربري المتجلي في عرض جثته مشنوقة أمام وزارة الدفاع. لاشك في أن ذنوبه وجريته لم تنف جريمة حاكميه وجلاديه، فهم الذين وضعوه على الدرب القومي الملتوي الزائف الذي يغطي مصالحهم الخاصة وشهوتهم الى السلطة. ويذكر (عارف) وهو ضابط - حديثاً جرى بينه وبين الصباغ بحضور ومشاركة من الملازم الأوّل طه الشيخ أحمد<sup>(١٥)</sup> في أوائل العام ١٩٤٠ عندما كان نوري السعيد رئيساً للحكومة التي فرضها صلاح الدين الصباغ وزملاؤه الثلاثة على البلاد. قال عارف:

"عدّدت له بعض الأسماء اللامعة من السياسيين الذين كنت أعتبرهم من المجرمين بحق الوطن وعلى رأسهم نوري السعيد فثار عليّ وأخذ يرتجف حنقاً وقال: إنك تتهم هذا الرجل بالخيانة وهو الذي ضحى بمستقبله في سبيل الثورة

(١٤) المرجع السالف: ص ٢٥.

(١٥) عرفت العميد الركن طه الشيخ أحمد وهو برتبة نقيب يساهم معنا في تحرير مجلة (المجلة) الموصلية، التي كان يصدرها الأديب الكبير المأسوف عليه عبدالحق فاضل وزميله يوسف الحاج الياس المحامي، وكان يوقع القصص التي يكتبها بحرف (ط) فحسب. لقيته مرات في مكتب المحامين وأنا في الخامس الثانوي. وأتيح لي لقاء آخر به في زيارة قمت بها لمكتبه في وزارة الدفاع العام ١٩٥٩، لأرى صورته في العام ١٩٦٣ من تلفزيون بغداد - مع جث عبدالكريم قاسم والآخرين. (أنظر ج ٢: ص ٨٩٦ من كتابنا: العراق في عهد قاسم).



العربية وترك كلية الأركان التركية والتحق بالملك حسين<sup>(١٦)</sup> وهو الذي ناضل في سبيل تحقيق استقلال البلاد العربية من السيطرة العثمانية وجازف بحياته في سبيلها. ثم راح يعدد مزيداً من المزايا التي لم أكن أعرفها عن نوري السعيد... ثم إنه نادى طه الشيخ أحمد، الذي أمّن على أقوالي. إلا أن الصباغ ظلّ عصبياً وترك المعسكر منزعجاً." (١٧)

وبعد أشهر قلائل وفي العام ١٩٤١ عندما بدا نوري السعيد للصباغ خائناً بحق العروبة، فدفد به ويزملائه خارج السلطة وجاء برشيد عالي الكيلاني. سنحت (للعارف) الملحاح الفرصة ليذكر (الصباغ) بما عزاه من فضائل وخص به من ثناء لنوري السعيد بقوله: «لقد غضبتكم عندما تكلمنا بصراحة معكم قبل أشهر». فلم يجد الصباغ ما يرد به غير قوله: "كل شيء يأتي بوقته!"

وهذا قول رائج في العراق، وحكمة مبتذلة. فكل شيء يأتي في وقته الذي يختاره له صاحبه ويراها مناسباً لتغطية غفلته أو عنجهيته أو اعتزازه برأيه عندما يبدو خطله.

وكل شيء يأتي بوقته، حتى تلك النوازل والبلايا التي تسبب من عملك الآمن حتى لو بدا التناقض والمفارقة الذهنية واضحة من الأحكام والتصرفات بما فيه الكفاية.

وترى الصباغ جرياً على قاعدة "كل شيء يأتي في وقته" يتبته في عباب ما لا يحصى من النوبات العصبية والعاطفية المتناقضة في كتابه، تراه تارة يصبّ حمماً على الشعب البريطاني الذي شرّفه طبعاً باتخاذ واحد من نساءه زوجاً، مسنداً إليه كلّ عيب خلقي. ثم ما يعتم تارة

(١٦) لم يكن الأمر كذلك، فقد كان نوري السعيد مريضاً راقداً في البصرة عند استيلاء الإنكليز على البصرة في ١٩١٥، فأُسّر وسيق إلى الهند، ومن هناك أقنع بالانضواء إلى ثورة الشريف حسين. والحكاية معروفة ولا سبيل إلى الطعن فيها، وما من شك في أن الصباغ كان يجهل ذلك.

(١٧) كتب الصباغ رسالته هذه إلى القوميين أثناء ما كان معتقلاً في أحد السجون التركية منتظراً إجراءات استرداده بطلب من الحكومة العراقية. فبعد هروبه من العراق إلى إيران مع الآخرين. دبّ الخلاف بينهم هناك وانقلب إلى ملامسة وتبادل التهم كما روي. وكان كل واحد منهم يلقي تبعة ما حصل على الآخر. وقد بلغ الأمر بهم حدّ الشتائم السوقية البغدادية الدراجة. ولم ينج (المفتي) منها. إلا أنه كان يستعين - بحسب رواية أحد الحاضرين - بمن يفسّر ما يشقّ عليه فهمه منها. وسلطت التهم على (الصباغ) بنوع خاص فنبت الباقيين، ولم يسارع بالرحيل، فأنكره الإحتلال البريطاني لإيران وجدّت السلطات العسكرية في البحث عنه. لكنه ظلّ متخفياً هناك عاماً كاملاً، وأطال لحيته واتخذ زي الدراويش المتصوفة البكتاشية وحمل البلطة شعارهم وسار حافياً ينقر على الدفّ أحياناً ويشارك في حلقات ذكرهم راقصاً على إيقاعه أحياناً. ثم نجح في اجتياز الحدود إلى تركيا من بلدة (ماكو) الكردية. ولكن الأتراك أمسكوا به. وفي أيلول ١٩٤٥ سلم للبريطانيين المنتصرين في الحرب، فهرب منهم لفترة وجيزة، ثم القي القبض عليه وسلم للعراقيين. وطبع كتابه لأول مرة في لبنان العام ١٩٥٦ وتلته طبعات.

أخرى وقد نسي أن يعود بعد قليل مشيداً بأخلاق هذا الشعب ويسموها ومثانتها! فلكلّ مقام مقال عنده.

الصباغ يمثل عقلية الضباط القوميين السياسيين القلقة الحارة، المشبعة بالخيالات الواسعة والثقة بالنفس يمثلها أصدق تمثيل وربما كانت هذه الجامعة الوحيدة التي تجمعهم في كلّ البلاد الناطقة بالعربية. فالضباط العرب السياسيون عموماً وكما سنرى فيما بعد - لا تجمع بينهم أيديولوجية واحدة، ولا يملكون وجهة نظر صميمة من بنات أفكارهم "كل شيء يأتي بوقته" إن صح التعبير. وهم عندما يختلفون في آرائهم ووجهات نظرهم لا تجد النزاع المحتد بينهم يقلّ صرامة وقسوة عن النزاع الذي ينشب بين القوميين المدنيين. والفرق هو أن النزاع الفكري أو العقائدي بين العسكريين (رغم روح الرفاقية المهنية *le spirituel corps*) يتم حسمه بحدّ السيف وقطع الرؤوس. في حين يتم عند الآخرين عادةً بالتشجيع وتبادل الإتهام بالخيانة والعمالة ويكل ما في لغة العرب من أوصاف مهينة عن طريق القلم واللسان، إلا أنهم لا يتعففون عن استخدام عمليات التصفية الجسدية لو ملكوا السلطة و"كل شيء يأتي بوقته".

بقيت فكرة القومية العربية بأي شكل أيديولوجي تزيّت به وانتشرت - بعيدة كلّ البعد عن مبدء مقنن محدد، أو نظام مبدئي على أسس واضحة من المعتقدات والآراء، ويُجمل الدكتور (نسيبه)<sup>(١٨)</sup> الأسباب التي أدت إلى هذه النهاية المساوية بقوله:

"إن الخيبة المرة في المستقبل العربي، التي عقيبت الحرب الكونية الأولى، ختمت على الحركة القومية العربية بطابع تشاؤمي سلبي شكوكي، حتى أصبحت أدبيات القومية العربية منذ ذلك الحين مريرةً رتيبةً تتميز بما يعارض أكثر مما تتميز بما يُقترح."

في هذا الرأي كثير من الواقع، إلا أنه ليس كلّ الواقع. فهو لا يتكرم في كتابه الجليل ببيان مبرر كافٍ لهذه الخيبة. من حيث ان التّاريخ المعاصر يشهد بأن أهل البلاد الناطقة بالعربية لم يكن حالهم بعد الحرب بأسوأ من حال شعوب البلاد الإفريقية، أو شعوب جنوب آسيا. بل كان أفضل بكثير من بعض شعوب الشرق الأوسط نفسه. وكغيره من القوميين أبداً يغرق في العموميات ولا يلتفت إلى العامل الشخصي.

ولو أخذنا بآراء الصباغ بعيداً عن هذا العامل وتأمّلنا ما طرحه بشكل تجريدي لوجدناه

(١٨) واحد من القوميين العرب المعروفين. كتابه *The Idea Of Arab Nationalism*. فكرة القومية العربية، ص(٨١، ط. نيويورك ١٩٥٦).

يعكس بالضبط الشعور القومي السائد في العراق، وهو شعور فعلي وإن لم يكن معلناً عنه يمثل هذه الصراحة حتى ساعة كتابة (فرسان العروبة).

الصباغ يشعر ويفكر ويحبّ ويبغض ويعمل كـ"عربي مسلم". والعروبة والإسلام عنده ظاهرتان أيديولوجيتان (بالتعبير العلمي Ideological Phenomina) مرتبطتان ببعضهما ببعض برباط غير قابل للإنفصام لا في الحاضر ولا في المستقبل. ومن بين عدد كبير من الأشخاص الذين نوّه بهم في كتابه مدحاً أو ذمّاً تقريباً أو قدحاً، ليس هناك عربي واحد غير مسلم، وليس هناك مسلم واحد غير عربي قال فيه كلمة طيبة. وأبناء بلده العراق، المسلمون الذين هم ليسوا عرباً، أي الكُرد بالدرجة الأولى، هم خونة إنفصاليون وموقفه من هؤلاء ومن الآشوريين والمسيحيين عموماً، يكشف الصباغ عن عنصرية في نهاية التعصب والبعد عن الإسلام، الذي يقده عن مبادئه الأصلية. ومنه تجد كم كان تأثير الأفكار النازية عميقاً على القوميين العرب في ذلك الحين (١٩).

ويعبر الصباغ عن قوميته بشكل في غاية البساطة: إنه مسلم والإسلام عدو للكفار وحكم الكفار. وإنه عربي والعروبة ترفض وجود الجيوش الأجنبية على الأرض العربية. إنه جندي والجندي لا يقوده أجنبي. وهو يرى كما يرى كثير من المسلمين أن هناك شيئاً في "الإمبريالية" معادياً للإسلام أساساً. وهو يتمثل في الكفاح التاريخي بين المسيحية والإسلام الذي لم ينته، لكنه يدور في ميادين قتال وساحات معارك مختلفة وبأسلحة مختلفة. فالإمبريالية عنده هي

(١٩) عند نشر ترجمة (كفاحي) العربية التي جهد ناقلوه في حذف كل ما يشير إلى وضع كاتبه العرب ضمن الأسافل في سلم الشعوب المتأخرة. بقي القوميون العربيون إلى النهاية يدافعون عن صحة الترجمة، لاسيما أولئك الذين تمتعوا بضيافة الرايخ الثالث وحفاوته الخاصة، وشاهدوا بأعينهم ما أراد حكام ألمانيا أن يشاهدوه من تقدم وازدهار، فعادوا وهم يلهجون بالثناء. وليس بوسعي إلا أن ألتمس لهم العذر عند مقارنتهم وعلى سبيل المثال بأعظم المفكرين الإقتصاديين وكتاب الاشتراكية السوفياتية والذين نالوا رواجاً منقطع النظير عند الإشتراكيين في العالم كله من مؤسسي مدرسة لندن الإقتصادية الشهيرة دولياً. ومنهم جورج برنارد شو المسرحي والكاتب الكبير صاحب كتاب: (المرأة الذكية تقود إلى الإشتراكية...)، وأسقف كانتربري هيوليت جونسون مؤلف كتاب (السُدس الإشتراكي في العالم)، الذين نظم لهم ستالين زيارات عدة قبيل الحرب، فقد انطلت عليهم عملية الخداع الكبرى وعادوا ليكتبوا الكتب الشيقة عن التقدم الذي حققه السوفييات في ظل الإشتراكية، كتب كانت تتلافقها أيدي المثقفين وتفعل في النفوس فعل السحر. لم يبق أي واحد من هؤلاء في قيد الحياة عندما راحت المعاول تهدم الطبقة الظاهرة من البناء لتكشف عن التفسخ والفساد العظيم في أعماقه. في حين ساعف الأولين انهيار النظام الهتلري المريع، ذلك النظام الذي تمثّل لقومهم حيناً من الزمن، وتبينوا بعد تصفية ما أخفي عنهم من مظالم وجنائيات. ومع ذلك رفضوا إعادة النظر فيما اقتبسوه منه من آراء. وقد قرأنا مؤخراً لبعض من ظلّ يشيد به ويحنّ إليه من القوميين العرب وهو أعجب العجائب.

امتداد للحروب الصليبية. والمصالح البريطانية تفضل تجزئة الأرض العربية، وهي مع فرنسا وإيطاليا وإسبانيا تعمل للمحافظة على استمرار هذه التجزئة بإدامة الحكم الأوروبي.

وبصراحة يُحسد عليها يجد الإنحياز والاعراض البريطانية واضحين في التفضيل الذي تخصّ بريطانيا به الأقليات غير المسلمة كاليهود في فلسطين وكالآشوريين في العراق. وأمكته أيضاً ولا أدري كيف إضافة محاباة الفرنسيين للدروز وللعلويين واليضرية بوجه السنية، ومحاباة المسيحيين في لبنان إزاء الشيعة والسنية والدروز.

وكسامي شوكت وساطع الحصري لا يخفي إعجابه بما حققه أتاتورك في تركيا، فيعقب إثر حضوره في العام ١٩٣٨ تشييع جنازته:

"رأيت آثار التقدم فأصابتنني بدهشة، ثورة إجتماعية في التعليم، في الثقافة، في الإقتصاد، والأمور الروحية. رأيت فخر الأتراك بوطنهم الأم، فخرهم بقوميتهم باعتمادهم على النفس، باستقلالهم."

ويدير رأسه إلى إيران ليراها تشبه تركيا من أوجه كثيرة: "إن استقلال مثل هذه البلاد هو قوي في حين إستقلال العراق شكلي. العراق يحبو في حين أنها تعدو، لأنها حرة في اختيار سبيلها الخاص ولا أحد يسيطر عليها. حرة في التسليح كما تريد وكما تملّي عليها الإعتبارات الجغرافية والستراتيجية." (٢٠)

عند تقديمه مختلف الشخصيات والتعريف بها، كثيراً ما تجده يقول عن أصدقائه "إن فلاناً الفلاني عربي النجاد والعقيدة كاللواء إبراهيم الراوي مثلاً". أو إنه "عربي الأصل والشعور". كما وصف زميله العقيد محمود سلمان. وأما عن نفسه، فيصفها مفاخراً "أنا عربي من جهتي أسرة الوالدين". وهو أمرٌ فيه أخذ وردّ، بواقع نزوح جده من دمياط، وهي مدينة مصرية عتيقة تكاد تكون ميناءً ثانياً رئيساً لمصر، وفيها أخلاط من الجنسيات الوافدة من حوض البحر المتوسط، فضلاً عن سكانها المصريين الخالص. تبادلتها أيادي الفاتحين مراراً عديدة (٢١).

من الناحية الثانية كثيراً ما يبدء الحديث عن خصومه بتعاريف تتعلق بأصولهم العرقية

(٢٠) المرجع السالف: ص ٥٨.

(٢١) يشاهد المرء في دمياط من النماذج الأدمية الأنتروبولوجية ما يزيد عما يشاهده مثلاً في الموصل أو في بيروت. فقد تمثّلت فيها سحن المصريين القدماء والممالك واليونان والطيان والفرنسيين والكُرد والعرب والسودانيين. والذين عاصروا الصباغ وشاهدوه (شاهدته مرة واحدة) لاشكّ سيسبغونه عن الأصل العربي الذي ادعاه ببياض بشرته وشعره المائل للشقرة وقامته الطويلة ورأسه المستطيل، وهي الصفات التي تتميز بها العناصر الشمالية من البلاد الأوروبية.

تحقيراً كنوري السعيد القومي الأمي حائن اليوم ووطني الأمم، إذ يصفه بقوله "أبوه يدعى سعيداً إلا أنه ليس من أبناء عائلة سعيد، لكنه تركي من قونيه". ورفض داود الحيدري "لأن الدماء العربيةً لتجري في عروقه". فهذا السياسي هو كردي مستعرب.

أما أولئك الذين يضعهم في عداد الأصدقاء وهم ليسوا عرباً، فيبدو أنهم يحتاجون منه إلى الغفران والصفح، كموقفه مثلاً من (أمين زكي): "ولد في بغداد من أب كردي، إلا إنه مخلص للقضية العربية ومداًفح متحمس عن الإسلام ويكره الامبريالية وعملاءها."

والأعجب من هذا إعلانه أسفه على العائلة المالكة، التي لا يستطيع أن ينكر عروبتها وإسلاميتها: "إنني أسف لأقول بأن العائلة المالكة اختارت إنكليزياً يهودياً طبيباً خاصاً بدلاً من طبيب عربي نقيّ الدم في الوقت الذي تتن فلسطين تحت نير الصهيونية اليهودية. كيف ينال العرب استقلالهم عندما يتصرف زعماءهم بهذا الشكل؟"

ففي عرف الصباغ إن العائلة المالكة العراقية لو استخدمت طبيباً عربياً مسلماً بصرف النظر عن كفاءته أو حذقه، فإنها ستسدي للقضية الفلسطينية خدمة كبيرة، وتبرهن بأنها تعمل فعلاً للقضية العربية.

ومن معلمي الصباغ الروحيين عبدالكريم الربي، وعبدالقادر الجزائري وأحمد عرابي، وسعد زغلول وأبو دره الفلسطيني ويوسف العظم من سورية<sup>(٢٢)</sup> والشريف حسين ابن علي، كما قبل بالمفتي محمد أمين الحسيني مرشداً روحياً له.

وهو يرى أن القومية العربية ومعاداة الإمبريالية أمران متحدان لا يفصل بينهما فاصل ولا يعطي بطبيعة الحال شرحاً لما يقصده بالإمبريالية. إلا أنه ينظرها بمنظار الكره الشوفيني لكل ما هو أجنبي:

"أنا لا أؤمن بديمقراطية الإنكليز، ولا بنازية الألمان، ولا ببلشفية الروس. أنا عربي مسلم لا أرضى دون ذلك بديلاً من مزاعم وفلسفات."

وقوله أيضاً منتقلاً إلى الكوزموبوليتية دون أن يشعر كما يبدو:

"مبادؤها من تراث الأنبياء ومن وحي الإله لإسعاد كل حيّ على وجه الأرض وهي تكفيننا شرّ البلشفية والنازية والديمقراطية الإنكليزية. فهي أسماء براءة

(٢٢) لم يعرف عن هؤلاء دعوة للعربية أو القومية العربية ولم يهتم أحمد عرابي أو سعد زغلول بمصائر البلاد الناطقة بالعربية مطلقاً. أما يوسف العظم فالمعروف أن أسرته الشهيرة التي عملت للقضية العربية هي كردية الأصل مستعربة.

تخفي وراءها تيارات من الأخلاق المادية الغربية تعمل للقضاء على المثل العليا التي كان أسلافنا مبدعيها وحاملي مشعلها."

وما لبث أن نسي الصباغ تنديده بالديمقراطية وكفره بها، فكتب في عين الصحيفة: "إنني أتوق إلى جمهورية برلمانية تسودها الديمقراطية والعدالة... على أن يكون الجيش والقوة العسكرية اليد الحامية والمدافعة والضاربة للجمهورية... وأن تقوم الحكومة بوضع السياسات الخارجية والداخلية، شريطة أن تنسجم مع الاستراتيجيات العسكرية التي تقررها قيادة الجيش بعيداً عن مداخلات السياسيين"<sup>(٢٣)</sup>

لم يؤثر عن الصباغ أنه كتب شيئاً حول آرائه القومية قبل هذه (المذكرات)، وقد كان على اتصال وثيق بنادي المثني وأعضائه يحضر كثيراً من الندوات القومية التي كان يقيمها. ولا بد سمع أكثر من محاضرة للأستاذ المصري أو لسامي شوكت وغيرهم. ولم يقع بيدي شيء كتبه أحد عن سلوكه القومي خلال تلك الفترة غير ما أورده ذلك الضابط الصغير النابه (إسماعيل العارف) وهو، وهنا وجه الغرابة، تجده يتفق تمام الإتفاق مع ما أورده من مقتطفات: عاطفة قومية غلابة وقلقة، عاجزة تمام عجز عن تفهم الظروف الاجتماعية، قاصرة عن وضع إطار فكري محدد لأهداف واضحة، لم تجد منطلقاً لها غير العنف والإكراه.

والصباغ عند كل من كتب عن وقائع (١٩٣٧-١٩٤١) في العراق وعن حركة مايس التي ختمت بها، يعتبرونه الرجل القومي واللؤلؤ المحرك الأمر الناهي. ويكاد كلهم يجمع بأنه هو الذي دفع بالعراق إلى هاوية مايس، وإنه وهو الذي أطلق قوى الشر وقضى على تردد زملائه في صدام عسكري مع بريطانيا، ساحته العراق، مشفوعاً أحياناً بتحريض وبيكرات مرشده الروحي مفتي فلسطين أحياناً، وبمد يده على قبضة مسدسه أو إشهاره في وجه من يحاول مخالفتهم من الرجال السبعة أو الثمانية، الذين زجوا الجيش والبلاد في مغامرة مايس وطوحوا بمقدراتها ومستقبلها<sup>(٢٤)</sup>.

(٢٣) (فرسان العروبة) ص ١٨٥: المقتبسات السابقة هي من الص ١٢ و ١٣ و ١٨.

(٢٤) وجدت في كتاب يونس بحري (أسرار حركة مايس ١٩٤١ أو الحرب العراقية - الإنكليزية). نص رسالة زعم المؤلف أن الملك غازي كتبها للصبّاغ معلناً انضمامه (كذا!) إلى مجموعتهم. وأنا أنقلها هنا رغم شكّي القوي في كل ما يكتبه هذا الرجل واضعاً في حسابي حالة هذا الملك المتخلف عقلياً.

١ آذار ١٩٣٩

أخي صلاح الدين

لقد أيقنت الآن ويؤسفني أنني تأخرت، إنكم يا أخي صلاح الدين مخلصون في عملكم وإنكم أنتم =

بكل ما في هذه الآراء من فجاجة واضطراب ذهني حتى لو تناولناها بعقلية ذلك الزمن وروحيته، ربما أدرك القاري بعض العجب والحالة هذه - في إسهابي وأخذني به الى رحلة طويلة خلال ما كتبه هذا الضابط وهو أسير في سجن لم يخرج منه حياً.

كان قصدي وما زال، أن يشاركني القاري في العثور على جواب صحيح للسؤال عما يحذو بهذا الضابط وأمثاله، الذين ظهروا على مسرح القومية العربية فيما بعد: إلى الربط بين القومية ومعاداة الإمبريالية من جهة، وبين الكره الشوفيني لكل ما هو أجنبي مع التعصب الديني من جهة أخرى، أهو رداء تقليدي لبسه القوميون المحدثون وكسوه المفهوم الجديد لها؟ أم هل إن عداة القومية للإمبريالية، هو لا أكثر من مصطلح الساعة ضربت سكتته من معدن أو هوية غير متغيرة لنظام تقليدي نابع ومستمد من آراء ومعتقدات خاصة بالدولة الإسلامية أولاً والعربية ثانياً؟ ثم ما هو العنصر المؤقت العابر في هذه الأيديولوجية، وما هو العنصر الثابت الباقي على الزمن الطويل؟ وما هو العامل الفاعل منها، وما هو المظهر المعلن فحسب؟

بالنسبة الى معظم أيديولوجيي القومية العربية وزعمائها - تجد دعاوى القومية العربية الحديثة والمفاهيم الإسلامية التقليدية تمتزج بعضها ببعض ورغم اختلاف اتجاهاتها بالأصل، فهما يؤثران أحدهما في الآخر حتى يبدو الأمر أحياناً وكأنهما ينبعان من جذر مشترك. العامل الديني والعامل القومي يختلفان عن بعضهما اختلافاً بيناً، ويبعث كل منهما استنتاجات متناقضة في أغلب الأحيان. فكيف امتزجا هنا؟

إن المسألة ليست مسألة أصل تاريخي، ولا ثمرة عوامل سايكولوجية خاصة. بل حتى ليست مسألة تأكيد لواقع. بل هي مسألة "الكيف" ضد "الكم". فكثيراً ما حصل في عالم الإسلام في القرن التاسع عشر (ولناخذ إيران وتركيا مثلاً) بأن قيادة متعلمة (حكومة كانت أم هيئة غير ذات سلطان) قامت بصياغة وجهة نظر دنيوية ذات طابع قومي - إن قبلتها طبقة واسعة من السكان بالروح المتحفظة التقليدية التي تمتد جذورها الى الإعتياد على التقليد الديني<sup>(٢٥)</sup>. وهذا يفسر قبول البلاد الناطقة بالعربية ذات الغالبية الإسلامية الساحقة بفكرة

= تتصرون القضية العربية في العراق. لذلك قررت أن أكون أحد إخوانكم في الجيش العراقي وأن أضع يدي في أيديكم.

(٢٥) يطيب لي بهذه المناسبة التمثل بأبيات أربعة للشاعر المفكر ألييا أبو ماضي  
لما سألت عن الحقيقة قيل لي الحق ما اتفق السواد عليه  
فعجبت كيف ذبحت ثوري في الضحى والهند ساجدة هناك لسيده=

القومية التي طرحتها حلقات ضيقة صغيرة من مثقفين بثقافة الغرب ذوي نظرة ليبرالية دنيوية، ولم تكن صدفة محضة أن يضطلع المسيحيون فيها بمثل هذا الدور الكبير.

أصبحت القومية العربية بين الحربين العالميتين حركة جماهيرية في البلاد الناطقة بالعربية وتبناها سكان القرى والمدن، الذين مازالوا يعيشون تحت خيمة كثيفة من التقاليد الدينية. تبناها كعقيدة لكنهم وضعوا عليها طابعهم الخاص. وقد بدت لفترة قصيرة بعد الحرب العظمى الأولى كحركة تطمح بصورة أساسية الى الاستغراب (السير على الخط الغربي Westernization)، وبدت في العقد الرابع من القرن تميل أكثر الى مقاومة الإستغراب، لا تقتصر فحسب على مقاومة السيطرة السياسية الغربية، بل تتعداها الى رفض عناصر المدنية الغربية ومفاهيمها الاجتماعية. ويعزى هذا التحول أيضاً الى تأثير عوامل اجتماعية واجهتها البلاد الناطقة بالعربية من جهة وإلى ما حصل في أوروبا أيضاً. فالعقد الذي توسط بين انفجار الأزمة الاقتصادية العالمية في ١٩٢٩ وبداية الحرب العظمى الثانية - تميز بانتصار الرجعية والفاشية واندحار القوى التقدمية والمباديء الديمقراطية في المجال الروحي فضلاً عن المجال السياسي، ليوّدي الى تقوية الرجعية المتعصبة في حلقات القوميين العروبيين، لذلك وجدناهم لاسيما ضباطهم السياسيين ورجال السياسة منهم، يجتذبون الجمهور وجانباً من المثقفين، فيناضلون - نزولاً عند رغبة الجمهور - في سبيل تقاليد الإسلام والعروبة معاً. وفي وسط ترحيبهم بتأثير العصر ينساقون في سبيل بعيد عن المفاهيم الديمقراطية، ويتشبعون بروح القومية الفاشية الإعتدائية التي نبطت في أوروبا. وهذا وحده يفسر لنا كيف تمكن الصباغ من تبرير تعدد الزوجات في الإسلام. والدفاع عن تحالف سياسي عسكري وأيديولوجي مع النازيين، مثلما يفسر لنا تحالف عبدالناصر مع الإتحاد السوفياتي وإشباع بلاده بالحبراء السوفيات، في حين غصت سجونته بالشبيوعيين واليساريين الإشتراكيين دفاعاً عن الإسلام وشعائره وتطبيقاً لفتاوى علماء الأزهر<sup>(٢٦)</sup>، في حين لم يتردد في وضع حبال المشنقة حول أعناق أقطاب الإخوان المسلمين، الذين حاولوا الإعتداء على حياته.

= نرضى بحكم الأكثرية مثلما يرضى الوليدُ الظلم من أبيه  
إمّا لغنم يرتجيه منهما أو خيفة من أن يساء إليه

(٢٦) في العام ١٩٦٤، أصدر مفتي مصر فتوى ببطلان زواج أي طرف من الزوجين يعتنق المذهب الشيعي. وحكم بوجوب الطلاق. كان الكواكبي الحلبي وقد مرّ ذكره يميز بين المسلمين العرب والمسلمين غير العرب تمييزاً دقيقاً. فيؤكد تأكيداً شديداً على المكانة الخاصة التي يجب أن يحتلها العرب في الإسلام بفضل لغتهم وشرف نسبهم. ويرى أن عرب الجزيرة هم المؤهلون لإعادة مجد الإسلام قومياً، لأن العناية الإلهية حمته من الفساد الخلقي الذي ألم بالترك. (أم القرى. وكذلك طبائع الإستبداد، ص ٢٣٩ وما بعدها).

ربما وجدنا في (أمين الريحاني) اللبناني الماروني نموذجاً للحيرة والقلق الذي تملك المسيحيين في البلاد العربية بسبب مما ذكرناه. فأدّى بهم لنبذ الإدعاء بالقومية العربية، والنأي بأنفسهم عن العمل لها عموماً. حيرة وقلق أشاعها في نفوسهم حالة من اليأس في تقويم الاتجاه الأعوج الخطر الذي سلكته المسيرة القومية.

وربما اعتبرها صلة بين القوميّين المسيحيين الأوائل وبين قلةٍ ووشلٍ من متحلقي الدكتور قسطنطين زريق.

بدأت الفكرة القومية عند الريحاني سحابة يكتنفها غموضٌ متعمدٌ تجده تارة يتحدث عن "الأمة السورية". ثم ينقلب ليتكلم عن "الأمة العربية" و"الأمة اللبنانية"، وأحياناً تجد هذه الأوصاف في مقالةٍ واحدةٍ من كتبه. في الواقع وجدناه حتى نهاية العقد الثالث من القرن العشرين يؤمن بالوحدة السورية "الذات السورية، التربة السورية، الوطن السوري، الأمة السورية، القومية السورية... الخ" من مقالة له حوله التطور والإستقلال يقول: "أنا سوريّ أولاً ولبنانيّ ثانياً وماروني بعد ذلك. أنا سوري أنشد بالسورية القومية الجغرافية السياسية، أنا سوري مسقط رأسي نهضة العرب على الأتراك. أنا سوريّ يود أن يرى في سورية حكومة دستورية لامركزية عمودها القومية الجغرافية وأساسها العدل والمساواة بالحقوق والواجبات. أنا سوريّ لبنانيّ أعتقد بفصل الدين عن السياسة، لأنني مدرك أن حجرة العثرة في سبيل الوحدة القومية، إنما هو التحزب الديني." (٢٧)

في ١٩٣٠ وما بعدها صار يتحدث خلاف ذلك. صار يتحدث بالعروبة ويحصرها قصداً بوحدة الهلال الخصيب والجزيرة العربية فحسب من دون مصر والمغرب. في عين الوقت لم يتخلّ عن فكرة الوطن السوري.

في العام ١٩٣٤ جاء في رسالة أثبتها رداً على خطابٍ من شاب عربي قومي متسائل:

"أجل، الوحدة العربية ممكنة، بل هي محققة، إن لم يكن اليوم فغدًا، بعد سنة،

(٢٧) ١٨٧٦-١٩٤٠: قضى شبابه في الولايات المتحدة يتعاطى الأعمال الحرّة. ثم عاد في أواخر العشرينات الى لبنان وكتب كثيراً وساح كثيراً في أرجاء البلاد الناطقة بالعربية - وهو من الأدباء السياسيين، تعرّف الى اللغة العربية حتى أتقن التعبير بها وكتب بها وبالإنكليزية. من كتبه (قلب العراق الملك فيصل) و(ملوك العرب) و(تاريخ نجد الحديث) و(المغرب الأقصى) و(الريحانيات) مجموعة مقالات. وقد أعيد طبع بعض كتبه بعد وفاته مراراً. كانت سياحاته عند بعض القوميّين مصدر شك، وفي حينه أشاعوا عنه بأنه عميل سعودي أمريكي. الإقتباسات التي أوردها هي من كتابه (القوميّات، بيروت، دار الريحاني ١٩٥٦).

أو بعد خمسين سنة. والإتحاد الجزئي اللامركزي هو أولى الخطوات، لأن الحكومات العربية لا يمكنها أن تتنازل عن حقوق السيادة الإقليمية..."

والوحدة العربية عنده هي: "وحدتها الطبيعية التاريخية القومية، فننضم كلنا: اللبناني والسوري والفلسطيني والعراقي والنجدي والحجازي واليمنّي. كيف لا؟ والبلاد كلها من حلب الى عدن ومن العريش الى خانقين كلها عربية؟" (٢٨)

وفي معرض آخر يعرف عن إيمانه بهذا الشكل: "إنني العربي الدم والقومية عربيّ الحس والنزعة، عربي القلب والروح، عربيّ اللسان وليس في البلاد العربية، من حلب الى عدن ومن القدس الى بغداد ما هو أقدس عندي من فكرة الوطن." (٢٩)

والعروبة عنده "وبالأخير" هي قبل كل شيء، قبل الإسلام وقبل المسيحية: "وليدرك ذلك المسيحيون، وليدركه المسلمون، العروبة فوق كل شيء وقبل كل شيء... كل طائفة عندنا وطن قائم بذاته، فالسنّة (كذا) والشيعّة في العراق والمرونية وأخواتها في لبنان، والوهابية في نجد والزيدية في اليمن، إنما كلها من هذا القبيل واحدة، كلّها تقدم مصالحها على المصلحة الوطنية الكبرى، لذلك أقول بالخروج من الفكرة الطائفية الى الفكرة القومية." (٣٠)

في وسط تأرجحه بين القومية السورية والقومية العربية، وفي بحرانٍ من حيرته القلقة هذه، تبقى فكرة واحدة ثابتة عنده واضحة لا مراء فيها، وهي بحثه عن الليبرالية الديمقراطية التي افتقدها في البلاد الناطقة بالعربية وخط الاستبداد السياسي ونكبة القومية العربية وقوميّيتها بحكام متعسفّين أحسن وأجاد في وصفهم ولا عجب، كاتب سلخ أكثر من ربع قرن من حياته في ظلّ حكم ديمقراطي. وهذه الفقرة التي أنقلها الآن تغني عن المزيد من الإستشهاد، قال:

"كان لي صديق أديبٌ وديع النفس لطيف الكلمة طلق المحيّا، إلا أنه كان حاكماً غضوباً متعسفاً عتياً. سألته عن سبب هذا التباين الخلقّي في سلوكه كأديب وكحاكم، فقال لي: اعلم أن الحكم في الشرق لايقوم بغير العنف وعلى الحاكم أن يكون قبل كل شيء حاكماً، فلا يتسم علناً ولا يدين رسمياً لأحدٍ من الناس. والحكم والتحكم هما من مصدر واحدٍ، وإنما العاجز من لا يستبد. (وأنشد قائلاً):

(٢٨) المرجع المعتمد السالف: ص ١٥٢ ج ١.

(٢٩) كذلك: ص ١١٢، ج ١.

(٣٠) كذلك: ص ١٤٧.

ليت هنداً أنجزت ما تعدد  
واستسببت مرةً واحدة  
وشفت أنفسنا مما نجد  
إنما العاجز من لا يستبد

كان صديقي مع ذلك عصرياً في نواحي حياته الرسمية كلها، أما الحكم في الشرق القديم فلم يألف النقد، وما عوّد الشعراء غير المديح، وما كان صديقي نسيج وحده في عقيدته السياسية وسلوكه، بل هو مثاليٌ سوي لكبار الموظفين وصغارهم. إن الإستبداد درجات: رجلي على رأسك يا هذا، ورجله لحاه الله على رأسي... لا أخاف على الحكومات الوطنية الجديدة المستقلة، إلا من التقاليد الشرقية وقد أمست غرائز تبدو في أصحابها حالما يرقون منصات الأحكام. وما دام الواحد منهم يحسب نفسه فوق الإنتقاد بل فوق القانون، فالأمة (العربية) في خطر أشد من خطر الإستعمار الأجنبي. هي في خطر من ظلم القوميين (الوطنيين) واستبدادهم." (٣١) آه.

نقول: كل ما أنبتته حكماً مستبدين، دكتاتورين، طغاة. شيء غاب عن أمين الريحاني وأضرابه: الحاكم المستبد هو أقرب شبيهاً في معشر الحيوان بالبوّة كلما زاد تسليط النور عليه كلما ضعفت قابلية الإبصار فيه.

إن أبرز الشرور العديدة التي هي من مظاهر الحكم المستبد المطلق، بل وأعظمها وطراً في نظري، هو أن لا يعود أي من الأصدقاء والمقربين الكثيرين الموثوق بهم، يجرء على الكلام بحرية وأن يقول الحقيقة الصريحة.

ويسجل هذا المظهر لكل الأنظمة القائمة في البلاد الناطقة بالعربية تقريباً. لاسيما تلك التي نجت عن مغامرة قومية لعسكريين أو بمساندة عسكريين. وكثيراً ما يسجل الرأي العام والجمهور رأيه في فكاهات مرّة تتحدى السلطان، وتستظهر على جبن الأصدقاء والمقربين.

هذه فكاهة سياسية قرأتها قبل أكثر من عشرين عاماً صور فيها مبتدعها المصريّ حصيلة الأنظمة القومية العسكرية في ثلاثة أقطار - بما يغني عن صفحات وإليك هي:

«سئل مصري وسوداني وعراقي: "ما رأيكم في أكل اللحم؟" فأجاب الأول: "ما معنى لحم؟" وأجاب الثاني: "ما معنى أكل؟" وأجاب الثالث: "ما معنى رأي؟"»

\*\*\*

(٣١) المرجع السالف: الص ٣٦-٣٧، ج ٢.

في العام ١٩٣٨ حين كان العراق يستحق لقب "بروسيا العرب" بجدارة، ويفضل تحكم الضباط القوميين في السلطة ونصب الحكومات وعزلها، ما لبثت فلسطين أن أصبحت الابن المتبني لفكرة كانت تحتاج بعد استقلال العراق والتحدي الظاهري للنفوذ البريطاني، والوعود المبدولة بسخاء من الجانب الألماني والإيطالي - الى هدف آخر تتبناه مع هدف طرد الفرنسيين من سورية ولبنان، وتحقيق استقلال الأردن التام.

فكان من الطبيعي أن يبرز شعار "فلسطين قضية العرب الكبرى". ليتقدم سائر الشعارات القومية بسبب الظروف التي كانت تعم ذلك القطر.

بدا شعاراً أشبه بسكين حجري في حرب حديثة. ولست أدري كم كان واضعوه والعاملون له يدركون ذلك في حينه. وقد اقتضى عقود من السنين وحروب مخجلة النتائج مهلكة، للوصول الى شيء شبيه بهذه المعادلة:

"إن لم يحقق اليهود تسوية سلمية مع الفلسطينيين، أو يسحقوهم سحقاً أو يبيدوهم، فإنهم لا يستطيعون الوصول الى اتفاق ذي معنى، لا مع العراق ولا مع مصر وسورية أو أية دولة عربية أخرى. وبالكلام الصريح فالموضوع هو تغافل سياسي يحد لا دخل فيه للقومية أو الدين ولا تأثير فيه لأي عقيدة فكرية." (٣٢)

إلا أن الأمزجة في العام (١٩٣٨-١٩٣٩) لم تكن مستعدة لقبول مثل هذه المعادلة. وكان عليها أن تنتظر أكثر من نصف قرن ليخرج الناتج منها صحيحاً. ويوصفه "بروسيا العرب" تبنى العراق القضية الفلسطينية كما قدّمنا، وتبارى المتنافسون على الحكم فيه على إظهار حماسهم لها تقريباً من الضباط القوميين الذين فتحوا الكلية العسكرية العراقية في أوجه كل عربي قادم من الأقطار العربية. واستقبلوا المفتي أمين الحسيني استقبال الفاتحين، ووضعوا موارد الدولة في خدمته وحاشيته وفتحوا مكاتب المتطوعين تمهيداً للتدخل الفعلي المسلح. وكل هذا معروف ولا حاجة للخوض فيه، ونحن نقصد غير المعروف ونكشف عما كان مستوراً.

في العام ١٩٣٩ كانت القيادة العليا الألمانية (الثيرماخت) بأمر توجيهي من هتلر قد

(٣٢) يشهد الله عليّ إنني دونت هذه العبارة (بدءً من شعار أشبه بسكين) في دفتر ملحوظات قبل أكثر من ٢٨ عاماً. رافقني طوال سنوات السجن وما بعدها. وهي واحدة من خاطرات متسلسلة زمنياً كتبتها تبعاً، تتحدى التزوير والتصنيع وتصمد لكل فحص مجهري أو مختبري forenise. وأنا ما ادعيت قط لا بهذا ولا بغيره المقدر على خرق حجب المستقبل والتنبؤ. إلا أن حصيلة حرب ١٩٦٧ أدت بي الى مثل هذا الإستنتاج، فدونت في حينه وأنا في السجن.

سبقت فوضعت خططها لبدء الحرب الثانية. ومن مقتضى هذه الخطط، أن يستعان برتل خامس لإحداث اضطرابات وثورات في كل البلاد الخاضعة للنفوذ البريطاني، وفي مقدمتها البلاد الناطقة بالعربية، رتل خامس ليس إلا، وليس الإعداد للحرب.

علقت وزارتا الدعاية والخارجية الألمانيتين بقدر ما يتصل الأمر بهما - كل آمالها على (عزيز علي المصري) في مصر<sup>(٣٣)</sup>. وعلى المفتي الحسيني، الذي استطاع أن يتسلل في أوائل ١٩٣٩ إلى لبنان، ووصل بغداد في تشرين الأول. وفيها أقام هيئة أركان تابعة له، وأنشأ يتدخل في شؤون العراق الداخلية تدخلاً سافراً بفضل أصدقائه الضباط القوميين:

"وراح يضربُ على نعمة: إنكم اقترفتُم خطأً كبيراً بقطع علاقاتكم مع ألمانيا. وأنشأ تحت قيادته ما دعي به (لجنة تعاون البلدان العربية). وسارع في الانضمام إليها كثيراً من الزعماء القوميين في سورية وفلسطين وشرق الأردن فضلاً عن العراق. ومنحت الحكومة العراقية المفتي هبة قدرها ١٨ ألف باون أسترليني فضلاً عن مرتب شهري قدره ألف دينار. رغم أنه كان منذ ١ كانون الثاني ١٩٣٩ يتلقى معونة مالية سنوية من الاستخبارات الألمانية (آبفيور) تزيد عن (١٠٠٠٠٠) باون، إلى جانب معونات السفارة الإيطالية في بغداد."

ويقول الحسيني بدوره: "خرجتُ من القدس مساء ١٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٧ إلى يافا ومنها إلى لبنان بقارب شرعيّ صغير. فاعتبرتني السلطات الفرنسية لاجئاً سياسياً. وبقيت في لبنان عامين كاملين، ثم غادرته مساء ١٣ تشرين الأول ١٩٣٩ إلى العراق، فوصلتُ بغداد بعد يومين. وكان قد سبقني إليها نحو مائتين من قادة الثورة الفلسطينية وكبار المجاهدين الفلسطينيين. فقبلوا أحسن مقابلة من السلطات العراقية ومن إخوانهم العراقيين. واستقر رأينا على أن لايتدخل الفلسطينيون خلال إقامتهم بالعراق في الشؤون الحزبية والسياسات المحلية ولايتسببوا في أي إخراج وإزعاج للسلطات العراقية. وكان هذا وفقاً للخطة التي إتزمناها في كل قطرٍ حللنا به من الأقطار العربية، حتى إنني كنت وإخواني نعتد من عدم تلبية كثير من الدعوات الكريمة التي كانت توجه إلينا من الهيئات والجمعيات والأفراد من البصرة والموصل وغيرهما من كبريات المدن العراقية."

(٣٣) سيأتي الحديث عنه في موضعه المناسب.

كان الحسيني يكذب على نفسه وعلى التاريخ بصفاقةٍ لا حدود لها. فبعد بضعة من فقرات مقاله هذا، نسي قراره بعدم التدخل فقال:

"(بعد الأزمة الحكومية في شباط ١٩٤١) وعلى الأثر ذهبتُ مع بعض الأصدقاء صبيحة يوم ١٩ شباط إلى البلاط الملكي، حيث كان عدد كبير من الزعماء والوزراء يتباحثون. وفي مساء اليوم التالي ذهبتُ والمرحوم أمين التميمي لزيارة نوري السعيد في منزله. فعتب علينا (كذا) لأننا لم نعمل على حسم الخلاف بين إخواننا رجال العراق. ولما أجبته بأن خططنا هي أن لايتدخل في الشؤون الحزبية والمحلية. قال إن هذه الشؤون في صميم القضية العربية وانتهى بنا الحديث إلى لزوم السعي لجمع كلمة الزعماء والأحزاب في هذه الظروف والوصول إلى صلح وتفاهم وتهاون فيما بينهم وتشكيل وزارة ائتلافية تمثل جميع الأحزاب ويختار الوصي عبدالإله رئيسها، وأن تكتب إتفاقية في هذه المقترحات يوقع عليها جميع رؤساء الوزراء السابقين وتوضع عند الوصي للعمل بمقتضاها. وعلى الإثر زرنا رئيس الديوان السيد رشيد عالي ثم الوصي، فأبدى ارتياحه للمقترحات وشجع على العمل بها. فاجتمع الرؤساء (رؤساء الحكومات) في بيتي وهم السادة رشيد عالي، ناجي السويدي، نوري السعيد، علي جودت، جميل المدفعي، توفيق السويدي، ناجي شوكت، السيد محمد الصدر رئيس مجلس الأعيان ووقعوا الإتفاقية، فأخذتها وسلمتها إلى الوصي فقبلها شاكراً."

إن لم يكن هذا تدخلاً فأني وصفٍ يمكن أن يُعطى؟

ويعقب المفتي بعد هذا استطراداً كأن الأمر لايعنيه في شيء كثير:

"وقد كان القادة العسكريون متعاونين مع المخلصين من الزعماء السياسيين في معارضة المطالب البريطانية لمخالفتها المعاهدة ولما تعود به من ضرر على العراق، ولذلك كان الإنجليز يرغبون في الخلاص من أولئك القادة والزعماء. وقد كانت لي صداقة سابقة ببعض أولئك القادة وهم محمود سلمان وصلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد من أيام الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى، إذ كنا ضباطاً في ألوية الفرقة (٤٦) في الجيش العثماني، وكنا على إتفاق في الآراء والمبادئ. فلما لقيتهم في بغداد عام ١٩٣٩ ألفتهم وقد أصبحوا من كبار قادة الجيش العراقي يلتهبون حمية وحماسة ورغبة في خدمة العراق والوطن العربي

ويتطلعون الى من يتعاون معهم في هذا الميدان. فحاولوا ذلك مع نوري السعيد باديء الأمر، ثم إلتفوا حول طه الهاشمي الذي كان وزيراً للدفاع حينئذ، حتى كان الإنكليز يطلقون عليهم عبارة المربع الذهبي The Golden Square (بإضافة العقيد كامل شبيب)، لكن آمالهم خابت. فاتجهوا نحو رشيد عالي وتعاونوا معه وتعاهدوا على العمل بإخلاص وروية! في خضم الحرب العالمية الثانية<sup>(٣٤)</sup>.

(٣٤) ما بين الأقواس من إضافتنا. الفقرات الواردة في المتن هي مقالة كتبها الحاج أمين الحسيني لمجلة (المصور) القاهرية (أيلول ١٩٧٢) ردأ وتوضيحاً لمذكرات الدكتور كمال الدين جلال، التي نشرها في العددين المؤرخين ٢٦ تموز و٢ آب ١٩٧٢ من مجلة (آخر ساعة) المصرية بعنوان (العلاقات التي قامت خلال الحرب العالمية الثانية بين هتلر وموسوليني زعيمى دولة المحور وبين بعض رجالات العرب)، أما عنوان مقال المفتي فهو: (إتهامي بإثارة الخلاف بين الفلسطينيين باطل).

والمقال برمته كاد يكون تنصلاً تاماً من أي مسؤولية له في الإقدام على تلك الجناية الكبرى على العراق والعراقيين والتي عرفت بـ(حركة مايس ١٩٤١)، والقوميون الذين اعتزوا ومازالوا بتلك الحركة، مازال بعضهم يعتبر المفتي واحداً من مسؤولين كبار ثلاثة عنها... إكباراً له وتعظيماً. وهو في مقاله هذا مثلهم يحاول إلقاء ذنب ما حصل على الإستقزاز البريطاني والمبادأة بالعدوان! عملية إلقاء الذنب على الآخرين التي يجيدها ساسة البلاد الناطقة بالعربية أيما إجادة.

كتب الحاج المفتي هذا المقال وهو في السابعة والسبعين من عمره المديد الذي طال به أربع سنوات أخرى. وهو في بيروت يعيش في بحبوبة بفضل الهيئات المالية التي كان يسعفه بها ضابط عراقي آخر اسمه عبدالكريم قاسم طوال ثلاث سنوات على الأقل، عن طريق صكوك باسمه ترد من بغداد ويتسلمها من السفارة العراقية ببيروت. وذكر لي أحد الموثوقين أن مجموع ما وصله قد يزيد عن مائتي ألف دينار عراقي (٦٠٠ ألف دولار أمريكي على الأقل). من الصعب جداً أن نصل الى تفسير منطقي من خلال التكوين العقلي لعبدالكريم قاسم - لهذا السخاء الذي خص به المفتي. ومكافأته على ما أحدثه نشاطه الفلسطيني في العراق من شرور وندوب في نفوس المواطنين. ربما كان قاسم يحاول يأساً شراء ولاء شخصية عروبية جهادية في وقت اشتد عليه هجوم القوميون العربيين، وهو إزاء الحملات الشرسة التي كانت إذاعة صوت العرب تشنها عليه متهمه إياه بالشعوية والتنكر للقضايا العربية. وظاهر الحال يدل أيضاً على أن الحاج المفتي كان يخشى من جانبه أن يفتضح أمر تلقيه الصكوك من الدكتاتور العراقي، فتلقى الشكوك في عروبيته. ويفقد بقية احترام عند القوميون العرب. لذلك اعتاد أن يبعث أحد أتباعه الى السفارة لتسلم الصكوك، فيكتفي السفير بأخذ توقيع المستلم. لكن حصل في العام ١٩٦٠ أن عبدالكريم قاسم المغرم الى حد الجنون بقاعدة وضع الرجل المناسب في محله المناسب - نسب للبنان نجيب الصائغ المحامي، سفيراً عراقياً وهو من المسيحيين الكلدان الكاثوليك. ففي تقديره ليس هناك وسيلة للتقرب إلى لبنان الذي تحكمه الطائفة المارونية الكاثوليكية أفضل من ذلك. وحصل أن أصر هذا الدبلوماسي على أن يحضر المفتي بنفسه ليتسلم الصك ويوقع على تسلمه باسمه الصريح ورد الرسول خائباً. وكان السفير المسيحي الذي لم يقم في العراق سفير مسيحي قبله أو بعده - يفكر بعقليته القانونية وبدقة مركزه وبالعواقب عند الإنكار. وهو الذي خبر الحياة السياسية السريعة التقلب في العراق - وما من شك أنه أدخل في حسابه واقع كونه شقيقاً لداود الصائغ المحامي. الذي اعترف به نظام قاسم سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي المجاز. كل هذا دفع السفير الى التمسك بموقفه. وأبى المفتي أن يضع توقيعاً أو يأتي بنفسه لتسلم الصك. ورفع الأمر الى الوزارة واستشير قاسم شخصياً، فحكم الى جانب =

وهكذا، فبأمثال هؤلاء الزعماء العربيين والفلسطينيين كادت قضية "العرب الكبرى" تغدو "تكبة العرب الكبرى" بما أحدثته بصورة مباشرة من هزات سياسية عنيفة وانقلابات دموية في مختلف الأقطار العربية طوال سنتين عاماً، لم ينجح فيها أي بلد ادعى حكامه بالعمل للقومية العربية وخدمة مصالحها وأهدافها. وباستخدام اللاأخلاقية السياسية باتقان لا مزيد عليه.

في عام الإنقلاب العسكري كانت الحركة الإشتراكية (الشيوعية) قد تعدت طور الزحف على الأربع وبدأ قدمها وذراعها يتلمسان جدار الدولة والحكومة ببعض الحاجة. فتوقر أذانها من بدايات يهتف بها، وشعارات ترفع بين أن وآخر في تظاهرات ومسيرات حول الجوع وفساد الطبقة الحاكمة، واستغلال الفلاحين والكاحين. فضلاً عن منشورات تجذب سبيلها إلى المقاهي والمنازل، أو ترسل بالبريد، فيبدو من خلالها واضعها وموزعوها - خطراً جدياً على السلطة وعلى النفوذ البريطاني. وكان للحزب أيضاً جريدة باسم (كفاح الشعب).

من طابع الحركات السرية أن تبدو من الخارج أكبر من حجمها بكثير. وأعضاؤها أقل تعرضاً للتقويم والمفاضلة، بل هم في حصانة من الإنتقاد أو المعارضة التي يتعرض لها السياسيون وأعضاء الأحزاب العلنية والمشتغلون في الأمور العامة. لذلك لم يكن يُعرف عن الشيوعيين العراقيين وحزبهم المعلن أكثر من أنهما يرددان صدى أوجاع المواطنين ويعكسان صورة دقيقة لأوضاع العامة، تبدو مقبولة دائماً رغم عنصر التهويل والمبالغة فيها أحياناً.

وعلى العموم، حظي اليسار الإشتراكي بتأييد وعطف فئات كثيرة من المثقفين سيما أولئك الذين قضاوا رداً من الزمن خارج العراق سعياً وراء الدرجات العلمية من الجامعات الأجنبية ومعظمهم من طلاب البعثات. عادوا مشبعين معجبين بالأفكار التقدمية، التي كانت تجذب سبيلها الى نفوسهم سهلاً في جو الحرية الفكرية وبفضل الأنظمة السياسية في الديمقراطيات الغربية وأمريكا.

إلا أن قلة من هؤلاء تقهّمت ميدان النشاط الفكري العملي، بعكس أولئك الذين استهوتهم المبادئ القومية المشبعة بالنظريات العنصرية النازية والفاشية. ورغم تفوق الأولين عددياً، فإنهم قنعوا بالوظائف والمراكز الحكومية التي أهلتها إليهم درجاتهم العلمية. واقتصرت جهودهم على حديث الصالونات، واقتناء الكتب والمطبوعات (التقدمية)، حيثما تيسر ذلك

= سفيره. وربما وجد في موقف مبعوثه الدبلوماسي هذا فرصة لإضافة وثيقة أخرى من الوثائق في المستقبل. واضطر الحسيني الى القدوم بنفسه أخيراً لتسلم الصك. (تجد تفاصيل أخرى في الرسالة التي كتبها الى السفير جواباً للعميد خليل إبراهيم حسين. ج:٦ موسوعة ١٤ تموز، بغداد ١٩٨٩، دار الحرية للطباعة والنشر).



وتبادلها فيما بينهم. وكان بينهم أبناء أسر معروفة متنفذة جاهدوا فيما بينهم بتلك المبادئ بعضهم يشعور حميم باليؤس العام والحاجة الى التغيير وبعضهم تنفراً من الأفكار النازية، وهؤلاء يدركون أنهم وبمواجهة السلطة لا يتمتعون بالحصانة التي انفرد بها القوميون أمثالهم<sup>(٣٥)</sup>.

وازدادت خبرة جهاز دائرة التحقيقات الجنائية<sup>(٣٦)</sup> في تعقيب الشيوعيين بزيادة نشاطهم وانضم عدد كبير من الدستوريين والإصلاحيين (جماعة الأهالي) الى الحركة الإشتراكية الجديدة بدافع خيبة الأمل. ويهدى وإرشاد من الموظفين البريطانيين المستخدمين في تلك الدائرة، أصابت نجاحاً في إلقاء القبض على أفراد منهم بين آن وآخر، واعتقالهم مدة لاتزيد عن بضعة أشهر أو استحصال أحكام سجن بحق بعضهم.

كانت السلطة تعتبر النشاط الشيوعي في العراق جزءاً من حركة الشيوعية الدولية التي يمثلها الكومنترن<sup>(٣٧)</sup>. لكن وبتقديراتها البريطانية كما يبدو إنها لم تكن تجد هناك صلة وثيقة منتظمة بين الحركات الشيوعية المحلية وبين الكومنترن حتى ذلك الوقت قد تستدعي إجراءات خاصة، كإصدار تشريع خاص أشد في عقوباته عن القوانين السائدة وقتذاك.

وهكذا بقي الأمر. فمثلاً عندما أنزل بكر صديقي ضربته بالدستوريين اليساريين اكتفى بنزع الجنسية عن بعضهم وإبعاد أفراد واعتقال عشرات من عمال قبض عليهم أثناء تظاهرات وإضرابات، تم إطلاق سراحهم بعد لبثهم معتقلين فترة من الزمن دون أن يقدموا الى المحاكم<sup>(٣٨)</sup>. لكن أقبيل العام ١٩٣٨ يحمل للسلطة وضباط الجيش مفاجأة مخفية غير متوقعة. كان رد الفعل فيها مساوياً لهول الصدمة.

في ذلك العام لم يكن بوسع الشيوعيين الإدعاء بضابط واحد لهم في الجيش العراقي. وكانت ستم أعوام ستة على الأقل قبل أن يفلحوا في ضم اثنين أو ثلاثة. لكن الشيوعيين

(٣٥) تيلمان H. Tillman : السياسة الألمانية العربية في الحرب العظمى الثانية -Deutschlannds Araber pol- itik in Ziveiten Welt Krieg ط. برلين، الص ٨٠، ١٤٤، ٣٣٥) وهناك تفاصيل أخرى كثيرة ووثائق فيه حول ذلك.

(٣٦) عرفت بالأحرف الأولى الإنكليزية لعنوانها: C.I.A وهو اختصار لـ Criminal Investigation Agency

(٣٧) مزيج من الجزئين الأولين للكلمتي Communist International.

(٣٨) حناً بطاطو: المرجع السالف، الص ٤٤٥-٤٤٦. كان مصدره الرئيسي زكي خيربي (ت. ١٩٩٥). فضلاً عن نشرة داخلية غير مطبوعة للحزب الشيوعي بعنوان: (الجيش العراقي). لم يتسن له كما يبدو الاتصال بالشخص الثاني (يوسف متي) الذي أشار إليه الى زكي خيربي في معرض نشاطهما معاً في هذه الحركة.

نفذوا في تلك السنة الى أحشاء الجيش وقدميه، ووجدوا سبيلهم الى جنوده وضباط صفه، وكان الأمر بمحض صدفة كما تشير كل الدلائل.

مثل هذه الوقائع التي تقود الى تحولات خطيرة في تأريخ أي بلد - بالأثار العميقة التي تخلفها، لا يحفل المؤرخون العراقيون بها عادةً ولا يقيم الكتاب لها وزناً. وبسبب من هذا يبدو التأريخ في الكتب المسورة مقطعاً مبتوراً، بانتقالات فجائية في أحداثه لا مقدمات لها ولا أسباب. والصدف البحتة مكنتني من جمع أطراف لهذا الحدث العميق الأثر على صغر حجمه. فقد أدى الى اشتراع قانون بربري لمحاربة حرية العقيدة لا مثيل له سابق أو لاحق عند كل البلاد الناطقة بالعربية، وأقصد به القانون رقم (٥١) لسنة ١٩٣٨. الذي عُرف بقانون "مكافحة الآراء الهدامة".

وقد وردت هذه الحادثة بشكل استطرادي عابر في أوسع كتاب عن الحركة الشيوعية العراقية<sup>(٣٩)</sup> من دون ذكر أسباب ومقدمات.

في أثناء العمليات العسكرية التي استهدفت القضاء على ثورات الفرات الأوسط، هرب عدد كبير من الجنود وضباط الصف القبليين والتحقوا بصفوف الثائرين إلى جانب إخوانهم. وقد تمكنت السلطات العسكرية من إلقاء القبض على عدد منهم، تمت تصفية بعضهم بأمر من قائد القوات فور وقوعهم في يد الجيش، وأريد أن يضرب ببعضهم مثلاً رادعاً لرفاقهم. فحكموا عرفياً وعلقوا على أعواد المشائق في الديوانية والناصرية.

إلا أن الأثر كان معكوساً، وعاد بعض ضباط الصف والجنود الى ثكناتهم ومعظمهم من الشيعة وهم يغلبون حنقاً وحقداً على الحكومة وعلى طائراتها "الإنكليزية" التي كان لها الدور الرئيس في تمزيق شمل الثوار وتدمير القرى وإصلاء التجمعات بنيران رشاشاتها المميته. وكاد

(٣٩) (الطبقات الإجتماعية...: المرجع السالف، ص ٤٢٠). قال مؤلفه عنه أنه كان أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب في العام ١٩٣٥ (مجموعة زكي خيربي)، وهو مسيحي كلداني ولد في ١٩١٤ ببغداد، وكان طالباً في كلية الحقوق ولم يكملها. كما اعترف بأنه لا يملك معلومات عنه بعد انقلاب البعث في ١٩٦٣. أقول أما أنا فقد عرفت (يوسف متي) في الخمسينات بسبب دعوى قضائية كلفت بالرافعة فيها تخص أسرته. ولقيته مراراً قبل وهو يزاول أعمالاً حرة في بغداد مع أخوة له. ثم وجدته محرراً في جريدة (صوت الأحرار) اليومية الشيوعية حتى إلغاء إجازاتها في ١٩٦٢. والتقيتانياً في العام ١٩٦٨، في أرض كردستان المحررة، وهو قاضٍ. وفي أواخر العام ١٩٦٩ عاد إلى بغداد بعد تأكيد بالأمان من السلطة له. وأظنه توفي في منتصف السبعينات. وقد قصر علي أثناء وجودنا هناك تفاصيل كثيرة حول إلقاء القبض عليه وهو في مقعد الدراسة، وكانت حكوميته كانت تزيد عن سنتين، لا كما ذكر بطاطو. فقد ذكر لي أنه كان يرسف في الحديد طوال مدة حكوميته، وهي ميزة مدخرة للمحكومين بالأشغال الشاقة التي يشترط القانون أن تزيد عن ثلاث سنين. وأنه كان يعمل في مقلع حجري مع غيره من السجناء العاديين.

كل واحد منهم يفجع بقريب أو نسيب أو صديق في تلك العمليات. ولم يكن بينهم إلا من قد أصيب أهله وبنو عشيرته بحرق مزروعاتهم وإتلاف مواشيههم وتدمير قراهم.

من جهة أخرى - وبسبب التضخم الذي حصل في الجيش إثر تطبيق قانون الخدمة الإلزامية، كانت وزارة الدفاع بحاجة ماسة الى ضباط صف متعلمين، فبدأت تنشر إعلانات مغرية لطلاب أتموا المرحلة الابتدائية أو كانوا في المراحل الأولى من الدراسة المتوسطة، تدعوهم الى الالتحاق بدورات عرفاء فنيين ومدربين، تنتظرهم ترقيات سريعة قد تبلغ بهم مرتبة الضباط بعد اجتياز إمتحانات إن خاب أملهم في الوصول الى تلك المرتبة، لأن القوانين لا تسمح بترقيتهم الى أكثر من رتبة نائب ضابط حربي أو فني بعد خدمة قد تبلغ عشر سنوات. وفضلاً عن ذلك فقد ولدت فيهم عنجهية الضباط واحتقارهم شعوراً بالنقمة والندامة، ولم تكن قوانين الجيش تسمح لهم بالتخلص من عقودهم والإستقالة.

عرفتُ كل ذلك من اثنين من هؤلاء جمعني الصدفة بهما، ومن صداقة شدت عراها صدفةً أخرى بالسيد (يوسف متي) الذي ورد ذكره في كتاب (حنا بطاطو)<sup>(٤٠)</sup>.

حول علاقته الوثيقة بهذه الحادثة التي سأفصل فيها، حيث وردت في كتابه ببعض اختصار. كانت البداية أن أحد العرفاء وقع بمحض الصدفة على نسخة من جريدة الحزب الشيوعي (كفاح الشعب). وهذا العريف هو واحدٌ من بضعة عشر ناقماً كانوا يجتمعون سرّاً ويخططون لاغتيال رئيس الحكومة والوزراء والسفير البريطاني. وقد تمكن هذا العريف عن طريق صديق من العمّال النقابيين من الاتصال بيوسف متي ودعا الى حضور اجتماعاتهم السرية. فلبى الطلب متحمساً من جهة ومنذهاً من جهة أخرى. وقد أنبأني أنه حقق لقاء مع ليف منهم في الكرادة الشرقية بدار أحد العمّال، وأن الذي قاده إليهم هو عريف في الجيش كما ذكرتُ.

واتخذت هذه الحركة العفوية العاطفية منذ ذلك الحين طابع التنظيم الشيوعي على أساس

(٤٠) أطلق سراحهما في العام ١٩٤١، وواصل أحدهما (إحسان يوسف) وهو مسيحي موصلّي دراسته الثانوية والجامعية. وعين مدرساً للرياضيات، إلا أنه فصل في منتصف الأربعينات وأوقف مراراً بسبب عضويته في الحزب الشيوعي. ثم أعيد الى سلك التعليم بعد ١٩٥٨. أمّا الثاني (عزيز آل شيال العلم) وهو موصلّي أيضاً، فقد الفيتة في العام ١٩٥٩ مديراً للمال في قضاء تلعفر. حكم عليه بالإعدام في العام ١٩٦٣ من قبل المجلس العرفي العسكري بعد انقلاب شباط في واحدة من القضايا الجنائية التي أحيها الانقلابيون ضد خصوم حركة الشواف الانقلابية في العام ١٩٥٩. وأبدل الحكم بالسجن المؤبد. وكان بين من هرب في ١٩٦٧ من سجن الحلة وقد لقيته ثانية في المنطقة المحررة من كردستان بعد أن ضممتنا غرفة الإعدام وفي السجن معاً مدداً طويلة.

الخلايا وراحت تتسع تدريجياً. وكان مركزها فوج المخابرات في حيّ الكرنيتينة ببغداد. ثم تسللت الخلايا الى صفوف الفرقة الثانية في كركوك، مما دعا الحزب الشيوعي الى تشكيل لجنة عسكرية للعمل في صفوف الجيش، وراحت أدبيات الحزب تنتقل من يد الى يد وكان لا بد أن تفضح.

ذكر لي (عزيز) أن دائرة التحقيقات الجنائية كانت تتابع هذه الحركة وتعلم بأمرها منذ أولى مراحلها، إلا أن السلطة ووزارة الدفاع بصورة خاصة، إمّا أنها لم تكن في حينه تقدر خطورة الحركة، أو أنها كانت تخشى على سمعة الجيش. لكن عندما ضبطت عند أحدهم جريدة الحزب واعتقل، بدأت سلسلة من الإعترافات، هال الأمر في نظر السلطة، فقد كان ثم ما يزيد عن أربعمئة ضابط صف وجندي طالتهم تلك الإعترافات.

وأحيل ٦٥ منهم الى المحاكم العسكرية بتهمة تنطبق على المادة (٨٠) من قانون العقوبات البغدادي، وهي تهمة القيام بحركة مسلحة تهدف الى تغيير نظام الحكم والإعداد لها، وعقوبتها الأعدام.

وقد حكم على العرفاء (علي العامر وعبدالرحمن داود وضاهي فجر) بالإعدام رمياً بالرصاص ونال الباقون أحكاماً مختلفة تتراوح بين عشر سنوات وثلاث. وبين هؤلاء الآخرين الصديقان اللذان نوهت بهما<sup>(٤١)</sup> وأُفرج عن بقيّة المعتقلين المئات وطرد عدد كبير منهم. وحرصت السلطات على أن لا يذاع شيء عن تلك المحاكمات في الصحف وضرب ستار كثيف على إجراءات المحاكم العسكرية. كان المحكومون بالموت من الشيعة كما كانت غالبية المحكومين الآخرين، إلا أن الحكم بالإعدام أبدل بتدخل من الحاج جعفر أبو التمن الى الأشغال الشاقة لمدة ١٤ سنة وأطلق سراح الجميع في ١٩٤١.

وعلى اثر ذلك استنّ بعجلة شديدة قانون مكافحة الآراء الهدامة المار ذكره ووضع موضع التنفيذ في الأوّل من أيار من السنة عينها. ولم يمرّ على الأحكام التي أصدرتها المحكمة العسكرية أكثر من شهرين بدأت صفحة تنكيل سوداء في تاريخ العراق - بحريّة الفكر والمعتقد التي ضمنها الدستور العراقي للعراقيين.

(٤١) (فرسان العروبة)، ص٧١: رأينا توفيق السويدي يتقرّب إلينا ليحرضنا على إسقاط وزارة (زيد) بدعوى إنه كذا، ورأينا صبيح نجيب وإبراهيم كمال يشجعاننا على إسقاط (عمرو) لأنه كذا، ورستم حيدر شيعي ويشجع الشيعة، والآخر خائن وغيره شيوعي الخ... وهكذا خبرناهم واطلعنا على دخائهم وسرائرهم وعرفنا أن الأعيبههم ومناوراتهم ما هي إلا حزازات شخصية تحركها تعليقات نوري السعيد وخطط الإنجليز الإستعمارية الضارة بالمصلحة القومية..

في هذا العام كانت السلطة الفعلية والهيمنة التامة على جهاز الدولة بيد الضباط القوميين وزعامة العقيد صلاح الدين الصباغ، يقيمون الوزارات ويقبلونها وكلمتهم نهائية لمن يكون رئيس الحكومة ومن لا يكون وهم يعتمدون على الوحدات التي يقودونها لإملاء إرادتهم على الملك. وها هم أولاء يواجهون من داخل تلك الوحدات خطراً على تلك السلطة يتمثل في حركة غير مألوفة لا من ضباط أمثالهم، بل من مجرد جنود وضباط صف صغار الرتبة تعودوا منهم الطاعة والإنقياد لأوامرهم دون مناقشة، يتحركون وينشطون لا بوحى أوامر من ضباط أمثالهم، بل بإرشاد تماماً ووحى من حزب ذي طراز غير مألوف، عسكري الطابع سري، يختلف تماماً عن سائر الأحزاب الأخرى التي عرفوها<sup>(٤٢)</sup>. وسيلته الإقناع والدراسة لا يعد

(٤٢) في رحلة سريعة خلال تاريخ الحرب العراقية بعد قيام الملكية حتى ١٩٣٦. في البدء كان اتفاق بين وجهتي نظر الملك والندوب السامي على عدم اللجوء إلى مبدأ قيام الأحزاب السياسية، إلا أن التكتل والتحزب كان قد نشأ بشكل طبيعي منذ الشروع في عملية انتخاب أعضاء المجلس التأسيسي بقيام حزبي (النهضة) و(الوطني) اللذين أعلن عنهما في آب ١٩٢٢. وكانا غير مجازين وبقيتا يعملان بغطاء من السرية بعد إغلاقهما بأمر من الندوب السامي إثر نشاط بضعة أسابيع. إلا أن إجازتهما أعيدت إليهما بعد التوقيع على المعاهدة في ١٩٢٦.

الإ أن الندوب السامي في عين السنة ١٩٢٢ أوعز للسيد محمود ابن السيد عبدالرحمن النقيب رئيس الوزارة وقتذاك بتشكيل الحزب الذي عرف باسم (الحزب الحر) ليمثل وجهة نظر الحكومة، بعد إجازة الحزبين الأولين بشهر واحد. ولم يحصل على شعبية ولم ينضم إليه أحد خلاف مؤسسيه العشرة والنيف. فاختار إيقاف نشاطه في ١٣ من تشرين الثاني، أي بعد شهر واحد فحسب من تأسيسه. وفي ١٩ من آب ١٩٢٤ قام حزب حكومي ثاني باسم (حزب الأمة) ولم يتمتع بنفوذ جماهيري، ثم اختفى باختفاء الوزارة التي رعته وأمرت به. وفي ١ من أيلول ١٩٢٤ تأسس في الموصل حزب (الاستقلال الوطني) خصيصاً لغرض الدفاع عن عائدة ولاية الموصل. وفي ٢٥ من كانون الأول ١٩٢٥ نظم هذا الحزب ما دعي بجمعية الدفاع الوطني لهذا الغرض. وطواه النسيان فور تحقق ضم الولاية ومعه اختفت الجمعية.

وفي محاولة من عبدالحسن السعدون كسء وزارته رداءً ديمقراطياً، أسس في ٦ من تموز ١٩٢٥ (حزب التقدم) بمناسبة إجتماع أول برلمان عراقي. وفي عين الوقت قامت الجبهة المعارضة لحكومته بزعامة الهاشمي بتأسيس (حزب الشعب). هذان الحزبان وما سبقهما لم تكن أحزاباً حقيقية كذلك الأحزاب المألوفة في النظم الديمقراطية - تعمل بمناهج ثابتة طويلة الأمد، ونشاط وفق نظام، وإنما كانت تتشكل لأغراض برلمانية موقوتة بحتة وتستقطب حول شخصيات مؤسسيها، فهي أحزاب ورقية لا تتمتع بجماهيرية أو شعبية دائماً في الأعلى ولا تخلو قط من أغراض شخصية، إما للفوز بالحكم وإما لقلب الحكومة، تختفي سريعاً بعد أن تنهي مهمتها أو تحقق الغرض من وجودها، أو يثبت عجزها عن تحقيق أي من الهدفين.

وعلى هذا الأساس شكّل نوري السعيد في ٢٣ من آذار ١٩٣٠ حزباً سماه (حزب العهد) غرضه الحقيقي منه السعي لمصادقة البرلمان على معاهدة ١٩٣٠. فأسست الجبهة المعارضة بالمقابل (حزب الأخاء الوطني) انضمت إليه فلول من الحزب الوطني (١٩٢٢) الذي ورد ذكره. وبقي يرفع لواء المعارضة حتى فاز رئيسه ياسين الهاشمي في ١٧ آذار ١٩٣٥ برئاسة الحكومة. وحال بين هذا الحزب وبين الوصول الى الجماهيرية ألتناقض البادي بين مصالح زعمائه وتهاكهم على المناصب الوزارية. وقد قضى عليه انقلاب ١٩٣٦. وفي عين السنة قضى هذا الانقلاب على جمعية الإصلاح الشعبي التي كانت تنشط كحزب =

بمنصب أو فائدة شخصية. وإنما يطلب من أعضائه والموالين له التضحية والتعرض للأخطار والملاحقة والمكابدة في سبيل العقيدة والنشاط. جعل قانون مكافحة الآراء الهدامة من المبدء الشيوعي والتبشير به في القوات المسلحة جناية تصل عقوبتها الى الإعدام وهذا هو النص:

"١- كل من حبّد أو روجّ بإحدى وسائل النشر الواردة في المادة (٧٨) في هذا القانون (أي قانون العقوبات) أيّاً من المذاهب الإشتراكية البلشفية والشيوعية والفوضوية والإباحية وما يماثلها، التي ترمي الى تغيير نظام الحكم، والمبادئ والأوضاع السياسية للهيئة الإجتماعية المضمونة بالقانون الأساسي.

٢- يعاقب بالسجن أو الأشغال الشاقة لمدة أقصاها سبع سنوات كل من كان منتصباً لأحد الهيئات المذكورة. وبالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة للمشرّفين والمديرين والمتراسين. ويعقوبة الإعدام إذا وقع التحبيذ والترويج على أفراد القوات المسلحة..."<sup>(٤٣)</sup>

= سياسي. وفي ٢٧ من آب ١٩٣٤ أسس علي جودت مع رهط من الساسة (حزب الإتحاد الوطني) وقوامه أعضاء برلمانيون مشايعون للحكومة. وقد اختفى الحزب يوم استقالة رئيسه من رئاسة الحكومة في ٣ من آذار ١٩٣٦.

(٤٣) مرّ هذا القانون بالمجلس النيابي دون معارضة أو تعديل في صيغته أو مناقشة لمحتوياته. إلا أنه حظي - وهنا موطن العجب باعتراض على الصياغة السقيمة في مجلس الأعيان - من قبل الدكتور داود الجليبي أحد أعضائه. انتقد صياغته الركيكة ومطابيته وعموميته المقصودة ونبه الى خطورة التصديق عليه بشكله الحالي لأنه قد يوضع بيد حكومات مغرضة أو ناقمة تستخدمه للتكيد بخصومها السياسيين أو كسلاح قمع لمطالب شعبية عادلة. وركّز على عبارة (وما يماثلها) الواردة في صلب المادة متحدياً أن يأتي بأي قانون عراقي أو أجنبي استخدم مصطلحاً شبيهاً بهذا، متسائلاً عن أي شيء يماثل الشيوعية أو الإباحية أو الفوضوية. وقال إن هذه العبارة قد تجعل القانون أداة خطيرة بيد هيئة قضائية أو قاض متحيز ياتمران بأمر السلطة التنفيذية أو يخشيانها. بل هو تهديد فعلي لكل حزب أو هيئة سياسية تعارض حكومة قائمة. كانت مخالفة الدكتور الجليبي للقانون الذي جعل ذليلاً لقانون العقوبات البغدادي الوحيدة في مدى علمي التي سجلت في محضر جلسات المجلسين. وقد صدق حدى الدكتور الجليبي. إذ سبق الى المحاكم العرفية. وحكم بموجبه أناس كثيرون بتهمة الإنتماء الى الحزب الشيوعي. وهم إما شيوعيون أو إشتراكيون (غير بلشفيين) لا نشاط لهم بحسب ما تشترطه المادة. فضلاً عن أعداد كبيرة من الوطنيين الكرّد سيمًا من أعضاء الحزب الديمقراطي الكردي، أو حزب (رزكاري) الذي سبقه.

وقد تجنب القانون بصراحة مخجلة، الأنظمة الأخرى التي كانت ترمي بجوهرها الى تغيير نظام الحكم وأعني بها النظام النازي (القومية الإشتراكية) والنظام الفاشي. والظاهر أن "الإباحية والفوضوية" التي وردت في القانون أيضاً للشيوعيين دون غيرهم. وعلى سبيل المثال إن مذهباً أو حركة إباحية إنتشرت في كردستان وبلغت أوجها في العام ١٩٤٤، تزعمها الصوفي (عبدالكريم شهدهل). فقد شوهد أتباعه يدفنون أجسادهم حتى الأعناق في أكداش من روث الحيوانات وهم يتلون الأدعية. ووجد بينهم نوع من شيوعية الأموال والجنس، وكانت جماعات منهم رجالاً ونساءً تتجول فوق الروابي والتلال بعد حلول الظلام، رجالهم في ثياب النساء وجليهن. كما كانت حفلات الإستحمام المختلطة في المساجد والجوامع من مظاهر طقوسهم، وكثيراً ما كانت تغطس الكلاب في الحوض مع المستحمين. كما كانت أوعية البول تنتقل من =

وأرجو أن لا يتوهم القاريء بأن شنّ الحرب الرسميّة على اليسار الإشتراكي والديمقراطي التقدمي منح سواد القوميين بالأراء الجديدة التي يبشرون بها فرصة للنفوذ الفكري العميق في الأوساط الشعبية. فقد كانت قضايا العروبة عندهم تحتل المقام الأول بمجرد شعارات لا غير. وافتقروا الى برنامج محلي كذلك الذي عرضته جمعية الإصلاح الشعبي. ثم ان اللجنة ضد الإمبريالية التي انبثقت عنها الحزب الشيوعي، كانت تعني بدرس المشاكل الإجتماعية والإقتصادية والوضع الطبيعي الطبقي التحكيمي وافتتات السلطة الحاكمة على الدستور وحقوق المواطنين مثل ما ورد ذكره سابقاً.

ولم تتغلغل أفكار القوميين العروبيّة في أوساط جماهيرية. وبقي الإعجاب الشعبي بما حققته ألمانيا وإيطاليا بنظامها القومي - مجرد إعجاب وحماسة من قبيل ما تندفع إليه أهواء العامّة بحكم المظاهر الخلابية، وهي أهواء موقوتة لاتتعدى القشرة والبشرة عرضة للزوال والإستبدال.

لم يكن الجيل القوميّ الناشيء قد تزود بمادة قادرة على النفوذ الى العمق وبقي مستقطباً حول (نادي المشئي) في بغداد، ولم يحاول النزول الى الشارع بحزب سياسي أو منهاج إصلاحي، واعتمد على ضباط الجيش القوميين وشخص الى الجيش ووضع فيه آماله في تحقيق شعاراته الثلاثة.

= يد إلى أخرى. وبلغ الأمر حدّاً أن اقتحمت جماعة منهم مسجد (سهركهلو) وأحرقت علناً نسخاً من القرآن. وتطورت الحركة وانتشرت ولم يعد في الإمكان التستر عليها. وتخرج موقف متصرف (محافظ) أربيل (سعيد قزان) وهو من ألمع الإداريين النزيهين القلة الذين أنجبتهم البلاد وأمضاهم عزيمة، فبادر باعتقال (مامه رضا) خليفة مؤسس الحركة (عبدالكريم شهدهله) وبعث به مخفوراً الى العمارة وأودع معتقل السياسيين الذين جرى حجزهم بعد حركة ماميس. فما كان من أتباعه إلا وهجروا قراهم بالمئات العديدة من نسائهم وأطفالهم وانطلقوا في مسيرة طولها خمسمائة ميل للحاق بدليلهم وهو في منفاه. وبصعوبة كبيرة أفلحت الشرطة في إيقافهم بكروك. ولم يثبط عزيمتهم على مواجهة دليلهم رغم الجوع والإرهاق إلا نزول الحكومة عند رغبتهم بإعادة (مامه رضا). وتحديد محل إقامته في السليمانية ليتسنى لأتباعه زيارته (للتفاصيل انظر: كرد وترك وعرب، من ترجمتنا، ص ١٨٧ وما بعدها).

## ملحق

هذا المقال القصير لا يحتاج منّا الى تعليق وما احتواه لم يكن سراً في أي وقت من الأوقات:

# أستناداً الى وثيقة من عهد الانتداب شخصيات فلسطينية تاريخية باعت الأراضي لليهود

الفلسطيني الى مفاوضات لندن عامي ١٩٣٠ و١٩٣٩، باع اراضي في القدس اقيمت عليها لاحقاً الجامعة العبرية على جبل سكوبس.

ومن الناصرة حيث مقرها، قالت الصحيفة ان ابراهيم الفاهوم باع ٨٠ دونما للوكالة اليهودية في منطقة الناصرة بين ١٩٤٤ و١٩٤٥ الى جانب يوسف وتوفيق الفاهوم واولادهما الذين باعوا مساحات غير محددة من ضواحي الناصرة.

وتضم وثيقة «الإباء القابضون» ايضا اسم مؤسس الصندوق العربي وعضو الهيئة العربية العلنا يعقوب الغصين الذي باع مساحات غير محددة من الاراضي في «نس تسيونا» في يافا واشترك مع محمد توفيق الغصين ببيع ٣٠٦ دونمات في بيت حانون قضاء غزة عام ١٩٤٦ مقابل اربعة الاف جنيه فلسطيني و٥٠٠٠ اخرى على شكل قرض من الوكالة اليهودية.

وتعضي القائمة لتقدم اعضاء في المجلس الإسلامي الاعلى والهيئة العربية العليا واللجنة التنفيذية العربية وهي هيئات كانت تكلف لتمثيل الفلسطينيين سياسيا آنذاك، اضافة الى رؤساء بلديات وممثلي مناطق ومحافظات واعضاء شاركوا في مؤتمرات عالمية بحثت قضية فلسطين.

اسماء محمد طاهر الحسيني وهو والد الحاج امين الحسيني مفتي القدس الشهير الذي حارب الانتداب البريطاني وقاد الثورة الفلسطينية في الثلاثينات. وكذلك موسى كاظم الحسيني جد فيصل الحسيني (الأمه) المسؤول عن ملف القدس في منظمة التحرير، وخمسة اسماء اخرى من العائلة نفسها اضافة الى اسماء من عائلات العلمي والنشاشيبي وعبدالهادي والغصين وبسيسو الفلسطينية العريقة.

ومن ابرز هؤلاء موسى العلمي، احد اهم الشخصيات الفلسطينية التاريخية وعضو الوفد العربي الى مؤتمر لندن عام ١٩٣٩ والذي تقول الصحيفة انه باع ٩٠٠ دونم من اراضي بيسان عام ١٩٣٠.

.. والنشاشيبي

وهناك راغب النشاشيبي، رئيس بلدية القدس ١٩٢٠ - ١٩٣٤ الذي شغل منصب رئيس حزب الدفاع الوطني، والذي قالت الصحيفة انه باع مساحات غير محددة من اراضي يافا اضافة الى ١٢٠٠ دونم باعها عن طريق عمر البطار الذي تولى رئاسة بلدية يافا عدة مرات وعمر بك السيد قرب يافا، في اواخر صيف ١٩٣٤.

وتقول الصحيفة ان النشاشيبي الذي كان عضوا في الوفد العربي

الناصرية - اذ غيب - نشرت صحيفة «فصل المقال» الاسبوعية الصادرة في الناصرة، في اسرائيل امس قائمة اسنتها لوثيقة رسمية من عهد الانتداب البريطاني تضم اسماء قادة فلسطينيين تاريخيين قالت انهم باعوا اراضي فلسطينية للوكالة اليهودية بين الاعوام ١٩١٨ - ١٩٤٥.

ونحت عنوان «الإباء القابضون» نشرت الصحيفة التي يملكها عضو الكنيست العربي الاسرائيلي عزمي بشارة (يساري) قائمة جزئية باسماء ٥٤ شخصية فلسطينية «باعت اراضي لليهود» وقالت انها حصلت عليها من الاردين.

واوردت الصحيفة في مقدمة التقرير ان «هذه تفاصيل جزئية للغاية حول دور قيادات وطنية فلسطينية تاريخية في تسريب اراضي فلسطين للوكالة اليهودية، قبل وقوع نكبة فلسطين الاولى عام ٤٨». وازدادت ان هذه الوثيقة «تقدمها فصل المقال الى قرائها الاعراء بمزيد من الاسى، اياما معوية فقط. قبل حلول النكبة الثلاثين لكتبة فلسطين الثانية في ٥ يونيو ٢٧». اي حرب يونيو التي احسنت اسرائيل خايتها القدس الشرقية والصفه الغربية وقطاع غزة وشبه جزيرة سيناء وهضبة الجولان.

محمد طاهر الحسيني

وموسى العلمي

وتضم القائمة على وجه الخصوص

## الفصل الثامن عشر

حركة ايار (مايس) ١٩٤١ . محاولة وضعها في المكانة التاريخية الحقيقية التي تستحقها . عصبة العسكريين والمدنيين السبعة (التسعة؟ العشرة؟) . الاتصال بدولتي المحور ألمانيا وإيطاليا . سياستهما . التوصية بتجنب عمل عسكري في الشرق الأدنى باعتباره عملاً مخطئاً بخططهما العسكرية . عشوائية صلاح الدين الصباغ وغبأؤه العسكري . الجيش العراقي يتلقى ضربات قاضية من الجو . اضطرار البريطانيين الى استخدام القوة . كم هي مكاسب القوميين وكتابهم من الإصرار على نعت حركة مايس بالثورة التحريرية ضد الاستعمار البريطاني؟ رشيد عالي وفاضل الجمالي . مفاوضات سرية تقوم بها حكومة رشيد عالي في برلين . تدخل الحركة في موعد غزو الاتحاد السوفييتي . الحاج أمين الحسيني يغدو المرجع السياسي الأعلى في العراق . الخلاف المصطنع حول تفسير بنود المعاهدة العراقية البريطانية . ضجة صحافية ، اجتماعات جماهيرية وخطب حماسية ضد الانكليز . راديو بغداد في حملة قومية عنيفة على الحلفاء . حكومة الكيلاني تفشل في الحصول على تصريح الماني يؤيد استقلال البلاد العربية التام ووحدها الشاملة . إيطاليا تعمل للحلول محل فرنسا في سورية ولبنان . ممثل المفتي كمال عثمان حداد في برلين . جواب وزارة الخارجية الألمانية مخيب للأمل . دولتا المحور تلعبان بالأهماني القومية العربية . محادثات بين الكيلاني وصلاح الدين الصباغ . مذكرات علي محمود الشيخ علي . سير العمليات وهروب زعماء الحركة . تسللهم الى ايران عبر الحدود وتبادل التهم والشتائم فيما بينهم

ليس من اغراض هذا الفصل استعراض تاريخي - سياسي وعسكري - جديد لحركة أيار التي مازالت تعتبر الى يومنا هذا عند القوميين العربيين مصدر وحي وإعجاب ومدرسة خبرة وتجارب للنضال القومي . فما خلفته لنا عنها أقلام الكتاب والباحثين ومن جملتهم مدونو المذكرات الشخصية ، أكثر من الكثير ومن بين المؤلفات والكتب العديدة التي اوقفت لها جانباً من مجهودي ، هناك ما لأحصى من الأبحاث والمقالات والفصول الاستطرادية المنشورة في

الصحف والمطبوعات الدورية التي تناولت الحركة من هذا الجانب أو ذاك .

وما أرمي اليه هنا محاولة قد تكون شاذة في نظر المتحمسين لها والمكبرين لزعمائها لوضع الحركة في المكان الذي تستحقه من مسيرة القومية الجهادي والفكري وفي تاريخ العراق الحديث خصوصاً ، مجتهداً ما وسعني ذلك في إعانة قارئني على رسم صورة قريبة من الواقع لزعماء الحركة وقادتها - السبعة أو التسعة أو العشرة ، الذين قاموا بمصير البلاد وأرادوا إقحامها في تلك الحرب العظيمة التي شملت معظم العالم وقتذاك عن سبيل مواجهة عسكرية اتفق كل من قرأت لهم عنها - انها مواجهة فاشلة يأسسة منذ البداية . لم تكن ضرورة قومية أو وطنية تدعو لها ولا مكسب يرجى من ورائها ، وقد اضطر كل من مجدها وأشاد بسمو مقاصدها ونبل دوافعها مبدئياً على هذه النتيجة . إلا أنهم لم يخصصوا من مجهوداتهم القلمية حيزاً يذكر لاستقراء الآثار التي خلفتها في المسيرة القومية وفي مستقبل العراق السياسي . ولا تطرقوا الى الخسائر في الارواح والممتلكات نتيجة لهذه الحركة .

وفي هذا الفصل سيتاح لي إشراك القاريء في بعض الإنطباعات والوقائع التي شهدتها الفتى ابن التاسعة عشرة بعينه خلال تلك الفترة المثيرة ، معززة بما جمع من معلومات واختزن من انطباعات عن اولئك الزعماء الذين تحكمت قراراتهم في مصير الملايين فترة من الزمن عميقة الآثار على قصرها .

هذه العصبة المؤلفة من السبعة أو التسعة أو العشرة (بحسب ذوق المؤرخ واختياره) بدت من الأول وكأن أفرادها من اولئك الذين لايبالون بما سيحكم التاريخ عليهم ، ولايهتمون بقليل أو كثير بما يهتم به عادة العقلاء من أبناء البشر ، بما سيخلفونه من ذكر لذويهم وللمجتمع ولايملكون أي شعور بتلك المسؤولية الأدبية التي حملت القائد الفاتح والاداري الكبير العربي الشهير (المهلب ابن أبي صفرة الأزدي) على القول:

لو أعطيت ما لم يُعْطه أحدٌ، لأجبت أن تكون لي أذن أسمع بها ما يقال في غداً  
إذا متُّ. (١)

وما أدري الى متى سيواتي ذكراهم الحظ في اولئك الكتبة الباحثين الذين يصرون حتى الآن على نعت حركتهم بالحركة التحررية ويخلعون عليهم صفة البطولة ويعطرون ذكراهم بنعوت

(١) ابن خلكان (٩-٨٣)هـ (٦٣٠-٧٠٢م)، وفيات الأعيان: والمهلب قائد عربي ولي البصرة وقاد جيوش الأمويين خلال عشرين عاماً في حرب مظفرة ضد الخوارج والازارقة منهم. ومما يذكر أن القوميين في بغداد اطلقوا اسمه على ثاني نادٍ من نواديهم.

العروبيون يبذلون جهوداً صادقة مستميتة لإبعاد الحركة القومية عن كل ما يصلها بالنازية والتفكير العقائدي المماثل. وفي جهودهم الحارقة التي بذلوها، لإبعاد الحركة عن النازية، لم يجدوا في سبيل هذا غير إقامتهم الحجة بأن ما حصل في ١٩٤١ لم يكن بإيعاز من برلين أو روما، ولا باتفاق بين زعماء الحركة وبين حكومتي برلين وروما، ولا علاقة لها استراتيجية أو تعبوية بعلميات المحور العسكرية التي كانت تجري في اليونان وشمال أفريقيا، بل هي حركة وطنية قومية تلقائية ضد المستعمر ساندها الشعب العربي في كل مكان.

لم يكن هناك ضرورة لإقامة هذه الحجة، مثلما ليس هناك ضرورة لترديدها والاستشهاد بها، فلا أحد يريد أن يعزو ذلك الى الحركة، وكل من عالج قصة الحرب العظمى الثانية أجمع بعد دراسة مستفيضة للوثائق أن دول المحور لم تكن راغبة في حركة عسكرية ضد الحلفاء في الشرق الاوسط وقد تلجأ بسببها الى الإخلال بجدول خطط الغزو والعمليات العسكرية التي وضعتها القيادة الألمانية العليا منذ زمن بعيد، ومن ضمنها غزو الإتحاد السوفياتي. فقد كان جُلّ ما أملتته وزارات الخارجية والدعاية الألمانية من مجهودات السنين السبع في تطعيم الذهنية القومية العروبية بأفكارها ونظرياتها هو الوصول بروح العداء للبريطانيين والفرنسيين الى الحد الذي يؤمن لهم وفي الوقت المناسب إحداث اضطرابات داخلية وخلق المتاعب للدولتين صاحبتي النفوذ والإنتداب هناك، وتهيئة الجو للتدابير والخطط السياسية التي اعتزمت الدولتان تنفيذها في البلاد الناطقة بالعربية بعد النصر النهائي.

وقد أدرك زعماء حركة (مايس) هذا الموقف الألماني- الإيطالي الصريح المحدد قبل (مايس) بحوالي السنة وضاعت مساعيهم في زحزحة المحور عن موقفه هذا، أي الحصول على ضمانة الدعم العسكري والسياسي في حالة (العدوان البريطاني). وكمن مرة كان موفدوهم يعودون من برلين وروما وقد فشلوا في انتزاع تعهد واحد بالدعم أياً كان شكله.

وهذه المذكرات التي خلفوها، تُجمع كلها على فشلهم في مساعيهم ولا حاجة بنا قط للاستنجاد بالركام الهائل من الوثائق الألمانية وغير الألمانية التي اجتمعت لتأييد ذلك. وسنقتصر على ما علمه زعماء الحركة في وقته.

بافتراضنا شرف القضية التي عملت لها حركة (مايس) ونبل القصد في زعماء لها زجوا العراق في مواجهة سيئة العقبي، أيكفي هذا لوصفهم بما وُصفوا به؟ ومتى كان شرف القضية ونبل المقصد عذراً لتبرير الفشل والإخفاق نتيجة التهور وسوء التقدير والإندفاع الطائش الذي لا تُحسب عواقبه؟

لن احاول كثيراً في مجال وضع كارثة ايار ١٩٤١ موضعها الذي تستحقه في التاريخ، فقد تم ذلك منذ وقت طويل رغم الجهود التي تبذلها طائفة من الكتاب والباحثين الناشئين في العراق خريجي معاهد نظام البعث من متابعي نهجه القومي والسياسي السريع التقلب.

في العراق، دأب هذا النظام على تشجيع العبث بوقائع التاريخ وتزويرها بجرأة منقطعة النظير كلما وجد ضرورة تقضي بمتابعة هذا النهج أو ذاك<sup>(٢)</sup>.

وفي أيامنا الأخيرة وبسبب من هذا، وجدنا أسياً جديداً تشهر في العراق دفاعاً عن كارثة ايار (مايس) وعن سمعة قادتها ومدبريها. مثلما راقبنا اكاليل جديدة تضفر وتكسى لحم المجد، ودماء القدس.

عندما بدأت الفظائع التي ارتكبتها النازية خلال فترة سيادتها القصيرة، تنكشف تباعاً للعالم والحقائق تنجلي عن الجنايات التي ارتكبت بحق البشرية، راح الكتاب القوميون

(٢) اصدر في العراق ١٩٨٦ ما يدعى (مركز البحوث والمعلومات) كتاباً بهذا العنوان: العراق وسوريا ١٩٤١- دراسة وثائقية في الأبعاد القومية والسياسية لثورة نيسان - مايس في العراق خلال الحرب العالمية الثانية. وهو ترجمة كتاب قدمه مترجمه الدكتور مظفر الأدهمي أستاذ التاريخ المساعد في كلية التربية بجامعة المستنصرية صدره بمقدمة طويلة ناهزت صفحاتها الستين. ونسي ان يذكر اسم المؤلف (جافر ورثر) وعنوان الكتاب باللغة الأصلية التي أُلّف بها وهي الانكليزية، كما نسي ان يثبت عنوان ناشر الكتاب وموضع طبعه. ولانريد ان تذهب بنا الظنون الى أن هذا الإغفال كان متعمداً يُقصد به وضع العراق أمام الفضولي او الشاك في أمانة الترجمة. ولقد شدد المترجم في مقدمته على هذه النقطة وكأنه اكتشف سراً خطيراً، إذ قال: "إن الثورة لم تقم بأوامر من برلين أو روما ولا علاقة لها بعمليات المحور العسكرية في البلقان وشمال أفريقيا". وليس في متن الكتاب المترجم ما يضيف شيئاً جديداً الى المعلومات العامة التي أصبحت حقائق تاريخية منزلة منذ نصف قرن من الزمن. والظاهر هو أن غرض الترجمة كان مجرد التذكير بوقائع تتعلق بمقدمته المناسبة للتأكيد على ماثرة بعثة عابرة غابرة فيها، إذ قال: تعد الثورة القومية التي قامت في العراق سنة ١٩٤١ واحدة من رموز التصدي الذي قاده حركة القومية العربية ضد البريطانيين... وقد ارتايت ان اطلق على ثورة ١٩٤١ تعبير ثورة نيسان - مايس رغم أن بعض الكتاب وصف الثورة بأنها (حركة) وكانوا يقصدون بذلك بداية الثورة عندما قامت حكومة الدفاع الوطني. بينما أطلق عليها باحثون آخرون اسم الحرب العراقية - البريطانية، وقصدوا بذلك التحدي العربي للغزو البريطاني في مايس. لكننا إذا تناولنا الموضوع بدون هذه التجزئة وتتبعنا مراحل الثورة منذ التفكير فيها وحتى نهايتها، لوجدنا أنها وحدة متماسكة لا يمكن فصلها. فهي ثورة الضمير العربي المعبر عن تطورات الأمة نحو الوحدة العربية والحرية. وحين لم يتهدأ للثورة أن تقوم في فلسطين أو شرق الاردن، انتقلوا بها الى بقعة أخرى من الأرض العربية فبدأوا يهيئون لها منذ ١٩٤١... والدور البارز فيها الذي لعبته حركة الإحياء العربي في سوريا، والتي عُرفت فيما بعد باسم حركة البعث العربي ثم حزب البعث العربي الإشتراكي (ص١، ١٢، ٤٩، ٥٠)». نقول: نعتقد ان هذا هو الغرض الأصلي للمترجم من إصداره الكتاب.

يقول أحد الضباط الذين ساهموا في الحركة، واصفاً ما حصل في مرتفعات الحبانية:

"لم يسبق في تاريخ الحروب أن يزج قائد بقواته في جحيم من النيران ثم يبقئها طعمةً لتلك النيران، التي ظلت مشتعلة أربعة أيام بلياليها وهي تلتهم قواته وسلاحه دون أن يحرك ساكناً ودون أن يصدر أمراً أو يتخذ أية إجراءات، أي إجراء كان، هجوماً كان أم انسحاباً أم تسليماً، لا بل وكان الإجراء الوحيد الذي اتخذته (يقصد كبير العقداة الصباغ) هو زج قوات جديدة في الميدان دون هدف ودون أمل. ولو لم يحدث ما حدث لقطعات الجيش العراقي على هضبات الحبانية، لما صدق إنسان هذه القصة المفجعة التي عشنا مآسيها. وما أن انتهى الأسبوع الاول حتى صار واضحاً للعيان أن الحرب قد حُسمت لصالح الانكليز، وأن سقوط مدينة بغداد صار قاب قوسين أو أدنى." (٣)

ويتفق معه وزير من وزراء حكومة الدفاع الوطني وهو غير عسكري:

لم يتخذ اثناء الحرب كلها قرار سليم واحد. فقد أخذ (يقصد الصباغ) يتصرف أو يتخبط بأمر الحرب بمفرده دون علم رئاسة أركان الجيش بها أو استشارتها في أمر من أمورها عظم أم هان. ويدا من الايام الأولى من حرب المواجهة من الوجهة العراقية ولا هدف عسكرياً أو سياسياً واضحاً لها. وإذا ما انعدم الهدف يغدر وضع الخطط عقيماً ويسود الإرتجال والتخبط والفوضى، وقد اذهلت الحرب قائدها العام عن أبسط القواعد العسكرية، فترك جيشه طعمة للنيران.

والمراجع القومية كافة تجمع أو تكاد على الفقر الذهني العسكري والحماقات الاستراتيجية والتعبوية التي اقترفها هؤلاء، ولا يقوم خلاف بين كتابها إلا عند توزيعهم تلك الحماقات على

(٣) الحرب العراقية - البريطانية ١٩٤١ دار الطليعة بيروت ١٩٦٩. كان الرائد الركن محمود الدرة مؤلف الكتاب معاوناً للعقيد الصباغ في تلك الفترة. وهو يشير الى عاقبة عملية تطويق القوات العراقية لقاعدة الحبانية الجوية التي تعرف أيضاً بالقرية المنضمة اليها (سن الذبان). وفي تقرير للقوة البريطانية (دعيت فيما بعد بالجيش العاشر، ويرمز اليها عادة بالاحرف الأولى من عبارة (Persia and Iraqi): أي Pai-face وهو ملخص لعمليات القوات العسكرية البريطانية في العراق وايران) جاء هذا: "إن القاعدة المطوقة كانت تحميها قوة تتألف من (١٢٠٠) جندي من الليفي التابع للقوة الجوية الملكية. نصفهم من العرب والكرد والنصف الآخر من الأشوريين المسيحيين الذين لا وطن لهم. وبالرغم من المخاطر التي كانت تنتظرهم، فقد اقاموا على ولائهم للقوة الجوية ولقضية الوصي على عرش العراق، محاربون اشداء لا يعرفون للخوف معنى ثبتوا في المعارك بأسلحة تقليدية من بنديات ورشاشات لويس، يفتقرون الى السلاح الحديث الذي يتزود به عادة أي فوج مشاة عصري. ويعدم هذه القوة (٣٥٠) جندياً بريطانياً."

الرؤوس. والقادة انفسهم يتبادلون اللوم فيما بينهم ويقذف احدهم الآخر بشتى النعوت القبيحة وبكل نقيصة يجدها الآخر في القاذف. ويطول بنا الإستشهاد واستقصاء أقوال زيد عن عمرو أو بكر عن خالد. (٤)

وهناك منها الكثير. وسأقتصر إلى مثلين: أحدهما لقائد عراقي في قائد غير عراقي، والآخر لزعيم قومي غير عراقي في زعيم قومي غير عراقي:

يصف الصباغ زميله وصديقه الحميم العقيد كامل شبيب:

"عربي الأصل والشعور، يمقت الإستعمار والإنكليز، لكنه اناني يغدر بصاحبه، وينقلب حية سامة في أقل من لمح البصر اذا أوجس خطراً. لأنه ساعة المحنة ثعبان جبان وبعد النصر غضنفر هصور." (٥)

ويصفه علي محمود الشبيخ علي الوزير في وزارة الكيلاني:

"ان ضربة (سن الذبان) قد أثرت على نفسية هذا القائد كامل شبيب تأثيراً فظيماً حتى تركته لا يبدي ولا يعيد. ولقد رأيت في مقر القيادة الغربية قابلاً في زاوية في غرفة صلاح الدين منفوش الرأس جاحظ العينين باهت اللون لا يعقل ما تحدثه به ولا يحير جواباً إن ألقبت عليه سؤالاً من شدة الذهول. وقد كانت الأوهام تنتابه انتياباً مروعاً، حتى انه قفز فجأة الى الشباك وأخذ يسدل الستائر بإحكام

(٤) لعلك واجد كثيراً من هذا في كتاب الاستاذ (عبدالمجيد حسيب القيسي): «التاريخ يكتب غداً: هوامش على تاريخ العراق القريب»، دار الحكمة لندن ١٩٩٣ وهو كتاب يقع في زهاء ثمانمائة صحيفة كبيرة، مؤلفه هو من القلائل الذين وجدوا في انفسهم الجراءة والصراحة لوضع نكبة مايس الوطنية في المنزلة الحرة بها من تاريخ العراق الحديث، وربما كان السباق الوحيد الذي قلب صحائفها الدامية بيد خبير عليم مستعيناً فحسب بذكرياته وصلاته ومستشهداً بالقليل من المذكرات والأبحاث التي تركها بعض المشاركين النادمين فيها. الف كتابه هذا بمثابة رد على كتاب الفه الدكتور نجم الدين السهروردي عن حميه رشيد عالي بعنوان: التاريخ لم يكتب غداً وهو كتاب مضحك وقد نوهنا به يذالك منه فخر مؤلفه بعلاقته الصميعة بالنازية وذكر ما يخجل أي كاتب عصري يحترم نفسه عن تدوينه، ولاسيما إشارات بموقف الكيلاني من النظامين النازي والفاشي، وعلاقة الصداقة بين الفوهرر والدوتشي وبين حميه، ان يعدها من قبيل التشريف وعلو المكانة. في حين يساق اليوم الى المحاكم في ألمانيا وغيرها كل من ضلع بجرائم النازيين وينال عنها في محاكم الدول احكاماً ثقيلة. ويجمع السهروردي الى هذا جهل عجيب بأحداث العراق من تاريخه القريب لا يختلف فيها احد، بعناد غريب واعتزاز الجاهل بسعة معرفة يتوهما في نفسه. تصدى الاستاذ القيسي لكل هذا ببراعة واسلوب عربي محكم وتحليل صائب منطقي كان من دواعي ارتياحي اني لا انازع القيسي مقاماً ولا مباراة في ميدانه. فما ارمي اليه يختلف عما رمى، ومجالي قاصر على متابعة التأثير المدمر لكارتة مايس على مسيرة القومية العربية.

(٥) فرسان العروبة في العراق (ط. الشباب العربي) دمشق ١٩٥٦ ص ٢٢.

خشية أن تهاجم القوات البريطانية، فتلقي قنابلها على الغرفة التي يقيم فيها جنايه." (٦)

وبالنسبة فهذا القائد هو الذي حمل زملاءه على الإعتصاب في معسكر الرشيد وأحدثوا انقلاباً جديداً وأرسلوا الوحدات العسكرية لاحتلال العاصمة وتطوير البلاط من أجل إلغاء امر نقله الذي مزقه ووطنه بحذائه حين سلم اليه.

ويقول كامل شبيب بدوره عن رشيد عالي والمفتي والصباغ في رسالة بعث بها من طهران الى صديقه العقيد سعيد يحيى يطلب فيها التوسط له:

"لم نألوا (نأل) جهداً في الحيلولة دون طيش الجماعة (يقصد العقداة الثلاثة الآخرين) واندفاعهم مع المفتي ورشيد، وكذلك توقعنا أنا وانت الكارثة التي حلت بالبلاد وبنا من جراء تصرفاتهم الفردية... لكن شاء القدر أن نلوث بأقذارهم التنتنة. ورشيد عالي والمفتي القبيح تركونا. وثبت للاخوان أنهمما لعبا علينا وعلى البلاد." (٧)

وأورد (البراك) (المثل الثاني) وهو نص مقابلة أجراها للزعيم القومي أكرم الحوراني احد مؤسسي الحزب العربي الإشتراكي، وهو واحد من المساهمين الفعليين في حركة (مايس) إذ أقبل من سورية في حينه مع فريق من المجاهدين لقتال البريطانيين:

كان موقف الحسيني عامل ضغط للقائمين بالحركة وليس دعم (كذا)، حيث كان مندفعاً لمحاربة الإنكليز بأي شكل من الأشكال، وأهم هذه الدوافع هو فقدان موقعه كقائد ديني في فلسطين ويريد الحفاظ على موقعه دون دراسة الإمكانيات الموضوعية السياسية والقوة العسكرية ومراعاة الموقف الدولي. وكان مندفعاً بدون تحفظ مع الألمان ليس حباً بالنازية، وإنما كرهاً بالإنكليز واليهود. والحسيني هذا كان وطيد العلاقة مع الكتلة العسكرية التي حاربت الإنكليز في ١٩٤١ وقام بدور تعريفهم بالغيلاني." (٨)

كان أكرم الحوراني نفسه عاجزاً أيضاً عن دراسة الإمكانيات الموضوعية السياسية والقوة

العسكرية، والموقف الدولي عندما أقبل مع المنتوعين القوميين السوريين لمساندة حركة (مايس) ومشاركة الجيش العراقي الباسل في شرف الكفاح ضد المستعمرين البريطانيين، كما صرح لجريدة البلاد عند وصوله. وربما أدرك فيما بعد سخافة ما فعل.

\*\*\*

تُستخدم في البلاد الناطقة بالعربية بنطاق واسع تلك الحيلة التاريخية العريقة عراقية التاريخ القديمة قدم المجتمعات السياسية، وأقصد بها محاولة اختلاق العلل وتلمس المعاذير لتبرير الفشل الناجم عن القصور الذاتي. واستخدم التبرير ديماغوجياً وغوغائياً لكسب العطف الجماهيري وتحويل الرأي العام من ناقد متممّر الى مشايخ مناصر. ويتم بهذا الاسلوب تبرئة الفاشل والإشادة بفشله واسدال الستار على الجنايات السياسية والكوارث العسكرية وإنزالها في التاريخ بالشكل الذي يريد الجناة الفاشلون أن تبدو به، ويندفع الكتاب في إثرهم لإنزالها منزلة المسلمات، بدعوى مساندة الجماهير وحكمه عليها. وتلك حقاً وكما يقول "ليفيوس" (٩):

هي من طبيعة الجماهير تجدها إما عبداً ذليلاً وإما سيداً قاسياً. إما متنصف الطريق الى الحرية، فهي عاجزة عن حيازته أو المحافظة عليه بأي قدر في احترام للإعتدال أو للقانون، بل وأكثر من هذا فمن النادر أن تفتقر الجماهير الى رجال يوجهونها الى ما يريدون أن تعتنقه، أو تقدم عليه، والى الحد الذي قد يوظفون فيها الميل والإندفاع الى سفك الدماء وارتكاب أعمال وحشية في نفوس أولئك الذين طبعوا أصلاً على الرغبة الشديدة في ممارسة أعمال القتل والتعذيب."

على هذا التقويم أطلق على أحداث (مايس) صفات رائعة جميلة، فسماها بعضهم بالحركة التحررية في حين أدت الى فرض مزيد من السيطرة الأجنبية على البلاد، وأعطيت العنوان الفخم الحرب العراقية - البريطانية، في حين لم يكن هناك حروب ومعارك بالمفهوم العسكري المتعارف عليه. وإنما كان هناك مجازر ومسالخ بالعسكريين والمدنيين نتيجة قصف جوي شديد حسم القضية في بضعة أيام تقل عن أسبوع. ومنحها كاتب متأخر العنوان المهيب "رشيد عالي الغيلاني والحركة القومية ١٩٣٩-١٩٤١" (١٠).

(٩) تيطس ليفيوس Titus Livius (٩٠ق.م-١٧م) من كتابه: تاريخ روما. مؤرخ روماني لم يصلنا من كتابه هذا ذي المجلدات المائة والواحد والأربعين غير خمسة وثلاثين. وهذه الفقرة هي من الكتاب الرابع والعشرين الخاص بحروب هنيييل (٢١٤ ق.م).

(١٠) الدكتور وليد حميدي الاعظمي: وهي رسالة باللغة الانكليزية نال عنها درجة الدكتورية من جامعة =

(٦) المرجع السالف: علي محمود الشيخ علي، ص ٦٦-٦٧.

(٧) الحسيني: المرجع السالف: ج ٦ ص ٢٨. فيه نص الرسالة الكامل.

(٨) دور الجيش العراقي في حكومة الدفاع الوطني والحرب مع بريطانيا سنة ١٩٤١ للدكتور فاضل البراك (هامش ص ١٥٠).



هذه الحركة التي خلع عليها الكتاب القوميون أوصاف المجد لم تكن بجوهرها ونتائجها السياسية غير واحدة من سلسلة من التدخل العسكري والدبلوماسي البريطاني سبقها ولحق بها. إنصبت أغراضها في وعاء الدفاع عن سلطة الطبقة الحاكمة العراقية وتعزيز مركزها. وفي كل مرة من هذه التدخلات العسكرية وجدنا للقوة الجوية البريطانية السهم الأوفر في إعادة الأمور الى نصابها. حصل ذلك في ثورات الشيخ محمود البرزنجي الثلاث المنتهية بالعام ١٩٣٠. واستخدمت بنجاح تام في القضاء على تهديد مماثل آخر من انتفاضة الشيخ احمد البارزاني في ١٩٣١، التي كادت تقضي على سمعة الجيش العراقي الحديث التكوين. وفي أحداث آب ١٩٣٣ لم تكتف القوة الجوية البريطانية التي زودت الطائرات العراقية بالقنابل لتنفجر على رؤوس الآشوريين وهم يعبرون الخابور، بل استخدمت بريطانيا كل اسلحتها الدبلوماسية لإطفاء النار المشبوبة في المحافل الدولية حول الفظائع التي ارتكبتها الطبقة الحاكمة وجيشها هناك. كما حُفَّت القوة الجوية البريطانية في العام ١٩٤٥ لإنقاذ سمعة الطبقة الحاكمة وجيشها من الحصار الذي ضربه عليها الثوار البارزانيون.

والمسألة بكل بساطة هي أن البريطانيين وبسبب الظرف العصيب الذي كانت امبراطوريتهم تواجهه، لم يكن بوسعهم أن يقفوا موقف المتفرج من الانقلابات العسكرية والمؤامرات والجرائم في تلك الفترة كلها كما كانوا يفعلون في الماضي، فالإمبراطورية في خطر وهي تخوض معركة حياة أو موت، وهؤلاء الانقلابيون يتطلعون بجهد ولهفة الى عون من عدوهم ... كل رحلة طولها ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة!

هذا ما حصل في مايس ١٩٤١، طائفة من رجال الطبقة الحاكمة ألقَت بحظوظها مع زعماء انقلابيين عسكريين تحكّموا في نصب الوزارات وإقالتها خلال أربع سنوات. قضت مصلحة البريطانيين بمساندة الجانب الذي يؤيدها واعادته الى الحكم، ففعلت بتدخل عسكري سريع كان لقوتها الجوية فيه السهم الأكبر الذي ضمن لها النجاح. والفارق الوحيد الذي ميّز هذا التدخل

= برمنكهام - بريطانيا. طُبعت في العام ١٩٨٧ بهذا العنوان المسهب «رشيد عالي الكيلاني والحركة القومية في العراق ١٩٣٩-١٩٤١ دراسة سياسية وعسكرية للحرب البريطانية في العراق والثورة القومية لأيار ١٩٤١» كانت الغاية الرئيسية من تأليف الرسالة نيل الدرجة العلمية التي حصل عليها نتيجة ذلك. وقد حفلت بالمراجع والأسانيد واستقراءات في الوثائق الخارجية. ولم يحاول المؤلف كثيراً في استقراءها والخروج منها بآراء خاصة. فبدا يناسبها كل عنوان إلا العنوان المضلل الذي اختاره لها. حرص فيها الكاتب حرصاً ملفتاً للنظر على أن لا يتعرض لأصحاب الأدوار فيها بسوء، لاسيما الشخصية المركزية التي توج بها عنوان رسالته. إنها وعلى اية حال دراسة أمينة بقدر النوع الذي اختار المؤلف من الوثائق واستشهد به متوخياً قدر المستطاع تجنب الحركة والقائمين بها المسؤولية الأدبية والتاريخية. وكل ما يشين مواقفهم (ذكر ان الكتاب ترجم الى العربية في العام ١٩٨٧).

في ١٩٤١ أن قنابر القوة الجوية البريطانية كانت تسقط على رؤوس الجنود العراقيين بدلاً من حمايتهم، فنشرتها نثراً فوق مرتفعات الحبانية ومعسكر الرشيد وأماكن أخرى.

\*\*\*

الا أن القوميون العربيين وكتابهم يسفهون هذا الرأي بطبيعة الحال وما اظنني سأسلم من صولاتهم القلمية. رغم مرور أكثر من نصف قرن على حركة مايس، تراكمت خلاله وثائق وأسانيد كثيرة ساعدت في الكشف عن حقائق مجهولة فيها تستوجب إعادة النظر في كل ما كتب عنها في الماضي، فلم يحاولوا.

المنحى المعروف الذي انتهجه المدافعون عنها هو افتراضهم منذ البداية شرف أهدافها ونبل غاية القائمين بها، ووجدوا هذا كافياً لتبرير الفشل واغتفار العواقب. وبخلافهم فأنا لا أرى حسن النية وشرف القصد كافيين لتبرير قيام هذه الحركة أو لتنزيه القائمين بها، ولا أن يمنح فشلها عواقبها السيئة أي درجة من المشروعية.

وفي سبيل وضع هذه الحركة موضعها الحريّ بها في التاريخ، لا بد من الإجابة في رأيي عن هذه الأسئلة الثلاثة:

\* ما هي الفائدة التي كان يتصورها القوميون العربيون لأمتهم من نجاح تام تحرزه هذه الحركة - بفرض حسن نية القائمين بها وإخلاصهم للقضية؟

\* كم كان التوقيت السياسي لهذه الحركة وعلى ضوء الأحداث الدولية وقتذاك - صائباً؟ (وينضوي في الجواب على هذا السؤال تقويم الأهلية السياسية وبعد النظر والخبرة للقائمين بالحركة).

\* ما مقدار ما كان زعماء الحركة يملكون من القيم الخلقية عموماً، ومن الفضائل العربية الأصيلة، والشرف العسكري بالنسبة للعسكريين مما يؤهلهم الى احتلال موقع القيادة في حركة تحررية سامية كهذه التي وصفت بها حركة مايس؟

والإجابة عن هذه الاسئلة هو الغرض من كتابة هذا الفصل.

هناك ظاهرة تلفت نظري دائماً قدر ما تقلقني - هي ميل العقلية في البلاد الناطقة بالعربية الى تبرير حالات الفشل والإخفاق باختلاق العلل والمعاذير بحيث يبدو الفشل وكأنه مقدر من عند العناية الإلهية ولا مناص منه أو أن يكسى أحياناً كساء النجاح.

ولا انكر أن هذا من طبائع البشر والشرق العربي لا ينفرد به إلا أن الغلو فيه هنا فاق كل

الحدود، لاسيما عندما يحاول بعضهم أن يضع اسباب الفشل على عتبة باب الإمبريالية والإستعمار. وبكلمة أخرى... بريطانيا بوصفها علة العلل. وتلك حيلة رخيصة للتخلص من المسؤولية.

وفي العام ١٩٤٨ أحكمت ميليشيات اليهود نصف المدربة شبه النظامية تطويق لواء كامل من الجيش المصري في (الفالوغة) ولم ينقذه من استسلام تام إلا الهدنة. مع هذا فقد أدخل أمره القاهرة دخول الظافرين وعتته الصحف المصرية بـ(ضبع الفالوغة) وأمطرت صموده للحصار بعبارات الثناء والتمجيد من دون أن تذكر بأن سبب الحصار كان يعود بالأصل الى خطأ القائد.

لم يكن من المناسب طبعاً أن يلقب مثلاً بأسد الفالوغة أو نحوها، فمن طبيعة هذين الحيوانين الوثوب والهجوم، أما الضبع فمن شأنه التخفي والتريص. وعُزي الفشل الذريع الذي منيت به القوات المصرية في تلك الحرب الى ما ظل عبدالناصر يردده عذراً بالأسلحة الفاسدة. ومن طول التردد لم يكن هناك بد من نزولها منزلة المسلّمات التاريخية. لم يُتعب أحد نفسه بالتفكير في صحة هذا ومقدار ما ينطوي عليه من حقيقة. انك تكسر البيضة من رأسها، فتقذف بها عندما تجدها فاسدة ولست بحاجة الى أكل شيء منها لتتقنع نفسك بفسادها. والجيش لا يدخل معركة حقيقية بسلاح وعتاد لم يجربه قبلاً في تدريبه.

ثم اذا كانت الأسلحة الفاسدة علة هزائم ١٩٤٨، فالجيش المصري كان في العام ١٩٦٧ يملك أفضل سلاح صنعتته المعامل الحربية السوفياتية. وهنا لم تساعف أي علة في تبرير الفشل، لم يكن هناك مجال لوضعها عند عتبة الإمبريالية والإستعمار. فلولا الدول الغربية لدخل اليهود القاهرة ودمشق. واضطر عبدالناصر الى الإقرار بمسؤوليته وأعلن عن اعتزازه الإستقالة في عين الوقت الذي أوعز بتنظيم المظاهرات والمسيرات والإجتماعات الصاخبة ضد قراره هذا. وبكى البعض ورفع آخرون أكف الضراعة يناشدون القائد البقاء، فتنازل وقبل رجاءاتهم وضراعاتهم. وبهذا تنوسي أمر الهزيمة وسط الفرحة ببقاء الرئيس، وطغى الحديث عن شجاعة الرئيس الأدبية في الإقرار بالخطأ، على الحديث عن آثار الهزيمة وعارها.

وعندما كتب نبي البعث عفلق رسالته الدلييلة في العام ١٩٤٩ لـ(حسني الزعيم) وهو سجين يعلن فيها ندامته على سوء سلوكه مؤكداً اعتزال العمل السياسي نهائياً، لم يجد أتباعه القوميون عذراً له غير قولهم، إنما فعل ذلك لتجنب أعضاء الحزب مزيداً من الملاحقة والإعتقالات، فهو والحالة هذه عمل ذكي بارع فيه من الشجاعة الأدبية ما فيه. وبقي عفلق

بعدها يقود الحزب ويغنيه بأفكاره وفلسفته القومية حتى وافاه الأجل بعمل مخجل يكفي نصفه أو ربه أو عشر معشاره للتطويح بمستقبل أي زعيم سياسي أو قائد حربي في بلاد غير البلاد الناطقة بالعربية، الا أن للقوميين العربيين باختلاف مذاهبهم - مقاييس خاصة للحكم على الإخلاص للقضية والصدق في المسعى.

نُسب لمن لا أشك في صدقه<sup>(١١)</sup> قوله أن رشيد عالي، الذي شاطر الدكتور فاضل الجمالي غرفة الإعدام بالسجن المركزي في بغداد العام ١٩٥٩، أنه صارع زميله اثناء ما كانا يتدارسان القرآن ويضعان تفسيراً جديداً لآياته - بأنه كان ضد أي صدام مع بريطانيا، مؤكداً له أن العقلاء الأربعة هم الذين جرّوا العراق الى المواجهة خلافاً لرأيه. إن هذا يتفق وطباع الرجل الذي كاد يُجمع كل من نوه به أو ذكر له اسمه، لاسيما اولئك الذين زاملوه في الحكم أو تعاملوا معه إجماعاً تاماً بأن ثقته المطلقة بنفسه وبصواب رأيه ينسيه ما كان يؤمن به البارحة بحماسة ودأب بما يؤمن به ويعمل له اليوم. فمثلاً سهل عليه أن يحشر نفسه بين زمرة غلاة الدعاة للقومية العربية، ليبدو خلال وقت قصير زعيمها وقائدها الذي يلتف حوله رجالها، ناسياً أنه كان من أشد أنصار حزب الإتحاد والترقي حماساً ووطأةً على القومييين العرب وأحزابهم السرية أيام العثمانيين.

منذ أحداث آب ١٩٣٣، اتقن الكيلاني دوره القومي ونافس خصمه (نوري السعيد) فيه. كان (السعيد) وزملاؤه من حكام العراق يفخرون بأنهم من (الرعييل الاول) ولم يكن بمقدور الكيلاني منافستهم أو مشاطرتهم هذا اللقب. لكنه نجح أيما نجاح في أن يغدو من الرعييل الثاني (القومي) الذي ضم الناقمين الناقدون للأول، وأغرق رجالهم بتهم العمالة والإستخداء للأجنبي.

رجل كهذا يسهل عليه بطبيعة الحال التنصل من المسؤولية وهو في موقفه هذا اليائس،

(١١) نسب هذا الى الأستاذ نجدة فتحي صفوت من حديث له مع فاضل الجمالي. وهو تأكيد لما سمعته قبلاً من مصدر آخر. إلا أن ما أدهشني هو ذلك الإعتداد الكاذب المفرط في رشيد عالي بصورة خاصة حول تأليفه تفسيراً لآيات القرآن. فهذا الرجل لم يكن حظه من لغة الضاد يسمو الى حظ تلميذ مجتهد في آخر سنة من المدرسة الابتدائية، ولطالما اضحكتني أخطاؤه الصرفية والنحوية في كتابه: المسالك في شرح قانون العقوبات البغدادية، ولحنه القبيح في الرسائل التي نشرها له الحسيني في تاريخ الوزارات. وأنا لا استطيع إشراك الجمالي في هذا الحكم. وكل ما قرأته له مقدمة كتبها للأستاذ احمد نسيم سوسه لكتابه: في طريقي الى الإسلام (بمناسبة إعتناقه الدين الاسلامي). والمفروض في شارح القرآن ان يكون مالكا ناصية اللغة عارفاً بأسرارها وما اظن أياً منهما بهذا المستوى، وإنما هي المكابرة واستمداد الغفران من الله عن السيئات كما يفعل الكثيرون من المحكومين بالموت.

بإلقائها على من لا يستطيع الدفاع عن نفسه<sup>(١٢)</sup>. وكذلك فعل زملاؤه الوزراء والعقلاء الذين حكموا أو كتبوا مذكراتهم وقد خالط أغلبها الندم والإستغفار، وعاد بعضهم الى أحضان

(١٢) في العام ١٩٤٦ او قبله نشرت مديرية الدعاية كراساً بعنوان (أحكام المجلس العرفي العسكري) ضمنته قرارات الإدانة والحكم فحسب، ولم تنشر وقائع جلساته لا في حينه ولا بعده وقيل إنها كانت سرية. ومع أنني وجدت في عدد من مجلة (أفاق عربية) موضوعاً عنوانه (وثائق عن ثورة مايس: الملكة عالية تتحدث) وهي الإفادة التي قدمتها مكتوبة الى المجلس العرفي العسكري. الى جانب وقائع محاكمة الشريف شرف الوصي المنسوب بدل عبدالإله وتتضمن إفادته ودفاعه. وعلى مدى علمي ما اظن المجلة واصلت نشر وقائع محاكمات الوزراء والعقلاء، ولم أجد أحداً من الكتاب ينقل نصاً منها لهؤلاء سواء من إفاداتهم أو دفاعهم. إلا ان ما كان يتردد في المجالس وما كنا نسمعه عن تلك المحاكمات وبقي يدور حول مواقف بعض المتهمين الكبار الذليلة ومحاولات معظمهم التنصل من مسؤوليتها بإلقاء الذنب على الآخرين لاسيما الغائبين منهم. روي عن الفريق أمين زكي وكيل رئيس أركان الجيش انه وصف نفسه بالحيوان أو البهيمة وأنه كان يوقع البيان الصادر باسمه تحت تهديد المسدس. وعزى الى استاذنا علي محمود الشيخ علي شيء قريب من هذا. وقال مدير الدعاية العام صديق شنشل أستاذنا ايضاً مدافعاً عن نفسه، انه مجرد موظف صغير في وزارة الداخلية ياتمر بأمره وزيره المسؤول وينشر ويذيع فحسب ما يرده من الوزارة ومن الجيش، في حين كان يلقي خطبه النارية ارتجالاً "أطلق عليه في حينه لقب كوبلز العراق".

أما ذلة أعضاء الطبقة الحاكمة المغرر بهم في مايس، فقد تمت وختمت على يد نوري السعيد نفسه في العام ١٩٥٤، عندما ضم الى حكومته كلاً من محمد علي محمود للعدلية (كان في مايس وزيراً للأشغال والمواصلات) والدكتور محمد حسن سلمان للصحة (كان في مايس وزيراً للمعارف) وموسى الشابندر للخارجية (كان في مايس كذلك) وجعلهم يوقعون على حلف المعاهدة المركزية المسمى حلف بغداد، ذلك الحلف الذي أجمع القوميون العربيون بسائر أحزابهم وفلسفاتهم على اعتباره حلفاً استعمارياً إمبريالياً، وفي العراق اعتبر بديلاً لمعاهدة ١٩٣٠ التي انتهت اجلها. وانا اذكر بصورة خاصة هذه المناسبة وتعرفت باللواء الركن المتقاعد إبراهيم الراوي في اثناء زيارة قام بها لأحد الأطباء من اصدقائه في ألمانيا، فبمناسبة زيارته الموصل في اوائل الخمسينات (ربما في ١٩٥٣) وانجر الحديث الى ذكرياتهما في برلين لم يبخل خلالها على الكيلاني بأشنع الأوصاف والنعوت وبالأخص عن بخله وجشعه، وأسلوب المصانعة والتذلل المخجل الذي كان يتعامل به مع موظفي وزارة الخارجية العسكريين الألمان تقابله عجرفة وتعال ازاء بقية اللاجئين. وكان اثناء ذلك ينحو على نفسه باللائمة لأنه ربط مصيره في وقت ما بمصير أمثال الكيلاني حامداً الله على السلامة.

تذكرت هذا عندما طالعت في الصحيفة (٤٥٠) من كتاب الأستاذ القيسي والمرجع المنوه به سابقاً) نص جزء من مقال كتبه لؤائنا الركن ابراهيم الراوي ونشره في ١٩٦٥ بمناسبة وفاة الكيلاني فطاب لي ان انقله هنا، يقول الراوي: "لعل ما قام به رشيد عالي رحمه الله في العام ١٩٤١ اشهر من ان يُنسى، فقد ترأس ثورة وطنية وهو يعلم حق العلم انه يخاصم اعظم امبراطورية كانت الشمس لاتغيب عن حدودها، وهو الوحيد وبدون حليف عربي ولا يملك سوى إيمانه واخلاصه واعتماده على جيشه، الذي كان مستعداً لخوض المعركة للدفاع عن الكرامة والذود عن حياض البلاد. وهكذا اشهد العالم ان العراق لا يقبل حيفاً ولا يرضى بالهوان. وانه وإن كان لم يحالفه النجاح في كل ما يريد، إلا أنه قام بأروع حركة شهدتها التاريخ وله من صنائيد العرب اسوة حسنة كالحسين ومصعب ابن الزبير ويوسف العظمة، ومتى كان للمؤمنين ان يحسبوا ما عندهم وما عند خصمهم من توازن في القوى حينما يحين الوقت وتقضي المصلحة العامة بالدفاع عن الكرامة ورفع الضيم عن العراق؟" وكان الراوي كغيره قد اعلن ندمه وأقر بخطئه في =

الطبقة الحاكمة عزيزاً. منتهزين كل فرصة لإظهار ولائهم للوصي الذي خلعه وعزوا اليه كل نقيصة في شهري نيسان ومايس.

لا يستدعي ذلك تساؤلاً حاداً وعجيباً. فكما أن للسياسة أحكاماً في مجتمعها كذلك كان للعقيدة والكرامة أحكام. لكن، ما أمر أولئك الكتاب الذين انزلوا معركة مايس منزلة احترام وأكبروا عمل فاعليها. وتكرموا على العقلاء والوزير الذين نُفذ فيهم حكم الموت بمنزلة الشهادة وحجزوا لهم مقاعد في قاعة الأبطال والزعماء القوميون المخلدون، ولم يخصوا أولئك الجنود المجاهدين والأبرياء الذين فقدوا أرواحهم نتيجة هذه المغامرة بسطر واحد من الرثاء والتفجع، في حين نظمت القصائد وكتبت المقالات الطوال بآثر فضائل مسببها.

التاريخ لا يحاكم صانعي أحداثه الجسام على النوايا والمقاصد فحسب، بل يحاكمهم أيضاً على عواقب التسرع والغفلة والقصور التام عن اتخاذ القرار الصائب والإندفاع الأهوج بعامل العاطفة. وفي عهود اليونان والرومان القديمة كان الزعماء والقادة يُحاكمون ويشهر بهم، بل ينالون عقوبة الموت أو النفي الرهيبة بسبب فشل نجم عنه ضرر ببلادهم لا دخل للأقدار أو سوء الحظ فيه.

ولدينا كثير من الشواهد والأدلة عن غفلة قادة مايس وعجزهم العقلي وضعف في قابلياتهم العسكرية والسياسية التي سببت كارثة مايس. إن مذكراتهم وقراراتهم بحد ذاتها كفيلة بإصابة قارئها بالذهول بدرجة كافية لتضعفه ضعفاً. إن سلوكهم قبل المواجهة العسكرية وفي أثنائها، يكفي لتقدير الحد الذي بلغوه في اعتمادهم على نصر ألماني سريع. وفي أملهم الخادع الكبير بأن ألمانيا وايطاليا ستضمنان بعد النصر وتحطيم عدوهم بريطانيا واستقلال البلاد العربية الناجز مع الوحدة وإجلاء اليهود التام عن فلسطين أيضاً.

\*\*\*

في ١ من ايلول ١٩٣٩ إندلعت نيران الحرب العالمية الثانية بدءاً بانقضاض الجيوش الألمانية على بولندا مزودة بأسلحة جديدة لا عهد للعالم بمثلها وبتاكتيك الحرب الخاطفة (krigbliy)، فاكتملتها في ظرف أسبوعين واقتسمتها مع الإتحاد السوفياتي، ثم تهاوت الدول الأوروبية بالتتابع. ففي ٩ نيسان ١٩٤٠ تم احتلال الدانمارك والنرويج معاً وبعدها بشهر واحد اكتسحت هولندا وبلجيكا. وفي ٢٥ حزيران دخل الجيش الألماني المظفر باريس. وفي ٤ من

= مشايعة الحركة ليظفر من نوري السعيد بمكافأة ما.

شباط ١٩٤١ بدأ غزو دول البلقان فاكْتُسحت يوغوسلافيا وبقيت بريطانيا وحدها تواجه جيوشاً جرارة معبأة لعبور القنال لتوجه الضربة القاتلة، في حين راحت أساطيل من الطائرات الألمانية تدك المدن البريطانية دكاً. ولم تعد عبارة ها قد افلتت شمس الامبراطورية البريطانية تثير عند السامع عجباً أو دهشة، بل عُدت من حتميات التاريخ.

وفي حزيران ١٩٤٠ دخل الجيش الأحمر جمهوريات لاتفيا وليتوانيا واستونيا تبعاً وتم ضمها الى الإتحاد السوفياتي. وبدأت محاولة القضاء على استقلال فنلندا.

في السادس من شباط ١٩٤١ كان قد مرَّ بعض زمن على المفاوضات السرية بين حكومة الكيلاني وموظفين صغار ألمان (أكبرهم سفيرهم في تركيا ووزيرهم المفوض السابق في العراق الدكتور غروبا) ولم يكن جماعة (مايس) طبعاً كغيرهم يعلمون أن غزو الإتحاد السوفياتي كان قد تقرر منذ تشرين الأول ١٩٤٠ بالأمر التوجيهي المرقم (٢١) ووفق موعد محدد بالخامس عشر من ايار<sup>(١٣)</sup>.

في السادس من شباط ١٩٤١ عُقد بمقر أركان المخابرات العسكرية للجيش الألماني مؤتمر سري بين مندوبين من القيادة وموظفين من وزارة الخارجية. وكان الدكتور غروبا الذي غادر العراق إثر قطع العلاقات - نجم الاجتماع اللامع إذ أنيط به رسمياً رئاسة ما دُعي بالجنة العربية) في وزارة الخارجية. ونتيجة هذا الاجتماع تم وضع خطة لإثارة قلاقل واضطرابات في كل البلاد الناطقة بالعربية، التي تخضع للنفوذ البريطاني، وعلى أن لا يؤدي ذلك بأي حال من الأحوال الى تورط محوري عسكري فيها يخلّ بخطّ القيادة العليا وتوقيتها الزمني<sup>(١٤)</sup> كان قيدياً احترازياً واضحاً.

في الوقت الذي كانت الدول والشعوب تسمح عن خارطة العالم بأخذية الجيوش النازية، كان

(١٣) يوجد نصه الكامل في عدد من الكتب الوثائقية والمجموعات. وقد بدىء بهذا: من مقر قيادة الفوهرر سري للغاية ١٨ تشرين الاول ١٩٤٠. على القوات المسلحة الألمانية ان تتأهب للقضاء على روسيا السوفيتية في حرب خاطفة. قبل إنهاء الحرب مع بريطانيا وتحقيقاً لهذه الغاية، يترتب على الجيش ان يستخدم كل قطعاته الميسورة مع الاحتفاظ بالإحتياطي الذي سيقوم بحماية البلاد والمناطق المحتلة من هجوم مباغت. يجب ان نكمل الإستعدادات في ١٥ من ايار ١٩٤١ وأن يتخذ أشد الإحتياط والحذر من إنكشاف خطة الهجوم وافتضاحها... يجب ان يقضى قضاء تاماً على مجموعات الجيوش الروسية في الغرب بعمليات جريئة تتم باندفاع في العمق الى الامام ودق أسافين من الدورع. وأن يحال بأي ثمن كان دون أي تقهقر لها منتظم الى القضاء الروسي الواسع من غير أن نمنى بخسائر... الخ (والنص طويل).

(١٤) هـ. تيلمان (H.Tillman) ألمانيا والسياسة العربية في الحرب العالمية الثانية (Deutschlands Araber Politik im Zvetlen Weltkring) برلين ١٩٦٠ ص ٣٣٥.

زعماء القومية العربية في العراق وسورية، والقوميون المصريون مثلهم، يأملون تحقيق أمانهم في الإستقلال والحرية على يدها.

لم يحاول النظامان الفاشيان إخفاء أو تكذيب ما تواتر عنهما وما عرفه العالم من الأساليب الدموية التي مارسها ضد معارضيها في بلادهم، وقد ذاعت قصص مرعبة محدودة عن التصفيات الجسدية الجماعية لرجال الفكر والزعماء السياسيين خصومهم. مما لا شك فيه أن الإضطهاد العنصري الذي ركّزه النازيون على اليهود في بلادهم كان يشيع في نفوس القوميين العروبيين ارتياحاً خاصاً ينسبهم تشجيع الحكام النازيين يهودهم على استعمار فلسطين<sup>(١٥)</sup>. كل هذا قريب العهد بالذهن، لكن هناك التجارب العربية الميرة من أحداث سابقة.

في العام ١٩١٢ انتزعت إيطاليا ليبيا من يد العثمانيين واستعمرتها بكل ما في كلمة الإستعمار من معنى وبقيت تحكمها حكماً مباشراً قمعياً لا تمازجه رحمة، وكنا نقرأ في الصحف القومية أنباء عن الفظائع التي يرتكبها الإستعمار الإيطالي والتصفيات الجسدية للشوار، ومنها الطريقة المتبعة بالفائهم من الطائرات في مجاهل الصحراء. مثلما قرأنا عن الفظائع التي إرتكبها الجيش الإيطالي في العام ١٩٣٥ عندما غزا موسوليني الحبشة وضمها الى مستعمراته مستخدماً الغاز السام، كما تابعنا التدخل العسكري الألماني والإيطالي في الحرب الأهلية الاسبانية، لصالح الجنرال فرانكو وتبشيتهم حكمه الدكتاتوري على أنقاض الجمهورية.

كل هذا لم يكن خفياً عن زعماء حركة أيار، بل وأكثر من هذا؛ كانت هناك دروس بليغة ألقاها نائب العريف الألماني في مقره على رؤساء الحكومات وأساطين السياسة تصلح مثلاً لكيفية تعامل هذا الدكتاتور. ومدى احترامه لكلمة الشرف والعهود والمعاهدات الدولية. كانت هناك مهزلة ميونيخ التي قضت على سمعة رئيسي وزراء بريطانيا وفرنسا. وأدت الى استقالتيهما. وعجلت بموت الأول منهما قهراً<sup>(١٦)</sup>.

في الوقت الذي كان الزعيم الألماني يعيث بمصائر الدول ويصادر حريات شعوبها ويقضي على استقلالها ويدوس بكعبه المواثيق الدولية، راح ابطال حركة مايس القوميون يرسلون اليه المندوبين للتفاوض معه على تحرير البلاد الناطقة بالعربية وتحقيق إستقلالها الناجز وإقامة

(١٥) راجع الفصل السابق.

(١٦) من تقرير الوزير المفوض الأمريكي ببغداد. نقلا عن كتاب لوكارز هيرشكوفتش Lukarz Hirscauricz: الرايخ الثالث والشرق العربي The Third Reich and the arab East لندن ١٩٦٦، ص ١٠١ وما بعدها.

الوحدة العربية، مستجدين منه ومن زميله في روما، تصريحاً... تصريحاً لا غير!

أكان المفتي أو الكيلاني أو العقداً على الأقل يطمعون حقاً في النظام الجديد الذي صممه الزعيم النازي للعالم بعد الحرب، بمنزلة في البلاد الناطقة بالعربية أعلى من تلك التي حازها منه الأدميرال (هورتي) في المجر أو كوزلنغ في النرويج أو انطونسكو في رومانيا أيامذاك؟ لم يكن أي من هؤلاء القوميين، الذين اجتمعوا في بغداد ليقامروا بمصير بلادهم في أي وقت من الأوقات، أصلب وأشد وطأة على الاستعمار البريطاني ولا أشهر وأعلى كعباً في النضال القومي من ذلك المحامي الهندوسي غاندي الضئيل الجسم الحافي القدمين، الذي كان إذذاك يقود أعظم حركة عصيان مدني عرفها العالم ضد البريطانيين شملت اربعمائة وخمسين مليوناً من الناس بمشاركة فعالة فيها. إنه لم يتردد قط في إعلانها هدنة مع مستعمري بلاده، بل تمادى وسمح وشجع مشاركة هذه القارة وشعبها في المجهود الحربي ضد النازية، ولم يعترض على تجنيد فرق كاملة من أبناء شعبه وزجها في ميادين حربية بعيدة عن بلاده لتساهم في دحر قوى الظلام والبربرية، وكذلك تحويل نضال زعماء الحركات التحررية من السيطرة البريطانية والفرنسية في البلاد الآسيوية الأخرى ليتعاونوا مع ممثلي سلطاتهما في وجه الغزاة اليابانيين.

\*\*\*

بدا الحاج امين الحسيني وكأنه المرجع واليه ينتهي الرأي، ليس لنباهة ممتازة أو عبقرية خاصة تغلبت على سذاجة وغفلة للعسكريين وغطرسة واعتزاز بالرأي أمام ذلّة وخنوع المدنيين وقفت ازاءه حيلة الكيلاني ودهاؤه مستسلمة ذليلة، لكنه حب السلطة المفرط والشهوة الى الحكم وهو الذي كان يجمع ما بين الاطراف الثلاثة، بل خشية ضياعه منهم وهو جنون السلطة. فقد قيل قديماً أن السلطان المطلق الذي لا يقف عند حدود، ينقل صاحبه الى حالة من حالات الجنون، فلا يعود يفكر بالصالح الجيد وإنما يعد كل عمل صالحاً طالما كان في نظره جيداً.

وفي مثل هذه الحالة اراد الجميع أن يتوهموا بأن سواد الشعب العراقي يظاهروهم ويساندوهم في خطواتهم. فتراهم يوعزون بإرسال برقيات التأييد ويأمرون بإقامة الاجتماعات الجماهيرية ويأمرون الصحف بكتابة المقالات المساندة، وكلها تنصب في عملية خداع الأكثرية الصامتة، لتبدو اعمالهم وكأنها معقولة أو ليلبسوها غطاء الشرعية.

يصف تقرير دبلوماسي محايد منزل المفتي بهذا القول: اصبح بديلاً للبلاد الملكي بعد

أسابيع قليلة من حالة التشرذم والتخفي... وتقنعني تحرياتي الخاصة أن المفتي الآن هو من أكثر الناس نفوذاً واحتراماً في العراق في الأوساط الدينية والسياسية. لقد حقق نجاحاً كبيراً في سورية وفلسطين وها هو يحقق أعظم النجاح في العراق. إنه في سبيل أن يغدو والحالة هذه قوة يُحسب لها حسابها في العالم العربي<sup>(١٧)</sup>.

وأتى تقرير آخر الى تفاصيل استقرار المفتي في بغداد بمؤامرة حبكها الكيلاني<sup>(١٨)</sup>.

لم يكن المفتي مغفلاً ليأمل في تحرير لفلسطين خالية من اليهود بقوة الجيش العراقي، ولا كان هذا الغرض من مجيئه. لكنه كان يريد استعادة نفوذه السياسي المفقود بأي شكل كان وفي أي مكان آخر. فبصيرة الضابط العثماني السابق كان قد تقرب من البريطانيين وحاز ثقتهم فرشحوه لمنصب الافتاء وهو منصب ديني بحت. وبقي يمارس سلطته الدينية بحمايتهم حتى خطر بباله أن يجند نفوذه ليقتمح الميدان السياسي، ويغدو مركزاً للتحرر القومي والنضال الذي يخوضه عرب فلسطين ضد الإستيطان اليهودي. فاتفق مع الألمان رغم علمه بمساعدتهم للصهيونية. ووجد نفسه يناضل في سبيل مركزه السياسي الجديد على جبهة بريطانية وجبهة الصهاينة وجبهة مزاحمية العرب على زعامة الحركة، وعندها لم تعد للبريطانيين فائدة منه فأسقطوه مثلما رفعوه، وغدا في ليلة وضحاها طريد عدالة. لم يكن خافياً على سلطة الإنتداب البريطاني الصلات التي وثقها هذا الرجل بألمانيا وفي أحرج الأوقات التي كانت تمر

(١٧) من رسالة للسفير البريطاني بازل نيوتن الى وزير الخارجية هاليفاكس في كانون الاول: FO (No.31) PRO.٢٤٥٥٩-٣٧١.

(١٨) وصل المفتي محمد امين الحسيني بغداد في ١٥ من شهر تشرين الاول ١٩٣٩ سراً ومن غير علم الحكومة (وزارة نوري السعيد) بدعوة من الكيلاني والعقداً الاربعة على ما يبدو. وكان الفرنسيون في سورية يضيقون عليه ويحدون من نشاطه، فاتصل كل من أمين التميمي واکرم زعيتر الفلسطينيين، برئيس الديوان الملكي رشيد عالي الكيلاني وطلباً مساعدته على تهريب المفتي الى العراق من دون جواز سفر. وقد تم ذلك أيضاً دون علم نوري باشا (رئيس الوزراء حينذاك). وما أن علم هذا بوصوله حتى قرر أن يبعده ويجعل محل اقامته في منطقة كردية قريبة من كركوك. الا أن الكيلاني هياً للمفتي زيارة خاطفة للبلاد الملكي فاستقبله بكل مظاهر التكريم والاحترام وبشكل رسمي وسجل اسمه في سجل التشريفات وأدخله على الوصي عبدالإله يحف به (الصباغ) والعقداً الاخرين. فأسقط في يد الحكومة واضطرت الى اعتباره ضيفاً. فأسكن في دار خاصة تقع في شارع الزهاوي بالقرب من البلاط الملكي. ومالبت داره تلك ان صارت مقراً للإجتماعات والإتصالات على نطاق واسع الى درجة ان الذين كانوا يقصدون البلاط الملكي في الأعياد والمناسبات الرسمية من رجال الجيش والسياسة وارباب القلم وكبار الموظفين - يتوجهون بعد انتهاء زيارتهم الى دار المفتي. (واحد من الادلة الكثيرة على مقدار ما كانت الحكومات العراقية تتمتع به من إستقلال في اصدار القرار. ان وزارة الخارجية البريطانية اوعزت الى سفيرها تقديم احتجاج رسمي على وجود المفتي في العراق باعتباره متهماً في قضية جنائية، فلم تُعر الحكومة العراقية أهمية للإحتجاج ورفضته كأية دولة مستقلة كاملة السيادة).

بها سلطة الإنتداب<sup>(١٩)</sup> في فلسطين وبطبيعة الحال كان حلم المفتي الكبير أن تؤدي هزيمة بريطانيا لا الى نهاية سلطتها في فلسطين بل الى استئصال كل يهودي فيها وفي الدول العربية الأخرى، وبالتالي الى تأكيد زعامته في البلاد وان كانت تلك الزعامة خاضعة خضوعاً مطلقاً لاي ضابط من (الاس أس) أو من القيروماخت (الجيش الألماني).

ولذلك كانت الصلة والمحادثات قد بدأت بين الجانبين قبل نشوب الخلاف حول تفسير بنود المعاهدة البريطانية العراقية للعام ١٩٣٠ بوقت بعيد، هذا الخلاف كان مفتعلاً في الواقع ازاء نص صريح لا يقبل التأويل وُضِع بصورة خاصة لمداركة قيام حالة حرب ضد بريطانيا واحتجتها الى استخدام قواعدها وتسهيلات أخرى تتطلبها حالة كهذه<sup>(٢٠)</sup>.

(١٩) في ٦ من شهر تموز ١٩٣٧ قدمت لجنة (بييل) التي ألفتها الحكومة البريطانية في لندن حول المشكلة الفلسطينية، تقريراً أوصت فيه بتقسيم فلسطين الى أقاليم ثلاثة: عربي ويهودي ودولي والغاء الإنتداب. فيكون معظم السهل الساحلي بيد اليهود وسائر المناطق الداخلية بيد العرب لينشأ منها دولة مستقلة متحدة كونفدرالياً بالأردن وبموجب معاهدة. اما الإقليم الثالث ويشكل أورشليم القدس وبيت لحم والناصر، فيبقى تحت الإنتداب البريطاني حتى نهاية أجله وعندها يجري استفتاء ليقرر مصيرها. فرفض كل من العرب واليهود المشروع. إذ دعت لجنة الدفاع عن فلسطين في سورية الى عقد اجتماع عربي عام حضره (٥٠٠) مندوب من جميع الأقطار الناطقة بالعربية. وفي نهاية الاجتماع الموافق للعاشر من أيلول أصدر المجتمعون قراراً برفض المشروع جملة وتفصيلاً، ومقاومته، ورفض فكرة إقامة دولة يهودية. والغاء وعد بلفور ووقف الهجرة اليهودية وإصدار تشريع منع انتقال الأراضي من العرب الى اليهود وتاليف حكومة دستورية تضمن حقوق الأقليات. وكذلك استمرار النضال من أجل إنقاذ فلسطين.

هذا مجمل ما ورد في قرار المؤتمر العربي العام. وفي ايلول ١٩٣٩ نشرت الحكومة البريطانية ما عُرف بالكتاب الأبيض وفيه أوضحت سياستها التي رسمها مجلس العموم وقد استهلته بهذا: ليس من سياسة بريطانيا ان تصبح فلسطين دولة يهودية لكنها تعمل على اقامة حكومة وطنية فلسطينية يشارك اليهود السلطة فيها مع العرب وترعى مصالح الطرفين. وخلال العشرة أعوام الباقية من الإنتداب تُقام دولة فلسطينية مستقلة ترتبط بمعاهدة مع بريطانيا. وحدد الكتاب الأبيض الهجرة اليهودية للأعوام الخمسة التالية ب(٧٥) الفاً لكل عام ويعدها لايسمح لهم بأي هجرة إلا بموافقة العرب. واقترح وضع قيود ثقيلة حول امتلاك اليهودي أي ارض. رفض اليهود المشروع ولو وافق عليه العرب لكانت الأمور ستصير الى غير ما آلت اليه. رفضته اللجنة العربية العليا وانقسم الرأي حوله ريثماً من الزمن، ثم رُفِضَ أخيراً ببيان ختم بالعبارة: "ان الكتاب الأبيض لا يتفق مع المطامح العربية ولا يحقق مطالب العرب التي تتخلص في أن تنال فلسطين استقلالها ضمن اتحاد فدرالي عربي وتبقى عربية الى الأبد". بقيت بريطانيا خلال الحرب العظمى ويعدها تطبق ما تستطيع تطبيقه من الكتاب الأبيض لاسيما موضوع تحديد الهجرة وتعلن عن تمسكها به. أما كيف ارغمتها التصلب العربي وضغط امريكا على التخلي التدريجي عنه. فهذه حكاية يعرفها الجميع ويضيق هذا الكتاب عن التفصيل فيها.

(٢٠) المادة الرابعة من المعاهدة "اذا اشتبك أحد من الفريقين الساميين المتعاقدين في حرب يبادر الفريق السامي المتعاقد الآخر فوراً الى معونته بوصفه حليفاً وفي حالة خطر حرب محدد يبادر الفريقان فوراً الى توحيد المساعي في اتخاذ تدابير الدفاع المقتضية. ان معونة العراق في حالة حرب أو خطر حرب محدد تنحصر في أن يقدم لبريطانيا في الأراضي العراقية جميع ما وسعه ان يقدمه من التسهيلات =

فالتخطيط للإنحياز الى معسكر محور برلين - روما وإن كان قد وضع قبل وصول المفتي، الا أنه تبلور بمحيته وعندما فرض العقداً الأربعة رشيد عالي رئيساً للحكومة من خلال أزمة افتعلوها. والكيلاتي نفسه الذي أحدث شبه قطيعة مع الطبقة الحاكمة كان يشعر طوال الفترة بأن مركزه مزعزع وحكومته زائلة. فقد فُرض على البلاد بقوة السلاح ومن غير رغبة السفارة البريطانية.

وإزاء هذا الحلف بين الطبقة الحاكمة وبين البريطانيين لجأت حكومة الكيلاتي الى الضجة الإعلامية والتعبئة الجماهيرية تماماً مثلما فعلت في العام ١٩٣٣. إذذاك كان الخطر الآشوري أما الآن فالسبب هو المعاهدة العراقية - البريطانية. وفي ٢٠ من أيار ١٩٤٠ كتب السفير البريطاني لوزارة الخارجية:

" منذ أن تولى رشيد عالي (في نيسان) رئاسة الحكومة بدأت في الرأي العام حركة ملحوظة تستوجب القلق. فقد أخذ ينمو الى التوجه نحو التطرف. إن الدعايات التي يقوم بها السياسيون الفلسطينيون والسوريون واللاجئون الى العراق، والنشاط الذي يبذونه بات عظيم التأثير. وقد تصاعد الشعور المعادي لبريطانيا بشكل علني ملفت للانتظار في كل مكان."<sup>(٢١)</sup>

تمثيلية العام ١٩٣٣ تنكرر تماماً: اجتماعات صاخبة، مقالات نارية، خطب حماسية من راديو بغداد، نشاط غير عادي للعقداً الأربعة وأنصارهم من الضباط في وحدات الجيش. في ١٨ أيلول ١٩٤٠ وكنموذج لما كان يحصل عُقد ذلك الاجتماع الكبير، الذي دعا إليه نادي المثني بمناسبة ذكرى مرور ربع قرن على إعلان الثورة العربية الكبرى وذكرت الصحف أن المفتي تصدر الاجتماع على رأس ما دعت به بالتجمع القومي ووصفته جريدة (البلاد) بهذا الشكل:

"حضر الاجتماع عدد كبير من أعضاء التجمع القومي في العراق وعلى رأسهم سماحة المفتي الأكبر للشقيقة فلسطين. وألقيت خطب قومية من بينها كلمة الأستاذ أكرم زعيتر بعنوان: (ثورة العرب لن تنتهي) أشار فيها الى أن هذا الإحتفال السنوي يمتلك في هذا العام طبيعة خاصة، ثم تطرق الى نكت الحلفاء وعودهم التي قطعوها للعرب، وقيامهم بتجزئة الوطن العربي وتعنتهم الحالي رغم

= والمساعدات من ذلك استخدام السكك الحديدية والأنهر والموانئ والمطارات ووسائل المواصلات."

(٢١) من السر بازل نيوتن الى اللورد هاليفاكس (سري) F.O.371-4558 NO.22.

ظروف الحرب الناشئة بعدم إعطائهم العرب تصريحاً أو وعداً يفهم منه أن حق العرب في وحدتهم وحریتهم مضمون وناشد العرب استغلال فرصة الحرب ليوحدوا الرأي وينظمو أمرهم ليطلقوا صرختهم مدوية. وأكد أن الأمر يتطلب الجد والإقدام والمغامرة."

وتشير وثيقة بريطانية الى « أن العقيد الركن كامل شبيب قائد الفرقة الأولى وجّه من الراديو كلمة بهذه المناسبة هاجم فيها بشدة تلك الدول التي لم تحافظ على وعودها للعرب ومنها بريطانيا. كما ذكرت أن الصحف العراقية قاطبة شنت حملة على الحلفاء الغربيين الذين خانوا العرب ومنهم بريطانيا التي انشبت اظفارها في الوطن العربي. وان الأمل أصبح مائلاً للعيان في التخلص من سيطرة المستعمرين»<sup>(٢٢)</sup>.

ظاهر من هذا أن اقطاب حركة أيار حزموا أمرهم على التعامل مع دول المحور، والوثائق الألمانية التي استولى عليها الحلفاء بعد الحرب تؤيد الى حد كبير ما ذكره السيد كمال عثمان حداد مبعوث المفتي الخاص المطلق الصلاحية الى ألمانيا، وما ذكره السيد ناجي شوكت وزير العدل حول مباحثاته من فون پاپن سفير ألمانيا في انقرة، والغرض كما قال:

"هو الحصول على تصريح من دولتي المحور تتضمن اعترافاً باستقلال تام ووحدة شاملة للدول والبلاد الناطقة بالعربية."

وبطبيعة الحال، كان هذا مطلباً قومياً يشمل البلاد الناطقة بالعربية جميعاً. وفي ذلك الوقت كانت العربية السعودية واليمن تمارسان استقلالاً تاماً في شؤونهما الداخلية والخارجية فضلاً عن العراق، اما مسألة خضوع البلاد للسفارة البريطانية فقد كان قريباً من حديث خرافة. فمنذ العام ١٩٣٣ كانت الحكومات العراقية تستقل في اتخاذ القرار النهائي في الأوقات التي تختلف وجهة نظرها مع وجهة النظر البريطانية. وقد رأينا مصير الإحتجاج الرسمي الذي قدمه السفير البريطاني حول وجود المفتي.

ها هنا حرب طاحنة وخطط توسعية واضحة ونضال دموي مصيري بين أعظم امبراطورية في العالم وبين أقوى ماكنة حربية شهدتها البشرية، لا تعلم نتيجته، ولا ما ستتمخض به تلك النتيجة بخصوص مستقبل البلاد الناطقة بالعربية. وهو بالتالي ميدان صراع لم يدع اليه العراق، ولم يكن ثم أي احتمال ليغدو جزء منه!

لكنها مغامرة وإقدام كما قال الخطيب أكرم زعيتر في إجتماع أيلول. مغامرة بان فشلها

(٢٢) من السر بازل نيوتن الى وزير الخارجية اللورد هاليفاكس (سري) F.O 371-4559. P.R.O.

قبل أن تبدء. فقد رفض المحور رفضاً مؤدباً قاطعاً إصدار تصريح بالشكل الذي أرادته كتلة المفتي - الكيلاني - العقدا، ولم يغير هذا الرفض - وهنا موطن العجب - من موقف الكتلة في استجداء التعاون وأبو إلا أن يتشبثوا بذيل الحصان.

بدء الحوار فور وصول المفتي في أواسط تموز ١٩٤٠ وكانت فيه الخيبة الأولى. فقد ابلغ السفير الألماني، الوزير العراقي ناجي شوكت بعد إجتماعات عدة في أنقرة:

«إن حكومتها لا تشغل بالها بالقضايا العربية بنوع خاص ولا يتسع لها الوقت الكافي للإهتمام بمثل هذه الأمور في الوقت الحاضر، وإنها تركت ذلك لحليفاتها إيطاليا. مع هذا فيان الحكومة الألمانية يسرها أن ترى البلاد العربية مستقلة إستقلالاً تاماً ناجزاً<sup>(٢٣)</sup>.

كان السفير في الواقع ينقل النتيجة التي تم الوصول اليها في برلين. فالوثائق الألمانية تكشف عن محادثة جرت في السابع من تموز ١٩٤٠ بين (الكونت تشيانو) وزير الخارجية الإيطالي وبين هتلر حول مصير البلاد الناطقة بالعربية والموقف منها، ولم يخف (تشيانو) هدف إيطاليا في الحلول محل فرنسا في كل هذه البلاد التي تقع تحت نفوذها فضلاً عن مستعمراتها في افريقيا وعلى ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقي المعروف بـ(ليقانت). ولم يبذ هتلر أي اهتمام بالمشاركة ووافق على إطلاق يد إيطاليا حرة.

وفي العاشر من تموز كتب المدير العام للدائرة السياسية السابعة في وزارة الخارجية الألمانية تعليقاً على مذكرة قدمت له بعنوان: حول الموقف في منطقة البحر والشرق الأوسط بخصوص أهداف ألمانيا ومصالحها في العالم العربي. وكان من رأيه أن تُعطى إيطاليا الأولوية المطلقة في إعادة التنظيم السياسي للبلاد العربية، وأن ألمانيا لا مطمع لها أو ادعاء قيادي في سائر المنطقة العربية وهي لا تشارك إيطاليا في ادعائها بها، لكنه استدرک، فقال:

"على أن ذلك لا يعني بأنها غير مهتمة أو أنها تتنازل عن أية مصالح إقتصادية فيها وبضمنها الخطوط الجوية ونفط العراق، وهما على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لها، وأنها سوف تتوصل الى اتفاق بهذا الصدد مع إيطاليا. إن الفوهرر حريص على امتلاك حقوق نفط الموصل بأي وجه كان لحرمان الإنكليز منها... وليس هناك أي سبب يحدو بألمانيا الى إبداء عطف نحو العرب الذين هم أصلاً معادون للأوروبيين، تمزقهم الخلافات الدينية والعائلية والقبلية. وعلى ألمانيا أن لا

(٢٣) الحسني، المرجع السالف، ج٥، ص١٢٠. ومراجع أخرى عديدة وهناك تفاصيل أخرى حول المقابلة.

تخاطر بسمعتها هناك إن كانت غير راغبة في المخاطرة بمكابدة أشد النكسات حدة لوقت طويل الأمد." (٢٤)

في ٢٢ من تشرين الأول ١٩٤٠ وصل مندوب الجماعة المدعو كمال عثمان حداد برلين، وقدم نفسه لوزير الخارجية (فون نيوراث) بوصفه مندوباً عما دعاه به (الحركة القومية العربية) وهو تعبير غامض اخترع لحركة لا وجود لها. وكان برفقته ناجي شوكت وزير العدل في وزارة الكيلاني، لاستطلاع رأي روما وبرلين في الموقف الذي تقفه دول المحور من القضية العربية.

ولم يكن الجواب مشجعاً قط. وبقي لا يخرج عن نطاق التفاهم الألماني - الإيطالي السالف حول الدور الإيطالي. فعلى إثر تلك الوفادة قامت وزارة الخارجية الألمانية بإصدار تعليمات لسفرائها وقناصلها بعدم البحث مع الزعماء العرب البارزين في المنطقة - حول مستقبل النظام السياسي في المنطقة العربية وإن اضطروا أو أرغموا، فعليهم أن يتخذوا موقفاً غير ملزم non committal.

والرسالة الدائرة والتعميم على الدبلوماسيين التي بحثت الأمر افصحت بكل جلاء عن الموقف الإيطالي - الألماني في منطقة البحر الأبيض المتوسط إذ جاء فيها هذا:

"إن ألمانيا ليست وراء أي مصالح سياسية في منطقة البحر المتوسط التي يكون العالم العربي جزءاً من الشرق والجنوبي. لذلك فستترك ألمانيا لإيطاليا القيادة في إعادة تنظيم المنطقة العربية السياسي، ويترتب على هذا أن تنزل ألمانيا عن أي ادعاء لها بالتوجيه والقيادة السياسية، أو أي مشاركة في تلك القيادة مع إيطاليا في البلاد العربية التي تتألف من شبه الجزيرة العربية ومصر وفلسطين وشرق الأردن وسورية ولبنان والعراق." (٢٥)

واضح أن ألمانيا في تلك الفترة كانت تتحاشى تضارب المصالح مع إيطاليا وقد بان تهرّب الدولتين من إعطاء أي تعهد لمندوبي بغداد، بخصوص ما طلبوه حول مستقبل البلاد العربية بعد انتصارهما النهائي. ووضع الأمر وانكشفت النيات بعد صدور التصريح الألماني المرتقب وقد بُثّ في زمن واحد بالعربية من إذاعتي برلين وباري في ٢٣ من تشرين الأول ١٩٤٠:

"إن حكومة الرايخ الثالث - بتمام التفاهم والتأييد من حليفها إيطاليا تعلن ما يلي: إنها كانت دوماً وفي الماضي تشعر برابطة من الصداقة الوثيقة مع البلاد

(٢٤) وثائق الخارجية الألمانية السياسية (١٩١٨-١٩٤٥) المجلد العاشر، ص ١٥٤-١٥٥ لندن ١٩٥٧.

(٢٥) الوثائق. المرجع نفسه ص ٥١٥-٥١٦.

العربية، وإنها تتمنى للشعوب العربية تلك الحياة السعيدة التي تليق بمكانتها التاريخية والطبيعية وبأهميتها بين شعوب العالم كافة، ولذلك فهي كما كانت في الماضي تتابع الآن نضال هذه الشعوب في مجال العمل للإستقلال. إن الشعوب العربية التي تجاهد وتكافح في هذا السبيل بوسعها أن تعتمد وتضمن عطف ألمانيا في المستقبل. وستتخذ حكومة الرايخ الثالث موقفاً إيجابياً من قضية مساندة استقلال البلاد العربية، وبذلك سيتحقق حلم القوميون العرب في الخلاص من الإستعمار البريطاني - الفرنسي وينعمون بالحرية التي طالما افتقدوها."

لم يكن التصريح سريعاً وقد سمعته الملايين كما نقلته اذاعات غربية أخرى، والظاهر هو أن حكومة ألمانيا النازية كانت صادقة في تصريحها وتعني كل كلمة فيه، لأن شريكها إيطاليا هي التي أوجت لها به. ولو ترك الأمر لها وحدها لما وجدت أي حرج في الإدلاء بأي تصريح يتفق وما طلبه موفدو المفتي - الكيلاني، ليكون مصيره فيما بعد مصير أي عهد أو ميثاق آخر قطعته على نفسها مع دول وشعوب أخرى. والمفتي بعد ليس أعظم شأناً من جمبرلين والكيلاني ليس أهم من ديلاييه والزمن ليس العام ١٩٣٨ بل ١٩٤٠ وفيه ألمانيا أعظم قوة في العالم.

لأدري كم كان المندوبان الفاشلان يعبران بصدق عن خبيتهما وعن رد فعل الآخرين السلبي من هذا التصريح كما دوناً في مذكراتهما وأنا أرجح أن زمرة بغداد لم تكن مستعدة قط للإعتراف بالفشل في مسعاها وفي تلك الفترة التي صعدت الحماسة القومية والعداء للبريطانيين الى الأوج. فاختارت طريق اللاعودة بل انه لم يكن يتضمن الحد الأدنى من الوعود الغامضة أيضاً التي تضمنها كتاب الوزير المفوض الإيطالي للكيلاني قبلها بشهرين ونيف (٢٦).

لم يكن عسيراً على أي قومي مخلص عاقل أن يدرك بأن دولتي المحور تلعبان بالأمانى القومية العربية لعبة غير مشرفة. إنهما لم تعطيا حكومة الكيلاني بارقة رجاء أو بصيصاً من صورة الكتاب منقولة عن تاريخ الحسني، المرجع السالف:

عزيري صاحب الفخامة: أمرني معالي الكونت تشيانو وزير الخارجية بأن أبلغ فخامتكم أن إيطاليا طبقاً للسياسة المتبعة حتى الآن - ترمي الى تأمين الإستقلال التام والإحتفاظ بالكيان السياسي لكل من سورية ولبنان والعراق والبلاد التي هي تحت الإنتداب البريطاني، ولهذا فإن إيطاليا ستقاوم كل إدعاء بريطاني وتركبي (!) لإحتلال الأراضي، سواء كان ذلك في سورية او لبنان او العراق وتفضلوا بقبول خالص تحياتي.

بغداد في ٧ تموز ١٩٤٠

كابريلي (الوزير المفوض)

وهو كما ترى تصريح ليس صادراً عن حكومة.



أمل وإن كان زائفاً يمكن استخدامه لتقوية المعنويات أو لتبرير موقفه الصلب ازاء نزول القوات البريطانية.

مع كل هذا لم يُرخ زعماء القوم قبضتهم على ذيل الحصان وواصلوا التشبث به وكتب أحد المندوبين وهو (كمال عثمان) عن التصريح يقول:

"انه جاء مخيباً لآمال القوميين العرب لغموضه ولعدم إشارته الى تعهد ألماني - إيطالي يتضمن إستقلالاً عربياً ناجزاً ووحدة للأقطار العربية، تشير بشكل لا يقبل اللبس الى مشروع مستقبلتي يتضمن قيام إمبراطورية عربية في الشرق بزعامة العراق تحت الحماية الألمانية - الإيطالية دون أن يفصح بشيء عن شمال افريقيا، مؤكداً نية إيطاليا في نقل مستعمرات شمال افريقيا (وهو ضمن الإدعاء القومي بالوحدة) من اليد الفرنسي الى اليد الايطالي (٢٧).

ويستطرد (حداد) قائلاً:

انه قدم بعد عودته الخائبة من برلين تقريراً مفصلاً لكتلة الكيلاني - المفتي - العقداً مبيناً فيه أن الإعتماد على ألمانيا وإيطاليا عبث لا طائل تحته. لكنه اقترح بدل ذلك اقتراحاً غريباً إن دلّ على شيء فعلى جهله بالوضع السياسي والعسكري الراهن أيضاً، أو ربما عن إيمانه بما دار من قول في تلك الدائرة الضيقة عن قوة الجيش العراقي: فاقترح أن تحقيق إستقلال العراق (!) و سورية وفلسطين إنما يتم بتقوية الجيش العراقي. كما زعم انه اقترح على الكتلة الوقوف على الحياد التام بين الطرفين المتحارين.

ولم يذكر كيف يمكن أن يتحقق تقوية الجيش وكيف يمكن اتخاذ موقف الحياد بوجود القوات البريطانية الفعلي في البلاد الناطقة بالعربية. كما أكد حسب زعمه ضرورة التقرب الى الإتحاد السوفياتي، إذ يمكن أن يكون ذلك ورقة رابحة بيد العرب تدفع ألمانيا الى الإستجابة للمطالب العربية (٢٨). وينتهي كمال عثمان حداد الى القول:

(٢٧) من كتابه: حركة رشيد عالي الكيلاني ١٩٤١ - صيدا ١٩٥٠. الى جانب سذاجة اقتراحات هذا الرجل ورغم انه دون كتابه بعد تسع سنوات من الحركة واتضاح حقائق كثيرة، فقد أبى إلا أن يعايش القاريء تفكيره في تلك الأيام، ولذلك نجد في كتابه ظللاً عميقة من الحقائق بلغ من وضوح بعضها أن تكاد تلمس باليد، لاسيما وصفه بعض الوقائع التي كان فيها شاهداً واستعراضه نفسيات بعض رجال السلطة وموقفهم عند غلبة العواطف عليهم. لذلك تجاهل أو كاد اولئك الذين تحمسوا في الدفاع عن كارثة مايس. الا ان محمود الدرة (المرجع السالف، ص ١٥٤) يذكر انه طلب لسيده المفتي من الالمان مبلغاً قدره مليون پاون استرليني فعاد خائباً. (٢٨) المرجع عينه، ص ٨١-٨٣.

"إجتمع اقطاب التجمع القومي العربي إثر ذلك وأصدروا قرارهم هذا، إن هدف حركة القومية العربية هو تحرير العالم العربي وتوحيد أجزائه كافة وانشاء نظم سياسية واقتصادية واجتماعية فيه اعدل واصح من النظم الراهنة، تستهدف ترقية مستوى الشعب وزيادة رفاهه المادي والمعنوي وجعله قادراً على المساهمة في العمل لخير المجموع البشري. وهذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا بوجود برامج مفصلة تتناول حياة العرب في مختلف النواحي وترسم ما يجب أن يعمل في كل منها لبلوغ الهدف المطلوب، لكن البرامج المفصلة وحدها لا تكفي وما كانت يوماً لتنفيذ نفسها بنفسها، لذلك يجب أن يقوم على تنفيذها حزب قومي عربي عام يدعو الى الإصلاح ويعمل له ويسعى لتولي الحكم وتسييره حسب المنهج القومي ويقف عند إنشاء حزب قومي عربي في أقرب فرصة ممكنة." (٢٩)

ويظهر أن تلك الـ"أقرب فرصة ممكنة" لم تكن قط. فالفرصة واسمها فرصة قد تعنّ أو لا تعنّ وإن جاءت فلمرة واحدة على الأغلب ولا أكثر. والإمكان يحدده العزم والقابلية والمقدرة. والقرب والبعد أمران اعتباريان تحددهما الظروف والإرادة وهؤلاء الذين اجتمعوا ببغداد ليحددوا المطالب القومية ولتحرير العالم العربي. ولتأسيس حزب يقوم بهذه المهمة العظيمة بقوة الجيش العراقي لاشك انهم اختاروا أسوء الأوقات للشروع في حين يقضى على مظاهر المدنية والتراث التاريخي يسحق سحقاً بسرقات دبابات الحرب الخاطفة، ومعالم الحضارة البشرية تُدمر تدميراً وتُهدم على رؤوس مبدعيها بآلاف الأطنان من القنابل المنثالة جواً وأرضاً وفيما تستعد الفرق العسكرية بملايين من المحاربين لشن أعظم حملة عرفها التاريخ البشري ثم ماذا يعني التقرب من الإتحاد السوفياتي وقتذاك؟

من المسلّم به أن زعماء حركة مايس وكذلك الأستاذ حداد كانوا يجهلون قرار هتلر بالشروع في عملية بارباروسا (٣٠) بهدف القضاء على الإتحاد السوفياتي بحرب خاطفة. وإن استعدادات القيادة الألمانية العليا لها كادت تبلغ أشدها تماماً عندما حرك الجيش العراقي لتطويق القاعدة الجوية البريطانية في الحبانة.

لكن كان معروفاً للعالم بأسره اذذاك أن الإتحاد السوفياتي وألمانيا النازية كانتا وقتذاك

(٢٩) المرجع نفسه، ص ٨٤.

(٣٠) ذو اللحية الحمراء (Barbarossa) وهو اللقب الذي عرف به امبراطور ألمانيا فردريك الاول (١١٢٣-١١٩٠) الذي أتمّ توحيد ألمانيا باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وقد غرق أثناء ما كان يقود الحملة الصليبية التالية.

مرتبطين بمعاهدة عدم اعتداء. وأنها راحا منذ البداية يسابق أحدهما الآخر في إتهام أكبر عدد ممكن من الدول والشعوب والقضاء على استقلالها. فما هو نصيب البلاد الناطقة بالعربية من كل هذا في عالم قد يحظى برسمه نصر لهما؟ أما كان هناك احتمال باتفاق آخر شبيه باتفاق سايكس - بيكو - سazanوف؟ ما الذي جعل هؤلاء يمضون في آخر الشوط. إن كانوا حقاً يعملون للقضية العربية لا لأنفسهم<sup>(٣١)</sup>.

يذكر المؤرخون لتلك الفترة أن العقداً الأربعة ارغمو طه الهاشمي على تقديم استقالته ولم يفلحوا مع الوصي في إسناد الرئاسة لمرشحهم الكيلاني. وأن الوصي هرب مع زعماء الطبقة الحاكمة الموالية وأن رئاسة أركان الجيش أذاعت بياناً نبأ إسناد الحكومة للكيلاني الذي قام بتأليف وزارة دعيت به (حكومة الدفاع الوطني)، وان هذه الحكومة دعت المجلس النيابي في العاشر من نيسان ١٩٤١ لخلع الوصي ونصب وصي آخر محله.

لكن كل ذلك لم يكن كافياً للخروج من المأزق كان السياسة الحاكمون الجدد وربما العقداً أيضاً يعلمون بأنهم قطعوا الجسور التي تصلهم ببريطانيا في حين لم يفلحوا مقابل ذلك في مد جسراً ثابتاً واحد مع دول المحور. وسكون بدرجة كبيرة من قصر النظر لو قدرنا في حكام العراق القوميون درجة من الغفلة والتبيلد الذهني، بحيث لم يدركوا أثر تصريح تشرين الأول بأن ألمانيا ليست مستعدة بأي حال - لتغيير خط سيرها أو تعديل منهاجها الحربي والسياسي حياً في البلاد الناطقة بالعربية أو بشعوبها عموماً كما جاء في التصريح. ولا في سبيل زمرة صغيرة في بلد صغير بعيد عن الساحة التي تدور فيها أخطر المعارك الحربية والسياسة لا أهمية استراتيجية له في عملياتها المقبلة. ثم إن البلاد الناطقة بالعربية هي مجال نفوذ إيطالي صرف وألمانيا في غنى عن إثارة شك عند حليفاتها بتصريح يخالف مقاصدها.

أن تعلن دولة عظمى موقفها السياسي منك ومن مطالبك بهذا الشكل الصريح فتتيح لك مجال الاختيار، وتفتح أمامك باب المراجعة والتراجع رجباً؟

مثل هذا الحظ لا يواتي القيادات السياسية أو الزعامات القومية أو الوطنية دائماً. إلا أن

(٣١) انظر ما سبق في هذا الفصل، ما كان خفياً حينذاك انه وبعد اسبوعين فحسب من تصريح ٢٣ تشرين الأول أن اجتماعاً سرياً جرى بين مولوتوف رئيس الوزراء الروسي وريينتروب وزير الخارجية الألماني في برلين، حاول الأخير منهما خلاله تشجيع السوفييت على مد نفوذهم نحو الخليج الفارسي والبحر العربي وأسيا الوسطى، إلا أن مولوتوف لم يقتنع، بل وضع أمام زميله ادعاءه (التاريخي) بفنلندا والدردينيل ورومانيا ومجال نفوذ في بلغاريا. ففي ذلك الحين لم يكن الاتحاد السوفياتي ينظر الى الخليج والبحر العربي إلا كأهداف من الدرجة الثانية.

حكام بغداد لم ينتهزوا الفرصة وظلوا يسكون بذيل الحصان النافر حتى عزم البريطانيون على التخلص منهم والعمل على إعادة مشايعهم من أفراد الطبقة الحاكمة بأي ثمن. كم كانت حكومة الكيلاني وعسكريوه يفكرون حينذاك بالمصلحة القومية وبمصير العراق وأهله؟

عندما أبدل السفير البريطاني بآخر وعندما بات في حكم المؤكد أن القوات البريطانية التي نزلت البصرة سيتم تعزيزها ومضاعفتها وأنها نزلت لتبقى لا لترحل، أدرك هؤلاء أن أيام المجد والتمتع بالسلطة باتت معدودة<sup>(٣٢)</sup>. وازداد ضغط المفتي واللاجئين الفلسطينيين على العقداً الأربعة. فلا أرض بعد العراق تحميهم من السخط البريطاني، بله من انتقام الطبقة الحاكمة العراقية المزاحة ورد الكيل مضعافاً. لم يبق غير احتمال واحد. ماذا لو حاولوا وضع دولتي المحور أمام الأمر الواقع بالمخاطرة بمواجهة عسكرية مع عدوتهما تؤدي بالنتيجة الى تدخلهما السريع عسكرياً؟ وبكلمة أخرى وضع العراق وشعبه على خط النار، وجعله ساحة أخرى من ساحات الحرب العالمية الثانية. ان نصيب استنتاجنا هذا من الصحة يستند الى الدلائل التي سنوردها الآن والى درجة اقتناع القاريء بها. أثبت الدكتور إرنست فون فايسكر المدير العام لوزارة الخارجية الألمانية في مذكراته دهشة الألمان من التعرض العراقي لمعسكر الحبانة:

"نحن كالإنجليز أخذنا على حين غرة بحركة مايس ولم تكن لدينا أية خطة أو تفاهم مسبق مع الكيلاني بهذا الصدد."<sup>(٣٣)</sup>

وأكد (السر رايدر بوللارد) السفير البريطاني في طهران جهل الألمان التام بالمواجهة برسالة بعث بها لوزارته.

"دلالتنا تثبت أن الألمان هنا فوجئوا بحركة الكيلاني."<sup>(٣٤)</sup>

(٣٢) السفير الجديد السر كيناهان كورونواليس كان احد خلاء فيصل الاول المقربين وهو الذي اختارته الحكومة البريطانية لمرافقته الى العراق من الحجاز. بقي مستشاراً لوزارة الداخلية منذ العام (؟...) حتى (؟...) عندما أصر الكيلاني على طرده وعدم تجديد عقده لخلاف شديد بدء منذ ١٩٣٣ حول معالجة المشكلة الاشورية انقلب الى عداء مستحکم. لم يكن الكيلاني يحتاج الى دليل آخر ليدرك ما ينتظره لذلك بدء يلح إلحاحاً شديداً على السفير الجديد بتقديم اوراق اعتماده للوصي الجديد فيلجأ هذا الى التسوية والمماطلة. إلا ان الدليل الآخر الذي ازال كل شك هو قيام السفير في (؟...) من نيسان بإبلاغ الحكومة العراقية بأن قوة بريطانية أخرى بحجم لواتين هما في طريقهما الى البصرة.

(٣٣) مذكرات ارنست فون فايسكر (The Memories of Ernst Von Weisaeker).

(٣٤) وثائق الخارجية. في ١٥ نيسان. من السفير البريطاني في طهران الى وزارة الخارجية: F.O. 371- 27064 E- 1465.

ويذكر المؤرخ كريستوفر بكلي:

"وقتنا لم تكن توجد دلائل واضحة حول درجة صلة رشيد عالي ببرلين، إلا أن الدلائل تؤكد أنها لم تكن وثيقة. فمعيار الإسناد الجوي الألماني للحركة يثبت بأن هتلر والقيادة العامة الألمانية لم يكن بوسعهما استثمار الفرصة في العراق. ومع هذا فإن رشيد عالي طلب من الدكتور غروبا مساعدات عسكرية، فأعلمه هذا أن ألمانيا لا تستطيع تقديم أية مساعدة مالم تبدُ بشائر النصر في اليونان ويتم طرد البريطانيين منها. وفي اليوم الاول من أيار أعاد رشيد طلبه مرة أخرى، فقدم غروبا شروطاً لها وهي: السيطرة على السكك الحديدية. ونقل النفط من كركوك إلى ألمانيا، ووضع جميع حقول النفط تحت تصرف ألمانيا فوافق رشيد عالي." (٣٥)

وهذا دليل آخر:

في (٢٥) من أيار حين كانت حكومة الكيلاني تلفظ آخر أنفاسها والقادة يتهبأون للهرب. أصدر هتلر امراً توجيهياً للقيادة العليا الألمانية برقم (٣٠) جاء فيه هذا:

"قررت تشجيع التمخضات السياسية في الشرق الأوسط، بمساندتي العراق بإرسال هيئة عسكرية مع عدد قليل من الطائرات والأسلحة للعراقيين، وسواء في الأمر إن أمكن (إن كان الأمر كذلك وبأية وسيلة) فشن هجوم على قناة السويس بعد طرد البريطانيين من موقعهم بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسي - إلا أن ذلك لا يمكن تقريره إلا بعد إنجاز عملية بارباروسه." (٣٦)

(٣٥) خمس فضائل "Five Vertues" Christopher Buckley. London, 1977. ص ٨٥.

(٣٦) اخذت هذا النص من كتاب وليم شايرر (The Rise and Fall of The Third Reich) الطبعة الرابعة عشرة، نيويورك ١٩٦١. ص ٨٦-١٠. وهي مقتبسة من (Fuhrer Conferences On Noval Affairs) ط لندن، الص ٥٠-٥١، الأيرالية البريطانية. وقد جاء الأمر التوجيهي المذكور برقم ٢٥ أيار ولكن بتاريخ ٣٠ من أيار بشكل يختلف قليلاً ويتفصيل أكثر في الجزء الثالث من كتاب (الحرب العظمى الثانية) بقلم ونستن چرچل بهذه العبارة: "إن حركة حرية العرب في الشرق الأوسط هي حليفنا ضد بريطانيا، وعليه فإن قيام ثورة في العراق له أهميته الخاصة. إن ثورة كهذه تمتد خارج العراق لتظاهر الجيوش التي تحارب بريطانيا في الشرق الأوسط، وتؤدي إلى عرقلة خطوط مواصلاتها فتحدث شللاً فيها وتتضعف من طاقة الشحن البحري البريطاني فتؤثر تأثيراً سيئاً على وضعهم في ميادين الحرب الأخرى. لذلك قررت دعم حركات الشرق الأوسط بمد يد المعونة إلى العراق. أما إمكانية ذلك، والطريقة التي سيتم بها فأمر لايزال في طي الغيب، لأن ذلك لن يتحقق إلا بعد نجاح الهجوم على قناة السويس." ورغم وجود خلاف جوهري بين النصين فإنهما يفصحان معاً عن قلة اهتمام هتلر والقيادة الألمانية بما يحصل في العراق بدليل جهلها بالنتيجة المأساوية التي آلت إليها وقت صدور هذا الأمر. نقول: مع الأهمية الخاصة التي =

من جهة أخرى كان يبدو من العقداً الأربعة شيء شبيهه بالثقة المطلقة في صمود الجيش العراقي امام القوات البريطانية. على الأقل طوال فترة مناسبة يثبتون فيها للمحور اهميتهم الاستراتيجية ليرغموه على التدخل والمساعدة وبكل جهل منهم بما خطه هتلر لغزو الإتحاد السوفياتي.

هذه الثقة تكشف عنها الرواية التالية يرويها الملازم إسماعيل العارف قال:

"عُينت رقيباً على المحادثات الهاتفية من بين ضباط آخرين يؤدون المهمة في بدالة الهاتف المركزية الواقعة في شارع الرشيد بمحلة السنك ببغداد. وفي ذات يوم سألتني أحد عمال البدالة ما إذا كنت أرغب في التنصت الى محادثة تلفونية بين رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني وبين العقيد صلاح الدين الصباغ. فطلبت منه أن يفتح لي خط الرقابة للإستماع الى ذلك الحديث، وقد جرى على الشكل الآتي:

رشيد: صلاح بك! علمت أن الإنكليز قد انزلوا قطعاً إضافية دون موافقتنا هل عملتم شيئاً ضدهم؟

صلاح الدين: نعم رشيد بك! اننا على علم بذلك وارجو أن لا يشغلك الأمر وسنلقيهم في النهر ركلاً بأرجل الجنود.

= تعزى لتاريخ چرچل عن الحرب العظمى، فقد وجهت إليه مطاعن تتعلق بعدم دقته في سرد الوقائع والأحداث وتصرفه الشخصي في انتقاء ما يعجبه من فقرات من الوثائق التي استخدمها. واستعجاله في إثبات روايات معينة معتمداً فحسب على ما تعيه الذاكرة منها. واقرب مثل ذلك ما جاء في الوثيقة التي نقلنا منها قوله: "هبط في مطار بغداد الضابط الألماني الذي انبط به انجاح عمليات قوات المحور الجوية في العراق وفي رأسه رصاصة اصابته من حلقائه بطريق الخطأ، وهو ابن الفيلدمارشال فون بلومبيرگ. لكن خلفه الجنرال فيلمي (Filmy) كان أسعد خطأً من سلفه فقد هبط في بغداد سالماً ولكنه لم يوفق في عمل شيء".

نقول: الرائد إكسل فون بلومبيرگ كان يقود واحدة من طائرات مسز شميدت المقاتلة القاصفة الثلاث التي وصلت بغداد في ١١ أيار. ولم تُط به مسؤولية كتلك التي عزاها إليه چرچل. أما الجنرال فيلمي، فلم تطأ قدمه أرض العراق وإنما وصل حلب بعد هروب القادة والزعماء. واقتصر عمله على إخلاء المجاهدين الفارين وتأمين إيصالهم إلى ألمانيا ومن بينهم القائد الفلسطيني فوزي القاوقجي الذي كان قد اصيب بجراح بالغة.

وبالمناسبة أيضاً فإن السيد طالب مشتاق، أحد المشاركين في حركة مايس زعم في مذكراته "أوراق أيامي" بيروت ١٩٦٨، الص ٢٩٧: "إن الميجر فون بلومبيرگ قُتل في أثناء معركة جوية!" وهو لا يتفق مع التحقيق الرسمي الذي جرى. وكل ما في الأمر ان مطلق الرصاص هو عريف في المطار حسب الطائرة إنكليزية. إذ لم يكن للعراقيين عهد بالطائرات ذات الجناح الواحد، إلا بعد أن ظهرت البريطانية منها في سماء بغداد لأول مرة. وقد نُعي الضابط في الإعلام الألماني بهذا الشكل.

رشيد: صلاح بگ! المسألة مهمة تحتاج الى إجراءات فورية وأرجو أن تبادروا الى تنفيذ شيء قبل أن يوطدوا أقدامهم.

صلاح الدين: إطمئن رشيد بگ! كل شيء سيكون على ما يرام وقد أصدرت الاوامر الى قطعاتنا بالبصرة لمقاومة الإنزال وضرب القطعات البريطانية.

وانتهى الحديث عند هذا الحد. واطبق الطرفان سماعتيهما فهالني حقاً ما سمعت وبدا لي أن الامر خطير لا يسمح بمعالجته بهذا الأسلوب.<sup>(٣٨)</sup>

كان هذا في اواخر نيسان على الارجح كما يدل عليه موضوع المكاملة. الا أن (كمال عثمان حداد) ينقل لنا صورة اخرى مماثلة بعد مضي ١٥ يوماً على القتال غير المتكافيء وتحقق النتيجة. قال وهو شاهد عيان:

"حصلت مشادة كلامية عنيفة بين رشيد بگ والقائد صلاح الدين. كانت نظرية هذا الاخير أن الألمان اكتسحوا اليونان وأخذوا يتقدمون في الجزر الجنوبية مثل (كريت) وغيرها وأنهم لا محالة سينزلون قوات مهمة في سورية، وانه يجب الصبر والثبات ورفض مفاوضة الإنكليز وإلا فسندخسر الجانبين (القصد هنا انه الإستسلام). أما رشيد بگ، فقال: انا لست بالرجل العسكري لكن خمسة عشر يوماً مضت على الحركات وأنتم تهددونني كل يوم بالتسليم. ثم اننا اتفقنا على سياسة معينة. ولم نعد ألمانيا بالحرب الى جانبها. وهذه فرصة مناسبة للعودة الى ما اتفقنا عليه من سياسة الحياد التام ومفاوضة الحكومة البريطانية للإعتراف بحكومتنا كحكومة البلاد الشرعية. واصر رشيد بگ على موقفه وغضب القائد صلاح الدين الصباغ واخرج مسدسه بحركة عصبية فحال دونه السيد السبعاعي. وفهمت أن (البرقية) مزقت وان رشيد بگ مصر على الاستقالة. وما هي ساعة حتى هرع القواد جميعهم لاجتماع عقدوه ودعوا اليه سماحة المفتي ورجوه استرضاء رشيد بگ. وكانت مهمة شاقة حاول فيها المفتي اقناعهم بقبول شروط تركيا. فاعتذر صلاح الدين عما بدر منه، وقال يجب أن لانسرع في عقد الصلح مع الإنكليز فإنهم البادئون بالعدوان ومن الضروري أن نستمر في المقاومة شهرين

(٣٨) اسماعيل العارف، أسرار ١٤ تموز، ص٣٨. وبالنسبة تذكرني هذه الحادثة بعبارة وردت في خطبة نورالدين الأتاسي رئيس الدولة السورية في ذكرى احتفال بمولد حزب البعث العربي الاشتراكي تاريخ ٧ نيسان ١٩٦٧ ألقاها من ستاد يوم جمعة دمشق قوله: سنجعل من جنود الأسطول السادس الامريكى في البحر الابيض المتوسط طعاماً للأسماك.

أو ثلاثة اشهر لنرى ما يستجد من الأمور وما سيؤول اليه الهجوم الالمانى العتيد في جزيرة (كريت) فإني أرى الألمان لن يتخلوا عن احتلال سورية والتقدم منها نحونا وربما تخضع تركيا لهم وتتغير الأحوال.<sup>(٣٩)</sup>

\*\*\*

يقول علي محمود الشيخ علي:

"كان (المعروف) أن العراق قد ضمن مساعدة دول المحور قبل أن توارد في القتال، حتى أن القائد صلاح الدين وفي إجتماع مجلس الدفاع الأعلى يوم ٢٧ نيسان ١٩٤١ أعلن أن سماء العراق ستكتظ بالطائرات الألمانية في الدقيقة التي تنطلق فيها أول طلقة بريطانية ضد العراق<sup>(٤٠)</sup>... وكان رئيس الوزراء يثق بما يثق به الجيش، ويثق الوزراء بما يثق به رئيسهم، ثم يثبت أن هذه الثقة المتسلسلة خاطئة. فلم تكن هناك معاهدات أو اتفاقيات أو عهود أو موثيق لا سياسية ولا عسكرية بين دول المحور وحكومة العراق، وليست هناك خطة مشتركة عن الإصطدام وكيفية توقيته وعن وجود المعاونة وصور المساعدة. ولو كان لوزراء يعلمون بعدم وجود النصير وعجز الجيش وضعف القيادة لتبدلت آراؤهم ولكانوا أكثر اعتدالاً ومرونة. أما مصدر الثقة فهو المفتي نفسه، فقد ثبت أخيراً أن للمفتي الأثر الأقوى في تنمية هذه الثقة في صدور قواد الجيش ورئيس الوزراء. وكان في أيام الإصطدام كثير الإتصال بهم واسع النفوذ عليهم بدرجة أن كلمة واحدة منه كانت كافية لإلغاء أخطر قرار يتخذه مجلس الوزراء."<sup>(٤٠)</sup>

مع ذلك كله كان صاحب هذه المذكرات يرى الحرب ضرورية لا مناص منها:

"كان من الضروري أن يقرر مجلس الوزراء (الحرب) لأن بريطانيا أصبحت عدواً بالنظر لعدوانها، وان ألمانيا وروسيا كلتاها (كذا) كانتا عدواً (كذا) لبريطانيا، ولأن عدو عدوي داخل في صداقتي، وهو مثل بليغ في مغزاه واضح في معناه لا تستغني المجتمعات البشرية عن إكتفاء حكمته ولا بد من الإهتداء بهديه في كل

(٣٩) العبارة بين القوسين الكبيرين هي لنا، والبرقية التي ورد ذكرها هنا هي كما يذكر المؤلف برقية الشكر التي نظمت جواباً على عرض الحكومة التركية وساطتها على حكومة الكيلاني. ومنها اشارة الى قبول العرض مبدئياً. (يبدو وزير العدلية هنا وكأنه لايدري شيئاً عن تصريح ٢٣ تشرين أو لم يسمع به).  
(٤٠) علي محمود الشيخ علي: المذكرات ص٦٩ بيروت ١٩٦٧.

فيكون رسم المواقف السياسية وتحديد علاقات الدولة الخارجية وكيانها كله - بالحكم الشعبية والأمثال والأقوال المأثورة في عرف أستاذنا (الشيخ علي) (٤٢).

ويصف الوزير الآخر الدكتور محمد حسن سلمان الموقف الحربي في مذكراته وهو غير عسكري بهذا:

"لم يتخذ اجراءات كافية لحماية تلك القطاعات (المحاصرة لقاعدة الحبانية) فلا خنادق لحماية الحدود ولا تغطية جوية ولا خطة عسكرية سوقية واضحة لأي عمل عسكري وكان الوضع سائباً والى آخر درجة من الإهمال. وهاجم الطيران الإنكليزي معسكر الرشيد مستهدفاً أهم المراكز الاستراتيجية ومرابض الطائرات ومخازن الذخيرة والعتاد والوقود وغيرها من الأهداف المهمة. ومما جعل النصر بعيد المنال مع الأسف، تناقص العناد والوقود واختلال التموين وازدياد التذمر والفوضى بين قطعات الجيش وكانت الحسائر فادحة." (٤٣)

الرئيس الأول الركن محمود الدرة - وكان كما ذكرنا يشغل منصب معاون آمر الحركات لدى العقيد صلاح الدين الصباغ يصف ما حصل في اول يوم من بدء القتال:

"في صبيحة يوم ٢ مايس ١٩٤١ حلقت حوالي خمس وأربعين طائرة وبدأت بقصف القوات العراقية من مواقعها الدفاعية. فاضطر العراقيون الى فتح نيران مدافعهم على قاعدة الحبانية. واستمر القصف الجوي على القوات العراقية بسنّ الذبان تسع عشرة ساعة في اليوم الأول، وفي الأيام الأربعة التي تلتها... لم تتحرك القوات العراقية من مواقعها الدفاعية، بل لم تقم قيادتها في الفلوجة بتنفيذ خطة إزاء القصف الجوي. وتركت لكل قطعة من قطعاتها حرية العمل من غير تنسيق." (٤٤)

(٤١) كذا: ص ٤٤.

(٤٢) كذا: ص ٦٣.

(٤٣) كان من المقرر أن يكون رشيد عالي الكيلاني استاذنا المحاضر في مادة قانون العقوبات (القسم الخاص) إلا أننا لم نر وجهه وأتاب عنه علي محمود الشيخ علي، ولم يبق هذا طويلاً إذ افتقدناه بعد فشل الحركة وسجنه. كانت ساعات دروسه الأخيرة على ما أذكر شرح موقف الحكومة الحازم من مطالب إنكلترا التعجيزية.

(٤٤) "صفحات من حياة بيروت" ١٩٨٥، الص ١٥٦ وما بعدها.

في اليوم السابع من مايس ترك العقيد كامل شبيب الجبهة الى بغداد وهو شبه مجنون كما وصف أصحاب المذكرات حالته، وأصرّ الكيلاني على إعدامه (والعهدة في هذا على قول أصحابه) بجريمة الفرار من جبهة القتال، ولكن الوزراء الآخرين توسطوا له. ويقدم لنا علي محمود الشيخ علي له وصفاً آخر له مشيناً:

"ان ضربة سنّ الذبان قد أثرت في نفسية هذا القائد كامل شبيب تأثيراً فظيماً حتى تركته لا يبدي ولا يعيد. ولقد رأيته في مقر القيادة الغربية قابلاً في زاوية في غرفة صلاح الدين (الصباغ) منفوش الرأس جاحظ العينين باهت اللون لا يعقل ما تحدّثه به، ولا يجد جواباً إن ألقيت عليه سؤالاً من شدة الذهول. وقد كانت الأوهام تنتابه انتياباً مروعاً حتى إنه قفز فجأة الى الشباك وأخذ يسدل الستائر بإحكام خشية أن تهاجم الطائرات البريطانية، فتلقي قنابلها على الغرفة التي يقيم فيها جنابه." (٤٥)

واتهم الصباغ صديقه الآخر العقيد فهمي سعيد (موضع سره وثقته) بمخالفة أوامر القيادة وأحضر الى بغداد وحرار (الصباغ)، الذي كان يتولى القيادة العامة وإدارة العمليات، ماذا يفعل به. ثم اصدر أمراً بتعيينه قائداً للفرقة الخامسة التي لا وجود لها إلا على الورق (٤٦).

اما وزير الخارجية موسى الشابندر فقد اختفى عن الانظار بنهاية الاسبوع الثاني وفشلت الجهود في العثور عليه. ثم علم انه رحل الى الموصل بمعية الوزير الثاني محمد علي محمود وصعب عليهما فيما يبدو الشخصوس الى تركيا، فعادا الى بغداد ليرحلا الى خانقين. وفي ٢٧ من مايس اجتازا الحدود الى ايران.

وفي اليوم السادس عشر كما يذكر بعضهم - هرب ناجي السويدي وزير المالية، وهو الرجل الذي وضع مواهبه القانونية في خدمة الكتلة الانقلابية لإكساء عملية خلع الوصي وتشكيل الحكومة الكيلانية ثوباً دستورياً. وفي ايران قبضت عليه السلطات البريطانية مع الآخرين

(٤٥) المرجع السالف، (الدرة)، ص ٢٦٨-٢٩٩. تم انسحاب القطاعات العراقية الكامل من مرتفعات الحبانية في السادس من مايس (أيار) بعد الغارات الجوية والقصف المدفعي، ولم تقع مواجهة معركة بين القوات الأرضية تستأهل نعتها بهذا الوصف.

(٤٦) شكلت الفرقة الخامسة في عهد عبدالكريم قاسم (المعلومات التي أوردناها هنا عن مصائر قادة مايس واحوالهم في هذه الفترة وردت في سائر المراجع التي اعتبرناها هنا ولم تكن سراً في أي وقت، لهذا انتقت الحاجة الى إثبات مصادرها. كانت الأوامر تكتب باسم رئيس أركان الجيش ووزير الدفاع الغائبين، وتُذاع في غيابهما على الأغلب).

الذين لم يفلحوا في التسلسل الى تركيا<sup>(٤٧)</sup>. وفي اليوم الثامن عشر تعطل الدكتور محمد حسن سلمان وزير المعارف بمرض لم يجد له علاجاً في بغداد. فعادها الى بيروت بإجازة مرضية ومنها التحق بالغيلاني وبباقي الجماعة في برلين. وفي نهاية الأسبوع الثاني من هذا الشهر القومي العظيم - رأى الغيلاني أن يتحول من التفكير في مصير بلاده وفي حمايته من المستعمرين الى التفكير في مصير عائلته وفي حمايتها. فسفر زوجته وابنه وبناته الى انقرة) وكذلك فعل الوصي الجديد (شرف). وسارع رئيس أركان الجيش بالوكالة الفريق امين زكي في التاسع والعشرين منه للإضمام الى العقيدين الهاربين (قيل انه كان قد هياً سيارة خصوصية منذ نهاية الأسبوع الأول لهذا الغرض).

كان هذا الضابط الذي يعلو العقداً الأربعة بثلاث رتب قد لازم منزله، تاركاً إدارة العمليات والحركات (للصباغ)<sup>(٤٨)</sup>. لم يعتبره المؤرخون القوميون بطلاً فقد اشترى حياته وأنقذ عنقه بوصف نفسه بالدابة والبهيمة أمام حكامه، فخسر بالمقابل لقب الشهيد. وكان السبعوي آخر من رحل، قالوا أنه رجل في الواقع أبي أن يترك العاصمة وعلن نفسه حاكماً عسكرياً. واعتزم الدفاع حتى النفس الأخير بكتائب الشباب التي كان يترأسها وبعض الوحدات العسكرية المرابطة، لكنه أدرك رفاقه واجتازوا الحدود معاً. هربوا بهدوء تام دون أن يشعر بهم أحد، وفق خطة ناجحة من دون كل ما خططوا في مجال إدارة الحرب تحت غطاء اعتزام مواصلة القتال في خطوط دفاعية مهيأة شمال مدينة كركوك. وإشغال ضباط الوحدات بالإستعداد لها<sup>(٤٩)</sup>.

(٤٧) هذا الفقيه القانوني الذي تقلبت به الوزارات، وكان رئيساً للحكومة عام ١٩٢٩ وواحداً من أعضاء اللجنة التي اعدت لائحة الدستور العراقي. يذكر شقيقه (توفيق) عن تورطه في حركة مايس هذا القول: انه اقدم على خطوة رهيبة باشتراكه في حكومة رشيد عالي وتحمله نتائج أعمالها التدميرية، فقبض عليه في ايران وسبق مع جماعة كبيرة الى المنفى حيث اختلت صحته واستسلم لليأس القاتل وتوفي في ١٩٤٢ في سالسبورج (من اعمال روديسيا = زمبابوي الحالية) كتاب (وجوه عراقية، دار الرياض للنشر). ويزيد الكاتب العراقي مير بصري على هذا قوله: ولعل من غرائب القدر ان ناجي السويدي، وهو السياسي المحنك المترن قد اشترك في حكومة الدفاع الوطني وناصر الحرب التي بدت يائسة لا مخرج منها (اعلام السياسة في العراق الحديث، لندن، دار الرياض، ص١١٦).

(٤٨) كان الصباغ يقع عنه أوامر الحركات ويصدرها باسمه في أغلب الأحيان ومن دون علم وزير الدفاع ناجي شوكت، الذي أثر البقاء في تركيا.

(٤٩) حدثني الأديب والشاعر الكبير عبدالحق فاضل في حينه، وكان يقضي دورة الضباط الإحتياط في الكلية العسكرية أيامذاك، إن طلاب الكلية كافة حشدوا ونقلوا الى محطة قطار كركوك ببغداد وأركبوا المقطورات ومكثوا مسمرين في مقاعدهم ساعات بطولها، ولم يتحرك القطار بهم. ثم قام ضباطهم ومعلموهم بإنزالهم والعودة بهم من حيث جاؤوا. وقد فهموا في حينه أنهم سيشغلون خطاً دفاعياً شمال كركوك. كان ذلك =

قال كتاب تلك الفترة ومؤرخوها ولا سبيل لنا إلا تصديقهم. أن الصباغ ظل ملازماً غرفته في وزارة الدفاع طوال ذلك الشهر العصيب لا يخرج منها لتفقد قطعات الجيش، خلاف ما طُبع عليه خلال السنوات الماضية من حركة دائبة وزيارات متتالية لمعسكراته والإجتماع بضباطه وإلقاء دروس في الوطنية والقومية عليهم. وهو يؤيدنا في ذلك، فليس في مذكراته التي خلفها ما يشير الى زيارة واحدة قام بها.

في أي مرتبة نضع هؤلاء القادة الذين نُعتوا بالأبطال والشهداء في المراتب التي هيأها التاريخ للذين دخلوه بالحق أو بالباطل؟

كُتِبَ التاريخ تحفل بأخبار قادة عسكريين ومدنيين ناضلوا وعملوا مخلصين متفرغين في سبيل قضية أو عقيدة، فخابوا لكنهم فضلوا إنهاء حياتهم بأيديهم على الوقوع في أيدي المنتصرين. وتطالعنا فيه صور قادة كبار وامراء جيوش، لم تكن لديهم قضية معينة ولا عقيدة يقاثلون من اجلها سوى اداء لواجب انيط بهم فشلوا في تحقيقه أو اخطأوا فأخفقوا ولم يترددوا في إنهاء حياتهم. واقربهم البنا ربانة السفن العارقة بعد إشرافهم على وضع آخر راكب في قارب النجاة وفي مقدور معظمهم النجاة.

ونجد في التاريخ أيضاً أنباء كثيرة عن حكام مستبدين عابثين، تجردوا من كل القيم الخلقية، لكنهم فضلوا الموت بأيديهم على الوقوع في قبضة مطاردتهم. فأين زعماء حركة مايس القومية التحررية من هؤلاء؟ وما هو المثل الذي يضربه هروبهم للقوميين العرب اللاحقين؟ وفي أي مرتبة يوضع هؤلاء في سجل التاريخ؟

بالأخير، وبالآخر فقط لم يفكر احد منهم فيما سيُقال عنه غداً، وبدا وكأن تعلقهم بالحياة يفوق هيامهم بالسلطة والنفوذ. وبكل ما زعموا أنهم نذروا حياتهم لأجله. عندما اخطأهم التوفيق في الإستئثار بالسلطة، راحوا يتشائمون ويتلاعنون ويرمي أحدهم الآخر بكل نقيصة، وانصب حنقهم على الأموات منهم لأنهم لا يستطيعون الدفاع عن انفسهم وقذف الآخرين بعين ما قذفوهم به. وأقلّ التهم زمالتهم وقبولهم مسؤولية السلطة معهم.

اني لأعجب مثلاً عن قول علي محمود الشيخ علي "ولو كان الوزراء (وهو منهم) يعلمون بعدم وجود النصير وعجز الجيش وضعف القيادة؟" و"أن مصدر الثقة هو المفتي ورئيس الوزراء" وأن "الثقة كانت بدرجة أن كلمة واحدة من المفتي كانت كافية لإلغاء اخطر قرار

= في اليوم التاسع والعشرين. لم تكن أقوال عبدالحق موضع شك عندي مطلقاً. مع هذا فقد أيد ذلك لي عدد كبير من الضباط الذين كانوا طلاباً بالكلية العسكرية آنذاك.

يتخذ مجلس الوزراء". ألا يدرك هذا الوزير بقوله هذا إنه يتهم نفسه بالقصور وضعف النفس، والجبن وفقدان أي إحساس بالكرامة في وضع مثل هذا؟<sup>(٥٠)</sup>

وتلك التي سموها بالحرب العراقية - البريطانية. كم يصح أن يطلق عليها وصف "الحرب"؟ لم تكن حرباً بالمعنى الذي تنعت به الحروب من أي وجه نظرت إليها. فالوحدات التي احتلت مواقع في المرتفعات المحيطة بالقاعدة العسكرية البريطانية لم تكن تدري أنها تُستخدم في قتال إلا بعد أن مزقتها الغارات الجوية تمزيقاً.

وهذا الذي وصفه مؤرخو حركة مايس العرب بالخلاف على تفسير بنود معاهدة ١٩٣٠ كان أصلاً خلافاً مفتعلاً. فبصرف النظر عن خلو المادة الخاصة بشرعية وجود القوات البريطانية من أي غموض، كان هناك التواجد العسكري البريطاني المستمر غير المنقطع منذ نزول أول فوج بريطاني ثغر البصرة في العام ١٩١٥، وهو وجود لا يحدد بحجم أو عدد بمائة أو ألف أو مائة ألف، وجود أملت معاهدة دولية. طبقتها الحكومات العراقية المتعاقبة بأمانة، ولم تُقم أية واحدة منها عقبة أو تشير احتجاجاً حول عدد القوات المتواجدة في قواعد بريطانيا العسكرية بالعراق فليس هناك تحديد لحجم القوات في نص المعاهدة.

ويذكر مؤرخو حركة مايس انفسهم أن حكومة رشيد عالي نفسها - أرسلت وفداً عسكرياً على مستوى عالٍ للترحيب بالوجبة الأولى من الوحدات البريطانية النازلة في البصرة<sup>(٥١)</sup>.

ولم يثر الخلاف المفتعل، إلا عندما أدرك زعماء حركة مايس من البناء العسكري البريطاني المتعظم، أن البريطانيين ضاقوا ذرعاً بوجودهم، واستنتجوا، ولم يكونوا بعيدين عن الحقيقة، بأن من أهداف إنزال المزيد من القوات هو بناء القوة التي تضمن للبريطانيين القدرة على إزاحتهم عن السلطة، وموتهم السياسي.

وكل المصادر التي بأيدينا ومعظمها مؤلفات عربية، كتبها أنصار ومشايخون للحركة ومنهم من شارك فيها عسكرياً، تكاد تجمع بأن القوة الجوية البريطانية حسمت القضية التي سموها حرباً خلال الأسبوع الأول من ذلك الشهر، وما تبقى كان أعمال دوريات يتخللها زحف سريع لا يلقي مقاومة، ومناوشات موضعية تنتهي بانسحاب أمام القوات المتقدمة.

ذات يوم، وبعد مرور سنين عديدة، دار الحديث عن حركة مايس بيني وبين صديق من

(٥٠) راجع المقتبس كاملاً في ما سبق من هذا الفصل.

(٥١) كان يرأسه اللواء الركن صاحبنا إبراهيم الراوي قائد الفرقة الثالثة والميجر جنرال (ووتر هاوس) رئيس البعثة العسكرية البريطانية في العراق.

الضباط العراقيين المثقفين الواسعي الإطلاع ويا ما أكثرهم - كان ضابطاً صغيراً من الوحدات التي احتلت مرتفعات الحبيانية، وهو الآن ذو رتبة قيادية عالية، كان يؤكد لي خطأ كل من سمى ما جرى بالحرب. وفي وقتها كنت في شك من الأمر ولم أشاطره الرأي ربما بوقوعي تحت تأثير التقرير الذي كتبته قيادة الجيش العاشر عن تلك العمليات العسكرية لوزارة الحرب البريطانية، لاسيما عن معارك في الفلوجة. فأسرعت أذكره به، فاجاب مبتسماً:

ان كنت تحسب العسكريين البريطانيين من طينة تختلف عن طينة الآخرين في تجسيم أعمالهم ومبالغتهم في وصف عمليات موفقة سهلة لم تقتض منهم جهداً كبيراً، ولا يستطيعون أن يثبتوا لأنفسهم ولا لعدوهم خسائر كبيرة فيها، فأنت واهم. إنهم كغيرهم لا يستنكفون عن المبالغة والضرب في آفاق الخيال، وها أنت ترى لو أنعمت النظر فيه، إنه لم يأت لوصف معركة واحدة، غير اشتباكين صغيرين أحدهما بقوة لا تزيد عن سرية واحدة في الحبيانية، والأخرى في الفلوجة بقوة فصيل واحد يقودها عريف آشوري<sup>(٥٢)</sup>.

حدثني ضابط آخر لا أريد التنبؤ به باسمه، وكان ملازماً في الوحدات التي طوقت قاعدة الحبيانية، قال إن كثيراً من الضباط والجنود اعتراهم نوع من الهستيريا والخيال بسبب القصف الجوي الشديد المتوالي. وضرب لي مثلاً بضابط تجد اسمه في قائمة اللجنة العليا للضباط الأحرار الذين هندسوا وحققوا إنقلاب الرابع عشر من تموز ١٩٥٨، أنيطت به قيادات عسكرية هامة واستوزر مرات وبدا في حين من الزمن من غلاة القوميون العربيين العاملين في سبيل الوحدة. قال صاحبي عنه إنه فقد وعيه تماماً وصار يصرخ ويحاول الخروج من الخندق. ولم يكن ثم وسيلة للسيطرة عليه غير ربطه بالخيال التي نستخدمها لعقال البغال.

وحكاية بطل الرابع عشر من تموز عبدالسلام محمد عارف، مع مدرعته في الفلوجة هي حكاية مشهورة، تناقلها زملاؤه حيناً ثم أثبتتها بعضهم كتابةً. ومجملها أنه وفي السادس من أيار وعلى إثر انسحاب وحدات الجيش من الفلوجة الى بغداد، أرسلت مدرعتان احدهما بقيادة الملازم (هندي صالح الفلاح) والثانية بقيادة (عبدالسلام محمد عارف) ووجهتهما الحبيانية، فهوجمتا جواً بالقرب من موضع يقال له: القنطرة الحمراء وحطمت قبلة مقدمة مدرعة الملازم هندي فتركها، فما كان من عبدالسلام وقد رأى ما حل بمدرعة صاحبه إلا أن ترك مدرعته وألقى بنفسه في نهر الفرات فانحدر به تياره الى الفلوجة. وبقي منتظراً حتى أسره الرتل البريطاني المتقدم مع غيره من الضباط الذين قُدموا للوصي عند عودته. فصاروا

(٥٢) Paiforce: (تقرير القيادة المشتركة) انظر الترجمة الكاملة له في الحسني (المرجع السالف).

يتسابقون الى لثم يده والهتاف بحياته، وذكر أحد الضباط منهم انه كان أعلى الاصوات الهاتفة بحياة الملك وشجب أفعال عصابة الكيلاني، حتى انه جلب اليه انظار المسؤولين. فصدر أمر تعيينه أمراً للمعتقل الذي ضم المشتبه بتعاونهم مع الحركة من العسكريين<sup>(٥٣)</sup>.

(٥٣) التفاصيل في (ست سنوات من تاريخ العراق لخيرالله طلفاح، ص١٥١، ط بغداد ١٩٧٢). وكان واحداً من المعتقلين الذين احيلوا الى التقاعد. راجع كذلك: التاريخ يكتب غداً. (المرجع السالف) ص ٢٢٤.



## الفصل التاسع عشر

صناعة الضجيج دُرِّبَت تدريباً خاصاً على النهوض بما يطلب منها في الوقت المناسب، ويسهل عليها حشد الغوغاء وإطلاقهم في مسيرات وتظاهرات، مثلما كان يسهل عليها تنظيم اجتماعات عامة في أماكن العبادة وغيرها من المحلات. ويعامل الخوف من نقمة السلطة برزت ظاهرة الرياء عند وجهاء القوم ومقدميهم، لاسيما عندما يكون التهديد حقيقياً. ومن بين الكثير الذي كتب عن حركة مايس القومية وزعمائها العروبيين وعالج مقدماتها وأسبابها وطابعها القومي ومواقف قادتها ومصائرهم، لم أجد ما ينفع الغلة عن النتائج والآثار في العراقيين عموماً وفي مستقبل القضية القومية خصوصاً، بالأحرى لم يجرأ واحد من الكتاب على استعراض ردود الفعل والإفصاح في المجتمع العراقي خلال ذلك الشهر وما بعده.

وموقف الكتاب الذين نقصدهم مستوحى من الموقف الرسمي ومتأثر بخطاه. الجمهور كمية مهملة عند الحكام، فلماذا يكون أمره موضع اهتمام الكتاب؟

الشعب العراقي لا يمارس حقاً دستورياً واحداً من حقوقه ومثله مثل سائر البلاد الناطقة بالعربية، لأنها بعيدة عن صناديق الاقتراع مستبعدة عن صنع القرار لا تفكر حكوماتها باستطلاع رأيها أو استفتائها في قضية عامة اعتزمتها وقررتها. والحكومة تعبيء تلك الأقلية الصحابة وتشير ضجة استحسان حول الموقف الذي اتخذته فيها، لتعود فتقول لنا إنها ما اتخذت ذلك الموقف إلا نزولاً عند رغبة الشعب، ناسيةً أنها هي التي اختارته وأوجت باستحسانه.

كثيراً ما بدت لي أساليب هذه الحكومات في إقرار خطوة طائشة شبيهة بحكاية أشعب<sup>(١)</sup> (مع اهالي المدينة). وقف مرة على عتبة بيته وراح ينادي في الغادين والرائحين: في منزل فلان الفلاني وليمة مجانية لكل قاصد (فهرج الناس الى بيت فلان) ثم مايلبث أن ينسى أنه هو صاحب الكذبة فيُهرج الى الوليمة الخيالية أيضاً.

وكالحكام العراقيين نسي البريطانيون أنهم أعطوا البلاد دستوراً ديمقراطياً وأن المسؤولية الادبية التي ضمنها لدولة العراق السر فرانسيس همفريز في قاعة مجلس العصبة العام تقضي بأن تعمل حكومته شيئاً في سبيل الدفاع عن هذا الدستور في وجه منتهكه، وان تأخذ بيد أولئك الناس البسطاء الذين أخرجوا فجأة من دهاليز القرون المظلمة، الى شمس القرن

(١) عرف في تاريخ الادب العربي باسم شعيب ابن جبير، وهو من ظرفاء المدينة، توفي في ٧٧١م = ١٥٤هـ، وقيل انه أناف على التسعين، وعرف بالطمع، فلقب بأشعب الطماع، وضرب به المثل فقيل (أطمع من أشعب). اخباره في الأغاني والعقد الفريد ووفيات الأعيان وغيرها من أمهات الكتب العربية.

(تتمة) الحقيقة في توجيه الشعور القومي العربي . الآثار البعيدة والقريبة . البريطانيون يشجعون المسيرة القومية باعتبارها خصماً لليسار . المد اليساري يكافم بشدة . الوجه الهازل والوجه المأساوي في حركة مايس . ذكريات خاصة وانطباعات شخصية . الزعامات المحلية تتبنى السياسة البريطانية ازاء اليسار وازاء الأفكار النازية . كتائب الشباب بزعامة يونس السبعواي خلال شهر أيار . صيد السحرة تعقيب الجواسيس الوهميين وأصحاب أجهزة اللاسلكي . عينات من هذه المضاحك . أكاذيب إذاعة برلين . يونس بحري ورسائله الى راديو بغداد والشعب العراقي . الخسائر التي مني بها الجيش العراقي . قصف الموصل . خسائر المدنيين . مذبحه الأول من حزيران بيهود بغداد . لجنة التحقيق . المجلس العرفي العسكري لمحاكمة القائمين بالحركة وأعمال النهب . مشاركة المتطوعين القوميون السوريين برئاسة أكرم الحوراني (لجنة نصره العراق) . موقف اليسار العراقي . الشيوعيون يستوحون موقف الاتحاد السوفياتي قبل الغزو . التحرك الكردي على الصعيد السياسي . رفض الكرد العراقيين التعاون مع الكيلاني وعصيته . بعض التحرك السياسي عند المثقفين والوطنيين الكرد . المطالبة بحقوق المواطنة المتساوية . مقاطعة حركة مايس في السليمانية . معسكرات اعتقال جنوب العراق للعناصر الممالة . انحسار المد القومي

لم تهتم حكومات العراق بما يقوله عنها العراقيون قط، ولم يهتم العراقيون بما يقرره حكامهم، ولم يكن هناك وسيلة ناجعة لمعرفة ما يريده هذا الشعب وما لا يريده، ما يستحسنه من عمل حكومي وما يستقبحه، وتصدر الأحكام عادة على النتائج والعواقب، يصدرها الكتاب والباحثون كل على هواه ويدرجة تقديره الشخصي لإحساس الجمهور الغالبة. وهو ما نسميه برأي الأغلبية. لكن لم يكن هناك رأي للأغلبية، إذ لا وجود لأغلبية في مجتمع عود على الانتهازية، والتصفيق للمنتصر، والبصاق على المغلوب.

كانت هناك أغلبية ساحقة تلوذ بالصمت في اغلب الأحيان، وأقلية ضئيلة صاحبة تحسن

العشرين. ولم تختلف أساليب التعبئة الجماهيرية لمساندة حركة مايس عن الأساليب التي اتبعت من قبل في احوال كهذه، إلا انها هنا لم تكن موجهة ضد أعداء النظام المحليين: الكُرد والكُرد اليزيدية والأشوريين والشيعية في الفرات، بل كانت ضد المستعمر البريطاني. كما اختلفت أيضاً بطابعها القومي العام الذي خرج عن النطاق المحلي بمشاركة الحركات القومية النامية في بعض البلاد الناطقة بالعربية مشاركة فعلية، وكذلك بظهور القضية الفلسطينية قضية مركزية فيها تبعاً لذلك.

كل هذا من الأمور المعروفة المسلم بها ولا يحتاج أمرها الى تفصيل. إلا أن هناك نقاطاً لا يسعني إغفالها أو الإشارة إليها عرضاً. وأول ما استرعي اليه الإنتباه هنا هو الموقف البريطاني من تلك التعبئة الجماهيرية المتسمة بالبلادة والغباة. فمنذ أن بدأت النظرية النازية العنصرية تتسلل الى الأفكار القومية العروبية لتمتزج بها امتزاجاً عضويًا، بدا وكأن البريطانيين لايشعرون بخطر هذه المادة المتفجرة عندما يُشعل فتيلها إندفاع قيادات قليلة الصبر، قصيرة النظر، مشحونة بتلك المادة السريعة الإنتقاد الضاغطة على أعصاب الزعامات الشرقية، مادة العداة للأجنبي (المحتل) المستعمر.

كان الموقف البريطاني - الفرنسي اللين المتسامح من الغزوة الفكرية النازية - الفاشية للأقطار الناطقة بالعربية جزءاً من السياسة العامة التي اتبعتها هاتان الدولتان الديمقراطيةتان طوال السنوات العشر التي سبقت الحرب. إن اخترنا اقصر المدد - وهي نتيجته ظاهرتين أولاهما الإنطباع الشديد الذي خلفته مآسي الحرب العظمى والحسائر الهائلة التي نجمت عنها - في نفوس الشعبين. الأمر الذي كان يحدو بالحكومات المتعاقبة فيها الى تبني سياسة اجتناب الحرب بأي ثمن. وثانيهما الخطر الآتي من الشرق الأوروبي متمثلاً في الثورة العالمية التي دعت اليها ماركسية الإتحاد السوفياتي ضد العالم الرأسمالي.

قلنا: لم يكن النظامان الفاشيان في نظر الدولتين العظميين مصدر خطر حقيقي على العالم الرأسمالي في أي وقت من الأوقات، بل حتى في الايام الأخيرة التي سبقت الحرب العالمية الثانية. فالنظرية العنصرية التي قضت بسيادة العنصر الآري واستئصال اليهود الساميين وجعل القوميات الأخرى خدماً للسيد الآري المتفوق، كانت في نظرهم ثروة صيبانية صادرة من رأس ملثات، وبالعكس ذلك فإنهما وجدتا جدية في العهد الذي قطعه هذا الرأس المهووس باستئصال شأفة الشيوعية والقضاء على الإتحاد السوفياتي قلعتها الحصينة، وقد قدم هو والنظام الآخر الدليل على وعده الجازم بتصفية الشيوعيين والإشتراكيين وتنظيف التربة

الألمانية منهم خلال سنتين فقط من وصوله للحكم. وإذا كان الأمر كذلك في أوروبا، فلماذا لا تتبع عين السياسة في البلاد الناطقة بالعربية المهتدة بخطر تغلغل الشيوعية وغزوة الأفكار اليسارية الماركسية؟

هذه السياسة العامة لم تكن ترى أي بأس في نشاط نازي فاشي داخل البلاد الناطقة بالعربية الداخلة في دائرة نفوذها، ولا في الزواج الذي تم بين أفكار كتاب (كفاحي) وبين الفكر القومي العروبي. وقد وجدنا نوري السعيد الذي عرفه تاريخ العراق الحديث واحداً من أشهر الأمناء على مماشاة السياسة البريطانية وأنصارها في البلاد الناطقة بالعربية - وجدناه يعتمد على عين العقداة الأربعة والضباط القوميين الآخرين لوصوله الى الحكم في العام ١٩٣٩، بل يتمادى في إرضاء البريطانيين طمعاً في التقرب من القوميين وخطب ودهم. ووجدناه يضم الدكتور سامي شوكت الى وزارته التي ألغها في شباط من العام ١٩٤٠ وزيراً للمعارف. بل وأكثر من هذا فقد أعلنت وزارته التي شكّلها في العام ١٩٣٩ بنظام جديد للفتوة أكثر دقة وتنظيماً وإحكاماً وشمولية من سابقه وألصقه بالجيش وبوزارة الدفاع. واختار العقيد صلاح الدين الصباغ أمراً مشرفاً على التدريب العسكري فيه وجعله حلقة الإتصال بين وزارة المعارف ووزارة الدفاع، وكان وزيره سامي شوكت يؤم مكتبه الرسمي بشيابه العسكرية مختلاً حريصاً كل الحرص على استخدامه لقب (أمير الفتوة) الجديد في توقيعاته وكتبه الرسمية.

وتم في عهد نوري السعيد تجديد الإتفاق الذي عقد بين المفوضية الألمانية ومديرية الدعاية والنشر على إقامة وكالة أنباء برقية في دمشق لتكون بمثابة مركز استعلامات وتبادل للأنباء مع وكالة الأنباء الألمانية الرسمية (د.ن.ب). فكانت المصدر الرئيس لكل ما تنشره الصحف العراقية من الأنباء العالمية مستقاة من المنابع الألمانية.

ووجدت المفوضية الألمانية بتمادي الزمن أنها لم تعد بحاجة الى بذل جهود كبيرة لكسب الصحافة العراقية وأربابها الى جانبها<sup>(٢)</sup>. فقد كان التيار جارفاً والناس يتلهفون لتعقيب انتصارات ألمانيا الدبلوماسية والعسكرية. وما وجدوا أنفسهم إلا وهم يسيرون في التيار القومي المتعاطف مع ألمانيا النازية - وقد عُرف كثير منهم قبلاً بالإعتدال والإنتمائية أو اتهمت طائفة منها بعلاقة مع السفارة البريطانية. فبدا وكأن هناك مباراة في اقتناص الخبر

(٢) مثال ذلك جريدة (العالم العربي) لصاحبها ورئيس تحريرها (سليم حسون) وجريدة (البلاد) لصاحبها ورئيس تحريرها (روفائيل بطي)، وهما مسيحيان موصليان.

المشير من الصنف الذي ذكرناه - ناهيك بالصحف المعروفة بنزعتها العروبية كجريدة (الاستقلال) والصحف التي كانت تتلقى مخصصات مالية كجريدة (العقاب) المسائية اليوميين.

إن دراسة عابرة للوثائق البريطانية تكشف من ناحية عن مدى قلق السفارة البريطانية من تفاقم الدعاية النازية وازدياد روح العداء لبريطانيا ليقابلها من ناحية قلة إهتمام (الوايت هول) بالتقارير التي يتلقونها، أو أنه لم يكن يشارك سفارتهم رأيها بسبب السياسة العامة التي عرفت في حينه بسياسة (الإغضاء والإرضاء) إزاء دول المحور وقد قلنا فيها الكفاية<sup>(٣)</sup>. ظل تشجيع البريطانيين الشعور القومي في البلاد الناطقة بالعربية أياً كانت أشكاله ومراميه يمضي قدماً دون عائق ومهما علا صوت القوميون في لعان المستعمر والإستعمار لإدراكهم بالتجربة أن ذلك لا يعني شيئاً كثيراً ولا يستبطن أمراً جلاً وأنه يمكن معالجته عند وصوله درجة الخطر - ولم يجدوا في تسرب الأفكار النازية إليه ما تدعو الحاجة الى عملية وقائية. وانصرف المجهود الى مكافحة اليسار بكل أشكاله، لاسيما ذلك اليسار الاشتراكي الذي يستوحي أهدافه من الماركسية وإشتراكية الإتحاد السوفياتي أو يتلقى الوحي من هذه الدولة. فببركات النفوذ البريطاني وبدفع من تلك السياسة البغيضة استن قانون مكافحة الآراء الهدامة الموجه رأساً الى استئصال تلك البذرة الخبيثة. فكان أول قانون تسنّه دولة في القرن العشرين لمكافحة حرية العقيدة بفرضه عقوبة الموت على مروّجي تلك الأفكار. وهو قانون لم تجرّ الدول الدكتاتورية على استئنان مثله<sup>(٤)</sup>.

(٣) في العام ١٩٣٥ غزا الطليان الفاشيون الحبشة وقضوا على استقلالها. فكان موقف اللامبالاة الذي وقفته بريطانيا وفرنسا من العدوان سبباً في مقتل عصابة الأمم وعاملاً مشجعاً لقتل معاهدة فرساي وتمزيق بنودها تحت أقدام الجيش الألماني بدءاً باحتلال حوض الراين بعدها بسنة واحدة، ثم التدخل العسكري الألماني - الطلياني للقضاء على الجمهورية الأسبانية وإقامة دكتاتورية الجنرال فرانكو.

(٤) انظر نص القانون في آخر الفصل، هناك تقرير حول الوضع السياسي العام بعثت به السفارة البريطانية لوزارة الخارجية متصدر بعنوان (الدعاية النازية في العراق): F.O.624-24-448. غفل عن تاريخ كتابته أو يوم ارساله: وهذه ترجمته ويعتقد انه كتب في أواخر العام ١٩٤٠، أو في زمن ما خلاله وهذا هو:

يستخدم النازيون الوسائل التالية من أجل ترويج افكارهم في العراق:

١- الصحافة: استخدمت جرائد عديدة بشكل أو بآخر بغية إثارة المشاعر العامة بالكراهية للبريطانيين - عن طريق تحرير مقالات توجيهية، ومن تلك الصحف صحيفة العالم العربي الواسعة الانتشار، وكانت البائدة، فقد راحت تنشر مثلاً ترجمة كتاب (كفاحي) متسلسلاً، والشائع في بغداد ان صحفاً معتدلة كثيرة، تتلقى مخصصات مالية من المفوضية الألمانية.

٢- رجال الدين المسلمون: يأتي علماء الشيعة والسنية في الدرجة الثانية من الأهمية في خطط الدعاية النازية، ويزعم بعضهم ان طائفة منهم تتلقى مساعدات مالية من المفوضية الألمانية، وقد كاد يكون في =

ووجه الغرابة في هذا القانون إنه لم يكن يشمل بأحكامه حتى على وجه التمويه - الدعوة الى النازية والفاشية ونشر أفكارهما، ولو لغرض تغطية المقاصد الأساسية منه على الأقل. وبقي هذا القانون يُستخدم سلاحاً بتاراً في يد الحكومات العراقية ضد معارضيه الدستوريين الديمقراطيين والحركات اليسارية القومية الكردية فضلاً عن الشيوعيين.

جاء العون كما ترى - للقوميين من الجهة التي ينازلونها في الظاهر - وترك لهم المجال حراً بآيديولوجياتهم المتعممة بالنظريات الشوفينية. هذا الموقف البريطاني إزاء النشاط القومي وغلبة الفكر النازي عليه أدى الى مضاعفات مرضية في المجتمع العراقي. ومن نتائجه أن هبطت الى أدنى مستوى تلك الهيبة ومظاهر الجلال الذي كانت تحظى بها بريطانيا من أصدقائها واعدائها على السواء.

= حكم الثابت أن البارزين من الخطباء وأئمة المساجد يتلقون رواتب شهرية لقاء مواعظهم الدينية أيام الجُمع. وتتجه خطبهم تلك على الأكثر الى الدعاية السياسية ضد البريطانيين وضد اليهود. هناك مجلة أسبوعية دينية اسمها (الناشئة الاسلامية) أوقفها صاحبها (كمال الدين الطائي) على نشر مقالات لترويج مثل هذه الدعاية والمشايع بين العراقيين.

٣- الجمعيات والنوادي: دأبت المفوضية الألمانية منذ العام ١٩٣٥ على تشجيع وتمويل كل جمعية أو ناد معاد للبريطانيين، وفي وقت ما من هذا العام قام كل من الدكتور (أمين رويحة) وهو قومي فلسطيني والدكتور (صائب شوكت) شقيق رئيس الوزراء السابق (ناجي شوكت) والشيخ (محمد مهدي كبة) وهو أحد مؤسسي حزب الإستقلال المنحل بتأسيس نادي (الثنى). وفي السنة التالية تأسس في الموصل ناد آخر باسم نادي الجزيرة برئاسة (نجم الدين جلميران). وبعده بفترة وجيزة أسس الدكتور (سعدالدين) في البصرة نادياً آخر باسم نادي (المهلب) وكل هذه النوادي الثلاثة أسسها النازيون (كما أشيع) لغرض الدعاية. كما ظهرت في الوقت عينه جمعيات سياسية تعتقد الإستخبارات البريطانية ان معظمها كان يتلقى مساعدة مالية من المفوضية الألمانية، ومنها جمعية الشباب المسلمين، وجمعية الهداية الاسلامية، فضلاً عن الجمعية السورية المسماة عصابة العمل القومي بمقرها العام في دمشق وفرعها في بغداد وجمعية الجوال العربي وجمعية الدفاع عن فلسطين التي أسسها (دوريش المقدادي وسعيد الحاج ثابت). كل هذه الجمعيات كانت ناشطة في الدعاية للنازية، وكما يظهر أن أغلبية المتعلمين العراقيين هم أما اعضاء ناشطون في هذه الجمعيات والنوادي أو هم انصار لها، وكثير من اعضائها يحتلون مناصب هامة في الدولة أو انهم يتمتعون بمكانة إجتماعية ومراكز مالية جيدة آه.

نقول: بقدر ما يتعلق الأمر بنادي الجزيرة ورئيسه نجم الدين جلميران، فباعترادي ان هناك مبالغة في وصف اتجاهه القومي، عرفت المؤسسة مدير المدرسة المتوسطة الشرقية وأنا في سنتها الأخيرة ١٩٣٦، ثم عرفته صديقاً وكانت لي علاقة بمعظم اعضائه وهم موظفون ورجال أعمال ومعلمون ومحامون وأطباء وصيادلة وتجار وبينهم عدد كبير من المسيحيين، ولم يكن ذا طابع قومي ظاهر قط. واسرة جلميران هي أسرة كردية الأصل مستعربة، وإن كان نجم الدين ذا ميول قومية فما من شك انه حملها معه بعد إنهاء دراسته في الجامعة الأمريكية، إلا انه لم يبد اي نشاط قومي ملحوظ قدر معلوماتي لا هو ولا النادي الذي كان يرأسه حيناً خلال شهري نيسان وأيار (مايس)، بخلاف النشاط الكبير الذي يمارسه الناديان الآخران. [راجع الملحق الثاني لهذا الفصل]

فقدت الأقليات المسيحية ما كان قد تبقى للبريطانيين عندها من ثقة في ضمان نوع من الحماية لها من التعصب الديني، الذي يتخذ الآن طابعاً قومياً أو بالأحرى من الشوفينية القومية العربية التي تشتمل بجلباب الدين، وأخذ أولو الرأي والمثقفون وبعض الضباط الكرّدي يفتشون عن هويتهم القومية كردّ فعل معاكس، وجرّت محاولات لإحياء تكتلات وجمعيات سرية قومية سابقة وتألّف أخرى جديدة<sup>(٥)</sup>. ولم يكن بين هذه العناصر القومية من هو أسوء حالاً من الأقلية اليهودية، فقد ظلت أبداً تأمل بالحماية البريطانية وإليها مرجعهم الأخير.

في هذا البحر العباب من الميول والإتجاهات السياسية، بدا التمييز بين معسكرين واضحين ضرباً من المحال.

قلة قليلة جداً من المسيحيين إنحدر بهم التيار العام الى المعسكر القومي، لا لشعور خالص بالهوية العربية، بل بقوة تيار الإعجاب بما يحققه الألمان من إنجاز سياسي عسكري ولحبية أمل في الخط السياسي البريطاني وبالأغلب الحرص على أن يكونوا الى جانب الغالب. إلا أنهم كانوا دائماً قلة.

لم يكن عجباً أن نجد اتجاهاً مفاجئاً لهذه الأقليات نحو اليسار الذي كان يمثله آنذاك الحزب الشيوعي العراقي. فقد كان في المعسكرين الديمقراطي أو اليساري وكما عرفنا بهذا الاسم تفرقاً لهما عن المعسكر القومي - من هذه الأقليات المثقف عدد لا يوائم نسبتها الى المجموع السكاني العام، وبلغ بعضهم فيها مراتب القيادة<sup>(٦)</sup>.

وفي الكلية وبين تجمعات التلاميذ كنت أجد مقياساً تقديرياً للوضع العام. وكلية الحقوق التي انتسبت إليها هي الطليعة السياسية للكليات والمعاهد العلمية العالية الأخرى. وفيها

(٥) في اوائل العام ١٩٣٨ شكّل الشيخ لطيف ابن الشيخ محمود جمعية برايتي = الأخوة في السليمانية، وهو تنظيم قومي سرّي انضم اليه سرّاء القوم هناك ومن اعضائها البارزين محمد صديق شاويس وأخوه إسماعيل حقي وملا أسعد إمام وخطيب مسجد السليمانية. وفي عين السنة قام ليف من الشباب الكرّدي بتأليف حزب آخر باسم (أزادي كورد= التحرر الكرّدي) وتبعته من هؤلاء منظمة (داركر) انتظم فيها المثقفون الكرّدي، وقد أسسها نوري صديق شاويس (عضو المكتب السياسي للحزب الديمقراطي الكرّدي فيما بعد) والشاعر يونس رؤوف (مؤلف النشيد الوطني الكرّدي - أي رقيب) وعبدالله توفيق جوهر. وقد نما هذا الحزب وكان له أعضاء وخلايا خلال ١٩٣٩-١٩٤١ في سليمانية واربيل وخانقين والموصل وبغداد، ومناهجه قومية صرفة "النضال من أجل الحكم الذاتي في العراق واستقلال كل كردستان، ومحاربة الفاشية والهنترية من أجل الديمقراطية لكننا ضد الإمبريالية، لاسيما الإمبريالية البريطانية".

(٦) إتخذت حكومات وجهات قومية هذا الواقع فيما يعد تعةً لايهام الحزب الشيوعي بارتباطه بالصهيونية وترويجها أراءها.

بدأت أولى تجاربي ومراقبتي لتطور الأحداث خلال الفترة التي سبقت الحركة، كما كان الشارع والصحف دليلاً على درجة الخداع التي بلغت حكومة الكيلاني في تهيئة الجو العام والجمهور لمواجهة الأسوء عما سيسفر عنه ذلك النزاع المفتعل أساساً بينها وبين الطرف الآخر<sup>(٧)</sup>. قرأت المقالات النارية اللاهية التي كانت تذكّر بأمجاد الأجداد وفتوحاتهم وقصائد من شعراء مجهولين مغمورين لا يعرف عنهم عالم الأدب والأدباء شيئاً - مما يجري مجرى معلقة عمرو ابن كلثوم:

"إذا بلغ الفطام لنا وليدٌ  
تخر له الجبابر ساجديننا"

وفوقها كلها برقيات التأييد والتشجيع المنشالة على تلك الصحف وهي حافلة بكل ضروب الملق، والمداجاة والمداهنة ولنا إليها عودة.

بطبيعة الحال لم أكن من الفريق القومي العربي، إلا أنني كنت شديد التحمس للتراث العربي الإسلامي العلمي والفكري وللغة العرب بنوع خاص، في حين كنت آنذاك أبدأ تقويمي للقوميين العرب خلال مراحل الإطلاقة الأولى على التراث الأدبي والفكري الغربي - ولك أن تسخر مني - على ضوء مدى معرفتهم بلغتهم وإتقانهم التعبير بها. وان لم تخني الذاكرة فقد كان اهتمامي بمدرسين يزيد كثيراً عن متابعتي دروسهما. يبدو أولهما متدلجلاً يحاول جاهداً إخراج جملة عربية فصيحة، فيخونه لسانه ويلجأ الى العامية البغدادية وما كنت حديث العهد بها بحكم إقامتي في مدينة الناصرية عامين دراسيين. وعندما كان يعصي على ثانيهما التعبير اللغوي السليم تراه يلوذ بالدارج البغدادي ليستقر بالأخير في حمى اللهجة الموصلية الدارجة، التي تشير الإبتسام عند البغداديين والجنوبيين. ويبدو كلاهما لغزاً محيراً للطلبة الكرّدي.

(٧) جاء في كتاب المستشرق الألماني برليتس، ثورة العرب (Der Aufstand Araber)، قينيا وموينخ ١٩٦٠، ص ١٦٣: إثر مقابلة له مع رشيد عالي في القاهرة انه سأل عن موقف الألمان من حركة أيار ودون إجابته هكذا نصاً: لم ينفذ الألمان تعهداتهم ولو فعلوا وأرسلوا لنا الطائرات والمستشارين والأسلحة التي وعدونا بها، لكننا انتصرنا وطرنا الانكليز لا من العراق وحده، بل من عموم الشرق الأدنى. كان اتفاقنا مع برلين تماماً دقيقاً في جزئياته وعلى كل شيء: الخطط، التوقيت، حجم المساعدات، الخ... إلا أنهم خانونا (قارن بين هذا القول وبين ما نقله الجمالي من قول له وقد ابتناه في الفصل السابق... ليس من المعقول ان يتأمر هؤلاء الناس جميعاً على الزعيم الوطني القومي ليحلوه قولاً معيناً... ففي العاشر من نيسان ١٩٤١، وهو يوم خلع الوصي ونصب وصي جديد، القى الكيلاني خطاباً في اعضاء المجلس جاء فيه: "احب ان اعرض على حضراتكم وكما اتضح لديكم ان هذه الحركة الوطنية هي حركة داخلية محضة ليس لها أية علاقة بآية دولة أجنبية دافعها الغيرة والوطنية وابعائها الحمية القومية" (النص الكامل في الحسيني المرجع السابق ص ٢٢٤).

ويعكس ذلك كان إعجابي بالأساتذة المصريين. لا تراهم قط يلجأون الى تعبير عامي مصري ولا يعوزهم التعبير وقلما يلحنون. وبدت المعادلة عندي في غاية البساطة. هؤلاء الأساتذة والطلبة القوميون الذين كانوا يقفون خطباءً فينا خلال تلك الأسابيع التي سبقت العاصفة كتّاب تلك المقالات الحافلة بالأخطاء النحوية والصرفية، واولئك الشعراء الذين قلّ أن سلمت قصائدهم الحماسية من اقواء وخلل في الوزن أو سناد. إن هؤلاء القومييين غير صادقين في دعوتهم للعروبة، بدليل قلة اهتمامهم بأهم مقومات أمتهم وهو اللغة.

كان هذا طراز تفكير ابن التاسعة عشرة، وأرجو أن يقتصر قرائي في السخرية وبظاهر سخفه. إلا أنه وأقرب بكل جد - كان عاملاً واحداً من عوامل عديدة أبعثتني عن تلك الضجة الكبرى التي أقامها زملاء خطباء في أبهاء الكلية وقاعاتها. وعافت نفسي سماع تلك الخطب التي تندد بالمستعمر وأذنيه، بعبارات مكررة وأنفاس لاهثة متقطعة تقابلها هتافات مقتضبة. في أواسط نيسان انفلت جبل الدوام تماماً. وافتقد الطلاب والطالبات اليهود، فقد آثروا أن يتغيبوا وقد أحسوا بدنو العاصفة ولاشك، وتغيبت أنا كذلك مع آخرين. إلا أننا دعينا تحت التهديد بالصارم من العقاب للحضور وتلقي التعليمات حول واجباتنا في كتائب الشباب، فقد أعلننا رئيسها الأعلى (السبعوي) أعضاء فيها مجندين - وشملت الدعوة طلبية الكليات جميعاً وحددت مهامها بالحراسة في مناطق بغداد ومعاونة رجال الأمن على حفظه. وحماية مؤخرة الجيش من التخريب وتعقيب الجواسيس ومروحي الدعايات السيئة المغرضة الخ... وكان مقرها وزارة الاقتصاد وهي الوزارة التي يتولاها السبعوي.

لم يكن هناك ضرورة لتدريب مسبق، فكلنا اجتاز مراحل تدريب الفتوة في المرحلة الثانوية. وأعطيت لنا ثياب الخاكي بسرراويل قصار كتلك التي تشبه بزة الكشافة مع شعار للكتائب يلصق على الصدر. لم يُعط لنا سلاح على ما أذكر. وقالوا ان عصاً صغيرة تكفي<sup>(٨)</sup>.

كان تنظيماً غير محكم يفتقر الى تسلسل المسؤولية. فما أذكره إن التعليمات الوحيدة التي تلقيناها هو القيام بواجب الحراسة في أقرب مركز للشرطة وإن ضباط ومفوضي المراكز أخطروا بذلك. إذن فقد كانت لنا سلطة فعلية! ومن دون محاسبة أو رقيب أو مرجع لحكم على صواب ما نفعله.

تشاء الصدفة العجيبة ان اكون سبباً في إنقاذ حياة وسلامة منزل من النهب الذي يدعى

(٨) سمعت من الزملاء بعد الدوام ان بعض المتحمسين الفدائيين من تلك الكتائب قد سُجّلت وانتظمت في فصول قادها رئيسها بنفسه الى موضع بالقرب من ضاحية السويبية، حيث شاركت كما قيل في التعرض للقوات البريطانية بضع ساعات.

باللغة الدراجة (فرهود) من جهة كانت مصدر راحة ورضا على النفس لا يملك إلا ان يشعر به كل من قام بعمل جليل، إلا ان الحادثة والى جانب امور أخرى اشاعت في نفسي اشمئزاً ونفرة وعزماً على ترك بغداد مهما كلف الأمر والتوجه الى مدينتي. وقد فعلت بعد أسبوع واحد ونيف. وبعدها لم اقم بالتجوال الليلي أو النهاري مطلقاً، فقد كانت تجربة قاسية وهي مما لا ينسى<sup>(٩)</sup>.

والظاهر أن حمى تعقيب الجواسيس والمتخابرين مع العدو باللاسلكي وغير اللاسلكي لم تكن قاصرة على العاصمة والناس يتطوعون لهذه المهمة الوطنية أو القومية بوصفها واجباً. وربما ان الأقليتين اليهودية والمسيحية كانتا أبداً موضع شك في ولائهما للعدو البريطاني. فقد

(٩) كان المنزل الذي أسكنه في الباب الشرقي بالقرب من نهاية الشارع الذي عرف في حينه بشارع غازي، وفي تلك المنطقة صفوف من المنازل الحديثة البناء التي تنم عن يسر أصحابها المالي، واخترت زقاقاً رحت اقطعته ذهاباً لأدلف منه الى الآخر إياباً، والوقت ليل استرعى انتباهي شخصان بثياب عربية يقفان امام باب احد المنازل يتشاوران ويبد أحدهما قضيب معدني. فدنوت منهما وأنا أخطر ملوحاً بعصاي وسألتهما عن سبب وجودهما مذكراً بقرار منع التجوال، فأجاب احدهما: سيدي من هذا المنزل تُرسل إشارات لاسلكية، لم تكن لي خبرة بكيفية عمل اللاسلكي وكنت أقدّر ان هذين الشخصين مثلي أيضاً لم يتح لهما أي وقت لمعرفة طريقة استخدامه، إلا اني تقدمت من الباب ورحت أنتصت تنصت الخبير العارف. كان المنزل معتمداً لا يصدر منه صوت أو يتسلل منه ضوء، طرقت الباب مراراً فلم يجبني أحد. وأسقط في يدي، ثم خطر ببالي الإستنجاد بالسلطة التي اضفتها علي ثيابي. وفي أثناء ذلك زاد المجتمعون وبلغوا أكثر من عشرة وبيئهم من يحمل هراوات. وصحت بواحد كان يقف بعيداً بأن يذهب الى مركز الشرطة القريب ويستدعي المفوض، إلا ان القادمين الجدد كانوا في عجلة من امرهم يريدون التحقق من وجود اللاسلكي. وخطرت ببالي فكرة أنتصت بها الآخرين وهي أن نعتلي الجدار الفاصل بين المنزل والدار الملاصقة، وكنت أريد كسب الوقت. ففعلنا وقد تبين انه منزل خصص لتعاطي الدعارة السرية. وعلتيت الجدار المنخفض مع اثنين لأجد رجلاً ضخم الجثة ببذلة (روب) جالساً القرفصاء في زاوية من السطح تكاد تخرج انفاسه من حلقه فرقاً ورعباً، إنكب على قدمي وامسكها بكلتا يديه وهو يلفظ الكلمة الماثورة (انا ببختك). فطمأنته وأخذته الى المنزل، فجلس يرتعد وقلبتنا الأثاث بحثاً عن اللاسلكي.

وفي خلال ذلك عرفني بهويته قائلاً انه شريك في سينما الزوراء ووضع من اسمه وكنيته أنه يهودي، في تلك الأثناء وصل مفوض الشرطة، وتبين انه على معرفة به. بدا لي المفوض من أولئك المسلكيين الذين عجمت تجاربهم مع الغوفاء عودهم. فبعد ان فرّق المتجمهرين مهدداً متوعداً وعرف بأن الشخصين كانا ممن استغنى عنهما صاحب الدار قبلاً. فانتهزا فرصة التعتيم للإنتقام. قال لي وقد سرنا بأنه استدعي لمداركة حالة مماثلة في تلك الليلة عينها، وكان الشخص الذي حال دون عملية اقتحام ونهب مماثلة جار مسلم أبت شهامته أن يقف موقف المتفرج. فأسند ظهره الى باب جاره اليهودي مهدداً المهاجمين بعضا. وأظنه ذكر لي بان الحادثة كانت في محلة ابو سيفين.

بعد الحادث ببضعة اشهر لقيت صاحبي هذا الذي سلم من الغائلة واقفاً أمام باب سينما الزوراء، فسلمت عليه سلام العارف بهويته فأشاح بوجهه جانباً كذلك الذي يشك في أنه ليس المقصود بالسلام. وبقيت في حيرة أهو يتجاهل معرفتي عمداً أم لأنه يريد ان يطرد من ذهنه موقفاً أو ربما متوقفاً أن اطلب منه مكافأة، لكنني استبعدت الفكرتين فوراً وعلتها بالنسيان وسرت في دربي.

تركز البحث عن هؤلاء الخونة فيهما - فمن كل الحوادث التي خبرتها أو سمعت بها كان المتهم مسيحياً أو يهودياً.

وكانت إذاعتنا بغداد وبرلين مسؤولتين عن انتشار هذه (الحمى) فضلاً عن تحذيرات الصحافة. وقد سمعت بأن نتفاً مكررة من تلك النداءات المحرّضة في تعقيب الجواسيس والكشف عنهم وإخبار السلطات يطلقها المذيع من الراديو. إلا أنني لم اسمع قط بالقبض على جاسوس حقيقي ولم أقرأ نبأ عن نجاح السلطات في الكشف عن أي جهاز لاسلكي، ويعكس ذلك وجدت المنشور الذي أذاعته السفارة البريطانية على العموم - يتبادلته الناس بحرية ويقرأونه وقد وقعت بيدي نسخة منه<sup>(١٠)</sup>. ولم تتخذ السلطة أي إجراء حتى محاولة لجمعه أو تحذير الناس من اقتنائه أو القبض على موزعيه الذين كانوا يتزودون به من دار السفارة وينحدرون عبر النهر إلى الرصافة، وهؤلاء هم من خدم السفارة موظفوها العراقيون.

وفي الموصل كانت المخابرات بين الخونة وبين العدو تتم بوسائل أخرى فضلاً عن اللاسلكي مع الطائرات البريطانية. وقد رأيت (شابو) طحان البرغل الذي يعرفه الموصليون جميعاً، وهو

(١٠) تجد نص البيان في (الحسني، المرجع السالف) وقد صدر بتوقيع السفير كيناهان كورنواليس، وهو بيان فيه من السخف وقلة الفطنة ما يحمل على الدهشة لصدوره من سياسي ودبلوماسي باقعة مثله، وإن كان لا يقتضي من المرء كسر البيضة من أكثر من طرف واحد للتأكد من فسادها، إلا أنني ساكسرها هنا من الطرفين بإثبات الفقرتين الأولى والأخيرة من هذا البيان العجيب. وقد وجه بالعنوان: (إلى أهالي بغداد) فحسب وبتاريخ ٥ من أيار (مايس):

"كلكم على علم من الأحداث السياسية الأخيرة المؤسسة التي جعلت الحياة مؤلمة في أعينكم كما إنكم كذلك على علم من أن هذه الأحداث قد سببها شرذمة صغيرة من ضباط الجيش تؤيدهم فئة ضئيلة من محترفي السياسة ممن لا يخافون الله ولا يستحون من الناس، الذين لا يسعون إلا إلى تولي السلطة واكتناز المال السحت على حسابكم، إن هذه الفئة في أثناء بضعة الأسابيع الأخيرة لم تقتصر على اغتصاب الحكم في بلادكم الحرة هذه، بل طغت إلى حد السعي إلى القضاء على حياة وصيكم عبد الإله خال مليكم الطفل، فاضطروا الوصي إلى الهروب في سبيل النجاة مع الآخرين من زعمائكم الوطنيين المعتبرين الذين خافوا الطغيان من تلك الفئة.

ويختم البيان الطويل بهذه الفقرة: (مخاطباً العراقيين هذه المرة):

إني أنا كورنواليس الذي عرفتموني حق المعرفة يا أهل العراق، أقسم لكم اغلظ الأيمان بأن بريطانيا العظمى، لا نية لها قط باحتلال عراقتكم أو بنزع استقلاله منه، إن قيام بريطانيا بشيء من هذا القبيل لما ينافي كل المناقاة السياسة التي اتبناها منذ عشرين عاماً كما يعلم جميعكم تلك السياسة، التي في سبيل تنفيذها تعاونت أنا شخصياً مع الطبيب الذكر المرحوم جلالة الملك فيصل الأول، الذي شرفني بصداقته وثقته خلال سنين عديدة إلى أن وافاه الأجل المحتوم. ألا فليحیی فحید فیصل الأول جلالة الملك فیصل الثاني وليحیی إستقلال العراق الحقيقي." تساءلت في حينه ما الذي كان كورنواليس يقصده بعبارة الإستقلال الحقيقي؟ ومازلت حتى كتابة هذه السطور عاجزاً عن حل اللغز.

يساق إلى المركز العام مخفوراً مع أداة الجريمة بتهمة مماثلة<sup>(١١)</sup>، ربما في يوم ما من منتصف الشهر.

\*\*\*

عود حكام العراق المتعاقبون الأهلين على المراءاة، وتغطية حقيقة ما يضمرون بإظهار خلافه، وهو ما تصح تسميته بالتقنية السياسية.

وقد استخدمت وسائل الاعلام الحديثة لهذا الغرض بنطاق واسع وينجح عظيم في أحداث آب ١٩٣٣ والانقلاب العسكري الأول في ١٩٣٦ ثم في التغييرات الحكومية التالية. فبات عند رجال السلطة الجدد ضرورة لا بد منها وسنداً لا يستغنى عنه في دعم مركزهم، كما كان عند المطلوب منهم واجباً ووسيلة لرد أذى محتمل أو نفي تهمة عدم الولاء. وهؤلاء الذين حكم القدر عليهم بالتبعية السياسية تراهم لا يتغيرون واسماؤهم تتردد في البرقيات ورسائل التأييد لكل عهد أو حكومة جديدة تطالب بها، لا يصعب عمل قائمة بهم تبدأ برؤساء العشائر مروراً برؤساء الطوائف ورجال الدين الكبار، ثم برؤساء الصنوف والحرفيين والوجهاء، وتنتهي بكل من أراد أن يتطفل على الآخرين بحشر اسمه في قائمة صنف من هذه الأصناف لغرض ما، ليس أقلها شأنناً استرعاء الانظار إليه. فقد كانت برقيات تأييد النكرات الخاملي الذكر العقيقة الأولى لولوج باب الوجاهة.

ويلحق بهذا التهريج الإعلامي ما كنا نسميه (بجوق المحطة)، وهم ممن ذكرتهم تجدهم دوماً متحرفين متربصين بكل قادم خطير المقام والمنصب ليهرعوا خفياً وثقالاً إلى محطة القطر مستقبلين مصافحين دون دعوة. وجوه مألوفة لا تتغير، لا تشكو نقصاناً أو زيادة كبيرة في تلك المناسبات. تميزت حملة التأييد والإنتصار للحركة والإشادة بقيادتها بسعة نطاقها. وقد

(١١) يطوف (شابو) وهو من أهل إحدى القرى المسيحية التابعة لقضاء زاخو على المنازل مع مساعدين كرتيين يحملان آلة طحن وعجلتها أيام موسم تهيئة البرغل (الكسكي عند أهل المغرب)، وقد شاهدت بعيني حادث إلقاء القبض عليه بتهمة مخابرة طيران العدو. شاهدته بين ثلة من الشرطة بقيادة مفوض يذهبون به إلى المركز للتحقيق وفي اعقابهم جمع غفير من الصبيان والفضوليين. كانت زوجته قد غسلت سرواله الداخلي الأبيض الوحيد ونشرته على عمود في سطح الخان، المؤلف من عدة طبقات ليحجف فراحت الريح تعيث به وتدخل فتحتيه الكيرتين لتملأه هواء، وبات يبدو للمارة شيئاً شبيهاً بالقطعة القماشية الأسطوانية المجوفة التي تعلق على أقطاب في المطارات لتعين مسرى الريح وهداية الطائرات. وهي الوسيلة الوحيدة أيامذاك. لم يلبث (شابو) طويلاً وأطلق سراحه، إلا أن حكاية سرواله المجرم شاعت وعدت من النوادر والفكاهات. ومما أذكره أنه كان لـ(شابو) هذا ابن يدعى سعيد، وهو معلم للموسيقى كان قد لحن نشيداً حماسياً عربياً قومياً مشهوراً وما زال ينشده تلاميذ المدارس بحسب علمي.

امرت بها الحكومة وشدت على موظفيها الإداريين كما هي العادة على إشراك أكبر عدد ممكن من هؤلاء الذين ذكرناهم فيها. وكان سيل برقيات التأييد والمعاهدة على الإخلاص لا ينقطع عن الإذاعة، ولتجد طريقها فيما بعد إلى الصحف، برقيات من علماء الدين والمجتهدين الكبار مع طائفة مختارة من فتاويهم، برقيات من رؤساء العشائر عرباً وكُرداً، برقيات من رؤساء الأصناف والوجهاء، برقيات من أناس لم يسمع احد بهم ولا شأن يذكر لهم.

ولفت نظري بصورة خاصة رسالة (التأييد المطلق) التي وجهها الحاخام (ساسون خضوري) رئيس الطائفة اليهودية في العراق. والبيان الذي اذاعه وضمنه برقية البطريك الكلداني (يوسف عمانوئيل) معرباً فيه عن استعداد ابناء طائفته للتضحية والفداء في سبيل الوطن ضد العدو الغادر، وبرقية الشيخ سعيد بك امير اليزيدية، الذي وعد وتعهد بالمساندة المسلحة حالماً تصدر إشارة له، وعلى غرار اقرانه من الشيوخ الكُرد والعرب الذين تعهدوا بمثل ذلك أيضاً.

لم أجد بين من سبقني في الكتابة عن حركة مايس، من تطرق إلى موقف الشعب العراقي على ضوء مقدار ما تحويه من الصدق مظاهر الولاء والمشايعة القولي، وكم كان يحتوي من الجدية. وإلى أي حد ترجم عملياً عندما حزبت الأمور وأطبق المنتصرون على العاصمة وهرب القادة وعمت الفوضى وسفكت الدماء وهتكت الأعراض وانتهكت الحرمات، وتسابق مرسلو برقيات التأييد إلى ارسال اخرى جديدة احتفاء بعودة الشرعية وهزيمة الخونة، واعلاناً لولايتهم، من دون حياء أو خجل. ولي قصة فريدة في هذا الصدد ليس من الكياسة أو المروءة في شيء أن أتجاوز عنها هنا. سيما بعد أن ذاع أمرها وشاع تناولها حديث المجالس في الموصل حيناً من الزمن تندرأ، على سبيل استذكار المفارقات التي حفلت بها تلك الفترة.

الشيخ حموشي الرومي، وهو الاسم الذي عُرف به ولقبه ينم عن أصله مثلما نمّ لقب ابن الرومي الشاعر العربي المغلق على أصله اليوناني<sup>(١٢)</sup>، رجل في حدود الخمسين أو دونها يقليل طويل القامة وسيم غاية الوسامة، ابيض البشرة بحمرة تشوبها، انيق الثياب بجبة سوداء سابعة وكوفية ناصعة البياض فوقها عقال مضاعف مقصب، دليلاً على قيامه بفريضة الحج كما اظن. يبدو بهيئته هذه ومشيته الوقورة شخصية مهيبية لا يسمعك إلا احترامها فور رؤيتها. وهو أمي لا يعرف القراءة والكتابة، لكنه شيخ طريقة صوفية أظنها واحدة من فروع

البكتاشية<sup>(١٣)</sup>، وله تكيته ومجلسه، يشاع عنه انه من اصدقاء الانكليز وانه يعتمد عليهم مالياً ويزودون مجلسه بالقهوة والشاي والسكر وما إلى ذلك. تفقد هذه الشخصية هيبتها واحترامها معاً ما أن يحاول صاحبها المشاركة في حديث أو إبداء رأي، إلا انه مع هذا القصور تراه لا يفوت فرصة أو مناسبة للظهور وإشعار المجتمع بوجوده وبأهميته. راح الناس العارفون بأمره يضايقونه خلال شهري نيسان وأيار بخصوص موقفه من الحركة التحررية المعادية لبريطانيا بالإستفسار الخبيث: لم نسمع لك برقية تأييد ايها الشيخ؟

مرت الايام الأولى من مايس وهو صامد، بالأخير أسقط في يده وأخرج مركزه وهو يسمع سيلاً من برقيات يرسلها من يعتبرهم أحط منه مكانة. فاختلى بصديق وموضع سر، وهو الموظف العثماني السابق والكاتب في مديرية المعارف وقتذاك محمود سيرت، وطلب منه ان يكتب برقية جيدة ويظهر ان صديقه هذا أدى واجبه بأحسن ما يكون. فبعد أن بلغ القلق بصاحبنا منتهاه بتأخير نشر البرقية أو إذاعتها وتوالي الأنباء السيئة عن موقف الحكومة المتداعي. فوجيء بالمهنيين المادحين موقفه الوطني الرائع المتجلي في عبارات برقيته ومنها علم بأنها نشرت... متأخرة جداً.

فاسرع شيخنا إلى المكتبة ليبنتاع كل ما بقي من نسخ الجريدة وأخذها إلى صاحبه لاهتأ وقال له: "اقرأ لي كتابتي!"

بهذه العبارة كان المتحدثون يختمون قصة الرومي مع برقيته لايعير كتابنا ومؤرخونا اهتماماً في العادة بالجانب المرح والهازل من الكوارث الوطنية. انا لا أشك قط في أن للكثير الذين عاصروا الأحداث أمثالي ما يرددونه من تلك "المضحكات الثمينة"، التي تتبع عادة من أصول الكوارث والبلايا حارة تنبض بالكثير من الحيوية والواقعية ولايمكن أن يستغني عنها المؤرخ الصادق ان حركة الجماهير والكتل الشعبية ومتابعة مواقفها لا تقل اهمية عن متابعة تصرفات كتابنا اهمال الأولى أم عدم ايلاتها الاهتمام الحري بها. في حين حصروا اهتمامهم بالأخرى. وإلى هذا يعزى الجمود الذي يشيع في آثارهم عامة مهما توخوا الحياد في سرد الوقائع واستخلاص النتائج. ولا ينضوي إلى هؤلاء جمهرة المؤرخين ورواة الاحداث المتجاوزين بشكل مقصود عن ولوج هذا الباب بهدف الإبتعاد بالقاريء المنتبغ عن الحقائق وتضليله، خدمة لغرض معين افتراضه مقدماً، وتقصي الآثار التي خلفتها حركة مايس في مسيرة القومية

(١٢) علي ابن العباس ابن جريج (تصغير جورجيس ٨٩٦-٨٣٦م) من عباقرة الشعراء العرب صاحب مدرسة في الشعر العربي خاصة.

العربية من الجانب الجدي وهو جانب معتم يائس من أي ناحية نظرت اليه.

قيل وقلنا ما فيه أكثر من الكفاية عن الضعف العقلي لقادتها الميدانيين والنظرين وقالوا هم أكثر من هذا عن بعضهم بعضاً، تقاذفوا الاوصاف الكريهة والتهم الشنعاء، وراح يعزو هذا لذاك الفشل، ويحمله تبعة اتخاذ القرار الأهوج بالمواجهة، ومع هذا كله لم يتعفف أي واحد منهم لا عن خداع الناس البسطاء بل عن خداع نفسه، وحقننا بمصل التشبث بالأمل في المساعدة الخارجية في باديء الأمر، ثم بمخدر من مستحضرات مختبراتهم. وبهذا الصدد يطيب لي أن أعرض مثلين فحسب من أمثلة عديدة أخرى:

كانت إذاعة بغداد تتحدث يومياً عن المساعدات العسكرية الهائلة القادمة من دول المحور رايتها في ذلك تلك الرسائل الجفرية التي تتبادلها القيادة العليا الألمانية مع وزارة الدفاع العراقية، تسمعه يومياً مئات الألوف من العراقيين من إذاعة (حي العرب) من برلين بصوت المذيع الشهير (يونس بحري) يبدأها بالشكل الآتي:

من القيادة العليا الألمانية الى رئاسة اركان الجيش العراقي بغداد. دونوا ما يأتي ثم يأخذ بسرد أرقام لا أول لها ولا آخرها ثلاث دقائق أو اربع وعلى هذا النحو.

اربعة، تسعة، ثمانية، واحد، صفر، خمسة (فاصلة)، ستة، ثمانية، اثنان، تسعة، سبعة، صفر (فاصلة).

وهكذا يمضي هذا المذيع في إرسال برقيته الرمزية. كأن ليس هناك وسيلة مضمونة أخرى لإبلاغ امثال هذه الرسائل السرية البالغة الخطورة غير اذاعته.

وينشال الراديو العراقي ليعقب مسرعاً ويجدية على هذه الإتصالات الخطيرة بين الدولة الألمانية وبين حكومة الدفاع الوطني، كلما خطر ببال السيد بحري ان يبعث بطائفة من تلك الأرقام - تحت تأثير الكحول على الأغلب وهو من مدمنيه.

وأعجب العجاب هو تلك البلاغات الحربية التي تصدر عادة يومياً عن دائرة الاركان العامة أحياناً مرتين في اليوم الواحد. لا تجد فيها كلمة صادقة واحدة - والناس ينتظرونها بلهفة، وبعض العارفين بحقيقة أمرها ومبلغ كذبها يستخفون بها ويطلقون النكات عليها إثر تلاوتها. فمن المعروف وما ثبت بعد ذلك ان الغارات البريطانية على معسكر الرشيد ومطار الموصل أدت الى تدمير وإحراق الطائرات العراقية كافة أو اعطبتها بشكل لا يرجى اصلاحه، وان هذه الطائرات ذات الجناح المزدوج القديم لا قبل لها بالتصدي للقاصفات الحديثة

المستخدمة في الحرب العالمية الثانية، على فرض وجود بعضها سليماً. بل وأعجب من ذلك ان تلك البلاغات بقيت لا تتحدث بشيء عن العمليات الأرضية حتى آخر بلاغ منها<sup>(١٤)</sup>، واكتفت بالثرثرة عن الطائرات العراقية، في حين كانت بداية النهاية قد لاحت للجميع المطلع على سير العمليات، بما فيه من انسحاب الوحدات العسكرية من مواقع الحياينة.

أكان مجرد سوء حظ ان يبتلى العمل القومي العربي بزعماء وقادة بلغوا هذا المبلغ من الإفتقار الى روح المبادرة والتجربة وبعد النظر والدراية الاستراتيجية والفهم بالموقف السياسي الدولي؟

قد يصدق هذا القول تماماً على العسكريين منهم. إلا ان المرء يقف حائراً متهيباً أمام مجلس قضاء مدافعاً عن سياسيين مجريين كالكيلاني ومثقفين في اعلى درجة يمكن ان يبلغها المرء في ذلك العصر كنجابي السويدي. إلا ان ذلك التهالك على السلطة الذي قرناه فيما سبق بحالة جنون تعجز العقل عن التفكير السليم، وتحول بينه وبين الاهتمام بمصائر الآخرين، وما تجره أعمالهم من كوارث على المجموع، وهي ضريبة واجبة الدفع لا مندوحة منها.

والضريبة التي دفعها العراقيون في هذا الشهر لا تتمثل في نظري بالخسائر المادية - وهي

(١٤) هذه ثلاثة نماذج من تلك البلاغات:

\* البلاغ الحربي رقم (١٥) الصادر عن دائرة الأركان العامة في مساء يوم ١٣ ايار ١٩٤١ عن حوادث يوم ١٢ منه:

- القيادة الغربية: حلقت ثلاث طائرات قاصفة معادية صباحاً فوق حامية (النقطة). وألقت بعض القنابل ولم تحدث أضراراً تذكر، وقد اسقطت احدى الطائرات المعادية وأسر من فيها.

- منطقة الموصل: حلقت طائرات قاصفة معادية فوق الموصل صباحاً، فهاجمتها احدى طائراتنا المقاتلة واسقطتها وأسر من كان فيها.

وتصدت لها طيارتنا، فولت طيارات العدو هاربة من غير ان تجرأ على القاء قنابلها وعادت طيارتنا سالمة واستمرت على القيام بأعمال الدوريات.

- الغارات الجوية المعادية: حلقت بعض الطيارات المعادية فوق مدينة (كلمة غير واضحة) المكشوفة ولم تحدث اضراراً تستحق الذكر.

- الشرطة: حلقت طائرتان معاديتان فوق مخفر للشرطة ورمت بعض القنابل إلا انها لم تحدث اضراراً.

\* البلاغ الحربي رقم (١٨) الصادر عن دائرة الاركان العامة في مساء يوم ١٧ من ايار ١٩٤١:

القوة الجوية: قامت طيارتنا باستطلاعات موفقة فوق مناطق العدو كما انها قامت بقصف معسكر سنّ الذبان قصفاً مؤثراً أحدث فيه خسائر كبيرة في الأنفس واضراراً في المعدات، وقد صلت طيارتنا بنيان رشاشاتها بعض قطع العدو ووقعت فيها بعض الخسائر في الأنفس. وقد عادت جميع طيارتنا الى قواعدها سالمة.

الشرطة: صدت قوات الشرطة بالتعاون مع القوات الوطنية هجوماً للعدو على بعض مخافرننا في الجنوب (٩) وقد ردت العدو على أعقابها بعد ان اوقعت فيه خسائر جسيمة.



ما يمكن التعويض عنه والعيش بدونه - بل بالدماء التي سفكت والارواح البريئة التي زهقت في مرتفعات الحبانية، وفي الفلوجة، ومعسكر الرشيد، وفي الموصل... وخلال مذابح بغداد وهذا ما اهمل البحث فيه واستقصاء أخباره من كتب عن تلك الحركة التحريرية وهو ما يهمني الكلام فيه بنوع خاص.

يثبت تقرير سري لوزارة الحرب البريطانية ان الخسائر البشرية التي مُني بها الجيش العراقي بلغت ٣٣ ضابطاً و٤٦٤ جندياً وضابط صف من القتلى و٥٤٩ مفقوداً (هم في عداد القتلى ايضاً) فضلاً عن ٦٥٩ جندياً و٣٦ ضابطاً جريحاً. ولا يذكر التقرير شيئاً عن القتلى المدنيين نتيجة قصف معسكر الرشيد، وبلدة الفلوجة ومذبحة رأس الجادة في الموصل بصورة خاصة. لاشك في أن موضوع الضحايا المدنيين لم يكن لاستقصائه أو لذكره في المصادر البريطانية محل، لأنه اعتراف ضمني بخرقهم قواعد القانون الدولي<sup>(١٥)</sup> ومعاهدة جنيف حول إدارة الحرب. ثم ان هذه الأرقام بطبيعة الحال تعتمد على إحصاء وزارة الدفاع العراقية.

ويضاف عدد المفقودين في العادة الى عدد القتلى وهم ممن لم يُعثر على بقاياهم أو دليل يثبت هوياتهم. فيكون مجموع ما فقده الجيش العراقي من ارواح ١١٥٠ ضابطاً وضابط صف وجندياً<sup>(١٦)</sup> بإضافة العقداء الأربعة الذين نفذ فيهم حكم الموت، لا انتصافاً للشعب العراقي أو جزاءً لما ألحقوه به بل - والحقيقة يجب ان تُقال انتقاماً ومثلاً رادعاً ضربته الطبقة الحاكمة العراقية المنتصرة بالأخير - لزمرة عسكرية خرقت كل الحدود المسموح بها في لعبة الإحتراب على السلطة. مثلما فعلت ب بكر صدقي قبلاً. وليس ثم دليل أبلغ على تعليلنا هذا، هو سلامة

(١٥) الجيش العراقي والقوة الجوية الملكية البريطانية للفترة المنتهية بـ(٣١) تموز ١٩٤١ (Secret) war office No. 208-1585 Report No. 35: on the Iraqi Army and the R.A.F for the period up to 31 July 1941. إلا أن الاستاذ عبدالمجيد القيسي يأتي (المرجع السالف ص٥٥٩) بأرقام أخرى من دون ذكر مصدره، فيقول إن عدد القتلى من الضباط والجنود بلغ ١٢٥١ و٧٩٦ جريحاً، كما قدرت الخسائر المادية بمليون ونصف المليون دينار عراقي بقيمة ما قبل خمسين سنة تقريباً، أعني ما يعادل القوة الشرائية للدينار قبل الإنهيار النقدي الحالي لما بين ٣٠ و٤٠ ضعفاً.

(١٦) من الضحايا الذين فقدوا حياتهم نتيجة الغارات الجوية على معسكر الرشيد أذكر كلاً من رأس العرفاء الطيار ميخائيل ساعور، ورأس العرفاء الطيار نجيب محبو، وهما من أنسباء اقرباء لي، فقد انيط بهما حراسة الطائرات، ومخازن العتاد، فلم يحاولا ترك المعسكر كما فعل غيرهما (يذكر من كتب عن الحركة ان العقيد محمود سلمان أحد الأربعة، كان يلزم منزله في الأيام الأخيرة وانه لم يبرح وزارة الدفاع في الأيام الأولى). واذكر كذلك أنني كنت واحداً من المشيعين للجانزة الرمزية التي تمت مراسيمها بكل المظاهر العسكرية، وبعد انتهاء الحركة لكل من الملازمين (سالم سمحيري) و(فضيل متي هندو) وأولهما جار لنا وقد ضمنتنا مدرسة واحدة، وثانيهما رفيق دراسة لم يُعثر على جثتيهما واعتبرا من المفقودين ثم أعلن رسمياً بأنهما في عداد القتلى.

الفريق المدني المشارك من حبل المشنقة<sup>(١٧)</sup>.

لم يعر أحد من الكتاب الذين سبقوني اهتماماً بتقصي الحقائق عن الخسائر في الأرواح التي تكبدها القطاع المدني، ولم تقدم الحكومات التالية على عمل في هذا السبيل. ولكن هناك مؤشرات قوية الى ان ضحايا القصف الجوي في الموصل - قد يضاهاى عددهم ما فقده الجيش العراقي بحسب التقرير الذي ورد ذكره.

في بداية الأسبوع الثالث من حركة مايس، نالت مدينة الموصل نصيبها كاملاً من ويلات الحرب وبصورة غير متوقعة مطلقاً. كان سكان الاحياء الشمالية الغربية من المدينة قد اعتادوا في موسم الصيف ارتياد المقاهي، وبعضها يبعد عن منشآت السكك الحديدية مئات قليلة من الأمتار، وتكتظ هذه المقاهي في العادة قبيل الغروب بمئات من الرواد.

في مساء ذلك اليوم - بعد الغروب بقليل حلقت طائرة قاصفة بريطانية ذات محركين وبعد أن دارت دورة واحدة سمع الموصليون وهم في منازلهم دوي انفجار عظيم وهزة شبيهة بزلزلة خفيفة. سقطت حمولة الطائرات من القنابل وسط المقهيين فكانت مجزرة رهيبة حصيلتها ثلاثة وثمانون قتيلاً وفق أقل التقديرات وأكثر من مائة وفق أعلامها. فضلاً عما يزيد عن ٢٥٠ جريحاً. لم تكن المدينة بوسائل اسعافها القاصرة ومستشفياتها الوحيدة مستعدة لمثل هذه الكارثة. لا سيارات اسعاف ولا ممرضات ولا أطباء. والمستشفى الجديد لم تكتمل ردهاته. جند طلاب المدارس لنقل المصابين وفرز جثث الموتى وجمع الأعضاء المتناثرة والأشلاء المختلطة بالمقاعد الخشبية للمحطة، واستخدمت عربات الركاب بالأجرة التي تجرها الخيل ودرجات الطلاب، فضلاً عن القليل الميسور من السيارات العسكرية وسيارات شرطة الكمارك.

كان منظرًا يفتت الأكبادة. فقد انتشرت النسوة والاطفال في أرجاء المقهيين يبحثون عن ذويهم صارخين مولولين. وتوالى العمل في نقل الجثث والمصابين من الجرحى طوال الليل، وحتى ضحى اليوم التالي.

قريب لي وهو طالب ثانوي شارك بدراجه في عملية النقل والفرز طوال الليل واقبل وقد تلطخت ثيابه بالدماء وصف بجمل متقطعة وأنفاس لاهثة وحركات عصبية - لم تبارح مخيلتي قط - المنظر مشبهاً آياه بمحل قصابة واسع الأرجاء تسبح أرضيته بالدماء وتنشر

(١٧) خرج ناجي شوكت والشريف شرف وعلي محمود الشيخ علي والبحراني، ومحمد حسن سلمان ومحمد علي محمود بأحكام سجن الغيت فيما بعد، ولم يسلم (السبعوي) وهو المدني الوحيد الذي لقي حتفه. فقد كان رجلاً طارئاً على الطبقة الحاكمة لا تربطه بأي من أعضائها رابطة مصاهرة أو صداقة أو نسب، وربما كان أصدق من الجميع مع نفسه وعقيدته.

فوقه الأحشاء والاطراف الآدمية، أرجل بأحذيتها، رؤوس بكوفياها وعقلها. أذرع وسيقان تكاد لا تميزها عن قوائم المقاعد الخشبية المحطمة. النساء والاطفال يتنادون باسماء أزواج واخوة وآباء. منظر فيه من البشاعة ويقصر اللسان ويشلّ القلم عن وصف دقيق له<sup>(١٨)</sup>.

منع الرقيب العسكري الصحف عن ذكر أي شيء عما حصل. وصدرت البلاغات الحربية التالية المعتادة وهي خالية من أي تنويه بتلك المجزرة، كما لم يأت لها ذكر في المصادر التي تيسرت لي. وضاعت جهودتي في العثور على وثيقة تنوه بأمرها من بين المصادر والوثائق البريطانية. كما لم يرد لها على مدى علمي - أي ذكر في صحف بغداد. والواقع هو ان مؤامرة صمت مزدوجة تلقائية دفععتها الى زوايا النسيان وأعماق الذاكرة. كانت مصلحة البريطانيين ان يُكنتم أمر عملية القصف العشوائي لأهداف غير عسكرية. نجم عنها مقتلة عظيمة لأبرياء الى جانب ما ستخلفه في ضمير العراقيين من سخط ونقمة. ومن جهة أخرى، فقد ظل سواد الشعب العراقي بنظر الحكومات على الدوام وقوداً رخيصاً للنار التي تشعلها أطماع المحترين على السلطة والحكم، فضحاياها في معترك الانقلابات هي ابداء كمية مهمة في نظر المحترين وفي نظر الكتاب والمؤرخين على حد سواء.

وبطبيعة الحال كانت إذاعة مثل هذه الفاجعة تناقض الإتجاه العام الذي استخدم في صياغة البلاغات الحربية، التي دأبت على تمويه الحقائق خشية هبوط المعنويات وفقدان الثقة. وقد كُتمت عن الشعب العراقي نتائج الغارات الجوية الفتاكة في سنّ الذبان، ومعسكر الرشيد والفلوجة فلماذا لا تُكتم فاجعة الموصل؟

وبعكس ما كان يُتوقع من جمهور متحمس مساند لحكومته في صراعها القومي بتصاعد النقمة والغضب إثر المقتلة، فقد ساد وجوم عام جو الموصل. وبدأت اسهم البريطانيين ترتفع

(١٨) لا مندوحة هنا من استبعاد العمد وسوء القصد، والأمر يعزى الى أما الى ضعف الرؤية عند قائد الطائرة او الى قصوره الفني، وواقع قرب الهدف الأصلي المطلوب قصفه من هذه المقاهي، فقد كان الهدف إحداث عطب كبير في منشآت السكة الحديد في الموصل، لوقف عمليات نقل الاسلحة الفرنسية عبر محطة تل كوجك وهي نقطة الحدود السورية، فيما يذكر أن حكومة (فيشي) وافقت على اقتراح ألماني لتزويد الحركة في العراق بالفائض من الاسلحة والعتاد الذي يستخدمه الجيش الفرنسي في سورية. وقد وصلت أول شحنة منها في ١٣ من مايس على ما تذكره المصادر والوثائق. تذكر المصادر البريطانية ان تحذيراً شديداً عمم على الطيارين البريطانيين باجتنب قصف المدن المكشوفة والمدنيين مهما كلف الأمر، فمثلاً كانت بغداد مدينة مكشوفة، وربما كانت وزارة الدفاع أهم هدف حيوي، ومما أذكره في هذا الصدد دعماً لرأيي ان الجهات البريطانية قامت بصرف التعويضات لذوي القتلى والمعوقين والمتضررين من قصف الموصل بعد نهاية الحركات وعودة الأمور الى حالتها الطبيعية، بمعرفة بلدية الموصل ووفق قوائم معدة لهذا الغرض.

عند رجل الشارع بشكل غير منتظر. ولم تعد البزات العسكرية الألمانية والإيطالية، تشير إعجاباً وتحميراً كلما خطر ببال أحدهم السير في الشوارع العامة أو ارتياد الدكاكين والمخازن. ولم تعد إذاعة (حيّ العرب) من برلين تجتذب الأسماع كما كانت من قبل. وراح النفر الذي ناصر قضية الحلفاء من المبدأ يقول ما كان يخشى ان ينال منه أذى قبل ايام. وكنت تسمع بعدها عبارات لا تتوقع أذنك امثالها قط قبل الغارة، كقولهم مثلاً هؤلاء الانكليزي! من يستطيع الوقوف بوجههم؟ أو أين هو الطيران الألماني؟ وراح الناس يقارنون بين ما كانوا يسمعون من الراديو وما رأته أعينهم، وصاروا يهزأون ببرقيات التأييد التي تُتلى من الإذاعة وبأصحابها يعلقون عليها تعليقات ساخرة ليس فيها تحفظ كبير.

لم تتعرض الأقليات في الموصل خلال هذا الشهر الى أذى ولم يقع إعتداء على احد. وانفردت بغداد بتلك المذبحة التي استهدفت اليهود في يومي ١ و ٢ من حزيران. حين فقد الضباط سيطرتهم على وحدات الجيش المرابطة في المدينة وضواحيها، وانتشرت عصابات لهم مع الغوغاء ورعاع القوم تنهض وتقتل.

ستبقى حقيقة ما حصل في هذين اليوميين يحف بها الغموض التام. ولا نملك وثيقة إدانة واحدة الى جانب التقرير الرسمي الذي أصدرته لجنة التحقيق المعينة رسمياً، وهو التقرير الذي أثبتناه في الباب الرابع الخاص بالوثائق والإستشهادات من هذا الكتاب.

وفي هذا التقرير رغم وصفه الدقيق القريب من الواقع لما حصل - ثغرات كبيرة وإغفال متعمد لما يجب التفصيل فيه، واقتضاب مقصود لما عمدت أن تمر به لجنة تحقيق رسمية مروراً عابراً، فمن بين ٢٩٧ سطرًا كبيراً استغرقه التقرير لا تجد غير سطرين ونصف سطر خصصت لأهم محتواه طراً وهو عدد القتلى والجرحى: فقد اختصر الوضع اختصاراً مشيناً بهذه العبارة المقتضبة:

"اما جميع القتلى بالنظر الى ما جاء في افادة حاكم التحقيق انهم ١١٠ بضمنهم ٢٨ امرأة وهم اسلام ويهود ولم تعرف هويات قسم كبير منهم أما الجرحى فكانوا ٢٠٤ وهم اسلام ويهود".

لاشك أن ضغوطاً أو ميلاً ذاتياً في اعضاء تلك اللجنة حملها على هذه الصياغة الغريبة، فليس في التقرير ما ينبىء ان منزلاً واحداً من منازل المسلمين تعرض للنهب أو أن احداً منهم قُتل بيد أخيه المسلم. هناك أفراد قلائل من الناهيين صرّعوا برصاص الشرطة التي تدخلت بعد أن صدرت اليها أوامر صريحة بإطلاق النار على المعتدين. ومن الواضح ان هذا الإصرار على

الحكومة الإجراءات الكافية لمعاقبة الفاعلين وإيقاف تيارات تهديداتهم. وترتأى اللجنة (إذا كان ذلك بالإمكان) إرسال الجنود والضباط الى المعسكرات الخارجية في الوقت الحاضر ليظمن اليهود ويأمّنوا تهديداتهم وليقدموا على الإخبار".  
ويقرّ التقرير بأن:

البادءي في المذابح هم بعض الجنود وبعض ضباط الجيش فهم الذين بدأوا بالقتل والنهب والسلب وقد شاركهم بعض الشرطة من افراد وضباط. وشجعوا بذلك العامة على تلك الافعال الشائنة. وقد ثبت بان الغاية لم تكن للنهب والسلب فحسب، وانما كانت بدافع الإنتقام. حيث ظهر من هذه الحوادث بان السالبيين لم يستطيعوا حمل بعض المسلوبات لضخامتها، فحطموها بمواضعها كي لا يُستفاد منها. وقد حطموا زجاج الأبواب والنوافذ وقطعوا التجهيزات الكهربائية. وكانوا يفتحون حنفيات الماء ويتركونها تجري كي تغرق الدور مما يدل على روح الإنتقام. ومما يبرهن على هذا الشعور أكثر من ذلك هو الفتك الذي شمل حتى النساء والأطفال."

لم تكن اللجنة بحاجة الى إيضاح الدافع الى الإنتقام، ولماذا خص الجيش به اليهود العراقيين هذه المرة دون غيرهم؟

ها هي مأساة آب العام ١٩٣٣ تتكرر. وهذا كل ما في الأمر.

ذكروا أن المجلس العرفي العسكري عالج عدداً من قضايا القتل وأعمال السلب والنهب، ولكن لم أسمع عن ضابط أو ضابط صف أو جندي حوكم بجناية القتل. ولم أجد في بحثي الطويل عن نبأ نُشر في صحيفة من صحف ذلك الزمن، إعلاناً واحداً عن حكم صدر بهذا المجال<sup>(١٩)</sup>.

(١٩) كل ما وقعت عليه من هذه الأحكام بمحض الصدفة هو مأساة الملازم الثاني الخيال (قسطنطين عبدالله) الموصل، كان قد أنيط به وبفصيله حراسة قطاع محطة السنك، ووقف أعمال النهب والسلب فأدى واجبه كما إدعى ولم يقع حادث اعتداء في منطقته، الا أن أمره الزعيم حميد نصرت، ارتأى ان يقدمه هو وعريف الفصيل (علي محسن) الى المجلس العرفي العسكري بتهمة سرقتهم مجوهرات وحلي من عوائل فلسطينية لاجئة كانت نزيلة في فندق الرصافة، الذي اتخذ هذا الضابط مقراً له وحكم كلاهما بالاشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة. وكانت الادلة شهادات المجاهدين الفلسطينيين النزلاء. ذكر لي هذا الضابط أنهم شهدوا عليه لأنه اسمعهم كلاماً قاسياً واتهمهم بأنهم علّة ما حصل وانه حجزهم في غرفهم ومنع الزوار عنهم طوال يومي ٢٠ حزيران وما بعدهما. وقد أخذ المجلس بشهادتهم الملفة ولم يسألهم عن مصدر الطي والجواهر وهم لاجئون يعيشون بضيافة الحكومة. قضى هذا الضابط وعريفه محكوميته - =

حشر كلمة (الإسلام) مع اليهود كان يرمي الى تصوير الأحداث على أنها مجرد أعمال إجرامية ذات طابع عام لا تستهدف اليهود بنوع خاص. في حين ان التقرير نفسه يحصرها باليهود. وكل ما جاء في التقرير عن قتلى المسلمين أن مسلماً واحداً قتله الجنود بسبب حمايته لمنزل أحد اليهود ومحاولته صد المعتدين. فراح ضحية شهادته. واكثر من هذا فقد جاء في التقرير ان رجال الشرطة والجيش كانوا خلال عمليات النهب والقتل يطلقون نيرانهم في الهواء إرهاباً وانهم كانوا يخشون التعرض للضباط والجنود الذين يقومون بأعمال القتل والنهب.

واغرب ما في التقرير أن اللجنة اعتمدت في إثبات عدد القتلى مائة وعشرة - على قول حاكم التحقيق فحسب، من دون ان تطلب منه ان يعرض عليها نتائج تحقيقاته وملفات القضايا التي حقق فيها. ومن غير أن ترى أية ضرورة - كما يبدو - لاستدعاء ذوي القتلى وضبط إفاداتهم أو التحري في الشهادات الكتابية للزمن أو فحص قيود وسجلات الوفيات.

بل والأغرب من هذا كله أن يطعن واحد من أعضاء اللجنة الثلاثية هذه، بصحة الرقم ويؤيده في هذا الطعن مدير شرطة بغداد، فقد جاء في هامش الصفحة ٢٦٩ من كتاب الحسني (ج ٥) هذا:

"اكد لنا السيد علي خالد حجازي مدير شرطة لواء بغداد حينذاك والسيد عبدالله القصاب احد أعضاء اللجنة موضوع البحث بأن عدد القتلى كان يناهز ٦٠٠ نسمة ولكن الحكومة حرصت على ذكر الرقم الذي ورد في التقرير!"

وماذا عن الجانب اليهودي؟

شرعت لجنة التحقيق في اعمالها بدءاً باليوم الثالث من حزيران واصدرت تقريرها في الثامن من الشهر التالي. وفي خلال هذه الأيام الخمسة والثلاثين، ورغم إعلان الأحكام العرفية لم يسع تلك اللجنة كتمان كل ما كان يحصل أثناءها من إعتداءات:

"ان حوادث التهديد لحد الآن لم تنقطع من قبل بعض الضباط وبعض افراد الجيش، وقد وقعت كثيراً من هذه الحوادث في الأونة الأخيرة، إذ كان بعض الضباط والأفراد يتجولون في أزقة اليهود يتهددون ويتوعدون كل من يدلي بأخبار ضد أفراد الجيش والأهلين، وإن قسماً من الأفراد ونواب العرفاء أخذوا يخوفون اليهود بالتهديد ويحصلون على الدراهم منهم. لذلك فإن اليهود محجمون عن الإخبار لأي سلطة كانت حول حوادث القتل والسلب والنهب ما لم تتخذ

ولو نحن تدبرنا الأمر على ضوء الأسلوب القانوني الذي اتبعته الطبقة الحاكمة المنتصرة في معاقبة أولئك الذين انتقضوا عليها لزال العجب من موقف السلطة الجديدة إزاء هذه المذبحة بل إزاء الحركة عموماً<sup>(٢٠)</sup>.

والمسألة في حقيقتها وكما اختير لها ان تبدو، هي ان هذه القلة من المحكومين - كانت جريمتهم أنهم شذوا شذوذاً فاضحاً عن القواعد المتفاهم عليها منذ زمن بعيد - في لعبة النزاع على الحكم باستخدامهم أسلوب عنف جديد لقلب نظام الحكم خرج عن النطاق المحلي الداخلي،

= ليستخدمه أحد أكبر رجلي أعمال ومزارعين في الموصل مديراً لشؤونه المالية ومحاسباً! كان المحكوم صديقاً لرفعت الحاج سري ومن دورته في الكلية، وقد شد الرحال الى بغداد بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ في محاولة من الضباط المحالين الى التقاعد وعادوا بترفيح إلا أن طلبه أهمل.

(٢٠) قد يخطر ببال أحدكم ان يتساءل: لو لم ينجح الكيلاني في الإفلات بنفسه أكان حكم الموت سينفذ به كما نفذ بالسبعواوي؟ وبعين الدرجة من الفضول يلوح السؤال: ما الذي حدا بالسلطة لتستثني المفتي من إجراءات الإتهام. وقد كان هناك إجماع بأنه الرأس المدير والإرادة المحركة لما اطلق عليه مؤرخنا الحسني الفتنة العمياء في طبقات كتابه (تاريخ الزارات) قبل ١٩٥٨. لاشك في أن نجاح الكيلاني في إفلاته من قبضة الحكام العائدين كان مصدر ارتياح كبير لهم ازاح عن كواهلهم الحمل الثقيل في مسألة حياته أو موته تنفيذاً للحكم الصادر عليه. فبحساب كل الإعتبارات يمكننا ان نجزم وبكل اطمئنان ان لا احد كان يجرأ من رجال الحكم على المطالبة بمحاكمته خشية فقدانهم ورقة فلسطين الراحبة في لعبة القومية، فقد أهمل وغاب عن مرشح السياسة حتى ظهر للعلن في العام ١٩٤٦، حيث اعيد انتخابه رئيساً للجنة العربية العليا للدفاع عن فلسطين ونعم بضيافة الملك فاروق حتى العام ١٩٤٨، حيث انتخب رئيساً للجمعية العامة والمجلس الاعلى للحكومة الفلسطينية. وانتخب في العام ١٩٥١ رئيساً للمؤتمر الاسلامي العالمي المنعقد في كراچي، ودعي الى بغداد في العام ١٩٥٢ ليرأس مؤتمر العلماء المسلمين. وجددت رئاسته في العام نفسه للمؤتمر العالمي الاسلامي، وحضر مؤتمر باندونك رئيساً للوفد العربي الفلسطيني وحل ضيفاً على عبدالناصر ثم اختلف معه. في العام ١٩٥٧ ودعاه عبدالكريم قاسم الى بغداد في العام ١٩٦٠ (اثناء ما كان الكيلاني في غرفة الإعدام!) وتكفل بالإفناق عليه كما أوردنا سابقاً.

نقول: من الواضح ان المنحى الذي انتحاه المجلس العرفي العسكري في توزيع وتحديد العقوبات كان بإيحاء وتخطيط ملته الحكومة، ويؤيده الرأي الذي بسطناه، فالمادة (٨٠) من قانون العقوبات ودلالة المادة (١١) من مرسوم الإدارة العرفية، وهما المادتان اللتان استندت اليهما أحكام المجلس العرفي العسكري - تفرض إيقاع حكم الموت بكل مترع حركة ترمي الى قلب نظام الحكم بالقوة، وهو الوصف القانوني الذي اعطى لحكومة الدفاع الوطني. فالتطبيق الصحيح لهاتين المادتين كان يقضي بأن يعتبر أولاً وقبل اي أحد - كل اعضاء الوزارة الكيلانية، زعماء في الحركة لأن مسؤولية الوزراء على اية حال هي مسؤولية تضامنية لا يمكن تجزئتها ولايصح معها فحص موقف كل عضو من اعضاء العصابة على حدة وفرض العقوبة نسبة الى نشاطه الخاص فيها، وانذاك لن يكون بالإمكان الى حد ما إعتبار العسكريين الأربعة في عداد الزعماء المتزعمين وفرض عقوبة الموت عليهم - فهم بالمقارنة مع اعضاء الحكومة لا أكثر من موظفين ياتمرون بأمر تلك الحكومة اللاشعرية ويطبقون سياستها، لذلك كان من الصعوبة بمكان رفع عامل الإنتقام الشخصي في تنفيذ احكام الموت، أو إغفال التحيز الواضح في إنقاذ حياة الوزراء وافرادهم بأخف الاحكام (لم يقض أثقلهم حكماً أكثر من ثلاث سنوات سجيناً).

بكل ما فيه من تطاول على رئيس الدولة. فاذا كان لا بد من عقاب، فاشده صرامة يجب ان يحصر بأضييق نطاق وبالضبط بأشخاص طارئین على الطبقة الحاكمة، وهكذا كان.

واما أولئك الذين حجزوا في معسكرات الاعتقال بسبب ما نسب اليهم من نشاط ملحوظ في تلك الحركة، فقد نعموا بما يتصور ان يحظى به معتقل سياسي من رعاية واحترام. وكان بينهم رجال ارتقوا ارفع المناصب فيما بعد وبلغ بعضهم منصب الوزارة. وعاد الموظفون منهم الى وظائفهم بعد تسريحهم واحتسبت لهم مدد الاعتقال لغرض الترفيع، في حين خصص لغير الموظفين اجور يومية كافية لمداكرة أسباب عيشهم داخل المعتقل، وسمح لهم بكل ما يتمتع به الرجل الحر خارج المعتقل بما في ذلك معايشة الزوجات<sup>(٢١)</sup>.

\*\*\*

فتحت حكومة الكيلاني الحدود العراقية لاستقبال المتطوعين من القوميين العرب. واقبل ممن أقبل (اكرم الحوراني) الشباب الملتهب حماسة على رأس رهط من المسلحين السوريين وأعلن للصحف العراقية فور قدومه: إنهم جاؤوا لتعزيز قوات الجيش العراقي والمشاركة معه في معركة الشرف والكرامة، ولكنه لم يلبث إلا وانسحب بهدوء في أواخر الأسبوع الثالث. وأقبل المحارب الفلسطيني فوزي القاوقجي بحوالي مائة متطوع. شتتت الفرقة الغربية الأردنية الزاحفة على بغداد شملهم عند تعرضهم لها في الرطبة على الحدود. ونقل القاوقجي الى حلب مصاباً بجروح بالغة<sup>(٢٢)</sup> ومن ثم الى ألمانيا.

(٢١) (من أوراق ايامي) لطالب مشتاق، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٨، ص ١٥٦. يقول: قُسم المعتقلون في معتقل العمارة على درجتين الاولى والثانية، وكانت تدفع الى معتقلي الدرجة الاولى مخصصات يومية قدرها ٤٠٠ فلس، وقد خصصت غرفة خاصة لكل واحد من معتقلي الدرجة الاولى. أما معتقلو الدرجة الثانية فوضعوا في ردهات وقد خصصت ادارة المعتقل عدداً من الخدم يقومون بتنظيف الغرف والردهات ومساعدة المعتقلين في شراء ما يحتاجون اليه من مواد غذائية. وانتظمت حياتي بعد وصول عائلتي واستقرارها في العمارة وأصبح طعامي مؤمناً على احسن حال وغرفتي قد فُرشت بشكل مريح وملابسني تُغسل وتكوى بانتظام واطفالي يزوروني في كل يوم، وقرينتي تاتيني بطعام الغذاء. فنتغذى سوية مع اطفالنا في غرفة خاصة داخل المعتقل. وهكذا أصبحنا نعيش حياة رتيبة لكنها مستقرة ومريحة. كانت المشكلة الوحيدة عدم وجود حمام. ولكن بعد عدة أشهر من إقامتنا شيدت الحكومة لنا حماماً جيداً للغاية لا يقل عن حمامات السوق. (ارتقى فن الإعتقال والسجن بتعاقب الحكومات العراقية ملكياتها وجهورياتها ابتداءً من معتقل نقرة السلطان ومروراً بمعتقل أبي غريب وبالسجن رقم واحد وانتهاءً بقصر النهاية. وليس لغير من زار أحد هذه المعتقلات أو عدداً منها نزيراً إلا أن يقارن ويتدبر).

(٢٢) تم إخلاء المتطوعين والقوميين العراقيين الهاربين من جهة الغرب بتعاون سلطات فيشي في سورية مع بعثة الجنرال فيلمي الألمانية التي استقرت في حلب. وقد تولى هذا الضابط الالمانى نقل القاوقجي =

أما في سورية فقد كان الانتصار القومي لقضية العراق قاصراً على حركة قومية اطلقت على نفسها اسم (حركة الإحياء العربي) وقد تسمت فيما بعد بـ(حركة البعث العربي)، ويقول البعثيون انها أساس حزب البعث العربي.

أقامت هذه الحركة لجنة باسم (لجنة نصره العراق) وطفقت توجه نداءات وبيانات تحث العرب في كل مكان على التطوع والمشاركة في القتال الدائر في العراق، ووصلت بياناتها هذه الى الصحافة العراقية، فاستنتج بعضها ان (آلافاً)<sup>(٢٣)</sup> من المتطوعين المسلحين وصلوا العراق للمشاركة في الحصاد والانتظام في صفوف الجيش العراقي، وقد جرى توزيعهم على الجبهات الحربية.

كان الاعتقاد أن النصر لا يد منه، أو ان الحرب في اسوء تقدير ستكون طويلة الأمد وان الوضع يتطلب تنظيمياً حياً جديداً للعرب يتلاءم مع هذه الحرب. وكان مما اقترحت (حركة

= وجماعته، واستخدم الهاربون القادرون على حمل السلاح جنوداً في الجيش الألماني، فقد قررت القيادة الألمانية العليا تأليف فوج أو أفواج منهم، وأعطوا بزات عسكرية ألمانية مع وضع شارة على ذراع كل جندي نقش عليها كلمتا (Frie Arabia). وأُنيط بالجنرال (فيلمي) قيادة هذه الوحدات، وخصص له معسكر تدريب في بلدة دورين على الحدود البلجيكية، ونقلت وحدات منه الى جبهات القتال. ولما وصل فوزي القاوقجي الى برلين وشفى من جرحه اقترح على القيادة الألمانية اناطة قيادة الجيش به. منحه هتلر رتبة (كولونيل: عقيد) وخاصة بعد ان اعلمه انه من حملة وسام الصليب الحديدي المهدى اليه من قبل القيصر فلهم الثاني في الحرب العالمية الاولى، وكان آخر المعارك التي خاضها هذا الجيش العربي العراقي هي معركة (مجاز الباب) بضواحي مدينة تونس تحت قيادة رومل ومني بضحايا كبيرة. وبعد انسحاب جيش رومل ارسل هذا الجيش الى الجبهة الشرقية في روسيا «وهناك في معركة ستالينغراد لم يسلم من هذا الجيش إلا بعض الضباط العراقيين، وأخص منهم بالذكر الدكتور النطاسي البارع ناجي عبدالرزاق الذي نجا بأعجوبة» (عن يونس بحري: اسرار ٢ مايس ١٩٤١ او الحرب العراقية الانكليزية، بغداد ١٩٦٠ ص١٠١). ويؤيد السهروردي (التاريخ لم يبدأ غداً: الص ٢٠٧-٢١٦ في واحدة من المناسبات النادرة التي لا يحاول مجانية الحقيقة بها - هذا المصير المحزن الذي آل اليه الفيلق العربي كما نسميه)، فيقول: "وقد حث السيد رشيد عالي الكيلاني والحاج امين الحسيني هتلر وموسوليني على التعجيل بالعمل في قلب الشرق الأوسط... ولهذا الغرض بُدئ بتشكيل فيلق عربي بمساعدة الجيش الألماني... وفي الجبهة الروسية كان مقر هذا الفيلق في مدينة ستالينو القريبة من ستالينغراد، وقد بلغ تعداده ٢٠ ألفاً (!) وقاتل الفيلق هناك غير ان بعض افراده رفضوا القتال. وكان بين الراضين من العراق علي الجرججي وناجي عبدالرزاق القيسي، الذي أصبح دكتوراً فيما بعد. وقد نُقل الإثنان من الجبهة الى السجن العسكري في برلين... وبنتيجة القتال في الجبهة الروسية، فقد قتل جميع افراد الفيلق العربي الذين نقلوا الى جبهة موسكو باستثناء ثلاثة فقط، أما الجنود الذين كانوا قد بقوا في ستالينغراد فقد أُعيدوا الى ألمانيا، وقد بقوا على قيد الحياة وهم ١٤ ضابطاً و ٢٢٠ جندياً، وكانت نهايتهم في تونس". هكذا تشاء الأقدار ان تكون الجبهة الروسية ميداناً للجهاد في سبيل تحقيق الأمان القومي العربية، فما اعجب مفارقات التاريخ!

(٢٣) جريدة الاستقلال البغدادية: ٦ ايار ١٩٤١.

نصرة العراق) على العرب منهاجاً يومياً لمواجهة الموقف، هو البيان التالي:

أيها العربي: اعلم ان العراق في هذه الساعة يناضل من أجل أمنية كل العرب، الوحدة العربية، واعلم ان انتصار العراق منوط بك وحدك فاعرف واجبك وقم به.

ايها العربي حيثما كنت: ضح برفاهلك اياماً تضمن لأمتك السعادة اجيالاً امتنع عن الملاهي جميعها وساعد العراق المجاهد. اذ لا يليق بك ان تلهو بينما العراق يريق دمه في سبيلك. إلغ الضيافات ولا تقبلها من الآخرين وبقيمتها قدم لمرحى العراق العربي اضمدة وادوية. في كل اثنين وخميس، إقتصر مع اسرتك على أكل لون واحد بسيط. وارسل ما توفره الى العراق ليشتري اسلحة واعتدة، تعود الحشونة في عيشك والبساطة في ملبسك واعلم ان كل عربي قد اصيح اليوم جندياً.

أيتها الفتاة العربية: لا تنسي انك ستكونين أم الجنود والابطال العرب فانتهي لرسالتك وما تفرضه من مسؤولية.

ايها العرب حيثما كنتم: لترتفع قلوبكم الى الله في كل ساعة تسأله ان ينصر العراق. ولتكن تحيتكم فيما بينكم بعد الآن (نفدي العراق).

الصق هذه الورقة في بيتك إقرأها واعمل بتعاليمها."

وشكلت هذه الحركة لجاناً في المدارس السورية وسمتها (اللجان المدرسية لنصرة العراق).

ورسموا للتلاميذ دعاء وعهداً الى الله يتلوه اعضاؤها عند اجتماعاتهم، وهو طويل جداً سأكتفي بإثبات فقرته الأولى:

"اقسم بالله العظيم والعروبة الخالدة ان ابذل لنصرة العراق كل جهودي المادية والمعنوية. اللهم أنت الذي اردت ان يكون العرب أمة موحدة قوية هادية تحمل الى العالم رسالتك، تريد اليوم ان تعيد اليهم وحدتهم وقوتهم ليعودوا الى حمل هذه الرسالة من جديد، اللهم هبني قوة الايمان وصفاء الذهن وصلابة الارادة لأكون جندياً نافعاً فعالاً في الجهاد الذي يقوم به العراق من اجل وحدة العرب... الخ..."

لم يحسب واضع التوصيات حساباً للصعوبة في تطبيق ما أمر به ولم يشير المصدر الذي نقلنا منه النداء<sup>(٢٤)</sup> الى مدى تأثيره والى مقدار استجابة ما دعاه بالجماهير العربية إليه.

(٢٤) العراق وسورية (ترجمة وتقديم الدكتور محمد مظفر الادهمي، ص٥٣-٥٤) بغداد دار الحرية ١٩٨٦.

الشيوعية والاشتراكية قضاء تاماً. ولا في البلاد التي وقعت في قبضة المحتل النازي. ولذلك انصبت المجهودات في تحقيق ذلك وانحصرت في بريطانيا وفرنسا والدول الأخرى المعنية. واستتبع ذلك ان يقف اليسار الماركسي وفي طليعته الحزب الشيوعي العراقي موقف المؤيد من حكومة الكيلاني حكومة الدفاع الوطني، لأنها تقف في وجه اكبر امبريالية عرفها تاريخ البشر.

ومع ذلك كان الشيوعيون يدركون الإتجاه القومي العربي الكاسح الى الأفكار النازية، فدعوا في بيان لهم مؤرخ في شباط ١٩٤١ موجه الى ابناء الوطن كافة، بصرف النظر عن روابطهم الطبيعية أو اتجاهاهم السياسية، الى وجوب وقوف العراق على الحياد في الحرب الحالية وعدم جعلها ساحة حرب. والعمل على إقامة اتحاد عربي يهدف الى المحافظة على حياد الدول العربية مدعوماً بالتعاون العربي على الصعيد الشعبي ومن خلال منظمات شعبية عربية. إلا انهم لم يقفوا عند هذا الحد فسرعان ما حملتهم الموجة القومية العاتية عندما تسارعت الأحداث. ففي صباح يوم ٣ أيار (مايس)، وعلى إثر القصف الجوي العنيف لمعسكر الرشيد وصدور البلاغ الحربي رقم (٢) مشيراً الى ذلك، أصدر الحزب الشيوعي نشرة خاصة دعا فيها الشعب العراقي الى مساندة الحكومة الجديدة دون تحفظ والالتفاف حولها. ثم وجه الى رئيس الحكومة رسالة في ٧ من مايس بدأها بهذا:

"ان الحزب الشيوعي العراقي يهنئ فخامتكم على مشاعر الود والمساندة التي خصكم بها الشعب وهو يقدر حق التقدير صعوبة المسؤولية التي تتحملونها في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخنا... ان الحزب اذ يساندكم فهو لا يقوم بذلك عفويًا أو اعتباطياً، بل على اساس مقاييس علمية مستمدة من تعاليم ماركس ولينين الثورية. وستكون هذه التعاليم أيضاً دليلنا في تقييم أي اتجاه تسلكه الحركة في المستقبل. وبناء على ذلك يرى الحزب من واجبه الوطني ان يعرض لفخامتكم رأيه في امور معينة من شأنها ان تلحق اضراراً بالحركة الوطنية، وبالدرجة الأولى يأسف الحزب الشيوعي، بل يستنكر الاعمال الإستفزازية التي تدبر ضد اخوتنا اليهود من قبل اذئاب الامبريالية البريطانية من جهة، ومن قبل مروجي دعايات الامبريالية الألمانية من جهة أخرى... الإعتداء على الحريات، اقتحام المنازل وسلب الممتلكات، وضرب وقتل الناس هي أعمال ليست ضد القانون والعدالة فحسب، بل هي ضد القيم الانسانية في الشهامة والمروءة والنبيل. ان هذه الاعمال الاجرامية

فالتوصيات التي فرضها كان في تطبيقها بعض الصعوبة كالإمتناع عن الضيافة والإستضافة، الذي يتضمن إغلاق باب بيتك في وجه الأقربين والاصدقاء وأن يغلقوا بدورهم ابواب منازلهم في وجهك. أو ان تمتنع ويمتنعوا عن تقديم فنجان قهوة أو شاي عند الزيارة. اما التوجيه بعدم إرتياد الملاهي<sup>(٢٥)</sup>، فسيؤول تطبيقه بالطبع الى غلق المقاهي الشعبية، لأنها وسيلة التسلية واللهو الرئيسة في البلاد الناطقة بالعربية.

وما من شك في ان التوجه الى العناية الالهية بالدعاء لتحقيق وحدة العرب - بعد ان شاعت ارادته ان يحمل الكيلاني والمفتي عبء الجهاد في سبيلها، وان يكون العراق ساحتها وميدانها انما يستقيم تماماً مع اساليب العمل القومي العربي في الرجوع الى الله قبل الرجوع الى أنفسهم لإحداث التغيير المؤمل "ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الأنفال).

كثيراً ما نسي القوميون العروبيون هذه الحكمة الالهية.

\*\*\*

لم يختلف موقف اليسار الماركسي العراقي (الشيوعيون ورفاق الطريق) عند قيام الحرب العالمية الثانية عن مواقف الأحزاب والمنظمات الشيوعية والماركسية الأخرى في العالم، وهي تستوحي سياستها المحلية من التعليمات التي يصدرها الكومنترن وتطابق بالنتيجة سياسة الإتحاد السوفياتي العامة، وقد بدت بعد معاهدة الإعتداء بينه وبين ألمانيا النازية بهذه الصيغة الواضحة المقتضبة:

"هذه الحرب هي حرب بين كتلتين رأسماليتين إنها حرب امبريالية لا تختلف عن الحروب التي سبقتها وليست من مصلحة البروليتارية، إنها تعكس المنافسة على مناطق النفوذ وعملية انتقال المستعمرات من يد الى يد."

واستتبع ذلك أن صدرت تعليمات من الكومنترن للأحزاب الشيوعية في الدول المتحاربة بمعاودة هذه الحرب، بما في ذلك بث الفكرة بين العمال والاعضاء عن طريق النشرات وتحريض العاملين منهم في المصانع الحربية على الإعتصاب والإضراب والتراخي، والحث على التهرب من الخدمة العسكرية.

لم يكن لهذه التعليمات من أثر أو معنى في بلاد المحور التي قضت على الأحزاب (٢٥) الملاهي في اللغة هي آلات الطرب مطلقاً وتحديداً ولا تنصرف الى أماكن اللهو والتسلية، وهو الذي قصده واضع النداء بلا ريب فأخطأ التعبير.

تسيء الى سمعة الحركة الوطنية وتؤدي الى شق صفوف الجبهة الوطنية، ومن الذي يستفيد منها غير الامبريالية؟ وفي الوقت الذي نعلن شجبنا لهذه الاعمال واحتجاجنا عليها، لا يمكننا الانكار على الأقل وجود بعض الخونة من الطائفة اليهودية المرتبطين بالعصابة الشريرة عصابة عبدالإله - نوري السعيد وزبانيتهن. لكننا نرى ان العقاب الذي يجب ان ينزل بهم ويتم وفق احكام القانون.

في الدرجة الثانية تأتي امور الدعاية، على مديرية الدعاية والنشر ان تهتم بتوجيه الشعب العراقي وفقاً للخطة الوطني الصحيح. لكننا لاحظنا وبكل اسف انها سلكت سبيلاً مضرراً بمصلحة الشعب. لم نسمع مؤخراً إلا التأكيد على القضية العادلة لدول المحور وما من شك في ان فخامتكم تتفق معنا بان هذه الدول لا تقل امبريالية عن بريطانيا.

والنقطة الثالثة هي مسألة المعونة الخارجية. ان تأكيدكم في تصريحاتكم المتتالية بحصانة الحركة الوطنية من أي وصمة لعلاقة خارجية مما يدعو الى الإطمئنان. فالاعتماد على اية معونة من اية دولة امبريالية هو في مستوى الغدر بالحركة والسقوط في احضان امبريالية أخرى... وليس هذا مما يرغب فيه فخامتكم بالتأكيد. ونحن ننوه بهذا، استناداً الى انباء انتشرت بشكل واسع نقلاً عن مصدر مسؤول، بأن قوات عسكرية اجنبية ستصل الى العاصمة للدفاع عن استقلال العراق الى جانب الجيش العراقي الباسل، ان صحت هذه الأنباء خلافاً لما نرجو فإن حركتنا الوطنية ستتلاشى وتصبح جزء من الحرب الامبريالية الثانية. وهي حرب حذرنا بلادنا منها وانذرنا بوجود ابتعادها عنها. وفضلاً عن ذلك فقد كنا اكدنا في الماضي ونؤكد الآن مرة أخرى ان الإتحاد السوفياتي هو الدولة الوحيدة التي يمكن الركون اليها دون ان تصاب سيادتنا الوطنية بسوء. ونعتقد ان فخامتكم يشاركونا هذه النظرة. قد يفترض بعضهم ان المساعدة التي يقدمها الإتحاد السوفياتي ستؤدي الى استظهار الشيوعية في بلادنا. لكن يكفي الإشارة الى ان الإتحاد السوفياتي ساعد تركيا وايران في حرب الإستقلال وبقيت بلادهما غير شيوعية. ثم ان الشيوعية ليست طرداً يحمله احدهم من بلد الى آخر، بل هي حركة جماهيرية تتبع من احوال الانتاج والتوزيع الإقتصادي بالدرجة الأولى. هناك قضية أخرى وهي قضية السجناء السياسيين، فإن عطفكم لم يشمل الجنود

الشيوعيين الشجعان الذين حكم عليهم في سنة ١٩٣٨.

والبيان طويل واذا كان الكيلاني قد استجاب للطلب الأخير فاطلق سراح هؤلاء الشجعان، وهم الوجبة الأخيرة من المسرحين الذين حكمت عليهم المجالس العرفية العسكرية<sup>(٢٦)</sup> فإن المطالب الأخرى التي تضمنتها المذكرة اهملت بطبيعة الحال. ولست ادري أكان الشيوعيون يجهلون بان الحلف مع الشيطان قد تم منذ اشهر أو انهم عرفوا به وكان قصدهم من التحذير تسجيل موقف ليس إلا. أما أنا فأرجح وجود الإحتمالين معاً. كان الشيوعيون العراقيون يتابعون الخط السياسي الذي سارت عليه موسكو في تعاملها مع دول المحور بدقة متناهية. يقفون حيث تقف ويسيروا حيث تسيروا ويهدى من ميثاق عدم الإعتداء. لا يدرون بطبيعة الحال - ولا أحد كان يدري بوجود ملحق (پروتوكول) سري بالميثاق حول اقتسام الغنائم بين الإتحاد السوفياتي ودول المحور بعد القضاء التام على الدولتين الامبرياليتين البريطانية والفرنسية<sup>(٢٧)</sup>.

كانوا يشاركون كثيراً من الناس العاديين معرفتهم بان الانقلابيين العراقيين ربطوا مصائرهم بدول المحور قبل انقلاب نيسان ولم تبق مفاوضاتهم مع برلين وروما سراً. إلا ان الحزب الشيوعي الذي كان يعاني التشتت والانقسام والاحتراب على الزعامة بعد تشكيله مباشرة وجد من الضروري ان لا يبدو متخلفاً عن ركوب الموجة القومية - الوطنية وإلا عُدّ صنعة للامبريالية ووضع في قائمة الخونة. وان وجد أي تردد فما من شك في ان الإتحاد السوفياتي أعطى رأيه ضمناً في انقلابي نيسان - بالموافقة على إنشاء العلاقات الدبلوماسية وتبادل التمثيل الدبلوماسي مع حكومة الكيلاني واستجاب لرغبتهم في تبادل التمثيل الدبلوماسي. كان الإتحاد السوفياتي في تلك الفترة وكما أجمع المؤرخون على ضوء وقائع لا تُدحض -

(٢٦) اعلنت حكومة الكيلاني عفواً عاماً عن جميع السجناء والمبعدين والمعتقلين من ضمنهم معتقلو الكُرد ومبعودهم، وايضاً عن المحكومين في قضية (حكمت سليمان).  
(٢٧) لم يُعلم بهذا البروتوكول السري إلا بعد الحرب والإستيلاء على وثائق وزارة الخارجية الألمانية، ولقد تاخر الكشف عنه حتى قيام الحرب الباردة حرصاً على علاقة الحلفاء بالسوفييات وعندما جرى اقتسام پولندا في حينه زُودت الأحزاب الشيوعية بالترتيب الديالكتي الذي صاغته موسكو وهو ان سبق الجيش الأحمر في احتلال هذا الجزء كان مفاجأة غير سارة للنازيين. كما ان الغرض منه هو استعادة الأراضي التي فقدتها روسيا أثناء حربها الخاسرة مع البولنديين في العام ١٩٢٠. كذلك قدمت موسكو للعالم تبريرات مماثلة لشن حربها على فنلندا، وقضائها على استقلال دول البلطيق وضمها الى الاتحاد السوفياتي مع ضم الجزء الشمالي الشرقي من رومانيا... لم تجد الشيوعية العالمية في عملية اقتسام پولندا تكراراً لإتفاق ألماني- روسي ايام قياصرة الألمان وأباطرة الروس على اقتسامها واعطاء حرية استرقاق شعوب البلطيق ثانية، (تجد نص ميثاق عدم الاعتداء مع البروتوكول السري الموقعين في ٢٣ من آب ١٩٣٩ في وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ ص ٢٤٥-٢٤٧: المرجع السالف).

يحاول استرضاء ألمانيا النازية بكل صورة ممكنة وتجنب أي احتكاك بها<sup>(٢٨)</sup> مطبقاً ميثاق عدم الإعتداء والبروتوكول بأمانة ودقة.

كان سكوت القوميون العرب على عملية مصادرة حريات شعوب أواسط أوروبا والقضاء على دولها مشابهاً لسكوت الاحزاب الشيوعية عن العمل الروسي المشابه. ووجه الغرابة هنا هو أن القوميون العرب وصفهم دأبوا على شجب العدوان الروسي، مثلما دأب الشيوعيون على استنكار وشجب العدوان الألماني. دون أن يجد كلاهما وجه شبه في العملين!

وفي خلال فترة الاسابيع الثلاثة التي تقدمت الغزو الألماني للإتحاد السوفياتي كان هناك تعاون حقيقي بين جهات تقدمية ماركسية وبين بعض انقلابيي مايس في ايران يرمي بكل سذاجة طفولية الى طلب (المعونة العسكرية من الإتحاد السوفياتي) لاستئناف القتال ضد البريطانيين في العراق!! وقد بديء بتنفيذ الفكرة فعلاً وقت ان بدأت الجحافل الألمانية تتدفق عبر حدود طولها ٢٤٠٠ ميل وانطلقت القاصفات تدك المدن الروسية بوابل من قنابلها<sup>(٢٩)</sup>.

في الثاني والعشرين من حزيران ١٩٤١ انقلبت تلك الحرب التي وصفها الشيوعيون في شتى انحاء العالم بالحرب الامبريالية، وبسحر ساحر الى حرب عادلة، تشنها قوى الظلام

(٢٨) بعد التوقيع على الميثاق والبروتوكول بين من كان قبل ساعات من ألد الأعداء والخصوم ظل ستالين يتوجس خيفة وفي قلبه شك عميق في صدق الألمان، لنجده يختلي بوزير الخارجية الألماني (فون ريبنتروب) ليقول له: ان الحكومة السوفياتية تنظر الى الميثاق نظرة جدية للغاية وإنه ضامن بكلمة شرف منه ان الاتحاد السوفياتي لن يخون شريكه. (المرجع السالف: الوثائق ص ٢٤٨).

(٢٩) يحسن بالقاريء مراجعة ما كتبه الأستاذ بطاطو (ص ٤٠٨-٤٦٠): المرجع السالف، بتفصيل وجدية لا يحسد عليها، فقد ذكر ما خلاصته أن واحداً من الشيوعيين البارزين ممن هرب مع العروبيين وهو قاسم حسن راجع السفارة السوفياتية في طهران بصحبة صديقه يونس السبعواوي، ووضعاً أمام السفير الروسي اقتراح قادة حركة مايس الهاربين طلب العون العسكري من حكومته (نشر بيان رسمي حول تبادل التمثيل الدبلوماسي مع الإتحاد السوفياتي ببغداد في نهاية الأسبوع الثالث من مايس ولم يتحقق تبادل فعلي). فأبدى السفير استعداده لتسهيل مهمتهما في الشخصوس الى موسكو وبحث الأمر مع الحكومة السوفياتية، فغادرا العاصمة الإيرانية وبعد ان قطعاً زهاء ثلاثمائة كيلومتر، سمعا بأنباء الهجوم الألماني فعادوا. نقول: الظاهر ان السبعواوي وزميله قد أساء فهم الأحداث الدامية التي وقعت في ٢١ من حزيران في بغداد، وترجمها السبعواوي بثورة شعبية واسعة النطاق ضد المحتل يجب استغلالها يدعها ويقودها جيش غاضب مصمم على اداء رسالته القومية وانه لا يحتاج إلا الى دعم عسكري من جهة معادية لللفاء بعد أن خذله المحور.

يستنتج مما كتبه بطاطو عن قاسم حسن ان الرجل لم يحظ منه بأي احترام وقد وصفه بانه مثال بليغ للإنتهازية والنفاق السياسي، واذكر ان العلاقة بينه وبين السبعواوي تعود الى ايام دراستهما الحقوق العراقية، واذكر اني ابتعت منه كتباً بحجم الكف من تأليفه مصدر بعنوان طويل اوله إن لم تخني الذاكرة (جهاد فلسطين). وقد اعتبر من الشيوعيين القوميون واصبح سفيراً في عهد عبدالكريم قاسم.

والرجعية على القوى الديمقراطية والتقدمية<sup>(٣٠)</sup>.

وكان على الشيوعيين العراقيين أن يبدلوا موقفهم من الإمبريالية البريطانية بشكل ينسجم مع الوضع الجديد. سيما بعد أن قامت جيوش تلك الامبريالية بالمشاركة مع الجيش الاحمر في إحتلال ايران وإلقاء القبض على الهارين من زعماء حركة مايس ومن مشايعها، وبينهم عدد من الشيوعيين والتقدميين.

قلنا: كانت الحركة الماركسية وقتذاك (ونسُميها بالحركة التقدمية) تعاني فوضى فكرية وتناحر على القيادة، وفي خلال السنوات التي لحقت تأسيس الحزب الشيوعي العراقي، وجدنا التقدميين عامة والشيوعيين يرون رؤية القوميون العرب السياسية ويتبنون شعاراتهم ايضاً وفي مقدمتها قضية فلسطين عندما باتت القضية المركزية في العمل القومي. وجد الشيوعيون وبينهم شيوعيون قوميون ان التمسك بنضال البروليتاريا العالمية وحده، سيقصصهم عن القضايا الوطنية المحلية الآتية، ويعزلهم على صعيد البلاد الناطقة بالعربية ويجعلهم هدفاً سهلاً لظعن القوميون بإخلاصهم، سيما وان انصار التقدمية ومؤيديها، ومنهم اعضاؤهم الحزبيون، كانوا يضمون نسبة كبيرة جداً من ابناء الأقليات المسيحية واليهودية والصائبية والكردية أكبر من حجم تلك الأقليات السكانية نسبةً للمجموع العام.

ثم ان شعارات مكافحة الامبريالية والاستعمار والصهيونية العالمية والنضال في سبيل الاستقلال التام للبلاد الناطقة بالعربية والتخلص من النفوذ الاجنبي واستغلاله لا يتنافى قط مع تعاليم الماركسية ومبادئها، ولذلك جاء تأييدهم الأولي لحركة مايس منسجماً في الظاهر

(٣٠) يصف عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البريطاني في كتابه: انا أقرّ (I Confess) هذا التحول المفاجيء الذي أدى به الى الاستقالة من الحزب، فيقول ان الحزب بدء منذ اندلاع الحرب يعد منشورات وبيانات تدور حول طبيعة هذه الحرب التي لا يستفيد منها غير تجار الحروب وانها ليست من مصلحة البروليتاريا، ولذلك يجب على العمال البريطانيين مقاطعتها بالتهرب من الخدمة العسكرية والإضراب وعرقلة الجهود الحربي.

ويقول انه كان يركب دراجته في الصباح الباكر ليوزع حصصه من المنشورات على الأعضاء ويلصقها في الاماكن العامة رغم ملاحقة الشرطة التي لم تكن تملك من الصلاحية غير مصادرة تلك المنشورات وتمزيقها. ويصف الازهاق والتعب الشديد الذي كان يصاب به الأعضاء المكفون بالتوزيع حتى جاء يوم ٢٢ حزيران، حيث ورد الحزب إشعار من الكومنترن بوقف الحملة فوراً وانتظار رسول خاص بتعليمات جديدة. وقد جاء المندوب بعد ايام قليلة، وفي اجتماع اللجنة المركزية ابلفهم ان الحرب اصبحت الآن حرب تحرير بعد تعرض الاتحاد السوفياتي للغزو وهي تهدف الى القضاء التام على الفاشية والنازية. قال المؤلف (أخذ بعضنا ينظر الى الآخر نظرة ذهول وحيرة اذ كان ذلك يعني دورة فجائية مقدارها ١٨٠ درجة. وراح كل منا يتساءل كم سيبقى لدينا من احترام عند اولئك الذين زورنا لهم الحقائق قبلاً وكم سيصدقون لقولنا فيما بعد؟).



مع هذا الإتجاه ومطابقاً للتعاون الذي تم بين بعض الشيوعيين وبين الحركات القومية في العراق والأردن على إيصال السلاح الى المجاهدين الفلسطينيين.

مع هذا لم تنجح الاقليات العرقية والطائفية المسيحية من الفوضى الفكرية التي انتابت الانتماء القومي وبلغت أوجها في حركة مايس. والدعايات النازية والإعجاب بما أنجزه هذه النظام وشقيقه الفاشي لم تكن قاصرة على القوميين العرب المسلمين، بل تعدته الى المسيحيين بمشاركة حماسية فعلية لعدد كبير من الشخصيات المثقفة الى جانب شريحة كبيرة من العامة وبنادف عاطفي مماثل لذلك الذي انتاب القوميين وعامة العرويين المسلمين. وربما عزى السبب الرئيس لهذا الإندفاع من النوعين - الى خيبة امل فيما كان يرجى من بريطانيا أو تخليها المتكرر عن حمايتهم ومساندة دعواهم بالضمانات والحقوق التي نص عليها في التعهد الدولي العراقي لعصبة الأمم. وقد برهنت وقائع عديدة بان البريطانيين ليسوا على استعداد للتضحية بمصالحهم في العراق والمرتبطة على حلفها مع الطبقة الحاكمة والإعتماد عليها. كما انتهز هؤلاء المثقفون الفرصة في مايس للانسحاب في الخط العام وركوب المزاج الغالب مع الراكبين، لأنه من باب آخر قد يصلح برهاناً على ان المواطن العراقي المسيحي لا يقل عن المواطن المسلم إحصائياً للقضايا الوطنية وشعوراً بها، وانه مثله يمت الاستعمار والنفوذ البريطاني<sup>(٣١)</sup> في العراق.

ولم يقتصر الأمر على بعض المثقفين واصحاب المراكز الاجتماعية الملحوظة من المسيحيين، فقد سرى العطف على المحور والإعجاب بزعيميه وبالانتصارات التي حققتها جيوشهما الى بعض من الطبقات الدنيا والبسطاء السذج، بلغت بفئات منهم حد الهوس الجنوني الباعث على الضحك والتندر به<sup>(٣٢)</sup>.

مع هذا كله بقيت الأغلبية المسيحية كالتائفة اليهودية كمية مهملة لا يعتد بها إلا ان افرادها خلال تلك الفترة لم يتعرضوا لأي اعتداء كما كان يحصل لليهود في المدن الكبيرة لاسيما بغداد.

(٣١) يتجلى ذلك من استقراء اسماء المعتقلين القوميين بعد الحركة، ففيها عدد كبير من المحامين والصحافيين والمدرسين ورجال الأعمال والتجار المسيحيين، الذين ابدوا نشاطاً ملحوظاً خلال شهري نيسان وايار. (٣٢) مما اذكره في هذه المناسبة ان صديقاً معلماً بناه يعمل في ترميمات مطار الموصل اسمه (يونس) كان ينزل هتلر منزلة عبادة، حصل على علبه لحم محفوظ من أحد العسكريين الالمان الذين وصلوا الموصل، رُسم على ورقتها علامة الصليب المعقوف. فدعا رفاقاً له يشاركونه حماسته للاحتفال بفتحها وتناول ما فيها. وقد تابعت بنفسي الطقوس والمراسيم التي استخدمها المجتمعون في فتح العلبه بكل مظاهر الخضوع في تناول محتوياتها. وكان نصيب كل واحد منهم ملعقة صغيرة واحدة!

أفلا القوميين النظريين والعمليين كانوا قليلي الاهتمام بفحص الهوية القومية للمسيحيين؟ بطبيعة الحال لم يكن القوميون العرويون يقبلون من اليهودي الإدعاء بالعروية كما لم يحاول احد منهم ذلك على مدى علمي. والأمر يعود كما قلنا ورددنا مراراً بأن الفكرة القومية في العالم الناطق بالعربية بقيت حتى موت شعاراتها الأثيرة ثم اضمحلها عملاً - غير مستقرة على خط معين. ظلت فكرتها قلقة يحفّ بها الغموض. فالقرار فيمن يكون عربياً ظل الى الأخير ضمن حدود الذوق والنزوة. وكان يوسع الفرد ان يقول انه سوري أو عراقي أو مصري، أو حجازي، أو ان يقول فقط انه مسلم، كما كان بإمكانه ان يضيف الى اية واحدة من هذه النسب كلمة (عربي) أو أي كلمة أخرى، كأن يقول: مسيحي عربي بدلاً من قوله مثلاً: آشوري يتكلم العربية، أو فينقي عربي اللسان، أو مصري عربي اللغة، واذا كان المسلم الناطق بالعربية لا يرى إحراجاً ومشكلة، بل اقراره بعربيته انما هو أمر طبيعي. فإن عامل الاختيار الفردي كان لأغلبية الاقليات التي تعيش في المجتمع المسلم الناطق بالعربية مصدر عذاب وحيرة. ومن حيث ان التعرف الى الهوية القومية يجد ملاذ الأخير في اللغة كوسيلة لمخرج، فإن الفرد سيبقى يجاهد ويعاني في سبيل المفاضلة بين كثير من وسائل إثبات الهوية القومية.

وما من شك في ان الاشتراكية سواء بنمطها الماركسي المرتبك أو بمفهومها النازي المشوه كانت اكثر الفكر الغربية قبولاً واستواء عند الفكر العربي السياسي، كما كان الأمر بها في سائر الاقطار الأخرى في العالم. لكن بدء شيء من الإرتباك والحرجة عند محاولة تفاعل الإسلام والماركسية الاشتراكية في أنبوب الاختيار القومي، لا سيما عندما تكون الشيوعية نسخة من الاشتراكية. فالماركسية بالنظر الى الشيوعيين هي نظام يستند الى نظرية، في حين بقيت القومية العروبية حركة سياسية في الجوهر لاتستند الى نظرية. ففي خضم المعركة التي زعمها قوميو حركة مايس مع الامبريالية والاستعمار البريطانيين وجدوا أن الإسلام بأصالته ذو مناعة وانه محصن من الفكر الماركسي، وسموا الشيوعية بالعقيدة الوافدة، في حين وجدوا في المسخ الاشتراكي الذي اخرجهم رحم النازية ما لا يتعارض ومباديء الإسلام وان بإمكانهم الاعتماد على الإسلام في دعم حركة مايس. وقد كانت عصبة الإنقلابيين على دراية بهذا، اذ وجدت فيه غطاء تخفي تحته عواقب ورطتها، وتحقق به تأييداً جماهيرياً لا يمكن الاستغناء عنه. فكانت جهودهم تنصرف الى خطب ود علماء الدين والجهات العلمية الإسلامية سنيهاً وشيعياً، لذلك احتثت عملية إصدار الفتاوى العديدة بالجهاد. وجُند خطباء المساجد والجوامع حيثما أمكن للتبديد بالعهد السالف ووصم الطبقة الحاكمة بالخيانة والعمالة. واحتشوا رجال

الدين في كل مكان على ارسال برقيات التأييد.

لم تكن المسألة عند زعماء حركة مايس تتعلق بنظام حكم يجب تبديله ولم يفكروا ببرنامج اجتماعي واقتصادي لنظام جديد، وكل ما اتضح فيما بعد ان الفكرة القومية لم تكن فكرة موحدة اجتمع حولها زعماء الحركة، فقد كان لكل منهم مفهومه الشخصي لها - ان تسامحنا ولم نقل غرضه الشخصي من الانقلاب.

اولئك الذين هربوا الى معسكر المحور مع أنصارهم ومؤيديهم لم يجدوا حرجاً مثلاً في الاستجابة الى طلب القيادة العليا الألمانية بتشكيل فيلق عربي، يحارب كجزء من قوات المحور لا على ارض عربية ولا في سبيل تحرير الأمة العربية، بل كقوة مرتزقة في صفوف الجيش الألماني بين (رودين) و(تونس) و(ستالينو) و(ستالينغراد) حيث كانت مقبرتهم الأخيرة.

أراني شذذت عن موضوعي الأصلي، اعني استعراض الموقف الماركسي، فلأعد اليه:

في مبدء الأمر ذهل الشيوعيون من الكارثة التي حلت باليهود، ولكن حيرتهم لم تطل، اذ كان عليهم ان يقفوا بوجه منتقديهم ومستنكري موقفهم داخل تنظيماتهم وخارجها. فدافعوا عن تورطهم الحماسي في مساندة حركة مايس وصدرت صحيفتهم (الشرارة) في أوائل نيسان بمقال تهاجم فيه منتقديهم مفلسفة موقفهم بكل ما يساعف المثقف الماركسي من حجة وقوة عارضة. وكان ذلك قبل غزو الإتحاد السوفياتي بعشرة ايام. قالت الجريدة:

"قد يكون صحيحاً ان ما دعي بحكومة الدفاع الوطني، كان يتألف من افراد ينتمون الى الطبقة الرجعية الحاكمة، ومن الشوفينيين المتشبعين بالأفكار النازية والفاشية، والعسكريين الذين تزعموا انقلابات عسكرية صرفة... إلا ان تأييدنا للثورة إنما كان انسجاماً مع انعطاف الجماهير، وبسبب معاداتها للامبريالية البريطانية. وقد قال (لينين) نفسه ان مصلحة الثورة تتطلب في بعض الاحيان ان تترك المسؤولية عنها حتى في ايدي الرجعية، لأن قوة الحركة الوطنية قد تدفع قادتها - رغم رجعتهم الى الإستمرار في خدمتها... الخ. (٣٣)

(٣٣) لا يجرؤ الماركسيون - اللينينيون على تحريف النصوص التي يستشهدون بها عند اقتباسها من هذين المصدرين. ومع اني لم أجد نصاً مطابقاً للنص الذي جاء في المقال من المجموعة الكاملة لكتابات لينين (ط. موسكو)، إلا انه كان يقول شيئاً مشابهاً لهذا في حكومة (كيرنسكي) المؤقتة إثر ثورة شباط ١٩١٧ الروسية، سيما بعد احباط مؤامرة الجنرال (كورنيلوف).

الا ان هذا الاعتذار لم يجدهم كثيراً وانفض عدد كبير من انصارهم من حولهم وحصلت انشقاكات في الحزب، لا سيما من جانب الشيوعيين القوميين الذين لم يعجبهم وصف الحزب لرجال مايس بالرجعية، وكذلك من جانب الحرفيين الذين وجدوا في وصف الحزب لما وقع في نيسان - مايس إنقلاباً لا تنطبق عليه شروط الثورة. وكان خلافاً شديداً راقبته وتابعته مشاهداً من مركز فريد حُصني به حسن الصدف<sup>(٣٤)</sup>. واقصد به مكتب تحرير مجلة (المجلة)، الذي انقلب في الا شهر الأخيرة الثلاثة من العام ١٩٤١ ملتقى لجمهرة من المثقفين والسياسيين التقدميين، الذين مثّلوا أداراً في حياة العراق السياسية، حيث كان يجري نقاش سياسي ترتفع فيه الاصوات ويبلغ درجة من الحدة لا تليق في رأيي بمقام المتحدثين<sup>(٣٥)</sup>.

(٣٤) في العام ١٩٣٨ قام نوري السعيد اثناء وكالته لوزارة الخارجية بعملية تطهير شملت موظفي الوزارة الدبلوماسيين المشكوك في ولائهم للدولة (القصد هو التخلص من ذوي الافكار التقدمية والديمقراطية). وممن شملهم الطرد الأستاذة كامل قزانجي (نائب قنصل في بومباي)، ويوسف الحاج إلياس (معمد الحزب الوطني الديمقراطي في الموصل فيما بعد)، والأديب والشاعر عبدالحق فاضل المحامي. وقد عاد الاخيران الى الموصل وامتحنها المحاماة، إلا ان عبدالحق قام بإصدار مجلة (المجلة) الشهرية، وكان فيها أول خروجه الى عالم الكتابة كما كانت بداية نشاطي الفكري القلمي، بتشجيع وتوجيه من تلك الشخصية الرائعة التي غمرتني تسمو بخلفها وتواضعها وسعة اطلاعها ووضعتي على بداية الخط الصحيح في المعرفة والتتبع الفكري، رغم فارق السن والمركز الاجتماعي. كما كان تأثير الثاني منهما على نهجي السليم في مزاولة مهنة المحاماة كبيراً. ولم يكن تأثير الأول (قزانجي) بأقل شأنًا من الإثنين، وقد عرفته مدرساً للإنكليزية في متوسطة الناصرية، ثم صحبته اربع سنين ونحن طالبان في كلية الحقوق نشارك معاً في مراجعة دروسنا. بعد مرور عامين ونيف أعيد عبدالحق ويوسف الحاج إلياس الى وزارة الخارجية بإلغاء قرار الفصل، لكن يوسف أثر الإستمرار في مزاولة مهنة المحاماة في حين عاد عبدالحق. لم يكن بوسع يوسف وهو صاحب إمتياز (المجلة) ان يستمر في إصدارها، وقد دعي هو وعبدالحق الى دورة ضباط الاحتياط، فقرر سدها. إلا أن (ذا النون الحاج أيوب آل عبدالواحد)، الذي كانت (المجلة) فاتحة شهيته كقصصي، عزّ عليه ذلك وكان اذذاك مدرساً للرياضيات في ثانوية بغداد المركزية، فاقنع يوسف وعبدالحق بنقلها الى بغداد. وتم ذلك في ١٩٣٩ وقد داومت مع سائر المساهمين الاولين في التحرير - نشر الابحاث والمقالات الادبية فهم (حسن زكريا، واکرم فاضل) وانضم الى المساهمين كتاب آخرون اذكر منهم سليم طه التكريتي وعبدالمك عبد اللطيف نوري زميل الدراسة.

كانت ادارة المجلة في غرفة خارجية منفصلة في منزل (ذنون ايوب) وفي هذه الغرفة الصغيرة العارية إلا من مقاعد ومنضدة عتيقة، بدت لي وجوه جديدة تختلف اليها، كما زحفت الى المجلة مواضيع وابحاث سياسية ماركسية ويسارية طغت عليها تماماً، ثم بدأت المجلة تنشر صوراً للحرب في الجبهة الشرقية كانت تتزود بها من دائرة العلاقات العامة البريطانية الى جانب انباء أخرى، وأشيع انها كانت كغيرها تتلقى مساعدة مالية لساهمتها في المجهود الحربي ومساندة الجبهة الديمقراطية.

(٣٥) ممن كان يختلف الى المكتب السيدان خدوري ويحيى قاسم الموظفين في السكك الحديد، وداود الصايغ وعبدالله مسعود القريني، ويوسف سلمان يوسف (فهد) وعبدالمك عبد اللطيف نوري وهو زميل دراسة، والاربعة الاخرون كانوا يساهمون في التحرير.

وعلى أية حال فبعد الثاني والعشرين من حزيران رفضت قيادة الحزب الشيوعي عنها رداء السرية ونعم اليساريون الناشطون بحرية اللقاء والإجتماع العلني حين صدرت الاوامر لدائرة التحقيقات الجنائية بعدم التعرض لهم، بل شجعت بعض الدوائر على الإفادة من بعضهم وبعض مطبوعاتهم في المجهود الحربي ضد الفاشية. بهذا الشكل وجد الشيوعيون حبل الإنقاذ يُمد اليهم من جهة ما كانوا يتصورونها حتى في ابعدها احلامهم... هي عدوتهم اللدود الامبريالية البريطانية! ولم يعودوا يرون في الإحتلال البريطاني الثاني للعراق عملاً امبريالياً<sup>(٣٦)</sup>.

وهكذا كان، فبعد ان رفضت أدبيات الحزب الشيوعي العراقي يدها من مسألة الإعتذار عن مساندة حركة مايس، راحت بالتدرج تنشر لائحة الإتهام لها<sup>(٣٧)</sup>. فبدأت بمحاكمتها بتهمة تجاهلها مطالب الجماهير، وانكارها عليهم حقوقهم الدستورية، والتنديد برجعية زعمائها المدنيين ووصم العقداة الأربعة وبعض ضباط الجيش بالتنشيع للنازية والعسكرية الروسية. وانها ربطت مصيرها بأفطع نظامين دكتاتوريين ظهرا في التاريخ، واعتمدت مساعدتهما ومساندتهما المطلقة، ووصفتها فيما بعد بـ(المغامرة الحمقاء) أو بانها حركة فاشستية إجرامية<sup>(٣٨)</sup>.

\*\*\*

(٣٦) رأيت بعيني زكي خيري (عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي) يقتعد مكتبه في دائرة العلاقات العامة البريطانية، التي كانت تدار بإشراف (بيرون) وزوجه الصحفية الشهيرة (فريا ستارك) اثناء زيارة لقريب لي مستخدم ككاتب طابعة هناك.

(٣٧) في مقال عن الجيش العراقي للأستاذ ثابت حبيب العاني (عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي منذ ١٩٣٦) نشر في مجلة الثقافة وهو مطبوع شيوعي (العدد ٢٦٦ أواخر ١٩٩٥) وجدت هذه العبارة "وكان من أبرز الجماعات التي ارتبط اسمها بتاريخ الإنتفاضات في الجيش هي قادة حركة مايس ١٩٤١ التي تسمى حركة رشيد عالي الكيلاني، حيث سقط فيها الشهداء صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد وكامل شبيب ومحمود سلمان ويونس السباعوي". وأقول: في الوقت الذي استبعد ان يكون الكاتب غافلاً عن الحكم التاريخي الذي أصدره الحزب الشيوعي العراقي على هذه الحركة وزعمائها. أرى بأفضل التقديرات ان إصاق هذه الصفة بهم هنا وبعد أكثر من نصف قرن - هو من قبيل المجاملة أو من طبيعة السخاء العربي في منح الألقاب المشرفة. فلفظة "الشهادة" في اللغة تعني الموت في سبيل تأييد حكم الله بالتحديد. وقد استخدمت في عصرنا هذا على سبيل المجاز لكل من لقي حتفه في سبيل قضية سياسية او عقيدة، او قتل في حرب محلية بحسب المزاج والتفضيل من قبل مختلف الجهات السياسية في البلاد الناطقة بالعربية. ولذلك كان خلع هذه الصفة عادةً إعتبارياً ندر ان اتفق عليه. وهم في زيادة مطردة يخيل لي معها انها تشغل بال المكلف باستقبال أرواحهم في الجنة، واحتجاز مقاعد لهم هناك. وربما اشتبك في نزاع مع الفرقاء فيمن يكون شهيداً ومن لا يكون اثناء عملية التصنيف!!

(٣٨) يراجع في هذا ما كتبتة جريدة (الشرارة) في مايس - حزيران ١٩٤١ ثم ما كتبتة جريدة (القاعدة) =

في تاريخ الحركة القومية العربية في العراق لم تنزل بالدعوة العروبية ضربة مساوية أو مدانية للضربة التي سددتها حركة مايس لها وبآثارها المدمرة القريبة منها والبعيدة. آثارها القريبة التي لمست مثلاً بعد القضاء عليها مباشرة انه تمت عملية فرز عظيمة بين القوميين الحقيقيين وبين القوميين المؤقتين والطارئين وهم الأغلبية العظمى وبينهم الفئة التي بهرجتها دعاية الألمان وانتصارات المحور، والفئة التي انسافت بتيار المشاعر القومية والوطنية الصرفة. ومن نتائجها أيضاً طلاق بائن وفرقة تامة بين القوميين والكلاسيكيين رجال الطبقة الحاكمة المشاركين في ثورة الحجاز وبقايا اعضاء الجمعيات العربية السرية في العهد العثماني، وبين القوميين الجدد من الشباب والناشئة التي اخرجتها مدرسة نادي المثني وتعاليم ساطع الحصري ودرويش المقدادي ودروزه وأضرابهم. ومنها ايضاً عودة اعضاء تلك الفئة من الطبقة الحاكمة التي ساهمت في الحركة وقامت بأدوار رئيسية فيها الى احضان امها، مشيعة بالازدراء والاحتقار، اذ عيب عليها تخاذلها وتراجعها المخزي، لاسيما مواقف رجالها الإعتذارية والتسابق الى اظهار ندمهم، ومحاولاتهم التقرب من السلطة. كما كشفت عملية هروب فريق

= في حزيران ١٩٤٣ ثم تقرير الرفيق فهد في مؤتمر الحزب (قضيتنا الوطنية) بتاريخ آذار ١٩٤٤ (اثبت بطاطو - المرجع السالف - ذلك بتفصيل واف). من العبت الركون الى رأي بيديه كاتب سوفياتي في الشؤون السياسية او الاحداث التاريخية، فليس ثم مؤلف كان يرى نور النهار هناك إلا وهو منسجم والخط السياسي الرسمي الذي تنتهجه الحكومة السوفياتية في ظرف معين. فدور النشر تملكها الدولة والكتاب رقباء على انفسهم قبل ان يعرضوا تأليفهم على السلطة التي تملك الأمر بالنشر. وفي إبان تصاعد الحرب الباردة في الستينات وما تلاها وباتجاه السوفييت المحموم الى مساندة الحركات القومية ودعم الحكام القوميين في البلاد الناطقة بالعربية لم يكن مصدر عجب ان تقرراً عن حركة الكيلاني آراء تختلف عن الآراء التي كتبت عنها اثناء الحرب العالمية (يستشهد البراك: المرجع السالف، ص ٢٤٠) بكتّاب سوفييت ثلاثة صدرت ابحاثهم ومؤلفاتهم بعد العام ١٩٦١).

في كتابي: مغامرة الكويت: الوجه والخلفية ج٧ - ط ستوكهولم ١٩٩١. اوردت مثلاً كهذا من التعامل السوفياتي مع شخصية (تروتسكي) خصم ستالين الذي خطط مؤامرة اغتياله في المكسيك، وكان وزير الدفاع عند قيامه بعقد معاهدة برست ليتوفسك مع قيصر روسيا. وهذا هو: في دائرة المعارف الروسية: طبعة ١٩٢٧ كتب (مينتس Mints) وهو مؤرخ سوفياتي: "حمل تروتسكي الى برست ليتوفسك صيغة لاسلم ولاحرب بتوجيه من الحزب الشيوعي وفي ١٩٢٩ كتب المؤرخ المعروف ياروسلافسكي Yarosloves-key من أجل إحداث أثر سايكولوجي مشكوك في جدواه. اخذ تروتسكي على مسؤوليته الخاصة جانب المخاطرة التي كان يحتمل ان تؤدي الى تدمير الدولة السوفياتية بسبيل سياسة لاسلم ولاحرب. وفي ١٩٣٤ كتب المؤرخ السوفيتي كرونين (Kronin): أخفق تروتسكي في تنفيذ التعليمات التي زوده بها لينين شخصياً، وتصريحه لاسلم ولاحرب إنما كان خلافاً للأمر الذي صدر له من لينين وستالين. وفي ١٩٣٨ كتب المؤرخ بوبوف (Popov): ان هذا الحقيير تروتسكي استطاع بمظهره المخادع ونفاقه إخفاء موقفه الاجرامي كمشعل للحرب بشعار لا سلم ولا حرب.

منهم ضعف نفوسهم ومدى تعلقهم بالحياة مقابل ما تظاهروا به من الإخلاص لمبادئهم القومية والتفاني في سبيلها. انهم في افضل الأحوال وبخير ما يمكن ان يُنعتوا، مجرد ساسة يتحدثون للعموم بما له الوقع الحسن، ويعدون بما تصبو اليه النفوس وتهفو في ظروف معينة، لا يعباون بالنتائج ولا يبالون بالخراب الذي يخلفونه وراءهم في حالتي النجاح والفشل.

لد(ستراتوكليس) السياسي الماجن (القرن ٤ ق.م) قوله في هذا يصعب عليّ اغفالها: "اذن فأنا اتعشى من الأشياء التي نلعب بها نحن الساسة كما نلعب بالكرة".

ومن نتائج ذلك انه تم إلغاء عقود ثلاثمائة واثنى عشر مدرساً ومدرسة من تيعبية سورية ولبنان وفلسطين ومصر<sup>(٣٩)</sup>. ممن شايع الحركة أو لم يشايعها. وجرت عملية تطهير واسعة في الموظفين الحكوميين شملت ما يزيد عن الألف من متصرف ومدير عام الى ملاحظ كاتب بسيط، وبينهم زهاء ١٥٠ ضابطاً وضابط شرطة، ولم تعد الكلية العسكرية تستهوي الأقليات المسيحية كما كانت في السابق. فانعدم أو كاد شوق شبابها الى رهان مستقبلهم بالمسلك العسكري. كما ألغي نظام الفتوة بعد ايام قاتل من عودة السلطة والقضاء على الحركة، وألغي معه استعمال ألقابها في المراسلات.

أغلقت ابواب نادي المثني وسبق اعضاءه البارزون الى معسكرات الإعتقال، كما عطلت الصحف المشايعة للحركة وزج عدد من محرريها في المعتقلات أيضاً<sup>(٤٠)</sup>. وأسقطت الجنسية عن ساطع الحصري ودرويش المقدادي وطرذا من البلاد مع جمهرة كبيرة من اللاجئين

(٣٩) من التدابير العاجلة التي اتخذتها وزارة المعارف لسد النقص العظيم في المدارس الثانوية أنها دجت مدة التدريب في دورة ضباط الإحتياط للصف المنتهي من دار المعلمين العالية بالسنة الأخيرة. فكان الطلاب يؤخذون فجراً للتدريب العسكري ليعودوا الى مقاعد الدراسة في التاسعة صباحاً وهم ببزاتهم العسكرية!

(٤٠) يقول الحسنى: المرجع السالف، ج ٥ ص ٢٠. وهو الطبعة التي استبدل فيها وصف حركة مايس فكان (الحركة التحررية) بدلاً من (الفتنة العمياء): توقفت أهم الصحف اليومية ك(البلاد، والاستقلال، واليوم) عن الصدور منذ ان دخل الجيش البريطاني بغداد في ٢ حزيران. فلما هدأت الحالة شجعت السلطات بعض الموترين وصغار الكتاب على إصدار صحف جديدة كانت مهمتها الطعن في رجال الحكم السابق والقفذ فيمن ساعده وشايعه. وكانت هذه الصحف تعيش على المخصصات المعروفة وعلى ما تنفقها عليها دائرة العلاقات البريطانية والإستخبارات العسكرية. وكان القائمون ببعض هذه الصحف المرتزقة يخرون كالشهب فيموت أحدهم بالسفلس والآخر بالتدرن الرئوي والثالث بالزهري والرابع بالسحايا الدماغية وما الى ذلك من الأمراض العفنة حتى خلا الجو منهم. نجى الله الحسنى المؤمن بحكم الله وأطال عمره! أفكان هذا من قبيل الإنتقام الرباني، وقد شاعت إرادته مقدماً ان يصب انتقامه على القائمين بالحركة، ولم تعد ثم حاجة الى قصف أعمار هؤلاء المحررين المساكين بتلك الأمراض الخبيثة (السفلس والزهري اسمان لمسمى واحد).

الفلسطينيين والقوميين السوريين.

وفي معسكرات الإعتقال التي ضمت البارزين والخاملين من أشياع الحركة من قوميين حقيقيين وآخرين طارئيين، كانت هناك عملية فرز أخرى. فيالى جانب الزعماء القوميين الحقيقيين كان هناك عدد كبير من رفاق الطريق، وكان ثم من أبدى نشاطاً لا يمكن إغفاله بدافع من الإنتهازية والحرص على مقعد في صفوف الغالب. خليط غريب غير متجانس لا يتبع جميعه فكرة موحدة أو ولاء حزبي أو سياسي في الخارج جُمعوا وفق هوى في نفوس الحكام، لا يخلو بعضه من عداً شخصي وموجدة يحملها الحاكم على فلان الفلاني أو إخبار مذيّل بتوقيع (مخلص للعرش والوطن) أو تقرير تنظمه دائرة التحقيقات الجنائية أو قوائم تخرج من باب السفارة البريطانية. ولم تكن السلطة ايامها بحاجة الى سنّ قانون أو مرسوم جديد، فقد كافاها الكيلاني نفسه مؤونة ذلك بمرسومه السيء الصيت في العام ١٩٤٠<sup>(٤١)</sup>.

ليس بوسعي أن اقدم وصفاً أدق وأبلغ من ذلك الذي جاء في كتاب ألفه أحد المعتقلين. وقد بدا فيه أولئك السيئو الحظ كالعناكب التي وضعت في زجاجة احكم سداها:

"كان المعتقلون أنفسهم متخاصمين مشاكسين متباغضين، يقذف بعضهم بعضاً ويطعن فريق في عرض فريق، ويسرق هذا من ذاك ويعتدي فلان على فلان ويشتم عمرو بكراً. ويسرق هذا من ذاك ويعتدي حسن على علي... وقد انصرفوا الى الدس والوقيعه والإفساد وكانوا يفترون على اخوانهم كذباً ويشهدون على الأبرياء زوراً ويحشون السوقة على المس بالكرامات وإهانة الاشراف وأصحاب المقامات متوهمين ان الترفع عن مقابلة الصغيرة يمثلها ضعف ومسكنة. فساء ما يتوهمون. من المؤلم ان يكون بين المعتقلين لفيف من العمال والجاهلين، فكان شياطين الزعامة والثقافة يستغلون بساطتهم، فيستخدمونهم في الإعتداء على من لا يجاريهم في تخبطاتهم. وذلك بالضرب تارة وببذيء الكلام طوراً، حتى اذا استفحل امرهم صاروا يذيقون أسيادهم مرارة العمل الذي كانوا يحرضونهم عليه."<sup>(٤٢)</sup>

(٤١) مرسوم صيانة الأمن وسلامة الدولة رقم (٥٦) الصادر في عهد وزارة الكيلاني الثالثة لاستخدامه ضد خصومه بالأساس، وفي الظاهر كما اشاعت حكومته لمكافحة الشيوعية والماركسية. وقد منحت المادة الخامسة فيه سلطة حاكم جزء من الدرجة الأولى لوزير الداخلية وخولته ان يمنح سلطته هذه الى المتصرفين (المحافظين) وبناء على إقتراح وزير الدفاع. ولذلك كانت أوامر الإعتقال تصدر منه رأساً أو من قبل المتصرفين دون الرجوع الى القضاء. وكان يتم إطلاق سراح المعتقلين بقرار من وزير الداخلية.  
(٤٢) عبدالله حسن: يوميات ومذكرات معتقل. نقلاً عن (الحسنى: ج ٦ ص ١١٦). لا يذكر تاريخ طبع الكتاب. نقول حُشر مع المعتقلين عدد من ارباب السوابق والمجرمين العائدين، وربما كان بعض الذين وصفهم =

اعلى رقم سجلته ضيافة معسكرات الإعتقال في الفاو والعمارة لم يزد عن السبعمائة إلا بالقليل. وقد أطلق سراح الكثيرين خلال فترة الحرب وبقي العشرات حتى نهايتها، وفيها تم تسريحهم.

وإذا تركنا جانباً الإنطباعات السيئة المحزنة التي تخلفت في نفوس هؤلاء ضد بعضهم بعضاً. والصورة القائمة التي تكونت عند بعضهم عن زعمائها الذين راقبوا سلوكهم المعيب وهم وراء القضبان، وما قرأوه عنهم وما كتبوه فيما بعد<sup>(٤٣)</sup>، فإن نتيجة الحرب وتأثير انتصار المعسكر الديمقراطي الأدبي وانهيار النظامين الفاشيين والكشف التاريخي الاعلامي عن الفظائع التي ارتكبتها هذان النظامان بحق الجنس البشري حملت كثيراً من القوميين المشاييعين لحركة مايس والمشاركين فيها على إعادة النظر في مواقفهم ونأوا بانفسهم عن التحرك القومي ما وجدوا الى ذلك سبيلاً.

وقلص الجيش أفراداً وضباطاً. ولم تكن السلطة تبذل جهداً كبيراً. فقد جردت آلافاً كثيرة من الجنود وصغار ضباط الصف. وطالت قرارات الإحالة الى التقاعد أكثر من مائة وخمسين ضابطاً، جلهم من ذوي الرتب الصغيرة الذين أبدوا تحمساً ونشاطاً ملحوظاً بالمناسبة.

وبخلاف الضحايا الذين سقطوا صرعى في المعركة غير المتكافئة ضباطاً وجنوداً ومدنيين،

= المؤلف ممن استخدمه المعتقلون السياسيون للإهانة والإعتداء.

(٤٣) بدا من تصرفات المعتقلين من ضعف النفس ما يبدو من قوة الإرادة، فكلاهما لا حدود له. والحسني (المرجع السالف) يثبت نص رسالة بعث بها أمر معتقل الفاو الى المدعو ميجر لويدي ضابط الإرتباط البريطاني في البصرة جاء فيها هذا: "أخبر سعادتكم، عندي في المعتقل شخص يدعى السيد عبدالمجيد الهاشمي برتبة مقدم اللواء ومدير رعاية عامة سابقاً، وهو مستعد للتعاون مع السلطات البريطانية وبيث دعائه وفق رغبتكم، ويطلب مواجعتكم بالسرعة المستطاعة. وقد شاهدت منه الإخلاص والتعاون وأنا كفيلاً به وهو يطلب حضوره امامكم." (تاريخ الرسالة ١٢ شباط ١٩٤٣).

اكد لي من أثر أن لا أذكر اسمه، لأنه توفي منذ زمن وأنا لا أريد (كبعضهم الإستشهاد بأقوال من لا يستطيع أن ينفي أو يؤكد) إن صديق شنشل الذي كان واحداً من أقرب أعوان الكيلاني ساند عبدالسلام عارف في معارضته عودة الكيلاني الى العراق. وقد انضم إليهما جابر عمر الوزير في وزارة ١٤ تموز الأولى، وكان احد ملازمي الكيلاني الخالصاء في ألمانيا. ولم يخرج أحد من الشخصيات القومية البارزة اسماؤها في حركة مايس لإستقباله عند عودته ذلك الإستقبال الذي وصفه الحسني (المرجع السالف: ج٦ ص٧٢) بالإستقبال الذي لم ير مثله إنس ولا جان (يقصد معشر الجن). والمسألة التي أشكل علي فهمها هي في الوقت الذي أمكن للحسني ان يستتجد بالإنس فحسب في ظروف هذا الإستقبال وحجمه، لاشك انه عانى صعوبة في استطلاع رأي معشر الجن، فالمعروف ان تحقيق الصلة بالجن وهم أرواح لا جسم لها - ليس سهلاً، ثم ما دخل الجن في قضية استقبال الكيلاني؟ (النتواتر ان من خرج لإستقبال الكيلاني لم يكن يزيد عن ٢٥٠ نفرًا).

فقد نكبت ألف اسرة بارزاقها نتيجة طرد معيّلها الموظفين من وظائفهم<sup>(٤٤)</sup>.

\*\*\*

كان من الطبيعي أن تخلف احداث حركة مايس وما سبقها رد فعل في الوعي القومي الكردي. ويظهر ان الدعاية النازية لم تجد لها تربة خصبة في كردستان العراقية، أو أن دعائها القائمين بهذه المهمة في بغداد لم يعلقوا اهمية كبيرة على جدوى نشاط دعائي هناك وفي أوساط أقلية عرقية طالما أشهرت السلاح في وجه الحكومة المركزية سعياً لتحقيق مطالب قومية ذات صفة دستورية. وكان للكردي كل مبرر للإلتحياز الى جانب أعداء تلك الدولة، التي قضت على آمالهم في الإستقلال وساندت حكومات بغداد القومية وأعانتها عليهم، لكن الأمر كان خلاف المتوقع وانا لا أستطيع الإدعاء بأن القوميين الكردي المعروفين كانوا ابعده نظراً من القوميين العرب وأبصر في النتائج التي كانت الحرب ستؤول اليها وانهم بنوا مواقفهم على أساس من هذا. إلا انهم وأعني القوميين الكردي وجدوا بأن الوضع الذي خلقتة حركة مايس يجب استغلاله لبعث مطالبهم القومية القديمة حول الإدارة الذاتية، بما في ذلك إحياء التعهد الدولي الذي قدمته الحكومة العراقية في العام ١٩٣٢ لعصبة الأمم.

كان في السليمانية وأنحاء عدة من كردستان نشاط سياسي قومي يمثل حزابان اشرفا اليهما، إلا ان التحرك الفعلي بدء بترك الشيخ محمود الحفيد محل إقامته الجبيري في منتصف مايس والشخص الى كردستان واتصاله بعدد من الشخصيات الوطنية الكردية<sup>(٤٥)</sup>.

(٤٤) بقيت آلاف من قضايا الهروب اثر حركة مايس - معلقة امام المحاكم العسكرية المختلفة. وفي العام ١٩٤٧ وبمرور ست سنين، وجدت امامي اثناء قيامي بواجب الإدعاء العام العسكري في منطقة الموصل، مئات تنتظر احالتها الى المحاكم العسكرية من دون ان يتم القبض على المتهمين الهاربين ورغم صدور بيانات عفو متعددة من وزارة الدفاع.

(٤٥) لم يبد الشيخ محمود نشاطاً سياسياً خلال فترة إقامته الجبرية في بغداد، ومما لا يخلو ذكره من فائدة هنا، تلك المقابلة الصحفية التي نشرها له الصحفي الشهير نوري ثابت صاحب جريدة (حزبوز) في العدد الصادر في ١٩٤١ من تشرين الثاني وبعد مرور بضعة أشهر على انقلاب بكر صدقي، وربما بعد محاولة اغتياله المدبرة من قبل قائد الانقلاب، وفيها أكد الشيخ بعده عن السياسة بقوله: "انا لا افرق بين البلاد العراقية فالعراق كله وطني وسواء سكنت في زاخو او كركوك او في بلدي السليمانية او في البصرة او في الفاو... لا اذكر اني قضيت سنة واحدة في بلدي وانا اعتقد ان الرجال المخلصين لوطنهم امثال مصطفى كمال ورضا شاه وغيرهم من رجال اورپا لا يفضلون الراحة والسكينة والعيش الهاديء في دورهم... وهذا هتلر وهذا موسوليني وهذا مصطفى كمال هؤلاء لا يملكون ملكاً مسجلاً... والأحسن ان تذكر المرحوم سعد زغلول، ذلك الزعيم الكبير الذي ضحى بما يملك في سبيل مصر. أما اذا سالتني... (يقاطع بالقول: العفو ما راح أسالك) كلا ستسأل لأنك حزبوز، اما اذا قلت يا حضرة الشيخ انت تملك =

ويظهر أن الشيخ تلقى رسالة شفوية من (جميل المدفعي) الذي كان في حاشية (الوصي) يحثه فيها على ترك بغداد الى السليمانية وتنظيم مقاومة ضد الكيلاني لعلمه بأنه لم يكن هناك حب مفتقد بين الرجلين. وصل الشيخ مشارف السليمانية في ١٩ من مايس أو ٢٠ منه. وبدأ يجمع مقاتليه حوله بمعونة ابنه الشيخ لطيف للهجوم على المدينة في الوقت الذي بدء حكم الكيلاني يتداعى. إلا انه لم يقم بذلك وفضل التعامل مع السلطة العراقية والبريطانية بالمفاوضات.

كان (س.ج. آدموندز) مستشار الداخلية قد كتب مذكرة مسهبة للسفير البريطاني الجديد تتضمن إقتراحاته لمعالجة الوضع الناجم عن التجمع المسلح في كردستان ووجهة نظره في المطالب التي قدمها "الشيخ" وهي مذكرة سرية قدمها للسفير البريطاني مؤرخة ٢٧ من تموز ١٩٤١ أجتزىء منها ما يتعلق بالموضوع:

قال آدموندز: "يمكن النظر الى حركة القومية الكردية من اتجاهين:

اولهما: هناك من يرى كالشيخ محمود وغيره من رؤساء العشائر ان الوقت قد حان لتقوم بريطانيا إن عاجلاً أو آجلاً، بإزالة مظلمة الكرد وتحقيق مطالبهم العادلة، وينضوي في هذا الصنف رجال القبائل وذوو العقلية العشائرية التي يمازج مشاعرهم القومية نفاذ صبر من القيود الإدارية التي فرضتها عليهم الحكومة المركزية.

وثانيهما: هناك من صح عزمه على وجوب النضال كشعب حول مستقبلهم السياسي لأنهم يعتقدون بان الكرد لا يمكن أن ينخرطوا في المشروع الامبريالي البريطاني ولا أمل في ان تشير بريطانيا حفيظة العرب لحاطر الكرد. والى هذه المجموعة تنتمي غالبية المثقفين وضباط الجيش، على ان جانباً كبيراً من هذه المجموعة، الذي كان على صلة بالبريطانيين، فضل التعامل معهم على التعامل مع الألمان أو الروس." (٤٦)

= قرى كثيرة فأتنا أجب على هذا السؤال باختصار فأقول: انا أملك هذه القرى وهي ميراث أبائي وأجدادي لا أتأخر عن تقديمها للحكومة لتستخدمها في سبيل خدمة الشعب مثل إنشاء المستشفيات العصرية والمدارس. كان هذا افضل ما يمكن ان يتخلص به الشيخ من إجابة وهو يعلم حق العلم ان صاحب المقابلة هو من أنصار إنقلاب بكر صدقي المتحمس له، وان الظرف يتطلب منه ان يقول كلمة طيبة بحق من لهجت الحناجر بالثناء عليهم وبدت أمامهم بريطانيا ذليلة مجاملة آنذاك.

(٤٦) عنوان المذكرة: الكرد في عراق ايار ١٩٤١ وهي ضمن الوثيقة: Baghdad No 185: F.O.371-27078

ويذكر آدموندز أن خطة ما وضعت لثورة في كردستان مركز انطلاقها مدينة السليمانية، ساهم بإعدادها عدد من وجهائها بالتعاون مع رؤساء العشائر المجاورة، وظهرت بين ١٥ و ٢٠ مايس خطتان. أولاهما عملية مباشرة ضد حكومة الكيلاني، وثانيهما نصحت بالتأجيل والتلكؤ خوفاً من وصول قوات جوية متفوقة للمحور الى الموصل وكركوك وسورية.

وفي الوقت الذي كانت المفاوضات تجري بين الشيخ وبين (المدفعي) رئيس الحكومة الجديد طوال شهر حزيران، بضغط من (إدموندز) نفسه كما تشير الوثائق. راحت السلطة تحشد قواتها في السليمانية وأعلنت الاحكام العرفية، وجرت خلال ذلك محاولات محددة لتولي الكرد مسؤولية الادارة عن طريق لجان محلية كردية في مناطق شهرزور وحلبجه ورانيه وتأسيس قوات من المتطوعين أنيطت بها واجبات الحماية.

إلا أن جميل المدفعي وأعضاء وزارته لم يكونوا على استعداد للتنازل الى أي حد للمطالب الكردية، كما لم يكن الكرد القوميون على استعداد لمواجهة عسكرية وقت ان كمل احتشاد عدة فرق بريطانية متأهبة لاحتلال إيران تحميها اسراب عديدة من الطائرات. لم يكن الوضع الدولي ولا الوضع السياسي المحلي يسمح لبريطانيا بغير الوقوف الى جانب الحكومة التي اعادتها بالقوة المجردة. إلا ان ذلك لم يمنع السفير البريطاني من ابداء رأيه في الموقف، لاسيما حول موقف رئيس الحكومة والساسة العراقيين من المسألة الكردية:

"رئيس الوزراء شديد التعصب ضد الكرد، ومن أبعد الاحتمال ان ينتظر منه التصرف بشكل ودي، أو أن يتصف ببعده نظر. يقول لي إدموندز مستشار الداخلية، وهو من الخبراء في الشؤون الكردية، انه ومن خلال احاديثه مع الساسة العراقيين، كثيراً ما لاحظ في بعضهم مشاعر نفرة وحقد ضد الكرد، قد تبلغ حد تفضيلهم خسارة كردستان على بقاء الكرد بينهم عراقيين مخلصين بمجرد اعترافهم بالهوية القومية الكردية. هؤلاء الساسة هم على استعداد لترك كردستان كلها على ان لا يتبعوا سياسة سمحاء حقة مع الكرد." (٤٧)

أرسل الشيخ مبعوثاً شخصياً للسفير البريطاني مؤكداً ولاه وصادقته للحكومة البريطانية، وأكد جواب السفير له إن القوات البريطانية المرابطة في العراق كفيلا بالتصدي لكل عملية اعتصاب أو اضطراب قد تعوق المجهود الحربي. ورضي الشيخ فحسب برفع قرار الإقامة

(٤٧) المرجع السالف.

الجبرية عنه والاعتزال في قريته (٤٨).

ويشير ادموندز الى أمر ما اظنه كان واقفاً عليه موقعياً. يقول ان الضباط الكُرد الذين حشدوا جنودهم حول بغداد أثناء الأزمة، راحوا يعبرون عن استنكارهم وغيظهم من زجهم في نزاع لا شأن لهم به (كما اشار الى ان هؤلاء الضباط قرروا عندما فكر الغيلاني بجعل كردستان آخر وقفة قتالية له (إحباط خطته) وفكروا في سحب وحداتهم الى كركوك حيث كان جلّ جنود وضباط اللوائين الرابع والسادس من الكُرد. وأن يدعموا وحداتهم هذه بقطعات أخرى من منصورية الجبل (جلولاء) أو أن يشخصوا الى كركوك والسليمانية هارين من الجيش، وهناك ينظمون صفوفهم لمنع بقايا جيش الغيلاني وحكومته من اقامة خطوط دفاع، أي تسهيلهم للقوات البريطانية احتلال العراق في سبيل إنقاذ كردستان من ويلات الحرب.

وحول هذه النقطة الأخيرة، قد لا يسعنا القبول بها على علاتها ونحن لا نملك من دليل ينفيها أو يؤيدها. فمن المعروف ان إدموندز مستشار الداخلية آنذاك، كان حبيساً في دار السفارة البريطانية طوال شهر مايس يكاد يكون منقطعاً عن عالمه الخارجي وصلاته الشخصية، والراجح انه استقى معلوماته هذه فيما بعد، اثناء استئناف عمله في وزارة الداخلية. ولعله بالغ في القول أو جسم ما حكى له بعض الضباط الكُرد على سبيل إظهار عدائهم للحركة، فنوه بها لتبدو المقترحات التي أوردها في مذكرته أقوى وأشدّ وقعاً (٤٩).

حتى العام ١٩٥٨ لم يرو تاريخ العراق شيئاً عن ضباط سياسيين ناشطين في الحقل القومي الكُرد على غرار الضباط العرب. وكادوا كلهم يكونون من فئة المحترفين المهتمين بشؤون المسلك خلا نغراً من المستعربين، الذين ألقوا بحفظهم مع الضباط العرب الإنقلابيين وقد جاء ذكر بعضهم. ومن العقداً الأربعة فهمي سعيد هو كُرد مستعرب (٥٠).

(٤٨) يخصص الاستاذ محمد رسول هاوار فصلاً كاملاً (الفصل ١٧ ص ٧٨٩-٨١٤، ج ٢) من كتابه الجليل (شيخ مهحمودي قارهمان ودهولتهكهى خوارووى كوردستان: البطل الشيخ محمود ودولته في جنوب كردستان. ط. لندن ١٩٩١) لموقف الشيخ محمود في حركة مايس والظروف التي أحاطت بشخصه الى كردستان مستشهداً بكل مواقفه في الاحداث وكل من واصل الشيخ واستحثهم على استنكار ما يعرفونه حول ذلك. مجهود خارق يحسد عليه، وقد تفضل علي بنص المقابلة التي نوهت بها. أعادت نشرها مجلة (كاروان) العدد ٢٦ الصادر بتاريخ تشرين الثاني ١٩٤٨.

(٤٩) الجفاء بين إدموندز والشيخ محمود ليس بسراً، وربما رقي الى مرتبة الكره. ومما يُذكر ان إدموندز الضابط السياسي في كركوك هو الذي اقترح ضرب السليمانية من الجو في العام ١٩١٩ (للاستزادة يحدّ الرجوع الى ترجمتنا لكتابه: كرد وترك وعرب. وقد جاء ذكره سابقاً) ولعله أبرز هذه النقطة في مذكرته على سبيل التقليل من مقام ودور الشيخ في التحرك القومي الأخير.

(٥٠) هاوار: المرجع السالف، ج ٢ ص ٨١٢: يذكر أن فهمي هو من مواليد سليمانية وان أباه انتقل الى بغداد=

مع هذا فمما لا يمكن نكرانه بأن حركة مايس احدثت هزة عنيفة في نفوس الضباط الكُرد الذين شاركوا في المواجهة العسكرية ضباطاً محترفين لا غير (٥١) وحملت بعضهم بعد سنتين أو أقل على المشاركة الفعلية في انتفاضات الكُرد القومية التالية. مع ذلك فمن الممكن ان نعد من آثار حركة مايس - انها اعادت الحياة الى النشاط القومي الكُردى وان لم يصل حد المجابهة.

كانت حركة الغيلاني درساً قاسياً للقوميين لا يُنسى، مثلما كانت المعتقلات التي فتحت ابوابها لهم مدرسة نموذجية لم يصمد في امتحاناتها النهائية إلا نفر قليل. خرجوا بعدد قليل وبرنامج ديمقراطي الصبغة، بعد ست سنين من سكوت كاد يكون مطبقاً، ويعنوان حزب رسمي هو حزب الإستقلال.

بعد انتكاسة مايس لم يعد العراق بؤرة العمل القومي العربي، وفقد لقب بروسيا العرب الى الأبد، في حين راحت الدلائل تتتابع في انتقال مركزه الى سورية بعد تخلصها من الإنتداب الفرنسي.

\*\*\*

= وفتح دكاناً لبيع التبغ (نقلاً عن ابن العقيد فيصل) انه كان وثيق الصلة بالشيخ محمود، لا يكلمه إلا باللغة الكردية، وانه اتصل به شخصياً بعد قيام حكومة الدفاع الوطني وطلب منه تأييدها، كما سهل في مايس خروجه من بغداد على أمل دعمه للحركة) وبسبب من هذا قد يصح التساؤل عن مدى إخلاص العقداً الأربعة للمبادئ القومية العربية ومقدار تجاوزه حدود الطموح الشخصي.

(٥١) هاوار: المرجع السالف، ج ٢ ص ٨١١ يذكر أن عزت عزيز، ومصطفى خوشناو كانا من جملة الضباط الأسرى الذين وقعوا بيد البريطانيين في اشتباك الفلوجة. وهذان هما من جملة أكثر من عشرة ضباط إلتحقوا في العام ١٩٤٤ بثورة البارزاني، وأعدما الحياة مع اثنين آخرين في العام ١٩٤٧.

## ملحق

ذيك قانون العقوبات البغدادي ، رقم ٥١ للسنة ١٩٣٨ نشر في جريدة الوقائع العراقية بالرقم ١٦٣٣ وتاريخ ٩ ايار ١٩٣٨

### المادة الأولى:

- ١- يعاقب بالاشغال الشاقة أو الحبس مدة لا تزيد عن سبع سنين أو بالغرامة أو بهما كل من روج أو حبّد بإحدى وسائل النشر المنصوص عليها في المادة ٧٨ من هذا القانون أياً من المذاهب الإشتراكية البلشفية (الشيوعية) والفوضوية والإباحية (الصهيونية) (١) وما يمثّلها ، التي ترمي الى تغيير نظام الحكم والمبادئ والأوضاع الأساسية للهيئة الإجتماعية المضمونة بالقانون الأساسي ، سواء كان ذلك مباشرة أو بواسطة هيئات أو منظمات تهدف الى خدمة أغراض المذهب تحت ستار أي اسم كان كأئصار السلام والشبيبة الديمقراطية وما شاكل ذلك (٢) .
- ٢- اذا وقع التحبيذ أو الترويح الوارد ذكرهما في الفقرة الأولى باستعمال القوة أو التهديد باستعمالها أو بأية وسيلة أخرى غير مشروعة ، فتكون العقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة أو الحبس مدة لا تزيد عن خمس عشرة سنة .
- ٣- اذا وقع التحبيذ أو الترويح المار ذكرهما على اكثر من واحد من أفراد القوات العسكرية أو الشرطة ، يعاقب المحبذون والمروّجون بالإعدام أو بالأشغال الشاقة المؤبدة أو الحبس مدة لا تزيد عن خمس عشرة سنة .
- ٤- للمحكمة ان تقرر في أي وقت كان جمع النشرات من كتب ووسائل وجرائد وحفظها الى حين صدور الحكم بالإدانة .
- ٥- (أ) كل عراقي يكون عضواً في جمعية غرضها أو خطتها التحبيذ أو الترويح الوارد ذكرهما أعلاه ، سواء كانت تلك الجمعية مؤسسة في العراق بصورة قانونية أو غير قانونية أو في خارجه بصورة قانونية أو غير قانونية ، يعاقب بالعقوبات المعينة في الفقرة الأولى من هذ المادة .

(ب) ان مؤسس الجمعية الوارد ذكرها في الفقرة (١) أعلاه في العراق ومديرها والقائمين بمساعدتها مادياً يعاقبون بالعقوبات المعينة في الفقرة (٢) منها .

**المادة الثانية:** ينفذ هذا القانون اعتباراً من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية .

### المادة الثالثة: على وزير العدالة تنفيذ هذا القانون.

كتب ببغداد في اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة ١٢٥٧هـ . واليوم الثالث من شهر مايس سنة ١٩٣٨ ميلادية (\*) .

(\*) يراجع في كتاب الوثائق مقتطفات من الرسائل التي كنت أتبداها مع المؤرخ السياسي الشهير الدكتور مجيد خدوري العراقي المغترب رئيس معهد الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة جون هوبكنز في واشنطن، حول الهجمات الصحفية التي كان يتعرض لها المدرسون المسيحيون من مجلات وصحف اسلامية، وحول سلوك بعض الاساتذة الفلسطينيين والسوريين القوميين.



## الفصل العشرون

تصورات جديدة للعمل القومي . بداية الحرب الباردة بين القوى العظمى وتأثير ذلك على الساحة العربية والفكر القومي . إنحياز أم عدم انحياز ؟ وإلى أي جانب . الانتداب الفرنسي ، مشاكله في سورية ولبنان . الأناثيات تقحم نفسها . الانتداب الفرنسي وسورية . المفاهيم القومية وتشنتت آرائها . الحزب القومي السوري المناهض . الموقف المصري من القومييين السوريين . اضطراب القيم والموازين الفكرية . رحلة خلال تاريخ الحركة القومية السورية . انقلابات عاطفية . حالة اليقظة . العراق مركز الثقل القومي في الخمسينيات . التجزئة الفرنسية لسورية على أسس الطائفية والعنصرية والدينية . المندوب السامي ( دي مارتيل ) دكتاتوراً على سورية ولبنان . الكتلة الوطنية . إبراهيم هنانو . وفد سوري لمفاوضات على معاهدة سورية - فرنسية . الجبهة الشعبية الاشتراكية الفرنسية تسلم بأكثر قدر من المطالب السورية . المعاهدة بدلاً من الانتداب وتأسيس حكومة مركزية . مخاوف من تسليم الاسكندرونة للأتراك . الخلاف العميق المتفجر داخل الكتلة الوطنية السورية . المندوب السامي يعود ليحكم حكماً مباشراً . تصورات قومية في العلاقات بين الدول وشعوبها . جمال عبدالناصر . نعي ميشيل عفلق وإعلان إسلامه . عصبة ( زكي الأرسوزي ) البعثية . التاليف بين المجموعات القومية . تراشقت التهم . الاتهام بالعمالة . قيام حزب البعث العربي . مهمة ( فون هنتك ) . قتال بين قوات فيشي وقوات فرنسا الحرة . ديفول يدخل دمشق . الكيان اللبناني . الطائفة المارونية . التمسك بالكيان الذي خلقه الانتداب . الميثاق الوطني اللبناني

بعد الحرب العظمى واجهت الدول الناطقة بالعربية سواء أتلكت التي نالت استقلالها أو كانت مستقلة قبل الحرب، مشاكل معقدة اشاعت توتراً عاماً وقلقاً في الوسط القومي العربي . بعضها يتعلق بمسألة الوحدة العربية، وبعضها يعنى بمسألة الإنحياز العربي في الحرب الباردة، وبعضها يمت بصلة الى أمور الإصلاح والتغيير، الإقتصادي والإجتماعي، والموقف من الشيوعية (المحلية) واليسار على العموم . ومن النظام الديمقراطي البرلمان.

هذه المسائل لم تكن مستجدة تماماً، فقد واجهتها قبلاً كما بينت في فصول سابقة، إلا أن حياة جديدة نُفخت فيها بعد زوال النازية والفاشستية كنظامي حكم . وبإزاء الحزم والشدة في استئصال مبادئهما عالمياً زادت هذه المسائل أهمية في نظر العروبيين النتائج التي تمخضت باندحار العرب في فلسطين في العام ١٩٤٨ . ولم يعد مفهوم القومية العربية كالسابق، اعني الاستقلال السياسي بل الوحدة بأي شكل كان وتحقيق ما نعتنه جمال عبدالناصر آخر الأنبياء القومييين - بالعزة والكرامة والتحرر التام من النفوذ الأجنبي وضغوطه الإقتصادية . وطرحت التكتلات والأحزاب القومية الجديدة شعارات جديدة من امثال العدالة الإجتماعية والتقدمية وطبيعة الإصلاح المنشود والمدى الذي يجب أن ينداح اليه الموقف المتطير من الاشتراكية، واتخاذ مواقف حدية من أولئك الذين يعملون لإحداث ثورة في النظام الإجتماعي والسياسي . وتسوية النزاع بين هؤلاء الذين عرفوا بالقوميين المتطرفين وهم الناشئة القومية الجديدة وبين المخضرمين القوميين وأنصارهم الذين فضلوا الاعتدال والإصلاح المتدرج وعرفوا بالقوميين المحافظين، ومعظمهم حكام وساسة ظلوا يدعون الى اقتباس النظم والتقاليد الديمقراطية الغربية .

من المؤسف له - وكما سنأتي الى شرحه أن يسفر نشاط هذين الفريقين عن سلوك مطعون فيه وعن أنانية شخصية وتهافت على السلطة حتى لو تحقق ذلك بطرق لا تمت الى سمو القصد والمبدء بأي صلة .

كان من تحصيل الحاصل أن ينتقل مركز النشاط القومي العربي من العراق الى سورية بعد الضربة القاصمة التي أنزلتها به حركة مايس، وكان خلال سنوات الحرب مجرد امتداد في حركة مقاومة الانتداب الفرنسي والبريطاني خلال الفترة التي توسطت الحريين العالميتين . كان القوميون العروبيون يعملون لإنهاء حكم الأجنبي والوصول بالبلاد الى الاستقلال . مما جعل نضالهم يبدو في أول الأمر محلي الطابع: قوميو سورية ولبنان ضد فرنسا، وقوميو فلسطين والأردن والعراق ضد بريطانيا . ولذلك بدا موضوع الوحدة العربية موضوعاً ثانوياً . وصار المنطق القومي - رغم التنويه المتواصل بالوحدة - يشير الى الواقع الجغرافي الذي خلفته مثلاً سلطات الانتداب - بصورة خاصة عند قوميي دمشق - الذين وجدوا سورية الجغرافية - بعكس العراق - واقعة تحت انتدابين، الانتداب الفرنسي في الشمال والانتداب البريطاني في الجنوب، وتلك حالة لم تكن مقبولة عندهم لكن التحرر كان يجب أن يسبق التوحيد المحلي . بل كانت هناك مشكلة أخرى جغرافية وسياسية خلقها الانتداب الفرنسي لسورية الجغرافية،

وهي التقسيم السياسي الطائفي لسورية بالذات. التقسيم الثنائي الى الشام ولبنان أولاً، ثم التبعية الشامي، أي تقسيم سورية الى وحدات ادارية منفصلة مالياً وادارياً وسياسياً بشيء أشبه بالدويلات أو الفدرالية. فها هنا العدو واحد والوحدة الإقليمية - أي وحدة سورية غير الكبرى - يجب أن لا تخضع لفترتين مرحليتين.

هذا التقسيم أدى الى تمزيق القوميون لا الى توحيدهم. فمن جانب نجد حزب الشعب المؤسس في سورية (١٩٢٥) يدعو الى وحدة سورية الكبرى. ومن جانب آخر نجد الحزب القومي السوري الذي انشأه انطوان سعادة في لبنان (١٩٣٢) يدعو الى الوحدة السياسية، ومن جانب آخر كان هناك القوميون الذين لم ينتسبوا الى حزب الشعب، وجلهم من رجال فيصل والثورة الحجازية، وقد استعمل الانتداب الفرنسي الفريق المدجن منهم وسلم اليهم مراكز السلطة، لم يجدوا أي حرج في الإدعاء بالوطنية حيناً وبالقوموية العروبية حيناً. وكان بينهم عدد كبير من الكُرد المستعربين، وقد ألف هؤلاء طبقة قائمة بذاتها تماماً مثلما حصل في العراق.

لكن كانت هناك جماهير من المثقفين الشباب الخريجين في جامعة دمشق وكلية اليسوعيين في بيروت والجامعة الامريكية<sup>(١)</sup> في هذه المدينة بالأخص، تشبعت بالأفكار الغربية وكرهت الغرب في عين الوقت كما أبغضت كل من يتعامل معه ويسير في ركاب الدولتين المنتدبتين. وقد ارسلت الجامعة الامريكية بدرجة رئيسة وجامعة دمشق الى حد ما، دفعات متتالية من الشباب المستوفز المتطلع الى مكانة إجتماعية تليق بالمستوى العلمي والثقافي الذي بلغوه وتناسب مؤهلاتهم وكفاءاتهم. ولذا فليس من العدالة والإنصاف أن يناط لمن يسعده الحظ منهم وظائف دنيا، أفي سلك التعليم أو في مكاتب الكوادر الإدارية أو أن يبقى جلهم عاطلاً يأنف من القبول بهذه المراكز الحقيرة في بناء اداري سياسي، يقوم على رأسه ويحتكره أشباه جهلة من مواطنيهم بالمشاركة مع موظفي الإحتلال الأجانب المتعطسين، الذين قد لا يقلون عن شركائهم جهلاً ومحدودية، هؤلاء الذين أودعوا مصائر البلاد وأهلها وانتهى اليهم القرار (١) عرفت بهذا الاسم كما ذكرنا في فصل سابق، لأن مؤسسها كان امريكياً مباشراً اسمه دانييل بليس. وبدعم من (اوفلي) القنصل الامريكي في بيروت وقد سميت باسم المدينة. اهتمت بترجمة التوراة الى العربية واستخدمت اللغوي الكبير ابراهيم اليازجي لذلك الغرض. كانت كلية الطب اول كلية فتحتها. وساهم هوفارد ابن المؤسس في توسيعها وتزويدها بالمعدات الحديثة وابتاع مساحات جديدة من الأراضي بأموال البعثة التبشيرية. وما يذكر ان (هوفارد) استغل علاقة صداقة بينه وبين الرئيس الامريكي (ودرو ويلسن) فحمله على ارسال لجنة (كنك-كرين) لدراسة الوضع السياسي في سورية. اوصت بإنشاء دولة سورية واحدة بضم فلسطين ولبنان إليها ووضعها تحت الإنتداب الأمريكي كما سبق بيانه.

النهائي والكلمة الحاسمة فيها. ممثلو سلطة الانتداب في لبنان وسورية ما كانوا يتصرفون بصورة عامة بميزة الكفاءة والإتزان، ولا يبارون خريجي الجامعات من سوريين ولبنانيين وفلسطينيين بالثقافة والعلم. ومع ذلك فها هم يمثلون الحضارة الغربية التي استقوا هم من معينها وجرى تعليمهم وفق أساليبها. كثير من هؤلاء الموظفين المدنيين والعسكريين جُلب من مستعمرات فرنسا في شرق آسيا وأفريقيا وسلموا مناصب خطيرة وصُرفت لهم رواتب عالية جُلها حصيلة الضرائب التي تجبى من أبناء جلدتهم، قد يعجزون عن الحصول على مثلها في بلادهم.

هؤلاء كانوا يكافئون شعور النقص فيهم ويغذونه بممارسة السيادة على الآخرين بشكل تعسفي لا يطاق في أحيان كثيرة. وبدا وكأن لكل من هؤلاء ذكرى مؤلمة شخصية عن معاملة غربي مهينة بوصفه رئيساً لا فضل في رئاسته إلا لكونه غريباً.

وتبدو هذه النظرة المحقرة أحياناً في كتابات بعض هؤلاء الأغراب المصعربين خدودهم، فتحدث انطباعاً معيناً عند قارئها الغربي يخالف الواقع ليحملها معه عند قدومه، وبالمقابل يبدو هؤلاء للمثقفين العروبيين وكأن هذه الفكرة عن بلادهم وأهلها هي الطابع العام للسلوك الغربي.

والواقع هو غير ذلك. فكثير وكثير من موظفي الانتداب أتوا وهم مزودون بالعلم والمعرفة والثقافة التي تؤهلهم حقاً لمناصبهم. وكثير منهم تمكن من التوفيق بين مصالح بلاده وبين التفاني والتجرد في خدمة البلاد وأهلها خدمة صادقة حقيقية فاقت نزاهتهم وإخلاصهم اشد المواطنين نزاهة وإخلاصاً.

في العام ١٩٠٦ وعلى أثر حادثة (دنشواي) ورد الفعل البريطاني الأحمق القاسي ظهر في لبنان كتاب عنوانه: مصر الانكليز<sup>(٢)</sup> قرأه المثقفون المصريون وشعروا بعمق الإهانة، والسيئة تبقى في الذهن عالقة بينما تضيع الحسنة في أجواء الحقد الذي تشيعه الأولى، قال المؤلف:

قضية التعلم في مصر لا تعدلها في الأهمية قضية أخرى غير ضرورة الإحتلال البريطاني. عند سماعك مصريين يتكلمون لا يسعك إلا أن تتصور بأن الرغبة الوحيدة التي تتملك الواحد منهم هو الإرتقاء بعقله ورفع نفسه الى مستوى الأوروبيين من ذوي الثقافة العالية، وواقع الحال هو أن المصريين لا عقل لهم قد يهضمون بعض مظاهر المدنية ويتشربون أفكارها، لكن ليس ثم رجل من الملونين

(٢) دوغلاس سليدين (Douglas Sladeen): كتابه (Eygept English) ط. لندن ١٩٠٨.

يستطيع تقليد ياقات الرجال الإنكليز تقليداً دقيقاً. لكنه من ناحية القابلية الثقافية والمقدرة على التأنيق، ليس رجلاً أبيض." (٣)

ومنه أيضاً:

"في مصر أيضاً كما في غيرها من البلدان رجال ربيعوا الخلق (جتلمانية) والجتلمان المسلم ذو العقل الواسع من المدرسة القديمة هو إنسان رائع للغاية، لكن ومما لا سبيل الى نكرانه أن في المصري العادي عادة، هو كذوب، محتال، يقتل غيلة عند الحاجة وسنوح الفرصة، وهو كما نوهت في الفصل الخاص بالثقافة، من خلال حكايتي عن الصبي المصري - ليس رياضياً (Sportman) بالمعنى المقصود من الكلمة. ومهما بلغت مهارته في الالعاب الرياضية فإنه لا يستطيع أن يرقى الى كفاءة الجتلمان الإنكليزي ولا يقدرها حق قدرها، غشاش في عمله وهو صبي، كالغشاش في حرفته وهو رجل. واستغلال الفائدة لنفسه هو استراتيجية جديرة بالثناء في عرفه." (٤)

مثل هذه الإنطباعات التعميمية الظالمة المتسرعة، التي تنطوي على إحتقار فاضح تزيد كثيراً في نقمة الانتلجنسيا في البلاد الناطقة بالعربية وتدفعهم الى التعصب لقومهم العرب والتحزب له، باعتقاد منهم أن سائر الغرب يجدون في هذه الشعوب وهم في بلادهم مادة للضحك والسخرية. وكثيراً ما لمس بعض قصاد العلم منهم الى بلاد الغرب تأكيداً على ذلك من شكل المعاملة التي يلقونها هناك شخصياً. كثير من هؤلاء فضلاً عن الناس العاديين لا تفوتهم ملاحظة قدوم الزائرين أو الموظفين أو رجال أعمال من فرنسيين وألمان وإنكليز وأمريكيين وفي حقائبهم كتب مثل كتاب (دوگلاس سليدن) فيه حكايات لا نهاية لها عن تجارب هذا الموظف الأوروبي، أو ذلك الذي تمكن من تحمل سنوات خدمته الطويلة الرتيبة بروايات عن الجانب المسلي من تصرفات المواطنين الذين احتك بهم الحافلة بالغرائب والشذوذ. والواقع هو أن التسلية المشوية بالاستصغار لعرب المدن والحواضر التي هي على طرفي نقيض من الإحتفاء والإكبار الرومانتي للبدوي العربي بعقاله وعباءته - لا يخلف عند الأول غير المضاضة ولا يجد منها الثاني مدعاة للإعتزاز بزيه هذا، الذي يأبى استبداله بالزي الأوروبي.

وهناك من لا يزال يذكر مثلاً أن واحداً من الأوامر التي صدرت للجيش الأردني بعد استغناء

(٣) المرجع السالف: ص ٧٣.

(٤) المرجع السالف: ص ٨٩.

الملك المفاجيء عن خدمات الجنرال كلوب باشا (ابو حنيك) هو نبذ الكفئية الحمراء والعقال والاستعاضة عنهما بغطاء رأس شبيه بذلك الذي يعتمره أفراد الجيش البريطاني. والباعث على هذا الأمر هو الظن بأن قائد الجيش المعزول اختار الكفئية والعقال للفرقة الأردنية البدوية ليبقي الجندي الاردني على بساطته وسذاجته كسائر العرب من المدرسة القديمة طائعاً ذليلاً يحترم السلطة.

ان العدول عن تطبيق هذا الأمر بعد صدوره. ثم الغاؤه يعكس الاضطراب في القيم والموازن الفكرية السائدة في البلاد الناطقة بالعربية.

\*\*\*

كانت سورية أقرب الى الغرب من العراق. وأعرق صلة به واوثق، فمنذ أن طرد آخر فارس صليبي من البلاد بعد أن مكث الغرب الوسيط فيها زهاء قرنين من الزمن، والعلاقة متواصلة تجارياً ودينياً وسياسياً، في الوقت الذي لم تكن بلاد ما بين النهرين قد بلغت أي حد من الإحتكاك بالغرب. فكان السوريون أسرع من غيرهم لاستقبال حضارة القرن التاسع عشر الغربية وما فيها من الفكر الغربي. ومع هذا الاستقبال ورد ناتج سيء من أسوء ما يكون هو العداء للغرب. فالغرب كان يبيث افكاراً وآراء توحى بردود فعل ضدها كالحرية، والاستقلال، وحق تقرير المصير، والقومية، وسمو النضال ضد التغلب الغاصب. كل هذه المفاهيم قرأها ووعاها أولئك خريجو المعاهد التبشيرية الأجنبية في سورية ولبنان في كتب ومصادر وضعت بين أيديهم، كما لمسوا مردودها العملي اثناء دراستهم في مدن الغرب.

لذلك كان انقلاب التلاميذ على معلميههم طبيعياً وتحصيل حاصل. قراؤا عن الثورة الفرنسية والأمريكية وعرفوها أكثر مما عرفوا عن تاريخ بلادهم. ومن دروسها وعبرها استخلصوا امثلة بسيطة وهي أن لا إنسان ولا شعب يجب أن يقبل بحظوظه خانعاً مستكيناً، وإن من الحكمة والحق أن يحشد المرء طاقاته للقضاء على المتغلب المضطهد، وقد وجدتهم الانتلجنسيا السورية في الفرنسيين.

كثير من العرب المتحمسين للعرب في اقتبالهم أفكار الغرب وتقاليدهم الغربيين يرونه نوعاً من خيانة قومية أو وطنية، وبسبب من هذا الواقع الى جانب رفضهم قبول أي عربي مهما بلغ استغرابه وتقبله الأنماط الأوروبية - عضواً كامل العضوية في مجتمعهم. وقد وجدنا كثيراً من العروبيين السوريين الذين تعلقوا بالغرب - يشعرون في قرارة أنفسهم بنوع من الإثم

والتجني على ثقافتهم القومية، بل بنوع من الغدر بها. ويحتد هذا الشعور عندما يفقد العروبيون المستعربون صلتهم بمجتمعهم من خلال عملية الانتقال ويخالطهم الندم لبياشروا عملية الرجعة، وها هنا عنصر الخطر الأعظم. كثير من المثقفين العرب في سورية، لاسيما أولئك الذين درسوا في معاهد الغرب واحتكوا بمجتمعه - عادوا مقتنعين بألا مكان لهم في وطنهم، وأن عليهم تطهير أنفسهم بالرجوع الى العروبية، الى العزة القومية والإشادة بالتاريخ والتراث. ومس منهم الشغاف واقعهم المعاشي المزري وفضلاً عن خصاصة مجتمعهم ويؤسه، فقد وجدت غالبية فيهم ابواب العمل مهما كان صغيراً هامشياً - موصدة في أوجههم يبحثون لهم عن عمل خارج بلادهم ويقبلون بلهفة كل عرض كفيل بإنقاذهم من حياة البطالة ويكفيهم ذل السؤال وشظف العيش<sup>(٥)</sup>.

لم يكن الإتجاه القومي النضالي قاصراً على تحدي الظلم والإضطهاد والعمل من أجل الاستقلال قدر ما كان موجهاً ضد العزل الإجتماعي في الوطن الأم، والمثل يصدق في الفرنسيين أكثر من الإنكليز بكثير. فقد كان جل من استخدمه الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان، من إداريي مستعمرات افريقيا وأقاصي آسيا الجنوبية بكل ما فيهم من: غطرسة وترفع عنصري وانعزال إجتماعي وتحكم سلطوي ابوي<sup>(٦)</sup>.

ولا عجب قط في أن ينحو الإتجاه القومي هناك أيضاً منحى نازياً فاشياً، لبطبع الحركة بطابعها الأبدي. يصف المثقف اللبناني (إدور عطية) كيفية صيرورته قومياً عربياً ثم

(٥) بلغ عدد المعلمين والمدرسين والأساتذة المستخدمين في مدارس العراق من سوريين ولبنانيين ومصريين ذكوراً وإناثاً حدود (٣٥٠) وكلهم بلا استثناء من خريجي الجامعات والمعاهد العالية ذات الاختصاص. وتحفظ ذاكرتي أسماء بعض من زاول التدريس في ثانوية الموصل المركزية أيام كنت فيها ١٩٣٨-١٩٣٩. فصالح عقيل السوري مدرس مادة (الحيوان) عاد الى العراق ممثلاً دبلوماسياً لبلاده بعد الإستقلال بمنصب قنصل عام، وامين طليح المحامي اللبناني مدرس اللغة الفرنسية والتاريخ تبوء منصباً قضائياً رفيعاً بعد الإستقلال، وكلاهما من القوميين (شاهدت بعيني ثانيهما وأنا اتسل الى منزلي - يرافق وعلى رصيف الشارع تلك النظاهرة التي انطلقت من المدرسة بقيادة شاب (هتلري) نحو القنصلية البريطانية وادت الى مصرع القنصل إثر سريان إشاعة مقتل (غازي) بيد (البريطانيين)، منهم الشاعر المطيل (انور العطار) السوري، و(صفي البني) الشاعر والأديب الذي كان عضواً قيادياً في الحزب الشيوعي السوري، ولا انسى ذكر زميلتين لشقيقتي في التدريس لبنانيتين احدهما من آل الخوري والأخرى من أسرة جنبلاط في مدرسة (الناصرية) الابتدائية، عاليتا الثقافة والتحصيل أبتا إلا ان تبقياً سافرتين. ولم يثر سفورهما اي تساؤل او احتجاج. وقد اسعدتني الصدفة بعد ثلاثين عاماً بأن ألتقي بثانيتها وهي تتولى أمر دائرة واسعة في وزارة الثقافة والإعلام ببيروت.

(٦) عربي يقص قصة دراسة في الولاءات: An Arab Tells His Story: A Study of Loyalties لندن ١٩٤٦. ص١٤٧.

إشراكياً عربياً، اذ يقرنها بمناسبة معينة. كان قد درس في إنكلترا، وتشرب عادات أهلها وتقاليدهم، فعلق بحبهم وتشيع لهم بحماسة لا تعدلها حماسة، عاد الى بلاده فلم يجد عملاً ووجد نفسه يقبل منصب أستاذ اللغة الإنكليزية وأدائها في كلية (غوردن) بالخرطوم (السودان) قبل الاستقلال. قال:

"ذات يوم جاء سعادة الحاكم العام لزيارة الكلية. فانتظمت هيئة التدريس الانكليزية صفاً لاستقباله، وقدم له اعضاؤها بالأسماء واحداً بعد الآخر. أما هيئة التدريس من غير الإنكليز، فقد طلب منهم ملازمة قاعة المدرسين اذ لم يكن لهم حصة المشاركة في أي جزء من المراسيم. جلسنا في القاعة كما يجلس الأقرباء الفقراء المبعدون الى المطبخ عند وجود ضيف كبير المقام في الدار.

عدت الى منزلي مشمئزاً وأنا اتميز غيظاً بسبب هذا الإذلال. وهكذا تحررت، تحررت لا بفضل تحليل عقلي وتحكيم منطقي، بل بقوة رد الفعل العاطفي النابع من مشاعري الجريحة، تحررت من قيود الاستشراق السياسية التي زرعتها في تأثيرات حياتي الأولى. ووجدت نفسي اتفهم وأتعاطف مع مجموعة كبيرة من الرغبات نصف المبهمة والتيارات العاطفية المضطربة في الغالب، لكنها حقيقية رغم ذلك وكلها يقع في إطار مخطط (يقظة العرب). وهكذا اتجهت حياتي كلها الى حصة معاكسة، فصرت قومياً عربياً، وانصرفت بكل عواظي الى الهنود والمصريين، الى الثورة المصرية، التي كنت لا أنظر اليها نظرة موافقة أو رضى".<sup>(٧)</sup>

(٧) المرجع السالف، ص٦٥: شبيه بهذا ما حصل للملازم الأول إسماعيل العارف، وهو قومي عربي من اللجنة العليا للضباط الذين حققوا انقلاب ١٤ تموز في العراق، وكان برتبة عميد ركن ووزير إعلام في عهد قاسم. ذكر في كتابه: أسرار تموز، حادثة مماثلة انتهت بخلاف ما انتهت اليه قصة (عطية). قال: كان ذلك في العام ١٩٤١ في حين كان صلاح الدين في تمرين مشترك بين وحدات بريطانية وعراقية، وكنت واحداً من المحكمين وكان يقود الفوج البريطاني مقدم شرس خشن الطباع يتصرف بعنجهية المستعمرين الذين تطبعوا عليها في الهند. وفي أحد الأيام عقد إجتماع خارج مخيم الفوج لاستقبال مراسل وكالة رويتر للأخبار، الذي كان يغطي أخبار التمرين، فجلسنا مع الضباط الإنكليز على شكل دائرة. وعندما حضر المراسل استقبله أمر الفوج وأخذ يطوف به على الضباط يقدمهم له بمناصبهم وأسمائهم، عندما وصل الى مكاننا نحن الضباط العراقيين تجاوزنا ولم يقدمنا له. فانزعجت من هذا التصرف الخالي من الذوق والمجاملة واعتبرته اهانة لنا... أصررت على ترك الإجتماع وقمت لتوي وتوجهت الى مراسل رويتر الذي جلس الى جانب أمر الفوج مرتدياً بزة عسكرية تظهره برتبة رائد، وقدمت له نفسي كضابط عراقي من المحكمين، وأشرت الى صاحبي مقدماً إياه وقلت إنني أسف لترك الإجتماع لأنني أشعر بأن عدم =

ليس على الأمثال قياس، وليس بالإمكان الخروج بحكم عام على موظفي الانتداب الغربيين لتصرف فردي جافي. إلا أن السيء كما قلت ينتشر بلاؤه في دائرة أوسع بكثير من الجيد. وإساءة الغربيين إلى سمعات بلادهم وشعوبهم كثيراً ما تحو من أذهان العاطفيين المندفعين ما حققه غيرهم من جيد الأثر. لكن قابلية البشر على نسيان الجيد والحسن من الفعل أضعف وأسرع كثيراً من قابليته على نسيان الإساءة واغتفارها.

الجانب العاطفي عند القوميون العربيين بصورة عامة ظل مركز الثقل في تكوين الآراء وتنظيم المناهج ووضع الخطط والدراسات والخطب والمحاضرات. ولا أذكر اني قرأت بياناً واحداً من تلك البيانات، التي كان يصدرها الإنقلابيون القوميون عشية إنقلاباتهم، أو إعلاناً لاتتصاراتهم، على قوميين آخرين وإزاحتهم عن السلطة وقد خلا من تلك العبارات التي يسهل عليك كثيراً تقصي منابعها العاطفية من الشعور بالمهانة والكرامة الجريحة والحقد الدفين الذي لايسمح بفسحة صغيرة لشعور مضاد كالشعور بالمنة والشكر والإغضاء والصفح. يقول ابن الرومي:

وما لحقد إلا توائم الشكر في الفتى  
ويعض السجايا ينتسبن إلى بعض  
فحيث ترى حقداً على ذي مساءة  
فثم ترى شكراً على واسع القرض

\*\*\*

مع هذا، وبكل هذا المقدار من الزخم القومي العربي في سورية، بقي العراق مركز ثقله منذ آب ١٩٣٣ حتى ١٩٤١. وقد بدا هذا منطقياً بوجه تشجيع الإتجاه القومي ببركات الانتداب والنفوذ البريطانيين في العراق، بل ورعايته وتغطية اندفاعاته الهوجاء بخلاف الانتداب الفرنسي الذي كان يشجع الطائفية ويرعاها. وفي الوقت الذي كان على السوريين واللبنانيين أن ينتظروا أربعة عشر عاماً قبل نيل ما ناله العراق من الاستقلال والإعتراف به عضواً في الأسرة الدولية. كان بين مئات اللاجئين أو الباحثين عن عمل في العراق من أولئك المثقفين العربيين الذين وضعتهم السلطات الفرنسية والبريطانية (لاسيما في فلسطين) تحت المراقبة

= تقديمنا لك لاخدم الغرض المطلوب من التمرين، ثم تركت الاجتماع وذهبت إلى خيمتي وبدأت احزم امتعتي عازماً على الإلتحاق بمقر المحكمين... ولم تمض لحظات حتى وصل خيمتي لاهتاً معاًون أمر الفوج البريطاني، وكان دمث الاخلاق لطيف المعشر بسيطاً هادئاً أكن له حباً واحتراماً عظيمين. ورجاني ان أقطع عن ترك الفوج تجنباً لإثارة مشكلة بين الطرفين العراقي والبريطاني. فأصررت وقلت لن أغير قراري إلا إذا اعتذر أمر الفوج. فأقر المعاون رأيي وتركني ليعود بعد قليل بصحبة أمر الفوج، الذي اعتذر لي مقدماً حجته بأنه لا يعرف أسماءنا فقبلت اعتذاره.

والملاحقة أو في قائمة المشبهين. إلا أن التبعض السياسي والإداري، الذي أقدم عليه الفرنسيون في سورية الجغرافية، إضافة إلى خضوعها للسيطرة الأجنبية خلال فترات طويلة من تاريخها المديد، لم ينس أهلها قط تراثهم العربي الإسلامي. وقد بقوا يتوارثون كابراً عن كابر وعياً وإدراكاً لهوية بلادهم التاريخية والجغرافية باسم (سورية) العريق في القدم. أو (الشام) وهو الصدى القومي بكنيته العربية الأصلية<sup>(٨)</sup>، التي طمست إلى حين الاسم الأصلي الغابر، بحالاتها الخصوصية أنبتت في ربوعهم أول بذرة من بذور النضال ضد العثمانيين في سبيل الاستقلال بشعار عربي. وفي دمشق تأسست أول دولة عربية الكيان برئيس عربي في القرن العشرين لا تشوب أصلها شائبة.

فكما تقدم بيانه ظلت العربية السورية تستمد قوتها لمدة من الزمن من ذكريات المملكة العربية التي أعلنها فيصل، قدر ما كانت تستمد من خلفه بني أمية، بل حتى وهي في ظل الانتداب. فالجمهورية السورية ظلت حاملة لواء القومية العربية والتحرر العربي والوحدة العربية رمزياً والعراق كان واحداً من المستوردين.

ذات مرة قال الدكتور ناظم القدسي وهو آخر رئيس جمهورية دستوري في سورية: المشكلة عندنا نحن السوريين أننا لا نهتم فحسب بمشاكلنا، بل بمسائل تهمة جميع العرب<sup>(٩)</sup>.

ولعل هذا كان واحداً من الأسباب التي دعت الفرنسيين إلى تجزئتها دويلات - أي بنية إضعاف الشعور القومي وتبريره بغياب دولة مركزية شاملة واحدة يستقطب حولها هذا الشعور. بل ربما نظر إلى الأمر من جهة معاكسة:

"أي لو بقيت سورية وحدة غير مجزأة، فقد يكون هناك موازنة بين الشعور العربي والشعور السوري كما كان الأمر في العراق وقتذاك<sup>(١٠)</sup>"

\*\*\*

(٨) قَصَدَ العربُ بالشام سورية على العموم وقسموها إدارياً إلى سبعة أجناد (الجند هو المدينة وملحقاتها) وهي فلسطين والأردن وحمص ودمشق وقيسرين، والعواصم والثغور. إلا أن أبا نصر إسماعيل الجوهري (توفي في ١٠٠٥م) يقصرها في معجمه الشهير (تاج اللغة وصحاح العربية) على الأجناد الخمسة الأولى قال أبو الطيب المنطبي:

دون ان يشرق الحجاز ونجد والعراقان بالقنا والشام

ويقصد العراق العربي والعراق العجمي وسورية الجغرافية، أما اليوم فالاسم قاصر على مدينة دمشق.

(٩) من حديث ادلى به لمراسل مجلة التايم الامريكية في ١٥ آذار ١٩٦٣.

(١٠) الرأي الأخير هو للمؤرخ ألبرت حوارني. أنظر كتابه: الفكر العربي في العصر الليبرالي (Arabic Thought in the Lebreal Age)، لندن مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٦٢ ص ٣١٧.

في العام ١٩٣٢ وهو العام الذي شهد استقلال العراق أمر المندوب السامي الفرنسي بإجراء انتخابات عامة، ومع أن الكتلة الوطنية لم تفز بأغلبية المقاعد في البرلمان المنتخب، إلا أن الحكومة كانت تتألف من أغلبية أعضاء الكتلة الوطنية، وهي مجموعة من الساسة كانوا أعضاء في حكومة فيصل. اعتبرت هذه الكتلة خلفاً لحزب الشعب الذي كان قاده قد نفوا بسبب مساهمتهم في ثورة ١٩٢٦.

كان السوريون يعتقدون أن الفرنسيين سيسلكون معهم عين السبيل التي سلكها البريطانيون في العراق فخاب فألهم. حاولت الحكومة الجديدة إعادة التفاوض مع الفرنسيين على هذا الأساس، ولم يكن الفرنسيون راغبين في النزول عند كل ما طلبه السوريون. وفي ١٩٣٣ بدأت مفاوضات أخرى حول معاهدة حلف سوري - فرنسي لتنظيم العلاقات بين الطرفين وللنص على نقل السلطة الى السوريين خلال فترة أمدها أربع سنوات تدخل سورية بعدها عضوة في عصبة الأمم دولة تامة السيادة. ومع أن هذه المعاهدة وضعت على اساس مشابه لمعاهدة ١٩٣٠ العراقية - البريطانية، فقد أبى الفرنسيون إلا إبقاء دولتي الدروز والعلويين خارج نطاق المعاهدة، الأمر الذي جعلها غير مقبولة من الحكومة ومن القوميين. وثار عاصفة في البرلمان السوري (الجمعية العامة)، الأمر الذي اضطر المندوب السامي (بونسو) الى تعليقها. وعندما استقال في العام ١٩٣٤ بدت مسألة الاستقلال السوري بعيدة عن الحل. وجرب المندوب السامي الجديد (دي مارتيل) اسلوباً عنيفاً فأرغم رئيس الوزراء على القبول بالمعاهدة بالشكل الذي ارتأته حكومته. وعندما رفضها البرلمان ثانية علق المندوب السامي الدستور الى أجل غير مسمى. وراح يحكم البلاد مباشرة من وراء رئيس الوزراء، الذي بدا آلة في يده مكروها من كل الساسة القوميين والجهات الوطنية.

في تشرين الثاني ١٩٣٥ توفي الزعيم هنانو<sup>(١١)</sup> في حلب، وانتهزت الكتلة الوطنية مناسبة التأبين الذي أقيم لذكراه في نهاية الأسبوع الثاني على وفاته، لإحياء المظاهرات ضد الانتداب بشعار وحدة سورية، بضم الدولة العلوية والدروزية والجزيرية والاسكندرونة

إليها<sup>(١٢)</sup>. وتواصلت المظاهرات والإضرابات وحوادث الشغب خلال الشهرين الأولين من السنة التالية. وبلغت أقصاها عندما أمر المندوب السامي بنفي شكري القوتلي زعيم الكتلة الوطنية. فكان ثم إضراب عام واشتباك في دمشق بين قوات الأمن والمتظاهرين سقط فيه عدد من القتلى.

وفي آذار بدا وكأن دي مارتيل يميل الى التفاهم، حين دعا القوميين - الوطنيين الى المفاوضات مجدداً حول المعاهدة. وربما كان ذلك بإيعاز من الحكومة الإشتراكية الفرنسية (يسار الوسط) التي ألّفها (ليون بلوم) الميَّال الى تسوية. اتفق على مواصلة المفاوضات وشخص وفد سوري الى باريس لهذا الغرض مؤلف من الكتلة الوطنية<sup>(١٣)</sup>.

ليس هناك من دليل يثبت بأن موافقة الفرنسيين على التفاوض مع هذا الوفد، يعني اعتبارهم الكتلة الوطنية هي الممثلة الحقيقية لأهالي سورية. إلا أن قبولهم الوفد المشكل بهذه الصفة، أوحى للسوريين بل أوحى للكتلة نفسها بأنها تمتلك حق التمثيل بهذه الصفة، التي لم تكن حقيقية في الواقع.

في نهاية العام ١٩٣٦ كان هناك الجبهة الشعبية الإشتراكية تحكم فرنسا. هذه الوزارة قلبت سياسة الانتداب المتبعة في سورية منذ العام ١٩٢٠ رأساً على عقب، وسلمت دون أخذ ورد بكثير من مطالب الكتلة الوطنية، منها أن تؤسس دولة مركزية تحكم سورية كلها من دمشق، كما وافقت على إنهاء الانتداب في العام ١٩٤٠ واستبدال معاهدة به.

عاد الوفد السوري ظافراً وجرت انتخابات اشتراكية في تشرين الثاني من العام نفسه، وفازت الكتلة الوطنية بطبيعة الحال، وألّفت وزارة جديدة ضمت معظم الساسة القوميين، الذين قُدر لهم أن يساهموا بأدوار خطيرة في عالم السياسة السورية<sup>(١٤)</sup>. إلا أن إشاعات انتشرت في الأوساط القومية وأوساط المثقفين الوطنيين، ومصدر بعضها من أولئك الذين كانوا يتلقون علومهم في باريس - بأن موظفي المستعمرات الفرنسيين هناك يحاولون ممارسة نفوذهم ضد (ليون بلوم) لرفض المعاهدة عند تقديمها لمصادقة الجمعية الوطنية. وما احتث الشك العميق

(١٢) يقطن الجزيرة خليط كاد يكون متساوياً من الكُرد والمسيحيين، وأما الاسكندرونة فقد كانت مأهولة بخليط من الترك والعرب والمسيحيين.

(١٣) حل الوفد ضيفاً على المفوضية العراقية في باريس، اثباتاً لتضامنه.

(١٤) ترأس هاشم الأتاسي الجمهورية وعهد لجميل مردم برئاسة الوزارة والداخلية ولسعده الله الجابري ولشكري القوتلي وزارة المالية ووزارة الدفاع، وانتخب فارس الخوري رئيساً للبرلمان، وكل هؤلاء من قومي عهد فيصل العرب ومن أسر دمشقية بارزة عريقة.

(١١) ولد في اطراف حلب (كفر حازم) العام ١٨٦٩، وابوه سليمان آغا هنانو من رؤساء الكُرد في المنطقة، وتولى مناصب ادارية في العهد العثماني وكان عضواً بارزاً في المؤتمر السوري بدمشق. عرف بنضاله العنيد ضد الإنتداب الفرنسي، فاعتقله البريطانيون وهو في اورشليم القدس وسلم للسلطات الفرنسية وحوكم وبُريء. ذكر المؤرخ اللبناني يوسف ابراهيم يزبك إن (فلاديمير لينين) كتب لهنانو أربع رسائل بخطه يدعوه الى التعاون مع حركات التحرر في المنطقة (انظر المزيد عنه في اعلام الكرد لمير بصري لندن، ١٩٩١، ص ١٠٠).

في حسن النوايا الفرنسية وتصديق تلك الاشاعات هو الغضب الذي اجتاحت السوريين والبلاد الناطقة بالعربية، عندما قررت فرنسا فصل لواء الإسكندرونة وضمه الى تركيا.

كان من شأن ذلك الحاق ضرر عظيم بحلب وبما يليها. فمينااء الاسكندرونة هو مينائهم ومنفذهم التجاري المباشر الى البحر، وحلب كانت ابداً تشعر باستقلالها عن دمشق، كانت هكذا على الأقل منذ نهاية عهد الأمويين، فشعورها بخسارة الإسكندرونة كان يفوق شعور دمشق عنفاً وحدة. وانصب اللوم الى حد ما على الحكومة المحلية وعدوها الشريك في صفقة التنازل، رغم أن السوريين أجمعوا على الإدعاء ومازالوا بأن الإقليم هو عربي وهو جزء لا يتجزء من التراب السوري. لم يكن القوميون السوريون، ولا القوميون العربيون المخضرمون قادرين على منع الفرنسيين من التسوية السياسية التي أدت الى ضم لواء الإسكندرونة الى تركيا، إلا أنهم فقدوا شعبيتهم جراءها. ووجد القوميون العربيون الجدد والانتلجنسيا العروبية وحركاتها، الى جانب الحركة الشيوعية واليسار في ذلك واحدة من الوسائل للتعبير عن سخطهم - وحاولت الحكومة احتواء الغليان ففشلت.

الى جانب هذا كانت الاقليات الدرزية والعلوية تتوجس خيفة من التسلط الذي تمارسه حكومة سيئة في دمشق. كحلب نفسها، لم تكن هذه الطوائف والاقليات العنصرية لتشعر بأية ثقة بحكام دمشق السنيين القوميين الذين شرعوا حال تسلمهم زمام الحكم يوزعون على مناسيبيهم ومحاسيبيهم المناصب الإدارية ويقتنصون لأنفسهم الامتيازات المالية والنعم على أنصارهم في العاصمة والمدن الأخرى. في مثل هذه البيئة السياسية القلقة وجدت الأفكار النازية والفاشية سبيلها عريضاً لاجباً - وخيّل لحكام دمشق لفترة معينة من الزمن أن بإمكانهم احتواء التذمر والشكوى العامة بالدجوى الى الاساليب التي اتبعها هتلر وموسوليني في عسكرة النظام. فقامت الكتلة الوطنية بتأسيس حركة بين الشباب القومي وألفت منهم وحدات شبيه عسكرية أطلقت عليهم اسم (ذوي القمصان الفولاذية) تقليداً لذوي القمصان السود الفاشية وذوي القمصان الرمادية الهتلرية. هذه الفرق أخذت تشتبك في مشاحنات مع خصوم الكتلة الوطنية ومع اليسار والشيوعيين وتحدث تخريبات في ممتلكات أعداء الكتلة الوطنية، كما كان يفعل الشباب الهتلري باليهود وبالإشراكين والشيوعيين في ألمانيا.

وجاء عبدالرحمن الشهبندر الذي عاد من منفاه بسبب مشاركته في الثورة الدرزية كما مرّ، ليرأس جماعات قومية مناهضة للكتلة الوطنية. وفي خلال العامين ١٩٣٧ و١٩٣٨ فقدت الكتلة الوطنية مقامها وانتابها ضعف كبير بسبب التحاسد والتباغض والمنافسة فيما بين

اعضاؤها. وجاء رفض الجمعية العامة الفرنسية الموافقة على المعاهدة ليقضي على مصداقيتها وشعبيتها وحفل النصف الأول من العام ١٩٣٩ بالإضرابات والإعتصام والشغب والاستعراضات واختلّ حبل النظام.

كان رد الفعل الفرنسي عنيفاً وقاسياً واستُخدم الجيش كالعادة. ووجد الشارع نفسه لأول مرة أمام وحدات تتألف من مجندين سوريين يقودها ضباط سوريون توجه نيران أسلحتها الى صدور حشود المتظاهرين فيه وترديهم قتلى - هذه الوحدات هي نواة الجيش في سورية المستقلة. عاد المندوب السامي يحكم سورية حكماً مباشراً. فعلق العمل بالدستور وحلّ المجلس النيابي واعتقل عدداً كبيراً من القوميين والسياسيين. وفي تموز ١٩٣٩ أعاد الوضع الإداري السابق في دولتي الدروز والعلويين وفي الجزيرة، واستقال (الأتاسي) وحكومته ووضعت الحكومة بيد مجلس مكون من المدراء العاميين للوزارات. وكل هذا يعني أن عشرين عاماً من الحكم الفرنسي لم تحقق في سورية شيئاً.

على أن السوريين إنطلاقاً من تجارب قليلة في صناعة الحكم أن يؤسسوا حكومة وبرلماناً وإدارات، إلا أن انشغالهم بمقارعة الفرنسيين الذين لم يسمحوا بفرصة كذلك التي سمح بها البريطانيون للعراقيين، ادى الى ضياع كل مجهود - لو كان ثمة مجهود حقيقي - لبناء حكم ديمقراطي دستوري سليم. ولو شئنا إنصافاً لعذرناهم أكثر بكثير مما يسمح لنا التاريخ بالإعتذار للعراقيين الذين أضاعوا الفرصة هم أيضاً.

وفي خضم هذه الاحداث والمواقف ظهر في الميدان المثقفون الشباب الذين خرج منهم ساسة المستقبل، وجدوا انفسهم فجأة ومن غير سابق تجربة ينزلون الى الشارع ويسبحون في تيارات العقائد السياسية والمباديء في أثناء محاولة العثور على حل لأزمة بلادهم.

ومن سوء حظ حركة التحرر السوري - وزميلتها حركة التحرر القومي العروبية كاد هذا الجيل يكون كله من صنف صاحبنا الأستاذ إدورد عطية، دخلوا الميدان مسلحين بنقمة على سلطة الانتداب الثقيلة وبكره لا يحد للإداريين الذين سلمهم الأجنبي مقاليد الحكم. ورغم محاولة بعضهم الصداقة في الإرتفاع عن التعصب الديني والمذهبي في نشاطهم، فإن الخط العام المنتهج كان يأبى نقل الاقرباء الفقراء من المطبخ الى قاعة الاستقبال. ولم تفلح حماسة امثال ادورد عطية الى الانتماء العربي في القضاء على الإمتياز الديني في حقل النشاط القومي العربي.

عاد كثير من الاداريين الاجانب الى بلادهم بعد الخدمة في سورية كما في العراق وهم

كان كل ارتباط بأجنبي مرفوضاً عند هؤلاء العربويين الجدد، ولذلك اتسعت دائرة شكهم لتشمل اليسار الماركسي والشبوعيين العرب، فهذان الفريقان عندهم مجرد عملاء للأجنبي كل بسلوكة الخاص.

وبمختصر القول فإن الاستقلال عند العربويين المحدثين هو أكثر من مسألة قانونية أو عملية، انه يستبطن الشعور بالحرية والثقة بالقدرة على التصرف والإختيار. وهي حالة عقلية أوحث في أحيان عدة بعمليات عاطفية ومحاولات تلقائية لتجربة واقعية تلك الحرية من دون حساب أو تدبر للعواقب. ومع أنه لم يكن يوجد لدى فصائل وشيع القوميين العربويين المتعددة في سورية خلاف حول صحة مطلب الاستقلال، لكن قام خلاف كبير بينها في الرأي حول نقطة معينة وهي: "متى يكون أي تنظيم لعلاقة مع دول كبيرة خالياً من خيوط؟"

وللخلاص من هذه الحيرة ولنفي أي شك في (خيوط) أو صلة قد تقيد ذلك الاستقلال أو تنقص من تلك السيادة وجدوا ضالتهم في شيئين؛ وجدوها أولاً في (الوحدة). فوحدة البلاد الناطقة بالعربية ستؤمن لها حصانة، إذ ترفعها الى مصاف الدول العظمى بقوة عسكرية يعتد بها وبموارد طبيعية هائلة. وثانيهما في الحرية، أي حرية اختيار النظام الاجتماعي لبلاد مثل اللوحة. والمعنى العملي للوحدة كان كما رأينا سابقاً غير واضح. ولقد وجدنا معظم الكتاب القوميين العربويين يوجهون جلّ اهتمامهم في إقامة الرهان على أن تلك الوحدة قد سبق لها وجود، إلا أن النسيان لفتها بأفكان أو انها تجوهلت. فالقضية عندهم هي كيف يمكن أن يجعل منها حقيقة ذات معنى الآن؟

بعد المحاولة (الشريفية) الفاشلة في الحجاز، لم يجرء أي زعيم سياسي عربي أو فرد عادي يرغب في الإبقاء على حيثيته وسمعته أو يريد أن يحقق له مركزاً أو نفوذاً أو أن يبقى عليهما - على انتقاد هذا المثل الأعلى والهدف الأسمى الذي تمثله (الوحدة العربية) أو أن

= الطائفي الى ان المجموع الكلي للسكان هو ٤٤٠٣١٧٢ منهم ٣٦١٠٠٠ مسيحياً، أي بنقصان ١٤٠ الفاً! ويذكر المسيحيون السوريون أنه رقم مفتعل لأنه صدر أيام الوحدة مع مصر وانهم في الحقيقة يعدون أكثر من مليون. وفي العام ١٩٦٣ قدرت الحكومة السورية عدد المسيحيين ب(٦٦٠) الفاً. وفي مقال لمجلة نيويورك الامريكية بتاريخ ١٧ حزيران ١٩٧٤ عن سورية اعطى لمجموع سكان سورية رقم ٦٢٩٠٠٠٠ منهم ١٥٠٠٠٠٠ مسيحي، وربما كان في هذا الرقم مبالغة، لاشك أن عددهم اليوم لا يقل عن مليون بأي حال. جاء في كتاب منى ليليان السمان Mouna Liliane: أهالي سورية، دراسة جيوديموغرافية - La Pop- olation de la Syrie Etude Gio-demographique باريس ١٩٧٨، ص: ٩: إن التوزيع الطائفي للشعب السوري في العام ١٩٦٠ يمثل ٣٤٤٦٢١ مسيحياً يقابله ٤٠٥٣٢٤٩ مسلماً (سنياً ودرزياً وإسماعيلياً وعلوياً وشيعياً) الى جانب ٤٨٦٠ يهودياً، وليلاحظ انها تُدخل الدروز في عدد المسلمين.

معتقدون بأنهم بذلوا جهوداً صادقة كبيرة في وضع أسس عصريّة للتعليم والقانون والإقتصاد والادارة، وإن المعرفة والمهارات التي غرسوها هناك تساوي أو ربما تزيد عن أي منافع أو امتيازات خاصة جنتها حكوماتهم ومواطنوهم من الانتداب مقابل ذلك. كان قد عاد عدد كثير من هؤلاء وهم مقتنعون بأنهم نزلوا عن مسؤوليتهم في حكم هذه البلاد بأسرع مما تقضيه الحكمة والتروي - لاسيما بعض أولئك الذين بقوا بعد الاستقلال بصفة مستشارين أو ممثلين دبلوماسيين لبلادهم أو خبراء للحكومات المستقلة العسكرية الجائحة التي أسفرت عنها فترة الاستقلال وعقبت نهاية الانتداب فصاعداً، فقد بينوا كم كانت هذه الأحكام قريبة من الحقيقة. لانفضح سراً إن قلنا بأن كثيراً من السياسة العرب انفسهم شاركوا هؤلاء في هذه النظرة أو تلك. رأيت كثيراً ممن كتب عن ذكريات خدمته منهم - والعجب يتملكهم من إصدار الكتاب العربويين عموماً في البلاد الناطقة بالعربية مثل هذه الأحكام القاسية. أكان بإمكان الحكومتين الأوروبيتين المتسلطتين بموظفيهما الموقعيين تجنب تيار الشك والنقمة اللذين عُمرأ بهما - وكسر السد القائم بين المسرى القومي وبين الغرب؟

بطبيعة الحال كان هناك العامل الكبير الخفي، العلاقة بين التفوق والإنحطاط وبين الرفع والخفض. علاقة التابع بالمتبوع بين العربويين كأفراد مع الغرب، بين الثقافتين الغربية والعربية. إن الثورة العربية التي بدت الآن في سورية واضحة لم يكن مأتاها هذا فقط. إذ لم يكن التعالي والإحتقار والتفوق والتسامي الذي ذكرناه السبب الوحيد، فقد وجد الى جانبه سبب آخر هو (مجرد الوجود الغربي هناك)، وهو الذي يولد النقمة والمضاضة أيضاً ويجعل التعايش مع مثليه جحيماً وما من سبيل غير محاولة التخلص هذه العقدة، ولا يتم هذا إلا بالاستقلال وإخراج آخر موظف فرنسي من أرض سورية وليكن بعدها ما يكون. الاستقلال التام والسيادة، كانا الهدف السياسي الأول للسوريين العربويين مخضرميهم ومحدثيهم.

وهؤلاء الآخرون الذين جاؤا من باريس متشبعين بالأفكار الإشتراكية التي بلبلتها المفاهيم النازية والفاشية قبيل الحرب وفي أولى مراحلها، عادوا وهم مقتنعون بأن أي حالة تقل عن السيادة المطلقة، ليست سيادة حقيقية. لذلك ففي أثناء بحثهم عن الاستقلال التام، كان سخطهم على الاستعمار الأجنبي يتخذ مظهراً من المصالح الإقتصادية، واستنكار تعاطف الأقليات الطائفية الدينية والعنصرية التي تعلقت بأذيال الأجنبي بدافع الخوف من تسلط الأغلبية ولها فيه تجارب مرة تمتد الى أكثر من إثني عشر قرناً<sup>(١٥)</sup>.

(١٥) المجموع الكلي الرسمي للسكان الذي نشرته الحكومة السورية في يوم لإستقلال ٣١ كانون الاول ١٩٤٣ هو ٢٨٥٠٥٠٠ منه ٤٥٣٠٠٠ مسيحياً من مختلف الطوائف. وفي العام ١٩٦٠ يشير إحصاء الإئتماء =



يأبى الموافقة على قول القائل بأن هذه الوحدة ستتحقق يوماً ما في المستقبل بشكل ما .

إلا أن عالم ما بعد الحرب العظمى الثانية كان يختلف عن عالم ما بعد الحرب الأولى. كان عالماً يختلف عن ذلك الذي نشأت في أجوائه مفاهيم الوحدة وصورت أشكالها، ثم أن الفكرة بحد ذاتها في دمشق إعتراها تغيير ديموغرافي وجغرافي كبير عما كان قد تم لها في مكة ١٩١٥ . والعالم الآن يزخر بالنظريات والعقائد السياسية والتفلسف. والأسلوب القديم الذي كان له المفعول الأكبر في نشوء فكرة الوحدة العربية، كان مصدره التراث وركيزته الكبرى الإسلام، ووحدة الإسلام والمسلمين بضمه. ومع أن القوى الفكرية العلمانية التي سادت عالم ما بعد الحرب زاحمت إلى حد ما النفوذ الظاهر للأفكار الإسلامية والوحدة الإسلامية، إلا أن الإسلام بقي ركيزة هامة للقومية العروبية لا يمكن الاستغناء عنها، بل أض عند بعضهم الركيزة الرئيسة.

مال القادة القوميون إلى أن يبدوا أكثر علمانية واستغراباً واقرب إلى الروح الغربية من مواليهم وأنصارهم ونجحوا في كسب ثقة هؤلاء رغم علمانيتهم أو ربما بسببها، فتوكيدهم على الأهداف القومية أحدث تجاوباً في أناس ظل مرجعهم الإسلام واسلوب تفكيرهم مستمداً من قيم إسلامية أكثر من امترائها من المعين القومي البحت بالمفهوم الحديث. فكثيراً ما كانت الدهشة تعزو زعماء القومية العربية المستغربين عند اكتشافهم المدى الكبير الذي استطاعوا به إطلاق الدعوة الإسلامية عند الجمهور<sup>(١٦)</sup>.

ولقد وجدت من تعاقب الاحداث ما أيد لي أن هؤلاء الزعماء لا يجدون بدأً عند الأزمت أو عندما يضطرون إلى مقارعة خصومهم من الاستنجد بحمية الدين وإثارة الحماسة الإسلامية الكافية في الجمهور وإطلاقها من كل عقال. هذه الوصفة استخدمت بنجاح في وجه القوميون السوريين والشيوعيين واليسار بصورة عامة وبوجه الأقليات الدينية والعنصرية حتى إذا كانت تلك الاقليات مسلمة، لكن كان بعضهم يتهدب (اعلان جهاد) خشية عجز عن السيطرة أو استحالة وقفه عندما يبدء. أي شكل تبناه القوميون في البلاد الناطقة بالعربية، وأي إطار احتوى هذا الشكل. فالمقصود الحقيقي بالأمة العربية أو الشعب العربي كان يخفي تحته ميل بتطبيق عملي أو بدونه، استبعاد لغير المسلمين الذين يتكلمون اللغة العربية كلغة أو ليس بوسعهم الإعتماد عليهم في الانتمائية والصلة بالقومية العربية مهما كانت الأسباب التي

(١٦) ولفرد كانتويل سمث Wilfred Cantwell Smith: أفكار القومية العربية - Arab Nationalism The Ideas of .ism. إيتاكا - أمريكا، جامعة كورنل ١٩٥٦، ص ٨١.

تدفع هؤلاء لاعتبار أنفسهم عرباً. فلا يوثق بهم بعين الوجه الذي يوثق بأولئك الحائزين وثائق خالية من شائبة التزوير، تثبت عضوية وراثية في الإسلام. ولم يكن يدعو إلى العجب قط أن نجد أولئك الزعماء القوميين المحدثين يهتمون كثيراً في إبانة مظاهر التقى والعبادة، للمشاركة في صلاة الجمعة وإعلانهم بصورة ما عن صيامهم في رمضان. وأداء فريضة الحج بشكل يزيد كثيراً عما أقدم عليه القوميون المخضرمون.

عندنا فريقان من هؤلاء: أولئك الذين يعتقدون بإخلاص ويقين بالدين الإسلامي وإنه ضرورة لا تستغني عنها القومية العروبية. وأولئك الذين لا يهتمون بالإسلام إلا بقدر ما يشيعه من حيوية ونشاط في العمل القومي ويجدون وسيلة لا غنى عنها من أجل تأطير برامجهم ومفاهيمهم عند تقديمها للجمهور والتقرب بها على أسس من زيجة القومية العربية بالدين الإسلامي ومحاولة التصنيف للفريقين محال هنا، فالله وحده أعلم بالسرائر.

بعد أن طرد المفكر العربي (ساطع الحصري) من العراق واستقر في سورية وفيها كتب جل مؤلفاته حول القومية، بدا وكأن انقلاباً عظيماً جرى في تفكيره القومي. إذ راح يوجه انتقاداً شديداً للأحزاب القومية العقائدية - وهدفه فيما يظهر حزب البعث العربي الاشتراكي، إلا أنه نادى بصورة خاصة بوجود استبعاد الدين من العمل القومي. فتعرض لقاء ذلك لتقبيح وتجريح من القوميون الإسلاميين وطعنوا في قوميته وهجاه كتابهم وشعراؤهم وأسمعوه هجر القول<sup>(١٧)</sup>.

ويتجلى التذبذب والحيرة والتعبير بله الحراجة حين يحاول أحد أنبياء القومية تفسير علاقتها بالدين، كتب عبدالناصر:

"الدائرة الإسلامية، دائرة إخوان العقيدة ويتجهون معنا إلى قبلة واحدة، وتهمس لهواتهم بنفس الصلوات هي دعوة إلى تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعاً، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم بالطبع. أيمن أن نتجاهل أن هناك عالماً إسلامياً تجمعنا وإياه روابط تقرر بها العقيدة فحسب وإنما تشدها حقائق التاريخ. إن علاقة

(١٧) علق بذاكرتي من الهجاء هذان البيتان:

(ساطع) أظلم لما  
هدم ركن الدين عمداً  
وسيد الأمر إليه  
لعنة الله عليه

يقول الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية، ص ١٥٧: كل من ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية، ومهما كان أصله ونسبه وسواء أكان مسلماً أو مسيحياً أو سواء أكان سنياً أو جعفرياً أو دروزياً وسواء أكان كاثوليكياً أم بروتستانتيّاً فهو من أبناء العروبة.

انظر الى آثارها تنبئك عن أيامها  
هذا التراث يمت مع ظمه الى إسلامها<sup>(١٩)</sup>

محاولات للانتماء العروبي مثل هذه لا تغلح مهما بلغت من سلامة نية وصدق في نقل الأقرباء الفقراء من (المطبخ) الى قاعة الاستقبال. فامتياز الدين باق في الحقل العربي القومي رغم إهداء (ادورد عطية) واعتراف الشاعر القروي.

عند نشوب الحرب العظمى ١٩٣٩ كانت الطبقة المثقفة (الانتلجنسيا) <sup>(٢٠)</sup> في العالم الناطق بالعربية تتداول مفاهيم الاشتراكية المتصارعة والمتناقضة أحياناً، ووجدنا أكثرهم في سورية ولبنان وفلسطين فائضين عن الحاجة وصُدّر معظمهم الى العراق وعادت جموعهم بعد حركة مايس. ارادوا بعد عودتهم أن يلتقوا بالجمهور على أسس تنظيمية سياسية، فلم يلقوا حظاً كبيراً من النجاح. هؤلاء الانتلجنسيا لم يكن لهم جذور شعبية تقربهم الى الجمهور ولا لغة مشتركة بينهم وبين الجماهير، وكان عليهم أن يضربوا على أوتار معارفهم ضرباً شديداً. وأن يدقوا افكارهم في الرؤوس دق المطرقة على المسمار. وبدت الاستجابة من الطلاب وصغار الضباط السوريين أظهر عندما قام المدرسان ميشيل عفلق<sup>(٢١)</sup> وصلاح الدين البيطار خريجا

(١٩) القول والشعر لرشيد سليم الخوري اللبناني ١٨٨٧-١٩٥٥: من شعراء المهجر وهو جزء من مقدمته لديوانه: القرويات، المطبوع ثانية في ١٩٥٣ في ليبيا، (طبعته الاولى في البرازيل) حيث كانت إقامة هذا الشاعر، والأسماء بين القوسين من اضافتنا.

(٢٠) لو فصلت كلمة (الانتلجنسيا intellegence) عن مصدرها الإشتقاقي، فقد كان يمكن استخدامها وصفاً ليشمل فئات اجتماعية واسعة ويغطي مساحة عريضة لا صلة لها مطلقاً بالذكاء والفظنة الشخصية، لكن ساقصر مفهومها على الكتاب والفنانين والمهندسين والأطباء والصحفيين والمحامين والإقتصاديين ومن إليهم. وفي الواقع كل الطبقة المثقفة بقدر ما تم من تخصصهم العام. وفي البلاد الناطقة بالعربية يتكون معظم الانتلجنسيا من أولئك الذين تلقوا علوماً عالية في المعاهد الوطنية والأجنبية والموظفين المتبعين والكثيري السفر والإحتكاك بالغرب وكل من حقق صلة فكرية بالغرب. هؤلاء هم صانعو الآراء ومروجوها، وهم خليط عجيب متنافر ومجموعة واسعة من ذوي التفكير الساذج والتفكير البالغ التعقيد.

(٢١) يهتم كثير من خصوم البعث القوميون العربويين والمسلمين والمنتنعين وأيضاً بعثيو الضفة اليمنى! بالتحري عن أصل ميشيل عفلق العرقي إثباتاً لأصول غير عربية لأسرته متخذين من لقبها دليلاً. فيقولون أن جده قدم سورية من الولاية التي عرفت عند العثمانيين بـ(الافلاق) وهو تصحيف لإسمها السلافي (فلاقيا Valochia)، وكانت قد انسلخت عن الامبراطورية العثمانية في ١٨٥٦ وتأسست منها وياتحادها مع اقليم مولداقيا دولة رومانيا الحالية في العام ١٨٥٨. وما أرى هؤلاء إلا مخطئين، فاسم (عفلق) وهو كلمة رباعية لصفة وإلسم عربي ومعناه في المعاجم المعتمدة، المرأة السيئة الخلق او المنطق او العمل (بإضافة ال التعريف اليه)، وهو ليس بغريب على الأسماع كما يبدو. وقد وجدته عتيقاً دارجاً فابن دانيال، وهو الشيخ شمس الدين ابن عبدالله الموصللي الخزاعي المتوفى في (١٣١١ م = ٧١٠هـ) مبتكر تمثيلات (خيال الظل) أو ما نسميه اليوم بـ(القره قوز) أو الدمى المتحركة، وهو أديب وشاعر ذائع الصيت في =

نحن الشعب المصري، الأمة العربية، العرب، بل الدائرة الإسلامية أو المسلمين أو العالم هي علاقة تاريخية من التعاون والتضامن السياسي وعلاقة أخوة في العقيدة، لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الاصلية.<sup>(١٨)</sup>

ولو ورد هذا في مجرى خطاب، لعزونا التخبط والتناقض الى مقتضى الموقف من إشاعة الحماسة في النفوس بعبارات وشعارات متناثرة لكنها صحّابة رنانة، لكن ها هنا عبارات متنوعة من كتاب دونت أفكاره بعد تأمل وفي حالة صفاء ذهني ليقراها ملايين من الناس، وإليك دليلاً آخر. في العام ١٩٨٩ نشرت صحف بغداد في أواسط حزيران نعي مؤسس حزب البعث ميشيل عفلق مديلاً بتوقيع قيادته القومية والقطرية بهذه الصيغة:

"الى مناضلي الحزب في أنحاء العالم: بمزيد من الأسى والحزن تنعى القيادتان القومية والقطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي فقيد الحزب الرفيق ميشيل عفلق وأميينه العام... وتودان أن تعلننا بأنه كان قد اعتنق الإسلام ديناً ولم يرغب هو ولا رفاقه في القيادة إعلان ذلك، حرصاً منهم ومنه على أن لا يعطى لهذا الخيار أي تأمل سياسي."

وحيث لا يذكر الإسلام بصراحة تذكر رموزه ورجاله الذين وطلدوا حكمه:

"العروبة روح حاتم (الطائي) ومعن (ابن زائدة الشيباني) والسمؤال (ابن عادباء) في كل نبيل عربي، وروح عنتر (ابن شداد) وطرفة (ابن العبد) وأمريء القيس (ابن حجر أكل المار الكندي) والأخطل (غياث التغلبي) والمتنبي (ابو الطيب) في خيال كل شاعر عربي، وروح خالد (ابن الوليد) وأسامة (ابن زيد) وطارق (ابن زياد) وصلاح الدين (ابن ايوب) ويوسف العظمة على سيف كل جندي عربي، وروح علي (ابن ابي طالب) وأبي بكر (الصديق) وعممر (ابن الخطاب) على قلب كل متسلط عربي. والعروبة أن يشعر اللبناني أن له زحلة في الطائف. والعراقي أن له فراتاً في النيل. والعروبة دم زكي يجري في عروق جسد واحد أعضاؤه الأقطار العربية وكل ما يعوق دورة هذا الدم يعرض الجسد كله للأخطار:

عش للعروبة هاتفاً بحياتها ودوامها  
وامدد يمين الحسب يا لبنانها لشامها

(١٨) فلسفة الثورة: بقلم جمال عبدالناصر، القاهرة ١٩٥٣ ط. وزارة الإعلام، ص ٤٤، وما بعدها.

جامعة السوربون بتأسيس منظمة الإحياء العربي وهو خلف لنبته قومية ضعيفة عرفت باسم (حركة العمل القومي) نمت واخرجت شطنها في ظل حكومة فيشي في العام ١٩٣٩.

الى جانب هذه الحركة كانت هناك حلقة قومية أو عصابة أخرى يتزعمها فكرياً مدرس آخر هو زكي الأرسوزي وكان أكبر الاثنین عمراً عُرِفَ بمقدرة على جمع لفييف من التلاميذ حول افكاره، وبدا عازفاً عن المشاركة الطويلة في أي منظمة لا تقرُّ به زعيماً. إلا أن الفريقين رغم نشوئهما منفصلين، كانا قد توصلا الى عين الفكرة التي قام عليها منهاج البعث فيما بعد. ولذلك لم يجد أتباع الأرسوزي أي حرج في الإنضمام الى بعث عفلق والبيطار فيما بعد.

نشط الأرسوزي<sup>(٢٢)</sup> في العام ١٩٣٨ في التآليب على الفرنسيين بسبب نزولهم لتركيا عن لواء الإسكندرون. وترأس (عصبة العمل القومي) بعد أن خسر وظيفته التعليمية في العام ١٩٣٤ وبقي رئيساً لها حتى نشوب الحرب، وكانت تطالب باستقلال سورية وتحظر التعامل مع الفرنسيين بأي شكل. خُلف انحلال عصبة العمل القومي (فراعاً) عروبياً، فحاول هؤلاء الثلاثة مع أنصار قلة ملئهُ لكنهم اختلفوا في أول لقاء بينهم رغم اتفاق الأهداف: "التخلص من الانتداب التام، الأمة العربية امة واحدة والهدف هو وحدتها."

لم يلبث الأرسوزي وانشأ ما دعاه (بالحزب القومي العربي) مؤكداً في كتاباته ضرورة رجوع

= مصر التي رحل من الموصل إليها ومارس فنه فيها - تجده يطلق اسم (الشيخ عفلق) على شخصية في تمثيلية ظل من تأليفه عنوانها الأمير وصال.

(٢٢) ولد الأرسوزي في العام ١٩٥٥ وهو من طائفة النصيرية وقالوا انه ورث العمل السياسي عن والده، الذي كان احد الناشطين في الاحزاب السرية ضد العثمانيين. إلتحق بالسوربون بمنحة دراسية مثل عفلق ونال بها الشهادة، وقد تتلمذ على الفيلسوف الكبير برغسون، واثروا عنه قوله إنه كان من المعجبين بفلسفات نيتشه وفخته وديكارت وكانت، لكنه استقى مفهومه القومي من (فخته). بقي في تنظيم اللجنة التنفيذية لمؤتمر نصره العرب المنعقد في أنطاكية وقد ضم ارمن وكرداً وجراكسة ومسيحيين من مختلف الطوائف فضلاً عن العرب، وكل من عارض في ضم اللواء الى تركيا. وبقي الناطق الرسمي للمؤتمر حتى بعد انحلال عصبة العمل القومي المشار إليها، وترك انطاكية بعد ضم اللواء واستقر في دمشق، وجمع حوله عدداً من مثقفي الشباب القومي (صاروا فيما بعد أعضاء مؤسسين لحزب البعث، منهم جلال السيد وهيب الغانم وجمال الآتاسي أو علي حيدر وسامي الجندي) وهؤلاء لمعت اسمائهم في الأحداث السياسية السورية، وكانت لهم ادوار هامة في تاريخ الحزب. يذكر آخرهم وكان في اول سنة جامعية انهم بلغوا (٢٤) خلال السنتين التاليتين، ثم انخفض العدد الى (٢١) عندما سجن ثلاثة منهم بسبب توزيعهم نشرات. وعلى إثر ذلك حظرت الإقامة على الأرسوزي في دمشق. وفي ١٩٣٩ عاد من العراق بعد سنة من الخدمة التعليمية - ساخطاً لاعتنا حكامه لأنهم (اغتالوا غازي). نزع بعد ذلك الى اللانذقية ثم الى طرطوس وتوقف عن النشاط مدة. وتفرق أتباعه لكنهم بقوا مؤمنين به. وفي اوائل الخمسينات عاد الى مهنة التدريس في دمشق ووصف حين ذاك بذلك المثقف العلوي في العاصمة القريب من تلامذة الجامعة العلويين. وكانت وفاته في العام ١٩٦٩ اي قبل ان يجعل منه المؤسس الحقيقي للبعث بسنة واحدة.

العرب الى الماضي ووجوب النفوذ عميقاً الى قرونه السحيقة ليستوحوا منه، وعلى العمل للتخلص من النفوذ الأجنبي في بلاد العرب، وشدد على أن يكون للعرب زعيم واحد فقط قادر على تحرير طاقات الأمة العربية الحبيسة.

ولم يكن حزب الأرسوزي هذا الذي أبدل اسمه فيما بعد الى اسم (البعث العربي)<sup>(٢٣)</sup> إلا واحداً من المجموعات القومية الكثيرة والحلقات في المدن السورية تراها تخرج فجأة من قدر الفوضى الفكرية الفائر في سورية ليغيب معظمها ولايبقى ويشتد عودها لتترك أثراً باقياً في مسيرة القومية العربية وتاريخ النضال العربي، وتلك هي كتلة عفلق والبيطار.

أكمل هذان دراستهما الجامعية في السوربون أيضاً بمنحة دراسية وانضم أولهما الى حلقات الاشتراكيين والشيوعيين والتقى عند بدء دراسته في ١٩٣٣ بثانيتها وارتبطا بصداقة لم تدم كثيراً، على نحو ما سنرى. وبعد أن أكملتا دراستهما عادا فعُينا معاً في مدرسة التجهيز الثانوية الثانية، واختص عفلق بمادة التاريخ في حين اختص ثانيهما بتدريس مادة الفيزياء والطبيعات. وبدا في كل منهما خيبة ونقمة وعدم رضا بوظيفتهما لأنهما وجداهما لا تناسب درجتهم الجامعية العالية، كانا من الانتلجنسيا الناقمين الذين زخرت بهم سورية وغصت مقاهيها بهم. وبيطء شديد بدءا يكسبان سمعة المفكرين والكتاب السياسيين، لاسيما الأول منهما وكان قد شارك في العام ١٩٣٥ مع الانتلجنسيا اليسارية والأدباء التقدميين في إصدار مجلة (الطليلة) الأدبية الشهيرة، التي انتشرت انتشاراً واسعاً في عدد من الأقطار العربية، لاسيما العراق. ونشر مقالات في صحيفة (الطريق) الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوري وأختها صحيفة (الايام). وربما كان هذا السبب في ما اشيع عنه بأنه انتمى الى الحزب الشيوعي عضواً اثناء وجوده في باريس، على انه وقع اثناء دراسته الجامعية تحت تأثير الماركسية ولازم في سورية الجامعات الماركسية رداً من الزمن.

في غضون عمله جمع حوله عدداً من طلابه وحدد لهم لقاءات في منزله أيام الجمع. يقول أحدهم:

"كان طلابه ومريدوه هؤلاء يرددون افكاره وبعضهم كان يتلوها. ونتغنى بها كالسكارى على اختلاف أدياننا وطوائفنا. حيث لا فرق بيننا ولا يضعفنا أننا قلة وأنا وحدنا. لقد كان تفاؤل أستاذنا يغمرنا وقد اطلقنا عليه اسم محمد ميشيل.

(٢٣) كان ذلك في العام ١٩٤٠. ويتفق هذا التاريخ مع التاريخ الذي اثبته لميلاد حزبه ويعين الاسم (نضال البعث) ج ١ ص ١٨٦ دار الطليعة.

كان عفلق يقول لنا: ليس لنا أن ندعي بأننا افضل من غيرنا، لكننا مختلفون عنهم وهذا الاختلاف هو الذي يجعلنا عرباً ويجعلهم غير عرب." (٢٤)

في ذلك العام ١٩٤٠ نبعت فكرة التأليف بين المجموعات القومية، وظهرها هاتان، في رأس مغترب سوري ثري في البرازيل عائد الى سورية إسمه ميشيل فرمان ينتمي الى الرابطة القلمية، التي كان منها الشاعر رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) وهو قومي المشاعر كما تقدم بيانه وصديق لميشيل هذا. قال انه جاء لإنقاذ سورية من يرثن الاستعمار الفرنسي وأبدى استعداداه لتمويل الحزب العتيد، واقترح على الثلاثة عقد اجتماع بين الكتلتين مع ممثلين آخرين قوميين<sup>(٢٥)</sup>. فحصلت اتصالات وجرى إجتماع لا ثاني له. ومن خلاله تبين لميشيل فرمان والآخرين أن الخلاف لم يكن على المبادئ، بل على من يتأسس التنظيم المنتمى. كان الأرسوزي وعفلق يريدانه كل لنفسه ويأبى احدهما أن يتنازل للآخر عن القيادة أو أن يرضى بالمنزلة الثانية في الزعامة. وافترق الطرفان على غير لقاء. وعاد ميشيل فرمان الى البرازيل يجرّ أذيال الخيبة.

يذكر سامي الجندي<sup>(٢٦)</sup> انه عرض يوماً على الأرسوزي بياناً لعفلق والبيطار وجلال السيد مديلاً بعنوان (البعث العربي). فعلق الأرسوزي عليه بهذا:

"ها قد بدأت دسائس الاستعمار، انه مخطط امبريالي يرمي الى قطع الطريق علينا الى الشعب بحركة تنتحل اسمنا."

لم يكن في البيان طبعاً ما يشير الى ميل نحو الاستعمار أو مهادنة له ولا ما ينم عن قصد الموقعين قطع طريق الأرسوزي وجماعته الى الشعب. إلا أن تهمة (العمالة) للأجنبي ووصمة التقرب من المستعمر هي من التهم الرائجة القريبة التداول التي لا تحتاج الى إثبات من مطلقها يتراعى بها الخصوم القوميون فيما بينهم في ميدان الاعتراك على الزعامة أو كغطاء لعداء ونفور شخصي وهي مضمونة النتائج مثل عصا موسى التي يصيرها أفعى عند الطلب والحاجة. ويذكر الجندي أن صاحبه الأرسوزي:

"بات يشك في كل شيء يصدر عنّ لم يكن له تابعاً."

ان شكوكه هذه ورقة حاله حملاه على ترك العمل القومي نهائياً. لكن بقي الخلاف حتى

يومنا هذا حول الأهمية النسبية لكل من الأرسوزي وعفلق في دفع حركة البعث لتصبح حزباً اطلق عليه اسم البعث العربي. فجماعة الثاني يدعون انهم استوعبوا مع عشرة من أتباع الأول الفكرة الاصلية له عندما انضموا صفقة واحدة الى البعث الثاني. أما خصوم عفلق فيقولون انه لم يأت بأية افكار من عنده بل سرق أفكار الأرسوزي واتباعه. وفي الواقع انهما كانا عيارين من معين واحد. فكلهما من طبقة واحدة وثقافة واحدة وأهداف واحدة. إلا أن الفرق هو ضعف في الاستمرارية عند الأرسوزي الذي توقف مرات عديدة واعتزل الحياة العامة والكتابة في أوائل الاربعينات، في حين كان الآخران ناشطين في إصدار البيانات باسم حركة الإحياء العربي) ويستخدمان تعبير (البعث) في مناسبات معينة.

حركة الإحياء هذه لفتت اليها الأنظار من خلال نشاطها العقيم الفاشل الذي بذلته في تأييد حكومة رشيد عالي ومن ذلك بياناتها الصيبانية التي أثبتنا بعضها - وتنظيمها مظاهرات، وقيام بعض أتباعها بالرحيل الى العراق للمشاركة في قتال الإنكليز برئاسة جمال الأتاسي أحد اعضائها البارزين، في حين رفض الأرسوزي رفضاً قاطعاً تأييد حركة مايس، وربما شعر بالألأ فرصة هناك للكيلاني في النجاح<sup>(٢٧)</sup>. وادعى بعد عدة سنين أن انتهازية عفلق في هذا الحدث التاريخي كان بمثابة دعم للمحور الذي ساند الكيلاني، وهو الذي يدعي بالتقدمية وإن بغضة به تنبعث من هذا السبب بالأصل. وربما كان هذا الإدعاء تبريراً لموقف العداء الشخصي أكثر من كونه شرحاً أيديولوجياً لموقفه. فالواقع هو أن كلاً منهما كان على يقين بأنه القائد المناسب والأصلح لبعث العرب. يقين بدا معه كل محاولة للتقريب بينهما غير مجدية<sup>(٢٨)</sup>.

في ١٩٤٠ أو ١٩٤١ عندما طردت حكومة فيشي من سورية وتولت فرنسا الحرة والحلفاء أمرها. كان كل الكتل والتجمعات السورية الوطنية، بما فيها الحزب القومي السوري، يدعو الى مبادئ قومية وفيها قرر عفلق وصلاح البيطار وجلال السيد تأسيس حزب البعث.

\*\*\*

نشأت حركة البعث في أحضان وضع سياسي عالمي ومحلي خطير لا يمكن المرور به مروراً عابراً أو سطحياً.

(٢٧) سامي الجندي: البعث ص ٣٣ رولو: لغز سورية.

(٢٨) رولو Rouleau: لغز سورية، وجون جي. دلين John J. Delvin: تاريخ حزب البعث من نشأته حتى العام ١٩٦٠ - The Baath Party: A History from its origin to 1960، مطبعة هوفر انستيتيوشن الولايات المتحدة ص ٩٥٩.

(٢٤) ذوقان قرقوط: ميشيل عفلق: الكتابات الأولى ط. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٩٣، ص ٤٠.

(٢٥) منهم شاكر العاصي والياس قندلنت.

(٢٦) سامي الجندي: المرجع السالف: (البعث: ص ٣١).

هؤلاء الثلاثة الكبار، الذين وضعوا الأسس الأيديولوجية للبعث يمكن أن نعددهم من طبقة الانتلجنسيا الفرنسية الجديدة، تلك الطبقة التي اعلنت سخطها العظيم منذ ١٩٣٥ على الحكومات الفرنسية المتعاقبة واحتقارها لها ولجنراتها الجبناء المرتبكين وإشتمزازها من تطاحن الأحزاب السياسية والنظام، وفلسفتها واحدة بعد الأخرى، بشعور من الخيبة المرة في زعمائها وساساتها المتخاذلين<sup>(٢٩)</sup>.

لكن كم كان تأثير هزيمة فرنسا في ١٩٤٠ على الوضع السياسي السوري ومن ثم في إقدام الحركات القومية على الانتظام في أحزاب سياسية؟ الجواب يصطدم بعقبات كثيرة ويتضمن تعقيداً زاد بقيام فرنسا مزدوجة: فرنسا الحرة بزعامة الجنرال ديغول وفرنسا فيشي برئاسة المارشال بيتان. أولهما وصل القتال مع الحلفاء بعناد، وثانيهما وافق على توجيه سياسة فرنسا غير المحتملة بشكل لايتعارض مع سياسة ألمانيا النازية الخارجية منها والعسكرية.

وكانت الادارة الفرنسية في سورية ولبنان، كما هي في شمال افريقيا الى جانب القوات العسكرية الموالية لحكومة فيشي، وكانت في سورية بعثة تنسيق عسكرية ألمانية ويتعاون متبادل نقلت أسلحة فرنسية الى العراق لمساندة حركة مايس كما تقدم بيانه<sup>(٣٠)</sup>.

بعد القضاء على الحركة، وبسبب تطورات الحرب في شمال افريقيا وفي البلقان (استيلاء الألمان على اليونان وجزيرة كريت) وبموقف تركيا الغامض واحتمال الهجوم عليها، ادركت

(٢٩) اثبتنا هذا العام الموافق لدخول الجيش الألماني أراضي حوض الراين الألمانية التي قضت معاهدة فرساي ١٩١٩ على بقائها منزوعة السلاح، وهو أيضاً تاريخ موت عصبة الأمم الأدبي والفعل، بسبب الموقف المشين الذي إتخذته بريطانيا وفرنسا من غزو الطليان الحبشة، والتدخل الألماني - الإيطالي العسكري في الحرب الأهلية الأسبانية. يجمع العسكريون والساسة والمؤرخون الكبار بان أي وقفة عسكرية حازمة من قبل فرنسا كان كفيلاً بتراجع القوات الصغيرة التي أرسلها هتلر الى الراين لكسر بنود المعاهدة. وقد كشفت الوثائق المتحصلة بعد الحرب ان هذه القوات الصغيرة كانت قد تلقت أمراً بالعودة من حيث أتت إن اصطدمت بممانعة من القوات البريطانية والفرنسية، وكان في ذلك القضاء على النفوذ النازي وسقوط هتلر، ولتبدل مسرى التاريخ البشري كله. (انظر مزيداً من التفاصيل في هذا عند أندريه فرنسو يونسبه المندوب السامي السابق في كتابه: The Fateful Year ط. نيويورك ١٩٤٩. وكذلك بيرتينكس Pertinax: حفارو قبر فرنسا The Grave diggers of France نيويورك ١٩٤٤.

(٣٠) من الطريف الذي يذكر بهذه المناسبة أنه في حزيران ١٩٤١ عندما أعلن ديغول في لندن عن تشكيل لجنة فرنسا الحرة برئاسته لمواصلة الحرب مع الحلفاء، كان جنراً صغيراً برتبة عميد غير معروف مطلقاً ووزير ضئيل المركز في آخر وزارة فرنسية. قال جرچل للجنرال سبيرس وهو قلق: "ديغول غير معروف في المحافل الدولية عليك ان تجعله معروفاً". فطلب سبيرس مصاريف قدرها بالف باون. فأرسل هذا مصوراً لإلتقاط صور للجنرال، وبان الغضب على ديغول عند مقابلته وقال لزملائه بشيء من الإنفعال: يريدون ان يعرضوني مثلما يعرضون ماركة صابون جديدة. إلا أنه وافق أخيراً على الحملة الدعائية. [ديغول بقلم نيكولاي مولكانوف De Gaulle: Nicolai Molchonov الطبعة الإنكليزية - موسكو ١٨٥٠ - ص ١٢٨].

القيادة العليا الإمبراطورية في لندن بإلتفاق مع الجنرال ديغول على وجوب انتزاع سورية ولبنان من قبضة حكومة فيشي. وكان الحلفاء قد ضربوا حصاراً اقتصادياً عليهما.

إتصل الجنرال (كاترو) ممثل فرنسا الحرة بالأدميرال (دانترز) المندوب السامي التابع لحكومة فيشي حاثاً إياه على تسليم سورية ولبنان. ومما أدى به توسلاً لاقتناعه قوله:

"معاهدة جديدة مع السوريين ضماناً لحقوق الفرنسيين في حالتي السلم والحرب وسيتم رفع الحصار الإقتصادي وتبقي على النعمة المضاعفة التي يكنها السوريون للفرنسيين جراء ذلك. وسيؤدي فضلاً عن ذلك الى تصفية الخطر الداخلي المتمثل في الحركات القومية العروبية التي ارتقت في احضان النازية، ولأن سورية ستكون اذذاك ضمن إطار المجال الامريكى - البريطاني الذي سيربح الحرب."

لم تحرز المفاوضات أي تقدم وزاد الحلفاء قلقاً وشعروا بضرورة القيام بعمل سريع. كانت الانتصارات الألمانية قد سلبت لب القوميين في سورية وامتلات أعمدة الصحف بأنباء انتصاراتهم. وجرت لقاءات عدة بين زعماء سوريين وطلاب وصحفيين مع البعثة العسكرية الألمانية التي أرسلت الى دمشق برئاسة ثرنر فون هنتگ Werner Von Hentig.

يضيف كاترو:

"ونظراً لتعقيدات الشرق الأدنى، انتلقت بالطائرة حاملاً أفكاراً بسيطة. كان ديغول يريد زيادة حجم قواته بضم القوات الفرنسية المرابطة في سورية. وفي الثاني من شباط هبطت الطائرات الألمانية في مطاري حلب ودمشق. كان كاترو يخشى أن يقاتل الفرنسيون الفرنسيين ووقع فعلاً. ففي ٨ من حزيران ١٩٤١ شنت قواته والقوات البريطانية الهجوم."<sup>(٣١)</sup>

في ٢٠ من آذار كتب ديغول لكاترو من القاهرة:

(٣١) هذه وما بعدها، أنظر: جنرال جورج كاترو Gen. George Catroux: في معركة البحر المتوسط - الساحل السوري - شمال افريقيا Dans la Bataille de Mediterranee ١٩٤٠-١٩٤٤ ط. باريس ١٩٤٩ يذكر في الص ٣٤-٣٦: ان إجتماعاً جرى بينه وبين الجنرال ويقل قائد قوات الحلفاء العام والسفير البريطاني سر مايلز لاميسون يحث فيه على مسألة الإتصال بالزعماء القوميين السوريين الموجودين في العراق، لكن عدل عن ذلك. "لأن اية محاولة للتفاوض معهم قد تثير مشاكل مع السلطات الفرنسية في سورية، كما سيكون ذلك عامل ازعاج للقوميين الآخرين الموجودين فيها، وكذلك سيسيء الى المفاوضات السرية الجارية حينذاك بين الجنرال (فيثيان) ممثل حكومة فيشي في افريقيا الشمالية وبين الحلفاء."

"علينا أن نندفع نحو دمشق ولو بفوج واحد محمول باللوريات فالتأثير السيكولوجي سيتكفل بالباقي".

كان يدري جيداً أن القيادة البريطانية لن تقف مكتوفة اليدين أمام هزيمة تحيق بهذه القوة الفرنسية الصغيرة وأنها ستخف للمساندة فوراً. وهذا افضل جداً من أن تكون المبادرة بيد البريطانيين.

واراد ديغول فضلاً عن هذا الإعلان عن رغبة فرنسا في إنهاء الانتداب. كان ثمة منافسة قوية بين الحليفين حول الاستباق الى دمشق. تعيد الى الذهن منافسة العام ١٩١٨ وقد تقدم بسطها في فصل سابق. ويذكر جون باجت غلوب (كلوب باشا) قائد الفيلق العربي الذي زحف على بغداد من الأردن في آيار ١٩٤١:

"في الخامس من شهر شباط ١٩٤١ وصلتنا تعليمات سرية من قيادة الإمبراطورية في لندن تحثنا فيها على الإتصال بالأهالي في سورية لإيجاد قواعد مقاومة ضد النفوذ النازي والفاشستي، وأن اموالاً وضعت بتصرفنا لهذا الغرض. وتم الإتفاق على أن اقوم انا بالإتصال بالقبائل السورية وان يقوم كيرك المندوب السامي في الأردن بالإتصال بزعماء الدروز." (٣٢)

ولم يفصل غلوب في الأمر، إلا أنه لم يحقق لا هو ولا غيره أي إتصال بالقوميين في سورية، أو بوجود الأسر العريقة في كل من حماه وحلب وحمص ودمشق، وكان هؤلاء في خصام دائم مع المندوب السامي الفرنسي الأيرال (دانتر).

ويستخلص من الوثائق الألمانية المضبوطة بعد الحرب (٣٣) أن المهمة التي اوكلت لفون هنتگ كانت شبيهة الى حد كبير بتلك المهمة السوداء التي اوكلت للدكتور فريتز غرويه في العراق: أعني الإتصال بالزعماء والقادة السياسيين العربيين خصوصاً، وان يروج لهم فكرة إمبراطورية عربية - إسلامية تحت رعاية المحور، ويؤجج نار العداء لبريطانيا عن طريق الضرب على الوتر الفلسطيني بإثارة مخاوفهم من قيام الإنكليز في حالة سيطرتهم على سورية، باقتطاع جزء كبير من شمالها وإهدائه لتركيا تحقيقاً لوعده صدر لها سابقاً على سبيل

(٣٢) جون باجت غلوب (John Bagot): قصة الفرقة العربية The Story of the Arab Legion، لندن ١٩٤٨، ص ٣٠٧.

(٣٣) المرجع السالف: الوثائق الألمانية، المجلد الحادي عشر. كذلك راجع مذكرات الحرب "نداء الشرف" بقلم الجنرال ديغول.

الترضية وضماناً لحياها، أو دخولها الحرب الى جانب الحلفاء.

لكن الوقت لم يتسع لفون هنتگ كما اتسع لغرويه، ومع هذا فقد أصاب خلال الفترة القصيرة التي قضاها نجاحاً لم تغفل عنه الوثائق. ترك فون هنتگ دمشق بعد اسبوعين من عمل دؤوب شاق. ويستفاد من تقريره الذي رفعه الى وزارة الخارجية. انه أوصى بضرورة تشكيل بعثة ألمانية وإرسالها فوراً لتعمل الى جانب لجنة الهدنة الإيطالية التي لا تتمتع بأي احترام ولا شعبية، بل هي موضع احتقار من السوريين وتعيش في عزلة تامة.

تفجرت المظاهرات في دمشق يوم ١٧ شباط وعزيت الى زيادة أسعار الخبز الذي أمرت به الادارة الفرنسية بسبب الحصار الإقتصادي. وانقلبت الى عصيان سياسي عام دعا اليه القوميون القدماء بزعامة شكري القوتلي واتسع ليشمل لبنان. وفي ١١ من آذار تقدم وفد من الزعماء القوميين في دمشق بمطالب تضمنت إعادة الحكم بالدستور والحياة النيابية، التي كانت قد علقت. ففي تموز ١٩٣٩ وضع المعاهدة - السورية الفرنسية للعام ١٩٣٦ قيد التنفيذ.

وقد اشار (دانتر) في تقاريره الى اليد الألمانية في تأجيج النار:

"ان الوكلاء الألمان هم المسؤولون عن إثارة هذه الإضطرابات. لقد اصبح للدعاية الألمانية تأثير عميق، وهم يتلقون إسناداً من حكومة رشيد عالي في العراق ومن الطليان." (٣٤)

في الأول من نيسان ألقى دانتر خطاباً من راديو بيروت أعلن فيه اعتزامه تشكيل حكومة سورية. وبعد ذلك بأسبوع واحد استدعى خالد العظم وكلفه بتأليف وزارة، ففعل. ولم يكن فيها ممثل واحد عن جبهة شكري القوتلي الوطنية. كما تم تشكيل حكومة ماثلة في لبنان برئاسة (إميل ادّه).

(٣٤) اوراق سياسية، العلاقات الخارجية للولايات المتحدة (B) ١٩٤٠ رقم (٣ و٢) ١٩٤١. علق القنصل العام الامريكي في بيروت كورنيليوس فان انكرت على هذا القول: ان المندوب السامي الفرنسي صرح له اثناء حديثه معه بأن الإضراب العام والمظاهرات التي حصلت في شباط - آذار، كان الألمان وراعا. ويبيدي (فان انكرت) دهشته من هذا الزعم، فيقول: اني متأكد بان (دانتر) كان قبل بضعة اسابيع يتهم البريطانيين بإثارة القلاقل ولم يذكر الألمان مطلقاً. لكن القنصل يذكر في عين الوقت بأن القنصل العراقي العام في دمشق كان يتفاخر علانية بقوله ان القوميون في سورية هم حلفاء العراق ويزهو معلناً إنه الوجه السياسي لنشاطهم وإن ما يحصل في بغداد (ويقصد إنقلاب نيسان العسكري وما جرى بعده) إنما هو جزء من الخطة المنفذة في سورية. أه.

الصدف الغربية تقول احياناً كلمة حاسمة في التاريخ، لم يخطر ببال الحلفاء مثلاً أن هتلر أصدر قراراً نهائياً في التهينة للهجوم على الإتحاد السوفياتي وانه حدد له يوم ١٥ من أيار محسداً كل قواته. لم يكن هذا التحشد خافياً لكنهم ظنوا أن هدفه هو الهجوم على الشرق الأوسط عبر تركيا ومصر. ولولا هذا الظن لبقيت سورية في قبضة حكومة فيشي.

في ٩ من ايار وصل رودلف ران Rudolff Rahn المبعوث الخاص لوزارة الخارجية الألمانية للإشراف على إرسال المعدات الحربية الى العراق. وفي ١٣ من ايار وصله أول قطار محمل بالأسلحة الفرنسية. فأمرت القوة الجوية البريطانية بقصف السكك الحديدية في الموصل لعرقلة وصول الاسلحة الى بغداد، فسقطت القنابل على مرادي المقاهي القريبة وازهقت أرواحاً بريئة عديدة على نحو ما ذكرناه. وفي التاسع من حزيران شرعت قوات فرنسا الحرة تساندها قوات بريطانية في الهجوم لانتزاع سورية وادرك ديغول أن بريطانيا لن تضيع فرصة الظهور بمظهر المدافع عن الحق العربي في الاستقلال بمنح سورية ولبنان استقلالهما. فاعتزم الإعلان عن تصميم فرنسا في إلغاء الانتداب على القطرين. وكما توقع فقد طلب البريطانيون أن يصدر التصريح عن البلدين أو على الأقل أن يبدوا فيه ضمانين للعهد الفرنسي، لكن ديغول تجاهل الاقتراح ورفض الصيغتين ونشر تصريحه الخاص (٣٥).

(٣٥) في الثامن من شهر حزيران ١٩٤١ ووقت ان اندفعت القوات الفرنسية الحرة بإسناد القوات الاسترالية والبريطانية نحو سورية، أعلن الجنرال (كاترو) توليه سلطات ومسؤوليات المندوب السامي الفرنسي المغادر سورية، ونشر بياناً أشبه ببيان الجنرال مود عند دخوله بغداد في ١٩١٧، قال فيه: «جنّت بهذه الصفة (صفة المندوب السامي) لأضع نهاية للإنتداب ولكي أعلنكم شعباً حراً مستقلاً، وستكونون من الآن ذوي سيادة وإستقلال في دولة متحدة او عدة دول منفصلة، وفي كلتا الحالتين سيكون إستقلالكم وسيادتكم مصونين بمعاهدة تحدد حقوقنا المتقابلة... وعندئذ سيعلم شعبا سورية ولبنان بأن قوات الحلفاء انما جاءت لتأكيد حريتهما لا لمصادرتها، ان هدف قواتنا هو مطاردة هتلر في سورية لئلا يكون (ليفانت) قاعدة لهجمات العدو علينا وعلى بريطانيا».

وفي بيانه الخاص المؤرخ في ٢٨ من ايلول الخاص بالأقليات قال: «تعتبر فرنسا الحرة ان دولة سورية تؤلف سياسياً وحدودياً وحدة غير قابلة للتجزئة، وحدة يجب الإبقاء عليها والحيولة دون أي تجزئة فيها. وبناء على هذا فانها ستنتظر بعين العطف الى كل ما من شأنه ان يؤدي الى تقوية الروابط السياسية والثقافية والاقتصادية بين مختلف اجزاء سورية، ولهذه الغاية يتجه المفاوض السامي المطلق الصلاحية لفرنسا الحرة في تعديل النصوص التي تحدد الشخصية القانونية الخاصة الممنوحة سابقاً لأقاليم معينة بشكل تكون معه خاضعة سياسياً للسلطة المركزية السورية. وسيبقى الاستقلال الاداري والمالي الذاتي قائماً إذا ظهر أنها شديدة الإرتباط به. وعلى هذا الأساس سيتم التوفيق بين مبدء الوحدة السورية وبين المصالح الخاصة لهذه الاقليات والطوائف التي تنص عليها القوانين الدستورية بخصوص الأفراد والطوائف سيبقى معمولاً بها تماماً كالسابق.» [نقل عن الجريدة الرسمية لفرنسا الحرة Journal Officiel de la France السنة الاولى ١٣ في ٩ كانون الاول ١٩٤١].

وبعد قتال عنيف تكبدت فيه قوات فرنسا الحرة خسائر جسيمة طلب (دانترز) وقف إطلاق النار. ودخل البريطانيون في مفاوضات معه متجاهلين ديغول. وفي الرابع عشر من تموز، وهو العيد الوطني الفرنسي تم التوقيع على شروط هدنة وجرى بمقتضاها تسليم السلطة الى البريطانيين، ولم يرد فيها ذكر لفرنسا الحرة. وتعهد البريطانيون بالألا يتدخلوا في مسألة إخلاء قوات فيشي من القطرين.

وعندها عصف الغضب بديغول وأعلم البريطانيين بشكل صريح حاسم أنه لايعترف بهدنتهم المعقودة (عُرفت بهدنة سانت جان دارك) وانه أمر الجنرال (كاترو) بممارسة السلطة في سورية ولبنان وانتزاعها بالقوة عند اللزوم ومواجهة اية مقاومة من اية جهة كانت، واعلن قائلاً أن قوات فرنسا الحرة المسلحة لم تعد بعد الآن تتلقى أي اوامر من القيادة البريطانية وهو على استعداد لخوض معركة مع البريطانيين في سبيل المحافظة على الممتلكات الفرنسية الشرعية! فما أشبه الليلة بالبارحة.

اضطرت بريطانيا الى القيام بتنازل مزيف وقامت بعقد إتفاق اضافي مع ممثلي ديغول ملحق بإتفاقية الهدنة نزل فيه البريطانيون رسمياً عن السلطة في القطرين لفرنسا الحرة. فتوجه ديغول الى بيروت ودمشق ودخلهما بكل المظاهر الفخمة التي أعدها اتباعه وجلس مع سراة القوم وأعلامهم وجلّهم من الحرس القومي العروبي القديم ليضع معهم خطط المستقبل.

لكن البريطانيون لم يعبأوا باتفاقهم الجانبي وراحوا يتصرفون وكأن لا وجود له. ولم يعطوا ديغول ولا المثلية فرصة كافية للإتصال بالقوات الفرنسية قبل نزوحها لضمهم الى صفوفهم. وأسرعوا بنشر قواتهم في القطرين وشرعوا يتصلون بالعناصر القومية العروبية مشيرين في أنفسهم العداء القديم للاستعمار الفرنسي والتحكم الفرنسي والقسوة الفرنسية، وأنزلت الاعلام الفرنسية ورفعت الاعلام البريطانية في مكانها.

عند ذلك اصدر ديغول أمراً قاطعاً لقواته القليلة بالدفاع عن (الحق الفرنسي) كما وصفه بقوة السلاح. وساد الذعر أصحابه المقربين وبدا الخطر حقيقياً في انفصام الحلف مع البريطانيين ووقوع اشتباك مسلح. كتب ديغول شارحاً موقفه:

"ان عظمتنا وقوتنا تكمنان في تمسكنا الصلب بحقوق فرنسا فحسب. وسنكون بحاجة الى مثل هذه الصلابة حتى وصولنا الى ضفاف الراين." (٣٦)

لم يفهم جماعة ديغول أن الموقف الذي آثره قائدهم كان محصناً مدروساً بدقة. فقد وضع

(٣٦) ديغول: المرجع السالف: المذكرات Memories ج ٢ ث ١٩٣.

في الحساب أن چرچل الغارق حتى اذنيه في مشاكل الحرب والذي يجابه المحور وحيداً آنذاك لن يغامر بأي ما من شأنه أن يزيد في مشاكله، لاسيما بعد بذله المجهود العظيم وصرفه الأموال الطائلة في سبيل إنشاء فرنسا الحرة. فلم يكن لديه من سبيل إلا أن يحني رأسه لمطلب ديگول. حتى انه سمح له أولاً بالقيام بالإتصال بقوات حكومة فيشي قبل رحيلها لإقناعها بالإنضمام الى قواته<sup>(٣٧)</sup>.

كان ديگول يدرك أن البريطانيين سيستغلون عداء القوميين العرب لفرنسا في سورية ويستخدمونه لنسف أي جسر يمكن إقامته معهم. ففي مذكراته، التي رجعنا إليها كثيراً هنا، نعثر على نص برقية أرسلها من بيروت الى اللجنة العليا لفرنسا الحرة بمقرها في لندن مؤرخة في الأول من شهر تموز ١٩٤١. وهذه هي: "من المحتمل أن تبدو مقاومة لسلطة فرنسا الحرة في الأقطار المنتدبة ومصدرها بعض المتعاطفين مع العرب المرتبطين بقيادة الشرق الأوسط والسفارة البريطانية في القاهرة ودائرة المندوب السامي في فلسطين، هؤلاء الناس تأمروا دائماً ضد فرنسا في الأقطار العربية، وهم على ما يبدو مصرون على الاستمرار في تأمرهم."<sup>(٣٨)</sup>

من الواضح جداً أن سياسة چرچل في ذلك الحين وبعد قمع حركة رشيد عالي ورغبتة في محو الأثر السلي الذي خلفته العملية في نفوس القوميين العربيين وازاء التهديد بالغزو الألماني لمصر<sup>(٣٩)</sup> أنه كان يريد التقرب من البلاد الناطقة بالعربية ولو على حساب حليفه. فكانت مشادة عنيفة بين الزعيمين<sup>(٤٠)</sup>.

(٣٧) تمكن من أن يضم الى قواته ٦٠٠٠ جندي و ١٢٧ ضابطاً فرنسياً من أصل جيش يزيد تعداده على ٣٠٠٠٠ رحلت بقيته الى فرنسا.

(٣٨) المذكرات: المرجع السالف، ص٤٣٢: ونجد في الصحيفة التي سبقتها برقية أخرى من ديگول لچرچل مؤرخة في ٢٨ من حزيران هذا نصها: «ان الإسلوب الذي تتبعه السياسة البريطانية بخصوص سورية سيكون تجربة على غاية من الأهمية... لو بدا من تحركنا المشترك في سورية ولبنان ما يشير الى التقليل من قيمة موقع فرنسا وإبراز الدور البريطاني فحسب ارضاءً لفيشي وبرلين وروما، فانا واثق بأن ذلك سيكون له تأثير مأساوي على الرأي العام في بلادي».

(٣٩) بلغت قوات المحور في ذلك الوقت مسافة مائة وخمسين كيلومتراً من ميناء الاسكندرية اثناء اندفاع المارشال رومل داخل الحدود المصرية.

(٤٠) في ٢٩ من أيلول وعلى إثر الإجراءات التي تمت في ليقانث (سورية ولبنان) جرى في داوننگ ستريت رقم ١٠ (مقر رئيس الحكومة البريطانية) لقاء عاصف بين الرجلين. كان چرچل شديد الحنق على موقف ديگول الصلب هناك وفي مدغشقر أيضاً الراض للمشاركة البريطانية: (صرخ به تشرتشل - تدعي انك فرنسا؟ أنت لست فرنسا. انا لأعترف بك باعتبارك فرنسا. ومضى يتساءل بحدة: فرنسا؟ أين هي فرنسا الان؟ أنا طبعاً لأنكر بانك وأتباعك عناصر هامة شريفة من الشعب الفرنسي، لكن هناك بالتأكيد سلطة اخرى غيرك يمكن إيجادها ولها أيضاً قيمتها". فقاطعه ديغول قائلاً بهدوء تام: "إن لم أكن في عينك ممثلاً لفرنسا، فماذا وبأي حق تتعامل معي على مصالحها الدولية؟ فسكت تشرتشل ولم ينطق بحرف بعدها).

في العام ١٩٤٢ واستباقاً لمساعي بريطانيا المحمومة في تأليبها القوميين العربيين ومساعدتها وتشجيعها المكشوف لهم، أعلن ديگول وضع التعهد باستقلال سورية ولبنان موضع تنفيذ وعدم تأخير ممارستهما السيادة والحياة الدستورية. وطبقاً لهذا تألفت في القطرين حكومتان حددت مهماتهما بإجراء انتخابات عامة وتشكيل مجلس نواب والعودة الى العمل بالدستور. إلا أن بريطانيا سارعت بإصدار تصريح (مصادقة) على الخطوات الفرنسية وضمانة على إيفاء فرنسا الحرة بتعهداتها. تلك كانت السياسة التي أمر الجنرال إدورد سبيرس الممثل البريطاني في ليقانث بتطبيقها في العام ١٩٤٢.

في لبنان كانت هناك مشكلة (المسلم العربي القومي) و(المسيحي اللبناني) وبينهما القوى التي تحاول التوفيق بين الفكرتين. تلك هي القوى السياسية العقائدية والقوى الديمقراطية والقوى القومية السورية والقوى الإشتراكية، وكلها كانت تنمو بإطراد منذ العام ١٩٣٥ حتى ١٩٤٣. زاد الشعور بخطرها وقوة تأثيرها في المجرى السياسي المحلي، فقد كانت تدعو فضلاً عن التخلص من الحكم الأجنبي الى نظام ديمقراطي وتطور العلاقات الإجتماعية والإقتصادية. وبعضها كان يدعو الى وحدة سورية الكبرى (سورية الجغرافية).

كان الحزب القومي السوري الذي ضم عدداً كبيراً من المثقفين من مختلف الطوائف والأديان والقوميات يرى في تبني العقيدة القومية السورية سبيل الخلاص الوحيدة من شبك الطائفية وأحاييلها. وفيه يكمن الحل لمشكلة الاستقلال الحقيقي.

وركز الحزب الشيوعي السوري - اللبناني (وقتذاك وقبل انشعابهما) نشاطه في تجنيد النقابات وخلق وعي جماهيري من أجل ضمان الحقوق الإجتماعية موجهاً اياه بالطبع الى معارضة الانتداب كتحصيل حاصل، ولم يهتم أو يرصد جانباً من جهوده للعمل في سبيل وحدة القطرين معتبراً ذلك أمراً مفروغاً منه وسيتم تلقائياً بعد إلغاء الانتداب.

اما حزب الاستقلال الجمهوري الذي تأسس في ١٩٣٥ رافضاً في منهاجه الطائفية السياسية بصراحة فقد دعا الى الديمقراطية وعلمنة الدولة والتقدمية.

وتألف أيضاً (حزب الميثاق الوطني) من الشخصيات الفكرية والسياسية المسيحية والدرزية، وربما في بيانه الأول إلى المطالبة باستقلال لبنان بحدوده الحالية التي رسمها الانتداب مع اقامة علاقات وروابط أخوية بالبلاد الناطقة بالعربية واعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة. والى المساواة بين جميع اللبنانيين.

وفي العام ١٩٤٣ تألف حزب الكتائب اللبنانية (الفالانج) برئاسة پيير الجميل بطابعه



المسيحي الماروني الغلّاب، بهدف الدفاع عن الكيان الوطني اللبناني أو ما سماه القومية اللبنانية في وجه المطالب السورية والأيدولوجية القومية العربية والقومية الثورية مجاهداً في ضم المسيحيين كافة في كتلة سياسية ذات طابع عسكري كما ينم عليه اسم الحزب. ورغم تعصب الحزب الذي كان رد فعل للتعصب القومي العربي ذي الطابع الإسلامي، إلا أنه كان منفتحاً على العالم الناطق بالعربية تميز بالحرص على اللغة العربية وآدابها وتراثها. وكان هناك أيضاً حزب النجادة وهو مسيحي القوام.

وبقيت مطالبة الأحزاب القومية والمسلمين في لبنان مركزة حول هدف الوحدة مع سورية، ولم يصدر من أي كتلة (باستثناء البعث والحزب القومي العربي) أو حزب منها خلال هذه الفترة أي دعوة حول وحدة الأقطار العربية، ولم تعلن في مناهجها عن أية فلسفة عقائدية معينة خلا الحزب الشيوعي. والكل كان أفق نشاطه ينتهي بحدود لبنان. معظم هذه الأحزاب كان أشبه بتكتلات لا قاعدة شعبية لها بله مجموعات أشخاص بارزين عقلياً أو سياسياً أو اجتماعياً تعبر عن وجهة نظر طائفة أو فريق عنصر معين أو مصالح فئة من فئات مجتمعاتهم الخالصة. والتعلق بأذيال فرنسا في لبنان لم يكن غير صدى بعيد للإضطهاد النسبي الذي عاناه المسيحيون عبر تاريخهم الطويل من حكام مسلمين أغراب انتهى الى مذابح العام ١٨٦٠<sup>(٤١)</sup> وما تم على إثره من تغيير سياسي في بنية هذا المجتمع.

(٤١) يشطُّ بنا الحديث في هذا عن موضوعنا، والمناسبة ليست في تحري الأسباب والدوافع التي حدث بالدروز الى مهاجمة المارونيين، وأعمال التقتيل التي قيل أنها كلفت هؤلاء زهاء عشرة آلاف من الضحايا وادت الى تشريد اكثر من مائة ألف منهم، لكن ما يتعلق بالموضوع هنا هو أن ضجة عارمة اكتسحت أوروبا ولاسيما في فرنسا التي إنتهزت فرصتها فأنزلت في شهر آب ١٨٦٠ قواتها في بيروت. ولم يكن ليسع لدول الأخرى ان تترك لفرنسا تسوية الأمور وحدها وبادرت بريطانيا وروسيا والنمسا وپروسيا فضلاً عن فرنسا بإرسال لجنة دولية الى إستنبول. واتفق على تأسيس لجنة من مندوبي هذه الدول برئاسة وزير الخارجية العثماني، تم الإتفاق بنتيجتها على ان يحكم جبل لبنان وفق ما سموه: (Reglement Or-ganique) الدول الموقعة الست (أضيفت إليها إيطاليا في ١٨٦٧ وجرى تعديل فيه في العام ١٨٦٤). بقي معمولاً به حتى ألغاه العثمانيون في العام ١٩١٥ إثر دخولهم الحرب. ولقد نجح هذا النظام خلال نصف القرن من عمره ونعمت في ظله الطوائف المسيحية ولاسيما الطائفة المارونية برخاء وأمن وطمانينة وتقدمت لبنان بفضلها تقدماً حضارياً مدهشاً ميزها عن سائر البلاد الناطقة بالعربية الأخرى. خلق هذا التنظيم من جبل لبنان إقليماً ذا حكم ذاتي عرف باسم (متصرفية جبل لبنان الممتازة) وبمقتضاه تقوم الحكومة العثمانية بعد المشاورة مع الدول الضامنة بتعيين (متصرف) له مسيحي عثماني غير لبناني، يساعده في الإدارة مجلس يتألف من إثني عشر عضواً لكل من المارونيين والدروز والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك والشيعية والسنية عضوان (بموجب تعديل العام ١٨٦٤ زيد عدد الأعضاء المارونيين الى اربعة والدروزيين الى ثلاثة في حين قلص الروم الكاثوليك والشيعية والسنية الى عضو واحد). ويتم اختيار =

للمارونيين والمسيحيين عامة تعتبر فترة حكم الأمير بشير الشهابي (١٧٨٨-١٨٤٠) عصاراً ذهبياً اقتعدوه خلال السنوات العشرين التالية وبدا التطلع الى فرنسا حاميتهم فيما سلف - وبعد أن بات الاستقلال حقيقة واقعة وكأنه شعور عفوي بضرورة الحماية في محيط إسلامي يكتنفهم. كان من شروط الانتداب الفرنسي على لبنان كما هو في سورية، أن يصاغ دستور للبلاد خلال ٣ سنوات. وجرى في العام ١٩٢٢ انتخاب مجلس تمثيلي مالمثل المندوب السامي للبنان وسورية أن حوِّله في العام ١٩٢٥ الى مجلس تأسيس مهمته وضع الدستور، على غرار التنظيمات الدستورية Reglement Organique العثمانية ويخطوطها الرئيسية فتم ذلك<sup>(٤٢)</sup>.

= اعضاء مجلس الادارة من قبل رؤساء كل طائفة بعد التشاور مع وجهائها ثم يصدر المتصرف امراً بتعيينهم. وقُسم لبنان الى ست قائمات لكل واحدة مجلس إدارة يتألف من ثلاثة أعضاء حتى سنة. وقُسمت القائمات الى نواح، والمستوطنات الى مشيخات يرأس كل مستوطنة شيخ من اهله وطائفتها. واتخذ الجهاز القضائي عين المبدأ وكانت هذه التنظيمات الدستورية في غاية الدقة بحيث اشترطت ان يكون لليهود والبروتستانت مثلاً مقعد في المحاكم عندما يكون أحد الاطراف المتقاضية منسوباً الى احدى هاتين الطائفتين. ان الأحوال السيئة التي عاشتها البلاد الناطقة بالعربية في ظل الحكم العثماني خلال هذه الفترة بصورة خاصة ترغمتنا على القول ان جبل لبنان نجح نجاحاً منقطع النظير في ممارسة هذا النوع من الحكم.

(٤٢) تنتسب الطائفة المارونية الى القديس مارون (ت حوالي ٤١٠) وهو راهب ناسك من رهبان دير في شمال سورية. وهذه الطائفة الآن هي الوحيدة بين مسيحيي الشرق الاوسط التي تتمتع بما يشبه الوحدة الإقليمية الجغرافية والتكتل المذهبي - السياسي مثلما كان الآشوريون اتباع كنيسة الشرق يتمتعون به قبل الحرب العامة. اصول المارونية يحف بها الغموض، إلا ان مؤرخين لها يعزونها الى المونوليثية (اي اصحاب المشيئة الواحدة) وهي بدعة ظهرت في القرن السابع، وهو ما ينكره المارونيون اليوم بشدة. كانت أول طائفة في الشرق تعتنق الكاثوليكية المارونية في العالم وتتعترف بسلطة البابا الروحية مقيمة في عين الوقت على طقوسها الكنسية ولغتها السريانية اللبتيورجية من دون تغيير. واثبت صحة مذهبهم مجمع فلورنسا الديني المنعقد في ١٥٨٤ ومنذ ذلك الحين لم تشب عقيدتهم الكاثوليكية شائبة، حتى إن البابا ليون العاشر بعث لهم بأول بطاركتهم (شمعون الحديثي) معززاً ببراءة تشيد بتمسكهم بالديانة والعقيدة الحق وسط الكفار ومعائل الزبغ مثل أزهار بين الأشواك. وحافظت على تماسكها وصمودها بوجه الحكام المسلمين، مثلما بقيت أمينة على تقاليدها وإستقلاليتها قرونأ عديدة برعاية وسلطة بطريركها الأنطاكي، الذي استقر في (قنوبين) بأعلى موضع من جبال لبنان قرب قرية (بشري). وقاوتوا وقاوموا كل محاولة لإخضاعهم، وتسنى لهم في فترة حكم الأمراء المعنيين ثم الشهابيين في أوائل القرن السابع عشر وما بعده مد مستوطناتهم الى الجنوب. وبلغت قوتهم السياسية حداً وجد الأمير بشير الشهابي القرشي أن من المناسب التحول الى الدين المسيحي. فأصبح مارونياً هو وجزء كبير من افراد أسرته. وفي منتصف القرن التاسع عشر كان المارونيون مستقرين في سلسلة متصلة من القرى والبلدات والمجمعات السكنية، إعتباراً من أبعد نقطة في الشمال (اهدن وبشري) وحكار وجزء من بيروت حتى (جزين) فضلاً عن قلب جبل لبنان، كما كانت لديهم مستوطنات متفرقة بين الدروز والسنية والشيعية والطوائف المسيحية الأخرى وتواجدوا في سورية أيضاً. ليس هناك احصاء رسمي بعدد المارونيين، وقد عثرت على احصاء يعود الى =

وتمثل هذا بتكتل مسيحي حول رئيس الجمهورية الماروني (اميل اده) وألف أنصاره على غرار سورية ما عرف (بالكتلة الوطنية) لتواجه تكتلاً آخر تزعمه الشيخ (بشارة الخوري) الماروني أيضاً وعرف (بالكتلة الدستورية). وأولاهما كانت تشعر بضرورة اليد الفرنسية أو الغربية عموماً في لبنان مستقل، في حين سعت الكتلة الثانية الى الإفتتاح على المسلمين اللبنانيين والحركات القومية في سورية والدول الناطقة بالعربية.

كانت المنافسة بين فرنسا الحرة والبريطانيين على أشدها ولم يكن هناك شك في أن يد البريطانيين كانت هنا أرجح من يد الفرنسيين مما بدت في سورية. كان البريطانيون يفضلون ما عبر عنه چرچل بلقاء مع "اماني العرب ومشاعرهم".

وبمقابل أفول شمس الكتلة الوطنية، كانت جبهة الخوري تحقق انتصارات بمجاهرتهم بانتمائهم العروبي الى حد ما. وما وجدت نفسها إلا وهي تسبح مع التيار القوي الذي خلقته السياسة البريطانية. وفي الوقت ذاته وقف حزب الكتائب المارونية بمواجهة مشاريع سورية الكبرى وبوجه كل الأحزاب التي لا تتمسك بلبنانيتها وفي مقدمتها الحزب القومي السوري الإجتماعي الذي بقي مصراً على أن سورية الطبيعية تؤلف أمة موحدة القوام. وشن حرباً عواناً على (اللبنانية الطائفية) والعروبية والوحدوية سواء بسواء، وكان قد بدأها كما ذكرنا منذ العام ١٩٣٧ ولخص موقفه بهذا الشكل:

"ان الكيان اللبناني لم يلد من ارادة قومية يرتكز عليها ارتكازاً خصوصياً، ومن

= العام ١٩٢٨ قامت به سلطة الإنتداب (انظر الى ص ٢٢٢-٢٢٣ من إيلي خضوري): السياسة في الشرق الاوسط (Politics in the middle east. ط. أكسفورد ١٩٩٢) يثبت عدد من يعيش منهم في لبنان بحوالي (٢٢٨٠٠٠) يضاف اليهم زهاء (٣٠٠٠٠) يعيشون في الخارج محتفظين بجنسيتهم اللبنانية، فضلاً عن (٩٠٠٠٠) إلا أنهم مازالوا يحافظون على علاقاتهم بالوطن الأم. ويوجد في لبنان مقابل ذلك (١٧٨٠٠٠) من السنة وما يقارب (١٥٥٠٠٠) من الشيعة، ولو أضيف الى المارونيين جميع المسيحيين الآخرين، فقد يبلغ العدد (٥٧١٠٠٠) في حين يكون مجموع المسلمين (٣٥١٠٠٠). وكلا هذين الرقمين مضلل ولا يذكر فيه عدد الدروز. وقد استخدمت هذه الأرقام لتبرير وجود نسبة ستة نواب مسيحيين الى خمسة مسلمين. على انهم يقدرون اليوم في لبنان بحوالي مليون وربع مليون وهم مع الطوائف المسيحية الأخرى أقل بقليل من نصف مجموع سكان لبنان الكلي. يذكر عن الدكتور شارل مالك (وزير خارجية سابق واستاذ في الجامعة الامريكية) قوله على سبيل الفكاهة والدعابة: "المارونيون هو الجواب المسيحي للإسلام". وقد ربطتني به صداقة سريعة أثناء اقامتي في لبنان، جمعنا تشيعنا لأدب القصصي الروسي فيدور دوستويفسكي وقد وجدته يحتفظ بنسخة من ترجمتي لروايته "ذكريات من بيت الموتى" وكانت قد طبع في دمشق ١٩٥٤، اي قبل تعارفنا بسبع عشرة سنة، وهو والشبيء بالشبيء يذكر ماروني جديد وقد كان أرثوذكسياً فأبت زوجه إلا ان تعمل منه مارونياً لأنها مارونية!

اجل إيجاد هذا المرتكز ما كان الحزب قد اقر بالحدود المرسومة في العام ١٩٢٠ إلا ليظمنن المسيحيون وتلتفتي القضية السورية الكبرى بالقضايا اللبنانية الخصوصية وللتوفيق بين القومية السورية وبين الكيان اللبناني. ان لبنان الحالي يتألف من مجموعتين بشريتين متساويتين في العدد تقريباً مسلمة ومسيحية، فضلاً عن أخرى درزية قليلة العدد لكنها هامة، ولم يحصل اتفاق بين هؤلاء الفرقاء لخلق الكيان اللبناني الحالي، بل وجد إتجاهان واضحان بقيا يتنازعان مصير لبنان: الإتجاه المسيحي - اللبناني - الفينيقي، والإتجاه الإسلامي العروبي - القومي. نحن لانرى غير حل واحد لهذا النزاع وهو التمسك بالعقيدة القومية السورية الإجتماعية." (٤٣)

من كل هذا نستنتج بأن التيارات السياسية التي كانت تسود الأفق السوري - اللبناني والعاملين فيه فضلاً عن الالتجسسيا في كل من القطرين يمكن حصرها في ثلاثة:

- التيار العروبي الذي يصراً شديداً على الانتماء العربي لسورية الكبرى ويعمل من اجل الوحدة العربية الكبرى.

- التيار اللبناني المنفرد الذي يتمسك بالكيان الذي خلقه الانتداب وبالحدود التي رسمها.

- التيار القومي السوري الذي يؤمن بوحدة سورية الكبرى (أعني سورية ولبنان وفلسطين

(٤٢) صرحت المادة (٩٥) من الدستور: "كإجراء مؤقت وتوفيقاً للمادة الاولى من صك الإنتداب ولتحقيق العدالة والوئام تمثل الطوائف المختلفة تمثيلاً عادلاً بالنسبة الى الوظائف العامة وفي تأليف الوزارات، على ان لا يخل ذلك بمصالح الدولة العامة". وكلمة طائفة او طائفية هنا تقابل الكلمة الفرنسية التي استخدمها الإنتداب لتمييز المجموعات العنصرية والمذهبية والدينية Confessionalisme. فهي بالمفهوم اللبناني معادلة لتعبير الدستورية Constitutionalisme، وقد ظهر ذلك المقصود جلياً من مشروع المعاهدة الفرنسية اللبنانية التي وقعت في العام ١٩٤٥.

يذكر (ميشيل شيجا) في كتابه: السياسة المحلية Politique Interieure بيروت ١٩٦٤ والنص مقتبس من كتاب (م. س. هدسن) الموسوم (الجمهورية المهددة Precarious Republic) نيويورك ١٩٦٨، الص ٩٢. وهو أحد أعضاء لجنة واضعي مسودة الدستور، قوله: "الطائفية في لبنان... هي ضمانة لتمثيل سياسي واجتماعي عادل للأقليات الطائفية بأسرها... إنها فوق كل شيء لأجل استتباب الأمن والنظام... إن لبنان مؤلف من أقليات طائفية متزاولة وتنضوي تحت الوصف الطائفي، لأنه كان أبداً ملجأً لحرية الضمير وكان ذلك ممكناً بسبب موقعه الجغرافي. فلأنه جبلي أمكن ان يدافع المرء عن نفسه ولأنه بحري كان من السهولة ركوب البحر... وبالرغم من حصول أخطاء وتجاوزات فقد علمت الطائفية لبنان كيف يكون متسامحاً. إن الموازنة اللبنانية المبتتة لا على انحياز بل هي حصيلة الحاجة الى الإقرار بالخصائص التي تتميز بها الاحزاب السياسية نفسها. إن هذه الخصائص والفروق قد ينتابها الضعف وتزول ولكن ببطء، أما في الحال الحاضر فالكيان اللبناني يقوم على الموازنة الطائفية تماماً".

\*\*\*

أراد ديغول وهو في مقره بالجزائر استباق بريطانيا بغية إحباط مساعيها في القضاء على النفوذ الفرنسي، فقرر في يوم ٢٤ من كانون الثاني ١٩٤٣ من مقره في الجزائر بعث الحياة الدستورية في كل من سورية ولبنان. وأصدر امراً للجنرال كاترو ممثله هناك باتخاذ الخطوات اللازمة لذلك، فبادر كاترو الى الطلب من الحكومتين المؤقتتين اللتين عينهما في ١٩٤١ بتقديم استقالتيهما تمهيداً لإقامة حكومتين انتقالتين تهيئان للانتخابات العامة.

وكان قد أعلن في السادس عشر من أيلول استقلال سورية رسمياً، وكما كان متوقفاً فازت الكتلة الوطنية في سورية بأغلبية المقاعد واختارت شكري القوتلي رئيساً للجمهورية. وكذلك فازت شقيقتها في لبنان باستقلالها واختارت الشيخ بشارة الخوري رئيساً. كانت أغلبية الفائزين في الانتخابات يعتقدون فكرة استقلال لبناني غير مشروط رافضة أي امتياز لدولة اجنبية. وحينذاك فقط بدأت تهب على اشرة سفينة الحياة اللبنانية ربح عروبية خفيفة، وخرج كتاب سياسيون جدد يشيدون بـ(عروية لبنان) ويستعيدون ذكر الدور البارز الذي مثله القوميون العروبيون في إقامة صرح القومية العربية أيام العثمانيين والشهداء الذين قدموهم في عالية ومشاركتهم في ثورة الحجاز الشريفية، فضلاً عن جهود أدبائهم وشعرائهم في المهجر وغير ذلك<sup>(٤٤)</sup>.

كان البريطانيون يبذلون جهوداً كبيرة في هذا المضمار. وقد وضعوا في لندن الخطوط الأولى للسيطرة على البلاد الناطقة بالعربية المستقلة لا تحت مظلة المعاهدات والاندابات بل تحت خيمة جديدة هي خيمة الجامعة العربية وكل هذا سيأتي في موضعه المناسب.

تضمنت لائحة تعديل الدستور اللبناني حذف جميع المواد التي تربط لبنان بفرنسا، وأسرت

(٤٤) كان انطون سعادة اول المعنيين في البلاد الناطقة بالعربية بوضع تقويم شامل لمفهوم الأمة والقومية والمجتمع ففي كتابه: نشوء الأمم، ط. ١٩٣٦ اعتبر الأمة مجتمعاً واحداً، والمجتمع هو بتعبيره: "المتحد الانساني الأتم الذي تكون نتيجة تفاعل العوامل الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والثقافية عبر التاريخ ضمن بيئته وحدوده وخلال حياة خاصة مشتركة، الأمة جماعة وبيئة طبيعية معينة تسهل التفاعل والمشاركة في حياة واحدة متكاملة ووحدة اجتماعية ولأعضائها عقيدة متفاعلة راسخة بأن لهم مصالح في حياة عامة مشتركة على مستوى ثقافي معين وباستمرارية التفاعل والمصالح عبر التاريخ ولأمد طويل". وأضاف سعادة الى هذا قوله: "ان الأمة السورية النامة القوام يجب ان تؤلف مع (الأمم العربية الأخرى) جبهة مترابطة" وفي كتابه "نشوء الأمم" نجد في تفسيره معنى الأمة أو الشعب، رفضاً قاطعاً لعامل اللغة. وهو يحل محله ما دعاه بالمصالح المشتركة والشعور القومي، وهما مكونا الوحدة السورية واصلها.

الحكومة الجديدة بإخطار المندوب الفرنسي السامي بوجوب تسليم الإدارة الى موظفين لبنانيين لأنه ماعاد الآن أكثر من سفير لبلاده كسائر رؤساء البعثات الدبلوماسية الأخرى. واجتاح الغضب ديغول ورفض كل ذلك. وفي الخامس من تشرين الثاني أصدر وكيل المندوب السامي إيفس شاتينيو بلاغاً يعلن فيه معارضة فرنسا الحرة حق اللبنانيين في تعديل الدستور. فلم يأبه (رياض الصلح) ودفع بمشروع التعديل للمجلس، فتمت الموافقة عليه وسط صحب وضجيج. وفي ليلة الحادي عشر من الشهر عينه داهمت فصائل للقوات الفرنسية منازل رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء وألقت القبض عليهم وزجتهم في قلعة راشيا ووضعت كل واحد منهم في غرفة منفردة<sup>(٤٥)</sup>.

وأصدر المندوب السامي في اليوم عينه قراره المرقم (٤٦٤) الذي ألغى فيه التعديلات الجديدة على الدستور وقضى بحل المجلس النيابي وتعليق الدستور، ثم اشفعه بالقرار المرقم (٤٦٥) القاضي بتعيين (اميل اده) رئيساً للدولة اللبنانية ولحكومتها. واتهم (هيللو) المندوب السامي في بيان ألقاه صبيحة اليوم التالي - البريطانيون (دون ذكر الاسم صراحة) بكل ما جرى عند وصفه رجال الحكم المعتقلين بـ(أولئك الذين يحاولون إخراج فرنسا من الشرق لمصلحة دولة أخرى).

الا أن موجة السخط الشديد الذي اجتاح البلاد واجماع الأحزاب كلها دون استثناء على رفض اية معاهدة تعطي فرنسا إمتيازاً خاصاً في لبنان المستقل<sup>(٤٦)</sup> وعجز (اميل اده) عن تأليف حكومة فتح الجو للبريطانيين فتدخلوا. تقدم الجنرال (سبيرس) باسم حكومته بمذكرة للجنرال كاترو يطلب فيها الإفراج دون إبطاء عن رئيس الجمهورية وأعضاء الحكومة وإعادتهم الى مراكزهم. والخضوع لأحكام الدستور المعدل. وقد جاء فيها هذه العبارة العظيمة الدلالة:

"ان إضطراب الوضع في لبنان قد يمتد الى سورية وهو بالتالي سيهدد المجهود الحربي ومواصلات الجيوش البريطانية في الشرق الاوسط."<sup>(٤٧)</sup>

(٤٥) المعتقلون الآخرون هم كل من كميل شمعون وسليم تقلا، وعادل عسيران وعبدالحميد كرامي، وأفلت كل من مجيد ارسلان وحبيب ابو شهلا.

(٤٦) إلتأم خلال ذلك ما دعي بالمجلس الوطني الذي أعلن تضامنه مع الحكومة الشرعية ومارست الولايات المتحدة ضغطاً كبيراً على لجنة فرنسا الحرة العليا للإعتراف بحرية الشعب اللبناني في إختيار نوع الإستقلال الذي يفضله. وكان من نتيجة الإجماع العام لكل الأحزاب أن توحدت منظمتا الكتائب والنجادة في حزب واحد برئاسة پيير الجميل.

(٤٧) كاترو: المرجع السالف، في معركة المتوسط، ص ٢٦٣.

وهدد فيها بتدخل الجيش البريطاني. كان التهديد حقيقياً لا مراء فيه بوضع قطعات الجيش البريطاني تحت الإنذار. وأخذت لجنة فرنسا العليا برأي (كاترو) وتم الإفراج عن أعضاء الحكومة وإعادتهم الى تصريح شؤون الحكم بعد إعتقال دام احد عشر يوماً. الى حين من الزمن بان هذا الكيان الذي خلقه الاستعمار بضم الأفضية العثمانية المسلمة الأربعة الى جبل لبنان الماروني - إنما وجد ليبقى رغم فقدان وحدة القوام فيه. لكن كانت هناك ضرورة شعر بها الجميع. ولو نحينا جانباً المنافسة الحادة بين الفرنسيين والبريطانيين، فقد التقى ذوو النزعة اللبنانية والنزعة القومية السورية والنزعة العروبية والاتلجنسيا المستقلة كلهم إتقوا لصياغة ذلك الميثاق الشهير غير المكتوب كالقانون الإنكليزي Common Law المعروف باسم الميثاق الوطني.

كان الميثاق كما يقول بعض مؤرخي تلك الفترة وليد لقاء تم بين شخصين لم يكن أحدهما قد التقى بالآخر قبل تلك السنة، هما الشيخ بشارة الخوري والرئيس رياض الصلح<sup>(٤٨)</sup>. وبهذا

(٤٨) عندما بدأت نذر الحرب الاهلية تمور فوق أفق لبنان وقبل أن تخوض الميليشيات معاركها الدموية، تناولت ارقام الكتاب والساسة البحث في الأسس والظروف التي جاءت بهذا الميثاق، ومن أطرف ما كتب في هذا الباب المقال الذي نشره الأستاذ حنا غصن في مجلة (الاسبوع العربي) لصاحبها جورج ابو عضل الماروني في العدد المرقم ٢٠٠ ويتاريخ تشرين الثاني ١٩٧٤ اجتزيء منه هذا: "كان ميشال زكور واسعد عقل وبعض السياسيين المسيحيين من ذوي النزعة القومية اللبنانية قد بدأوا منذ عام ١٩٢٩ يهاجمون الإنتداب الفرنسي وينتقدون تجاوزه مطالبين بالإستقلال، الأمر الذي حبيبهم الى قلوب الأوساط القومية العربية بإعتبار أن لبنانيتهم كانت تناسب القوميين العرب والوطنيين السوريين لاسيما وانهم كانوا غير طائفيين. كل هؤلاء ادركوا أن وراء موقف رياض الصلح وغيره من القوميين العرب والوطنيين السوريين اسباباً جديرة بالإهتمام فالسلبية الإسلامية كان لها مبررها على إعتبار ان المسلمين العرب ثاروا على العثمانيين المسلمين لكي ينالوا الإستقلال لا لكي يقعوا تحت إنتداب فرنسا. هذا التفهم أوجد علاقة شخصية بين هؤلاء الوطنيين اللبنانيين والمسلمين العروبيين. أثناء الحرب كان رياض الصلح وعدد من الوطنيين اللبنانيين والسوريين على صلة بالإنكليز، فطلب مني رياض الصلح ان أكتب مقالاً عنوانه (لماذا نحن مع الإنكليز؟). وبعد الإنتخابات ذهب رياض الصلح الى دمشق واجتمع بالزعماء السوريين ك(سعدالله الجابري وفارس الخوري وجميل مردم بك) الذين أبلغوه تقضيلهم للشيخ بشارة الخوري كمرشح لرئاسة الجمهورية... وأثار رياض الصلح في تلك الإجتماعات مشكلة الأفضية الأربعة مطالباً رفاقه في النضال القومي التخلي عن المطالبة بها لطمأنة اللبنانيين. وعارض فارس الخوري، لكن سعدالله الجابري وافق رياضاً. وكانت حجة رياض: ما الضرر في ان يكون عدد الدول العربية ستاً بدلاً من أربع؟ إن المسيحيين في لبنان وسورية لايفرقون بسهولة بين الاسلام والعروبية، وهذا ما يتيح للإستعمار الغربي فرصة إستغلال مخاوفهم وإستخدامها لتهديد العالم العربي. ولذلك فإنه من الأفضل -لقطع الطريق على مناورات الإستعمار ان يكون هناك دولة لبنانية تكرس الفكرة بأن العروبية لاتعني الإسلام. وذهب رياض الصلح الى ابعد من هذا مقترحاً أن يكون لبنان ذا طابع مسيحي ليشعر كل مسيحي أنه يستطيع اللجوء والعيش في لبنان". ويختم حنا غصن مقاله هذا بقوله: "عندما عدت مساءً من زيارة الصلح في دمشق =

الصدد يذكر الشيخ بشارة:

"كان رياض الصلح يزورني بعد الانتخابات وعلى إثر تكليفه بتأليف الحكومة... وفي منزلي بعالية وضعنا الخطوط الكبرى للبيان الوزاري. وخلال هذه الإجتماعات اتفقنا على الطريقة التي كان علينا اتباعها لنهي عهد الانتداب وبلوغ الاستقلال وإعلان الميثاق الوطني. هذا الميثاق هو إتفاق الفئتين اللتين يتألف منهما الوطن اللبناني. هذا من اجل بلوغ الاستقلال والتخلي عن فكرة الحماية الأجنبية من جهة والتخلي عن الوحدة مع سورية من جهة أخرى."<sup>(٤٩)</sup>

ليس هناك وثيقة مدونة تفصل في مواد الميثاق ولا ورقة موقع عليها وإنه تفاهم قولي حول السياسة التي سينتهجها لبنان المستقل استقلالاً تاماً تُضمن فيه مصالح المارونيين وتجعل المسلمين يشعرون شعوراً أكيداً بانهم يعيشون في دولة ليس للإسلام أو للعروبية المركز الأسمى فيها. هذا التفاهم أو الميثاق يمكن إجماله بنقاط كلية ثلاث:

أولاًها: لبنان دولة مستقلة استقلالاً تاماً فيها يتخلى المسيحيون عن فكرة طلب الحماية الأجنبية، أو أي محاولة لوضع البلاد تحت النفوذ الأجنبي، وبالمقابل يتخلى المسلمون عن فكرة تحقيق أي إتحاد سياسي مع سورية أو أي قطر آخر ناطق باللغة العربية.

وثانيتهما: لبنان سيكون ذا وجه عربي وتوجه عربي ولغة عربية وجزءاً من العالم العربي، لكنه يمتاز عنها بميزات خاصة يحرص عليها.

وثالثتها: لبنان يتعاون مع جميع الدول الناطقة بالعربية، ويكون فرداً في الأسرة العربية. شريطة أن تحترم الدول الناطقة بالعربية استقلاله وسيادته ويحدوده الحالية.

= الى بيروت أسرعت بإبلاغ الشيخ بشارة ما حدث في دمشق، فدمعت عيناه وقال لي: بشارة لن ينسى لك هذه البشارة!

(٤٩) بشارة الخوري: حقائق لبنانية، مطبعة باسيل، بيروت ١٩٦٠ ص:٤: ولد في العام ١٨٩٠ وتوفي في ١٩٦٤. في ١٩٤٣ انتخب لست سنوات رئيساً للجمهورية بحكم الدستور على ان لايعاد إنتخابه إلا انه عمل على تعديل الدستور بمجلس نواب زورر فيه الإنتخابات لضمان الأغلبية المنشودة للتعديل في ١٩٤٨ أي قبل نهاية رئاسته بستين - ليضمن إعادة إنتخابه ثانية. وقد ازعج هذا معارضي حكمه وفريقاً من كتلتة الدستورية تزعمه كميل شمعون واجريت انتخابات تم التلاعب بها أيضاً في العام ١٩٥١. وكان هذا أكثر مما يمكن الصبر عليه، فأثير الشارع وناطلقت مظاهرات وعمت إضرابات طوال سنة واحدة تمكنت الفئة المعارضة ذات الاقلية في المجلس من تأليب الشعب اللبناني كله ضد الرئيس وحكومته. والتف المسيحيون حول الصلح ولم يجد بديلاً مكافئاً له يعتمد عليه، وأثر الجيش البقاء على الحياد دونما تدخل. فلم يجد الخوري بدأً من الإستقالة، وإنتخب المجلس نفسه الذي جاء بعد ذلك خصمه كميل شمعون رئيساً للجمهورية.

وكما يتضح، تخلى المارونيون فيه عن سياستهم التقليدية تماماً وكان لهم بمثابة قفزة في غرفة مظلمة ملامى بالأشباح والحفر لا يعرف اين ستستقر أقدامهم فيها، وقد بدا بالوضع السياسي السائد آنذاك تجرية لا يد منها ولا سبيل الى بديل لها.

وادعى منذ قيام الحرب الاهلية وفتح السجلات القديمة - عدد كبير من الساسة المسيحيين والمسلمين، فضلاً عن الأحزاب ورؤسائها مساهمتهم بنوع أو بآخر في صياغة هذا الميثاق. والحقيقة هي أن العوامل السياسية والمصالح الإقتصادية وحالة الرفاه التي تميز بها لبنان خلال فترة الانتداب بالتعاون المسيحي - الإسلامي التلقائي في بناء صرح لبنان الإقتصادي... كانت هي القوة الدافعة، لحماسة السياسيين في عقده وتطبيقه خلال فترة تزيد عن ربع قرن.

في العام ١٩٤١ بدا وكأن سائر الكتل والأحزاب والمجموعات السورية باستثناء الكتلة الوطنية والحزب الشيوعي السوري - يدعو الى المباديء القومية العربية، وفي هذا الجو ولد حزب البعث كما مرّ بيانه.

أعلن الحزب عن نشاط له في اوائل العام ١٩٤٣ بين الطلاب بصورة خاصة، وفي صفوف العسكريين. ولم يحظ بإجازة رسمية للعمل العلني، إلا أنه راح يصدر بيانات ذات طابع ثوري تنخرط في بياناته شعار (امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة). ربما كان الحزب الجديد يشعر بضرورة صك شعار مضاد لشعار أو نداء "يا عمال العالم إتحدوا" الذي إعتاده الشيوعيون في كل مكان لتوشيح ادبياتهم ومنشوراتهم به، على أنه ارتؤي بعد حين من الزمن أن يُعزز بشعار آخر عقائدي الصبغة. فظهر مثلث (وحدة حرية إشتراكية) وبدأ يطغى على الشعار الأول ربما لسهولته ولقصره، وهو لا أبالك صدى بعيد لشعار الثورة الفرنسية حرية... مساواة...

بدأ في هذه السنة كل من عفلق والبيطار يستخدمان مصطلح البعث، وكان أول تنويه بوجود (حركة البعث العربي) في تصريح مزدوج للإثنين دعماً لشكري القوتلي<sup>(١)</sup> وقت ان قرر الفرنسيون اجراء انتخابات عامة. وقدم كلاهما نفسيهما للناخبين ببرنامج مبني على أسس وطنية وقومية وكحزب سياسي يمثل حركة البعث في الجيل الجديد. وقالوا في منشور انتخابي آخر إنهما يمثلان الروحانية العربية ضد المادية الشيوعية، والتاريخ العربي الحي ضد الرجعية المادية. لكنهما فشلا فشلاً ذريعاً<sup>(٢)</sup>.

يلوذ تاريخ الحزب بالصمت ولايجود بأي معلومات عن حجم الحزب ومدى انتشاره خلال هذه الفترة. إلا أن مؤلفي دائرة المعارف البعثية الموسومة (نضال البعث) يقدررون العدد في العام ١٩٤٥ أي بعد تأسيسه بأربع سنوات ببضع مئات.

في العام ١٩٤٤ أصدر عفلق بياناً موقعاً باسمه مديلاً بعبارة (عن مكتب البعث العربي) وبعدها استخدمت صفة (الحزب) بدلاً من (حركة) وأسند الإثنان لنفسيهما منصب المكتب التنفيذي (لحزب البعث العربي) عندما تقدما بطلب إجازة الحزب رسمياً. وقد جاء في

(١) الجندي: المرجع السالف، ص٤٤. وليلاحظ ان ما سنثبته في الصفحات التالية ليس تاريخاً دقيقاً للحزب، وانما معلومات عامة مستعدين بها على تتبع خطوات مسيرته المصرية نحو هدف التدمير الكامل للفكرة القومية.

(٢) حصل عفلق على (٢٤٥) صوتاً في حين حصل أقل المرشحين الفاشلين أصواتاً على (٢١٥٠) صوتاً.

## الفصل الحادي والعشرون

نشأة البعث . شعاره الأول (١٩٤٣) انتشاره بين التلاميذ والعسكريين "حرية . مساواة . اخاء" . و"كان الشعار يستبدل أكثر من مرة" . توزيع بيانات ومناشير تنحو عين ذلك الهدف الحماسي كتبه زعيمه عفلق والبيطار . أعاد هذان الكرة بطلب اجازة حزب فرفض . بدأت السن عربية وغير عربية تتحدث عن خلو دورة عفلق الدموية من قطرة دم عربية واحدة فأسرة جده من جماعة الارثوذوكس الذين كانوا يعيشون في إقليم أفلاشيا الذي كان يعرف عند الأتراك بالافلا ومنه جاء لقبه . والأصل عند البعث غير مهم فمادمت تعترف بأنك عربي وقد بينته بنشاطك الصادق فأنت عربي . طلبا اجازة من السلطات الفرنسية ورفض الطلب . أصدر جريدة (البعث) موشحة بشعار ثاب "امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة" . انتشار مفاهيم الحزب بين التلاميذ وصغار الضباط . دمج البعث والعربي الاشتراكي الذي كان يرأسه (أكرم الحوراني) وخروج الحزب الجديد باسم احزب البعث العربي الاشتراكي| صارت الجريدة تعلن عن أهداف الحزب ونواياه وفتحت قاموسها الخاص بشرح غموض أغراضها ومفاهيمها من التعابير السياسية الجديدة . من هو العربي ؟ ما يقصد بالاشتراكية ؟ متى تنتظر الاشتراكية اقتصادياً . سيكون البعث نهاية تاريخ القومية العربية - الارتباط العضوي بالاسلام إلا أن القومية ستحل محله بالنهاية . أما الآن فيجب التمسك به . يؤس التنظيمات البعثية . حملات التطهير والتصفية من الداخل والخارج . البعث يدعو الى وحدة ضيقة بين العراق وسورية . عود الى الدكتور قسطنطين زريق . ازاحة منيف الرزاز القائد البعثي الواعي الديمقراطي . شكري القوتلي رئيس جمهورية لدورة ثانية . انقلاب حسني الزعيم في ٢٠ آذار . إرسال الزعماء والساسة الى السجن وبضمنهم عفلق . بعض اساءاته : تسليم رئيس الحزب القومي السوري أنطون سعادة الى اللبنانيين بعد منحه حق اللجوء السياسي . الجامعة العربية ، الميثاق الهزيل ، فشلها الذريع المتواصل في حل أي قضية عربية . العراق في عهد الأحزاب ١٩٤٦ . النشاط السياسي الكردي بعد رفض اجازتهم بحزب . الحديث حول إلغاء معاهدة ١٩٣١ لا استبدالها . قيام الأحزاب المشكلة حديثاً ضد المعاهدة بتظاهرات سفكت فيها دماء وأوقف العمل بتجديد المعاهدة أو استبدالها

"ان الحزب وان كانت إجازته بالنشاط في سورية إلا انه يتسع ويهتم بكل الأجزاء التي إنشطرت اليها القومية العربية سياسياً".

فرفض الطلب أيضاً.

وفي شهر نيسان ١٩٤٥ اصدر المكتب التنفيذي أول نشرة داخلية للاعضاء تبحت عن وجهة نظر البعث في الجامعة العربية المؤسسة وشيكاً واعتبرها خطوة هامة نحو الوحدة. وأعاد طلب الإجازة في العام ١٩٤٦ بعد جلاء القوات الفرنسية التام. فرفض طلبهما أيضاً.

أصدرا جريدة البعث الرسمية في الثالث من تموز موشحة بشعار [امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة] وجاء فيها ان البيطار هو صاحب إمتيازها وعفلق رئيس تحريرها. ولم تكن مواعيد صدورها منتظمة بل عكست حظوظ الحزب. فكثيراً ما توقفت عن الصدور وكثيراً ما عطلت أو صدرت بين اسبوع وآخر. فمثلاً احتجبت معظم أيام عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩.

لم يكن عفلق يملك موهبة وخيالاً في التقصي العلمي بدرجة تميزه عن غيره ويجمع معارفه ومن رافقه أنه كان شكوكياً مغروراً متهمكماً غريب الأطوار. مع ذلك فقد كانت هذه الشخصية عاملاً فعالاً في نشر عقيدة الحزب، ومركز الجذب فيها متأت من عكس ما هو متوقع ومطلوب في أي زعامة سياسية لأي مجتمع آخر غير المجتمع السوري العربي المصاب بالبارانويا الحادة<sup>(٣)</sup>. كان ضامر الجسم ضئيل القد عيب اللسان كثيراً ما ارتج عليه، فجمجم وتمتم وتردد وتلعثم وكثيراً ما كان يبدو عليه التعب وهو يجهد في صياغة فكرة لسامعه. لا يمتاز قلمه بوضوح ولا أسلوبه ببلاغة خاصة، ولا يتقن فن الكلام والمقدرة على الإقناع، إلا ان حماسته للمباديء التي يؤمن بها وشدة إخلاصه لها مصحوبة بمظهره البائس<sup>(٤)</sup> كان لها تأثيرها الكبير في استرعاء انتباه أتباعه الفكريين الى القضية التي يدعو اليها ويعتقها. وبدا لهم "رومانتياً" له براءة الطفل المرتبك وطموح الكبير بشخصية تتألف من عناصر متضاربة من القوة والضعف<sup>(٥)</sup>. وموطن العجب هو ان كل هذا فضلاً عن أصوله المسيحية في

(٣) Paranoia: مرض عقلي (عصابي) يشخص في صاحبه بشعور موهوم بالإضطهاد الى جانب شعور بالعظمة والتفوق وبظهور أفكار مشوشة غير منطقية تتباعد بصاحبها عن الواقع وتشيع فيه أوهاماً وهلوسات تخلق فيه نظاماً كامناً في أعماق النفس، أعمال شاذة نماذجها شكوكية وتتخذ طابعاً متهمكماً مزدرياً بشكل ما لا يوافق مزاج ذلك النظام النفسي.

(٤) الجندي: المرجع السالف. ص ٣٤.

(٥) رويت عن عفلق في هذا الباب حكايات اشبه شيء بالاساطير تناقلها مريدوه والذين عرفوه شخصياً =

مجتمع إسلامي وفي بلاد تجمد قوة العارضة وسحر الشخصية - أهله مع هذا للإحتفاظ بمركزه كأمين السر العام للحزب الذي انشأه. وكالمفكر والمعترف به صدقاً ام كذباً لواحد من شطريه على الأقل. والظاهر ان التواضع والذلة التي كانت من سماته لم تستطعاً إخفاء نفس تائفة للزعامة والسيطرة، يعجز عن إخفائها عندما يريد بعناد وإصرار أن تسيير الأمور وفق ما يرتئيه. وفي بلد كسورية، حيث تتفاوت مقدرة الناس المالية تفاوتاً كبيراً ويتمتع ذوو اليسار بمنزلة تفوق اقدارهم الحقيقية ووزنهم الشخصي، كان للعيشة البسيطة التي يحيها وبسمعته الرائجة عن عدم إهتمامه بالمال والمظهر وبخاصة وقناعة بالخفض من العيش اثرهما العميق في هؤلاء الطلاب المتعطشين الداخلين لأول مرة ميدان الفكر السياسي. فها هو زعيم جديد من طراز يختلف تماماً عن عرفوه من زعماء إعتمدوا على ثروات جمعوها أو ورثوها أو كانوا اعضاء في أسر عريقة مهابة ملكهم حبّ التظاهر بها والإعتماد عليها في خطب ود الأنصار وتقلد المناصب، في حين وجد تلاميذ عفلق الصغار في إصراره على تقديم القهوة لهم بنفسه في بيت صغير لا تتجاوز عدد الكراسي فيه عن ثلاث. مفكراً سياسياً من نوع جديد ليست المادة ولا الكبرياء من أسلحة دعوته.

ما جاء العام ١٩٤٧ حتى كان للحزب فروع في ست مدن سورية فضلاً عن اعضاء متفرقين في الاردن ١٩٤٨، ولبنان. حينذاك ادرك قاداته بأن الوقت قد ازف لتصفية الحساب مع أتباع الأرسوزي والبت في شكل علاقتهم معه، فكان ثمّ اجتماع عاصف كوميدي<sup>(٦)</sup>.

= ليثبتوا بها مدى استغراق قائدهم في العمل القومي وتفانيه في النشاط الحزبي، منها انه كثيراً ما ينسى تناول طعامه (كالباقرة الآخرين) وقد تبلغ كسوته من الرثاثة بحيث تدفع رفاقه الى شراء كسوة جديدة له، بشعور منهم انه ليس من اللياقة ان يبدو قائد حزب عظيم الشأن بهذه القيافة المزرية، إلا أن خصومه يقولون إنه كان يتعمد ان يبدو بهذا المظهر والسلوك ليزيد في تعلق أتباعه به ويخلق في الآخرين إنطباعاً بالتمرد والتفاني. وصفه الفتى العراقي الذي عرفه شخصياً وجلس اليه وخالطه بهذه العبارات بلهجة أسف وندم، قال: في العراق كنا منجذبين قلباً وقالباً حين جلس أمامه نشعر وكأننا في حضرة المسيح، يأخذنا كلامه ولغته الساحرة وأسلوبه الصوفي وعدم طرحه لأية مشاكل تفصيلية من الواقع والأفكار... كنت عندما أقرأ كراسه (ذكرى الرسول العربي) أقف مأخوذاً بلغته وعندما أصل الى نهايته حيث يقول - اذا كان محمد كل العرب فليكن كل العرب محمداً - تنتابني قشعريرة وتسري في اوصالي برودة وكائي اسمع الوحي من جديد. وكان ذلك الغار الصغير غار حراء إتسع ليكون الوطن العربي من المحيط الى الخليج... وعلى إعتقادي بالعلمانية لم أجد أي فاصل بين القومية العربية والإسلام (هاني الفكيكي: أوكار الهزيمة ط. لندن). على اني أشهد لله بأن أسلوب الفكيكي اللغوي الذي يكاد يكون سليماً، هو أفضل بما لا يقاس من أسلوب كتابة (نبيه) الذي لا ينجو من الأخطاء الصرفية والنحوية لاسيما الشائعة منها.

(٦) رولو: المرجع السالف. الص ٦ و٦٤: يذكر (وهيب الغانم) وهو من أتباع الأرسوزي أن عفلقاً والبيطار رحلا الى اللاذقية لبيحثا مع الأرسوزي موضوع الدمج، إلا ان زعيمه ظل مصراً على عدم إشتمال =

وفي المؤتمر الثاني الذي عقده الحزب في ١٩٥٤ وضع نظامه الداخلي.

اسفرت نهاية الحرب عن وضع سياسي مواتٍ لنشاط مكشوف عام ١٩٤٥. ويطرد حكومة فيشي وتسلم فرنسا الحرة الإدارة. لكن الانتداب حتى شهر أيار ١٩٤٥ كان قائماً. وحاول الفرنسيون تأكيد سلطتهم من خلال نقاط متعددة مُختلف عليها مع الحكومة السورية وهددوا باستخدام القوة. فقامت التظاهرات وعم الإضراب ووقعت حوادث شغب في مختلف المدن وعندها أنزلت السلطات الفرنسية قواتها العسكرية الى الشارع.

إلا أن القوات البريطانية المتواجدة في سورية كانت متفوقة، وقد أوعز لها بالتدخل لصالح الشارع وضد الحكومة. ووجه القائد البريطاني إنذاراً للفرنسيين بسحب قواتهم الى معسكراتها. ولم يكن في ذلك حيلة فأصبح الانتداب اثرًا من الماضي.

ما حصل بعد ذلك في سورية. ان الحكم بقي بيد الكتلة الوطنية زهاء اربع سنوات. وعلى رأسه شكري القوتلي. تتعاقب الحكومات خلالها واحدة بعد أخرى كيفما إتفق وبعامل صديقي بهوى مجموعة صغيرة جداً تخصصوا في إدارة اللعبة السياسية. و(الكتلة) التي افترض فيها ان تتكلم بلسان واحد عن السوريين جميعاً، ما لبث ان إنصدعت بعامل العداء التقليدي المستحكم بين حلب ودمشق. فتألف منها في المدينة الأولى ما عرف بحزب الشعب، وفي الثانية ما سمي بالحزب الوطني، وكلاهما قومي النزعة عروبي الإتجاه. كان من الممكن أن يتمخض هذا الإنشطار الحزبي بنوع من التوازن السياسي والممارسة الديمقراطية لو لم تكن السلطة التنفيذية في الدولة المركزية منيعة الجانب وقوامها موظفون نفعيون لايتحلون بأي قدر من وازع ضمير يوقف اطماعهم عند حد، ولايفسحون مجالاً مهماً صغر للمصالح العامة بين مصالحهم الشخصية ولا شيء ينبههم الى واجباتهم الحقيقية. كانت سلطة الدولة مطلقة شاملة تحول دون بناء أي نظام سياسي يقوم على المباديء الديمقراطية.

ووقعت سورية في عين الوهدة التي وقع فيها عراق ١٩٤١ وانقلب النقيق على القومية زعيقاً. وشرع أولو الحلّ والعقد فيها فوراً وبعد الاستقلال يمدون ايديهم الى العالم الناطق

= برنامج الحزب اهدافاً اشتراكية. فلم يوافق علق في باديء الأمر إلا أنه إقتنع أخيراً بعد عدة ساعات طويلة من الجدال كما وافق البيطار أيضاً. وكانت حجة علق انه يريد حزباً موحداً لا حزباً يميل الى نظرية معينة. ولم تتم أية مقابلة بينه وبين الأرسوزي الذي أبى أن يكون له اي ضلع في تأسيس الحزب أو منهاجه وبقي محتجاً ولم يحضر المؤتمر، حتى إن كتابه: بعث الأمة العربية، ١٩٥٤ لم يكن من منشورات الحزب ولم يحمل إسمه. وفي تلك الايام ١٩٤٧ كان الغانم يبرر إصراره على الإشتراكية بقوله: كنت في تلك الايام اعتنق افكاراً إشتراكية ذات صبغة ماركسية بدأت بدراستها منذ انتصار السوفييت في ليننغراد وإعتبرت ان يكون الحزب الموحد ذا إتجاه يساري.

بالعربية ويصرفون جلّ أوقاتهم في توثيق الصلات به لجعل دمشق عاصمة العروبة التي تشع منها أفكار الوحدة العربية مثلما كانت منذ عهد الأمويين. كان التنافس في اظهار الشعور القومي وإلتماس العون منه في الانتخابات العامة أهم عامل في تقرير النتائج ومعظمه كاذب مزيف. يقول (حبيب كحالة) النائب في المجلس:

"المصطلحات السياسية الرصينة من أمثال نائب، معارضة، رئيس المجلس، لجنة الشؤون الخارجية كلها تعابير فشلت في تغطية الفوضى المؤسفة التي كانت تسود مجلس النواب السوري. اتطلع فيما حولي فلا أجد غير مجموعة متناقضات، رجال لا يجمعهم جامع ولا يشتركون في مباديء ولا تربطهم رابطة بأي حزب أو منطقة. مافازوا بالنيابة إلا بفضل محاكاة زائفة غامضة لانتخابات نيابية حرة لا يعترضها عارض، بعضهم أمي وآخرون أدباء مشهورون، بعضهم لا يتكلم بغير الكردية أو الأرمنية وآخرون لا يعرفون غير التركية بعضهم يعتمر بالطربوش وآخرون بالكفية والعقال، حضريوهم ومدنيوهم سواء بسواء." (٧)

والآخر وهو ليس غير (خالد العظم) تراه يقوم بعملية مقارنة رائعة بين تلك اللجان الاستشارية التي كان يؤلفها الفرنسيون أيام انتدابهم ويختارون اعضاءها من مختلف الكتل والطوائف والتجمعات لتستأنس السلطة الأجنبية بنصحها في الشؤون العامة - وبين المجالس النيابية المنتخبة، فيذكر مما يذكر ان المجالس النيابية كانت تتألف من اعضاء إختارهم الحزب الحاكم والحكومة القائمة. وباستخدام مختلف "الأساليب المعروفة جيداً" لضمان انتخابهم عن طريق الشعب. ويقول ان المجالس النيابية ابتداء من العام ١٩٣٥. وفي العام ١٩٤٥ فصاعداً كانت دائماً تمنح الثقة للحكومة المشكّلة أياً كانت هويتها، وإن تلك الحكومة كانت تحافظ على هذه الثقة حتى يحصل شيء ما خارج نطاق المجلس يؤدي الى استقالة رئيس الوزراء. وفي معظم مناسبات الاستقالة يبقى المجلس جاهلاً أسبابها، في حين ان لجنة استشارية مؤلفة من خبراء في شؤون مختلفة هي افضل ألف مرة من مجلس نيابي يتألف من أعضاء منتمين الى أحزاب سياسية أو تكتلات طائفية قائمة. ليس بوسعنا إطلاق تعبير الحزب على هذه التكتلات، لأن مناهجها غير واضحة ولأنها تقوم على الميول الشخصية. والمجلس يتألف من محليين تغلب عليهم الأمية. ولا يحضرون جلساته إلا لتمشية مصالحهم الخاصة أو لتعقب

(٧) مذكرات نائب: نقلًا عن: پ. سيل P. Seale: النضال من اجل سورية The Struggle for Syria لندن ١٩٦٢، ص٢٢.



مشاكل تتعلق بناخبهم. وأما عن التشريع أو شؤون الصحة والإقتصاد والوضع الحضاري للدولة فقد اثبتت التجربة كم كان إهتمام هؤلاء النواب قليلاً بمثل هذه الشؤون العامة. الانتقاد الشخصي، مهاجمة القائمين بالسلطة، سوء استخدام للخطب الجوفاء سعيًا وراء الشعبية الرخيصة، كل هذه كانت حصيلة التجربة المرّة للبلاد خلال سنوات تجربة الحكم النيابي<sup>(٨)</sup>.

عدّل قانون الانتخاب في شهر تموز ١٩٤٧ فبات على درجة واحدة، إلا أن هذا التعديل لم يشر الى تغيير ولم يدل على ان الانتخابات التي جرت بموجبه إنما عكست رغبات أصحاب حق الإقتراع بدقة أكثر، بل كانت كما يسميها (العظم) مهزلة وفضيحة. ففيها "أعطى الأموات أصواتهم قبل أن يدلي بها الأحياء" إذ حُشيت صناديق الإقتراع بأصوات مزورة بدلاً من الأصوات الحقيقية التي أعطاها المقترعون. وكانت النتيجة فوزاً للأغلبية التي سموا به (المستقلين). وقد اشرف عن انتقائهم وضمان فوزهم الوزراء، وبالأخص رئيس الجمهورية (شكري القوتلي).

كان الدستور يمنع إعادة انتخاب رئيس الجمهورية. إلا أن (القوتلي) حمل هذا المجلس على تعديل الدستور مثلما فعل جاره (بشارة الخوري) في لبنان، ليفوز بفترة رئاسة ثانية... و

"... عمت الفرحة المنتفعين المستغلين وتكالبوا كلّ يريد حصته من الغنيمة. عاد الطاقم القديم الى السلطة فترة أخرى وانتشرت الاقاويل حول التجارة بإجازات الاستيرادات ووكالات البضائع المستوردة. وكان القوتلي نفسه يجلس فوق قمة هرم المحسوبة وسوء الإدارة والفساد الحكومي".<sup>(٩)</sup>

\*\*\*

كان عهد الاستقلال بحاجة الى جيش يصونه ويرعاه فبنى السوريون جيشهم على انقاض تلك الوحدات التي شكلتها السلطة المنتدبة في العام ١٩٣٤ واسمها قوات الشرق<sup>(١٠)</sup> بأمرة

(٨) پ. سيل: المرجع السالف. لندن ١٩٦٥- ص ٣٢ ومذكرات خالد العظم، ج ٢، الص ٢١١-٢١٢ ط. بيروت ١٩٧٣ (رئيس وزارة سابق ووزير في عدة وزارات ١٩٠٣-١٩٦٥. من اسرة آل العظم الشهيرة ذات الأصل الكردي).

(٩) پ. سيل: المرجع السالف.

(١٠) في مبدأ العام ١٩١٩ حاول الفرنسيون تشكيل قوة من الليفي الأشوري إقتداء بالبريطانيين في العراق، فبدأوا ينتقون أفراداً من اللاجئيين الأشوريين الذين تم اخلاؤهم من روسيا عن طريق تفتيس مروياً بالبحر الأسود وأسكنوا في الصسكة من اعمال الجزيرة، وقد تم تشكيل كتبية منهم انيطت قيادتها الإسمية =

ضباط فرنسيين وعدد من ضباط الجيش العثماني السابقين. ومع إن طريقة تأسيسه ونمط تدريبه كانا يختلفان عن طريقة تأسيس الجيش العراقي وتدريبه، إلا أن الحمى المحرقة التي انتابت الحكام السوريين الجدد في التعجيل به كانت مساوية لحرارة الحكام العراقيين في انشاء جيشهم، وقد بدأت في الحالتين بظاهرة الإسراع الجنوني في تخريج الضباط الصغار وفتح باب التطوع بإغراءات مالية جيدة.

في العقد الخامس من القرن العشرين كان معظم ضباط الجيش السوري وضباط صفه من خريجي المعاهد العسكرية التي فتحت في حمص وحلب ودمشق وحماه. واغلبيتهم الساحقة من اولئك الذين كبا بهم الحظ عن نيل شهادة الدراسة الثانوية. ففي كلية الضباط بمصر مثلاً، ما كان على هؤلاء الطلاب الفاشلين إلا ان يتقدموا بطلب الإنخراط بها فيجاب طلبهم توأً ليقضوا سنتين من التدريب وتلقي طرف من العلوم العسكرية ولا يجدون أي صعوبة في النجاح على يد معلمين متساهلين غاية التساهل.

ويضع الخريج النجمة على كتافتيه اللتين تشيران الى صيرورته (ملازماً) لتتألقا فوقهما كالجوهرة على حد وصف (خالد العظم) وليختال برتبته متبخترًا ناظرًا الى المجتمع نظرة ترفع مشوية بحسد وملقباً على المدنيين نظرة إحتقار فهم في عرفه خونة وعملاء ومرترقة وإقطاعيون. كان هؤلاء الضباط قد وقعوا فريسة سهلة لتلك الأفكار التي راحت الأحزاب القومية العروبية تنشرها مشحونة بروح الثورة على الحياة الاجتماعية ولا غرو فمعظم هؤلاء الضباط الأغرار جاء من بيئات ومجموعات بشرية محرومة تقف في آخر درجات السلم الطبقي - من أسر كادحة وفلاحية لا نصيب لها كبير من متع الحياة، شكل الغرور والحرمان فيهم مزيجاً من لهفة وتشوق الى العمل على تسلق آخر درجات السلم ووجدوا اقصر الطرق هو في دخول معترك السياسة وإقتبال الآراء التي تبشر بها تلك الأحزاب الجديدة التي تناصب

= بزعم قبلي آشوري يمت بصلة قربي الى بيت البطيريك إسمه (مالك قنبر بن مالك بنيامين) وكان بإشراف ضباط فرنسيين إلا ان المشروع عرّف عنه بعد ثلاث سنين وسرّحت الوحدة. لكنّ الفرنسيين وبعد فشل ثورة الدوروز في العام ١٩٢٦ وسعوا نظام التطوع المحلي ليشكلوا أفواجاً نظامية محلية على أساس التقسيمات الإدارية التي أحدثوها في سورية وفي لبنان. فشكّلوا في دمشق مثلاً فوج مشاة عربياً سنياً، في حين شكّلوا ثلاثة أفواج علوية، واما الأفواج الباقية فقد كانت اختلاطاً من الأرمن والأشوريين والكرّدي والجراكسة والدوروز. وبلغ مجموع هذه الأفواج إثني عشر من صنف المشاة، يتراوح عددها بين سبعة آلاف وثمانية جنوداً وضباط صف مدربة على النظام العسكري الفرنسي وبأسلحة فرنسية. ولسبب ما أخذت سلطات الانتداب تقلص هذه القوات بعد العام ١٩٣٦ فلاتجدد عقود الذين انهوا خدمتهم فيها، وقدر عدد الافواج الباقية عشية الاستقلال بما لايزيد عن خمسة.

الطبقة الحاكمة العداء وتعمل لإسقاطها. ورحبوا بالدعوة التي وجهت اليهم من قبل تلك الأحزاب إما ترحيب، لأنها كانت تتفق ومنهاجهم في الرقي والوصول الى السلطة. فأفسدوا الجيش وابتعدوا به عن وظيفته الاصلية كما حصل في العراق. يقول اللواء فهد الشاعر عن الجيش السوري:

"ان جيشنا يشغل في السياسة ثماني عشرة ساعة. ويأكل وينام خمس ساعات، ويتدرب ساعة واحدة. ان هذا الجيش لن يرحى منه نفع ساعة المحنة."

وكما نكب ساسة العراق جيشه، كذلك نكب ساسة سورية وقوميوهم واحزابها الجيش السوري. استخدموه حيناً، فاستخدمهم بدوره أحياناً. ولا يمكن ان نمر بالقصة مروراً عابراً دون استعراض جهود زعيم قومي في بناء صرح طبقة الضباط السوريين هؤلاء، واقصد به (حسن أكرم الحوراني) الذي عرفه تاريخ سورية الحديث بـ(أكرم الحوراني) فقط.

إنحدر الحوراني من أسرة حلبية موسرة عضها الدهر بنابه فافتقرت. وبدأ أول حياته السياسية الحافلة وهو في السابعة عشرة من عمره بمؤامرة لإغتيال (صبحي بك بركات) رئيس المجلس النيابي السوري بوصفه صنيعة للفرنسيين، بمشاركة زميل له يدعى (عبدالباسط عبدالنبي) وجرت قرعة بينهما على من يقوم بالعملية فوُقت على زميله، إلا أن المسدس أصيب بعطل عند محاولة إطلاقه مما أتيح لبركات أن يسحب مسدسه ويردي المهاجم قتيلاً. درس الحوراني القانون ونال شهادة التخرج في جامعة دمشق. وفي حماه كان ممثلاً للحزب القومي السوري الإجتماعي ونشط مع ضباطه هناك في حين كان يبشر بأفكار قومية عربية ويدعو الى الوحدة العربية في عين الوقت. وعلى ما بدا إنه لم يكن آنذاك يفرق بين أيديولوجية أنطوان سعادة والأفكار العربية، وعندما أدرك ذلك تخلى عن الحزب في العام ١٩٣٨ وأسس عمه (عثمان الحوراني) حزباً نازي النزعة والمظهر سماه (حزب الشباب) فانتسب اليه وخلع رداء القومية السورية ثم انفصل عنه بعد فترة.

في العام ١٩٤١ كان أكرم الحوراني على رأس المتطوعين القوميين الذين آزروا حركة مايس في العراق. وقد قبض عليه بعد دخول فرنسا الحرة وبريطانيا سورية ورج في السجن أشهراً. واتخذ حماه وحمص مركزاً لنشاطه السياسي والتفت حوله مجموعات الشباب الناقم. واحداث شبه ثورة في الأولى باستعدائه الأجراء الفلاحين على أصحاب الأراضي هناك كآل الكيلاني والبرازي والعظم، معلناً بأن الارض لمن حرثها. وحوصرت منازل هؤلاء واضطروا الى ترك أراضيهم ردهاً من الزمن. وإنقلب الى حمص وراح يدفع الطلاب الفاشلين في الدراسة الى

الإنخراط في كلية حمص العسكرية، وكانت في حينها تخرج حوالي مائة ضابط ونايب ضابط سنوياً. وفي ١٩٤٣ فاز بمقعد نيابي عن حماة وكان فيه تألق نجمه وظهور اسمه في الأفق السياسي السوري المضطرب<sup>(١١)</sup>.

وغرق في خضم الانقلابات العسكرية وخرج ناجياً منها نتيجة سرعته الخاطفة في تغيير ولائه السياسي. على انه شعر في العام ١٩٥٠ وعلى إثر الانقلاب الثاني (العروبي الطابع) بأن الوقت قد ازف لتأسيس حزبه الخاص برعاية انقلابي تلك الفترة. فأعلن عن تأسيس الحزب العربي الاشتراكي بدعوته الى الوحدة العربية على أسس اشتراكية. وبعد ثلاث سنوات تم دمج حزبه ذا بحزب البعث واتخذ له من ذلك الحين اسم (حزب البعث العربي الاشتراكي).

\*\*\*

ولنعد الى البعث:

في السابع من نيسان ١٩٤٧ عقد الحزب أول مؤتمر له. وكان ذلك في مقهى اللونبارك بدمشق. ومنحت العضوية خلاله لكل من استطاع الحضور من الأتباع. وكانت الأغلبية سورية. ومثّل العراق والأردن بالتلاميذ الذين كانوا يدرسون في جامعة دمشق (الجامعة السورية) ولم يكن بين الحاضرين عامل واحد أو فلاح، كلهم تلاميذ وموظفون صغار أصحاب مصالح تجارية وحرفية صغيرة واثبت عددهم بـ(٢٤٧). وفي هذا الاجتماع تم اقرار دستور

(١١) وصفه رفيق له في النضال بهذا: "يتجلى في الحوراني إزدواج الشخصية العصابي بكل مظاهره العنيفة، لانتراه في المجلس (النيابي) يقدم اقتراحاً بناءً بل ينتهز كل فرصة ليشتتم ولكيل للإتهامات لأعضائه يمتة ويسرة، وكثيراً ما هوجم وكيل له الضرب واللكمات داخل المجلس. انه جنرال ينادي ثياباً مدنية" (لايشير دفتر ملحوظاتي الى اسم هذا الرفيق والى المصدر) وعرف بثلاثة ألقاب، فكان يُنادى بأبي رشيد وبأبي جهاد وهو ما يؤثره. إلا أن الحمويين أطلقوا عليه لقب (أبو جُلوس) ولابد انه لقب غير محترم.

في العام ١٩٤٧ تزعم جماعة من الشباب الحمويين العروبيين وفاز في انتخابات ١٩٤٨ العامة بمقعد نيابي ايضاً بطرحه منهاجاً اشتراكياً تعرض خلاله لهجوم من الحزب الشيوعي السوري. وفي العام ١٩٤٨ خرج متطوعاً للحرب في فلسطين، وفي ١٩٤٩ كان من انصار حسني الزعيم وهو الذي كتب له بيانته الأول. وقد عينه هذا عضواً في لجنة التحقيق عن نقاط الضعف وسوء الإدارة خلال العهد الماضي. ثم انقلب على (الزعيم) وساند انقلاب اللواء (سامي الحناوي) الذي عينه وزيراً للزراعة. ثم انقلب عليه عندما اجرى هذا الانتخابات النيابية للإتيان بمجلس يوافق على قيام اتحاد فدرالي مع العراق. فعارض واستقال وتزعم المعارضة وساعد في تدبير إنقلاب (أديب الشيشكلي) عليه (قيل ان رابطة قرابة كانت تربطه بهذا العسكري) فعينه وزيراً للدفاع في حكومته. كان طوال حياته السياسية التي أنافت على نصف قرن كالقطة تسقط دائماً على ارجلها، وانتهت حياته ضيقاً أو حبيساً لبعث العراق. فقد دُعي في العام ١٩٦٩ للمشاركة في إحتفالات تموز وكان مغضوباً عليه ملاحقاً بأحكام مفيدة للحرية آنذاك في سورية مبعداً عنها. فسببت دعوته هذه مقاطعة الحكومة السورية لها، وبقي في العراق حتى ادركته الوفاة.

الحزب الذي تضمن اهدافه وأيديولوجيته<sup>(١٢)</sup>.

واليك المادة الخامسة عشرة: "ان الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدولة العربية التي تكفل الإنسجام بين المواطنين وانصهارهم في بوتقة واحدة تكافح سائر العصبية المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والإقليمية."

ويعهد الحزب لنفسه في مادته الحادية والأربعين مهمة استحداث ثقافة عامة للوطن العربي، قومية عربية الصبغة، خالصة، حرة، تقدمية، شاملة عميقة، انسانية في مراميها وتعميمها في أوساط الشعب كافة، ويعلن أن سياسته التربوية إنما ترمي الى خلق جيل عربي جديد مؤمن بمبادئ البعث، طليق من قيود الخرافات والتقاليد الرجعية مشبع بروح التفاؤل والنضال والتضامن مع مواطنيه في سبيل تحقيق الإنقلاب العربي الشامل وتقدم الانسانية؛ وذلك عن طريق طبع كل مظاهر الحياة الفكرية والإقتصادية والسياسية والعمرائية والفنية بطابع قومي عربي. وان يكون التعليم وظيفته من وظائف الدولة ووقفاً عليها وحدها، ولذلك يجب إلغاء مؤسسات التعليم الأهلية والأجنبية.

وانظر أيضاً الى علاقة الحزب بالإشتراكية التي كان عفلق قبل سبع سنين لايجد لها مكاناً في منهاجه فاذا به يراها الآن النظام الأمثل - ثم تأمل كيفية شرحه لها:

"ان البعث هو حزب إشتراكي يؤمن بالإشتراكية. ويؤمن بأنها ضرورة تنبثق من أعماق القومية العربية، والإشتراكية في الواقع هي النظام الإجتماعي المثالي الذي سيجعل الشعب العربي يدرك إمكاناته ويساعد عبقريته على الإزدهار ويؤمن للوطن العربي التقدم المستمر في موارده الروحية والمادية... الخ. إن البعث هو حزب إشتراكي يؤمن بالإشتراكية ويؤمن بأنها ضرورة تنبثق من اعماق القومية العربية. والإشتراكية في الواقع هي النظام الاجتماعي المثالي الذي سيجعل الشعب العربي يدرك إمكاناته ويساعد عبقريته على الإزدهار ويؤمن للوطن العربي التقدم المستمر في موارده الروحية والمادية... الخ..."

وعن السؤال الملح: من هو العربي؟ تجيبك المادتان العاشرة والحادية عشرة منه بالقول:

"العربي هو من كانت العربية لغته ويعيش في الأرض العربية، أو ذاك الذي يؤمن بانتمايية الى الشعب (الأمة) العربية بعد تمثله في حياتها. (ويخرج من ذلك التصنيف أي من تابعيته للوطن العربي) كل من عمل ضده أو انتمى الى جمعية أو حزب معاد للعرب وكل من دس نفسه في الوطن العربي لأغراض استعمارية."

في اواخر العقد الخامس من القرن العشرين اصبح عدد كبير من حزبييه التلاميذ موظفين في دوائر الدولة. ودخلت طائفة منهم في الجامعات وتخرج عدد كبير في الكليات العسكرية ضباطاً. وفي أوائل العقد السادس كان بمقدور الحزب ان يدعي بعدد لا بأس به من الضباط الأعضاء والمؤازرين وعدد مماثل من المعلمين والموظفين. ولم ينجح الحزب مطلقاً في التغلغل بين صفوف الجماهير حتى بعد انتصاراته السياسية الإنتقالية التي أمتت له الحكم والسلطة. فقد ظل يفتقر الى الجماهيرية الحقيقية حتى قضت عليه إنتقالات الضباط والمغامرين المدنيين.

لكن ما هي ايديولوجية الحزب؟ ما هو الشكل القومي الذي تنبأه من الوجهة النظرية؟ كم كان حريصاً على القيم التي بشر بها والمبادئ التي دعا اليها؟ ينطوي دستور حزب البعث العربي الإشتراكي على هدف صيغ كعهد مقطوع واضح بإنجاز الوحدة التامة الكاملة بين سائر البلاد الناطقة بالعربية. ويدعو العرب جميعاً الى النضال في سبيل تحقيق دولة واحدة مستقلة تماماً تشمل ما أسماه بالوطن العربي الذي تعرفه وتحدده المادة السابعة منه بهذه المعالم:

"الوطن العربي هو هذه البقعة من الأرض التي تسكنها الأمة العربية والتي تمتد بين جبال طوروس وجبال پشتكوه وخليج البصرة والبحر العربي وجبال الحبشة والصحراء الكبرى والمحيط الاطلسي والبحر الأبيض المتوسط."

وفي مادته السادسة: "ان حزب البعث هو حزب إنتقالي يؤمن بأن أهدافه الرئيسية في بعث القومية العربية وبناء الإشتراكية لايمكن أن تتم إلا عن طريق الإنقلاب والنضال، وإن الاعتماد على التطور البطيء والإكتفاء بالإصلاح الجزئي يهددان هذه الأهداف بالإخفاق والضياع ولذلك يقرر:

١- النضال ضد الاستعمار الاجنبي لتحرير الوطن العربي تحريراً مطلقاً كاملاً.

٢- النضال لجمع شمل العرب كلهم في دولة مستقلة واحدة.

٣- الإنقلاب على الواقع الفاسد انقلاباً يشمل جميع مناحي الحياة الفكرية."

(١٢) انتخب جلال السيد رئيساً للمؤتمر، وألقى (عفلق) كلمة الإفتتاح وأعقبه البيطار بخطاب شرح فيه سياسة الحزب. ثم قبل المجتمعون دستور الحزب بعد طرحه للمناقشة مادة فمادة (جرى على الدستور تعديلات طفيفة فيما بعد) وانتهى المؤتمر بانتخاب عفلق (عميداً) والبيطار أميناً عاماً للسر، والى جانبه انتخب مكتب تنفيذي مؤلف من البيطار والغانم وجمال السيد، وبقي هؤلاء على رأس الحزب حتى تم دمجهم بحزب الحوراني. ومن الجدير بالذكر هو أن الشيشكلي أرغم الحزبين على الإندماج طمعاً في سهولة استخدامهما) معاً على ما يقال.

ويظهر لنا من هذا - ان الذين وضعوا صيغة هذا الدستور، وبأفضل ما نملكه من حياد وحسن نية - أخذوا بالنظرية العنصرية البسيطة: نظرية الواقع والشهادة، اعني أن العربي هو من يقول إنه عربي ولايقوم على قوله ضد أو دليل نفي.

إلا أن قضية الحدود التي وضعها الدستور للوطن العربي، هي قضية شائكة ومشكلة مربكة تثير متاعب وتعقيدات، ومنها قضية ذلك الذي يقول إنه ليس عربياً وهو ساكن ذلك الوطن العربي سكنى قرار ووارث الأصقاع التي عاش فيها أسلافه إتخذوها وطناً قبل ان تطأها قدم عربي.

وعفلق مدرس التاريخ والمساهم الكبير بل هو الملمه لهذا الدستور البعثي لايد يعلم أن الحدود التي وضعها للوطن العربي هي عين الحدود التي رسمها الاستعمار والإمبريالية لفتوحاته في البلاد الناطقة بالعربية في افريقيا وآسيا وإقتسمت النفوذ فيها تلك الدول الاستعمارية بموجب اتفاقات ومعاهدات ومؤتمرات دولية ومنها إتفاق سايكس بيكو سازانوف، ومؤتمر فرساي ومعاهدته، ومعاهدة لوزان، وكلها نتيجة مساومات وصفقات سياسية سرية وعلمية لم تراخ فيها رغبات السكان بل كانت قد تمّت بمعزل عنهم<sup>(١٣)</sup>.

ومن قراءة الدستور قراءة تأمل وإمعان نجد ان البعث العربي قد جعل نفسه النهاية والقمة

(١٣) بعض الأقوام والشعوب التي سكنت في مناطق أدخلها البعث ضمن حدوده للوطن العربي خارج الجزيرة العربية لم تكن قد سمعت ناطقاً باللغة العربية في العام ٦٣٠ م بل منذ بدء الفتوح العربية - الإسلامية، بل بعد قرون عديدة من هذا التاريخ وبعضها الى قرننا هذا. وفي هذه الحدود، وهي الدول التي تدخل في إطار الجامعة العربية - هناك أكثر من مليون بربري وأربعة ملايين كُردي وأكثر من خمسة ملايين زنجي إفريقي، فضلاً عن المجموعات العنصرية المسيحية المتمسكة بقوميتها كالمجموعة الكلدآشورية التي يزيد تعدادها عن المليون وكالصابئة في العراق وكمسيحي جبل لبنان. فضلاً عن ذلك فباستثناء سواحل المحيطات والبحار والخلجان تبدو الحدود غامضة كثيراً لأن سلاسل الجبال التي ذكرها الدستور هي ذات عروض وسبعة تمتد عشرات عديدة من الكيلومترات، وكذلك الصحارى التي تتداح مئات إثر مئات من الكيلومترات، والواقع هو(والى جانب ما ذكرناه في المتن) أن دستور البعث تبنى حدود الدول الأعضاء في الجامعة العربية بعد سنتين من تأليفها، وقد رسمت بإرادة الدول الغربية كما قلنا. وبغض النظر عن وجود أصقاع وأقاليم مسكونة منذ وقت سحيق بغير العرب، مثل كردستان وجبل لبنان وبحر الغزال والنيل الأعلى والأقاليم الاستوائية في السودان والمناطق الجنوبية من الجزائر وتونس ومراكش والساحل الأدنى من المحيط الأطلسي، بإعتبارها جزءاً لايتجزأ من الوطن العربي. فإن حزب البعث - وهي شهادة لوجه الله - ظل مخلصاً في إعلانه عروبة مناطق ثلاث هي الآن تحت حكم غير عربي. وأعني بها لواء الاسكندرون (كليزيا) في تركيا والأهواز (خوزستان) في ايران، وإسرائيل. إلا ان اسم إسرائيل لم يظهر في ادبيات البعث الأولى، لأن البعثيين كغيرهم لم يفكروا في إمكان قيام دولة يهودية، إلا ان قضيتها اصبحت بعد ١٩٤٨ قضية مركزية عندهم. لم ينفرد القوميون البعثيون بهذه الحدود فهناك قوميون آخرون يؤمنون بها كالأستاذ ساطع الحصري: العروبة اولاً، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦١، ص ١١.

لتاريخ القومية العربية وإعتبر حركته الحركة الوحيدة التي ستبلغ بالعرب في الختام مرحلة الوحدة السياسية العلمانية.

هذا الإدعاء يضع الحزب - أبدراية من مؤسسيه أو بغفلة منهم في الإطار التاريخي للعمل والفكر السياسيين بأضيق ما يمكن أن يهدف اليه منهاج حزب سياسي، لا بوصفه تقريراً لواقع الأمور. لذلك وكأيدولوجية بدا البعث لكثير من القوميون العروبيين ومفكرهم والمعتنقين منهم مبدء القومية العروبية - وكأنه لاينتهي بإقامة دولة الوطن العربي الشاملة كل الأقطار التي يسكنها من إعتبرهم دستوره عرباً أو جعلهم عرباً بحكم سكانهم فيها، بل ينزع الى صياغة جديدة للفرد العربي تتحدى كل القيم والمشاعر وحقائق التاريخ والعلم، وان لم يكن القوميون العروبيون كافة مستعدين لمشاركة البعثيين في تحديد الوطن العربي أو تعريفه بمثل هذه السعة في عداد العرب عرباً. وقد رأينا اكثريتهم تثبت القومية بصيغة وطنية محلية أضيق مفهوماً ومحدودية من هذا بكثير.

وماذا عن الإشتراكية؟

تقول المادة الرابعة من الدستور إن الإشتراكية هي ضرورة تنبع من أعماق القومية العربية نفسها وانها ستأخذ بيد العرب في طريق استعادة مجدها وعزتها، وان ثوريتها الحزبية أي انقلابيتها إنما هي الأداة للبلوغ بعملية البعث العربية الى نهايتها من أجل تحقيق الإشتراكية، وقد سبقتها المادة الثالثة في التعريف بهوية الحزب بأنه "حزب قومي" وإن القومية هي "حقيقة أزلية حية".

اذن وبغياب أي تحديد لمعنى الإشتراكية المقصودة في الدستور - لا سبيل لنا إلا القول بأن ما يريده واضعو الدستور هو الإشتراكية القومية أو القومية الإشتراكية اشتراكية ماركس.

حاول عفلق مرات عديدة أن يشرح المقصود بالإشتراكية عند البعث بما يشبه الإعتذار عن ذنب آتاه أو ليثبت في أذهان اتباعه بأنه ما قبل اضاء آراء الإشتراكية على الدستور إلا مُكرهاً، في الوقت الذي يؤكد تلامذته الأوائل، ودليلهم كتاباته الأولى في الصحف الشيوعية بأنه لم ينفذ عنه غبار الماركسية إلا من ناحيتها التي ترفض الفكرة القومية ولأن المادة الخامسة من الدستور تؤكد بأن تلك الإشتراكية لايمكن الوصول اليها بالتطور المتدرج بل بعمل انقلابي - أي بشورة.

على انه كان قد وقع حينذاك تحت سحر القومية الالمانية المثالية وتوتاليتارية (هيگل) بفضل بزوغ نجم قومية هتلر الإشتراكية الصاعدة وما حققته إشتراكية الفاشيست في ايطاليا

أقوى من الإشتراكية البريطانية المعتدلة." (١٦)

وكتب في السنة عينها أيضاً: "الإشتراكية عند البعث العربي مقصورة على المنظمات الإقتصادية التي تهدف الى إعادة النظر في توزيع الثروة في الوطن العربي وبوضع أسس اقتصادية تضمن المساواة والعدالة الاقتصادية." (١٧)

وفي العام ١٩٥٥ عاد ليقول: "ان الإشتراكية يمكن ان تعرف بأنها مبدأ أو نظام ذو أصول ذاتية... الإشتراكية هي المشاركة في موارد البلاد من قبل المواطنين." (١٨)

وتجنب الدستور كل ما يمكن ان لا يفسر بتعبير العلمانية أو الاعتماد على العقيدة الإسلامية. إلا ان ادبيات الحزب كانت ابدأ تؤكد بأن الإسلام هو اعظم تجربة للأمم العربية. وذكر عفلق في خطبة له بمناسبة المولد النبوي في دمشق: إن الإسلام بالأصل هو حركة عربية واهميتها الكبرى تتجلى في تجديد روح العروبة وإن القيم الباطنة والظاهرة التي بشر بها الرسول العربي والردائل والعيوب التي رفضها هي أصلاً فضائل عربية وعيوب عربية وإن المفهوم الحقيقي للإسلام يثبت:

"بأنه الوسيلة الوحيدة التي ستمكن العرب من العودة الى الطريق القومي بعد أن تركوا القيم المادية تطغى على القيم الروحية، تلك القوى الكامنة للقومية... ووقت

(١٦) دراسات في الاشتراكية، ص ٣٣.

(١٧) في سبيل البعث. ص ٢١٠.

(١٨) المرجع نفسه: ص ٢١٥، كتب عفلق (ص ٦) في العام ١٩٣٦ وعلى إثر مساندة الشيوعيين الفرنسيين وزراء الجبهة الشعبية برئاسة (ليون بلوم) التي بقيت مصررة على مواصلة انتدابها في سورية بدلاً من تنفيذ المعاهدة وهو متآلم من موقف الشيوعيين: "لوسلت عن تعريف للإشتراكية فلن أبحث عنه في آثار ماركس ولينين". وإبتداءً من العام ١٩٥٠ أخذ البعثيون يستخدمون بإكثار وإصرار - كلمة الشيوعيين لوصف الشيوعيين ووصفوا الحزب الشيوعي السوري بأنه قطب الشعوبية. من الناحية الأيديولوجية تبدو الاشتراكية التي يقصدها البعث في الفصل الخاص (بسياسة الحزب الإقتصادية وهي المواد ٢٦-٣٧) من الدستور، فهي مزيج توفيق بين الرأسمالية والنظام الرأسمالي من جهة وبين الاشتراكية الفابية الليبرالية من جهة أخرى. ولايستطيع من وقف على منهاج الحزب النازي (حزب العمال القومي الإشتراكي الألماني) بمواده الخمس والعشرين ان يعزو وجه الشبه بين اهدافه الإقتصادية وبين اهداف البعث على ضوء دستوره - الى مجرد توارد خواطر، رغم أن الإثنين بذلا في اشتراكيتهما الخاصة كلاً من جانبه جهداً كبيراً في إجتباب آثاره الطبقيّة البرجوازية والرأسمال الكبير، بل إجتذابهما الى خطيئهما السياسي ما أمكن، وهما بطبيعة الحال فيما عدا ذلك يلتقيان صميماً بالتاكيد على الرسالة التاريخية الخالدة للأهمية الإنسانية العالمية للأمميتين الألمانية عند النازيين والعربية عند البعثيين.

من تعبئة جماهيرية وما أنجزه البلدان ما عدّه العالم في حينه من قبيل المعجزات الإقتصادية. كل ذلك مقابل فشل الديمقراطية واليسار الفرنسي بهزيمة حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا، ثم سقوط باريس في الحرب. كل هذا فضلاً عن الانتصارات الحربية المتلاحقة للنظامين لاسيما في اولى أشهر الغزو الألماني لروسيا، أثر في افكاره تأثيراً عميقاً. وبطول فترة الانتداب لانجده يرفع صوتاً واحداً ضد الحكم الإمبريالي الاستعماري. ولم يهاجمه بذلك العنف الذي عثرنا عليه فيما بعد، بعد أن راح يلفظ آخر انفاسه في الاقطار الناطقة بالعربية.

في العام ١٩٤٦ اندفع قلم عفلق في حلبة الإشتراكية وصول ويجول ليجعلها معادلة للقوميين "القوميون العرب هم الإشتراكيون" لذلك "فليس هناك من تباين ولا حرب بين القوميين والإشتراكيين" (١٤) النضال العربي في سبيل الحرية هو أيضاً نضال في سبيل الإشتراكية فالتخلص من الطبقات الحاكمة عملاء الامبريالية سيفضي مباشرة الى الحرية والعدالة الاجتماعية - أي الإشتراكية". حتى في ايامنا هذه، تحتل الإشتراكية المركز التالي للقومية، وعليه فإن القضية الاجتماعية والإقتصادية هي مسألة في منتهى الأهمية في حياتنا، لأنها متعلقة مباشرة بالموضوع الأوسع وهو القومية. اننا نريد الإشتراكية لخدمة قوميتنا (١٥).

لا تحجد في دستور الحزب ما يذكرك بالفكر الماركسي. الدستور يصف الحزب بانه إشتراكي وان الإشتراكية هي ضرورة تنبع من أعماق القومية العربية... الإشتراكية تمثل النظام الإجتماعي المثالي للأمم العربية. مع هذا كله فقد بقي عنوان الحزب حزب البعث العربي مدة ست سنوات الى ان تم الدمج مع الحزب العربي الإشتراكي في ١٩٥٣ فأضيفت كلمة (الإشتراكي) اليه.

يذكر (الغانم) ان زعيمه كان يجد فروقاً عظيمة بين الإشتراكية العربية وبين مختلف انماط الإشتراكية الغربية. فقد كتب في ١٩٥٠:

"ان الإشتراكية ليست هدفاً بحد ذاته بل هي بالأحرى وسيلة ضرورية لضمان أعلى مستوى انتاجي للمجتمع بأقصى حدود التعاون والتكليف بين الموظفين - المجتمع العربي بحاجة الى نظام اجتماعي ذي أسس اعظم وأفاق أوسع وإدراك

(١٤) المرجع السالف. في سبيل البعث، ص ٢٠٤ (في اواسط العقد السادس من القرن العشرين تحول موقف البعث من الاشتراكية كما سنأتي الى تفصيله).

(١٥) المرجع السالف. الص ٢٠٥ و ٢٠٧.

أن كان المسلم والعربي في زمن (محمد) متساويين. فنحن الآن وفي القرن العشرين نجد عربياً جديداً متكاملأً متطوراً."

في هذا القول تأكيد لا يخطئه الذهن على فضل العروبة على الإسلام لا على فضل الإسلام على العرب - لاسيما في مكانة هذا الدين الذي احتلها في قلب العالم:

"في يومنا هذا نطلق تعبير (وطني) أو (قومي) على افراد معينين من الشعب ونقصد بهم اولئك المؤمنين بقضية بلادهم. فإذا كان المسلم هو العربي في الماضي بفضل إيمانه بالدين الجديد فلأنه يمتلك المزايا الضرورية ليفهم بواسطتها بأن هذا الدين يمثل تحركاً جزئياً للعروبة نحو الوحدة والتقدم والمنعة. إن قوة الإسلام تُبعث من مصدر جديد في أيامنا هذه... هذا المصدر هو القومية العربية... حتى المسيحيون العرب، وجب عليهم أن يعرفوا الإسلام ويخلصوا له باعتباره أهم عنصر في قوميتهم."

بهذه التعاليل والأقوال (الصوفية) فتح عفلق الباب على مصراعيه لأتباعه البعثيين للاستنجد بالإسلام كلما وجدوا في ذلك منفعة، لا لأنهم مسلمون بل لأنهم عرب. وما من شك في أن ذوي العقيدة الصحيحة من المسلمين لا يتفقون مطلقاً مع وجهة نظر عفلق هذه. إلا انه لم يكن يخاطبهم. فالحضور والأتباع والقراء هم من جيل آخر درس في معاهد كان التأثير الاوربي والامريكي فيها كبيراً. شباب لا شأن لهم بالفرائض الدينية ولا يفقهون منها شيئاً ويفتقرون الى معرفة كافية بعقيدة الإسلام.

على أن الارتباط بالإسلام أيام مجده وسؤدده وفتوحاته (أشار اليها عفلق بوصفها اداء لواجب ديني لا لتوسع إقليمي) كان له وجهه الجذاب، لاسيما بالتأكيد على آثاره الاجتماعية. فبإمكان القومييين العروبيين والحالة هذه القبول بربط عروبة اليوم بالانتصارات الإسلامية في القرن الأول الهجري متحسين بإيمانهم بكونهم جزءاً من التيار العام للإسلام العربي، خلا انهم متحررون من قيود الممارسات والفرائض الجامدة التي سادت القرون التالية للرسالة المحمدية.

والنتيجة المنشودة؟

القومية العروبية ستحل محل الإسلام بوصفها البؤرة العقائدية التي يستقطب حولها العرب.

ان البعث لا يحتاج الى أدلة علمية ولا إسناد تاريخي، وانتقادنا له على هذا الأساس ووقف

هذه الخطوط لتبيان مقدار خطئه أو اصابته في هذا الحكم التاريخي أو ذاك هو عبث لا طائل تحته، وانما يحيد بنا عن النقطة الأساسية، وهي ان القومية العربية عند عفلق ورفاقه وعند عشرات الألوفا من القومييين العروبيين وغيرها، قُبلت من الواعظين بها والمروجين لها من امثاله من دون حاجة الى دليل أو محاكمة أو وسيلة إثبات. وبكلمة أخرى فعفلق هو نبي من نوع خاص، لا باعتباره صاحب نبوءة كأنبيا التوراة مثلاً إنما نزلوا لينفذوا شعب الله من حماة الضلالة العمياء والمعاصي ويدلوه على طريق الصلاح، بل نبي من نوع خاص جداً.

لكن ما موضع المسلم غير العربي من الصورة؟

الظاهر أنه لا يستطيع في عرف البعث ان يستفيد من الإسلام كما يستفيد العربي في نضاله القومي. ومن الطبيعي انه لا يستفيد من دينه المسيحي لو كان مسيحياً.

والبعث هو حزب ثوري - انقلابي. انه التغيير الفجائي للناس لا لنظام الحكم. فقد ذكر عفلق في حديث له أن الانقلاب قبل ان يكون نهجاً سياسياً أو إجتماعياً - "هو تلك القوى المتصاعدة الأصيلية ذات التيار الجسدي العاتي، ذلك الكفاح المحتوم الذي لا يمكن فهم بعث الأمة بدونه - هذا ما نفهمه من الانقلاب"... ثم ما أن ينجز الناس من تحرير العقل وإطلاق كوامن الإيمان بالروح، فإن تغيير النظام سيتلوه بشكل طبيعي<sup>(١٩)</sup>.

فالبعث والحالة هذه هو حركة طبيعة، حركة نخبة مهمتها هداية الناس وقيادتهم في سبيل ينتهي الى بناء مجتمع جديد نابض بالحياة الشرة المعطاء تنعم به الأمة العربية بجدارة واستحقاق - بالأمجاد والسؤدد في دولة عظمى واحدة مستقلة.

إلا أن هذا التفسير لم يجد تطبيقاً واقعياً له في أي وقت من الاوقات. فمنذ ان بدأ البعث بنشاطه وجدنا زعماءه يبذلون اقصى جهودهم في التغلغل بين صفوف حزبهم مشجعين تلاميذهم على الانخراط في معاهده وكلياته العسكرية، وفي الانقلابات العسكرية سواء تلك التي يقوم بها وحده أو بالمشاركة فيها مع غيره، أو الانقلابات الأخرى التي لا نصيب له فيها المؤدية كلها الى تغيير انظمة الحكم. مع ان عفلق كان قد وجد من الضروري انذار أتباعه ان انقلاب (حسني الزعيم) ليس إلا خطوة نحو ذلك الانقلاب الذي يطمح اليه البعث<sup>(٢٠)</sup> وأمام الاغراء يعمل سريع لإحتثاث عجلة التغيير، ولجوء الحزب الى استخدام القوة العسكرية - كوسيلة شرعية مقبولة - بل الوسيلة الوحيدة لتحقيق التغيير - وليصبح فيما بعد القاعدة

(١٩) احاديث في فرع الحزب بدمشق - شباط ١٩٥٠: في سبيل البعث، الص ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٨.

(٢٠) نضال البعث، ج ١، ص ٢٩١، المرجع السالف.

والمبدء، غرق مفهوم الانقلاب في مستنقع آسن من تكالب البعثيين المتفرغين على تحقيق التغيير بقوة يمثلها عسكريوه ومدنيوه.

وكل ذلك يناقض بشكل يدعو الى العجب ما جاء في المادة الرابعة عشرة من دستوره التي تؤكد ضرورة قيام حكم دستوري برلماني تكون السلطة التنفيذية فيه مسؤولة مباشرة أمام السلطة التشريعية التي هي ثمرة انتخابات عامة. وكذلك يناقض المادة (٤٥) منه والتي تحصر التعليم بالدولة. إن الدستور "يشجع" نقابات العمال والفلاحين لكنه يقيها بعيدة عن الحكم، فالإصرار على أن تكون السلطة العليا للدولة واليها ينتهي القرار بكل شيء يناقض إقراره بأنها مسؤولة أمام الشعب، الذي هو مصدر السلطات لكن الحزب هو من الإثنتين، فهو الذي يقرر ما هو جيد للأمة وما هو غير جيد، لأنه يحمل لواء الرسالة الخالدة ببعث المجتمع العربي وانتشاله من الوهدة التي وقع فيها خلال عصوره المتأخرة.

لم يخل الحزب من تأثر بين على مفاهيمه هذه، وعلى انقلابيته المزعومة: فحول هذه المادة الرابعة عشرة كتب أحد مفكريهم في العام ١٩٥٢ يقول:

"ليس في الإمكان لمثل هذا الشكل من المجتمع (الذي يصوره البعث) أن ينجز ذلك بالكامل إلا من خلال نظام ديمقراطي شعبي. وبالديمقراطية نعني نظاماً برلمانياً منتخباً انتخاباً حراً وحكومة مسؤولة مباشرة أمام ممثلي الشعب. والشعبية نفي الحكم المبني على ارادة اغلبية الأمة حيث يتمتع كل شخص بحرية العقيدة والتفكير بأوسع مجال." (٢١)

ويستطرد قائلاً: "ان حق الانتخاب يجب أن يكون لكل المواطنين رجالاً ونساءً اغنياء وفقراء دون ضغط أو خوف، وإن النواب يجب ان يُنتخبوا لأجال محددة والترشح مفتوح للجميع دون اعتبار للمستوى المالي أو لدين." (٢٢)

كان الرزاز أعظم مدافع عن الديمقراطية الدستورية بين قادة البعث ومفكريهم، وقد خصص أكثر من سبع صفحات من كتابه الموسوم "آثام الدكتاتورية وشورها" ولحقه من مؤسسي البعث (وهيب الغانم) فقد دافع في العام ١٩٥٣ عن الديمقراطية الدستورية دفاعاً مجيداً ومما قاله:

(٢١) منيف الرزاز: معالم الحياة العربية الجديدة، الطبعة الرابعة بيروت دار العلم للملايين، ص٦٦ (طبع لأول مرة في القاهرة العام ١٩٥٣).

(٢٢) جاء ذكر الدين هنا لأن حكومات البلاد الناطقة بالعربية ذات الانظمة الدستورية كانت تخصص عدداً محدداً من المقاعد للأقليات العنصرية او الطائفية في برلماناتها.

"النظام الديمقراطي البرلماني هو الشكل المثالي الذي يضمن للفرد حرية السيطرة على مصائر بلاده." (٢٣)

لم ينس الحزب أهمية ايجاد صلة له بالنضال القومي العربي الذي سبقه. فقررت المادة التاسعة من دستور الحزب:

"أن يكون علم الدولة العربية الواحدة، هو علم الثورة العربية (في الحجاز) التي بدأت في العام ١٩١٦ لتحرير وتوحيد الأمة العربية."

وهنا يظهر فقر واضعي دستور البعث في المعلومات التاريخية عن هذه الثورة لاسيما الظروف التي لا بست إختراع ذلك العلم والجهة التي صممته ورفعته. وأكاد أجزم لو علم أقطاب البعثيين هؤلاء الذين صمموا الدستور، إن الذي صمم (علمهم) هو السر مارك سايكس بمعاونة خبراء من دائرة الاستخبارات البريطانية في القاهرة. وإن أول إرسالية منه خيظت في معامل خياطة الجيش البريطاني في مصر، لفكروا ملياً قبل إقراره علماً وشعاراً لدولتهم العربية الكبرى، رغم ان الفكرة التي بني التصميم عليها كانت فكرة منطقية. فالقاعدة العامة هي أن تشك في صلاح وسلامة أي شيء يصدر من المستعمر الأجنبي إن كنت قومياً حقيقياً.

\*\*\*

للكلمة الملفوظة أو المكتوبة قيمتها الذاتية في المجتمع الناطق بالعربية سواء بالنسبة الى المتكلم أو الكاتب أو القاريء أو السامع. فالدعوة الى القومية والحرية هي بشكل ما خطوة عملية نحو إدراك القومية والحرية. هناك كثير من الرضا والشعور بالإرتياح والنجاح في إنجاز عملي بصياغة بيان أو نشرة في موضوع معين وإذاعته. والأمر سواء أأحدث تأثيراً على شخص واحد أو مليون أو أن لا يحدث أي اثر. لذلك كانت البيانات والكتب والكتابات التي تشيد بفضائل القومية العربية وتهاجم المستعمرين والإقطاع والرجعية والمستغلين وترفع شعار الوحدة بين كل الاقطار الناطقة بالعربية هي مقبولة حسنة الوقع لا عند البسطاء من الناس وحدهم، بل حتى عند الذين نالوا قسطاً كبيراً من العلم. فحتى لو حاول قادة البعث ومفكروه عبر الطرق العملية التفصيل في شكل الحكومة الوحدوية والنظام الإشتراكي للدولة العربية الكبرى، فإن عضو الحزب على أغلب إحتمال سيفكر بأنه في الوقت الذي يأزف لتسلم حزبه (٢٣) الإشتراكية وحرية الإنسان في "دراسات في الإشتراكية" بيروت، دار الطليعة في ١٩٦٠ (يلاحظ ان ما كتبه هذان كان في عهد حكم أديب الشيشكلي زعيم الانقلاب الثالث في سورية).

السلطة سيقوم بإداء هذه المهمة بمهارة ونجاح كأى انسان مثقف. ولذلك كان لشعار الحزب المثلث قوة جذب كبيرة عند شرائح معينة من الجمهور. وهي لاشك لا تلقى أي استجابة عند الصناعيين والإقطاعيين ورؤساء العشائر والملوك والأمراء وأمثالهم. بل حتى عند الفلاحين والعمال الذين ينصب اهتمامهم الأول في أمور أكثر بساطة وأقل تعقيداً كأجور أفضل وطعام أوفر ومسكن أريح. فحزبُ أيديولوجي أسسه وقاده مثقفون غلب خيالهم واقعيتهم كحزب البعث وبما تنم عنه هويات قاداته وكوادره الأولى كاد امتداده يكون مقصوداً على أناس اصابوا تعليماً أو كل من ادعى اصابة شيء من الثقافة، وتجنيد اعضاء الحزب على ضوء رسالته الخالدة - بالنظر الى الخط العام الذي رسمه منهاجه ونظامه فيما بعد لم يجر وفق ما رسمه له، بل كانوا هم ومرشحوهم وأنصارهم من بين الأقرباء والجيران أو الأصدقاء والذين هم على صلة وظيفية بهم أو بحكم الحياة اليومية التي يعيشونها كرفقة المدارس والمقاهي. وقد أدى هذا الى سيطرة أعضاء حزيين على القيادات - من مدن أو مناطق معينة. ففي بعث العراق مثلاً كانت هناك نسبة عالية جداً من القيادة من مناطق تكريت وسامراء والحديثة. وفي سورية وجدنا عدداً من قاداتهم بين العلويين والدروز الذين دخلوا الحزب عن طريق المدرسين البعثيين في المدارس الحكومية في مناطقهم.

يستأثر منا هذا الحزب بإهتمام خاص لمدى التأثير المدمر الذي أحدثه في الفكرة القومية العربية أو (العروبة) التي يترجمها الغربيون بمصطلح Pan Arabism والصدع الكبير الذي شقّه في المسار السياسي والاجتماعي للأقطار التي حكمها. ولعلاقته بضباط الجيش واستخدامهم في الانقلابات العسكرية - أو شبه العسكرية في محاولات الوثوب الى الحكم. وكذلك لدوره في قيام الجمهورية العربية المتحدة. ولكونه الحزب العقائدي الوحيد الذي استأثر بالسلطة في العراق وسورية قبل تلك الوحدة وبعدها. وكل هذا معروف ولا اظنني سأضيع فيه للقاريء وقتاً. إلا أن ما يجتذب اهتمامي بنوع خاص أساليبه التأميرية التي لاتسير وفق المبادئ الخلقية المتعارف عليها، رغم كفاءة قاداته المحدودة وعجزه عن تعبئة جماهيره. لأنه بقي الى الأخير حتى لفظ آخر أنفاسه كحزب سياسي - حزب أنصار مقاتل بطرقه البالغة القسوة في فرض الطاعة لسياساته.

إن الدمار الأعظم الذي أحققه البعث بالفكر القومي العروبي هو خلقه جيلاً نزوعاً الى الأنانية والشر وإرتكاب ما حرّمته الشرائع البشرية ورست عليه الحضارة من قيم إنسانية. بل وطئها وتجاوزها إذا إعترضت سبيل الترفيع وتسليم المناصب وعارضت مسيرة قادة الحزب. سار على هذا النهج منذ تشكيل الخلايا الأولى له في أواسط الاربعينات وأصبح بمرور الزمن

خط السير الأساسي غير المدون مبتدئاً بتلقين التلاميذ وضباط الجيش على جميع المستويات روح التآمر في صفوفهم. وزرع بذور التفرقة والكره لكل ما يراه الحزب غير بعثي. وبنفوذ كان يعتمد خريجو المدارس والجامعات على الرفاقية الحزبية لتسليم المناصب العليا والمسؤوليات الخطيرة لا على أساس الكفاءات والمؤهلات والضرورات. وهناك دلائل كانت تشير من الأول الى أن اعضاء الحزب ومشايخه ينالون معاملة خاصة من أساتذتهم اثناء وجودهم في مقاعد الدراسة والإمتحانات. وبإختصاصهم دون غيرهم بالزمالات والمنح الحكومية لإكمال دراساتهم في الخارج أو انتقائهم للكليات العسكرية وخصّهم بالترقيات العسكرية الخيالية أو خصوصاً هم أنفسهم بها.

ومن مظاهر بؤس هذا التنظيم القومي، مساهمته الكبيرة في تشويه العقيدة القومية العروبية النابعة من عقدة (الحزب المختار) التي استمدتها عفلق والبيطار والخوراني وغيرهم من مؤسسيه رأساً من العقيدة النازية. وتتأصل في اعضاءه وكوادره في مفاخرتهم بقياداتهم وإحتقارهم واستصغارهم للحركات العروبية الأخرى وقاداتها. يقول عفلق:

"ان عهداً جديداً للبطولات قد بدأ بالبعث العربي عندما خرج حزب البعث الى الوجود. ولهذا تمثلت في حركة البعث مصير الأمة العربية في هذا العصر."

على هذا الأساس يصف أعضاء الحزب وكوادره انفسهم بأنهم حملة راية الفكرة القومية الاصائل، وإنهم أقدر من غيرهم على النضال في سبيلها. وإطلاقاً من تلك الفكرة يبررون إحتكارهم للقومية ومقدراتهم على تحقيق أمانيتها. عمِل هذا الحزب أكثر مما عمله أي تنظيم سياسي عربي آخر للحط من قدر أجيال من الزعماء الوطنيين والقادة والمفكرين القوميين ولتشويه التاريخ الحديث للحركة القومية عموماً.

وقد بان ذلك جلياً عندما أتيح للحزب الوثوب الى الحكم. وسرعان ما ظهرت خلافات في عشية وضحاها بين أولئك التلاميذ الذين أصبحوا وزراء وقادة، والملازمين الذين أصبحوا جنرالات وبين عدد من الأعضاء القدامى والمؤسسين الذين اعتبروا رجعيين ومحافظين، فأعملوا فيهم قتلاً وذبحاً ونفيّاً وسجنّاً. فضلاً عن النزاع الدموي فيما بينهم اثناء كفاحهم للوصول الى السلطة أو بعده، تخللته سلاسل من حملات التطهير التي أشبهت في احيان كثيرة شكل حملات هتلر التطهيرية الدموية في ١٩٣٣-١٩٣٤، وأعادت الى الذهن عهد الإرهاب الستاليني العظيم ١٩٣٥-١٩٤١. وانتهى الأمر بعفلق الى أن وجد نفسه محكوماً بالإعدام بحكم أصدرته محكمة بعثية، ولفظ آخر أنفاسه وهو سجين في قفص قضبانه من ذهب وضعه



فيه واحد من آلاف الأشرار الأفاقين خريجي مدرسته - وأحكم قفله عليه. كما صرع البيطار برصاصة بعثية.

ولنمسك عن هذه التفاصيل مؤقتاً. للتعريف بحركة قومية أخرى بدأت مشاهدتها في جامعة بيروت الأمريكية قبل نهاية العقد الخامس من القرن عُرِفَت الحركة بإسم (حركة القوميين العرب) وانتشرت بين طلابها ونشرها هؤلاء في الأقطار العربية. كان مرشدها الروحي الدكتور (قسطنطين زريق) وقد مر بنا ذكره.

لم تنتظم هذه الحركة في حزب ولم تتقدم بأعضاء رسميين أو تبرز زعامة معترفاً بها. لكنها وجدت في (جورج حبش) الفلسطيني الذي كان يدرس الطب في الجامعة قائداً ميدانياً لها ومتكلماً بإسمها في أوائل الخمسينات.

بدأت الحركة بمجموعة معتدلة الأهداف إقتصرت نشاطها على إجتماعات خاصة تتخللها مناقشات - في مختلف النوادي الثقافية ببلاد الهلال الخصيب، وكذلك في مخيمات اللاجئين. وقبل ان تغرق نفسها في القضية الفلسطينية، كانت تدعو تفصيلاً الى وحدة عربية قاصرة على سورية والعراق والأردن ولبنان وفلسطين، وتأجيل البحث حول الإشتراكية الى ما بعد تحقيق الوحدة. ذلك لأن الأعضاء من هذه الناحية كانوا على إختلاف حول النظام السياسي - الإجتماعي الأجدر لهذه الوحدة في الزمان المقبل.

ثم اتجهت الحركة بعد إعلان التقسيم وقيام دولة اسرائيل وعقد حلف بغداد نحو اليسار، وإلتقت مع عبدالناصر حيناً في الدفاع عما دُعي في حينه بالحيداء الإيجابي، وفي خلال ذلك ساندت الجمهورية العربية المتحدة. ثم أعلنت القطيعة معه بعد الانفصال، وآل بها الأمر الى الاستقلال في تنظيم فلسطيني - قومي - يساري بإسم (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) بزعامة الدكتور جورج حبش.

لم تلتق حركة القوميين العرب بحزب البعث قط. واستحكم العداء بين الإثنين وجرت معارك ومشادات كلامية في ساحات الجامعتين الأمريكية والسورية، وفي الأولى لم يجد البعث حظاً كبيراً في حين كان البعثيون سادة الميدان في الثانية. ووجد البعثيون أنفسهم في الجامعة الأمريكية موضع سخرية بسبب قصورهم في فهم دستورهم وجهلهم أسلوب الدفاع عن معتقداتهم بسبب الخيال المفرط فيه.

ظل الدكتور زريق منذ أن دخل المعتزك القومي العربي بكتيبه "معنى النكبة - ١٩٤٨" يضرب خلال نصف قرن من عمره المديد على وتر التخلف العربي جلاب المصائب على الحركة

القومية:

"إن في رأس أصول الأزمة العربية الحاضرة المتعددة الوجوه وفي غور أسبابها التخلف العربي. إن هذا التخلف هو القضية الأم التي يجب أن تظل موضع النظر وقبله الإهتمام. لأنه مصدر العجز العربي الذي يبدو في مختلف الجبهات في مواجهة التحديات الخارجية وما جلبته من هزائم عسكرية وسياسية وإقتصادية متلاحقة وفي تلبية حاجات التضامن والتلاحم بين الدول والشعوب العربية وفي النهوض بتبعات البناء والإعمار والكسب الحضاري الذي يتطلبه العيش في هذا الزمان والبقاء في الزمان المقبل... إن العيب ليس في التخلف ذاته، فقد حصل لشعوب أخرى، بل لجميع الشعوب خلال مراحل تاريخها وهو حاصل اليوم لأكثر شعوب الأرض، وإنما العيب في القصور عن وعي حقيقته وتقدير خطورته وفي القصور عن مكافحته وفي إتباع المسالك التي توطده وتزيده إمعاناً وانتشاراً. ومن هنا فإن في مقدمة الهموم التي يجب ان تشغل الفكر العربي هو إعادة الثقة الى النفوس وتحويل التراخي والإرتياب واليأس الى (قلق) حقيقي ينير الشعور والفكر ويحفز الى الاستكشاف والمجابهة والصمود والبذل".<sup>(٢٤)</sup>

وفي الوقت الذي يرى هذا الأستاذ الجامعي العلاج في القضاء على التخلف العربي العمومي، نجد أستاذ مدرسة التجهيز الثانوية بدمشق يستفيد من وجود هذا التخلف في نشر مبادئه، والفرق هو تقرير الواقع عند الأول، والإغراق في الخيال عند الثاني<sup>(٢٥)</sup>:

"ان البعث هو قدر الأمة العربية... وعقيدة البعث لا يمكن الوصول اليها بالعقل لكن بالإيمان وحده... وإن القدر الذي حملنا رسالة البعث أعطانا الحق في ان نأمر بقوة ونتصرف بقسوة، إن البعث هو الطليعة وعلى الجماهير ان تمشي وراءه والإنقلابيون صورة سباقه لمجموع الأمة، إننا نعرف بأن هذه الفئة القليلة من الإنقلابيين الذين تضمهم حركة البعث العربي هم قلة في الظاهر قلة في البدء، لكن صفتهم القومية الصادقة تجعلهم صورة مصغرة وسباقه لمجموع الأمة، نحن نمثل مجموع الأمة الذي لا يزال غافياً منكرأً لحقيقته ناسياً هويته غير مطلع على حاجاته. نحن سبقناه فنحن نمثله، فالإنقلاب اذن طريق، طريق الى الغاية المنشودة

(٢٤) مطالب المستقبل العربي: هموم وتساؤلات، دار العلم للملايين ١٩٨٣، الص ٧-٩.

(٢٥) ميشيل عفلق: في سبيل البعث، المرجع السالف، ص ٢٢٦.

الى المجتمع السليم الذي ننشده، لكنه ليس طريقاً من الطرق إنما هو الطريق الوحيد. وبالإنقلاب اذن يُقضى على التخلف دفعة واحدة... وسحقاً للتطور والعقل، لكن ما هو المقصود بالإنقلاب بالضبط؟ لا أحد يعرف، لأن سؤال ما هو البعث؟ ما زال قائماً حتى الآن، ما هو البعث؟ لم تجب القيادات ابداً رغم تبدل الوجوه والزعامات ولا أظنها قادرة على أن تفعل، ولو استطاعت لدلّتنا على هويتنا ولعرفنا من نحن ولما حار فينا البشر وحرنا في أنفسنا كل هذه الحيرة." (٢٦)

هذه الحيرة لا تجدها عند منيف الرزاز (٢٧) وهو من قادتهم الكبار ومفكريهم، فقد عرف حزبه حق المعرفة. إلا ان معرفته به جاءت متأخرة:

"كان في ظن الناس في الوطن العربي وفي ظن البعثيين بشكل خاص، ان حزب البعث يحكم سورية، لكن الحقيقة التي بدأت تتضح بالتدريج هي أن هناك من بين البعثيين في هذا القطر حزب بعث عسكري... لذلك فمن يملك الجيش يملك القوة والسلطة. وقد قام البعث في تكوينه السياسي وتفكيره على الإنقلاب ليبقى أعضاؤه ثوريين وليبقى ثورياً، لأن من مبادئه الأساسية لا إيمان بتطور إصلاحي ولا قبول بالحل الوسط. ولهذا بدأ حزب البعث يكون نواته في داخل الجيوش العربية، ولاسيما في سورية والعراق والاردن... إنهم الإنقلابيون لأنهم ليسوا سياسيين وإذا عرف اشخاصهم فهو لا يعرف اتجاهاتهم، واتجاهاتهم اليوم هي ليست بالضرورة إتجاهات في الغد أو بعد الغد. فقد يبدء الإنقلاب العسكري في اليمين واذا به ينتهي في اليسار. وقد يبدء في اليسار وينتهي في اليمين والغالبية العظمى من الإنقلابات العسكرية في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية إنقلابات يمينية والأقل الأقل منها إتخذ طريق اليسار. مع هذا فأى يسار هذا اذا انتهى الإنقلاب العسكري بحكم عسكري. لقد واجه الحزب مهماته هذه بإرتجال عجيب وترك للعناصر المستعجلة ان تستولي على إتجاهاته بضعة ضباط هنا

(٢٦) الجندي: المرجع السالف. ص١٦١.

(٢٧) انتخب في العام ١٩٧٧ اميناً عاماً للقيادة القومية في العراق. وفي العام ١٩٧٩ إختلف مع صدام حسين فاستقال واعتقل وعُذب وتوفي في السجن وربما قتل. صدر كتابه (معالم الحياة العربية) في عمان (الأردن) بعد وفاته. وكان يسرب ما يكتبه من السجن بوساطة أولاده وأبناء عشيرته عند زيارتهم له، وهو أردني الجنسية. وهذا المقتبس من الجزء الثاني من كتابه السالف، وقد أسماه: التجربة المرّة.

وهناك بإسم الحزب، وهياً بعد ذلك لإنحراف خطير ظهرت آثاره حين تولى الحزب الحكم في العراق وسورية، لقد كنا نتخبط في التناقضات بسبب الخلافات الحزبية. كل ذلك كان ينقض في بحث النقطة الصغيرة غير المهمة ساعات وساعات في الجدل العقيم في جو من الأوهام والتهديد وإنهاك الأعصاب واليأس والرغبة في الخلاص من كل هذا. ويجب ان أعترف هنا اني كنت غريباً في مثل هذه الأجواء، فقد قضيت زهرة حياتي في الحزب ولكن لم أر مثل هذه الأجواء مطلقاً، كان السجن عندي أهون من النزول الى هذا الدرك ولذا فكرت بالاستقالة." (٢٨)

والطابع الذي وجدته الرزاز وبلغ به حد الاستقالة هو الطابع العسكري المتفسخ الذي ساد اوساط الجيوش العربية عموماً، أممي تجسسي، تباغض وتحاسد وكيد. وجدّ فيه أوباش غلاظُ من القتلة السفاكين في أجهزة قمع خاصة لذة في تلوي ضحاياهم بأيديهم تحت صنوف مبتكرة من التعذيب الجسدي والنفسي. نظام يستند الى هذا أكثر من استناده الى ثقة الناس، أو ثقته بالناس لأنه يجد في كل معارض أو منتقد، متآمراً عليه وخصماً تجب ازالته.

وعليك ان تتحمل معي الرحلة الشاقة التي فرضها علينا فيلسوف بعثي آخر قالوا إنه عضو في القيادة القومية، العراقية، ليكون فيها فصل الخطاب ولتكمل صورة البعث بريشة أهله يقول السيد (مطاع الصفدي):

"ان البعث القومي بحاجة الى جيل من المناضلين أكثر من حاجته الى جيل من العلماء والفنانين، وهذا الجيل هو الممهّد، هو الباذر بذور الحضارة الجديدة. إن وجدان الجيل المناضل هو محل التجربة القومية، هو خالقه وبالتالي هو مؤصلها في وجدان الأمة وهي هامة لنمو شخصية الرسالة، وفي وجدان الجماعة كما في وجدان الصاعد للارتفاع الى مستوى امكانية الحرية الخبيثة خلال السنة اللهب. فالتجربة هي عبر غاية من الإمدادات والفتوحات. من الهمّ واليأس والأمل الشيطاني. من الشك والصمود أمام الشك، من الهدم والإرتفاع فوق الركاب. لذلك لا بد من تطور حاسم في نمو هذا التضخم الإنساني أمامه. صراع الأبطال يكاد يتحول الى جحيم أرضي تأكل ناره نوره. ودعوة البعث للإرتفاع الى مستوى انساني جديد. فالبعث كأنه خلق من عدم، مقياس توجد أو لاتوجد. إن بروز الفرد من سديم الكتلة هو غاية الفردية وبين أن يشخص الإنسان كموجود سديمي تنضح

(٢٨) المرجع السالف: ص٢٨٠.

مشكلة الثورية وهي في صراعها من أجل تثبيت سلبيتها وإيجابيتها معاً وهو أن كل شيء متداخل في كل شيء، وأنا ذاتي جزء من هذا التداخل الأعمى. ان الشباب الثوري في الوقت الذي يعتقد أنه تخلص من كابوس الناس، إنما هو يقابلهم بمنحى ذاتي آخر على أساس أنه يرفض الناس. وموقف الرفض يفترض وجود ما نفرض ان الثوري في الوقت الذي يرفض فيه وجود الناس فإنه كذلك يرفض وجوده، انه تائر لأنه تائر، وفي كل لحظة يستطيع الثوري ان يضغظ ميوعة هذه السديمية ويعطي لها وجهاً واضحاً، قد يُسمى هذه السديمية بأسماء شتى كالتقاليد الرجعية والتجزئة السياسية والاستعمار والإقطاع.

نحن نربي ذهنناً نضالياً يستطيع ان يستلهم كل فترة شعاراتها، ونحن لانعد لرجل حرب لكننا نعد للرجل المستعد لأية حرب. لانريد بطولة وثنية (ديونيزوسية) ولكننا نبدع فكرتنا عن إلها الجديد الذي يدرك كرامة تمرنا. فإذا كان الإله الجديد غير موجود، فكل شيء ليس بمسموح. ان إتحدانا بوجودنا الثوري هو الذي يسمح لنا ان نطلع على مولد القيمة والثورة والإتجاه سواء، وهو يحصد الفشل والعزاء بالنجاح. انه يتأبط الجحيم ولا يعد نفسه أو الآخرين بأي جنة." (٢٩)

واصارك أيها القاريء إني لم أفهم من هذا الوجد الصوفي الشبيه بهذيان المجدوب غير هاتين العبارتين: جاءت أولهما في الفاتحة وكانت ثانيتهما الخاتمة، وهما:

"البعث لا يحتاج الى علماء وفنانين."

"البعثي لا يعد نفسه أو الآخرين بأي جنة."

\*\*\*

(٢٩) الفاظ هذه العبارة عربية لا شائبة فيها، لكن مصدر الإشكال في فهمها هو تفسير العبارات التي نحتها المؤلف وألف منها. فعندي أن قوله "الأمل الشيطاني" وقوله "انه تائر" وقوله "موقف الرفض يفترض وجود ما نفرض" وقوله "نضوج مشكلة الثورية"، وغيرها وغيرها - هي أغاز إندفعت من أفكار مشوشة عجزت ان أجد تعبيراً واضحاً لها، على اني اريد مساعدة القاريء العنيد الذي يصر على ان يخرج من هذه الأقوال بشيء يزيد عما خرجت به لأشرح له معنى السديم والسديمية الكثيرة التردد في هذه الفقرة - كما ورد في المعاجم العربية المعتبرة، فهو الضباب الرقيق او المنتشر العمومي. وقد استخدم الفلكيون العرب الكلمة لإطلاقها على بقع في الكون السماوي ضعيفة النور، منها ما تجمع في غازات مضيئة ومنها ما ضم مجموعات من الكواكب والنجوم. وأولها يقابله لفظة Haze وثانيهما يقابله لفظ Nebulee التعبيران الفلكيان. فأني معنى من هذين قصده الأستاذ؟ (من الجدير بالذكر أن الصفدي كان واحداً من الخارجين المتأخرين عن البعث راجع كتابه: حزب البعث: مأساة المولد مأساة النهاية، بيروت ١٩٦٤).

في شهر نيسان ١٩٤٨ أعيد انتخاب (شكري القوتلي) لفترة رئاسة ثانية فطار المستغلون والنفعيون فرحاً، وتكالبوا كل يريد حصته من الغنيمة، عاد الطاقم القديم الى السلطة مرة أخرى، وانتشرت الشائعات والأقاويل حول المتاجرة بإجازات الاستيراد والتصدير وبوكالات الاستيراد. وكان القوتلي نفسه يقف على رأس صرح المحسوبية والفساد وسوء الادارة<sup>(٣٠)</sup>.

وقد قُدر لهذا الصرح ان يتقوّض عند تعرضه لأول هزة:

في شهر أيار خرج الجيش السوري لقتال الصهاينة والمشاركة في إزالة دولتهم المعلنة مع جيوش الدول الناطقة بالعربية. فقد تأججت النار العربية فجأة بعد فترة وجوم قصيرة إثر هذه الصدمة الكبرى، التي إنقلبت الى هياج كاسح لم تجد معه حكومات تلك البلاد من سبيل إلا ان تتحدى نفوذ الدول الكبرى التي رعت هذه الشرذمة من المهاجرين فصادقت على قيام دولتهم. لاسيما ما كان سيترتب على قيامها من تهديد آمال (فاروق) في سيادة العالم العربي والإسلامي.

وتلا ذلك قتال عبأت له تلك الدول قواها العسكرية. وكان قتال تسوده الفوضى وافتقر الى التنسيق ويكتنفه الشك في نوايا زعماء عرب فلسطين المطعون في نزاهتهم وإخلاصهم. وقد شجعتهم نصره حلفائهم هؤلاء فراحو يطلقون الوعود جزافاً للفلسطينيين ويطمئنونهم بأن الأمر لن يقتضي منهم غير أيام معدودات ليضيع كل أثر لهؤلاء الدخلاء ويُمحقوا من الوجود محققاً وتعود الارض الى أصحابها الشرعيين وسكانها الأصلاء. وبتنتيجة ذلك بدء سيل عرم من الهجرة الجماعية العربية وجميعهم يتصورون بأنهم لن يبقوا بعيداً عن وطنهم إلا أياماً قلائل تنال جيوش العرب خلالها نصراً ساحقاً. هاجروا الى الاردن وسورية ولبنان والعراق بأعداد غفيرة وبهستيريا يخالطها تفاؤل هستيري - نصف مليون إنسان! هجرة لم يرَ القرن العشرون لها مثيلاً لا بحجمها ولا بالسرعة التي تمت بها.

كان الجيش السوري الحديث التكوين جيشاً تعوزه القيادة الكفوءة والعدة والمعنويات، وبدا عجزه عن الوقوف في وجه ما أسمته صحف دمشق بـ"العصابات الصهيونية". وتصاعدت شكوى الضباط بأن القصور متأت من الفساد ومن سوء الإدارة المدنية وربما تأتي هذا الإتهام كرد فعل لمحاولة القوتلي إتهام الضباط أنفسهم.

ففي زيارة قام بها لجبهة القتال في اوائل العام ١٩٤٩ اكتشف ان السمن الذي يستخدم

(٣٠) باتريك سيل: The Struggle for Syria: A Study in Post War Arab Politics ١٩٤٥-١٩٥٤ المرجع السالف، لندن، ص٣٢.

لطبخ طعام الجنود في مطابخ الجيش ليس من السمن المصفى من الحليب المخثر بل هو من صنف رديء جداً يُستخرج من نخاع العظام وفضلاتها. فأمر بإلقاء القبض على الضابط الأقدم المكلف بالمبيعات لتجهيز أرزاق الجيش، وكان برتبة عقيد ومن المقربين جداً لقائد الجيش العام العميد (حسني الزعيم)<sup>(٣١)</sup> الذي انتقاه بنفسه واسند إليه هذا المنصب. وحاول الزعيم التوسط عند خالد العظم لإطلاق سراح زميله فردّه بفظاظة. وسواء في الأمر أكان العميد نفسه مشاركاً في الغش وخائفاً من افتضاح امره فيه، أم هو انتصار لصديقه أو غيرة على سمعة الجيش الذي حاول المدنيون إلصاق التهمة به. فقد قام بإنقلابه في ٢٠ من آذار.

وألقي القبض على القوتلي ورئيس وزرائه خالد العظم والوزراء ولفيف من الوطنيين والقوميين المخضمين التابعين لـ (عصابة الحكم كما نعتتهم الصحف السورية) وتسلم السلطة كلها. وارغم المقبوض عليهم وهم في السجن، فقدموا استقالاتهم. وللتاريخ مفارقاته فكما كان الكيلاني رشيد عالي يعتبر بكر صدقي من أخلص المقربين بل اخلصهم. كان القوتلي يثق

(٣١) على إثر الفضيحة وتوقيف بعض الضباط هوجم الجيش في مجلس النواب وقدمت إليه لائحة تقضي بتقليص وإنقاص علاوات ضباطه، واستغل الزعيم تشجيع بعض الساسة الناقمين كآكرم الحوراني والقوميين الشباب، الذين استقبلوا إنقلابه بمثابة فاتحة لعملية إنقاذ البلاد من استغلال الكتلة الوطنية الحاكمة (القوميين المخضمين) الذين زوّوا الديمقراطية وعثوا بمبادئها.

ولد حسني الزعيم لرئيس قبلي كردي في قرية من أعمال حلب في العام ١٨٩٩ وتخرج ملازماً في المدرسة الحربية باستنبول وعين في حامية (المدينة) بالحجاز اثناء الحرب وتم أسرته هناك ونقل الى مصر وبقي فيها معتقلاً حتى نهاية الحرب. وفي العام ١٩٢٠ إنخرط في (قوات الشرق) الفرنسية وبلغ فيها رتبة مقدم. وكان عند هجوم ١٩٤١ أقدم ضابط سوري فيها وأكثرهم استماتة وجرأة في القتال مدفوعاً بكره شديد للإنكليز. وأحيل الى محكمة عسكرية فرنسية بعد إحتلال سورية وحُكم عليه بالسجن مدة عشر سنوات، لكن أطلق سراحه بعد سنتين وثلاثة أشهر ونُفي من سورية وجعلت اقامته اجبارية في لبنان. لكنه عاد بعد خروج القوات الفرنسية وإعلان الاستقلال وإنضم الى الجيش السوري الجديد. وفي أوائل العام ١٩٤٧ عين مفتشاً عاماً لقوات الشرطة، ثم أسندت اليه في ١٩٤٨ رئاسة أركان الجيش. كان الزعيم شخصية جذابة عموماً وقد مال إثر إنقلابه الى المحافظة على القشرة الديمقراطية والدستورية بمحاولته تشكيل حكومة جديدة من الساسة القدماء وكلف (فارس الخوري) رئيس مجلس النواب بتشكيلها، فأبى وقطوع. وعندها بادر الى حل المجلس وبدأ يحكم البلاد حكماً سافراً فردياً. في الرابع من حزيران ١٩٥٠ أجرى استفتاءً عاماً لانتخاب رئيس جمهورية جديد وكان المرشح الوحيد، ورفع نفسه الى رتبة المارشال (أوصى بعمل عصا المارشالية في باريس إلا أنها وصلت متأخرة). رغم الإصلاحات العديدة التي أحدثها في بنية المجتمع السوري (إعطاء المرأة حق الانتخاب) فقد وقع في شبك الحكم الدكتاتوري العسكري وكانت تنقصه التجربة السياسية، فكَم أفواه الصحافة وخنق أصوات النقد وحل الأحزاب السياسية وأقام جهاز أمن كان يتجسس به حتى على وزرائه، واعتقل مئات من المعارضين واصبح مادة للتندر والسخرية والنقد الجارح. وراح يعمل على التخلص من الضباط الذين ساندوه في إنقلابه بنقلهم الى مراكز بعيدة وكل هذا عجل بسقوطه. مع هذا لم يسفك في عهد الزعيم قطرة دم واحدة.

بحسني الزعيم ويعتبره كإبن له، ويرعاه ويبسط حمايته عليه، وقد أنذر بالإنقلاب فلم يصدق كما قيل.

هفت زعيم البعث للإنقلاب في مقال له بجريدة البعث:

"ليس ما حدث في سورية إنقلاباً. فهو في الواقع خطوة نحو الإنقلاب واننا نستبشر بهذا الحادث ونعلق عليه الآمال. لكن علينا ان نوسع آفاقنا وننظم صفوفنا وان ننظر دوماً الى الأمام. الى العلا. فالإنقلاب الذي يطمح اليه الشعب العربي هو إنقلاب شامل. الإنقلاب لمحو الإنقلاب الذي يحقق للشعب العربي في الأقطار الاشتراكية العربية والوحدة العربية."

إلا أن هذا الاستبشار والترحيب لم يدم طويلاً. ففي ٣٠ من أيار، أي بعد الترحيب بسبعين يوماً، أصدر الحزب بياناً شنّ فيه حملة شديدة على الدكتاتور الجديد متهماً إياه بتصرفات غير مسؤولة لاتليق بالحكم. ونسي عفلق انه لايتعامل مع سياسيين مدنيين، بل مع عسكري قليل الصبر على النقاش والجدال. فكانت صدمته الكبرى التي اثرت تأثيراً عميقاً على سلوكه السياسي التالي - عندما أصدر (الزعيم) أمراً بإعتقاله مع لفيف من أعضاء حزبه وزُجوا في السجن العسكري بالمرّة. وفي زنزانته تلك كتب رسالته الشهيرة لسجانه مشتبهاً بها حرّيته ومعهاداً على إعتزاله العمل السياسي نهائياً<sup>(٣٢)</sup>.

(٣٢) كتبها بخط يده وذلّتها بتوقيعه. سلّم الرسالة الى العقيد إبراهيم الحسيني أمر سجن المرّة، فحملها هذا الى حسني الزعيم. فأعطى بدوره الصحفيين صوراً منها فنشروها وذاع أمرها. ذكر العقيد الحسيني، وكان من أنصار الحزب، أن "عفلق" كتب في مبدء الأمر رسالة مطولة يخطيء فيها تصرفاته وفلسفته في القومية جملة وتفصيلاً. وفيها من الذلّة والتخاذل ما ينفر منه من ملك أقلّ قدر من الكرامة. فثارت نفس (الحسيني) ونصح عفلق بإعادة النظر في محتواها لأن محتواها لايليق بمقام رئيس حزب ففعل. واليك نص الرسالة البديلة:

دمشق: سجن المرّة في ١١ حزيران ١٩٤٩

سيدي دولة الزعيم

إن هذه التجربة الأخيرة قد علمتني أشياء ونبهتني الى أخطاء كثيرة. لقد انتهيت الى أننا بحكم العادة بقينا نستعمل أسلوباً لم يعد يصلح في عهد الإنشاء والعمل الإيجابي. والحق أننا في قلوبنا وعقولنا أردنا هذا الانقلاب منذ الساعة الاولى ولانزال نعتبر أن واجبنا في خدمته وتأييده، ولكن الأسلوب الذي اعتدناه طيلة سنين عديدة من المعارضة للانداب والعهد السابق، هو الذي بقيت آثاره في كياننا وبعض تصرفاتنا وهو الذي أخفى عنكم يا دولة الزعيم حقيقتنا وأظهرنا بمظهر المعارض لعهد وضعنا فيه كل آمالنا وصممنا على خدمته بتفانٍ وإخلاص.

سيدي دولة الزعيم

اني قانع كل القناعة بأن هذا العهد الذي ترعونه وتنشؤونه يمثل أعظم الآمال وامكانات التقدم لبلادنا. فإذا شئتم فسنكون في عداد الجنود البنائين وإذا رغبتم في أن نلزم الحياض والصمت فنحن مستعدون =

كان وقع هذه الرسالة على الأعضاء البعثيين شديداً واصيب الجميع بذهول. ولم ينبر أحد ليجد لها نوعاً من دفاع غير (سامي الجندي) (٣٣) ولم يكن دفاعاً بالمعنى الحقيقي. فهو لم ينكر صحتها وأظهر زعيمه الحزبي بمظهر (الرجل الذي ناله من الإهيار العصبي والضعف النفسي المقدر الذي جعله يمثل لنصيحة (الحسيني) زاعماً إنه هو الذي زين لعفلق كتابة هذه الرسالة.

وجوبه عميد الحزب بثورة وبحملة شعواء تزعمها الشخصية الثانية في الحزب صلاح الدين البيطار نفسه. وكان هناك حديث حول محاكمة عفلق وإزاحته عن القيادة (٣٤).

وعلق العميد (اللواء) مصطفى طلاس وهو بعثي على الحادث:

"إن المصيبة التي لطم الحزب وجهه عليها، لم تكن في الحبس وإنما من نتائجها. فقد إنهار (ميشيل) عميد الحزب أمام حسني الزعيم... كان أحرز يوم في حياتي يوم طالعتنا الصحف بكتاب الاعتذار الذي وقعه عفلق للزعيم والذي بايعه فيه وتعهد له بعدم الإشتغال بالسياسة. حاولنا في البداية تكذيب النبأ. ثم جاءتنا الأخبار من اللجنة التنفيذية بدمشق أن الكتاب بخط يد الأستاذ ميشيل والإنشاء

= لذلك.

إن هذه المجموعة من الشباب التي يضمها البعث العربي قد عملت كثيراً في الماضي لتكون قدوة في النزاهة والوطنية الصادقة، وإن ماضيها يشفع لها عندكم يا سيدي لكي تعذروا ما ظهر منها من تسرع بري، وإن وراء هذا النزق نفوساً صافية ومؤهلات ثمينة للخدمة العامة وما أجدر عهدكم أن يفتح لها مجال الفتح والانتاج.

أما أنا يا سيدي الزعيم، فقد إخترت أن أنسحب نهائياً من كل عمل سياسي بعد أن انتهيت بمناسبة سجنى الى أخطاء أورثتني إياها سنون طويلة من النضال القومي ضد الاستعمار والعهد السابق. واعتقد أن مهمتي قد انتهت وإن اسلوبي لم يعد يصلح لعهد جديد، وأن بلادي لن تجد من عملي اي نفع بعد اليوم.

سيدي دولة الزعيم

أنتم اليوم بمكان الأب لأبناء البلاد ولا يمكن ان تحملوا حقداً لأبنائكم، ولقد كان لهذه التجربة تنبيه كاف ومفيد.

اتركوا لنا المجال لكي نصحح خطأنا ونقدم لكم البراهين على وفائنا وولائنا. ميشيل عفلق

(٣٣) المرجع السالف، ص ٥٤.

(٣٤) في العام ١٩٥٤ والشيء بالشيء يذكر، ألقى عبد الحميد السراج ورجال أمنه القبض على (فرج الله الطلو) رئيس الحزب الشيوعي اللبناني، وعرض عليه مقابل حريته أن يكتب رسالة اعتذار عن كتاباته ضد حكم الوحدة والانسحاب من العمل السياسي فرفض. وعذب تعذيباً شديداً ثم ذوب في حوض من حامض الكبريت، تم ذلك بحضور من معاون رئيس المخابرات عبدالوهاب الخطيب، وهو الذي قص الواقعة فيما بعد.

من صنعه والتوقيع توقيعه. وبأرض إنشقي وابلعينا! فبطن الأرض خير من ظهرها في مثل هذه الحالة. صارت مسألة التواري عن وجه القوم مسألة جدية. ماذا نقول للناس والأصدقاء؟ بماذا نجابه القوم؟ كيف نفسر؟ كيف نبرر؟ كيف نعتذر؟ وكيف نجادل والمسألة خرجت عن دور الأفلاطونيات وحلقات الدخان في مقهى البرازيل والهاقانا ودخلت الفحص العملي؟ وبالذخيرة الحية؟ كيف ننطق وعميد الحزب استقال من السياسة وقدمها للزعيم والناس تحب صداقة السباع لا الأرناب؟" (٣٥)

وبطبيعة الحال لم تستجب الأرض لنداء اللواء طلاس، ولم تنشق لتبلعه وإنما إنشقت بعد شهر قلائل لتبلع ذلك الذي إمتهن الحزب الطليعي واذل قائده. وتلاشت الضجة بالإنتقال الثاني الذي آذن بعهد الانقلابات الدموية. لأن اللواء سامي الحناوي فضل سبيل التنصيف الجسدية على الإعتقال والسجن. فقتل الزعيم ورئيس وزرائه على رصيف الشارع العام (٣٦).

(٣٥) مرآة حياتي، دار (طلّاس) للدراسات والترجمة، دمشق، الص ١٢٧-١٣٠. كان رئيساً لأركان الجيش في ١٩٦٨ برتبة لواء ونائب أول لوزير الدفاع، وهو من البعثيين الإنقلابيين.

(٣٦) كانت بين كاتب هذه السطور وبين آل البرازي مودة وصداقة مكينة في بيروت (١٩٧٠) لاسيما بالأستاذ الطيب الذكر حسني البرازي (أحد رؤساء الوزراء في عهد الانتداب) وهو من الموالين اللاصقين بالأسرة الهاشمية. وكذلك بإبن محسن البرازي (رئيس الوزراء في عهد حسني الزعيم) وبالسيد (حرشو) وهم قوميون كُرد لاينكرون اصولهم ولم يكونوا بعيدين عن الحركات القومية الكُردية (وقد أيد ذلك جورج حداد في كتابه: الثورات والحكم العسكري في الشرق الاوسط Revolutions and Military Rule in the Middle East ج٢، نيويورك ١٩٧١ جاء فيه ما نصه: «رئيس وزرائه البرازي هو من اصل كُردي ومن المهتمين بالحركة القومية الكردية». نقول: روى لي المرحوم حسني البرازي وقائع تلك الأيام رواية خبير مطلع. ومما ذكره أن إبن عمه (محسناً) كان سكرتير الرئيس القوتلي، وكاتب خطبه وتصريحاته. وفي اليوم التالي من الإنقلاب استدعاه حسني الزعيم. فذهب وكله يقين بأن مصيره الإعتقال لصلته بالقوتلي. إلا أن قائد الإنقلاب فاجأه بتعيينه مستشاراً خاصاً، ثم أسند اليه رئاسة الوزارة بعد توليه منصب رئاسة الجمهورية. وفي لبنان لازمني من آل البرازي (حرشو) وهو الذي أخذ بثأر ابن عمه محسن بقتله اللواء سامي الحناوي، الذي لجأ الى بيروت بعد إنقلاب الشيشكلي. قال لي: إنه ناداه وهو يسعى وراءه (لأنه أنف ان يطلق الرصاص عليه مديراً حسب قوله) فإلتفت الحناوي ففاجأه حرشو برصاصتين قاتلتين وهو يقول هذا لثأر محسن". وكان ذلك في ٣١ تشرين الاول ١٩٥٠. حكم على حرشو بالإعدام وأبدل بالحبس المؤبد. وبعد قضائه بضع سنين أصدر كميل شمعون مرسوماً بإعفائه عما تبقى من حكوميته. قال لي حرشو إنه مازال يجد في طلب الضابط (عصام مريود) الذي أشرف على عملية القتل. وروايته لي لاختلف بكثير عن الرواية التي وردت في كتاب (الإعصار) الذي ألفه الملازم فضل الله ابو منصور (بيروت ١٩٥٩) واصفاً دوره. وكذلك ناصر النشاشيبي (ماذا جرى في الشرق الأوسط، بيروت ١٩٦١، الص ٦١-٦٢)، قال: "إن قائد كتبيته المقدم أمين ابو عساف عصى أمر الزعيم بحركة الكتيبة المدرعة من الفينطرة الى جبل الدور، وزحف بها على (قطنه) جنوب دمشق حيث كان موعد إنضمامها هناك بالحناوي. =

ونشر الحزب بين أعضائه تعليلاً لهذا الإنهيار الذي أصاب زعيمهم لقي صداه الإيجابي عند الأعضاء الصغار، الذين أعمتتهم الحماسة وغمّت على عقولهم مؤداه ان نبيهم وزعيمهم هذا فضل التضحية بسمعته ومستقبله في سبيل الأعضاء الآخرين الموقوفين. لأن حسني الزعيم هدد بقتلهم جميعاً إن لم يقدم عميدهم إعتذاراً ويتعهد بالانسحاب النهائي من العمل السياسي. وقيل ان مصدر الاشاعة هو عفلق نفسه.

إن حسني الزعيم لم يكن دموياً. فكل ما أصاب خصومه من إنقلابه اسابيع إعتقال قليلة، ولم يكن هناك أي سبب يدعو الى إراقة دم شباب أعرار لا وزن سياسي لهم. جاء حسني الزعيم كما جاء بكر صدقي قبله في العراق وكما سيجيء بعدهما من الإنقلابيين العسكريين في البلاد الناطقة بالعربية، دون سمعة سياسية ومن دون خطة معينة لنظام حكم جديد.

قيل إن أحد رؤوسيه من الضباط قال له إثر الإنقلاب: "سيدي، كل سورية الآن في يديك!" فرد عليه بقوله مستغرباً: "يخرّب بيتك! شو بدّي فيها؟" (ماذا اصنع بها؟)

قبل به السوريون لأنهم ماكانوا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً، ولأنهم كغيرهم يأملون تغييراً الى الأفضل. ولذلك كان بقاءه مرهوناً بمساندة الضباط الذين استعان بهم على تحقيق إنقلابه. نجح في البقاء لفترة قصيرة جداً خسر خلالها تأييدهم وكسب عداؤهم بعنجهيته وغروره ومحاولته لتشتيت شملهم. في حين يتفق المؤرخون المرتزقة منهم وغير المرتزقة ان الغدر به (انطون سعادة) رئيس الحزب القومي السوري وتقربه الشديد من الفرنسيين وإحباطه مشروع الإتحاد السوري - العراقي الذي كانت الطبقة الحاكمة العراقية تسعى اليه، فضلاً عن اصلاحات سريعة جداً صعب على السوريين هضمها... كفصل دائرة الاوقاف عن متوليها وإحاقها بالدولة فضلاً عن تقريبه المسيحيين والكرد، كما ان قصة رشوة الملك فاروق بمبلغ خمسين الف باون لقاء الاعتراف الرسمي به كانت على كل شفة ولسان.

الضباط السياسيون القوميون، أمرهم في سورية كأمرهم في العراق، بزعم إصلاح الوضع

= وفي الساعة الثالثة من صباح ١٤ آب ١٩٤٩ تحركت وحدات المدرعات وإحتل الملازم أبو منصور (الدرزي الديانة) قصر الرئاسة وألقى القبض على الزعيم، وكال له لطمه وراح يشبعه سباً وتقريعاً لغدره بأنطون سعادة. وحمله في مدرعة الى موضع في ناحية المرة، حيث إلتحق به (المتأمرون الآخرون) الذين ألقوا القبض على محسن البرازي". قال النقيب (عصام مريود) الذي جلب البرازي للملازم أبو منصور إن قيادة الجيش قد حكمت على الإثنين بالموت وأن يجري التنفيذ بهما فوراً. فوضعا أمام فرقة إعدام وأرديا رمياً بالرصاص. و(بالمناسبة) كان أنطون سعادة قد هرب الى سورية، بعد ان هوجم مقره في بيروت وعثر على اسلحة، ومنحه حسني الزعيم حق اللجوء السياسي. الا انه مالبث ان سلمه الى السلطات اللبنانية التي أحالته الى محكمة عسكرية سريعة واصدرت عليه حكماً بالموت نفذ فيه فوراً.

والقضاء على الفساد نسفوا أسس الدولة القائمة وفق الأطر الديمقراطية بمدى أوسع واعمق تأثيراً بكثير مما فعله الزعماء السياسيون وأحزابهم. يدخلون المرسح ويخرجون بتعاقب سريع يشبه انطلاق صواريخ الألعاب النارية يوم عطلة رسمية. يرتفع واحد منهم من ظلام أسحم الى القمة ليضيء فترة قصيرة وينشر شراراته مبدداً الظلام للحظة واحدة بألوان صارخة وانوار متألقة عديدة وسط هتاف الجمهور المحتفل وحماسته، وتنفيساً لضيق جثم على صدره من حكام سابقين غلاظ قساة وفي افضل الاحوال لا أباليون انانيون، ما يلبث الصاروخ أن يتلاشى ليهوي من حالق عوداً بائساً محترقاً، فيعقبه آخر. أتوا وذهبوا بسرعة خاطفة... الزعيم، الحناوي، الشيشكلي، الكزبري، السراج، النحلاوي، سلو، زهرالدين، الأتاسي، الحريري، الحافظ، جديد، أحد عشر عسكرياً من أشهر الإنقلابيين العسكريين السوريين كل واحد منهم كان الرجل القوي المطاع ذات يوم... في سورية قلعة القومية وحصنها الحصين.

لم يكن أحد يتوقع ما خبأه المستقبل بطياته لسورية المستقلة بعد الحرب. قذفت بها الى جو الحرية والاستقلال وإرتخت عنها قبضتا الأجنبي كما ترتحيان كفا لاعب كرة السلة حين يقذف بها الى الهدف. لم يكن أحد يستطيع التنبؤ ولو بعشر معشار ما آلت اليه مصائر أهلها ومما سيحصل. لكن لم يكن عسيراً ان تلحظ العيون النافذة أن جو الحرية والاستقلال هذا كان ملبداً بغيوم.

\*\*\*

ليس من أغراض هذا الكتاب تناول تاريخ الجامعة العربية أو جامعة الدول العربية كما دُعيت رسمياً - بأي تفصيل ولا فحص أعمالها وإنجازاتها أو مناهجها، بل سيكون التصدي لها قاصراً على ما فعلته في سبيل القومية العربية وما خلّفته من آثار في النضال العربي.

في اوائل العام ١٩٤٣ بدت كفة الحلفاء راجحة بتحقيقها انتصارات عسكرية متوالية هامة وانقلب الموقف العسكري الى موقف هجمات كاسحة طوال ذلك العام - على جميع الجبهات ولاحت بوادر نصر نهائي لا شائبة فيه.

كان ساسة الوايت هول يدركون بأن شمس الانتصار النهائي سيرافقه أفول شمس الامبراطورية التي لم تكن تغيب عن أفقها. وبوجود الحليفين العظمين الولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي معهم على طاولة مفاوضات السلم وتوزيع مناطق النفوذ، فبريطانيا ستكون شريكاً مساوياً في افضل الاحوال وستكون معتمدة على الولايات المتحدة، التي قرر زعماءها ان لا تكون هناك (فرساي) ثانية، وان لا يتكرر سلوكهم الذي اتخذوه في ذلك المؤتمر

الذي عقب الحرب العظمى الأولى، وقد تقدم ذكر ذلك بتفصيل. في الوقت عينه، لم تعد فرنسا ازاء بريطانيا ذلك الخصم القوي الذي نازعه السلطان وقتذاك وكان جلوسها على طاولة الثلاثة الكبار اشبه بجلوس عضو الأسرة الفقير على مائدة الأقرباء الأغنياء.

كان ساسة الوايت هول قد ادركوا منذ تحولت الحرب الى صالح الحلفاء ان مكانتهم السابقة في البلاد الناطقة بالعربية ستواجه تهديداً حقيقياً من التوسع العقائدي السوفياتي ومصالح الولايات المتحدة الإقتصادية بغياب الخصم الفرنسي، وان عليهم ان يخترعوا نظاماً جديداً للشرق الاوسط يكفل لهم مكانتهم ومصالحهم ونفوذهم، وتفتق ذهنهم عن فكرة الجامعة العربية.

وأعدت التمثيلية في وقت سابق كثيراً لتأسيس الجامعة رسمياً، اعددها وزير الخارجية في مجلس العموم، وفي هذه القاعة كان أول مشهد للتمثيلية: إذ نهض عضو من محتلي المقاعد الخلفية back bencher وألقى سؤالاً تم تلقيه إياه قبلاً:

"أما في نية الحكومة اتخاذ خطوات لتحقيق تعاون إقتصادي وسياسي بين الدول العربية الشرق أوسطية أوسع واكبر حجماً، كمقدمة لإنشاء اتحاد عربي في النهاية."

والجواب المعد سلفاً أيضاً كان هذا (ألقاه وزير الخارجية):

"تنظر الحكومة البريطانية بكثير من العطف الى أي تحرك عربي يرمي الى تحسين أوضاعهم الإقتصادية والسياسية والثقافية، إلا أن المبادرة بأي مشروع من هذا القبيل يجب ان يصدر من العرب أنفسهم."

ونقلت وسائل الاعلام هذا التصريح مع تعليقات كثيرة<sup>(٣٧)</sup>.

(٣٧) كتب الملك عبدالله في مذكراته ما يفيد ان الفكرة نبتت في رأس مصطفى النحاس باشا زعيم الوفد ورئيس الحكومة المصرية آنذاك، وأن نوري السعيد وافق عليها، فحظيت بتأييد أنطوني إيدن، ووصفها في مذكراته بـ(الجراب الذي أدخلت فيه سبعة رؤوس) يقصد اليمن والسعودية والعراق وسورية ولبنان وشرقي الأردن ومصر. وإنها استمررت للانتداب مقنعة (أنظر النص الكامل في تاريخ الوزارات، ج٦، ص١٤٤) بعباراته الأخيرة، إلا أنه جانب الصواب في تعيين مخترع الفكرة بالأساس والأمر يحتاج منا الى تفصيل:

في العامين (١٩٤٠-١٩٤١) وجد المحور له انصاراً كثيرين في مصر بين افراد الطبقة الحاكمة، وبحضور جيوش ايطالية جرارة في ليبيا مستعدة للهجوم على مصر لاحتلالها - إثر الإندفاع العظيم داخل الحدود بقيادة المارشال رومل. ويشعور البريطانيون القلقين إنهم بحاجة الى حكومة موالية في مصر لتأمين خطوط مواصلاتهم تحول دون تعرض مؤخرتهم ومنشاتهم العسكرية الى خطر دول المحور، وضعوا أملهم =

كانت التطورات الإقليمية في البلاد الناطقة بالعربية تسابق بسرعتها نمو الخلافات وتضارب المصالح فيما بينها، وتأصل الشعور بالسيادة الإقليمية التامة بكل ما يحف بها من مظاهر الأبهة الدبلوماسية، من تبادل التمثيل الخارجي وعقد الإتفاقات الدولية والعضوية في هيئة الأمم المتحدة وسائر لجانها. ومما لاشك فيه ان استماتة القوميين العربيين في تأكيد العروبة والدفاع عن هدف الوحدة الشاملة، لاسيما البعثيون منهم كان واحداً من نتائج رد فعل لروح وطنية محلية واضحة في تلك الكيانات الحدودية التي خلقها الاستعمار لا لأحد من ابنائها يد في رسمها. وبدا من تحت طيات الرداء العربي، الوطن العراقي المتميز عن الوطن النجدي، وكلاهما يختلفان عن الوطن الأردني واللبناني.

وضعت مصر في مفاوضات الجامعة العربية، أول حصان لها في ميدان سباق العروبة وبدت وكأنها تحتل المقام الأول فيه دون التنازل عن مصيريتها. في حين ان الدولة التي كانت تضم

= بحكومة وفدية يرأسها مصطفى النحاس، الذي كان فاروق قد طرده من الحكم. وفي الرابع من شباط ١٩٤١ قام السفير البريطاني (مايلز لاميسون) بأوامر صريحة بإقتحام قصر الملك بعد إحاطته بالدبابات والجنود البريطانيين وواجه (فاروق) بإبذار: إما ان يدعو (النحاس) ويكلفه بتأليف حكومة، وأما ان يتنازل عن العرش أو يقبض عليه وينقل بالقوة خارج مصر. كان البريطانيون على سبق إتفاق مع زعماء الوفد الناقمين، كما كانوا يعتقدون إن الوفد يمثل الاغلبية الشعبية، ولم ير الملك بدأ من عزل (علي ماهر) وتكليف (النحاس) بتأليف الحكومة. ثم توالى هزائم المحور وزال الخطر عن مصر تماماً ومعه تحول (فاروق) بعواطفه الى الصف البريطاني وتحمس له الى الحد الذي نقله الى حالة من الوله والهياج الهستيربي. فأسرع هذا الملك الفاجر الفاسق المختل ويكل الفضائح الخلقية والعقد الجنسية وجشعه والردائل الأخرى التي باتت حديث العالم كله - يتظاهر بالتقوى والمحافظة على شعائر الدين. وقد اتسعت آماله في السيادة لتشمل العالم الاسلامي عن طريق سيادة مصر على العالم العربي وبفضل الجامعة العربية. فأطلق له لحيته، وصارت مسبحة الصلاة والذكر لاتفارق يده وحج الى بيت الله الحرام، ولم تعد تقوته صلاة جمعة واحدة، وكان وهو الأرنأؤوطي الأصل أول اولئك الحكام الذين حاولوا استحداث شجرة نسب تصلهم بالعترة النبوية، إلا انه كان في حينه يعتمد على سلاح أمضى من هذا، هو سلاح المصاهرة.

كان ابوه الملك فؤاد يتيمن كثيراً بحرف (الفاء) وهو الحرف الأول من اسمه فسمى ابنه (فاروقاً) واختار لشقيقاته الاربعة اللاتي ولدن بعده اسماء تبدأ بحرف الفاء ايضاً (فوزية، فائزة، فوقية، فائقة) وكن من السنوات. راح فاروق يحاول ان تكون فوزية لولي العهد الإيراني والثانية لولي عهد مراكش (الملك الراحل) والثالثة للملك حسين الاردني والرابعة للملك فيصل الثاني (بل بلغ جنونه بحرف الفاء ان أبدل اسم زوجه شهناز الى اسم فريدة). ثم راح يستحث النحاس باشا على تحقيق الحلم المزدوج. لأول مرة في تاريخ مصر بدء الحديث حول الوحدة العربية، والكل مؤمن بأن مصر ستكون زعيمتها بسبب كونها أكبر الأقطار مساحة واكثرها سكاناً. وتمت لقاءات عديدة للنحاس باشا مع الحكام السوريين واللبنانيين والسعوديين واليمنيين والعراقيين وتبذلت المذكرات وإنسحبت بريطانيا بهدوء من الميدان تاركة لمصر والعراق المهمة. أعجب ما في الأمر ان المفاوضات المصرية كانت تطلق على الجامعة المقترحة اسم (الوحدة العربية)، وهكذا كان حلم الوحدة العربية لزمان ما يتعلق تحقيقه بأربع زيجات! فشلت أولاهها ولم يكتب للمشاريع الثلاثة الأخرى فرصة.

انقى العرب عنصراً هي الجزيرة العربية، وبقيت أقل من الأخرى في الإشتغال بعباءة القومية. واضعف صوت في الهتاف لها، وان قبلت مكرهه بالإنتضمام الى عصبية تضم دولتين على الأقل يحكمهما عاهلان ينتميان الى أسرة عدوة، كمظهر ولاء لبريطانيا أكثر من مظهر روح قومية أو صلات حميمة تشدها ببقية الاقطار العربية، والقول التالي هو ل(باتريك سيل)<sup>(٣٨)</sup>:

"كانت المباراة بين العراق ومصر هي الملامح الغالبة لسياسة الشرق الاوسط بعد الحرب. كل واحد من هذين القطرين كان يريد إحتواء قيادة العرب بحثاً عن أصدقاء وعلان بين الجيران. ومتوسلاً بحلفاء أقوياء خارج هذا الإطار. وقد بدا النجاح مرة تلو مرة، وكأنه مرهون بالسيطرة على سورية."

وقبل الطرفان ان تكون الجامعة وسيلة لغايته لتبدو فيما بعد مرسحاً لهذا الصراع. ولتبدو سورية مالكة مفتاح النضال في سبيل التفوق الإقليمي بين الدول الناطقة بالعربية<sup>(٣٩)</sup> كانت مشاريع الوحدة العربية الجزئية تطرح بإسم القومية العروبية، وخصوصها بحارونها بإسم القومية العربية! والجميع تنبع مجهوداتهم من مصالح شخصية صغيرة لاتعرف الأمة العربية وشعوبها عنها شيئاً وليس بين تلك الدعوات وبين الرأي العام في البلاد أية صلة، وكلها تبدأ بإجتماعات سرية على الحدود... أو بسفراء خاصة، وقليلاً منها استخدمت الرسائل... لأنها دليل يصعب دحضه بعض الشيء.

في الوقت الذي عارض عفلق وحزبه أي وحدة مع العراق بإعتبارها تزيد فحسب من سيطرة الهاشميين وبريطانيا، وهي بالتالي تتناقض مع الاستقلال العربي التام الذي سطر في منهاجه - نجده يرحب ترحيباً حاراً بالجامعة العربية ويعقد عليها الآمال الجسام ويعتبرها خطوة عملية نحو الوحدة المنشودة.

ليس هناك ما يثبت بأن البعث وغيره من القوميين ك(حزب الاستقلال في العراق) كانوا

(٣٨) المرجع السالف: ص٢٨٢.

(٣٩) عندما قام الحزب القومي السوري بإدخال الجزء الشمالي الغربي من العراق فضلاً عن قبرص ضمن مشروع سورية الكبرى، كان هناك مشروع آخر لسورية الكبرى تبناه (عبدالله) بعد ان إتخذ له لقب ملك الأردن، وقد اعاد طرحه في ١٩٤٦ عندما وافق البريطانيون على منحه ذلك اللقب. لكن منافسيه العراقيين قابلوه بترويج مفهوم مشروع الهلال الخصيب (سورية والعراق) بطريقة عملية، أي بإتصالهم وشرائهم عدداً كبيراً من الساسة السوريين بالمال الوفير والهبات. وقدم الحناوي بإسم (حزب الشعب الجديد) مشروعاً آخر كان السبب في سقوطه كما يقولون. وكل هذا أدى الى اشتداد العداء والسخط داخل الجامعة وخارجها بين الدول الناطقة بالعربية العضوة فيها.

على علم بأن الجامعة العربية هي لعبة بريطانية. وكلهم ابتلع هذا الطعم بغباء السمكة وتفكير السلحفاة ويتسرع الأرنب لا مثيل له. لم يكن احد من هؤلاء العروبيين المتحمسين للجامعة يراها على حقيقتها وإنها ما وجدت إلا لتفكيك بقية من الرابطة القومية ولتشجيع الإنعزالية في الدول الناطقة بالعربية، ولتكون عاملاً لإشتداد حرصها على الحدود التي رسمها لها النفوذ الأجنبي "الاستعماري الامبريالي"، بل لاستغلال عوامل خوف الأنظمة الديمقراطية ذات الحكم الفردي، بعضها إقتصادية وأعمال التجسس التي يقوم بها الأعضاء بعضهم على بعض. فضلاً عن الإعتداءات الحدودية والاشتباكات والتآمر المتبادل، فهي تستغرق مناقشات الأعضاء وتستدعي إجتماعات طارئة، كثيراً ما سميت إجتماعات قمة، أو إجتماعات تعقد عادة من اجل خلاف نشب بين زعماء وحكام أقطار الوطن العربي، أو تهديد أحدهم الآخر بحرب أو عدوان. ونادراً ما كان السبب خارجياً. وإذا كان كذلك بدت تلك الدول منقسمة على نفسها تعجز عن رؤية نقطة لقاء مجمع عليها، أو أن تتخذ موقفاً موحداً وإن حصل واضطر أحدها الى مجازاة الاكثرية، فهي تفعل ذلك بنية مبيتة في عدم إحترام توقيعيها.

ان سجل الجامعة سجل شائن لايشرف العرب.

نصت المادة الثانية من ميثاقها على:

" التأكيد بأن الغرض منها هو صيانة استقلال الدولة المشتركة وسيادتها."

وحرمت المادة الخامسة: "الإلتجاء الى القوة لفض المنازعات بين دولتين أو أكثر من دول الجامعة، ان نشب بينها خلاف لايتعلق باستقلال الدولة وسيادتها أو سلامة اراضيها."

وتنص المادة الثامنة على: "ان تحترم كل دولة من الدول المشتركة - نظام الحكم القائم في دول الجامعة الأخرى وتعتبره حقاً من حقوق تلك الدول وتتعهد بأن لاتقوم بعمل يرمي الى تغيير ذلك النظام."

من هذه النصوص يتضح للقاريء كيف قتلت الجامعة العربية فكرة الوحدة. ومع ذلك بقيت الوحدة العربية عندها وعند أعضائها ذلك العجل المقدس الذهبي المعبود لأيعطى علفاً، ولايجرؤ احد على قتله.

\*\*\*

الإغفاءة الطويلة للحركة القومية في العراق. انقطعت بقيام الأحزاب السياسية وإجازة



خمسة منها بينها "الاستقلال العربي" الوحيد، وكان تأسيسها أشبه بمنحة لا نتيجة ضرورة وحصيلة ضغط شعبي.

كانت تجربة ممارسة الحريات السياسية عن طريق إباحة العمل السياسي والنشاط الحزبي جزءاً من السياسة الجديدة التي جاءت بالجامعة العربية. لا نتيجة ضرورة مرحلة أو ضغط شعبي. بل بدا الأمر من اوله الى آخره فهو لا أكثر من هبة نزلت عنها الطبقة الحاكمة. هبة مشروطة بحسن السلوك أمسكت الجهة الواهية بخيوطها كلها بحملة من المراسيم والقوانين الاستثنائية بجهاز أمني محكم عركته التجارب التي ضمنت لها استعادة تلك الهبة في حالة اساءة استخدامها أو الخروج عن الخطوط المرسومة لها.

اني لأزدري بكل ما عرضه الكتاب والمؤرخون والمتأخرون من أسباب لإطلاق حرية العمل السياسي الجماهيري، تظهر فيها الطبقة الحاكمة العراقية وكأنها أرغمت ارغاماً على ذلك، لاسيما اولئك الذين عزوها إجمالاً الى ضرورات ودواع تتعلق بالجو السياسي في الشرق الأوسط عموماً وفي البلاد الناطقة بالعربية على وجه الخصوص. ومن السهولة بمكان ان تخرع علل وأسباب يبدو بعضها منطقياً ومعقولاً لعمل سياسي، ثم بقدر ما يكون صعباً عليك استقصاء العلل والاسباب التي كانت تستدعيه قبل ان يتحقق.

بعد زوال شبح الفاشية والنازية كان على العالم الديمقراطي أن يحسن صورته ليحني ثمرات نصره. ازاء هجمة العقيدة الماركسية التي كانت تنشرها دعاية سوفياتية بلغت اعظم حد من الإلتقان بتقدميها الحياة السوفياتية للعالم جنة ارضية، وهذا هو الذي أخفى اليد البريطانية في قيام النشاط الحزبي العلني في العام ١٩٤٦، وهو الذي جعل إنجازته يتم على يد سياسي تقليدي مثقف جداً يؤمن الى حد كبير بالدستورية ولم يؤثر عنه في رئاسة الحكومة سابقة خرق فاضح للدستور هو توفيق السويدي.

مثل حزب الاستقلال الاتجاه القومي العربي بين بقية الأحزاب المجازة<sup>(٤٠)</sup> واسمه يشير الى (٤٠) كان كاتب هذه السطور واحداً من مؤسسي أحد تلك الاحزاب وقد عُرف بحكم موقعه هذا من رئيسي حزبين مدى الجهود البريطانية في دفع الطبقة الحاكمة الى هذا التنازل، الذي بدا وكأنه يرمي الى تكليف رئيس حكومة تكون أولى واجباته إنهاء الأوضاع الاستثنائية (كما نعتت في حينه) وكيف أبى كل من كُلف بذلك غير (السويدي). أجزت الأحزاب الخمسة في يوم واحد هو الثامن من شهر نيسان، وأولها (حزب الأحرار) الذي نمّ منهاجه على أنه حزب ليبرالي دستوري محافظ برئاسة سعد صالح وضم عبدالعزيز السنوي ونوري الاورفلي وعبدالقادر باش أعيان ومحمد فخري الجميل وحسين النقيب وكامل الخضيري والمحامي عباس السيد سلمان، وكلهم من ذوي الأسر العريقة الغنية. وثانيها (الحزب الوطني الديمقراطي وهو جماعة الأهالي السابقين تقريباً) وبرز مؤسسيه (كامل الجادرچي وحسين جميل ومحمد حديد وعبدالكريم الأزري ويوسف الحاج الياس المحامي، وعبدالوهاب مرجان وعبود الشالجي وصادق كمونة) =

أن مؤسسيه يرفضون الإقرار بأن العراق مستقل ويصرّون أنه ما زال تحت انتداب بريطاني مقنّع، أو أنهم في أفضل الأحوال يرفضون الأخرى على انه تقدم الى الجمهور بمنهج إصلاحية معرباً فيه عن أهدافه القومية بتواضع يقلّ كثيراً عن الدعوة الى الوحدة الكبرى. فقد وجدت المادة الثالثة فيه ان تقوية الجامعة العربية "... سيكون عاملاً في تكوين نظام إتحادي بين البلاد العربية فحسب"، لكنه لا ينسى قط تراث نادي المثني ومؤسسيه الفكريين الذين كانوا وراء حركة مايس. فتراه يصرّ على أن (يكون التعليم مركزاً على دعامة التقاليد العربية الثقافية أولاً، وعلى الحاجات العملية التي يتطلبها (البعث الجديد).

وباستخدامه كلمة البعث هنا، نستنتج ان أفق حزب الاستقلال يمتد خارج الحدود العراقية، رغم انه يتحدث عن (الأمة العراقية) متجنباً صيغة (الأمة العربية). ولا عجب فقد حرص واضعاً المنهاج على إجتناّب أمثال هذه الصيغ القومية ذات اللون الصارخ التي تزج حكام العراق وتذكرهم بحركة مايس وربما أرادوا تبديد كل شك، فأوردوا نصاً لا موجب له في منهاج إصلاحية - أدبياً كان أم سياسياً. إلا إذا كان القصد من وضعه دفع شبهة، أو تبديداً لشكوك مستريب - تجده في الفقرة الثانية من المادة الرابعة:

= وثالثها (حزب الشعب) وهو حزب اشتراكي ديمقراطي ينزع الى الماركسية، ومن أبرز مؤسسيه المحامون (عزيز شريف ويضم نعيم شهرباني (يهودي) وتوفيق منير، وعبدالمير ابو تراب، وجرجيس فتح الله (مسيحي) وإبراهيم دركزلي ووديع طليا (مسيحي ونقابي بارز) [هكذا شاء الحسن أن يعرف أعضاء الحزب بالطوائف التي ينتمون اليها في طبيعته الأخيرة ولم تكن دعايته قد بلغت هذا المستوى في طبعاته السابقة] كان من المقرر ان يؤلف من هاتين المجموعتين حزب واحد، لكن المنافسة على الزعامة وعلى صيغ معينة في المنهاج أدت الى تقديمهما طليين منفصلين. وتبين من المنهجين رغم ذلك وبما اشتهر عن بعض المؤسسين أنهما لا يؤمنان بالكفاح الطبقي، بل كانا اقرب الى الاشتراكية الفابية بلون ماركسي صارخ - مما جعلهما هدفاً لهجوم الشيوعيين العنيف فيما بعد من أبرز مؤسسيه عبدالفتاح إبراهيم ومحمد مهدي الجواهري. وخامس الأحزاب المجازة وهو حزب قومي عروبي صرف بما يستفاد من منهاجه وشخصيات مؤسسيه ومن أبرزهم (محمد مهدي كبة، والمحامون داود السعدي وخليل كنة، واسماعيل الغانم وفاضل المعلّة وعبدالرزاق الظاهر) (لسبب معروف لم ينضم الى الهيئة المؤسسة المحاميان فائق السامرائي وصديق شنتشل إلا انهما كانا واضعي منهاجه) ومعظم هؤلاء كان من الناشطين في نادي المثني المنحل وأنصار حركة مايس المعتقلين بعدها.

ورفضت السلطة إجازة (حزب التحرير) بوصفه واجهة للحزب الشيوعي، كما رفضت طلباً سابقاً بتأسيس ما دعي به (حزب البعث العربي) تقدم به الدكتور سامي شوكت (زعيم الفتوة سابقاً) بحجة ان أكثرية مؤسسيه هم من الإقطاعيين ورؤساء العشائر. لكنه فاز مع ذلك بإصدار صحيفة بعنوان (البعث القومي) تحولت بعد زمن الى إسم (البعث). ومن العسير علينا ان نقطع برأي حول ما إذا كان إختيار هذا الاسم مجرد توارد خواطر، أو هو محاولة تصور لوجود منافسة، إذ كان على حزب علق ان ينتظر سنتين على الأقل ليجد له موطن قدم في العراق، وبقي حزبان ينشطان سراً هما الحزب الشيوعي العراقي وحزب التحرير الكردي (رذكري كورد).

"وكما يقدر الحزب قوميته ويعتز بها فإنه كذلك يحترم القوميات الأخرى ويستنكر كل استغلال عنصري".

وعن قضية الوحدة التي تجنب المنهاج التطرق إليها، فإن رئيس الحزب يؤكد في مذكراته:

"إن الحزب يسعى إلى تحقيق أمنية العرب الكبرى وأملهم المنشود في توحيد البلاد العربية التي جرها الاستعمار وشتت شملها"<sup>(٤١)</sup>

ومن ماضي مؤسسيه واقطابه وتصرفاتهم السابقة وضلوعهم في حركة رشيد عالي وفق مجمل نشاطه خلال السنوات الثماني التي تمتع خلالها بإجازة العمل العلني، بدأ طابع الشوفينية القومية فيه واضحاً. ووصفه (الجادرچي) بأنه حزب دكتاتوري يؤمن بالإشتراكية الوطنية بالمفهوم الفاشي، متطرف في قوميته<sup>(٤٢)</sup>.

وورث حزب الاستقلال مفهوم نادي المثني في ربط القومية العربية بالدين الإسلامي. وقد عبر أحد أقطابه (صديق شنشل) عن هذا في أثناء حديث له مع أحد المؤلفين قال له<sup>(٤٣)</sup>:

"إن الفصل بين المجتمع العربي وبين الإسلام عملية مستحيلة بحكم التكوين التاريخي للعرب والمواطنين من غير العرب في الوطن العربي، ولذلك أصبح من مهمة الحركة القومية الإنطلاق نحو تكوين حركة لاتدعو إلى الانفصال عن الإسلام ولا تتخذ منه وسيلة للتعصب الديني والطائفي أو الإقليمي".

وانتهى الحزب بعد سنتين فقط من إجازته إلى أن يصير ورقة مساومة بيد السلطة متى ما ارادت كسبه إلى جانبها دعتة إلى وزارة، أو دفعت إليه بمقاعد محدودة جداً في المجالس النيابية، واعطته الحكومات صك غفران كامل لما تقدم من ذنوب أعضائه وتأخر، عندما ابقتة وحده يعمل علناً ولم تسحب إجازته، مثلما فعلت بحزبي الشعب والإتحاد الوطني. وارغمت حزبي الأحرار والوطني الديمقراطي على تجميد نفسيهما في العامين ١٩٤٧ و١٩٤٨ على التوالي.

جاء ذكر الحزب في مذكرات الشاعر محمد مهدي الجواهري بهذا الشكل:

"انصافاً للتاريخ مقروناً بالأسف. كان حزب الاستقلال ستاراً كثيفاً على من

(٤١) محمد مهدي كبة: المرجع السالف، ص ١١٢.

(٤٢) مذكرات كامل الجادرچي وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي، بيروت ١٩٧٠، دار الطليعة، ص ٢٠٥.

(٤٣) عادل غفوري خليل: أحزاب المعارضة العلنية في العراق، المكتبة العالمية، بغداد ١٩٨٤، الص ١١٧-١١٨. كان المؤلف قد أجرى المقابلة في العام ١٩٧٧.

إندس فيه باسم القومية والقوميين من المشبوهين ومن أجهزة الأمن ومن المرتزقة ممن جعلوا منه طرفاً في انتكاسة وثبة كانون ضد معاهدة پورتسموث البغيضة."<sup>(٤٤)</sup>

(٤٤) ذكرياتي، دار الرافدين، دمشق، ج ١، ص ٣٩٤. على أن الجواهري لا يجد غير الكلمة الطيبة بحق رئيسه (محمد مهدي كبة). فيقول عنه بالحرف الواحد: "إنه من قلة من رجال السياسة في العراق تُستل في أمانتها ونزاهتها من كثرة هي عبء ثقيل على التاريخ وعلى المجتمع". وإذا كان حقاً ما وصفه به الجواهري الشبهات الخلقية، إلا أن النزاهة والأمانة والعفة لا تعوضان لرجل السياسة عن الحصافة وبعد النظر. فمع أننا لانتفق مع الصديق الشاعر المرحوم بوصفه معاهدة پورتسموث والوثبة الشهيرة، التي فقد فيها شقيقه جعفر، إلا أننا نعجب لسذاجة سياسية في رئيس حزب الاستقلال هذا فاقت كل سذاجة عندما قبل بمنصب وزاري في حكومة الصدر التي جاءت بعد استقالة (صالح جبر) التي جاءت للتهديئة. وأصدر حزبه بياناً يدعو فيه إلى إيقاف المظاهرات بعد إلغاء المعاهدة وانقضاء الغرض من الإجتماع الجماهيري؟

لكن ماذا عن معاهدة ١٩٣١ الباقية؟ وهي أثقل شروطاً بما لا يقاس عن معاهدة پورتسموث - وكيف استطاع حزب الاستقلال العيش في ظلها شريكاً؟

كان حزب الاستقلال، وهو الحزب المجاز الوحيد ساعتئذ، قد نحا هو وصحيفته إلى التتديد بها. إلا أنه ما لبث أن شارك في محاولة إغائها بعلّة أن الغرض انتفى منها، مع أن منهاجه ينص على ما يمنعه من القبول أو الرضا بأي معاهدة تنتقص من استقلال البلاد.

وأما عن رأيي في وثبة كانون وفي المعاهدة التي احببتها، فقد سبق لي واجملته في كتابي: (آراء محظورة في شؤون عراقية معاصرة، ستوكهولم ١٩٩٥) ودونك خلاصة له في الص ٤٢-٤٦:

"في العام ١٩٤٨ كان ضباب الحرب الباردة قد غطى أو كاد أفق السياسة العالمية، وشعرت حكومات عديدة بضرورة تعيين مواقفها من المعسكرين المصطربين: الدول الإشتراكية بزعامة الإتحاد السوفيياتي والدول السائرة في ركاب الغرب أو تحت نفوذه بزعامة الولايات المتحدة. وقد حاول بعض دهاقنة السياسة تلك المحاولة الفاشلة لتغطية انتماءاتهم إلى هذا المعسكر أو ذاك بإختراع تكتل وهمي سموه بكتلة - دول عدم الانحياز - في تلك الفترة. وبسبب من هذه الحرب الباردة أو لأن المادة (٣٠٣) من ميثاق الأمم المتحدة أوجبت إعادة النظر في جميع المعاهدات غير المتكافئة المعقودة سابقاً بين الدول الاعضاء. بدأت المفاوضات بين العراق وبريطانيا حول إلغاء معاهدة ١٩٣٠ وإحلال معاهدة جديدة (متكافئة) محلها. وقد رأينا كيف بنى كثير من الساسة العراقيين رصيدهم الوطني والقومي وارتفعوا إلى مراكزهم الرفيعة على أساس معارضتها أو تعديلها أو العمل على إلغائها. وورث الجيل الواعي الجديد (الانتلجنسيا) ذلك السخط عليها وعلى واضعيها ووصمهم دوماً بالخيانة والتفريط بمصالح البلاد. أدرك هؤلاء الساسة أن مشروع أية معاهدة جديدة ومهما كان شكلها ستستغل المعارضة ضدهم. فبريطانيا ماتزال في نظرهم تلك الدولة الإمبريالية وأي معاهدة معها هي معاهدة مشبوهة، وبمنطق بسيط قوي وهو أن أي معاهدة بين دولة عظمى ودولة صغيرة لا يمكن قط أن تكون معاهدة متكافئة.

ذكر بعض المؤرخين من اسباب الثورة على المعاهدة (وهي ما سمي بوثبة كانون) أن حكومة صالح جبر لم تنتشر بنود المعاهدة الجديدة على الرأي العام. أما أنا فلا أرى في هذا تعليلاً مجدياً. فسواء في الأمر أنشئت أم لم تنتشر، كان الرأي العام العراقي قد هيء لمقاومة أية معاهدة جديدة مع البريطانيين. فللقوميين العروبيين بزعامة حزب الاستقلال والشيعيين والتقدميين الذين يقفون في صف المعسكر الإشتراكي تعن تلك الفرصة النادرة، أولهما لإظهار مدى وطنيته وحرصه على العداء التقليدي للاستعمار. وثانيهما لأن الإتحاد السوفيياتي كان يرى في أي معاهدة مشابهة مجرد محاولة لتطويقه =

ساهمت الاحزاب المعطلة والسرية في هذه الحركة التي سُميت بالوثبة. ووقفت موقف استنكار وسخط من سلوك حزب الاستقلال، لاسيما عندما أصدرت حكومة الصدر مرسوم الأحكام العرفية لقمع التظاهر.

لم يكن حزب الاستقلال يتمتع بجماهيرية واضحة وبقيت فروعه القليلة في المدن العراقية الكبيرة (مراكز المتصرفيات) كالموصل وكركوك والبصرة والرمادي فروعاً رمزية قاصرة على أعداد قليلة من قومي حركة مايس والمعتقلين، وهم خليط من ابناء الطبقة المتوسطة والعليا أو الملاك وعدد من المحامين ليس فيهم تمثيل واضح للعمال والفلاحين والكسبة وصغار الموظفين، إلا انه كان يمتلك رصيماً جيداً في أوساط الطلاب حتى كاد نشاطه الملحوظ يكون قاصراً على العاصمة.

وحاول اقطاب الحزب وموجهو سياسته بكل قواهم ان ينفوا عنه وصمة النازية والفاشية التي كانت الفئات السياسية الأخرى تستطيب إلصاقها به كلما خطر ببالها ان تغمز من قناته. وبدت تلك المحاولة بعدد من الإفتتاحيات في جرائدهم الثلاث (لواء الاستقلال واليقظة والفجر الجديد) لكنه لم يحاول قط التشبث بالعلمانية وحدها وتقليل إعتماده على ربط القضية القومية بالإسلام<sup>(٤٥)</sup>. وقد قاطعته الأقليات العنصرية والدينية ولم يحظ بشعبية كبيرة عند الشيعة، رغم ان رئيسه كان شيعياً.

= والإخلال بميزان الحرب الباردة (كانت الاحزاب الشيوعية في معظم الدول النامية والحديثة الاستقلال تتأثر بخطى سياسة الإتحاد السوفياتي والحزب الأم). وإتفق الطرفان في العراق على أن اعلان الثورة على المعاهدة الجديدة يعني كسباً جماهيرياً لهما أيضاً ولحقت بهما الاحزاب الأخرى تأكيداً لوطنيتها. إن الذي يقرأ مسودة المعاهدة اليوم لايجد فيها غير معاهدة حلف اقل التزامات بكثير من تلك المعاهدات والروابط السياسية التي بقيت حتى العام ١٩٨٩ تربط أكثر من عشر دول اوروبية وغير اوروبية كاملة السيادة بعجلة الإتحاد السوفياتي، وكلها دول اعضاء في الأمم المتحدة. هذه المعاهدة التي فجرت الدماء في شوارع بغداد وشيعنا خلالها ارواحاً طاهرة بريئة بكيناها ووضعناها ومازلنا - في قائمة أشرف الشهداء، إنما كانت في الواقع ضحايا الحرب الباردة والنزاع السياسي المرير بين الشرق والغرب، ونتيجة إلتقاء التوجه القومي العربي بالفكر الماركسي المشاع للإتحاد السوفياتي في وقت من الأوقات باتحادهما في وجهة النظر الى النفوذ الغربي. كان اعتبار الإتحاد السوفياتي دولة امبريالية على نمط خاص من قبيل الكفر والالحاد السياسي، ان لا احد يدري بأن ما كانت تعانیه شعوب هذه الامبراطورية يفوق بكثير معاناة الشعوب الأخرى الواقعة ضمن نفوذ الامبرياليتين البريطانية والفرنسية. ومن الجدير بالذكر هنا ان العراق ادخل في حلف المعاهدة المركزية قبل اشهر من نهاية امد معاهدة ١٩٣٠ بدون ضجة ولا وثبة، وهو الحلف الذي فرض على العراق قيوداً والتزامات تفوق بكثير معاهدة پورتسموث التي أُلغاهم دم (٢٥) قتيلاً و٧٧ جريحاً في العام ١٩٤٨.

(٤٥) استقال العضو المؤسس المسيحي الوحيد من حزب الاستقلال ولم يؤثر عن هذا الحزب تسجيل عضو واحد كُردي أو مسيحي.

الى جانب التهمة الشوفينية التي خرجت من مصانع الأحزاب اليسارية. إتهم حزب الاستقلال بالرجعية، وتلك تهمة مهيأة حاضرة لايتطلب منك اثباتها ويكفي لإقناعك بها جولة قصيرة في ماضي وسيرة كل عضو بارز فيه. فالمناهج لاتعطي صورة حقيقية لنوايا الحزب وأهدافه المضمرة، وهذا ما تعودده العراقيون منذ إنشاء الأحزاب ومنذ ان إعتادت الحكومات غبّ تشكيلاً نشرَ مناهجها. وفي باب الدفاع عن قومية "الاستقلال" ضد من وصفها بالرجعية يقول السيد كبه:

"ان حركتنا القومية هي حركة بعث وتجديد، ترمي الى خلق الأمة العربية خلقاً جديداً بإفراغها في مصهر العروبة المخصبة، وتنقيتها مما علق بها من أضرار وأدران لتتجلى مواهبها وخصائصها الخلقية الكامنة ولتساهم في استكمال بناء المدنية والحضارة كما يتطلبه العصر الحاضر، فتؤدي رسالتها القومية في القرن العشرين كما أدتها في القرون الماضية."<sup>(٤٦)</sup>

تلك مهمة ضخمة جداً، لاسيما أنها أخذت على عاتقها عملية "خلق" واناظت بها حزباً صغيراً محدوداً قد يتم القضاء عليه بتوقيع على ورقة لاتستغرق كتابته غير ثوان وطبقاً لما جرى مع حزين آخرين أقوى منه وأكثر جماهيرية. ثم بمن كانت عملية "خلق الأمة العربية خلقاً جديداً ستم؟" أمثل أولئك الحزبيين الذين انطلقوا في العام ١٩٤٧ بهجوم كاسح على كلية من كليات بغداد وسببوا إلقاءها؟<sup>(٤٧)</sup> أم أولئك الذين أُطلقوا من مقر ذلك الحزب وبمعاونة

(٤٦) كبة: الحركة القومية واهدافها، دار دلجة، بغداد ١٩٤٧، ص ٣٤.

(٤٧) أسست كلية الملك فيصل في ١٩٤٥ لإكمال الدراسة الثانوية بإختيار الطلاب المبرزين من أبناء الطبقة العليا أو العريقة وسُميت بالكلية تجاوزاً وإعطائها أهمية خاصة، لكن أساتذتها ومربيها كان معظمهم من ذوي الأفكار التقدمية واليسار الناشطين سياسياً. ولطالما إنطلقت منها تظاهرات عنيفة في مناسبات عامة، كالتظاهر لقضية فلسطين والوثبة وما الى ذلك. في العام ١٩٤٨ نظم القوميون الاستقلاليون بالتعاون مع أجهزة الأمن والإخوان المسلمين هجوماً على الكلية. وإقتحموا القسم الداخلي، حيث يعيش الطلاب وهم مسلحون بالعصي والهاويات فأهوا على الحاضرين منهم بها وحطموا المقاعد والخزانات والأسرة وكل ما هو قابل للإتلاف وهم يهتفون (الله غابيتنا). وعلى إثر ذلك صدر قرار من وزارة المعارف بإلغاء الكلية وتوزيع طلابها على المدارس الثانوية. أكد لي احد اساتذة الكلية وهو صديق حميم أن السلطة التي ضاقت ذرعاً بالكلية هي التي سمحت بالهجوم ولم تحرك قوى امنها لوقف التدمير والإعتداء، ان انها كانت بحاجة الى مبرر لإلغائها. معرفة درجة الوعي التي كانت تسود تظاهرات ١٩٤٨ سأسنعين بالمجموعة الإحصائية السنوية العامة التي تنشرها وزارة الإقتصاد للعام ١٩٤٧ وفيها بلغ مجموع سكان العراق بحسب الإحصاء العام الذي جرى تلك السنة (٤٧٩٩٥٠٠- ربما زاد في العام ١٩٥١ على خمسة ملايين بقليل) إلا ان مجموع طلاب المعاهد العالية المركزية في بغداد لم يكن يزيد في العام ١٩٤٦ عن ٤٠٠٠ طالب وطالبة.

\*\*\*

أقبل عام إباحة النشاط الحزبي، وقد نالت الأقلية الكُردية العظمى والأقلية اليهودية والآشورية كل حصتها من التعصب القومي العربي.

ومر زمن بدا طويلاً رغم قصره على ضياع الشكوى الآشورية الصغيرة في أروقة عصابة الأمم ولجانها العديدة وإنطوت معها الى الأبد محاولاتها الزائفة المفتعلة في انقاذ الآشوريين بإخلائهم من العراق واسكانهم في مواضع قسوية عن وطنهم. تارة في البرازيل، وأخرى في غيانا البريطانية المجاورة. وثالثة في افريقيا. وانتهى الأمر في غضون العامين ١٩٣٤-١٩٣٥ بنزوح قسم قليل الى سورية - تم قبولهم بموافقة سلطة الانتداب الفرنسي<sup>(٤٨)</sup>.

ويدت مذبحه اليهود في بغداد إثر حركة مايس كذلك أثراً من الماضي البعيد - ذكرى سيئة في أفضل الأحوال تشيع الرهبة والقرف في نفوس هذه الأقلية كلما قامت مظاهرة تأييد لفلسطين وتنديد بالصهيونية. إلا ان المسألة الكردية كانت مسألة المرحلة الراهنة واحدة من القضايا القومية المركزية على الصعيدين الحكومي والسياسي المحلي، اذ لم يمس على قمع ثورتهم السابقة الأخيرة غير عام واحد، ونزوح ألف من محاربيها وأهاليهم الى ايران ومساهماتهم الفعالة في إقامة الجمهورية الكردية ذات الحكم الذاتي في مهاباد<sup>(٤٩)</sup>. وإبقاؤهم هناك عنصر تهديد أمني خطير كما وصف في حينه أدى الى إحياء العمل بميثاق سعد آباد. ومرابطة قوات كبيرة من الجيش العراقي على الحدود الشمالية الشرقية.

وساهمت الأقلية المسيحية واليهودية بدرجة محدودة في الأحزاب الديمقراطية الثلاثة ونأتا عن حزب الاستقلال والأحرار، إلا أن نسبة الإنخراط في صفوف الحزب الشيوعي السري كانت اكبر بكثير من النسبة بين عددها وبين مجموع السكان العام. والأمر يصدق على الأقلية

(٤٨) في تموز ١٩٣٤ ابلغ الوزير المفوض الفرنسي ببغداد الحكومة العراقية موافقة حكومته على استقبال (١٨٠٠) لاجيء آشوري راغب في ترك العراق، وبديء بعمليات التفسير في الشهر التالي حتى منتصفه، وتم اسكانهم في (٣٢) قرية تم إعدادها لهم بالتعاون مع الذين لم يعبروا الخابور في آب ١٩٣٣ على ضفة الخابور الشرقية، إلا أن القسم الأعظم بقي في العراق رغم ذلك. وصُفي مخيم اللاجئيين في الموصل وأعيد شاغلوه الى قراهم. واستمر الآشوريون يوردون للبريطانيين حاجتهم من قوات الليفي المستخدمة لحراسة المطارات والقواعد الجوية الى ما بعد نهاية الحرب العظمى.

(٤٩) عين ملا مصطفى البارزاني قائد ثورة ١٩٤٥ قائداً عاماً لجيش الجمهورية الكردية، كما انبط بالضباط العراقيين الذين إلتحقوا بها قيادات هامة (للاستزادة راجع ترجمتنا وتعليقاتنا على كتاب ويليام إيغلتن: جمهورية مهاباد، بيروت ١٩٧٢، دار الطليعة).

الكُردية أيضاً وقد وجدنا بينهم من بلغ مراكز القيادة في هذا الحزب.

لكن كان للكُرد تنظيماتهم السياسية القومية الخاصة بمناهج ومفاهيم تشيع فيها الروح الديمقراطية وقد إتجه بعضها نحو اليسار. وتلَوّن بعضها بألوان ماركسية صارخة. وتلك ردود فعل طبيعية ازاء الدعوة القومية العروبية المتجاهلة الواقع الكردي وروح العصر والوجود القومي الكردي. بعد إنهيار المقاومة المسلحة في ١٩٤٥، بفضل التدخل البريطاني دبّ الإنحلال في حزب (هيو : الأمل) الذي ساند الثورة ودعمها وانشعب هذا الحزب السري الى مجموعات صغيرة لا هدف لها ولا نهج، وإنضم الى بعضها عناصر يسارية لتؤلف حزباً شيوعياً كُردياً باسم (شورش: الثورة) الكردي عندها هرع اليه القوميون الكُرد والآخرون، فأخلى الميدان لحزب (التحرر الكردي = رزگاري كورد)<sup>(٥٠)</sup>، الذي قام على أنقاضه الحزب الديمقراطي الكردستاني في ١٦ من آب ١٩٤٦ متزامناً تقريباً مع إجازة الأحزاب العلنية. وقف القوميون العرب أبداً موقفاً مؤسفاً يصعب على الفهم من مطالب القوميات الأخرى التي لاتدعي العروبة، ضمن ما أطلقوا عليه عبارة (الوطن العربي الكبير) وعلى وجه التخصيص موقوفهم من كُرد العراق والكُرد عموماً. فقد انكروا عليهم ما ارادوه لأنفسهم ونسوا وهم يشنون حربهم على التسلط السياسي - الإقتصادي الأجنبي إنهم يمارسون ضمن النطاق المسموح لهم - عين التسلط على الكُرد والأقليات الأخرى - يسمون أولهما استعماراً.

(٥٠) في أوائل العام ١٩٤٤ نشر حزب رزگاري كُرد منهاجه ببيان هذا نصه:

أولاً: ان أسمى غايات الحزب هي توحيد كردستان الكبرى وتحريرها، ولما كان الحزب قد تأسس في كردستان العراقية فنحن نناضل من أجل صيانة العراق من النفوذ الامبريالي وحمائته من الحكومات الرجعية، التي مازالت واحدة من العقبات القائمة في سبيل حق تقرير المصير.

ثانياً: العمل من أجل تحقيق الإدارة الذاتية لكُردستان العراقية، بإعتبارها خطوة هامة نحو حق تقرير المصير القومي الكردي.

ثالثاً: النضال لوضع حد نهائي لكل أنواع الإضطهاد والتمييز العنصري التي يعانيتها الكُرد والقلبات الأخرى.

رابعاً: العمل على إقامة وتقوية العلاقات مع الأحزاب والمنظمات الكُردية الأخرى خارج العراق بهدف التنسيق وتوحيد الجهود لتحقيق الغاية الأسمى في حق تقرير المصير القومي والتحرر النهائي.

خامساً: العمل من أجل إحداث إصلاح جذري للمشاكل السياسية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية بتأمين ممارسة الحقوق الديمقراطية وعن طريق رفع المستوى الزراعي والصناعي ونشر التعليم وإحياء التاريخ والأدب الكُرديين.

سادساً: تعميم استخدام اللغة الكُردية في المدارس والدوائر الحكومية في سائر إقليم كُردستان.

سابعاً: بذل الجهود من أجل إقامة علاقات مع الاحزاب والمنظمات الديمقراطية والتعاون معها.

تاسعاً: العمل على إنشاء علاقات مع الدول الديمقراطية (المقصود دول الكتلة الشرقية) لمحاربة الامبريالية والرجعية وعملائها الذين يعملون على إحياء ميثاق سعد آباد.

جو تسوده الحرية والمساواة والعدالة".

وبقيت الأحزاب العلنية الديمقراطية المنحى غافلة تماماً عن سبب الإحجام والتطير من مشاركة الأقليات في نشاطها وكثيراً ما ترجمته بضعف إحساس الكُرد واليهود والآشوريين والمسيحيين الآخرين بالمواطنة العراقية، وتركت المهمة برمتها الى الحزب الشيوعي العراقي السري.

لم يمض على حزب (رزگاري) زمن طويل لظهوره قوة سياسية ذات خطر وانتشار بصورة خاصة بين الشباب وانتجلنسيا الكُرد ولقي معارضة من جميع الجهات. وذكروا أن الحكومتين البريطانية والعراقية كانتا في قلق وتوجس حقيقيين الى الحد الذي جرت محاولة إغراء بعض رجال الدين لإصدار فتوى بتحريم الإنخراط فيه.

عندما تركت الكتلة الشيوعية الحزب واتخذت البقية إسم الپارتي (پارتي ديموکراتي کورد = الحزب الديمقراطي الكُرد) الذي استمر يعمل تحت عنوان الجبهة الوطنية. لأول مرة في تاريخ التنظيمات السياسية القومية العراقية، يواجه النضال القومي العروبي حزباً قومياً ضمن الحدود المرسومة للوطن العربي. إلا انه لم يكن يسير على عين الخطوط العقائدية والمبدئية، بل إختار طريفاً آخر، طريق القومية الليبرالية بطابعها الديمقراطي المائل نحو اليسار<sup>(٥٣)</sup>.

ماذا عن البعث العربي؟

(٥٣) بقيت الكتلة المنشقة الشيوعية تتعاون مع رزگاري ثم الحزب الديمقراطي الكُرد والغالب على الظن أن الحزب الشيوعي العراقي كان له يد في ذلك. إلا أن هناك رأياً للكاتب الامريكي والتر ز. لاکيور Walter Z. Laquar ورد في الص ٢٢٧ و٣٤٢ من كتابه (الشيوعية والقومية في الشرق الاوسط Commansim and Nationalism in the Middle East الطبعة الثانية. نيويورك ١٩٥٧) خلاصته ان الكُرد الشيوعيين لم يتركوا رزگاري وخلفه نتيجة لضغوط شيوعيي بغداد، بل من أجل ان يجعلوه أداة أكثر فعالية في توجيه المجموعات غير الشيوعية من بعيد، وفي عين الوقت ليكون ذا مظهر أقل اجتذاباً لشكوك السلطات وتعرضاً لملاحقاتها. وأشار الى ان الحزب الديمقراطي الكُردستاني لم ينله من الإضطهاد والملاحقة الحكومية للحزب الشيوعي في عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩ شيء يذكر.

ولا يرون في الثاني استعماراً وتسليطاً ولا يقفون على حجة، فيزعمون الأصل العربي للقبائل الكردية كافة<sup>(٥١)</sup> تارةً ويدفعون مطالب الكُرد القومية برابطة الأخوة في الدين والتاريخ تارةً أخرى. وينسون - لاسيما مثقفوهم ومفكروهم إن إصااق كُردستان العراقية وربطها بسرج دولة العراق كان بمشيئة واحدة لا غير، وضمن مشروع استعماري من أي وجه نُظر. وانها ذات حدود جغرافية واثنية واضحة لا جدال فيها يسهل رسمها<sup>(٥٢)</sup>. وفي ذلك الحين وضع الوطنيون والقوميون مطالب متواضعة، تجعل من حق تقرير المصير مثلاً هدفاً نهائياً بعيداً، وتحصرها في تحقيق التوصيات التي تضمنها تقرير لجنة التحقيق التابعة لعصبة الأمم بخصوص البت في عائدة ولاية الموصل (١٩٢٥)، وبالضمانات والتعهدات التي قدمتها الدولة العراقية بخصوص حقوق الاقليات وحمايتها قبيل دخولها عصبة الأمم عضواً واعلان استقلالها (١٩٣٢). لكن القوميون العروبيين ظلوا يعتبرون ثورات الكُرد تمرداً وعصياناً وبنأون عن التعاون مع الأحزاب الكُردية وتنظيمات الكُرد السياسية المختلفة بوصفها معامل تفريخ لحركات انفصالية عن الوطن العراقي. وبقيت صحفهم في الفترة التي نشبت خلالها ثورة ١٩٤٥ وذبولها، تنعى على الحكومات العراقية بين آن وآخر وحيثما إقتضى الأمر تقصيرها - في أخذ الأمور بحزم أزاء القلق الكُرد.

إن النشاط الكُرد الحزبي السياسي الذي لم ينقطع مطلقاً منذ تأسيس الدولة العراقية يتخذ الآن طابعاً جديداً. ويتبلور بشكل منهاج واضح وأهداف محددة، أدق وأكثر تواضعاً من المناهج القومية العروبية، وقد لاحظنا منذ البدء تجاهل الأحزاب العلنية الثلاثة للقضية القومية في مناهجها، ولم نجد ذكراً للكرد غير فقرة عابرة في منهاج الحزب الوطني الديمقراطي:

"ان الوطن العراقي ميدان للتعاون الحر على اساس المصلحة المشتركة بين العرب والأكراد وغيرهم من العناصر يتكون منها العراقيون، يحترم كل منها الآخر في

(٥١) يذكر هاني الفكيكي: أوكار الهزيمة، لندن ١٩٩٣، ص٧٩، وهو احد قياديي البعث في العراق: "كان بعضنا يبحث عن مراجع وكتب تؤكد الاصل العربي البعيد للكُرد".

(٥٢) في اوائل الخمسينات على ما أذكر جرى حديث في مجلس الأستاذ الجادرجي حول كردستان العراقية والحدود التي ستمتد اليها منطقة تشملها إدارة ذاتية، وكان بين الحاضرين صديقنا الطيب الذكر المهندس رشيد عارف، رجل الاعمال وواحد من الوطنيين الكُرد المعروفين إشتهر بالدعابة والصراحة وخفة الروح وله منزلة خاصة عند الجادرجي. قال رشيد وقد كثر الجدل حول هذه النقطة، لابد من خبير يفصل في الأمر وأرى ان يكون هذا الخبير عربياً، ونظر اليه الجادرجي متوقفاً أن يسميه، ويقول باسماً من ترى ان يكون هذا الخبير؟ أجاب رشيد: الجمل العربي! نطلقه على رسله في الشمال وحيثما توقف فثلك هي حدود كردستان!

## الفصل الثاني والعشرون

كراس لعفلق وأخر للبيطار يوزعات في جامعة بغداد حول الوحدة العربية . نواة بعثية صغيرة في أهباء الجامعة . حزب سري . حزب الاستقلال يقضي على جانب من قوته بالمشاركة في حكومة الصدر . بعد (الوثبة) استمد البعثيون كوادرم من العناصر الاستقلالية التي عارضت المشاركة في الوزارة ، ورحبوا بدخول الشقاوات وأصحاب السوابق الى جانب تلاميذ كليات رفيعة المستوى . الكم قبل الكيف رغم العقبات التي وضعها الحزب أمام العضوية الكاملة والمراتب التي يجب أن يجتازها ليظفر بهذه الرتبة . وزارة مزاحم الياچجي واستمرار الأحكام العرفية الشاملة كل العراق . الملاحقة امتدت الى اليهود فقدم عدد منهم الى المحاكم العرفية . الحكم على شفيق عدس وإعدامه الحياة ، الى جانب عدة من اليهود ، وامتلاء السجون بالمتقنين والمعارضين وأعضاء أحزاب اليسار .

لم يصدر قرار من مجلس عرفي واحد يمس بشكل مباشر أو غير مباشر سلامة الجيش . القضية الفلسطينية قميص عثمان بيد الجميم وأداة لإسقاط الحكومات بتهم التقصير فيها . حماقة توفيق السويدي . إسقاط الجنسية عن منة وخمسين ألف يهودي عراقي . خطبة (عزرا مناحيم دانيال) في مجلس الشيوخ (الأعيان) . اعتراف مصر بحكومة الانقلاب السوري . بيان ثانٍ بإسقاط حكم حسني الزعيم وبقيام حكم عسكري ثانٍ بزعامة اللواء سامي الحناوي ، بعد ١٨٥ يوماً من حكم الثاني يجري انقلاب ثالث . بيانات ثالث من قائده العقيد أديب الشيشكلي . اعلان نفسه رئيس جمهورية . رعايته لتنظيم سياسي باسم (حركة التحرر العربي) . قضاؤه على الأحزاب وإهداره الحياة الحزبية . اليد العراقية في إنجاز انقلابه . انقلاب فيصله الأتاسي وبيان رابع . محاولة الكزبري الانقلابية

في اواخر عام الوثبة . وزع على طلاب بغداد نسخ محدودة للغاية من كتيبين او كراسين بالأحرى عنوان اولهما (احاديث البعث العربي) لمؤلفه (ميشال عفلق) وثانيهما بعنوان (السياسة العربية) من تأليف (صلاح البيطار) وتداول هذين الكرسيين بعض الطلاب وانتهبوا الى وجود حزب جديد في دمشق يدعو الى الوحدة العربية والحرية والاشتراكية والذين وزعوا

نسخهما طلاب قدموا من الجامعة السورية وقد فشلوا في نيل شهادتها وعادوا لاكمال دراساتهم في كليات بغداد ، اما لقصور فيهم أو بدافع مالي غالب . طلاب متحمسون لافكار البعث قضاوا جل اوقات فراغهم في ارتياد تلك المقاهي الدمشقية حيث تعقد الحلقات البعثية . انطلقوا يبشرون بها بشكل مضطرب غامض ، وقد نجح هؤلاء في تكوين نواة صغيرة بعثية ضمن جدران الجامعة بين العامين ١٩٤٩ و ١٩٥١ . راحت تتسع وتنشر جذورها في الكليات الأخرى . وفي العام ١٩٥٢ بمجيء حكومة الفريق (نورالدين محمود العسكري) كان لحزب البعث على ما يؤكده المحايدون زهاء ثلاثمائة عضو كلهم من طلاب الجامعات والصفوف المنتهية الثانوية ، وليس بينهم عامل أو حرفي أو كاسب أو فلاح ويكاد معظمهم لايتعدى العشرين من العمر . وقد ابتلي بسبب سرية الحزب الشيوعي والحزب الديمقراطي الكرديستاني وغيرهما من الاحزاب غير المجازة علناً - بدءاً التخفي والتكتم القتال الذي كان ينزل بالعقائد - سَمَتْ أو انحطت الى درك التحكم الفردي الدكتاتوري في ميدان التفسير والتطبيق مما يؤدي في اكثر الأحيان الى تسلل الاوشاب والختالات والطبقات الدنيا من اعضاء الحزب الى مراكز عالية في التنظيم واحياناً الى القيادة والتوجه السياسي الخاطيء او التسرع في اتخاذ الموقف .

لم يكن غريباً أن يبدو تأثير الفكر الشيوعي على اولى تنظيمات هذا الحزب وقد يرد ذلك الى وضوح الطروح الشيوعية ، مقابل غموض فكر البعث وفقره البادي نظرياً وسياسياً في التصدي لمشاكل المجتمع العراقي ، بل تركيزه بدل ذلك على مصير الأمة العربية والنضال ضد الاستعمار والوحدة . وكما فشل حتى الأخير في استحداث قاعدة طوعية له بين العمال والفلاحين فقد نجح في جعل حزب الاستقلال مصدر توريد للاعضاء .

بدا حزب الاستقلال اثر الاجازة - وهو القطب الذي يدور حوله القوميون باختلاف وجهة نظرهم ، بل كان سيد الميدان قبل الصولة البعثية ، وقد استهوى الاسلاميين بربطه بين العروبة والاسلام واعتبار الاسلام مصدراً من مصادر التشريع والتقى بهذا الى حد ما بالنظرة البعثية . الا ان مصدر قوته تأتت من صيرورته طليعة المتحمسين للقضية الفلسطينية بعد قرار التقسيم ونكبة الهجرة وكذلك من هجومه العنيف على الحكام العرب بسبب سياستهم المائعة ازاءها لكن الحزب بدء يفقد مصداقيته في الوسط الطلابي بصورة خاصة عندما شارك في الحكم وقد تقدم ذكر ذلك .

ذكر احد اقطاب البعث العراقي الاوائل ، وليس لدينا ما يدحض قوله ، ان حزبه:

"ورث حزب الاستقلال، وراح ينمو في المناطق التي شهدت نموه قاضماً موقفه الواحد بعد الآخر ومائلاً الفراغ المستشري بين الشباب القوميين المتحمسين. وهكذا وجد القومي التقليدي والعروبي ذو التلاوين الاشتراكية او الماركسية، والعروبي الاسلامي والاسلامي العروبي، مكاناً لهم في البعث وتبعاً لذلك بدأت تتشكل السيماء السياسية والاجتماعية للحزب".<sup>(١)</sup>

الى هؤلاء الموصوفين أرى ان اضم صنفين آخرين أولهما ضباط الجيش الطموحون المغامرون. هؤلاء الذين كان لهم الفضل الكبير في وصول البعث الى السلطة والدور العظيم في سقوطه وهلاكه. كان اقبالهم على الحزب يتردد بتعاقب الانقلابات العسكرية المتناجحة في سورية. واثبتت ثقتهم بأنفسهم نجاح عملية حشد عسكرية محددة أقدم عليها ضباط في مصر يساوونهم في الرتبة يوم ٢٣ من تموز ١٩٥٢<sup>(٢)</sup> ان عدداً كبيراً من هؤلاء كانوا ضباطاً أيضاً في اثناء حركة مائس، وليس بينها وبين الانقلابات العسكرية السورية فترة طويلة.

ويلحق بهؤلاء صنف آخر وهو مجموعة الشباب الفاشلين في الحياة المتسكعين الذين عرفوا بالشراسة في الاحياء الشعبية ببغداد خصوصاً، نتاج سوء التربية والاهمال في العوائل المنقسمة على نفسها وبينهم غير قليل من ذوي السوابق والمشبهين كانت مؤهلاتهم التي ضمنت لهم موقعاً في الحزب بروزهم في الاشتباكات مع رجال الأمن والشرطة اثناء المظاهرات او مع الخصوم العقائديين عند اللزوم<sup>(٣)</sup> من هؤلاء كون البعث فيما بعد اجهزته القمعية المفزعة. وهم نواة فصائل القتل والتعذيب التي اعتمدها الحزب للقضاء على خصومه السياسيين فيما بعد.

والى كل هذه نضيف العواقب الخطيرة التي تنجم عن العمل الحزبي السري، بقي بعثيو العراق تحت النظارة الأمنية دوماً بخلاف ما تمتع الحزبيون في سورية من حرية حقيقية في نشر مفاهيمهم وادبياتهم وبحريتهم المعترف بها رسمياً. بل وبمشاركة عميدهم في الوزارة الانتقالية وتمتع اعضائها بالرعاية الأبوية من وزرائهم للاغضاء المتعمد من جانب قائد الانقلاب الثاني.

(١) الفكيكي، المرجع السالف، ص ٦٠ وما بعدها.

(٢) وهي ثورة (زو انقلاب) الثالث والعشرين من يوليو بزعامة المقدم جمال عبدالناصر ورفاقه الضباط.

(٣) كان يفرج عنهم بعد سويقت من تحقيق سطحي مصحوبين بنصائح أبوية. لاأذكر من قضى من هؤلاء المتشاجرين في المقاهي والشوارع شهراً واحداً بجريمة اعتداء خطيرة، أو بسبب تظاهرة ضد السلطة أو بسبب معركة حزبية عنيفة في المقهى أو الشارع. وكان ثقل السلطة عادة ينسحب على خصوم البعث وهم الشيوعيون، فهؤلاء كانوا يصورون بالمعتدين.

وتعرض بعثيو العراق الى الملاحقة القانونية. فتخفوا ولاذوا بالتنقية في احيان كثيرة عند وقوعهم في قبضة السلطة فامنوا العقاب الهائل الذي كان ينزل بنظرانهم الشيوعيين.

والواقع الى حين من الزمن كانت السلطة في العراق تحار كيف تتعامل مع هؤلاء وكثيراً ما يختلط الأمر على المحققين وسلطات القضاء اذ لم يكن ذيل قانون العقوبات الذي شرع للشيوعيين ينطبق عليهم فكلمات قومي وقومية عربية وعروية او وحدة ومظاهر العداة للشيوعيين كانت دائماً تفعل فعل السحر في نجاتهم من العقاب بل اتخذت السلطة موقفاً فيه من الليونة قدر ما فيه من عطف واغضاء أليست الحكومة قومية عربية؟ (من يجرؤ من افراد الطبقة الحاكمة على الادعاء بغير ذلك) أليسوا هم اعداء الكفر والالحاد والماركسية والشيوعية مثلهم، فبأي حق يجازونهم؟ انهم قوميون ولا شائبة في ذلك، والخطأ فيهم انهم يريدون تحقيق اهدافهم بانقلاب قد يهدد السلطة القائمة بالزوال، شباب اغرار فحسب ضلوا السبيل القوية فوجب معاملتهم باللطف والارشاد لا بايقاع القصاص ولاشك ان السلطة ستبدو موضع سخرية للعاملين لو انها اشترعت قانوناً خاصاً لعقابهم. أو أجرت تعديلاً على ذيل قانون العقوبات تضيف بموجبه اسم البعث الى قائمة المنظمات والعقائد المنوعة. إن عواقب داء السرية الوبيل ونتائجه الوخيمة صورها واحد من قادتهم بهذه الفقرة البليغة:

"نحج حزب البعث الموصوف بالطبيعية في ان يختزل مصلحة الأمة او الطبقة بتنظيمه، وان يختزل تنظيمه بقيادته، وان يختزل قيادته بشخص امينه العام. وفي وقت متأخر لمست الآثار المدمرة لسرية العمل الحزبي على الكثير من المناضلين المحترفين. ففي الأحزاب السرية تزدى شخصية الفرد وتختنق الحرية ويتضخم الخوف من العدو والمؤامرة كما تتضاعف القدرة على خلق اعداء موهومين، التنظيم السري تسوده قيم استبدادية بذريعة أمن الحزب ووحدته. فنادراً ما تظهر اراء متباينة وكثيراً ما يفضي الخلاف الى تكتل، والتكتل الى انشقاق، والانشقاق الى مؤامرة. والقادة الحزبيون المحترفون لايتداولون السلطة الا في حالة الوفاة، اللهم ما خلا الطرد والعزل او الاتهام بالخيانة. وبسبب الارهاب وحياة الاوكار السرية والسجون والحرمات الجنسي والاحباط النفسي تزداد علامات التوتر والشك بالآخر والميل الى العنف والعدوانية، ومع الزمن يتحول الحزب هدفاً بذاته فهو الملجأ الأمين ومصدر العيش والرزق والسلاح الايديولوجي ضد الآخرين".<sup>(٤)</sup>

(٤) المرجع السالف.

لكن هناك الاعراض الأخرى: المناقضات الفكرية التي يتعذر التوفيق فيما بينها:

- المزج بين التعصب القومي والتطرف الاشتراكي.
- التنبؤات وقراءات الغيب التي تطرح بشكل مصطلحات علمية.
- معاداة الماركسية، ومحاربة الاستغلال الرأسمالي.
- معارضة حق العمال في تشكيل الاحزاب وحريرتهم. والتأكيد على المحتوى الانساني للقومية العربية.
- اجازة النضال ضد التسلط العنصري والاستعمار. وقمع حركة التحرر الكردية، وانكار الهوية القومية للأشوريين والتركمانيين والقبط.
- انكار الولاية الدينية والتعصب الطائفي مع التأكيد الشديد على الرابطة التاريخية والاجتماعية والفكرية غير المنفصمة بين العروبة والاسلام.
- التأكيد على المبادئ الديمقراطية لنظام الحكم والاصرار على استخدام الوسائل الانقلابية للوصول اليه.
- ولد حزب البعث وجرثومة الداء الذي قتله معه. وبدت أعراضه فيه بالعنف والارهاب الذي نشره في العراق وسورية خلال وثوبه الى السلطة وفي اثناء تأمره على الفوز بها. وبقي في ساعات احتضاره الأخيرة اسيراً ذليلاً في يد الضباط وطبقة الحكام الانقلابيين التي خلقها.
- في منتصف شهر أيار من العام ١٩٤٨ أعلنت الاحكام العرفية في جميع انحاء العراق وقد جاء في بيان اعلانها:

"بسبب تطور الحالة في فلسطين ولوجود اسباب تدعو الى اتخاذ التدابير الضرورية لاستتباب الطمأنينة التامة والاستقرار الشامل في البلاد حسبما تتطلبه المصلحة".<sup>(٥)</sup>

(٥) الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، المرجع السالف، ص ٣٠٩ [يقول: في تلك الحقبة السوداء زج آلاف من المثقفين والطلاب والمهنيين والموظفين والمرشحين ومنتخبينهم الثانويين في جميع أنحاء العراق تمهيداً لإنجاح مرشحي الحكومة وبتهمة حماية الجيش من المخربين. جو مرعب لا عهد للعراق بمثله كثيراً في أوقات السلم وانشغلت دوائر الشرطة بالقبض على كل من ورد اسمه في مشبوهيها ثم العثور له على تهمة. كان كاتب هذه السطور من جملة المشبوهين الموقوفين (يظهر أن ضابطاً أقدم صديقاً لكاتب هذه السطور لم يقتنع بأني بعيد عن الحياة العامة منذ زمن) وقدموا كدليل في المحاكمة جملة رسائل =

لم يكن تفسير الغموض في هذا البيان صعباً. فقد عجزت حكومة الصدر عجزاً تاماً عن احتواء الاضطرابات العنيفة ومعارك الشوارع الدموية والقتول بين انصار المرشحين للنيابة، وكذلك للسيطرة على نتائجها، واتفق ذلك مع سوق قطعات الجيش العراقي الى فلسطين للمشاركة في القضاء على العصابات الصهيونية وروجت الحكومة ان الاحكام العرفية اعلنت بالأساس لحماية مؤخرة الجيش وصيانة الأعمال الحربية من ان يمسه ضرر أو إفشاء اسرارها.

وضحكنا في حينه لهذا التعليل الذي قدمه الپاچچي للناس بعد ان تولى مسؤولية الحكم عن الصدر. وقد وجدنا أن أعمال المجالس العرفية كادت تكون قاصرة على مطاردة وتعقيب انصار مرشحي المعارضة واشاعة الارهاب في نفوس المنتخبين الثانويين المؤيدين لهم. واعطاء الفرصة لكنس الآثار التي تخلفت عن النشاط الحزبي السابق.

كانت حكومة الصدر أضعف من ان تقوم بهذه المهمة، او ربما لان ضمير هذا الرجل ما كان يتسع لاحتمال آثار معارك الشوارع الدموية بين انصار المرشحين بل ربما كانت حكومته ضحية واحدة من تلك المؤمرات الصغيرة الداخلية الهادفة الى قلب حكومة والاتيان باخرى من دون سبب ظاهر ولا علة مفهومة. ومحصل القول ان (الصدر) ترك الوزارة في منتصف حزيران بيد حكم عسكري صرف يقوم على رأسه ويوجهه رجل الساعة الدموي المختار في الظرف المناسب وللمهمة المناسبة.

لم يقابل تكليف مزاحم الأمين الپاچچي بتأليف الوزارة - بدهشة كبيرة فقد علم ان كل من فوتح بها من السياسة رفض واعتذر خشية فقدان بقية سمعة، وان الپاچچي لبي الطلب بلهفة ومن دون تردد فهي الفرصة النادرة لاعادة اعتبار وسمعة مشوهة فقدتها وابعدهت شبه مطرود عن ميدان السياسة المحلية خمس عشرة سنة فقد اقترن اسمه بفضيحة خلقية جرمية ساقته متهماً الى المحاكم<sup>(٦)</sup>.

= شخصية من القصصي (ذو النون أيوب) تتعلق بأمور أدبية خالصة (كان ذو النون أيوب أحد المرشحين وقد أوقف ايضاً) الى جانب قصة مخطوطة ترجمتها للكاتب الروسي أنطون جيوكوف الذي توفي قبل ثورة أكتوبر كما هو معلوم. المهازل التي كانت تقدم للمجالس العرفية ماعاد يصلح لها الا الضحك والاشمئزاز. فممن قدم للمحاكمة السيدان صالح اليوسفي كاتب المحكمة الشرعية وفريق عقراوي المحامي في الموصل وكانا من اعضاء الحزب الديمقراطي الكرديستاني المعروفين، والتهمة التي حوكمنا من أجلها هي قيامهما بتزعم حركة تهريب البنزين الى العصابات اليهودية في فلسطين. بطبيعة الحال انكشف زيف هذه التهم أمام هيئة منصفة عادلة للمجلس العرفي الثاني الذي لم يكن له شبه قط بالمجلس العرفي العسكري البصري.

(٦) تسلم مزاحم الپاچچي الحكم بعد إعلان الأحكام العرفية بعشرين يوماً ولم يبلغها ولم يحدد مجال عملها وأبقى قوامها مثلما كان يوم أعلنت في ٦ من حزيران ١٩٤٨. كان معظم الجرائم القضائية التي =



كشف الپاچي خلال فترة حكمه القصيرة عن شخصية سايكوباتية نموذجية. كان مزيجاً من شخصيات شكسبير الثلاثة المخدلة في تمثيلات تاجر البندقية وعطيل ويوليوس قيصر (كاسكا واياكو وشايلوك) مضافاً إليها شخصية (مفستوفوليس) في رواية غوتيه (فاوست) شخصية عجيبة حفلت بحياتها بمتناقضات سايكولوجية لو اتيح لها في الحكم ربع الفترة التي اتاحت لرشيد عالي الكيلاني لأوقع بالبلاد من الكوارث ضعف ما وقع ذلك. لكن العصر الذي جاء فيه كان مختلفاً جداً. ومع هذا شهد عهده ما اعاد الى الذهن الارهاب والبطش الذي فرضه الكيلاني في العامين ١٩٣٣ و١٩٣٥، ففي عهده القصير سبق الى المحاكم العرفية اكر عدد من المدنيين والمثقفين سكان المدن ابناء الطبقة المتوسطة وغصت بهم المواقف والسجون وألصقت بكثير منهم تهم سريعة التلقيب عجيبة الوصف. كما سبق اليها عدد كبير من انصار المرشحين المعارضين فضلاً عن المنتخبين الثانويين وبعض المرشحين الذين كانت حكومته تخشى فوزهم.

كان من الضروري أيضاً البحث عن متهمين يقدمون الى المجالس العرفية بين اليهود. لا شك في ان يكون بين هذه الطائفة الكبيرة اشرار يهددون سلامة الجيش العراقي ويعرقلون المجهود الحربي. وان لم يكن فالواجب الوطني يقضي بايجادهم مهما كلف الأمر. أوليس قيام

= ارتكبتها هذه المجالس في عهد الپاچي الذي لم يقم بدور جدي في وقفها. جاء الپاچي المطعون في سيرته في ظروف أوى كل الساسة القداماء أن يتقدموا لها، وقصته كما رواها الاستاذ المرحوم أحمد مختار بابان لخليل كنه ووردت في مذكراته (العراق أمسه وغده، ص٨٦) نقلاً عن الحسيني - قال بابان وكان رئيساً للديوان الملكي وقتئذ: لما عاد مزاحم الپاچي الى العراق على عهد وزارة حمدي الپاچي جاني الى البلاط الملكي وسلمني رسالة مفتوحة مؤكداً على ضرورة الاطلاع عليها ومن ثم تقديمها الى الأمير عبدالإله فطلبت اليه الدخول على الأمير فوراً فقال انه يكتفي بروح هذه الرسالة، فلما قرأتها وجدت ان الرجل يطلب رفع الحيف الذي ألحقه به رشيد عالي بفصله من الخدمة في السلك الخارجي ويرجو إعادته وزيراً مفوضاً في إحدى العواصم الأوروبية ثم صار الرجل يتردد الى البلاط بمناسبة وبدون مناسبة حتى اذا استقال (الصدر) من الوزارة كلفه الأمير بتأليف وزارة جديدة فأجاب الپاچي انه يقبل بسرور وابتهاج على أن يشرك معه علي جودت الأيوبي وعمر نظمي فلم يمانع الوصي فأبرق الى عمر نظمي وكان في الاستانة فرفض. أما علي جودت فقال انه سيبيت في العرض عند عودته (رفض بالاخير) ثم كلف جلال بابان وعلي ممتاز وصادق البصام ومحمد مهدي كبه فرفضوا جميعاً أما الأخير فقد اشترط تمثيلاً حزبياً من الاستقلال والوطني الديمقراطي، فوافق مزاحم على أن يكونوا وزراء بدون وزارة. إلا أن المشكل لم يحل إلا بعد تدخل عبدالإله واقناع الرافضين بدخول الوزارة. [الحسيني، ج٣، بيروت ١٩٧٨] [قابل مزاحم الپاچي خدمة أحمد مختار بابان بالشهادة عليه وعلى كل أعدائه من رجال الحكم عند تطوعه بالشهادة أمام المحكمة العسكرية العليا الخاصة المعروفة بمحكمة المهادوي أيام حكم عبدالكريم قاسم. لم يسلم الپاچي من إدانة ابنه (عدنان) له في الكتاب الذي كتبه عن والده (المقدمة) (مزاحم الپاچي، سيرة سياسية، لندن ١٩٨٩)]

الادارة العرفية كان اساساً بسبب تطور الحالة في فلسطين؟ واذا كانت الاحكام العرفية قد وجدت لضرورة اقتضتها حماية مؤخرة الجيش العراقي في الوطن من الجواسيس والمخربين والمتعاونين مع العدو - وتأمين سلامة مواصلاته اثناء تأديته الواجب المقدس. فمن الخسارة ان تبقى مجالسها العرفية عاطلة ولا بد والحالة هذه أن يبحث لها عن زبائن. ليس من المعقول ان لا يوجد امثال هؤلاء المجرمين مندسين في صفوف الشعب. والمنطق يقضي أن ينتقوا من الوسط الادعى الى الشك والاكثر قبولا. وهو انذاك المجتمع اليهودي. وكان من الضروري أيضاً ان تختار الضحايا اختياراً مناسباً للطرف وان يبحث عن المجرمين المرشحين بين عليية القوم وسراتهم وذوي اليسار فيهم ليحدث العقاب الصدى والأثر المنشودين. أي البرهان على يقظة الحكومة وحرصها على الأمن القومي. والا ما قيمة عشرين مواطناً يهودياً من سوق الخضار أو بقالين صغار من سوق حنون في بغداد مثلاً؟ واي صدى شعبي او اثر يحدثه عقاب ينزل بهؤلاء؟

ورسا البحث على (شفيق عدس) وافراد قلة من التجار وحملة الشهادات العالية. ومثلما حصل في العام ١٩٣٥ عندما اقتضى الأمر تلقين درس في حسن السلوك على الطائفة الكلدآشورية. فالتفت جبل المشنقة في سنجار على عنق كبير يري هذه الاقلية (عبدالله فائق المحامي) و(عبدالكريم قره كله) المزارع والملاك الكبير، التف هذه المرة على عنق رجل خطير الشأن في حفلة شتى علنية بالبصرة بعد محاكمة هزلية مفعجة مصحوبة بتغطية صحفية وتهريج اعلامي مماثل للعام ١٩٣٥ وكانت لحكومة الپاچي اليد الأولى فيها. توجيهاً واسهاماً فعلياً.

واثقل عدد من اليهود باحكام قاسية بتهمه معاونتهم على تهريب اليهود العراقيين وارسالهم الى فلسطين. الا ان المجالس العرفية اولت جل اهتمامها بتنظيف المدن وبعض مناطق الريف وشوارع بغداد بنوع خاص من الشيوعيين واصحاب الآراء الهدامة، وانصار الاحزاب المحلية وكل من شارك في اعمال الشغب والتظاهرات اثناء المعارك الانتخابية، وبارسالهم الى السجون مثقلين باحكام طويلة الأمد، وكذلك كل من وجدت الاجهزة البوليسية ضرورة ايداعهم الحبس او ربطهم بكفالات او نفيهم او ابعادهم صيانة للأمن والنظام. فضلاً عن بضعة عشر يهودياً اتهموا باعمال التخريب ومساعدة اليهود اخوانهم على مغادرة العراق كما ذكرنا.

ولم تفصل المجالس العرفية طوال وجودها بحسب معلوماتي في اية قضية تتعلق بصورة

مباشرةً بسلامة الجيش ومنشأته أو الاعتداء على مؤخرته. وبعد الغاء المجالس العرفية والاقتصار على مجلس واحد مركزه بغداد، أصدرت الحكومة بياناً يقتصر فيه عمله على القضايا الداخلية حصراً ضمن مجال قانون ذيل العقوبات رقم (٥١) للعام ١٩٣٨ اعني مكافحة الاراء الهدامة. ونقل (العقيد النعساني) الى بغداد ليرأس هذا المجلس بعد ان برهن في البصرة على جدارته وحذقه في إرسال الأبرياء الى المشانق.

\*\*\*

باتت قضية فلسطين والفلسطينيين شغل القوميين العربيين الشاغل والشرع الرئيس الذي تنشره سفنهم وهي تشق عباب القومية. ولم يكن هناك من سبيل للحكومات القائمة في البلاد العربية من تبني القضية روحياً بعد ان اخفقت عملياً في اصلاح الغلظة العظمى بله الجريمة الحقاء التي ارتكبتها بتشجيع الفلسطينيين على النزوح من ديارهم. دخلت سياسة البلاد الناطقة بالعربية رغم انهم في حلبة المسابقة القومية خشية رميهم بالجبن والتقاعد أو بالاقومية التي تعادل في احيان كثيرة تهمة الخيانة والتآمر مع الاجنبي لتصفية قضية الفلسطينيين. وبدا التبني الروحي هذا جهادا كلامياً. كما وصفه صديقي الطيب الذكر اكرم فاضل في قصيدة عنوانها (جهاد فلسطين الدامي وجهادنا الكلامي) اذكر بيتاً من ابياتها:

ولدينا من اليراع أساط ————— ييل تشق بحر المداد

وباتت بيدهم ويبد فصائل القوميين العربيين مثلما بدا قميص (عثمان) بيد (معاوية) ينشره احدهم كلما صعد المنبر ليرشق أحدهم في بلاده أو البلاد الشقيقة الاخرى بالتهمة المخيفة التي ادت في مبدأ الامر الى اسقاط حكومات وقيام انقلابات عسكرية واغتيال ملك ورئيس حكومة<sup>(٧)</sup>.

(٧) المقصود: الملك عبدالله ابن الحسين. كان يحب صلاة الجمعة في المسجد الأقصى ووجد المتأمرين في ذلك أفضل فرصة. وقبلها بيوم واحد (١٩) تموز. قام السفير الاميريكي بابلاغ الملك أبناء عن احتمال اغتياله يوم الجمعة ونصح بعدم الذهاب لكنه لم يصغ اليه واجابه «لا أموت الا عندما يحين اجلي» وقال لرئيس وزرائه سمير الرفاعي عين الشيء «اني آمن بالله ونفسي بيده» مع هذا لاحظ ان بعض الذين دعوا لاصطحابه بالمناسبة اعتذر أو قدم تعاليل واهية وفي صباح ٢٠ تموز الجمعة ١٩٥١ قام بزيارة اصداق له في نابلس وعاد الى القدس للصلاة وكان في ركابه (موسى عبدالله الحسيني) وهو احد المتأمرين عليه الذي ذكر انه انحنى امامه ودعا له بطول العمر. كان معه قائد الحرس العقيد حابس المجالي وحفيده الحسين ابن طلال الصغير يمشي وراءه. ما دخل الباب الرئيس حتى تقدم منه رجل كان مستتراً بالباب عن اليمين وقبل ان يستطیع اي شخص ايقافه أطلق مسدسه من مسافة قريبة جداً فأستقرت الرصاصة في رأس الملك وسقط على الارض وأنفلتت عمامته ثم ابتعد القاتل وهو يطلق عبارات عشوائية في الهواء لتسهيل هروبه. واعتقد ان الرأس المدير للعملية هم الحسينيون اقرباء المفتي بالتعاون مع وصفي التل =

بالاخير وبطول التكرار والترديد واتساع رقعة الاتهام عادت فلايعبأ بها احد بل غدت لا اكثر من فكاها يتندر بها المتندرون.

وعند طائفة كبيرة باتت القضية مهنة ارتزاق. بكتابة الادبيات المملة والكنائش الفقيرة المادة، وتأسيس مكاتب لجمع الاعانات والمساعدات المالية. بل وفرضها بالقوة والتهديد على الناس. فضلاً عن صيرورتها سلماً لطلاب الشهرة السياسية والمناصب الخطيرة ووسيلة لحبك المؤامرات الهادفة الى قلب الحكومات وتعلة للانقلابات العسكرية.

هناك امور كثيرة لا نفهمها. ولذلك نرفض الاعتقاد بها. ولا خوف من الحكم عليها بما يخالف حقيقتها يدفعنا في احيان كثيرة الى محاولة اسقاطها مما يشغل الضمير. أي تناسيها. وهناك سياسة ورجال حكم عرفوا عادة بالتعقل والحذر تجدهم يدافع من دوافع الخوف العديدة والهواجس الغامضة الى الاتيان بعمل احقق فيه كثير من الجسارة والاندفاع الاهوج لا يحسبون أي حساب لنتائج وعواقبه.

وفي عملية اجلاء اليهود العراقيين عن وطنهم. او بالاحرى ارغامهم على ترك البلاد تلك العملية التي اقدم عليها السيد توفيق السويدي ووزارته. بقيت تطمس لفاعلها وهى العذر واقله شانا.

وظلت اسئلة تمور في مخيلتي عن الحكمة فيها وعن الضرورة الملجئة اليها. كلما عرضت قضية فلسطين على بساط البحث، او خرج من رمادها شواظ نار.

وقد اتفق كل من عرف توفيق السويدي وكتب عنه على وصفه بالدبلوماسي الحاذق والسياسي الامعي البصير الباقعة بالسياسة العالمية، والوطني القومي. رئيس المؤتمر العربي في دمشق الذي ينتهز في مذكراته كل فرصة تعن للفخر بقوميته العربية واصالة نسبه. وفوق ذلك كله اعظم الساسة العراقيين ثقافة واغزهم علما. لكنه اتصف بالتسرع وعدم الأمانة.

= الذي كان موجوداً حينذاك في مصر. وقدم عشرة للمحاكمة بينهم اثنان غائباً. وكان بين المتهمين ثلاثة من اقرباء مفتي فلسطين. وحكم على ستة منهم بالاعدام بينهم الغائبان ونفذ الحكم في اربعة بعد اربعة ايام من النطق بالحكم.

المقصود برئيس الحكومة هنا هو رياض الصلح الذي اغتيل قبيل عودته الى لبنان في زيارة لعمان في ١٦ تموز ١٩٥١ وهو في طريقه الى المطار. والشائع هو ان قتله كان ثأراً لدم أنطون سعادة رئيس الحزب القومي السوري. حازت سيارة المقتال سيارة الصلح وهي منطلقة به الى مطار عمان فأطلق ركبها النار عليه. الا ان شائعة قوية كانت تدور في لبنان بان حاشية حول رئيس الجمهورية بشارة الخوري هي التي دبرت أمر قتله [جداد المرجع السالف ج٢ ص٤٠٠، والاردن بين عهدتين: للرئيس الاول موسى عادل بكرمزا شردان (زمان ومكان طبعه غير مذكور) الص ٦٧-٦٩.

مغادرة العراق نهائياً وأسقاط الجنسية عنهم".

بهذا ولأول وهلة بدا قانون اسقاط الجنسية عن المواطنين العراقيين اليهود لا غبار عليه من الناحية المبدئية ولا يخالف نصاً وروحاً وثيقة حقوق الانسان التي أقرتها الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة بتاريخ ١٠ من كانون الأول ١٩٤٨ كما لا يتعارض مع مواد القانون الاساسي العراقي. خلافاً لمرسوم اسقاط الجنسية الذي اصدرته حكومة رشيد عالي بحق الآشوريين في العام ١٩٣٣، فهؤلاء نزع عنهم الجنسية وابعدوا مكرهين الا ان هذا الاختيار الظاهري للتنازل عن الجنسية آل عملاً كما سنرى الى ارغام حقيقي وادى الى هجرة جماعية لم تعرف هذه البلاد لها مثيلاً قديماً وحديثاً فهو في الجوهر لم يكن يختلف عنه عند التطبيق.

اسهم اليهود في ارض الرافدين بقدر كبير في بناء تقدمه الحضاري والثقافي. والحركة الاقتصادية تدين لهم بالكثير. وتفوقت الطبقة المتعلمة فنياً وتكنولوجياً بفضل احتكاكها بالغرب وقت ان وجدت من سائر الحكومات المتعاقبة - صدوداً عن استخدامهم في المؤسسات ذات الطابع العسكري بخلاف الاقلية المسيحية (في وقت متأخر) والكرد الذين كان المسلك العسكري قبلتهم خلال الحضور الاسلامي والعربي وتخصصوا في امور التجارة والمال والاقتصاد ووجدت بينهم طبقة موسرة في معظم المدن العراقية كما تألفت من متعلميهم طبقة أخرى من صغار الموظفين المختصين والمهنيين. الا ان الغالبية العظمى منهم كانت اما جزءاً من الطبقة دون المتوسطة العراقية أو من الكادحين الذين يحصلون على قوت يومهم وكفأفهم فحسب وهم صغار الكسبة والحرفيين والبقالون والعمال.

تمسك اليهود العراقيون بعراقيتهم وتشبثوا بها رغم حوادث العنف والعزل الاجتماعي اللذين كانوا يتعرضون لهما في مناسبات مماثلة لتلك التي كانت تتعرض لها الاقلية (الكلدوآشورية) غير الواعية قومياً. الا ان مظاهر العداة والعزل الاجتماعي كان يتصاعد بتطور القضية الفلسطينية. وقد بدت هجرة الفلسطينيين الجماعية الهائلة التي شجعها القوميون العرب والدول الناطقة بالعربية وكأنها من عمل الصهاينة الاسرائيليين او هكذا اراد القوميون والحكومات تقديمها لجماهيرهم. فاشتدت النقمة وصار المواطن اليهودي يتعرض في المدن والقصبات للاهانات والاعتداء بالضرب فلا تسمع شكواه ومع هذا بقي اليهود متمسكين بعراقيتهم ولم تنجح محاولات ترويع منظمة قام بها افراد متحمسون للصهيونية بينهم. كانت ترمي بجوهرها الى ترغيبهم في ترك العراق جماعات لا افراداً لان اسرائيل كانت اذ ذاك بحاجة الى قوة بشرية.

مائة وخمسون الفاً من المواطنين العراقيين تأصلت جذورهم في بلاد الرافدين قبل ان تتأصل جذور كثير من القوميات التي تسكنه انسالها اليوم بقرون عديدة. فبعبارات مقتضبة ظاهرة البراءة تكاد لاتملاً نصف صحيفة مذيلة بشمانية توابع او تسعة أعلن هؤلاء المائة والخمسون الفاً بانهم اشخاص غير مرغوب فيهم (persona non grata) بالتعبير القانوني الذي سمي قانون اسقاط الجنسية عن اليهود العراقيين<sup>(٨)</sup> تم خروج احفاد كل اولئك الذين ابوا قبل اكثر من الف عام ان يعودوا الى وطن ابائهم واجدادهم وفضلوا البقاء في وطنهم الجديد ورفضوا ان يستفيدوا من مرسوم كورش الثاني الشهير (٥٣٦ ق.م)<sup>(٩)</sup> واعجب ما في هذا القانون مقدمته التي اتت الى ذكر الاسباب التي دعت الى اصداره وهذه هي:

"لوحظ ان بعض اليهود اخذوا يتذرعون بكل الوسائل غير المشروعة لترك العراق نهائياً. وان البعض سبق ان غادر العراق بصورة غير مشروعة ومن حيث ان وجود رعايا من هذا القبيل مرغمين على البقاء ومكرهين على الاحتفاظ بالجنسية العراقية مما يؤدي حتماً الى نتائج لها تأثيرها على الأمن العام والى خلق مشكلة اجتماعية واقتصادية فقد وجد ان لا مندوحة من عدم الحيلولة دون رغبة هؤلاء في

(٨) شرع قانون اسقاط الجنسية في ٤ آذار ١٩٥٠. وطبق حالاً وكان المظنون كما يقول الحسني (تاريخ الوزارات ج ٨ ص ١٦١) ان عدد اليهود الذين يستفيدون من حكم القانون فيغادرون العراق سوف لا يتجاوز ٨٠٠٠ يهودي بصورة من الصور... لكن دعايات غلاة الصهاينة وحركات الاستقزاز التي قاموا بها في كل ناحية وقرية وكذا الضغط الاميريكي المتزايد حملت مئة وخمسة وعشرين الفاً منهم على التخلي عن جنسيتهم العراقية والاتحاق بدولة اسرائيل الامر الذي اثبت عدم وفائهم للبلاد التي أوتهم واحسنت اليهم أكثر من ٣٠٠٠ سنة.» ونحن نقول ان الملاحقات والمطاردة والتهديدات التي عاناها يهود العراق منذ قيام دولة اسرائيل تحتاج الى مجلد كامل. وتشبه من احد ابوابها المأساة التي حلت اثر مذابح آب ١٩٣٣ بالمسيحيين ورغم ان القانون كان قد أعطى الحرية للذي يريد اسقاط جنسيته. الا ان عنصر الارهاب كان جلياً. ولم يكن هناك اي اجراء فعلي يطمئن اليهود على سلامتهم بالبقاء فقد كانت أكثريتهم تكره مغادرة البلاد. وصدرت احكام اعدام بتهمة القاء قنابل وتخزين اسلحة في بعض المنازل لغرض الدفاع عن النفس، وكثير هروب اليهود بعد تلك الاجراءات الصارمة ممن آثر البقاء وهم الاغلبية بعد تهريب فما استطاعوا تهريبه من اموالهم الخاصة. وعندها لجأت حكومة نوري السعيد الى سن القانون المرقم ٥ لسنة ١٩٥١ الذي قضى بتجميد اموال اليهود المسقطه عنهم الجنسية وتضمن عقوبات على المخالفين.

(٩) المقصود به ملك الاخمينين كورش الثاني الذي ملك الامبراطورية الفارسية من ٥٥٩ الى ٥٣٠ ق.م وهي سنة وفاته، زحف على بابل وقبض حكم البابليين ودخل العاصمة دون قتال. ومسلته التي تشيد باعماله هي قطعة دعائية فريدة في بابها. عرف باحترامه الاديان كافة وفك اسار آلهة آشور واعادها الى اهلها كذلك فعل بالهة سوسة. ثم اصدر في ٥٣٨ أو بعدها امراً أطلق فيه الحرية لليهود للعودة الى ديارهم وبناء هيكلهم وكان من مسيبي نبوخذنصر وأخذ اجراءات لتجديد بناء هيكلهم في أورشليم. بنوه بذلك كل من سفري عزرا واشعيا في التوراة.

قام فريق من هؤلاء باعمال ارهابية ضد ابناء جلدتهم في بغداد ترمي الى ايهاهم بان الحكومة والقوميين العروبيين وراها فلم تكن بذات جدوى<sup>(١٠)</sup>.

وبقي المجتمع اليهودي في العراق صامداً مقيماً على ولائه لوطن لا يعرفون وطناً آخر غيره يتذكرون فحسب ما نعموا به من حرية ورعاية لاسيما ما حباهم الفتح العربي وايام الخلافة. ولم تظهر قط في العراق حركة هجرة طوعية كبيرة او صغيرة منظمة الى فلسطين بعد انطلاق حركة هجرة اليهود في العالم اثر نهاية الحرب العالمية. ويعكس ذلك فقد كانت هناك حركة يقودها تنظيم يهودي معاد للصهيونية باسم (عصبة مكافحة الصهيونية) مؤلف من شباب يهود مثقفين ذوي ميول ديمقراطية وتقدمية<sup>(١١)</sup>.

وجد يهود العراق انفسهم عراقيين اولاً ويهود ثانياً. مثلما وجدت غالبية اليهود الامان الساحقة اثناء فترة الحكم النازي: المان اولاً ويهود ثانياً. ولهذا انصب عليهم الاضطهاد هناك كما شرحنا وخص الصهاينة منهم بالرعاية لاستعدادهم للتخلي عن الأولى في سبيل الثانية.

لم يكن اليهود بالاغبياء ليدركوا بأن الانتصار لقضية فلسطين - والسباق المحموم بين القوميين العروبيين وبين حكام الدول العربية على احراز جائزة السباق الأولى في الجهاد القومي - جعل منهم اقلية عدوة يجب التخلص منها لئلا يثير هروب افرادها مشاكل و(السويدي) ووزراؤه التسعة وخلفهم النواب والاعيان الذين صادقوا على هذا القانون يعرفون حق المعرفة ان الافراد القتائل الذين كانوا يتركون وطنهم في تلك الآونة لم يتوجهوا الى اسرائيل وانما سكنوا بلاداً أخرى خوفاً مما يلحق بهم من مهانة وخشية ان يلاقوا عين المصير الذي لقيه الشقيقان (عدس) وتلك المئات التي راحت ضحية غضبة الجيش العراقي المنحدر في حزيران ١٩٤١.

وكل ما عمله هذا القانون الابله انه دفع بمائة ألف ونيّف من المعدمين وشبهه المعدمين والكسبة والموظفين الصغار والمهنيين والفلاحين والمزارعين الى احضان دولة اسرائيل تخلصاً من

(١٠) أورد (الحسني ج ٨ ص ٢٠٩-٢١١) الطبقة الخامس ١٩٧٨ من تاريخ الوزارات البيان المفصل عن حوادث العنف التي افتعلها غلاة اليهود الصهاينة في العراق لحمل ابناء جلدتهم على اسقاط جنسياتهم وترك البلاد فلترجع [اكتشفت الحكومة مخابيء عديدة للأسلحة وقبض على عدد من الضالعين في هذه الاعمال ونفذ حكم الموت في اثنين وحكم على آخرين بمدد مختلفة].

(١١) كانت حركة يسارية مدعومة بنفوذ الحزب الشيوعي وتعمل بارشاده ويغلب على ظني ان العنصر الرئيس الذي وقع الطلب هو يوسف زلخة العضو في الحزب الشيوعي. احيل اعضاء العصبة الى المحاكمة بتهمة الترويج للصهيونية تحت غطاء مكافحتها! وحكم عليهم بمدد سجن مختلفة وكان تعليل المحكمة التي كان يرأسها خليل امين المفتي من اعجب التفاسير القانونية أو اللاقانونية بالأحرى.

الاهانة والمضايقه الاقتصادية والاضطهاد الحكومي والعزل الاجتماعي، كتلة بشرية يؤكد لك الستراتيجيون العسكريون ان بينهما من القادرين على حمل السلاح ما يعادل فرقة تشغل تلك الأراضي التي باعها اصحابها الفلسطينيين من الوكالات اليهودية، والأخرى التي تركوها وراهم حين نزحوا.

في مقدمة هذا القانون العجيب صراحةً حمقاء لايسعني المرور بها. اذا كان عدد من المواطنين يغادر البلاد بصورة مشروعة (لأن الدولة تأبى منحه جواز سفر يخرج به بصورة مشروعة) فبأي رجه من العقل والمنطق تفسر قيام تلك الدولة باشتراع قانون خاص لغرض مشروعية تركهم البلاد وتسهيل مبادرتهم هذه شريطة ان يدفعوا الثمن الباهظ. مواطنهم... التنازل عن جنسيتهم.

انك لتحتاج الى أقل من هذا بكثير لتشعر فرداً من اقربائك بأنه شخص غير مرغوب فيه كم كانت حكومة السويدي تحتاج الى سمعة قومية لتتويج رأسها بالعمل القومي الرائع وهي عملية لم تجارها فيه اية دولة عربية اخرى وفي كل منها اقلية يهودية؟

في الماضي السحيق كانت الاغلبية المسلمة قد تركت عالم المال والتجارة والاقتصاد لغيرها أنفة من مزاوله هذه المهن الوضيعة في عرفها لأنها لاتليق بمقام السيد الماجد لكنها وجدت في القرن العشرين ان التجارة المضاربة بالمال والسوق تأتي بالغنى. إن الثروة النقدية لاتقل أثراً في حياة النفوذ والسلطة من حيازة الأراضي والضياع. كان من الضروري ان يزاح التجار اليهود ورجال الاعمال فيهم من ساحة الحرب الاقتصادية. وقد آن الاوان لحسم هذا الصراع الذي لايتحرج فيه عادة عن استخدام أي سلاح لا اخلاقي بما في ذلك الاستعانة بالدين والقومية والتضحية بمكارم الاخلاق.

وقد تم حسم المعركة بقانون اسقاط الجنسية، وقانون تجريد اموال المسقطه عنهم الجنسية الذي صدر بعد سنة واحدة.

في العام ١٩٣٨ صدر قانون مكافحة الاراء الهدامة رقم (٥١) الذي جعل الصهيونية الى جانب الشيوعية وما شاكلها جريمة تبلغ عقوبتها الاعدام.

وفي العام ١٩٤٢ ولم يمر على صدور القانون اكثر من اربع سنوات ولم يحكم بموجبيه صهيوني واحد، تقدمت هيئات الطائفة اليهودية للحكومة باحتجاج رسمي على وجود المؤسسات الصهيونية في العراق وطلبت من السلطة غلقها والغاءها فوراً؟

بعد اسبوع واحد من مصادقة مجلس الاعيان على القانون رقم (٥١) هذا القى العين عزرا

"ارجو ان يسمح لي المجلس العالي بالقاء كلمة حول الصهيونية في العراق فقد وافقنا جميعاً قبل بضعة ايام على اقرار لائحة ذيل قانون العقوبات البغدادي رقم( ٥١) للسنة ١٩٣٨ المتضمن اعتبار التحبيذ والترويج للصهيونية جريمة يعاقب عليها كالشيوعية والفوضوية والإباحية وافقنا عليه دون مناقشة. الا اني أرى من واجبي الآن أن استعرض تاريخ غرس الصهيونية في العراق والعوامل التي غذتها لغاية تنوير المجلس العالي وليتخذ منها عبرة في المستقبل عند توجيه سياستنا الداخلية.

في اواسط سنة ١٩٢٢ أي بعد تشكيل الحكومة العراقية بقليل، حضر الى العراق مندوب مرسل من الجمعية الصهيونية في فلسطين لغاية تأسيس وكالة صهيونية وناد ومدرسة في البلد لترويج وتجنيد مباديء الصهيونية لدى الجيل الناشيء وبت الدعاية للهجرة الى فلسطين.

هال هذا الأمر الطائفة الاسرائيلية. فاجتمع وجوهها وبحشوا فيما يؤول اليه انتشار هذه الفكرة من نتائج وخيمة. فقرروا ايفاد من اعتمدوا عليهم لمواجهة المراجع ذات الشأن لأجل منع هذه التشكيلات، فراجع الوفد دائرة المندوب السامي البريطاني بالنظر لما كان معروفاً ان اشارة خفيفة من هذا الجانب كانت كافية لمنع هذه التشكيلات. وبالنظر لما كان ينتظر من هذا الجانب من العطف على هذه الدولة الفتية التي لم تلبث ان شكلتها. وعلى سكانها من العرب واليهود الذين عاشوا متحابين ومطمئنين الواحد من الثاني عصوراً مديدة تتجاوز الفي سنة. ولكن فضلاً عن العراقية ذاتها تثبت هذا المشروع. مشروع غرس نواة الصهيونية في العراق باجازتها تأسيس وكالة صهيونية وناد ومدرسة باجازة من (وزارة) الدعاية لترويج وتجنيد الصهيونية في العراق، وتشجيع الهجرة الى فلسطين تحت رعاية الحكومة وحمائتها. ان المعتمد الذي عينته الوكالة الصهيونية في فلسطين للعراق. كان معترفاً به رسمياً وكانت دائرة السفر والجنسية لا تعطي جواز السفر الى فلسطين الا بعد ان يصادق المعتمد المذكور على هذا الجواز، في الوقت ذاته اتخذت الحكومة تدابير معاكسة. وهي نشر الدعاية ضد الصهيونية في المدارس الرسمية وفي وحدات الجيش وفي المطبوعات وحينما نظمت دوائر المعارف

المظاهرات ضد (السر ألفريد موند) عند قدومه الى العراق سنة ١٩٢٨ باعتبارها احد اقطاب الصهيونية لم تفكر بالغاء اجازة مدرسة الصهيونية الممنوحة من قبلها بل استمرت هذه المدرسة المؤسسة الأخرى في اعمالها. ولم تقدم الحكومة على الغائها الا بعد ان قامت الطائفة الاسرائيلية باحتجاج شديد لدى اولياء الأمور على هذه الاعمال ذات الوجهين وكان ذلك سنة ١٩٣٤ أي بعد ١٢ سنة من تأسيس هذه التشكيلات ويشهد على ذلك من كان في مسؤولية الحكم في ذلك التاريخ ان هذه التصرفات من قبل الحكومة اولدت الكره من العرب لليهود مما سبب اغتياالات علنية وارهابية مختلفة لليهود من سنة ١٩٣٤ الى ١٩٤٦ وهذه جميعها بقيت بدون تعقيب او بدون نتيجة.

ان من آثار التصرفات ايضاً. الكارثة الكبرى التي وقعت سنة ١٩٤١ فذهب ضحيتها مئات من اليهود بالقتل والنهب والسجن مما اضطر الحكومة الى استعمال القوة المسلحة لاجل اعادة النظام المختل ولكن لم يتم ذلك الا بعد التضحية بعدد لا يستهان به من العرب. ان هذه المآسي المتوالية وآخرها الكارثة المنوه عنها، سبب عدم اطمئنان يهود العراق على مصيرهم وعززت الرغبة في الهجرة من العراق فالفقير من اليهود توجه بنظره الى فلسطين حيث وجه نظره الى البلاد الاجنبية الأخرى التي يشعر بالاطمئنان فيها على حياته وماله اكثر مما يشعر في العراق. وددت مضطراً ان استعرض هذه الحقائق لدى المجلس العالي ليكون على علم بها وليكون ذلك عبرة لنا لنستفيد بها مستقبلاً عند توجيه سياستنا الداخلية ويوجه له لا على الذي ترك بلاد واقرباء متألماً فحسب. بل على العوامل التي الجأت الى الهجرة."

وبدا من السخف بمكان لجوء بعض القوميين العروبيين الى الحججة القديمة في القاء كل تصرف سياسي أخرق أو سيء العاقبة على عتبة دار المندوب السامي البريطاني أو النفوذ البريطاني الذي يمارسه على الحكومات العراقية، كتحميلهم في تلك الأيام مسؤولية تشجيع الحركة الصهيونية في العراق. فقد رأينا السياسة القوميين بعد الاستقلال كياسين الهاشمي والكيلاني وحكمت سليمان وغيرهم يوجهون سياسة البلاد ويعبثون بمصائرنا بتحد صريح للبريطانيين وخلافاً لرغبات الوايت هول في العراق رغم التشجيع الحكومي؟ وجدنا عامة الجمهور اليهودي ضعيف الاستجابة الى دعوات الصهيونية لاسيما خلال الاعوام ١٩٣٢-١٩٣٥ فطول الفترة

التي سمح فيها بالنشاط الصهيوني وحتى صدور قانون اسقاط الجنسية لم تنجح مجهودات وكلائه في اغناء (ارض الميعاد) بالقوة البشرية قدر ما اغنتها الاعتداءات والاهانات والاضطهاد القضائي والمقاطعة الاجتماعية التي تعرضوا لها. بل رغم كل هذه المضايقات العنصرية الدينية ما وجدنا من اولئك الذين وصفناهم - من يندفع بعاطفة قومية او دينية لاتخاذ اسرائيل وطناً ثانياً. ومن وصفناهم بالتجار ورجال الأعمال وكبار المثقفين والتكنيين انتشر في مشارق الأرض ومغاربها دون اسرائيل وبقي منهم آلاف يحنون الى وطنهم الأم امناء على عراقيتهم رغم تجريدتهم منها بحكم ذلك القانون. هؤلاء فقدهم الوطن مجاناً وبدون عوض.

وصديقنا الشاعر العربي الكبير - العراقي الأصل والمحتد يصف العمل بمؤامرة كبرى مدبرة بليل قال:

"قدم لاسرائيل اكثر من مائة وخمسين الف يهودي عراقي أصيل ومثقف وذوي اختصاص في شتى مجالات الحياة باسهل مما يقدم قطيع غنم. اما لماذا تصنف الوزارة السويدية وعموداها الفقريان (توفيق السويدي وصالح جبر) التغافل عن تجميد اموال واملاك المهجرين الى اسرائيل هدية على اطباق من ذهب في حين ان هذا التجميد وكما يقال وضع اليد على كل ما يمتلكه اليهود العراقيون... لماذا يؤجل كل ذلك الى اكثر من سبعة شهور ريثما تجيء الوزارة السعيدية وفي هذه المرة بعمودها الفقري الأوحد نوري السعيد... ليتكفل بذلك كله، فهنا يكمن السر الرهيب وما عسى ان يكون هذا السر سوى ان تسمح الفرصة خلال هذه الفترة القصيرة لتخليص هؤلاء اليهود وبخاصة كبار تجارهم وصيارفتهم واقطاعيينهم كل ما يملكون من ثروات وكنوز... ومن سخرية القدر ان يكون حزب الاستقلال الذي هو الغطاء الاول على من يسمون القوميين العرب أي من يفترض فيهم ان يكونوا هم في المقدمة ومن الثائرين، بكل ما يستطيعون وبكل ما يدخرون من قواهم الحزبية لا لشجب المؤامرة حسب، بل لاثارة الجماهير لغرض اسقاطها ان يكون منه فيمن يمثله في مجلس النواب."

في هذه المناسبة أرى ان اذكر الصديق الجواهري وقراءه وقرائي بان اولئك الحكام الذين اصدروا قبل ٢٤٨٨ سنة بالضبط ذلك المرسوم الذي أباح لاسلاف هؤلاء اليهود المفضلين العودة لا باخذ كل مقتناتهم واموالهم وحسب بل كل ما نهب من نفائس وذهب وجواهر كانت

تزدان بها هياكلهم وإعادتها اليهم. انهم كسبوا ما كسبوا كاجدادهم بجدهم وعرق جبينهم وهو حلالهم. كان من رأي القوميين العربيين الذين يمثلهم حزب الاستقلال في العراق ان تهتم الحكومة قبل كل شيء بتجريد اليهود من مقتناتهم وما ملكت اياديهم بدل الاهتمام باقتنائهم في العراق. أما ان تزود دولة اسرائيل بقوة ضاربة تعادل فرقة عسكرية من هؤلاء النازحين فضلاً عن اكثر من ضعف هذا العدد من الايدي العاملة التي كانت هذه الدولة في حاجة ماسة اليها وهي تخوض معركة موت او حياة، فهذا أمر ثانوي عند القوميين العربيين... وهذا هو البلاء الاكبر.

خلال فترة النزوح الجماعي هذا - وخلافاً لبعض التحرشات والاهانات والبرود العام الذي كان يقابل به حوالي خمسة عشر الفاً من يهود مدينتي الموصل ومثلها او قريب منها في ارجاء كردستان العراقية، راح هؤلاء بصمت وبكثرة ما يكون من السرية يبيعون اثاث بيوتهم ولم يكن بينهم غير افراد يعدون على الاصابع ممن عرف بسعة الرزق والثروة يعيشون كافة في حي خاص بهم منذ مئات اثر مئات من السنين ولايجرؤ احد منهم على تركه الى منزل جديد في احياء أخرى. وليس بين منازل ذلك الحي ما ينم عن ترف وحفض عيش فكلهم كسبة ويقالون وحرفيون وقليل منهم موظفون صغار. راحوا يبيعون مقتناتهم بابخس الاثمان وعجلة الخائف من مصير اسوء ومجملها يكاد لايسد نفقات سفرهم وفي اليمن كان من اليهود عدد يقارب عددهم في العراق او يكاد. مائة الف هم عرب اصائل ينتمون الى قبائل عربية تمسكت بيهوديتها التي انتشرت هناك قبل الاسلام بقرون وليسوا نسل عمليات سبي او تهجير. ابرمت صفقة افتدائهم بين المنظمات العالمية الصهيونية وبين إمام اليمن الذي اصر على دفع الثمن بالذهب. وقد حمل اليه بصناديق خلال عملية الترحيل الهادئة التي بدأت في اواسط العام ١٩٤٩ وعرفت بعملية البساط السحري (Magic Carpet) بدأت بجسر جوى بعد جمع المرحلين في مرفأ عدن. وانجزت في اذار ١٩٥٠ خلال الاسبوع الذي بديء بتطبيق قانون اسقاط الجنسية عن يهود العراق.

اكان ذلك محض مصادفة؟

كم كانت الحكومة العراقية تعرف عن هذه الصفقة؟

هؤلاء اليهود اليمانيون كانوا مواطنين من الدرجة الثانية في بلدهم الأم جعلتهم اجيال اثر اجيال من سوء المعاملة والاحتقار والعزل الاجتماعي في آخر سلم المدنية مثل منبوذي الهند. ولم تكن حالتهم تشبهه باي وجه حالة اليهود العراقيين بصورة عامة فهؤلاء الأخيرون غادروا

بلادهم رغم أنفهم. غادروها والدمع يجول في محاجر اعينهم.

\*\*\*

يرى المؤرخ اليوناني الشهير ثوكوديدس (٤٦٠ - ٤٠٠ ق.م) "ان التسرع والغضب هما اعظم عقبتين تعترضان الرأي السديد، وتحولان دون الوصول الى حل منطقي سليم. والكره الاعمى يساير الحماقات عادة. والغضب هو اظهر طابع في العقول البدائية او الضيقة الأفق. وان كل من لا يجعل المناقشة والمحاجة هاديا ومرشداً للاقدام على عمل ما، ما هو في الحقيقة الا أحمق أو ذو غرض شخصي فهو أحمق عندما يتصور بان في سعة معالجة أي مشكلة مستقبلية محتملة باية وسيلة اخرى غير المناقشة والمحاجة الجلية. وهو ذو غرض شخصي اذا كان هدفه اقتناع الآخرين للقيام بعمل يدعو الى الفخر او المشاركة فيه". كذا كانت الحال عندما استقبلت البلاد الناطقة بالعربية النصف الثاني من القرن العشرين فقد بلغت الأمور خوف الإدلاء برأي جيد فيه معاكساً للتيار العام الجارف. الا اذا كان متاهباً لعواقبه الخطيرة. فكل اقتراح جيد باعثة الاخلاص كان يبدو موضع شك وريبة قدر ما يبدو اي اقتراح مغرض او سيء او غير سديد. ولذلك وجدنا الفئات التي نذبت نفسها للدفاع عن عمل طائش اخرج بنية الحصول على التأييد الشعبي تقف عين موقف الفئة الصادقة النصح في محاولتها احباط ذلك العمل. وكلا الفئتين يعتمد في مثل هذا الطرف - الى المبالغة او الكذب احيانا مؤملا ان يحظى بمؤازرة الناس، وبالمصادقية، انها مظهر من مظاهر الذكاء البشري، صراع عقلي تجد السلطة الحاكمة نفسها فيه - من غير وقوعها ضحية خداع. الا ان الامر لا يكون كذلك وقت الازمات العامة عندما تدعو الضرورة الى اتخاذ موقف معين حيث تطغى حالات الشك. ويتعاطم التذبذب بين الرأي السديد والرأي الآمن ل يبدو كل من انجز عملا وطنيا مفيدا او اسدى خدمة صحيحة او ادلى برأي سديد جريء فكأنه ما فعل ذلك الا لفائدة جانبية. ويوضع موضع اتهام تلك هي المكافاة التي ينالها عادة، اولئك الذين يجدون في انفسهم الجرأة لقول ما هو ضد اجماع مزيف. ولهذا سكنت جهات سياسية مخلصه وشخصيات وطنية عاقلة، عندما بدأ القوميون العروبيون يحرضون الدولة على اتخاذ اجراءات اكثر حزماً في معالجة قضية طرد اليهود. بل راح بعض من كان ينتظر منهم الرأي السديد والجرأة على اعلانه - ينجرون مع التيار العام ويؤيدون خطوات الدولة.

بدا التحريض ضد اليهود في العام ١٩٤٨ اشبه بتحريض العام ١٩٣٣ ضد المسيحيين بشخص الاشوريين. والفرق هنا هو ان اليهود كان لهم دولة متلهفة لاستقبالهم ومنحهم كامل

حقوق المواطنة في حين لم يكن للاخرين خيار مماثل.

قلت يوماً لصديق ولم يمض غير بضعة اشهر على خروجي من امام المجلس العرفي العسكري في كركوك سليما معافى: "سالتك بالله، كم خدم القضية الفلسطينية وقضية العروبة استغنائها عن مائة وعشرين ألف يهودي من المواطنين العراقيين وتشيعهم حتى ولوجوهم باب اسرائيل؟" فاسرع الصديق يرد متلفتاً يميناً ويسرة: "اسكت! او لعلك ترغب في مواجهة ثانية للمجلس العرفي".

لم احترم قط مذكرات الساسة العراقيين وكان يركبني هم كلما اضطرت الى مراجعتها يدفعني الى ذلك فضول غالب على الصدور في اغلب الاحيان فهؤلاء بصورة عامة لم يدونوا ما دونوه لفائدة الناس. وانما لخدمة انفسهم ودفاعا عن سمعتهم لذلك لا تجد فيهم من يقر بخط ارتكبه في معالجة هذا الامر او ذاك. واذا اضطرت الى اعلان فشل، تراه يسرع ليلقي الذنب فيه على الاخرين. الا ان سياسيا مثقفا كتوفيق السويدي سجلت له مواقف جريئة، وبقي محافظا على ذاكرة عجيبة لم تخنه في تسجيل اصغر الامور شانا في مذكراته. لا بد سيعرض تبريرا ما لاصدار حكومته قانون اسقاط الجنسية عن اليهود. الا اني لم اجد كلمة واحدة فيها.

تجاهل السويدي الموضوع برمته تجاهلاً تاماً، ودفن رأسه في الرمال كما تفعل النعامه حتى بدا وكأن القانون لم يصدر في عهده، وان خيوط الجريمة وفصول الماساة تعاقبت في بلد اخر غير العراق. ولعل هذا السياسي الباقعة ادرك في سنواته الاخيرة ثقل الذنب وكره ان يفتح باعترافه به باباً مغلقاً على جيفة قد تنشر على اثر فتحه روائح كريهة، تضر بسمعته وتشوه الصورة القومية التي رسمها لنفسه في مذكراته تلك.

في حالة السياق على المركز الاول في ميدان الدفاع عن فلسطين والفلسطينيين سادت غيوم قائمة من التسرع والغضب عقول الساسة. صور اليهود العراقيون من خلال شقوقها بوصفهم اقلية مشبوهة، مشكوك في ولائها تحسن التخلص منها صفقة واحدة وان كان ذلك في نفع العدو ولست اريد التطرق الى مساهمة طبقة التجار ورجال الاعمال غير اليهودية في حملة التأليب هذه ولا كيف انقلب هؤلاء فجأة الى قوميين عروبيين، ليدفعوا من خلف ستار شفاف هم والقوميون المحترفون - بالغضب الشعبي الى الحاقه مثلما دفعوا بالتسرع الحكومي الاهوج الى احضان الجريمة، طمعا في الحلول محل اليهود في عالم المال والاقتصاد والتجارة، فلماذا بحث يطول وقصدي هنا ان القوي ضوياً على المواقف المرتجلة التي وقفها القوميون العرب في

معالجة المشكلة الفلسطينية. كان الجميع على ثقة تامة بان الجيوش العربية ستقوم بنزعة عسكرية في فلسطين فحسب والأمر لا يحتاج الى اكثر من استعراض للقوة ليتم النصر وليعود الفلسطينيون الى ديارهم إثرها. الا ان المواقف الحماسية المتسرعة المحفوفة بالغضب الجماهيري تحولت بمرور الزمن الى نوع من الهم الدفين والندم الذي زاد عمقاً وتعقيداً بتناجح الهزائم السياسية والاختفاق العسكري أضاعت الدول الناطقة بالعربية والقوميون العربيون خلالها فرصاً لاتعوض على الفلسطينيين وعلى الاهداف القومية بصورة عامة. وبدأت اللائمة تنحسر بالتدريج عن وعد بلفور ومصادقة زعماء العرب في حينه على انشاء وطن قومي لليهود وعن مساندة الدول العظمى لدولة اسرائيل، لتلقى على الحكام العرب الى حد تحميلهم تبعية نكبة الفلسطينيين والتسبب في تشريدهم بسبب تخبطهم السياسي وانتهازيتهم ومحاوله المتاجرة والمساومة في قضيتهم ودخولهم مباريات دعائية جماعية وفردية لاتلبث ان تنقلب الى حرب كلامية تتبادل فيها التهم بعبارة تبلغ حد البذاءة والابتذال.

في بعض هذه المواقف ترتكب حماقات لاتخلو من عنصر فكاهاة. وبحضرتي منها حكاية الجامعة العربية والمنحة المالية التي قررتها حكومة المانيا الاتحادية لاسرائيل تعويضاً لليهود الالمان الذين صادرت المانيا الهستيرية ممتلكاتهم وذوي الآخرين الذين قضوا نحسبهم في معسكرات الاعتقال او خرجوا منها احياء.

ففي شهر آب ١٩٥٢ قررت حكومة (كونراد ادينور) دفع مبلغ ٧٥٠ مليون مارك لإسرائيل فشارت ضجة اعلامية كبيرة في عواصم البلاد الناطقة بالعربية وبالاخص في بغداد والقاهرة ودمشق، قرر مجلس وزراء الجامعة باثرها ارسال وفد رسمي الى (بون) لاقناع الحكومة الالمانية بالعدول عن صرف المنحة. وتألف الوفد من ثلاثة اعضاء سوري وعراقي ومصري شد الرحال الى العاصمة الالمانية مشيعاً بتهديدات الحكومات العربية بمقاطعة البضائع الالمانية في سائر البلاد الناطقة بالعربية في حالة اصرار الالمان وقابل الوفد موظف ألماني صغير في وزارة الخارجية، برد وجيز:

"ان بون حرة في التصرف باموالها العامة ورسم سياستها الخارجية مع الدول الأخرى. وان خطر في أي وقت ببال الحكومات العربية مقاطعة المانيا تجارياً فأن المانيا لن تحتج مطلقاً. ثم الا يرى الوفد من الأولى ان تقاطع حكوماته تلك الدول التي خلقت اسرائيل وأن تعيد النظر مثلاً في علاقاتها مع الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفياتي؟"

والى جانب هذا العنصر الفكه هناك الجانب المأساوي في حروب خانبة ونكبات مريعة وصدامات دموية بين اللاجئين الفلسطينيين والحكومات العربية. اعمال ارهابية هلك فيها عشرات الالوف من الأنفس، واهدرت آلاف الملايين من اموال تلك الشعوب الفقيرة. وجدت سبيلها الى خزائن الدول وجيوب تجار السلاح المصدرة للاعتدة والمعدات الحربية، بهدف تحرير فلسطين. ابقاء البلاد الناطقة بالعربية في حالة حرب دائمة بكل اجوائها القاتمة غير الطبيعية. اعاقه التقدم الذهني والتطور الاجتماعي والاقتصادي، وضع العصا في عوارض عجلة النهج الديمقراطي والفكر الديمقراطي. قمع روح التسامح الديني والقومي. وتأجيج روح التعصب للثنتين بل واكثر من ذلك.

وضعت قضية تحرير فلسطين العربية البلاد الناطقة بالعربية على خط الانقلابات العسكرية التي تخللت بعضها حروب أهلية ومذابح داخلية بنيت خلالها سجون ومعتقلات بدلاً من مدارس ومستشفيات.

والحروب والانقلابات العنيفة (كثيراً ما سماها اصحابها بالثورات الشعبية او القومية او الوطنية) كانت ايضاً من نتائج مضاعفاتها أو واحدة من اسبابها كما صار يحلو هذا لبعض الانقلابيين زيادة في اظهار الطابع القومي لانقلاباتهم. وقد عاصرناها جميعها وذقنا من مرارتها اكثر من الكفاية. ووجدنا بين الانقلابيين من يفخر بأنه حقق انقلابه من دون اراقة قطرة دم واحدة لينعت في وسائل الاعلام عادة بالانقلاب الابيض كأنه الاستثناء من القاعدة العامة القاضية بان يكون الانقلاب أحمر الا ان الدماء ما تلبث ان تسيل ويغطي اللون القاني على الابيض فلايعود يبين له أثر.

لم يفرض حكم الاجنبي على البلاد الناطقة بالعربية النظام الديمقراطي البرلماني فرضاً قسرياً وانما اختاره لفائدة تلك الشعوب. ومن الممكن القول ان حكام هذه الشعوب ارتضوه وراحوا يطبقونه بعد ان ارتفعت يد الاجنبي ولو بقليل من النجاح وبالأقل من حالات السلم والطمأنينة التي يحتاج اليها هذا النظام لغرس مفاهيمه في النفوس ففي حالة السلم والطمأنينة ينزع الأفراد والدول الى البحث عن قيم رفيعة للتعامل اذ ليس هناك ما يرغم افراد الجهتين على اتخاذ وضع يعملون فيه ما يكرهون وغير ما يريدون. الا ان الانقلاب والحرب هما معلمان قاسيان شديدا الوطأة لأنهما يرغمان الجماهير على النزول بعقولهم الى مستوى الظرف الاستثنائي الراهن، من ذلك تجريدها من القدرة على التفكير في المستقبل ومسألة حفظ النفس وتحقيق مطالب العيش اليومية بالشكل الذي اعتاده الفرد منها.



نجاح الانقلاب في بلاد توفرت لديها اسباب للانقلاب، يبعث في مبدء الأمر نشاطاً ويشيع روحاً متوثبة وآمالاً عراضاً في توقع حال أفضل، والتشكيك فيه وفي جدواه كالتشكيك في عدالة الحرب وجدواها (كالاتعداد عنهما والتنصل منهما حين تصفع ريحهما الوجوه) يعتبر عاراً وخيانة، لايجراً أحد على الوقوف في وجهها أو التصريح برأيه فيهما. وتفتقد الشجاعة الادبية عادة فلا تسمع عادة تنديداً أو دعوة ضدهما والمسألة ليست مسألة عقاب.

ويرافق جو الانقلاب وحالة الحرب، انقلاب خلقي ظاهر فيحل الانتقام محل التسامح والاعضاء مثلاً ويبعث الخوف من المجهول الشلل الفكري الى غير ذلك من الحالات التي تقتضيها مجارة عملية الانتقال الاجتماعي الفجائي حتى الكلمات فانها تفقد معانيها المألوفة ويعتري مدلولاتها تغير مخيف. فما كان يوصف بالاعتداء صار يعتبر شجاعة عندما يصدر من العسكري او الانقلابي او الحزبي المقاتل او العقائدي المجاهد.

وبمقابل ذلك ينعت التروي والتأمل الجدي في المستقبل بالجن والانهزام. وتعتبر الدعوة الى الاعتدال محاولة من صاحبها لتغطية حالة فقدان الرجولة وروح الاقدام وخور النفس. والدعوة الى فحص وتدقيق لمشكلة حيوية ودراستها من شتى جوانبها تبدو اذ ذاك تخاذلاً وينعت صاحبها بالفاقد كل مقدرة على العمل، او انه غير صالح لمباشرة عمل مطلقاً. فهو غير صالح للعهد الجديد، وبخلافه يبدو التعصب الحماسي سمة الرجل القادر على الاتيان بخير العمل، والتأمر ضد الخصم بغية الايقاع به هو عمل شرعي لأنه وسيلة من وسائل الدفاع عن النفس ومن ينزع الى العنف يكون اهلاً للشقة ومن يعارضه يكون موضع شبهة ويعتبر نجاح الانقلابيين دليلاً على مؤهلات وذكاء خارقين، ونصر صغير يحققه قائد عسكري يغرقه في ألقاب البطولة والتمجيد، وينسى به هزائم سابقة مني بها وقد ينقل الانقلاب أو النصر واحدهم من زوايا الخمول ان لم يسبق وان خاض معركة واحدة، وتغلب الحزب الانقلابي يعتبر دليلاً على افضلية مبادئه وصالحها للتطبيق دون مبادئ الاحزاب الأخرى التي ثبت عدم جدواها لأنها لم تحاول فرضها بالقوة أو لم تنجز عملية انقلاب مثله.

في الوضع الانقلابي تحل مقاييس جديدة للحكم على المواقف والاعمال محل المقاييس المعتادة. فالرباط العائلي مثلاً يبدو اضعف من رباط الانتماء السياسي - كالعسوية في الحزب الانقلابي المنصور، وتلحق بها رابطة الصداقة وكذلك رابطة رفاقية المهنة لاسيما رفقة السلاح ورابطة الصداقة والالفة.

الانقلابي مستعد لتنفيذ أي واجب يكلف به ولأي غرض وان كان على حساب اقربائه او

رفاقه او صداقته، الاحزاب المتآمرة ورجال الحرب الانقلابيون لايجتمعون في حلقة تأمرهم بسبب مشاركة عقائدية صميمية أو اخوة أو بأواصر مبدأ متينة العرى كما يدعون، بل لأنهم شركاء في عملية ضد الشرعية والنظام السائد. ليس لديهم خلافاً لثقة غير محدودة بأنفسهم ومقدراتهم - غير ثقة وقتية يتبادلونها فيما بينهم حيناً من الزمن سرعان ما تنحل وتبدء بالزوال عندما يبدو عجزهم وقصورهم امام المشاكل والمعضلات المختلفة عن العهد السابق - وهي عينها تلك المشاكل والمعضلات التي تعهدوا بحلها ويضاف الى هذا الركام من المشاكل، مشاكل ومتاعب استحدثت بانقلابهم، تراهم يفرقون فيها حيناً ليخرجوا رؤوسهم من لجنتها بعد حين وواحدتهم ممسك بخناق الآخر يسفّه رأيه في هذه المسألة ويعيب عليه اسلوب معالجته تلك، لا لانه يملك رأياً اصوب او حلاً اجدى. بل ليتخذ من زعمه ذريعة للسبق في ميدان الصراع المحموم على حيازة المقام الأول او السلطة العليا في الانقلاب وتباعد الشقة. وتنحل رابطة التآمر التي جمعتهم، ويحل محل التكاتف والتعاوض الشك والحقد المتبادل المتنامي، والانتقام هنا يبدو وكأنه اكثر اهمية من حفظ المهجة. فعصبة الانقلاب لم تلتئم الا بنوع من التعاقد على مواجهة عقبة، او تحقيق نهاية ولكل منهم تصور جانبي خاص وشخصي لها. وهذا التعاقد يبقى نافذاً عندما لا توجد وسيلة أخرى تحكم اطرافه. فاذا تم بلوغ النهاية بازالة العقبة وهي النظام القائم، يبدء المضر من التصور الخاص لكل عضو متأمر بالبحث عن وسيلة او سلاح لانجاز ذلك المضر وهو بالاكتر غرض شخصي فاذا عنت لأحدهم فرصة على تحطيم رفيق الأمس وعضيدته، امسك بها واستخدمها بكل الاستمتاع واللذة المتبادلة وبكل ما يتيسر من وسائل.

والخدعة هنا تنعت بالذكاء الحارق. والنذالة توصف بسعة الحيلة. والقتل والتصفية الجسدية اخلاص للمثل والمباديء.

والهيام بالسلطة الذي يدفعه الطموح الذاتي هو علة الشر، سيما اذا كان يمازجه تعصب ذو طابع عنيف. وكلاهما يختفي في كثير من الاحيان تحت قناع من المناهج السياسية المثيرة للاعجاب والمدونة بعناية وباسلوب جاذب أخذ: الحريات السياسية، الحقوق العامة مشاريع البناء والاعمار رفع المستوى المعاشي، الانعاش الاقتصادي، القضاء على البطالة ازالة الفروق الطبقيّة، المساواة بين الطوائف القومية والدينية، اقامة حكومة صالحة وضع نهاية للفساد والاستغلال وغيرها وغيرها.

من خلال تلك الوعود اللامعة، يستشف ذلك السابق الحاقد المشيع بروح الانتقام لنيل

الجائزة الأولى ولا شيء يقف امام المتصارعين على السلطة العليا، وما يرتكب خلال تلك الفترة قد يبلغ من الفظاعة ما لا تجد الاقلام له وصفاً لائقاً.

المصطرعون على السلطة لا يتطلعون الى الوراثة. لأن النظرة الخاطفة قد تعيقهم في السباق وربما ضيعت عليهم فرصتهم ولا يردعهم رادع من العدالة والرحمة، والمقاييس الوحيدة في الصراع هو رضى الحزب الذي ينتمون اليه ويعملون له إن كان الحزب طرفاً، أو رضى الطموح في النفس للفرد ان عملوا فرادى واشتغلوا لحسابهم كما يقال، وفي خلال ذلك تنشر التهم الخطيرة نثراً على المنافسين والاعداء معاً. فتقام المحاكم اللاقانونية وتنصب المشانق ويوضع الاعداء والمنافسون امام فرق الاعداء وتوارى جثث الضحايا تحت جناح الظلام وتغطي السجون على رحبها. في ميدان الصراع هذا لا يجد أي فريق متنسحراً من الوقت لتحكيم الوجدان والضمير، وينصب اعظم الويل ويوجه اكثر الاهتمام لاي القادرين على تعرية الزيف وكشف الحقيقة بحجج قوية واساليب مقنعة وكذلك الى اولئك الذين يتمسكون بالقيم الخلقية وينصحون بالاعتدال. ولا يخشون من اعلان آرائهم، بعين القدر من الاهتمام الذي يوجه الى القادرين على عرض تعاليل وحجج جذابة تبريراً لعمل سيء لا اخلاقي، فيسحق الاولون سحقاً تحت اقدام التطرف الناقم في حين يرفع الأخيرون الى مراتب القيادة والارشاد.

ولحالة الحرب وما تفرضه من تدابير وقائية وقيود استثنائية فضل كبير في اشاعة التفسخ الخلقي وتفشي الفوضى الفكرية في طول البلاد وعرضها وفي ظل حكم لا يستند الى رغبة عامة او خيار شعبي، فهذا هنا لا تجد النظرة المجردة الطاهرة الى الأمور موضعاً حيث ينشق المجتمع الى ولايات عمياء شخصية او معسكرات مبادئ يعادي أحدها الآخر ولا ضامن لوضع حد لحالة كهذه. فباستمرار الاوضاع غير الطبيعية الاستثنائية يتعذر الركون الى حلف، او اقامة جبهة، او عقد صفقة تتم لقيام وحدة يخفرها حسن النية المتبادل وان وثق الحلف بأغلظ الأيمان اذ ليس هناك طرف من الاطراف يخشى عواقب الخروج على حلف او ميثاق او يتعفف من نقضه.

ويتماذي الزمن ويتتابع مشاهد الانقلابات وتوالي عرض صور الانقلابيين العسكريين كما تعرض الرقوق السينمائية على المشاهدين لتخرج عليهم شخصياتها وابطالها من الظلام فجأة ومن غير توقع، تغشى عامة الناس حالة يأس واستسلام وخيبة امل من حياة هادئة وادعة. وتستولي عليهم مشاعر اللامبالاة وفي هذا الوضع تجدهم يتصرفون كما تتصرف الارانب في الاقفاص تجدهم بدل الثقة بالغير ينفرون حتى ممن يقدم لهم الغذاء او يفتح لهم باب القفص

واذا هم يبذلون جل مجهودهم وواقاتهم في توقي شر الآخرين.

وكقاعدة عامة قلت شواذها تجد اولئك الذين لا يملكون من الذكاء والمواهب العقلية الا ادناها - يملكون اكبر حظ من المقدره على البقاء. وهؤلاء الذين اخرجتهم الانقلابات والحروب من زوايا الخمول ومن الظلام ودفعت بهم الى سطح الماء- وتراهم لا يجهلون عيوبهم ولا قصورهم ويسلمون سراً بتفوق الآخرين عليهم عقلياً. فيكون سبيلهم الى سحقهم محاولة ازالة الثقة بهم وتحويل الميل عنهم بكل الوسائل. ويبقى الخوف يساورهم مهما طال بهم الزمن من تغلب الحكمة والعقل في المعتدلين الكفوئين على الشهوة الى السلطة والتحكم، ان المصلحة العامة المتجردة من الانانية وطلاب الشهرة الفردية ستزيح الرغبة في اطلاب الشهرة والسلطة لنفسيهما.

الانقلابات العسكرية الاربعة الاولى التي وقعت في سورية بين اذار ١٩٤٩ وانتهت بهروب الشيشكلي اخر انقلابيها في شباط ١٩٥٤ باتت نموذجاً لما كان سيغدو الاسلوب المتبع في البلاد الناطقة بالعربية.

زعيم الانقلاب الاول - هو كردي الأصل خريج المدرسة الفرنسية - لم يؤثر عنه موقف عروبي، ولم يعرف انه اقام وزناً للقوميين العرب في بلاده او في غيرها. كما انه حقق انقلابه ذاك ضد قوميين عروبيين او مدعين بها على الاقل. ومع هذا وجدناه يتمسك باذيالها ويضع على وجهه قناعها في محاولة منه لخداع مدع عريق بالعمل للقومية والعروبة.

لم تفتقر مساعي حكام العراق قط في تحقيق نوع من الوحدة مع سورية وقد كان لها ابداء حمايتها ودعاتها في البلدين. واعتاد ساسة سورية القوميون العاملون لها ان يتلقوا معونات مالية بين آن وآخر ثمناً لمجهوداتهم في سورية. ولهذا وجدنا نوري السعيد رئيس الحكومة العراقية الذي بدا عهده باتمام ما بداهه الپاچچي - باصعاد خمسة من زعماء الحزب الشيوعي الى المشنقة يقع على وجهه في مصيدة الزعيم السوري الطاريء في عالم السياسة. رفيق السلاح في الجيش العثماني - عندما لوح له برغبة في التقارب الوثيق مع العراق، تفوح منه رائحة وحدة ثنائية، تراه يسرع الى دمشق محمولا على بساط زعيم الانقلاب ليعود وفي يده اتفاق عسكري. يضمن له ولجيشه حرية العمل في سورية عند وقوع هجوم اسرائيلي عليها وكانت الخدعة بسيطة. اراد حسني الزعيم اثاره اهتمام البلاد الاخرى الناطقة بالعربية وادخالها حلبة التنافس على يد سورية. وقد تحقق سعيه. ما كان عليه بعد هذا الا ان يوفي ليسرع اليه (عبدالرحمن عزام) امين الجامعة العربية. موفداً من السلطة المصرية اثر وفد مماثل للوفد العراقي بعث به الزعيم الجديد الى القاهرة ووفد ثالث اوفده الى الرياض. واصيب (السعيد)

بذهول. واخذت الصحف العراقية تنشر صدقا ام كذباً - انباء عن قيام (عبدالرحمن عزام) بتوزيع الأموال من صندوق الجامعة على ضباط من الجيش السوري وزعماء سياسيين عرفوا بمواقفهم الحدية المعادية للوحدة مع العراق.

بعد هذا بأسبوعين تم اجتماع في القاهرة بين الزعيم السوري وبين الملك فاروق تم على اثره الاعتراف المصري رسميا بحكومة الانقلاب.

عندها ادرك السعيد (وجماعة الوحدة من العراقيين) انهم ضحية خدعة ساذجة لامتناه بجمهرة او احكام فكل ما في الامر أن الرجل القوي في دمشق استغل لهفة حكام العراق الى اتحاد ما واستغل في عين الوقت منازعة العراق اياها مركزها القومي في الشرق الاوسط والجامعة. وضحك الزعيم كثيرا وهو جالس في مكتبه يقرأ الشتائم والتهم التي طفقت الصحافتان المصرية والعراقية تتبادلانها. كما تابع بعين الرضا والاعتداد بالنفس الهجمات الكلامية والطعون التي صار نواب المجلسين في العاصمتين العربيتين يترامون بها وفيها من الشتائم السوقية المحلية ما قد لا تجد له تفسيراً في معاجم اللغة.

وعصف غضب جامع بنوري السعيد ولم يعد يهمه من سورية شيء غير ازاحة هذا الرجل الذي مكر به وجعله هزأة بين ساسة العرب. واراد هذا الرجل القوي ان يبرهن لهؤلاء بانه قادر على ان ياتي بما لايجرء أي منهم على الاتيان به. فاقترح على رئيس الحكومة الاسرائيلية (موشي شاريت) ان يحتمع به في (القنيطرة) للمفاوضة في صلح او هدنة دائمة. طبعاً لخير امته العربية الخالدة وخدمة مصالحها ورفع شأنها وانقاذ شرفها.

وتحقق الانقلاب عليه بالصورة التي اثبتناها في الفصل السابق. وكان للمؤتمرين العراقيين وزعماء حزب الشعب في سورية ضلع في ذلك الانقلاب.

لعن البيان الأول الذي اصدره قائد الانقلاب الثاني، زعيم الانقلاب الأول وعزا اليه كل نقيصة، واتهمه بخيانة المباديء التي قامت عليها (الثورة) وقال ان هدف هذا الانقلاب الأخير هو العودة بالثورة الى اهدافها الأولى ووضعها في مسارها الصحيح.

ما ان استتب له السلطان حتى اخذ هو وحاشيته يبذرون اموال الأمة ويسبؤون الى كرامة البلاد فييدوسونها ويعبثون بقوانين الأمة وبحريات الأفراد بحيث اخذ الناس يسخرون من الجيش ورجالاته.

ووعد الحناوي، كما وعد سلفه وخلفه، بتسليم الحكم الى أياد امينة وابعادة الجيش الى ثكناته باقرب فترة ممكنة. وهو وعد رغم كذبه الواضح فانه يعكس شعوراً بقصور ذاتي

وضعف المستوى العقلي وقلة ايمان الانقلابيين بمقدرتهم وان الناس يدركون ذلك فيهم.

وكان زعيم الانقلاب الثاني اميناً على الوعد الذي قطعه للعراقيين ولزعماء حزب الشعب فبسط يده للعراقيين (كان قد زار العراق سراً لتهيئة انقلابه) الا ان (نوري السعيد) كان اذ ذاك قد فقد كل اهتمامه بمسألة الوحدة فبادر الوصي عبدالاله الطامع بعرض سورية الى اهتبال الفرصة واجتمع بقائد الانقلاب الثاني، لكن ما أن استقر به المقام في بغداد حتى سمع بانباء انقلاب جديد اعلن قائده ببيان أول آخر بأنه سيتترك الحكم ويعيد الجيش الى ثكناته بعد تسليمه الى اياد امينة وقبر البيان بصراحة ما بعدها صراحة كل أمل في تحقيق اتحاد حتى كأنه ما جاء الا لهذا.

ثلاثة انقلابات في مدة لا تزيد عن ١٨٥ يوماً.

واصدت الحكومة العراقية بعد ساعات من اعلان البيان أمرها بسحب آخر وحدة عسكرية عراقية مرابطة في الاردن بالقرب من الحدود السورية كانت مهيأة لمساندة الانقلاب الثاني عند الحاجة.

في هذه المرة تغلبت أموال السعودية على الأموال العراقية.

انقلاب الشيشيكلي وضع الأسس والأسلوب الذي كانت ستسير الانقلابات التالية في سورية او في البلاد الناطقة بالعربية دون كثير تغيير او ما يدعى في علم الجريمة بـ (Modus Operandi) ويتم عادة باحتلال الجيش نقاطاً استراتيجية. والقاء القبض على من يعتبرهم الانقلابيون مناوئين ومعارضين واصدار بيان يدمغ فيه المزاوحون عن السلطة بكل ما يخطر بالبال من التهم وعلى رأسها الخيانة والتآمر على مصلحة الشعب.

واديب الشيشيكلي الزعيم الانقلابي الجديد هو من اهالي (حماه) عرف الحناوي منذ مطالع الشباب. وقد حاربا الفرنسيين معاً وكلاهما كان ضالماً في انقلاب حسني الزعيم وهو كسلفيه لم يكن لديه فكرة واضحة لمستقبل سورية ولا منهاجاً يوضع موضع تطبيق لأنه كان مثلهما يعرف حق المعرفة بأنه طاريء على العمل السياسي بنظر ساسة دمشق، لأنه حموي. وسيكون عليه ان يشق طريقه الى السلطة المطلقة خطوة خطوة. وكل ما في جعبته هو اخطاء سابقه يبرر بها انقلابه، محاولة تتسم بالغباء قدر ما تتسم بالجسارة والاستهتار اذ ليس هناك بين العسكريين الانقلابيين من اهتم بشرح ماهية تلك المباديء ومن هم اولئك الذين اتفقوا عليها في المبدء وكيف جرى الانحراف عنها؟ ما هو شكل هذا الانحراف؟ وبأي صيغة سيتم تقويمها.

والسبب هو كما ذكرنا انه لم يكن يوجد مباديء معينة. وان الضباط الانقلابيين لم يصبحوا شيئاً.

باستعراض الانقلابات العسكرية الثلاثة يبدو بوضوح أن الدافع اليها هو حب الذات عند العسكريين فضلاً عن مصالح شخصية بحتة منها الحرص على المكانة والسمعة والاستقلالية وضمان البقاء وتحسين وضعهم المالي والاجتماعي. وهناك عامل آخر لا يمكن اغفاله: هو الشقاق بين مجموعات الضباط العسكرية وبين السلطات المدنية، بخصوص طبيعة العلاقات والمواقف ازاء الجيران. وقد تتداخل العلاقات أحياناً فضباط الجيش السوري الحديث التكوين كانوا بصورة عامة يتطيرون من وحدة مع العراق ويربأون بأنفسهم عن حالة تبعية وخضوع لا بد سيؤدي قيام تلك الوحدة الى قيادة عسكرية اقوى منهم وفي دولة اكبر من سورية، وهكذا نجد كيف تم اللقاء بين المصلحة الذاتية وبين العمل للعروبة والاصلاح الشعبي.

في اوائل تشرين الأول ١٩٤٩ بدأت مفاوضات بين العراقيين والسوريين لاقامة علاقات تهيديّة من أجل الوحدة وتوقف الوصي عبدالاله في دمشق لهذا الغرض وتقدمت مجموعات سياسية قوية فضلاً عن حزب الشعب باقتراحات لاقامة وحدة، ومثل فيها (اسعد طلس) عديل الحناوي دور الوسيط او اللولب الدائر بين تلك الفصائل وبين العراقيين وبين العسكريين ثم حصل ما ليس في الحسبان.

انطلقت الشرارة الأولى في المجلس النيابي، ولم يكن قادحها غير (اكرم الحوراني) وهو من اشد المعارضين للوحدة مع العراق، عرف عنه زملاؤه وعالم السياسة المحلي بأنه الناطق غير الرسمي بلسان مجموعة قوية من ضباط الجيش ففي جلسة كانون الأول وقف يعارض صيغة القسم الذي سيحلفه رئيس الدولة والنواب لأنه لايتضمن التنويه بالنظام الجمهوري واقترح صيغة جديدة، لكن اقتراحه رفض وابقى على الصيغة كما هي.

ومسألة الوحدة بحد ذاتها لم يكن لها أي حظ من النجاح. ولم تؤخذ مأخذاً جدياً بصورة عامة. فبريطانيا لم تشجع المنحى. والاموال التي صببتها السعودية في افواه الساسة ورجال الصحافة للحيلولة دون ذلك لم تكن قليلة ونوري السعيد وحكام العراق خريجو مدرسته ما عادوا متحمسين للمشروع اصلاً، بعد خدعة الزعيم.

كان ادب الشيشكلي قد نسب لقيادة اللواء الاول بعد نجاح انقلاب (الحناوي) وفي معسكر (قطنة) القريب من دمشق، التقى بالملازم (ابي منصور) الناطق بلسان المؤتمرين من الضباط الدروز. وتم الاتفاق على الخطة: القي القبض على أمر كتيبة الدروع المعين لها مؤخراً

حال وصوله. وفي الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين فجراً انطلقت المدرعات نحو دمشق وما هي الا ساعة حتى تم هذا اعتقال الحناوي وامر الانضباط العسكري ورئيس الاستخبارات وغيرهما من انصار الحناوي. جرى ذلك بسرعة ودون اشتباك دموي جدي ثم احتلت الإذاعة ووزارة الدفاع وعلن العقيد (انور بنود) أمر حامية حلب تضامنه مع الشيشكلي.

ترك قائد الانقلاب الحكومة والمجلس دون ان يعمد الى حلها وفي ايلول ١٩٥٠ اطلق سراح (الحناوي) فاختر العيش في لبنان وقتل هناك في ٣١ تشرين الأول كما مر بيانه.

اكتفى الشيشكلي بتقلد وظيفة نائب رئيس الاركان العامة، ورفع (انور بنود) الى رتبة عميد واسند اليه القيادة العامة للجيش. الا انه أُلّف ما دعي بالمجلس الحربي الاعلى ليكون رقيباً على الحكومة القائمة. فوجيء الساسة بموقف الشيشكلي المهادن. ولم تفارقهم الحيرة حتى بعد تخلصه منهم في استكناه الأسباب التي حملته على ابقائهم في مراكز السلطة. وقد عزا المتتبعون السوريون ذلك الى طبيعة الحذر المأثور عنه، وعدم الرغبة في كشف ذاته بسرعة للتقويم الشعبي. ولمعرفته ايضاً بأن الساسة المخضرمين لن يحيدوا عن طرقهم واساليبهم القديمة الكريهة وانهم لايلبثون حتى يقدموا له مبرراً للتخلص منهم، وكان يدري ربما اكثر من الانقلابيين السالفين. بأنهم يرفضون الاقرار وبعد كل ما حصل بأن القوة الحقيقية هي بيد الضباط وفضلاً عن هذا فان الخصام الحاد بين حزب الشعب صاحب الحكومة آنذاك وبين الحزب الوطني قد أضعفهما كثيراً بوجه القوى السياسية العروبية الجديدة المتمثلة في حزب اكرم الحوراني وحزب عفلق وقد بدا كلا هذين الآن قانعاً بالجلوس على التل ومراقبة القوميين القداماء ينهش بعضهم بعضاً في بحران الانقلابات العسكرية ليدمروا انفسهم.

الفوضى الفكرية والنزاع الداخلي والحرب بين انصار الوحدة مع العراق ومعارضيهما لم يترك للمؤسسة العسكرية او المدنية (حيثما سمح لها بالعمل) وقتاً للتصدي الى مشاكل سورية الداخلية. اما بصدد الشؤون الخارجية، فباستثناء مسألة الوحدة كانت هناك جبهة فلسطين ومحاولات الغرب اجتذاب سورية في حلقة دفاعية بوجه الاتحاد السوفياتي وفي هذه المحاولة وجد العروبيون وحزب البعث والحزب العربي الاشتراكي فرصتهم للخروج الى السطح فقاموا وقعدوا واثاروا ضجة عظيمة اولدت سخطاً شعبياً لا مرأء فيه، فقد صورت المحاولة وكأنها عملية تأمرية ترمي الى ايقاع البلاد في شبكة الامبريالية، بتجنيدها ضد عدو خيالي، فقليل من السوريين كان يرحب بعودة الحماية الغربية، ولم يمض الا القليل عن تخلص البلاد من الانتداب الفرنسي.

وفي سورية - أجل في سورية وليس مصر - نبع تيار (الحياد) وجرى دقاً ليطلق عليه فيما بعد تعبير «عدم الانحياز» ومن اهدافه اقامة علاقات طيبة مع الاتحاد السوفياتي، واستيراد السلاح من بلدان الكتلة الشرقية. وقبول العون الاقتصادي والتكنولوجي منها. بدا هذا الميل المفاجيء بنظر الولايات المتحدة وحلفائها في اثناء الحرب الباردة وكأنه خطوة معادية لها، وتحرك جدي نحو الشيوعية.

وراقب حزب (الكرم) وحزب (عفلق) صراع الموت والحياة على السلطة المتواصل بفرح عظيم ومما عقبه من اضمحلال شوكة خصومهم القومييين الكلاسيين نتيجة هذا الصراع لكنهم لم يرحبوا كثيراً بيد الجيش الثقيلة وسلطته العليا. كانا يريدان استخدام الجيش، وكرها ان يستخدمهما الجيش وان كان لا سبيل الى ذلك، فليعمل اذن على خلق نواة عسكرية لهما فيه. وصحب تفشي العروبية البعثية الاشتراكية ظاهرتان: الضباط الصغار الذين تخرجوا في فترة الانقلابات تعودوا رؤية الجيش مساهماً أصيلاً في الحياة السياسية فما عادوا يقنعون بحصر اهتمامهم في مجال احترافهم وضاقوا ذرعاً بحياة الثكنات.

النتيجة الثانية: ان قوة الجيش السياسية ونكساته في الجبهة ادت الى ان يستحوذ الطموح الى تدمير اسرائيل واستعادة فلسطين على عقولهم ويستأثر باهتمامهم ووجدوا فيه نهاية لكل تطوير عسكري للجيش.

والنظم العسكرية تقوم على المبادئ الثلاثة: الانضباط والطاعة والثقة. والجنود لا يفترض فيهم الشك في الاوامر الملقاة عليهم، ولا في حكمة قادتهم خلافاً للديمقراطية البرلمانية فالأساس في التعامل السياسي هو الشك في نوايا القيايين وحكمتهم. واخضاعهم للمساءلة والاستجواب. وبحضور الجيش وإشرافه على عمل الساسة السوريين بدا النظام العسكري الغالب وصاحب الكلمة الأخيرة. ولم يكن هناك شك في ان الجيش هو صاحب السلطة الحقيقية خلال السنوات الاربع التالية التي بدا الحكم فيها مدنياً.

نتبين في عهد اديب الشيشكلي مرحلتين. المرحلة الأولى شبيهة الى حد غريب بفترة دكتاتورية (بكر صدقي) في العراق. حكم عسكري متخف خلف واجهة برلمانية بحكومة مؤلفة وفق الدستور. ففي ٥ ايلول التأم مجلس تأسيسي لاقرار دستور جديد ما عتم ان انقلب الى مجلس نواب روعيت فيه الشكليات الديمقراطية بدقة وقد انفرد هذا الدستور عن سائر دساتير البلاد الناطقة بالعربية بمواد تتعلق بالعدالة الاجتماعية والاصلاح الاجتماعي ودور الدولة في تحقيقهما.

وكما ذكرنا لم يشأ الشيشكلي في مبدء الأمر ان يقع في عين الخطأ الذي وقع فيه الانقلابي السوري الاوّل بالارتفاع الفجائي الى رتبة اعلى من رتبته بل انتظر حتى استحقت ترقيته وفق الاصول في نيسان ١٩٥٠ فارتفع الى رتبة عميد (زعيم في ذلك الوقت) وتولى رئاسة الاركان العامة، بل لم يسند لنفسه منصب وزير الدفاع. وممر زمن بعد انقلابه وهو الرابع ليخلع على نفسه منصب نائب رئيس الوزراء في آب ١٩٥٢ لكن كلمته كانت الفاصلة خلال الفترة الأولى بخصوص انتقاء اعضاء الوزارات المتعاقبة، وكذلك في السياسة الخارجية. فمثلاً رفض في ٢٤ من كانون الأول ١٩٥٠ تشكيله وزارية فيها ناظم القدسي لأنه لم يسند الى اكرم الحوراني منصب وزير الدفاع فيها فقدم القدسي استقالته وكلف خالد العظم المستقل بتأليف الوزارة التي ضمت الحوراني وزيراً للدفاع كما أراد واستغل هذا السياسي المغامر منصبه الجديد افضل استغلال لنشر مفاهيمه العروبية الاشتراكية بين الضباط وتشجيعهم على الانتساب الى حزبه وحزب البعث ولترويج شعاراتهما المعادية للغرب في الجيش.

لم يكن منجى من ان يستسلم الساسة القداماء لحكم الجيش من دون مقاومة، ففي مجلس النواب:

"تصاعدت اصوات الاحتجاج ضد تدخل الجيش. وقاد الحملة (رشدي الكخيا، وحسني البرازي) وهو زعيم سياسي صلب العود من مدينة حماه ومن اقرباء الشيشكلي في ٨ من آب ١٩٥١ اثنى حسني البرازي الى زملائه النواب يقرعهم تقريراً عنيفاً لضعفهم مشيراً الى استبعاد الوزراء الوطنيين الكفوئين المخلصين من الوزارة التي تم تأليفها وشيكا، بجرة من قلم ابن العم الأحمر." (١٢)

بدت تلك الحكومات المدنية في ظل الحكم العسكري ضعيفة واهنة مشلولة لاتستطيع اتخاذ قرار ما والانتخابات العامة جاءت بنواب معظمهم ممن يرتضيه الحكم العسكري، كنواب عهد (بكر صدقي) في ١٩٣٧ وبدا الجيش قولاً وعملاً مالك زمام النشاط والعمل السياسيين.

كانت أياماً طيبة لحزب البعث وقوميين الحوراني الاشتراكيين وهم في مقاعد النظارة يتمتعون انفسهم بالصراع غير المتكافيء بين الاحزاب القومية والوطنية القديمة وبين ضباط الجيش. راحت وزارة تعقب اثر وزارة.

في تموز ١٩٥١ اضطر خالد العظم للاستقالة. وفي ٧ من تشرين الأول استقالت وزارة حسن

(١٢) الثورات والحكم العسكري في الشرق الأدنى Revolutions and Military Rule in The Middle East تأليف جورج حداد، ج٢، نيويورك ١٩٧١، ص ٢١٠.

الحكيم خلفه. ويات الناس في الشوارع يتساءلون بقلة اهتمام وعدم مبالاة: "متى سيصدر البيان الأول؟" (بمعنى متى سيقع انقلاب جديد).

واوعز الشيشكلي في ٢٨ من تشرين الأول (المعروف الدواليبي) وهو أيضاً من حزب الشعب بتأليف حكومة، لكن لم يمض على تشكيلها أكثر من اثنتي عشرة ساعة حتى قام الشيشكلي بانقلابه الثاني. وهو الرابع في تاريخ الانقلابات.

في تلك الليلة انجز (الدواليبي) انتقاء اعضاء وزارته ويظهر أن المجموعة لم تعجب الدكتاتور لاسيما عندما وجد الدواليبي قد احتفظ لنفسه بوزارة الدفاع مما كان له عنده دلالة سيئة بان هذا السياسي يضمن لسلطانه شراً.

وبدأ انقلابه بإلقاء القبض على الدواليبي واطعوا حكومة وجلهم اعضاء بارزون في حزب الشعب وعلى عدد من الساسة بينهم ناظم القدسي رئيس الجمهورية امين سر الحزب العام رئيس وزراء سابق واصدر المجلس العسكري الاعلى بياناً بتوقيعه يقضي باسناد المنصب الثلاثي الاعلى الى رفيقه العميد فوزي سلو الكردي (رئاسة الدولة، رئاسة الوزارة، وزارة الدفاع) مع ترقيته الى رتبة لواء.

جرى كل ذلك بسلسلة من المراسيم والبيانات متلاحقة: في الأول من كانون الأول اسندت رئاسة الدولة للواء فوزي سلو بالأمر رقم واحد وعينه بالبيان رقم (٢) رئيساً لحكومة اعضاؤها مديرون عامون بدلاً من وزراء وبالبيان رقم (٣) نصب أيضاً قائماً بشؤون وزارة الدفاع (بقي الأمر كذلك حتى حزيران ١٩٥٢ حين اوعز (لسلو) بتأليف وزارة. لم يطلق سراح (الدواليبي) من السجن حتى بعث اليه بكتاب استقالته. وكان سبب اعتقال (الاتاسي) انه رفض اصدار قرار بحل المجلس النيابي. وبالأمر العسكري المرقم (٤) قام الشيشكلي بحله. لعجزه عن القيام بمسؤولياته في توجيه شؤون الدولة.

وانطلقت الصحافة السورية تهاجم حزب الشعب واعماله التخريبية في شؤون الدولة، واتهمته بمحاولة اضعاف الجيش والقضاء على استقلال البلاد بمحاولة ضمها في اتحاد يؤدي الى عودة الملكية والقضاء على النظام الجمهوري وتلاحقت الاوامر والبيانات العسكرية، منها: بيان اوجب على موظفي الدولة كافة اداء قسم امام قاض بعدم المشاركة في أي نشاط سياسي - بيان يمنع الطلاب من القيام بمظاهرات او اللجوء الى اضراب - وبيان في ١٢ من آب بالغاء امتيازات عدد كبير من الصحف والاقتصار على عدد محدود وموال واخضاع الصحافة للرقابة العسكرية.

وفي السادس من نيسان ١٩٥٢ صدر بيان بحل جميع الأحزاب وتحريم ممارستها نشاطها وكان فيها بدء القطيعة مع اكرم الحوراني ورهطه.

وفي ٢٥ من آب ١٩٥٢ وبعد مرور اكثر من شهر على نجاح انقلاب ٢٣ يوليو في مصر قام الشيشكلي بتأسيس تنظيم دعاه (حركة التحرر العربي) ليكون التنظيم الوحيد المسموح له بنشاط في سورية وقد وصفها منشئها في حديث ادلى به لإحدى الصحف: بانها حركة تضم اليها كل العناصر الخيرة من جميع الاحزاب وجميع الطبقات.

وأخذ لهذه الحركة نظام خاص للانتماء والعمل. ورُفِعَتْ بها شعارات قومية عروبية صارخة منها شعار: الاتحاد العربي الشامل والتضامن العروبي، استعادة الاراضي المقدسة، الاصلاح الاجتماعي، الانعاش الاقتصادي ونشرت برنامجاً فخماً بما تنوى ان تحققه في هذه المجالات.

وانضم الى الحركة بصورة رئيسة الموظفون الحكوميون طمعاً بالحصانة والامتياز وضمان الترقية او تسهيلاً أو سعياً وراء المكانة السياسية، الا انها بدل ان تلقى اقبالاً من الناس، تعرضت والمنتسبون لها الى النكات والتعليقات الساخرة. والى هجوم الاحزاب المنحلة لاسيما حزب البعث العربي الاشتراكي حتى بات المنتسبون اليها يخجلون من التصريح بعضويتهم فيها.

وفي اواخر كانون الاول ١٩٥٢ كشف الشيشكلي عن مؤامرة ضده ساهم فيها حزب البعث واكرم الحوراني مع ضباط كبار الرتبة وصغارها وسياسيين عروبيين ووفق الى احباطها قبل التنفيذ والقي القبض على ضباط ضالعين فيها كالرئيس (النقيب) عدنان المالكي البعثي والعقيد (محمد صفا) احد صنائع العراقيين<sup>(١٣)</sup>.

واصدر الشيشكلي في كانون الثاني ١٩٥٣ امراً بالقبض على كل من اكرم الحوراني وميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار. الا ان هؤلاء كانوا قد هربوا الى لبنان، ومنها انتقلوا الى روما.

وألقى الشيشكلي بالمناسبة خطاباً من الاذاعة قال فيه ان الجيش هو الاداة المثلى لبناء الديمقراطية الاشتراكية، واورد من كمال اتاتورك مثلاً لهذا كما اورده سامي شوكت وصلاح الدين صباغ وبكر صدقي في العراق. ثم انه وعد باعادة الحياة الدستورية.

وبعد ستة اشهر نشرت على السوريين مسودة دستور جديد وضعته لجنة من الموظفين الصغار وفقاً للنظام الرئاسي وطرحه للاستفتاء العام مع طرحه نفسه بالمناسبة مرشحاً لرئاسة الجمهورية

(١٣) ارتحل العقيد محمد صفا الى العراق فيما بعد ليعيش في بغداد وليؤلف «حكومة سورية حرة» في المنفى.

في العاشر من تموز ولأنه كان الحصان الوحيد في السباق فقد تم إقراره رئيساً للجمهورية من قبل الشعب السوري العربي المناضل على حد وصف صحيفة سورية لتلك المهزلة. ولم يشارك في الاستفتاء أكثر من ثلث عدد الناخبين.

وبمناسبة انتخابه اطلق سراح جميع السجناء والموقوفين السياسيين واحيل اللواء (فوزي سلو) الى التقاعد ليحل محله جندي محترف لا لون سياسي له بشخص العميد شوكت شقير رئيساً للاركان العامة وهو درزي من اصل لبناني.

\*\*\*

سنة واحدة وبضعة أشهر سبقت انتخاب الدكتاتور رئيساً للجمهورية. اكدت للقوميين الملكيين العراقيين افلاس قضيتهم في الجمع بين سورية والعراق تحت عرش واحد أو باتحاد بعرشين هاشميين وزاد في اقتراب الانقلابي السوري الأوحده من الانقلابيين المصريين وبدأت صحف سورية ومصر تضرب على نغمات الصلوات التاريخية التي تربط البلدين وشعر رجل دمشق القوي بكيفية ما أن نظامه الجديد يقف على ارض صلبة والا خوف عليه من شغب الاحزاب ولا من الجيش بعد تطهيره من العناصر القومية المعادية ولذلك لم يحفل كثيراً باستيناف تلك الفئات نشاطها خارج (حركة التحرر العربي) ولم يجد الثلاثي القومي الذي لجأ الى روما حرجاً من العودة.

بلغ ارخاء الشيشكلي القبيضة على الحريات السياسية انه لم يفعل شيئاً ولم يتخذ اجراء قمعياً عندما رفع اليه فريق من السياسيين والحزبيين مذكرة في ٢٥ حزيران قبيل الاستفتاء يشجبون فيها حكمه الدكتاتوري ويحتجون على مسودة الدستور الجديد.

كانت الاصلاحات التي رأتها سورية في عهده تشبه اصلاحات النظم الدكتاتورية التي تهتم بالمظاهر والقشرة ولا تنفذ الى أعمق الاجتماعي فقد ساعد الرخاء والمواسم الزراعية الجيدة التي جادت بها الطبيعة خلال السنوات العشر المنصرمة، على نجاحه في عمليات تحميل اقتصادية وعمرانية لمحاولة ايجاد مشاريع لتوطين البدو الرحل واصدار المراسيم القاضية بتوزيع الأراضي الأميرية على الفلاحين واستقدام خبراء اجانب لدرس الوضع المالي والاقتصادي وتقديم توصيات. واطلاق سراح النقد السوري من اسار النظام النقدي الفرنسي بتعديل النظام المصرفي.

عملية تحميل في وجه دكتاتورية عسكرية سافرة، لم تكن تصلح باية حال بديلاً عن الحرية

السلبية، ولا وسيلة لتبديد الخوف الجاثم على الصدور ولا رادعاً للتآمر والتهينة لانقلاب عسكري، لم يحاول الشيشكلي تدمير المتآمرين عليه اجتماعياً واقتصادياً في حين كان قادراً.

وبدء العمل الجدي على انهاء حكمه باجتماع عام في اواخر تشرين الثاني بمدينة (حمص) تمثل فيه كل اجنحة المعارضة واستخدم فيه حزب البعث العربي الاشتراكي قوته الطلابية باحداث اضطراب عام في المدارس وتوزيعه خلالها نشرات ضد النظام عقبه تظاهرات طلابية عامة في دمشق وحلب وسائر المدن الرئيسية الأخرى.

وادخل اكرم الحوراني تكتيكاً جديداً ذا طابع ارهابي باستحداث نمط جديد للانقلابات العسكرية التي كانت ستتوالى في سورية والعراق ومصر الى حد ما بالمشاركة المدنية (الحزبية) الفعالة في الانقلاب والتوطئة والتبرير لتدخل الجيش. ففي عنفوان المظاهرات الطلابية التي ملأت شوارع دمشق في العاشر من كانون الاول ١٩٥٣ سمع دوي انفلاق قنابل في اماكن عدة من دمشق وكان الغرض احداث اضطراب وبلبلة في عين الوقت. ويتوقيت زمني شاعت الاضطرابات في جبل الدروز منذرة بعصيان مسلح.

في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني ١٩٥٤ اعلن الشيشكلي حالة الطوارئ وأغلقت الجامعة السورية وزحف اللواء السادس في اليوم عينه الى جبل الدروز.

اتهم الشيشكلي الدروز بمحاولة انفصالية في منطقة الجبل بمعاونة اسرائيل وقبل قيام الجبل بزعامة سلطان باشا الاطرش وارسال الجيش بعشرة ايام، بعث مكتب دمشق لحزب البعث العربي الاشتراكي الى الجبل بمناشير مذيلة بتوقيع (العمال الاحرار) لقب فيها جبل الدروز بـ(جبل العرب الأشم) ووصف فيها الشيشكلي (بالطاغية) كان (منصور) ابن سلطان باشا عضواً بارزاً في حزب البعث. وهو الذي نقلها وقام بتوزيعها.

أجرت القوة اعتقالات واسعة وهرب سلطان باشا الى الاردن، ونشبت في انحاء متعددة من المنطقة معارك وحشية خلال ثلاثة ايام متوالية قصفت خلالها (السويدا) عاصمة الجبل من الجو وسقط اكثر من مائة قتيل ومئات عدة من الجرحى.

وفي دمشق القي القبض على زعماء الحزب الوطني وحزب الشعب وحزب البعث العربي الاشتراكي. ووضع (الاتاسي) رئيس الجمهورية السابق رهن الاعتقال المنزلي.

واستغلت حكومة نوري السعيد الفوضى - وقد زاد الخنق على الشيشكلي لرفضه الدخول في حلف المعاهدة المركزية فتدفقت الاموال العراقية مجدداً على الساسة الموالين وبعض زعماء

المعارضة ويؤكد الكثيرون بالمناسبة ان حكومة السعيد كان لها ضلع كبير في تأجيج ثورة الانقلاب على الشيشكلي وان جزء كبيراً من الاموال المرصدة للعملية دخل جيب اكرم الحوراني وحزب البعث عدو الوحدة مع العراق قبل ذلك فقد لوحظ ان زعماءه في تلك الفترة كانوا ينفقون بسخاء يفوق طاقة الحزب المالية بكثير واكد كثيرون بان العراقيين كانوا على علم تام بتوقيت الانقلاب.

في نهاية الشهر تم اخضاع جبل الدروز وقضي على كل مقاومة وخيل لصحافة الاجنبية ان « حركة التحرر العربي » بزعامة الشيشكلي قد ملكت زمام الموقف لكن الضباط السياسيين كانوا يرون خلاف ذلك. وقد قام مقدم ونقيب وملازم بتدبير الانقلاب الخامس.

المقدم هو (فيصل الاتاسي) في ٢٥ شباط قام باعتقال أمره (العقيد عمرخان قمر الكردي) بمدينة حلب واعتقل معه موظفي الحكومة الكبار ثم احتل دار الاذاعة وغيرها من البنايات الحكومية واذاع البيان الأول المؤذن بالانقلاب في الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين زميله النقيب (مصطفى حمدون) وهو احد مريدي اكرم الحوراني وتلاميذه كان بياناً طويلاً عريضاً ناشد فيه المجرم الطاغية بالنزول عن الحكم ومغادرة البلاد حقناً للدماء ونوه باجتماع الاحزاب في حمص وطلب من الشعب. العمل على اقامة حكم جمهوري شعبي ومساعدة الجيش في العودة الى تأدية واجبه الأمثل وهو حماية الوطن.

بعدها بساعتين اعلن القائد (امين ابو عساف) أمر حامية دير الزور وهو درزي من رفاق الشيشكلي القدامى تضامنه مع الحركة وفي جبل الدروز كان هناك الملازم (غسان جديد) وهو علوي، يقود حركة تمرد المقدم (فيصل الاتاسي) ويمثل حزب الشعب في حلب والأتاسيين في حمص والنقيب مصطفى حمدون يمثل حزب البعث العربي الاشتراكي والعقيد ابو عساف يمثل الدروز وغسان جديد يمثل العلويين!

فما أبدع هذا!

للاتتماء المذهبي والعنصري اهميته في جبل الانقلاب وكذلك للغطاء السياسي الذي يتخذه في ذلك الظرف المعين، فله دوره الكبير أيضاً، والمرء لا يبحث في مثل هذه الحالة عن المواهب والذكاء وغير ذلك من المكونات للشخصية، ليس هناك وقت او محل لتطبيق مبدء الرجل المناسب في المحل المناسب.

في ايام التمييز العنصري الامريكي استخدم صاحب احد المطاعم زنجياً وزوده بالكسوة الخاصة التي يتعين عليه ارتداها اثناء العمل. وكان الزنجي فارغ الطول والسروال الذي زود

به قصير جداً بمقدار شبر. فسأل مخدمه ابداله بأخر يناسب طوله. تأمله الامريكي ملياً ثم اجاب: "يا هذا، انه لأسهل علي بكثير أن اجد لعملي زنجياً قصيراً من ان ابحت لك عن سروال طويل".

كان على السوريين ان يقنعوا برجل الانقلاب أسوة بالزنجي وسرواله. ما ان تنصف النهار حتى كانت قيادات المحافظات قد اعلنت تأييدها وانضمامها الا ان الشيشكلي كان يملك اللواء السادس الذي ظل موالياً الى جانب مدفعية ثقيلة وآليات، قوة قوامها عشرة آلاف جندي في دمشق وجبل الدروز. الا ان طيارين كثيرين أثروا الانسحاب من المواجهة بطائراتهم بحجة التصدي للانقلاب ووجد الشيشكلي نفسه أمام خيارين إما المخاطرة بخوض معركة دموية لا يعلم نتائجها، او الانسحاب من الحكم. فاختار الثانية وهرب الى لبنان فبلغ بيروت في العاشر من الشهر ولجأ الى سفارة العربية السعودية.

لكن الانقلاب لم يتم بهروبه ففي اليوم التالي همّ (مأمون الكزبري) رئيس مجلس النواب بقراءة استقالة الشيشكلي، عندما اقتحم المجلس النقيبان (عبدالحق شهاده) أمر الانضباط العسكري و(حسين هده) أمر كتيبة المدرعات المرابطة في موقع (قطنه) فانضم اليهما عدد من نواب المجلس وتقدم هؤلاء بالطلب من الكزبري بان يتولى منصب وصلاحيات رئيس الجمهورية طبقاً لاحكام الدستور، على ان القضية حسمت بالأخير عندما وجه الانقلابيون انذاراً للكزبري بالتنحي والاستقالة وحل المجلس او سيزحفون على العاصمة...؟

في عين الوقت حشدت الاحزاب قواها واخرجت مظاهرات صاحبة تنادي بسقوط النظام فلم يجد الكزبري واعضاء المجلس بدأ من الازعان بعد ان اقتحم المتظاهرون قاعة المجلس واوسعوا اعضائه ضرباً وشتماً. فاعلن الكزبري التنحي ونفض اعضاء المجلس ايديهم من النيابة.

واستسلم النقيبان (شهاده وهده) فأرسلا بالطائرة ليلتها بوظيفة ملحقين عسكريين في سفارتي لندن وباريس.

كان بيان الشيشكلي الأخير هو الاستقالة:

"رغبة مني تجنب سفك دماء الشعب الذي أحب والجيش الذي ضحيت بكل غال لأجله، والأمة العربية التي حاولت خدمتها باخلاص صادق. اتقدم باستقالتي من رئاسة الجمهورية الى الشعب السوري المحبوب الذي انتخبني والذي اولاني ثقته آملاً ان تخدم مبادرتي هذه قضيته وابتهل الى الله ان يحفظه من كل سوء وان يوحد ويزيده منعة وأن يسير به الى قمة المجد."



على مصائر بلاده.

واراد الحزب ان يجرب حظه فيها ، مستعيناً بنفوذ ضباط الجيش البعثيين ويحلف مع الشيوعيين السوريين، ومستغلاً مقام نبي القومية الجديد الذي سطع نجمه في مصر عند القوميون السوريين فنال مرشحوه ١٦ مقعداً من اصل ١٤٢ وكانت انتخابات حرة نسبياً كما قيل.

فشل البعث في الحصول على ما كان يتوقعه من فوز لكنه نجح في اثبات نفسه قوة سياسية بين القوى التقليدية القومية والوطنية التي ظلت تحتكر ميدانها منذ الغاء الانتداب، وانثنى زعماءه يعدون انفسهم للجولة القادمة بشعارات مثقلة بالاشتراكية العربية، واختفت كلمة الديمقراطية من أدبياتهم.

وكل ما في هذه الرسالة العاطفية مفهوم خلا عبارة "الأخلاص الصادق" فالله يشهد اني ما عرفت اخلاصاً ينعت بالكذب.

ما حصل بعده كان محاولة لمسح تاريخ حكمه من الحوليات السورية وعدّ الدستور الذي استنته باطلاً وكذلك المجلس الذي انتخب في عهده واعيد المجلس الذي حله في كانون الأول ١٩٥١ بكامل اعضائه خلا ثلاثة عشر عضواً كانوا قد قبلوا بأن ينتخبوا نواباً في مجلس الشيشكلي فقد الغيت نيابتهم عقاباً والتأم المجلس القديم وقرر اعادة العمل بدستور ١٩٥٠ بموافقة الحزب الوطني الذي كان قد رفضه في حينه وأبى الاعتراف به واستأنف (هاشم الاتاسي) عمله رئيساً للجمهورية بطرح مدة اقالته لأن استقالته التي ارغم عليها لم تقدم الى مجلس النواب لتحظى بالموافقة فهي والحالة هذه باطلة واعتبرت حكومة الدواليبي قائمة بضع ساعات ليصدر الاتاسي بعدها مرسوماً بقبول استقالتها.

بهذا الشكل العجيب في تاريخ الممارسات الديمقراطية أعيد الوضع في سورية الى ما كان عليه قبل ١٩٥١ كأن شيئاً ما لم يحصل بل وكأن فترة دكتاتورية الشيشكلي التي دامت اكثر من ثلاثة اعوام ليست جزءاً من تاريخ تلك البلاد. مسحت ببساطة كما تمسح عبارة مكتوبة بالطباشير على سبورة!

اعيد عدد كبير من الضباط المطرودين لانتماءاتهم السياسية الى الخدمة وكانت اللجنة المعنية لتدقيق طلباتهم بالعودة برئاسة اسمية للعميد (شوكت شقير) الا ان الشخصية المسيطرة عليها لم تكن غير العقيد (عدنان المالكي) وهو بعثي صميم لذلك كان معظم الضباط المعادين من حزب البعث العربي الاشتراكي او المؤازرين له.

والف (صبري العسلي) رئيس الحزب الوطني الحكومة الجديدة الا ان حزب الشعب كان يسيطر عليها.

لم يشارك حزب البعث العربي الاشتراكي في الحكم لسبب بسيط وهو انه لم يدع اليه، وواصل معارضته السلبية. الا انه صار يدرك بدءاً باعلى عضو فيه وانتهاءً باصغرهم ان حظه في الوصول الى الحكم بوسائل ديمقراطية يكاد يكون معدوماً وان مطمح زعمائه الأخير هذا لن يتحقق بغير ضباط الجيش ويا انقلاب كالانقلابات السابقة.

على أنهم وقفوا الى جانب الديمقراطية ودافعوا عن مبادئها لأنها كانت كما يبدو الوسيلة المعقولة لمعارضة حكم الشيشكلي الدكتاتوري وكتب عفلق مرة وقتذاك:

"النظام الديمقراطي البرلماني هو الشكل المثالي الذي يضمن للفرد حرية السيطرة

## ملحق

### اليهود العراقيون

تدعم الابحاث الاركيولوجية المتأخرة بوسائل التحقيق والفحص العملي التي وفرها القرن العشرون - كثيراً من روايات العهد القديم (التوراة) ومنها قصة (ابراهيم) ابي الانبياء، حول رحلته الطويلة الشاقة مع آل بيته وافراد قبيلته من جنوب العراق الى سورية حتى فلسطين معقباً مجرى الفرات. ففي حدود العام ٢٥٠٠ ق.م كانت جماعات من العموريين (الأموريين Amurru) قد نزحت من جزيرة العرب واستقرت جنوب غرب الفرات بين ظهراي السومريين ايام حكم (نارام سين) ملك (لارسا) فامتزجت بهم في اور الكلدانيين. ومن بين القبائل التي نزحت انحاء (اور) كانت قبيلة ابراهيم (ابرام في التوراة) وهي في المدونات (هبيرو أو هبرو او عبرا) ومنها جاء اسم العبرانيين لسبب من الأسباب (قد يكون اقتصادياً) أثر ابراهيم النزوح شمالاً واستقر اولاً في جهات (حران) في اعالي الفرات ثم طعن جنوباً وانتهت به رحلته الى ارض الكنعانيين وهم ايضاً عموريون بالاصل يسكنون شرق نهر الأردن وانحاء اورشليم وهؤلاء هم اسلاف الشعب اليهودي الذين عرفوا باسم العبرانيين ما من شك في ان حضارة ما بين النهرين السومرية والاكادية كان لها اعمق التأثير على عادات وطقوس هذه القبيلة. لاسيما في ما نجده من اسفار التوراة الأولى كسفر التكوين حول الخليقة والطفوان وبابل، كما نجد في كتابهم الثاني (التلمود) آثاراً من شريعة حموراني والشرائع السومرية التي سبقتها.

بعد اكثر من ١٧ قرناً من الوقائع والاحداث استحدث هؤلاء الدين الروحي الاول - بوحدة الخالق واقاموا مملكة هامة في فلسطين تبوأ رغم صغرها مكانة بارزة في التاريخ بفضل ملكها داود (١٠١٠ - ٩٥٥ ق.م) وابنه سليمان مالث ان انشعبت الى مملكتين صغيرتين: اسرائيل في الشمال ويهودا في الجنوب وكثيراً ما نشب بينهما نزاع دموي وحشي وزاد من حظهما سوءاً أنهما عاصرتا ثلاث امبراطوريات متطاحنة غازية في مصر وفي الهلال الخصيب ودولة الحثيين كان موقع الدولتين الجغرافي في طريق الجيوش المتصارعة يضعها دوماً في موقف دفاع مصيري. او يرغمها على تحالف سيء العقبي احياناً - ضد جيوش تلك الامبراطوريات ندر ان نجح في تجنيب مواطنيهما ويلات الحروب وعقاييلها. واعظم شراً سياسة الأسر الجماعي (السيبي) والتهجير السكاني الاستبدالي واول من طبق سياسة النقل الجماعي الاستبدالي للشعوب المقهورة الملك الآشوري (تكلتي بيلصر الثالث ٧٤٥-٧٢٧ ق.م) وهو (بل) في التوراة فقد نقل جماعات من يهود دولة اسرائيل الى آشور واسكنهم شرق

الفرات ونقل في عين الوقت عدداً مساوياً من آراميي تلك المنطقة واسكنهم مواضع اليهود المنقولين<sup>(١)</sup>.

ولجأ ابنه شلمنصر الخامس الى السياسة عينها فنقل الوفاً من يهود السبي الى آشور وجرى ابنه (سركون الثاني الفاتح ٧٢١-٧٠٥ ق.م) على منواله ومدوناته تتحدث عن سوقه ٢٧٢٩٠ سبياً من دولة اسرائيل واسكنهم اعالي الفرات ودجلة ومدينة بابل. وكذلك فعل ابنه سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ ق.م).

كذلك تتحدث مدونات خلفه وابنه اسرحدون (٦٨١-٦٦٩ ق.م) عن أسرة ملك يهودا (منسى) مع عدد كبير من نبلاء القوم واسكنهم مدينة بابل التي في يد الآشوريين وقتذاك.

يثبت سفر (عزرا وهو العزيز) في التوراة صحة المدونات الآشورية وعزرا هو من ابناء السبي ومنه يبدو بان عملية التهجير القسري من اسرائيل ويهودا الى بلاد ما بين النهرين كانت متواصلة. واسرحدون الذي كان قد اعاد بناء مدينة بابل عمداً الى إسكان سبي اليهود فيها بجماعات كثيرة فشهد هؤلاء كل الاحداث التي مرت على الامبراطورية التي حكمت ارض الرافدين (الآشورية والبابلية والميدية) ودونها في كتبهم.

وعندما نهضت بابل على قدميها ثانية وخلعت النير الآشوري، توجه ملكها نبوخذنصر (٦٠٥-٥٦٢ ق.م) وحاصر اورشليم وفتحها واثبت (صدقياً) ملكاً على يهودا بدل (يوآقيم) الذي اخذه اسيراً مع ثلاثة آلاف من اليهود كما تثبت مدوناته واسكنهم مدينة بابل عاصمته كان ثم آلاف أخرى منهم تكاثر عددهم طوال قرن من الزمن وانتشروا في حواضر بابل وبلدانها والظاهر انهم تمتعوا بحرية ورعاية وامن لم يتمتع به ابناء جلدتهم في موطنهم الأصلي، وقد انبسط بكثير فيهم مناصب عالية وكانت طائفة منهم مقربة من البلاط البابلي وتسمى كثير منهم باسماء بابلية.

في الخامس من تشرين الاول للعام ٥٣٧ ق.م (بالتقويم الغريغوري) أصدر الملك البارثي كورش الثاني الكبير اثر فتحه مدينة بابل وقضائه على امبراطوريتها مرسومه الشهير الذي قضى بالسماح لمن يريد من اليهود المسيبيين بالعودة الى بلادهم فعاد منهم حسب الاحصاء الدقيق الذي عمله عزرا (سفر عزرا ٤٢: ٣٦٠) باسماء قبائلهم وبيوتهم فضلاً عن عبيدهم وامائهم وهؤلاء كانوا ٧٣٣٧ ولهم من المغنين والمغنيات مئات وخيلهم ٧٣٦ ويغالهم ٢٤٥

(١) تذكر مدونات هذا الملك ان العملية طالت ١٥٤٠٠٠ نفساً في سائر شعوب الشرق الاوسط وبضمنهم اليهود. وفي هذا مبالغة طالما عمد اليها ملوك ذلك الزمن لاشاعة المزيد من الرهبة. رقم كبير اذا ما علمنا ان سكان العالم بحسب تقدير العلماء لم يكن إنذاك يتجاوز عشرة ملايين.

وبقي منهم الكثير وقد توالدوا وتأقلموا واستوطنوا ولاشك ففضلوا الحياة المطمئنة على مستقبل مجهول. ولم يصغوا لتشويق المتحمسين منهم للوطن الأم ارض إله اسرائيل. وما نقل اليهود العائدون من متاع واملاك ومقتنى انما يقوم بالأحرى على الحرية التي كانوا يتمتعون بها تلك التي سمحت لهم باقتناء العبيد والاماء كالسادة وجهاً بابل ونبلائها. والمعاملة الانسانية التي عوملوا بها من قبل الفاتح الجديد لاشك انها كانت امتداداً للمعاملة آشور وبابل طوال ايام السبي. والأمر يثبت دون جدال وحاجة الى دليل بان عملية التهجير التي فصلنا في امرها، انما كانت عملية وقائية صرفة، عسكرية وسياسية لا ترمي الى استئصال او تصفية عنصرية. كل الدلائل والبيانات التاريخية تؤكد بان الصلة بين العائدين الى فلسطين وبين الذين اتخذوا بلاد الرافدين وطناً دائماً لم تنقطع ومع ان ابناء السبي اليهودي بقوا دينياً مجتمعاً منفصلاً قائماً بذاته بعيداً عن ممارسات الفاتح الدينية الا انه تخلق بمرور الزمن باخلاقهم واكتسب كل عادات اهل البلاد وتقاليدهم. ولم يكن ذلك صعباً بسبب استخدام لغة واحدة دارجة غالبية هي اللغة الآرامية.

على ان العبرية بقيت لغة الكتب الدينية والصلوات والمراسيم الدينية اختص بتعلمها كهنتهم واحبارهم وهم طبقة خاصة.

وما من شك في ان تزاوجاً قد حصل بين الشعبين. وكل الدلائل التاريخية تشير مع ذلك الى مجتمع يهودي عنصري قائم بذاته. يختلف اختلافاً بيناً عن حياة المجتمع اليهودي في الجزيرة العربية. فهنا كان اليهود القبليون عربياً ينتمون الى قبائل عربية خالصة اذ بدت الديانة اليهودية هناك ديانة تبشير نجحت في شق طريقها الى المجتمع العربي.

ونعم اليهود المستقرون في ميسوبوتاميا بأمن ورخاء لم يتيسر لابناء جلدتهم في فلسطين ولا في مصر حيث اضطرهم الاضطهاد المنصب عليهم الى رحلتهم الشاقة الطويلة في العام (١٥٣٠ق.م) فقد ظلوا مستهدفين لغزوات الفاتحين اليونان والرومان والبطالسة المصريين قروناً عديدة. وفي العام ٧٠م احتل الامبراطور الروماني تيتوس عاصمتهم وهدم الهيكل وشتت شمل الكهنة، فمالبت ان انتقل المركز الديني اليهودي الى بابل بالتدريج. حتى بدت بابل حتى آخر ايامها عاصمة اليهودية الحقيقية في المنفى وتمتعوا ايام حكم الفرس بحرية واسعة وتكاثروا فبات عددهم يزيد عن ابقثهم الغزوات في فلسطين. وفي بابل تم تدوين (التلمود) في القرن الخامس الميلادي. ويعرف الآن بالتلمود البابلي وهو ثمانية أضعاف

التلمود الاورشليمي وعليه الاعتماد. ان هذا الكتاب يتحدث عن مستوطنات يهودية كبيرة في بابل وآشور وكردستان. وفي بابل وخليفتها بغداد بعد ظفر الاسلام تم تأسيس المجمع ليهودي الاكبر في بلاد السورا (السبي) وفيها استقر رئيسه (كاوون) وقد بقي هذا المجمع ينظم احوال اليهود ويشرف على حياتهم الدينية واحوالهم الشخصية سبعة عشر قرناً من مركزه بغداد حتى الفتح المغولي. والمصادر التاريخية تذكر انه تعاقب على (سورائيم) العراق ٣٨ كاوونا، وابرزهم الكاون رابي (سعدية ابن يوسف الفيومي ٨٩٢ - ٩٤٢م) الذي قدم بغداد من مدينة الفيوم المصرية لتناط به رئاسة المجمع بفضل علمه وشهرته في عالم الفكر وترأس المجمع في ٩٢٨ م، واليه تعزي تترجمة التوراة الى العربية.

في ذلك الحين تبنى اليهود اللغة العربية والفوا فيها ونبغ منهم كتاب وادباء واطباء. وبدت في الاجيال المتعاقبة منهم وكأنها لغة الأم وفقدت غالبيتهم الساحقة معرفتهم بالعبرية ولم تقتصر الأمور على يهود العراق. فهكذا كانت الحال في سائر البلاد الناطقة بالعربية التي يتواجد فيها اليهود. وهي عند احبارهم ومفكرهم لغة العلم والثقافة كما كانت اللاتينية للاوربيين<sup>(٢)</sup>.

ويعزى قيام طائفة القريائيم<sup>(٣)</sup> الى العراق. فهؤلاء انفصلوا عن التيار الرياني (ريانيم) في القرن السابع الميلادي. ومن يهود العراق انتشرت مفاهيمه الى يهود مصر وسورية ولبنان

(٢) معظم تأليف سعدية الكاون كان باللغة العربية وقد طرقت مؤلفاته مختلف المواضيع ومن أشهر كتبه: الامانات والعقائد الذي نقله الى العربية يهودا ابن طبون المتوفى في ١١٩٠م. وقام الاستاذ فارمر وهو حجة في الموسيقى العربية بتأليف كتاب عنه في ١٩٤٣ بعنوان سعدية الكاون في التأثير الموسيقي.

(٣) الريانيم هم اولئك الذين استمدوا ممارساتهم العقائدية كما فسرها التلمود أما القريائيم فهم الذين يهدفون الى العودة الى اليهودية البدائية غير منتقدين في التلمود والتقليد المتناقل فيرفضون الادعاء بحق تفسير رجال الدين (الرابي) للاسفار التوراتية، خلافاً للريانيم. وليعلم هنا ان اليهود لا ينقسمون الى شيع او طوائف او مذاهب كالشيعة وأهل السنة مثلاً او المذاهب الاربعة الاسلامية او الكاثوليك والبروتستانت مثلاً. وانما كان هناك خلاف في الممارسة والتقليد بينهم وبين يهود اوروبا (الاشكنازي) الذين هاجروا الى فلسطين في القرون المتأخرة (والسفارديم) وهم انسال اليهود الذين طردهم الاسبان مع المغاربة المسلمين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وسكنوا شمال افريقيا.

في العامين ١٩٤٩ و ١٩٥٠ اذكر ان قروياً يهودياً من قرية (صندور) شمال مدينة دهوك، وهي قرية يهودية خالصة - قال لي ان كل يهود كردستان هم من انسال السبي الذي جاء به سنحاريب الملك الآشوري واسكنهم هناك وانه نقل عدداً من الكفار بالمقابل واسكنهم اورشليم القدس وانه سمع ذلك من ابيه الذي تلقاه بدوره عن اسلافه كإبراً عن كابر (رحل كل سكان هذه القرية مع سائر يهود كردستان بعد صدور قانون اسقاط الجنسية) ولم ادش حين رأيت هذا القول مثبتاً من خلال استجواب في كتاب للاستاذ هنري فيلد Henry Field انثروبولوجية العراق: كردستان The Anthopology of Iraq (Kurdistan) ج٢، ص٧١، كمبرج ماساشوتس ١٩٥٢ مضافاً اليها زعمه ان يهود بغداد هم من سبي نبوخذنصر البابلي.

واليمن وشبه جزيرة القرم وتركيا وايران.

وفي كردستان الجنوبية (الجزء العراقي) تكلموا الكردية وتخلقوا بعبادات وتقاليد المجتمع الكردي. سكنوا القصبات والمدن مثل زاخو ودهوك وعقره والعماديه وعدد من القرى.

لم يتحول اليهود الى الاسلام تحولاً جماعياً كما آل بقسم كبير من المجتمع المسيحي وكلاهما من اهل الكتاب الذين وجبت حمايتهم وعدم التعرض لمعتقداتهم او ارغامهم بالقوة على اعتناق الاسلام واذا كان المقيمون منهم على دينهم قد عانوا ضيقاً واضطهاداً في فترات معينة من قبل حكام طغاة. فان التضييق والاضطهاد لم يبلغ في أي وقت حد التفكير في تصفية جماعية او التخلص منهم جملة وتفصيلاً بشكل ما. وفي عهد العباسيين وما بعده اطلقت الحرية كاملة لمجمعهم الديني الاكبر (السورا) ولمجمع مدني آخر عرف بمجلس رؤساء السبي الذي كان يدير شؤون اليهود الحياتية ويقوم بدور الوسيط بين المجتمع اليهودي وبين الدولة والخلفاء<sup>(٤)</sup>.

ولم تتغير الحال في عهد الفتح المغولي ثم العثماني. وكان اليهود خلال هذه القرون قد نزعوا بالتدريج الى احترام المهن التي يجد المسلمون في مزاولتها انتقاصاً لقدرة او مخالفة لتعاليم الاسلام كالصرافة والتجارة والغناء وبيع الخمر والحياكة والبناء وما اليها.

ووجد في القرن الثامن عشر الذي تلاه (النسي) وهو أمير اليهود الدنيوي ببغداد، خول سلطة واسعة ومارس نفوذاً عظيماً بفضل مقدرته المالية ومكانته الاجتماعية. وغالباً ما كان يعهد اليه الوالي العثماني بوزارة المالية وبخاصة الولاية المماليك شبه المستقلين ويدعى (صرف باشي)، وكثيراً ما كان (النسي) يمنح سلطة فرض الغرامات والعقوبات البدنية على من يخرق قوانين الطائفة.

بعد صدور (التنظيمات الخيرية = خط گلخانه) تحولت السلطة الروحية الى الحاخامين، الذي كان اسوة بغيره من رؤساء الطوائف (الملل) المسيحية يعين بفرمان سلطاني ويخلع عليه ويقلد وساماً. والى جانبه يعين ثلاثة من المعلمين (رابي) يطلق عليهم اسم (ديانيم = من ديان أي قاض) منحوا سلطة القضاء في الاحوال الشخصية (الطلاق، الزواج، الحضانة، النفقة، الوصية وما الى ذلك) وتمتع قارئو التوراة (المعلمون) ورجال الدين وكل من يمت الى المؤسسات الدينية بالاعفاء من الضرائب لكن عندما استن نظام القرعة العسكرية، فرض على كل ذلك

(٤) منشورات قيادة الجيش الرابع: Le Commandant de la Ivane Armeel La Verite sue la question ص ٣٥، استنبول ١٩١٦ مطبعة تدين.

ذكر يهودي بلغ الثانية عشرة ضريبة سميت (عكسريت) يدفعها سنوياً مقابل اعفائه من الخدمة.

في ابان اليقظة القومية العربية ايام العثمانيين - ورغم وقوع القوميون العربيين تحت تأثير وردود فعل عنصريي (المجون ترك) ولغرض محاربتها بمثلها كان هناك انفتاح قومي على اليهود القاطنين في البلاد الناطقة بالعربية، ففي كتاب (حقائق عن القضية السورية) الذي اصدره احمد جمال باشا (السفاح) قبل اعلان وعد بلفور بسنتين مدافعاً فيه عن صواب احكام الموت التي صدرت على القوميون العرب في سورية ولبنان نجده يستشهد بواحد من بياناتهم التي كانت تعتبر اليهود في البلاد الناطقة بالعربية جزءاً لا يتجزء من الشعب العربي:

"بها العرب تبعة الديانتين المسيحية واليهودية ضموا صفوفكم الى صف اخوانكم المسلمين، ولا تصغوا لاولئك الذين يقولون انهم يفضلون اتراكاً بلا دين على عرب ذوي اديان مختلفة فهؤلاء اناس جهلة لا يدركون مصالح الشعب العربي الحوية".

يستبعد أن يكون هذا البيان دعوة زائفة فقد سبق للشريف حسين ابن علي وابنه فيصل بالهوية اليهودية القومية في الوطن العربي كما فصلنا في اماكن أخرى من هذا الكتاب.

ألفت في أوقات متأخرة عدة كتب حول تاريخ الوجود اليهودي في العراق، يتضح منها اهميتهم في عالم المال والاقتصاد الدولي، ومن ذلك في العراق، التعاون التجاري الواسع النطاق بينهم وبين البيوت التجارية والمصارف والشركات البريطانية، في الهند وبريطانيا ومستعمراتها الأخرى في آسيا وافريقيا منذ مطلع القرن التاسع عشر. ونخض بالذكر هنا أسرة ساسون (Sasson) الشهيرة البريطانية التي تضارع اسرة روتشيلد جاهلاً ومالاً، فمؤسس الأسرة وعميدها هو يهودي بغدادي يدعى (داود ساسون صالح) تقلد وزارة المالية لآخر وال عثماني من المماليك شبه المستقلين في بغداد. اضطر الى الهروب في العام ١٨٢٩ بعد خلاف مع داود باشا (١٨١٩-١٨٣١) آخر المماليك واستقر في بومباي تاركاً ابنه عبدالله ساسون في بغداد.

وعند قيام الحكم الوطني في ١٩٢٠ اثبت لليهود العراقيين كل الحقوق التي تمتعوا بها في العهود السابقة. ونص قانون الاحوال الشخصية الخاص بالطائفة رقم ٧٧ للسنة ١٩٣١ على أن يكون ثم مجلسان اولهما مدني (جسماني) ومجلس ديني (روحاني) قوام اولهما ستون عضواً من وجهاء الطائفة بينهم سبعة من الروحانيين ويتراأس المجلس الروحاني رئيس

الحاخامين في البلاد. لهم محاكمهم الخاصة بالاحوال الشخصية اسوة بالطوائف المسيحية الأخرى. كان لليهود مركزهم الموموق في عالم المال - لاسيما في بغداد والبصرة وباتت المنافسة والصراع شديدين بين طبقتهم المتمولة وبين طبقة التجار المسلمين ورجال الاعمال التي راحت تنمو بعد تكوين الدولة العراقية. ولا يخالجنني أي شك في ان ليد هؤلاء اثر في استصدار قانون اسقاط الجنسية عن اليهود العراقيين ان لم يكن السبب الخفي الأصلي له.

والواقع هو ان حالة سواد اليهود لم تكن تفترق عن حالة عموم العراقيين المعاشية والاقتصادية والاجتماعية. كان اثرياءهم كغيرهم من نظائرهم ينعمون بكل ما يؤمنه المال من رفاه ونفوذ ومنزلة. في بلد طبقي غلبت عليه الانانية والجشع والفساد والفوضى السياسية وحكم على اغليته الساحقة ان تعيش في بؤس وفاقة، وبأفضل الاحوال عيش كفاف.

ومع هذا فقد شعر اليهود الذين ارغموا على الرحيل، بوحشة عظيمة، وبأنهم يقذفون كما تقذف القمامة، حيث المستقبل المجهول، ولم يحاول أحد من مثقفيهم وعلمائهم الكبار ورجال المال منهم أن يتخذ اسرائيل وطناً ثانياً.

وساعدت الثقة بالنفس التي درب عليها الضباط في نقل الذنب واستخلاص أنفسهم من تبعات الفشل وساهم في تعزيز مكانتهم ونيل احترام فقده السياسة الحاكمون جمهوراً من الكتاب القوميين. واحزاب وفئات المعارضة التي كانت تتسقط هفوات الحكام وتسند اليهم كل ما يبدو قابلاً للتصديق، راحت تروج لهذه النظرية لتغدو في زمن قليل حقيقة ثابتة من حقائق التاريخ.

من جهة أخرى هذه الحرب نفخت روحاً جديدة في عملية بعث سياسي جديد للقومية العربية المتطرفة. فالانتلجنسيا الليبرالية العربية بدت استجابتهم لنداء فلسطين فاترة جداً وقليل منهم نشط في المجهود النضالي ولم يلاحظ وجود مثلاً لمحاربين متطوعين من تنظيم او حزب سياسي ليبرالي، والشيوعيون في البلاد الناطقة بالعربية كانوا ضد الحرب ومع قرار التقسيم وقد اعلنوا رأيهم هذا في مناشير سرية في اواخر العام ١٩٤٩ وزعت في العراق كما وزعت في سورية والاردن ومصر مطالبة بوقف الاعمال الحربية ومبدين تضامنهم مع رفاقهم الشيوعيين الاسرائيليين وهو الموقف الذي اتخذته الاحزاب الشيوعية العالمية - انسجاماً مع موقف موسكو.

وبدت الحماسة والضجة الكبرى في اوساط اليمين العربي، في انصار النازية البائدة، في مفتي فلسطين وفوزي القاوقجي، في القوميين العراقيين الذين حاربوا بريطانيا في مايس ١٩٤١ في الضباط السوريين والعراقيين عامة، في الاخوان المسلمين، في حزب مصر الفتاة النازي الاتجاه، والمصريين المالكين بصورة عامة، يقف على رأسهم جميعاً شخص قد يكون ابعد الناس عن القومية العربية واقلهم احتفالياً بهمومها ومشاكلها وابلدهم شعوراً بمصيرها. هو الملك فاروق الاول.

كان هذا الملك الشره الفاسق كما صورته أدبيات ثورة يوليو بحق. يرمي الى تأكيد السيادة المصرية على سائر البلاد الناطقة بالعربية بامسাকে رمانتي القومية والاسلام في يد واحدة وتشجيع عملي ظاهر من البريطانيين بعد الحرب العظمى. وهو عمل قلده فيه جمال عبدالناصر لكن بطريقة عنيفة.

في مصر كان ثم دستور ديمقراطي المحتوى والشكل. اساء الملك الأب ثم الابن استخدام سلطتهما فيه. وكثيراً ما تدخل البريطانيون لوقفه والحد منه لمصلحة الشعب والديمقراطية<sup>(١)</sup>

(١) المقصود هنا دستور العام ١٩٢٢. الذي امتنهنه الملك فؤاد وسار ابنه فاروق على فهمه. ولم يكن البريطانيون بحسب تصريح ٢٨ شباط ١٩٢٢ يملكون حق الحق المباشر. فلما ملكوه في العام ١٨٨٢ - في انتفاضة عرابي المسلح. لكن وجب عليهم ان يتدخلوا لمصالح جوهرية لايمكن الاغضاء عنها عندما =

## الفصل الثالث والعشرون

مصر في عهد الملكية . الفشل العسكري في فلسطين بعد التقسيم . الملك فاروق أمام دستور العام ١٩٢٢ . تحديد الوجود البريطاني في مصر بعد معاهدة ١٩٣٦ . الوفد والاحزاب المصرية . الجيش المصري : قوامه ، تشكيلاته القتالية ، ضباطه . عود الى عزيز علي المصري . حزب مصر الفتاة . أحمد حسين وفتحي رضوان . اتجاه القصر نحو دول المحور وصراع الوفد مع الأحزاب الممائلة للقصر . حركة الاخوان المسلمين ، تحولها الى حركة سياسية . حسن البنا ثم الهضيبي مرشداها . يوم ٤ فبراير وارغام فاروق على تكليف النحاس بالوزارة . تقسيم فلسطين واعتراف الدول الكبرى . بداية التدخل المصري في الشؤون العربية . قيام جامعة الدول العربية . حزب الوفد والاحزاب الأخرى ، موتفها من ثورة يوليو . تنظيم الضباط السري . نجاح الثورة . محمد نجيب . موقف الفكر المصري من الثورة . الادباء والعلماء والصحافة . أهداف الثورة ومقاصدها . المتغيرات . محمد نجيب . الصراع على السلطة مع الاخوان المسلمين والشيوعيين . الصراع الداخلي بين الضباط الانقلابيين . محكمة الثورة . كفر الدوار . محاكمة رجال العهد المباد . تسخير القوانين لتثبيت شرعية النظام الجديد . عبدالناصر يحكم قبضته على الحكم . استقالة محمد نجيب واعتقاله . المظاهرات تنفجر مطالبة بعودته . عودته ثم استقالته . تحول الشارع الى صف عبدالناصر

فشل العام ١٩٤٨ في فلسطين، كان عسكرياً بالدرجة الأولى، وفيه لبس الجيش المصري اكبر العار لأنه كان اكبر الجيوش المشاركة الأخرى عدداً وافضلها عدة ولان المواقع التي حارب فيها كانت مواقع صالحة جداً لكسب نصر سهل. لكن وجه الغرابة هنا، ويخالف ما هو منطقي ومتوقع بدا هذا الفشل عاملاً في زيادة ثقة الضباط بانفسهم. ولم ينقص من مكانة الجيوش واهميتها في حياة العرب، عندما انبرى الضباط ووراءهم الكتاب لتفسير الهزيمة بانها نتيجة محتومة ماكان يمكن اجتنابها بسبب نظم الحكم الفاسدة والعلل الاجتماعية، وهي والحالة هذه أثر من الآثار، لا سبب او علة بحد ذاتها. وعاد الضباط بجنودهم رافعي الرؤوس لا كمخطفين في واجب انيط بهم ولم يحسنوه بل كضحايا للبوّس القومي.

وكذلك لمصلحة الطبقة العليا واصحاب الأفيان - وهو النعت الذي يطلقه المصريون على الملاكين الكبار - وكذلك عندما تتعرض مصالحهم للخطر المباشر وبالشكل الذي تدار به امور الدولة. لم يكن بإمكانهم الامتناع عن التدخل في السياسة المصرية لكن وجب عليهم أن يقوموا بذلك بشكل خفي ومن الخلفية. على أن هذا التدخل أكان من مصلحة المصريين أو من مصلحتهم، بات هدفاً تهاجمه الاحزاب السياسية كافة.

وفي مصر عشية الثورة وقبلها. لم يكن هناك ضباط عثمانيون يتناحرون ويتنازعون السلطة كما كان الأمر في العراق. لم تكن هناك أسر عريقة مارست الحكم او ساهمت في الحكم مع الحكام الاجانب كما هو الأمر في سورية، بل كانت هناك أسر بنت نفوذها وسلطانها على الغنى المتأتي من امتلاك الاراضي الزراعية. أسرٌ معظمها لايمت الى اصول مصرية او عربية بل هي من بقايا المماليك الجركس والصقالبة والترك والکرد. ومثلهم يوجد في سورية والعراق أيضاً. هؤلاء اخرجوا سياسة ورجال دولة تميزوا بالثقافة العالية، ومنهم كان الملك يختار رؤساء الحكومات والوزراء والموظفين الكبار.

وتجربة المصريين مع الاحزاب السياسية هي اطول بكثير من تجارب البلاد الناطقة بالعربية الأخرى، وكان هناك ديمقراطية أيضاً بكل عيوبها ومساويء تطبيقها.

ويهيمن حزب الوفد على الساحة وهو يختلف عن سائر الاحزاب بادعائه بانه صوت الشعب المصري والمنظمة السياسية الوحيدة التي تنطق بلسانه ولايتضمن هذا الادعاء كثيراً من الواقع. اما الفضل في انزاله منزلة خاصة فيعود الى تاكتيك مؤسسها (سعد زغلول) البارز الذي استخدمه منذ العام ١٩١٩، كان خطيباً مفوهاً يستطيع اللعب بعواطف الجمهور ويشير حماسه الى حد الجنون.

الا ان التمثيل السياسي الحقيقي هو شيء يختلف عن هذا. انه ذلك الحوار المستمر بين المواطنين وبين زعمائهم السياسيين، حوار يستمد مادته ومؤثراته من اراء ومصالح مختلفة تترجمها وتنتظمها حكومة دستورية مسؤولة ولم يكن في أي من هذه الاحزاب ما ينطبق على هذا الواقع المصري. والوفد لم يكن غير فريق من طبقة الموظفين والمثقفين لايتصف بصفة التمثيل الشعبي، الا ان مقدرة زعمائه في تعبئة الجماهير التي عانت في سنوات الحرب شظف

= ارغموا فاروقاً اثناء الحرب في ١٤ شباط ١٩٤٢ على اسناد الوزارة للوفد او باعتقاله او خلعه. ومما يذكر في هذا الصدد انه وفي العام ١٩٢٧ ادنى شبيه بهذا الموقف باللورد لويد المندوب السامي الذي خلف الجنرال اللنبي الى قولته المشهورة: «لدينا مكانة دون مركز. وثورة بدون سلطة، ومسؤولية دون اشراف:

We have magnitude without position power without out hority, resposielity without Control.

العيش والضييق الاقتصادي مكنته من الظهور بمظهر المعبر عن المطالب الشعبية، تماماً مثل ما تمكّن جمال عبدالناصر من الحلول محله ويعين الوسيلة كما سنرى<sup>(٢)</sup>.

كانت مصر في الحرب العالمية الأخيرة أهم وأخطر قاعدة بريطانية في الشرق الأوسط مثلما كانت في العام ١٩١٤. زادت أهميتها وخطورتها بسبب الهزائم التي عانتها جيوشها الامبراطورية في كل مكان وبوجود الحشود الالمانية الايطالية في ليبيا.

شرحت فيما سبق بافاضة طبيعة الكره المتأصل للاحتلال البريطاني وكيف كان ذلك سبباً في زيادة العطف على المحور، ولم يكتف فاروق اعجابه بما يحققه من انتصارات. وشاركه اعجابه وتعاطفه عموم ضباط الجيش المصري. وكان له اشباعه والمتحمسون له في المؤسسات العسكرية كافة، أمر طبيعي عندما كان للمحور موالون واشباع داخل الطبقة الحاكمة نفسها. وهنا أرى ان ازود القاريء بفكرة عن نشأة الجيش المصري الحديث وعن ضباطه الذين خرجت منهم عصابة الضباط الأحرار.

ترجع اصول هذا الجيش والفضل في تكوينه الى محمد علي الكبير الالباني مؤسس الأسرة

(٢) الى جانب الوفد كان «الاحرار الدستوريون» بزعامة محمد محمود باشا «عرف بالاناقة وثقافة عالية أمّنها له تخرجه من كلية باليول الشهيرة. واسع الغنى والنفوذ وحزبه وهو مجرد اسم يستقطب حوله نفر في الياشوات والاغنياء. حزب انتقاضي صرف يجرى قاداته وراء الثروة والمنصب ولايهم الجهة التي يتعامل معها: الملك، البريطانيون، الوفد؟

كان هناك ايضاً حزب الشعب الذي الفه اسماعيل صدقي عند توليه الوزارة ما بين ١٩٣٠ و١٩٣٣ ومات وهو فيها. وهناك «الاتحاديون» وقوامه رجال هم صنيعة الملك تآلف بعد سقوط زغلول في ١٩٢٤. وأخيراً كان هناك «السعديون» الذين انشقوا عن الوفد في نهاية العام ١٩٣٧ والفوا حزباً مستقلاً، وأخيراً كان ثم الحزب الذي أطلق على نفسه «الكتلة الوفدية المستقلة» بزعامة وليم مكرم عبيد باشا في العام ١٩٤٦ بعد اختلافه من النحاس رئيس الوفد. [كان سكرتير الوفد اي الشخصية الثانية فيه. وهو الى جانب ويصا واصف بك القائدان البارزان القبطيان. وقد نفيا معه الى سيشل في العشرينات وبقي كلاهما من اقطاب الوفد الكبار واولهما مكرم عبيد كان سكرتيراً عاماً للوفد لاينازعه في مركزه منازع. وتاريخ مصر لايعرفه بغير اسم «مكرم عبيد» ولايعلم لماذا اسقط اسمه الأول من التداول. في حين كان سياسة مصر قاطبة يذكرن ويخاطبون باسمائهم الأولى. أفلاذن الاسم اجنبي قد ينشر ذكره ظلا من الشك حول وطنية صاحبه وسلامة الأسرة من صلة خارجية؟ انه في الواقع واحد من الدلائل الكثيرة على عشق البلاد الناطقة بالعربية للمظاهر والاهتمام بها. وقد لاحظت مؤخراً في العراق ان الاقلية المسيحية هناك عزفت تماماً عن تسمية ابنائها بالاسماء الشائعة بينهم (بطرس، حتّا، عبدالمسيح، عبدالأحد الخ...) وراحت تتخذ لابنائها اسماء منتزعة من قاموس المصطلحات القومية العروبية والبعثية. عجبت عندما اختار احد اقربائي اسم «صمود» لابن له، وزاد الأمر تعقيداً عندما قدم لي صمود هذا زوجته باسم «نضال» وهي آشورية. انها غريزة حب البقاء بالسير مع التيار السياسي، من جهة، وتأكيد ولاء للمفاهيم العقائدية الجديدة التي تقرضها السلطة على الجمهور من جهة أخرى. حرص الاقلية المسيحية على تبقي جزءاً لايتجزء من المجتمع ومن الغالبية.

المالكة المصرية. كان هذا العاهل القدير عند بناء قواته التي خلفت قوات المماليك (وبها قضى عليهم) قد استخدم ضباطاً أجانب لتدريب جيشه الناشيء على الفنون العسكرية. وقوامه الجنود الفلاحون المصريون الذين هدد بهم الامبراطورية العثمانية كما تقدم. وبسبب من ذلك عمد الى انشاء مصانع حربية ومدارس عسكرية لتخريج الضباط.

كان يجند الفلاحين المصريين المسلمين الوادعين بالقوة الغاشمة. وقد عرف الفلاح المصري بكرهه التاريخي للخدمة العسكرية منذ عهد الفرعنة وحفلت الكتب التي الفت خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر بقصص وحكايات عن قيام هؤلاء القرويين باحداث جراح بالغة وعاهات مستديمة في اجسامهم بغية التخلص من الجندية هذا الكره كان سبباً في قلة اقبال المصريين على المعاهد والكليات العسكرية ويفسر ظاهرة الاكثرية الغالبة من الالبان والترک والجرکس في منظومة الضباط<sup>(٣)</sup>.

في العام ١٨٤٠ قلص هذا الجيش على اثر التدخل الاوروي وهزيمة محمد علي وارغامه على الرضا بحكم مصر فقط. وحددت المعاهدة عدد الجيش بـ (١٨٠٠٠) واغلقت معظم المصانع والمعاهد العسكرية وثكنات التدريب. الا ان خلفه الخديوي محمد سعيد راح يشجع دخول ابناء الفلاحين والقرويين المدرسة العسكرية الوحيدة الباقية لتخريج الضباط وسار الخديوي اسماعيل على السياسة عينها واستدعى الجنرال (جارلس ستون) الامريكي وهو من قادة الحرب الاهلية الامريكية وعينه رئيساً للاركان العامة وابقاه في منصبه هذا طوال ثلاثة عشر عاما ١٨٧٠-١٨٨٣ وكل هدفه تحديث الجيش ورفعته الى مصاف وكفاءة الدول الغربية فاعاد الجنرال ستون (Charles P. Stone) فتح المعاهد العسكرية ورفع من مستوى الدراسة فيها، وفتحها بوجه التلاميذ المصريين لكنه لم يقو على كسر الاحتكار الجركسي - التركي - الالباني في القيادات وبقي الجيش صغير العدد كما فرضته المعاهدة وكان (احمد عرابي) اول من وصل من المصريين ابناء الفلاحين الى رتبة اميرآلي (عميد) وكان كما ذكره الكتاب المصريون وافاضوا فيه يتحمل اضطهادات وسخرية الضباط الاجانب الآخرين.

ويؤكد المؤرخ المصري (عبدالرحمن الرافي) في كتابه عن «الثورة العربية» بان الضباط المصريين الذين قاموا بحركتهم في ١٨٨٢ لم يكونوا ضد التواجد البريطاني الفرنسي بخبراء المال الذين جاؤا بعد تراكم الديون المصرية فقد كانوا بحصافة وتفهم يدركون ان عمل هؤلاء

(٣) اف. يو. تيرنو F. U. Ternaw: الكمالية الحديثة في جمعية الاتحاد الوطني Le Néo - Kamalism De Comité National العدد ١٦ ص ١٥. السنة ١٩٦١.

مفيد للبلاد وانهم حماة للفلاحين من ظلم الخديوي واعتساف الطبقة العليا صاحبة النفوذ التي لاقت للتراب المصري بصلة ويستخلص الرافي ان ثورة عرابي ما كانت لتحصل لو ان الخديوي اسماعيل اتبع سياسة سلفه في تشجيع انخراط المصريين في صفوف ضباط الجيش وترقياتهم<sup>(٤)</sup>.

بعد فشل ثورة عرابي<sup>(٥)</sup> ودخول الجيش البريطاني مصر، قام اللورد كرومر المندوب السامي بحل الجيش المصري واعادة تشكيله بقيادات تخرج ضباطاً لجيوش العصر ظلوا يتبعون الاساليب القديمة ولم يعنوا بالثقافة والتتبع العسكري لكن حظيت قلة منهم بالدراسة في المعاهد العسكرية التركية التي وضعت تحت اشراف البعثات العسكرية الالمانية منذ العقد الاول للقرن العشرين وبمعكس الجهود البريطانية في بعث الجيش المصري وتجديده فقد امتازت تلك البعثات بالجدية واحداث ثورة في الاساليب العسكرية التركية. وتخرج بفضلها ضباط كفوتون الى حد ما، حظي كثير منهم بدورات تدريب ودراسة في معاهد برلين العسكرية والخدمة في القوات الالمانية.

من بين هؤلاء المصريين الذين اكملوا دراستهم العسكرية وخدموا في الجيش التركي شخصية (عزيز علي المصري) التي مر بنا ذكرها بوصفها واحدة من مؤسسي جمعية (القحطانية) السرية التي كان معظم اعضائها من العراقيين الى جانب قلة من السوريين واللبنانيين وقدر لها دور بارز في التوجيه (الثوري) للضباط المصريين. ومثل مرحلة ارضية لقيام الكتلة التي عرفت باسم (الضباط الاحرار) مهندسي ثورة يوليو.

بعد ان انقذته الوساطة من حكم الاعداء الذي اصدره انور باشا بحقه قبيل نشوب الحرب العظمى، عاد الى بلاده واتخذ «مكتب القاهرة» البريطاني مستشاراً، ثم ارسله لمعونة الشريف حسين فاختلف معه وطرده وعاد وهو ناقد على البريطانيين والعرب وبقي حتى العام ١٩٣٣ حامل الذكر منبوءاً الى ان نوه به في صحف القاهرة اثناء وصف مظاهرة عنيفة ضد

(٤) في تلك الفترة كان مجموع سكان مصر لايتجاوز خمسة ملايين.

(٥) كان التمييز في الجيش حتى بين اصحاب الرتب المتساوية. فعرابي بوصفه مصري (فلاح) الاصل كان قد حرم منحه المائة والخمسين فدانا وهي مساحة الارض الزراعية التي تمنح عادة لكل من رقي الى رتبة امير آلي (امر لواء) وكنتسليمه قيادات مسلكية هامة ان المطالب التي تقدم بها هذا الضابط وزميله كانت تكشف عن غيظهم وقنوطهم. عزا احمد عرابي فشل الحملة الاثيوبية في ١٨٧٥ الى جهل وحماسة هؤلاء الضباط الاجانب (غير المصريين) إذ ادى استخدامهم الى الاستغناء عن عدد كبير من الضباط وضباط الصف المصريين وانقاص ملاك الجيش الى ٩٠٠٠ جندي وضابط في حين طلب احمد عرابي ابلاغه الى العدد المقرر وهو ١٨٠٠٠.



الاحتلال البريطاني في العام ١٩٣٥ - تشرين الثاني اصيب فيها ضابط بريطاني بجرح سطحي ناجم عن اطلاقه مسدس<sup>(٦)</sup>.

(٦) اصله عراقي نزع والد جدّه من البصرة الى القفاس وتزوج بقفقاسية رفيعة المنبت، ونقل بعدها الى استنبول وفي ١٨٨٣ استقر في القاهرة. وفي هذه المدينة ولد «عزيز» في ١٨٨٩. وأرسل الى استنبول وهو في العاشرة وتخرج في ١٩٠١ ملازماً. وتخرج بعدها بثلاث سنوات في مدرسة الاركان بامتياز وكان «انور» زميله فيها في ١٩٠٧ خدم في جبهة البلقان وتميز بشجاعته. وكان له دور الكبير في استخلاص استنبول من يد خصوم الجون ترك في ١٩٠٩. ولفترة وضع امله في هؤلاء ظاناً انهم سيمنحون العرب نوعاً من الاستقلال. في ذلك الحين نضجت لديه فكرة اقامة اتحاد كونفدرالي عربي - تركي على غرار نظام الحكم في امبراطورية النمسا والمجر. لكنه خاب في مسعاه عندما وجد هؤلاء احرص على السيادة التركية من السلطان عبدالحميد الذي خلعه فانقلب ضدّه وأسس جمعية «القحطانية» السرية. وصفه اقرانه بالصلابة والعناد ويطبع ناري لأحد له. لم يتحمل جو استنبول السياسي فطلب ان ينقل الى اليمن فاجيب طلبه وفي ١٩١٠ ساهم في قمع ثورة الامام يحيى حميدالدين. وبعد سنتين تطوّر لحرب الطليان في ليبيا. ويذكره احمد جمال باشا (السفاح) في مذكراته بقوله انه ادى من الشجاعة والاستبسال في الدفاع عن بنغازي ما قلّ نظيرهما» وخدم في اليونان مع مصطفى كمال وانور وعاد الى استنبول في ١٩١٣، وكان احد مؤسسي حزب «العهد». عندما أمر انور (وزير الحربية) بالقبض عليه واحالته الى مجلس عسكري ثارت الخواطر في مصر وسورية وراحت الصحف هناك تطالب باطلاق سراحه. وعندما صدر عليه حكم الاعدام اثر محاكمة سرية دون تهمة واضحة أو دليل كتبت جريدة التايمس اللندنية اربع مقالات مطالبة الاتراك العدول عما وصفته «بجريمة قتل قضائية لا أكثر ولا أقل قد يكون لها اسوء اثر في العلاقات مع مصر». ويظهر ان الضجة الاعلامية احدثت أثرها فقد الغي الحكم بعد ستة ايام وأطلق سراحه وحددت اقامته في مصر، وأستقبل في القاهرة استقبال الابطال.

عرض عليه اللورد كتنشز الحاكم العسكري في مصر ان ينضم لقتال الاتراك فأبى ان كان ضدّ الوجود البريطاني في مصر اساساً. وبقي دوماً شديداً الاعجاب بالالمان وكان في بعض الاحيان يداعب فكرة استخدام الالمان نفوذهم على تركيا لقبولها باتحاد كونفدرالي مع العرب. اصبح لفترة قصيرة رئيس اركان الجيش العربي في الحجاز، لكنه اختلف مع الشريف حين بسبب معارضة الهجوم على الجيش التركي المرابط في المدينة. وكره العيش في مصر بعد عودته، ورحل الى اسبانيا وبقي هناك حتى نهاية الحرب ثم قفل الى المانيا وعاش فيها اربع سنين ثم عاد الى مصر في ١٩٢٢ وقدم طلباً للخدمة في الجيش المصري. وفي العام ١٩٢٨ تزوج من مدرسة امريكية مستخدمة من مدرسة الامريكان بالقاهرة ولم يعمر زواجهما فطلقها. وفي أوائل الثلاثينات زج نفسه في خضم النشاط السياسي السري وقويت صلته بحزب «مصر الفتاة» النازي الصبغة، وجماعات سرية أخرى عسكرية معادية لبريطانيا نازية الاتجاه تعد العدة لاغتيالات رجال الحكم. فضلاً عن جماعة الاخوان المسلمين. وقد اوفده الاخوان والمنظمة الارهابية المنبئة عنها وحزب مصر الفتاة الى الرايخ الثالث في مهمة شراء اسلحة.

في العام ١٩٣٥ أصدر «فؤاد» مرسوماً بتعيينه مرافقاً عسكرياً لولي عهد فاروق برتبة قائمقام (عقيد) ايام دراسة فاروق في بريطانيا. الا انه لم يبق طويلاً واستقبال.

وفي أواخر ١٩٣٩ كان الملك فاروق مفتوناً بما حققه الالمان من انتصارات مستيقناً بأن المستقبل لهم. وقد بدأ ذلك جلياً عندما استدعى «علي ماهر باشا» من الاتحاديين الدستوريين المعروف بميله الشديد للمحور - لتأليف الوزارة. وكدليل وإشارة لاتخطيء على ميولهما صدر مرسوم بتعيين «عزيز على المصري» رئيساً الاركان الجيش المصري برتبة فريق. الا أنه لم يعمر كثيراً في هذا المنصب فقد احيل الى التقاعد اثر سقوط وزارة علي ماهر في ١ من آب ١٩٤٠.

في العام ١٩٤١ نشرت لعزير علي بعض الصحف القاهرية برنامجاً سياسياً لقي هوى في نفوس الشباب الوطني المتحمس وأهم ما جاء فيه: ان مصر فوق كل شيء (كذا) وهي امبراطورية مستقلة، قوية تامة السيادة تتألف من مصر والسودان. واقامة تحالف مع الدول الناطقة بالعربية والاستهداء بالاسلام وتعاليمه. وألحق باهدافه السياسية هذه نظاماً عرف في حينه (بالوصايا العشر) ومنها: لا يشتري شيء الا من نتاج مصري، لا يلبس الا مما يصنع في مصر، لا يؤكل غير الطعام المصري، اجتناب كل ما هو اجنبي، قطع كل صلة بالمستعمر. التحمس للوطنية الى حد الجنون (كذا).

ذكر خالد محي الدين عنه في مذكراته: انه كان نقطة ارتكاز هامة في حركة الضباط الا انه كان يحبذ عمليات الاغتيالات الفردية، وحبته في ذلك اننا لانستطيع مواجهة الانكليز لأنهم أقوى منا، لكننا نستطيع قتل الخونة واحداً اثر الآخر، وهو يستشهد بالبلغار بالمناسبة، كيف ان الاغتيالات هي التي حققت لهم استقلالهم<sup>(٧)</sup>.

كان عزيز علي قد وثق صلته خلال الفترتين القصيرتين اللتين خدم خلالهما في الجيش المصري - بمؤسسة الضباط المصريين الوطنيين. ولاسيما عندما كان رئيساً لاركان الجيش. اتجهت اليه انظارهم لماضيه اللامع، ولأنه كان يتفق معهم في بغضه الانكليز وعدائه لبريطانيا. ولم يضيع دقيقة واحدة من فترة وجوده على رأس الجيش المصري من محاولات البحث عن يرى يرى في الانحياز الى دول المحور من بين مجموعات صغار الضباط ووقع على انور السادات فقد بدا له اجرأهم واكثرهم صلات بالاحزاب والمنظمات السياسية ويسبيله تحققت صلته باحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة الذي كان يعرف بذوي القمصان الخضراء، ذلك الحزب الذي كان يدعو الى شوفينية مصرية متعصبة على الخط الفاشي - النازي قلدتها في كل ظواهرها وتجلياتها الجماهيرية باقامتها مسيرات واستعراضات شبه عسكرية لشبابها بزيمهم المستنسخ من ازياء فرق الصاعقة والشبيبة الهتيرية.

في خضم بدء الاغتيالات السياسية<sup>(٨)</sup> التي هزت مصر طوال احد عشر عاماً. وتصاعد

(٧) خالد محي الدين: المرجع السالف ص ٨٨.

(٨) بلغت الاغتيالات اوجها باغتيال امين عثمان باشا ومحمود فهمي النقراشي باشا رئيس الوزراء بعد اغتيال رئيس وزراء آخر هو احمد ماهر باشا. فرد رجال الأمن المصريون على اغتيال اولهم باغتيال حسن البنا المرشد العام للاخوان المسلمين (انظر ما سيتلو) لغرض القاء القبض عليهم. ان اعتقال إثنين من الجواسيس ادى الى انكشاف الحركة السرية والقي القبض على السادات وزميل آخر هو الضابط حسن عزت. وينوه السادات بضابط آخر في تلك الحركة كان ناشطاً مع عبدالناصر في موقع العلمين في العام ١٩٤١ يدعى محمد وجيه خليل وكان يزوره في المعتقل في ١٩٤٢ ليؤكد له ان رفاقه يتولون رعاية أسرته.

النشاط النازي ترامت انباء قيام رشيد عالي على البريطانيين بحركته الموالية للمحور في العراق وتلقفت الصحف انباءها في القاهرة بعناوين مثيرة استفزازية على اننا لا نعلم هل اتيح للحركات المصرية السرية الصغيرة فرصة تحقيق صلة معها الا ان (السادات)<sup>(٩)</sup> يذكر بانه كان هو والرائد المتقاعد محمود لبيب على صلة بالالمان في ليبيا:

"صرنا نعمل معهم بانسجام تام بخصوص جمع معلومات حول توزيع القوات البريطانية وانتشارها في مصر - لفائدة الاستخبارات العسكرية الالمانية."

وقرر عزيز علي المتقاعد والسادات بعد وصول انباء قيام الجيش العراقي بتطويق قاعدة الحباية القيام بعمل ما في مصر وفتح الالمان وبموافقتهم تقرر ان يغادر عزيز علي مصر سراً الى المانيا لغرض دعائي صرف وتطوع لنقله بطائرة حربية مصرية الرائد الطيار (حسين ذو الفقار صبري) والملازم (عبدالمعتمد عبدالرؤوف) واقلعت الطائرة في ٦ من ايار ١٩٤١ الا ان المحاولة لم تنجح اذ تحطمت الطائرة والقي القبض على هذين الضابطين.

بقي عزيز علي معتقلاً بعد حادث تحطم الطائرة بضعة اشهر، ثم اطلق سراحه بعد ان أعطى كلمة شرف بالأل يقوم بمحاولة مماثلة أخرى. الا ان عزمته على الهروب الى المانيا لن تفر وتقرر ان يتم تهريبه عن طريق غواصة المانية تتسلل الى الساحل في منطقة معينة. واوكل تنفيذ العملية الى عضو في منظومة الضباط السرية هو الملازم الثاني (احمد مظهر)<sup>(١٠)</sup>.

وبقي السادات معتقلاً في سجن (المانيا) حتى وفق الى الهروب في تشرين الثاني. من كل هذا يتبين مدى التغلغل الالمانى وتأثيره في الحركات المعادية لبريطانيا اثناء الحرب. والليونة الى حد الإغضاء الذي تسبغه السلطة على الضباط والحركات السرية عند افتضاح امرهم وهو ما يؤكد قول السادات بجراءة وثقة:

"مازلت اعتقد انه لولا سوء الحظ الذي احبط مشروعنا، فرما كان في مقدورنا

(٩) السادات: ثورة في النيل. القاهرة ١٩٥٧. ص ٢٧ «كان محمود لبيب الذي قضى سنوات عديدة في المانيا قبل الحرب واحداً من قادة المنظمة السرية الارهابية نزار الاخوان المسلمين الضارب وكان كذلك على صلة بعدد من ضباط طيارين صغار منهم (عبداللطيف بغدادى). وقد تحدث البغدادي بنفسه عن محاولتين مماثلتين في تموز ١٩٤١ قام أولهما (حسن ابراهيم) (من قادة حركة ٢٣ يوليو هو الآخر) وبتأنيتهما في اوائل العام ١٩٤٢ نفذها الملازم محمد وجيه اباطة» ويتحدث السادات كذلك (الص ٤٨-٤٩) عن جاسوسين من الاستخبارات الالمانية وجاهما ثملين يكادان يفقدان الوعي صحبة فتاتين من بنات الهوى (تبين في بعد ان احدهما كانت عضوة في جهاز استخبارات يهودي يقوم بتعقيب النازيين.

(١٠) عرفه عالم السينما العربية نجماً لامعاً. وقد توفي في اواخر ٢٠٠٢.

توجيه ضربة سريعة للقوات البريطانية والانضمام الى قوات المحور ولتغيير مجرى الأحداث."<sup>(١١)</sup>

قول فيه كثير من السذاجة والادعاء الأجوفاً. من السهل عليك ان تدعي بقدرتك على توجيه ضربة حاسمة لبريطانيا بعد مرور اثنتي عشرة سنة على سقوط هتلر ونظامه وهو اقل ما يمكن التعليق عليه. في مجرى تاريخ الحروب العظيمة ولا اقصد اعظمها طراً تبدو امثال هذه المغامرات الفردية لا اكثر من احداث هامشية. لكنها في تاريخ مصر جمال عبدالناصر وثورته تبدو كبيرة واجزاء متممة، مقدمات وتمهيدات تزيد من رصيد القائمين بانقلاب ٢٣ يوليو.

\*\*\*

قامت حركة الاخوان المسلمين في اواخر العام ١٩٢٦ بمصر بزعامة الشيخ حسن البنا (١٩٠٩ - ١٩٤٩) المعلم في احدى مدارس الاسماعيلية. وهو خطيب مفوه ومنظم قدير قام بمشاركة اخوان له بعدة أنشطة اسلامية تحت عناوين شتى، ثم تقدم رسمياً بطلب تأسيس جمعية اسلامية بعنوان (الاخوان المسلمون) فرفض طلبه باديء الأمر ثم أجاز بعد فترة قصيرة، ولم تمر على الحركة سنوات معدودات حتى اتسعت وشملت القطر المصري وكان لها اعضاء متحمسون في كل مدينة وقرية، وانتقل بها مرشدها الى القاهرة ومالبت أن خرقت نطاق مصر وانتشرت في سورية والعراق والاردن والسودان.

زعم مرشدها العام في مبدء أمرها ان الهدف من تاسيسها هو بذل المساعدة وبسط الرعاية على الجموع الغفيرة من اسر الفلاحين المصريين المعدمين الذين ضاقت بهم سبل العيش في الريف فهاجروا الى المدن بأعداد هائلة بحثاً عن عمل فزادهم ذلك بؤساً. ومهمة حركته هي إرشادهم دينياً والاخذ بيدهم اثناء بحثهم عن مورد رزق.

ونفى حسن البنا صفة الحزبية عن حركته مؤكداً أنها تختلف عن سائر الاحزاب السياسية بكونها لاتتبنى انقلاباً عسكرياً ولا تدعم أي حكم عسكري او انقلابي وانها تعارض الحكم الاستبدادي، وتقاوم الاتجاه الغربي الذي يعزو اليه اضمحلال القيم الاسلامية. وان نضال الاخوان السياسي سيكون قاصراً على انتقاد وادانة الحكومات الفاسدة بغية بناء مجتمع اسلامي تسوده العدالة وينعم بالرخاء، وهم لذلك يحاربون الاستعمار بكل أشكاله وينادون بالاصلاح الاجتماعي. وبكلمة أخرى حركة اسلامية خالصة تعمل لإقامة دولة تحكمها اصول

(١١) المرجع السالف ٣٨ - خالد محي الدين.

الشريعة الاسلامية لذلك فهي تجد في ديمقراطية الغرب ونظمه ومبادئه في العدالة والمساواة ما يقل كثيراً عما يؤمنه الاسلام منها. والدولة التي ستقام على مبادئ الاسلام سيكون من مهمتها الاشراف التام على التعليم والمحافظة على الاداب الاجتماعية والاخلاق العامة طبقاً لمبادئ الشريعة وتأمين الرفاه الاقتصادي وفقاً لاحكام القرآن والسنة.

بعض انصار هذه الحركة يدافعون عن الاشتراكية ويقولون بأن اصولها اسلامية مبتناة على احكام القرآن لأنها تدعو الى العدالة الاجتماعية وان دعوة الاشتراكيين والشيوعيين الى هدم النظم الاجتماعية هو تشويه لاشتراكية الاسلام يجب محاربتة باشد ما يمكن من العنف وبكل الوسائل.

ويوجز حسن البننا اهداف حركته بخطبه التعليمية وهذه واحدة:

"لستم جمعية خيرية. ولا حزباً سياسياً ولا منظومة اقليمية ذات اغراض محددة، بل انتم روح جديدة في قلب هذه الأمة تمنح الحياة بهداية القرآن العظيم. اذا سئلتم لماذا لبيتم الدعوة؟ فليكن جوابكم هذا: انها دعوة الاسلام ورسالة الدين الذي كانت مهمته اقامة حكومة من اولى واجباتها توفير الحرية، اذا قيل لكم بل انتم والحالة هذه سياسيون فليكن جوابكم ان الاسلام لا يقر هذه الاوصاف والفروق ان اتهمتم بانكم ثوريون فليكن جوابكم نحن صوت الحق والسلام، واننا نؤمن بهما ايماناً ثابتاً صميماً واننا بهما لفخورون ان حاربتنونا واعترضتم سبيل رسالتنا فنحن باذن الله مستعدون للدفاع عن انفسنا بوجه الظلم."

لم تلبث حركة الاخوان ان اشعرت الرأي العام العربي والاسلامي بوجودها بفضل النجاح المذهل الذي حققته خلال فترة قصيرة فقد انضم اليها الجم الغفير وانتبهت الطبقة الحاكمة الى خطرها فراحت تغازلها وتخطب ودها وتستخدم ذراعها الصّدامي في التظاهرات والمسيرات واعمال العنف وتقرب منها فاروق بالعطايا والمنح والامتيازات السياسية واستخدمها ضد السياسة. وبدأت الاحزاب السياسية الاخرى تخطب ودّه لكن (البننا) لم يشارك في اللعبة السياسية التي تعودها السياسة المصريون خلال الفترة بين الحربين، وكانت سبيله واساليبه تشابه الى حد جالب للنظر اساليب سعد زغلول التي قادته الى النجاح. فمن ناحية دعا الاخوان الى ممارسة الضغوط على الحكومات وجندت الجماهير لهذا ومن ناحية اخرى نظموا جهازاً سرياً مسلحاً ودرّبوه على القيام بعمليات ارهابية. وبكل ذلك كان مصداقاً لادعاء (البننا) بان حركته ليست حزباً سياسياً بل حركة سياسية.

وحزب مصر الفتاة المؤسس في ١٩٣٣ وهو عام وصول النازيين الى السلطة كان يطمح الوصول الى السلطة عن طريق عصبة القمصان الخضر المجنّدة للقيام بمختلف الأعمال اللادستورية وخطط السياسة والمعارضين باعمال عنف في الشوارع والمحلات العامة. ارغم الوفد على تأليف منظومة صدامية عرفت بذي القمصان الزرقاء. وكثيراً ما كان "القميصان" يشتبكان في شجارات (خناقات: بالتعبير المصري) في الطرق والحارات والمقاهي والملاعب، فيقع جرحى ويتدخل البوليس كان من الطبيعي أن تجتذب تلك المنظمات اهتمامهم او يشغلهم بهوايات مفيدة او يطمئن رغباتهم ويستجيب لطموحاتهم.

بعد اغتيال حسن البننا في ١٩٤٩ نشب خلاف داخلي حول من يستخلفه من اقطاب ثلاثة كاد يؤدي الى انشقاق خطير: حسن الهضيبي وسيد قطب والشيخ حسن الباقوري، ومع أن القيادة رست على اولهم الا ان الانقسامات بدأت فيها. فانشق عنها صالح عشاوي مستقلاً بالجناح العسكري (الجهاز الخاص كما يسمى) وراح يقذف الهضيبي بابشع النعوت ويسند اليه اردل التهم. وانشق ايضاً يوسف طلعت الذي كان يقود احد اجهزة الجناح العسكري وسيطر على الحركة حتى اعدامه الحياة في العام ١٩٥٤<sup>(١٢)</sup>.

\*\*\*

من الضباط الذين وردت اسماءهم في مذكرات انور السادات<sup>(١٣)</sup>، لم يسمع شيء عن الملازم حسن عزت بعد نهاية الحرب في حين ادركت الوفاة ثلاثة منهم قبل العام ١٩٥٢<sup>(١٤)</sup> في حين اصبح اربعة من الثمانية الباقين اعضاء مؤسسين للجنة العشرة التي اطلقت على

(١٢) ر. ميشيل. جماعة الاخوان المسلمين. لندن ١٩٦٩ [ص٣٦ وما بعدها] R. Mitchell: The Society of Muslim.

(١٣) سعدي وخليل ولبيب.

(١٤) ٢٣ نيسان ١٩٦٤ أكد عبدالناصر واقع هذه الصلة في اثناء مقابلة صحافية له مع جريدة [القومية الالمانية والجندي Deutch National und Soldatin] لسان الحزب النازي الجديد، المهودور حالياً (كان التصريح قبيل زيارة (نيكيتا خروشچوف) مصر بمناسبة افتتاح سدّ اسوان بشهر واحد) بقوله: كانت عواطفنا مع المانيا اثناء الحرب العالمية الثانية... ان رئيس مجلسنا (ويقصد السادات الذي كان رئيساً لمجلس الشعب وقتها) سجن بسبب ميوله السياسية تلك. وللجريدة نفسها صرح في ١٤ مايس (ايار) من العام نفسه بقوله «من المؤكد ان لا أحد يقبل بكذبة هلاك ستة ملايين في البشر على يد هتلر. حتى رجل الشارع البسيط لا يمكن ان يصدق هذا» كان عبدالناصر في ذلك الحين يعمل لخطب ودّ فريق من الالمان واجتذابهم لاستخدامهم خبراء عسكريين وعلى اقتناص رجال الصناعة والتكنولوجيا لمصانع الجيش المصري الحربية وقد فتح باب اللجوء لهؤلاء العلماء الذين لم يجدوا ما يعملون بهد نهاية الحرب وبعضهم مجرمو حرب مطلوبون في عدة دول أخرى.

نفسها اسم (الضباط الاحرار) في ١٩٤٩ وهم عبداللطيف بغدادي وانور السادات وعبدالمعمر رؤوف وحسن ابراهيم اما الاربعة الباقون فقد رفعتهم حكومة يوليو الى مناصب قيادية عالية ووظائف مدنية كبيرة، وعلى هذا يمكننا القول بوجود استمرارية فكرية غير منقطعة في تلك الزعامة التي اطاحت بالحكم الملكي.

نوع من حلف أو رباط بين الافكار النازية وبين خلفية هؤلاء الضباط سهلت عليهم الانتماء الى القومية العربية وتبني الاشتراكية القومية التي اخترعها عبدالناصر في اول الستينات.

كان عبدالكريم قاسم وزميله عبدالسلام محمد عارف وكثير من زملائهم الذين هندسوا حركة القضاء على الملكية في ١٩٥٨ لا يدعون مناسبة تمر الا ليؤكدوا بان حركتهم انما هي امتداد لحركة مايس القومية ونهاية انتصارها. بعكس ضباط ٢٣ يوليو في مصر فقد وجدناهم يحاولون في كل مناسبة تعن لهم تغطية وطمس نشاط الاربعةينات وفي محاولة لازالة واقع صلاتهم وصلات غيرهم من ضباط الجيش المصري بالامان. وارى ان السبب يعود خلافاً لما اورده السادات وغيره الى ضعفها والى مصيرها الخائب من جهة، وكذلك لأن عبدالناصر لم يكن له فيها دور. وليس في امكاننا القول ان عبدالناصر كان يتبنى حينذاك رأياً يختلف عن رأي السادات والآخريين اعني انه لم يكن يحدد مبداء الاتصال بدول المحور أو انه كان يتمنى فشله وانتصار الحلفاء. ولذلك لم يسمح الحكم الناصري لتاريخ الاربعةينات المصري بحيز بارز او كبير لوقائع قيام حركة ضباط سرية بزعامة عزيز علي والسادات وبدعم من حركتي مصر الفتاة والاخوان المسلمين موالية للمحور وقيام علاقة مع النظام النازي، لاسيما وان عدداً من الذين نشطوا في هذا المجال، تسنموا فيما بعد مناصب خطيرة وكانوا قادة وزعماء في النظام الجديد. إلا أن السادات لم يخف اعتزازه باتجاهه هذا ولم يتحرج من اعلان عن كونه عميلاً نازياً وهذا ما اكده عبدالناصر في مناسبة واحدة عن الأقل<sup>(١٥)</sup>.

يقول السادات عن حركة مايس: "ان الثورة العراقية في ١٩٤١ كانت في مصر اولى اشارة تحرير في العالم العربي"<sup>(١٦)</sup>.

(١٥) المرجع السالف ص٣٥.

(١٦) في شهر آب. وقد حازت رضا الوفد وبقية الأحزاب. ان أعترف بمصر دولة مستقلة تامة السيادة. وباستمرار الحكم الثنائي في السودان واحتفاظ الملك بلقب ملك مصر والسودان، والغاء منصب مندوب السامي واستبداله بسفارة. مع ابقاء القوات البريطانية في منطقة القنال فحسب. وجعل امد المعاهدة عشرين عاماً بعدها يتم الجلاء التام (كانت تقريباً شبيهة بمعاهدة ١٩٣١ العراقية - البريطانية). ومما يستحسن ذكره هناك ان الملك فاروق بدأ عند توليه العرش في ١٩٣٧ ي سير على نهج دكتاتورية والده. وفكر مصطفى النحاس (والوفد ان ذاك كان تملك الاكثريّة) في خلعه واتخذت خطوات في هذا الباب الا =

قبل ان يشتط بي القلم بعيداً ليستيق الأحداث ساعود بالقاريء الى ما حصل في اليوم المشهود الذي عرف في تاريخ مصر الحديث بـ(الرابع من فبراير ١٩٤٢).

لم يخف فاروق فرجه الشديد بالتقدم الذي كانت تحققه قوات المحور في الصحراء وقيل ان حالة من الطرب الغامر استولت عليه عندما ابلغ بان ارتال المارشال رومل اخترقت الحدود المصرية في (بردية) وبلغت آخر نقطة للسكة الحديد المصرية في (السلوم) وان الجيش البريطاني يقوم بانشاء خطوط دفاعية لاتبعد عن مدينة الاسكندرية باكثر من مائة ميل. لم يكن البريطانيون غافلين قط عن العطف الذي يكنه ساسة ورجال حكم مصريين كثيرين للمحور ولا كانوا يجهلون اتجاه الرأي العام الذي صنعه الاحتلال البريطاني، كما كانوا يخشون تهديداً داخلياً لمؤخرة قوات الحلفاء.

كان رجال (الوفد) ابعده نظراً وافر حكمة من هؤلاء الضباط والأحزاب، والوفد على اية حال هو الذي عقد معاهدة الجلاء في العام ١٩٣٦<sup>(١٧)</sup> وقد عدت في حينه كسباً سياسياً كبيراً. في تلك الفترة كان النحاس باشا ووفده من المغضوب عليهم وقد اقصي عن الحكم طوال سبع سنين بسبب من ذلك.

في الثاني من شباط جرت مقابلة بين مصطفى النحاس والسفير البريطاني(سر مايلز لابسن) خرج منها اولهما مبتسماً مستبشراً.

وفي صباح يوم ٤ فبراير تابع المارة سرفات الدبابات البريطانية وعجلات الشاحنات التي تحمل جنوداً بريطانيين وهي تتجه لتطوق قصر الملك (سراي عابدين) ومن احداها ترحل السفير البريطاني مع اللواء (ستون) رئيس البعثة العسكرية البريطانية الى الجيش المصري وحاول ضابط الحرس اعتراض سبيلهما فدفعه (لامبسن) بكوعه مقتحماً مكتب (فاروق) ليضع أمامه انذاراً. اما ان يتنحى عن الحكم أو أن يقبل بالنحاس رئيساً للحكومة. ولم يطل تردد فاروق امام إلحاح زوج امه (أحمد حسنين باشا) رئيس ديوانه<sup>(١٨)</sup> ورضي باستخدام

= ان السفير البريطاني الباقعة سر مايلز لامبسن نصح مصطفى النحاس بالترتيب وضاعت فرصة الخلاص من دكتاتور احمق فاسق زاهد في الاحتفاظ بسمعة اخلاقية.

(١٧) وكما تبين فيما بعد كان رئيس الديوان (حسنين) يملك سلطة كبيرة على فاروق. يذكر مايكل شتيرن Mi-chael Stern في (فاروق Farouk) ان رئيس الديوان هذا تزوج بنادلي ام فاروق زواجاً عرفياً سرياً وهذه الزيجة التي تعرف باسمها الدارج يتم بين الطرفين دون شهود بل بالتوقيع على وثيقة يحتفظ فيهل كل من الزوجين بنسخة. ويذكر المؤلف ان الملك وشقيقاته كانوا على علم بهذا. الى ان انكشف الأمر وأعلن للملأ بعد زوال النظام الملكي.

(١٨) راجع ما اصدره «محمد حسنين هيكل» من كتب بوجه خاص ومذكرات الضباط الذين قاموا بثورة =

النحاس. ووقع امر اقالة حسين سري والمسندس مصوب الى رأسه.

كان الموقف كله جملة من المفارقات العجيبة التي يحتكر تاريخ البلاد الناطقة بالعربية النسبة الكبرى منها. فالوفد منذ ايام مديدة يدعي بانه طبيعة النضال ضد النفوذ والاحتلال البريطانيين نجده يأتي الآن الى الحكم بانقلاب عسكري بريطاني!

والبريطانيون اعتقدوا في هذا اليوم بالذات وبعد انكار طويل - بأن الوفد يمثل فعلاً الاغلبية من الشعب المصري وان أي اتفاق معه سيجعلهم قادرين على تأمين مصالحهم دون تدخل او عرقلة من مصنع السياسة المصرية. وجدناهم يضطرون الى استعمال القوة لوضع ممثلي الاغلبية هؤلاء في دست الحكم!

سراب! ومهزلة. السفير البريطاني ووراءه وزير خارجيته الذي وافق على عملية الانقلاب ونفذها اولهما بشخصه كانا باللحم والعظم ممن فاض على المعاهدة بنجاح وهنا نفسيهما على إنجازهما قبل ست سنوات.

ورغم كل ما عرف به هذا الملك من عبث صيباني بالدستور، ومن تحلل خلقي لم يسبقه فيه احد من ملوك البلاد الناطقة بالعربية، ومن عدم اكرات تام بمصائر شعبه. كان وجه العجب الاكبر ان يطبق كتاب تلك الفترة والعهد الذي تلاه على الثورة النفسية العامة التي تفتت في ضباط الجيش المصري ولاسيما الضباط الأحرار الذين دأبوا على اعتبار يوم ٤ فبراير اليوم الذي وجهت للامبريالية بشخص البريطانيين اعظم اهانة يلحقها مستعمر بشعب مغلوب على أمره. وان هذا الحدث زاد في عزم الضباط الأحرار على انقلاب من اهدافه الاطاحة بالنظام الملكي والتخلص من الملك الفاسد الذي وجهت الاهانة اليه.

وحجتهم هي ان الملك رغم كل شيء كان يمثل الشعب المصري، لم يفكر هؤلاء المهانون بان ما عدوه (اهانة) كان هدفها الحيلولة دون وقوع مصر والمصريين بين فكي امبريالية لم يعرف التاريخ لمثلها نظيراً في بشاعتها وهولها. وعجزت اعينهم عن رؤية ما حل بدول وشعوب تفوقهم مدنية وحضارة أضعافاً عندما وقعت تحت اقدام الغزاة النازيين فريسة. أو كان ذلك يقتضي تفكيراً شاقاً عجز الضباط المصريون عنه؟

رأوا في الرابع من فبراير وصمة عار في جبين الوفد.

وبقيت الحماسة لقضية الحلفاء ضعيفة، وقلما بدا شيء من المساندة الأدبية للمجهود الحربي البريطاني في الصحراء - من خلال الصحف والكتب مثلما كانت الحال في العراق خلال حركة

= ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

مايس، ونظروا الى المعتقلات التي اقامتها الوزارة الجديدة نظرتهم الى رموز لاضطهاد حرية الفكر، والى الذين زجوا فيها من مشايخي المحور نظرتهم الى شهداء العقيدة وابطال مدافعين عن حرية الفكر.

في تشرين الاول ١٩٤٤ بعد ان بات النصر النهائي مجرد وقت لم يعد البريطانيون يصرون على بقاء الوفد في الحكم. وذاب العطف على دول المحور بهزيمتها ولم يعد هناك فائدة في الحنين الى الالمان والاعجاب بهم، فكان التقارب الملكي من العدو الامبريالي امراً طبيعياً.

وكما حصل في معاهدة ١٩٣٦ التي هيأت لمصر العضوية في عصبة الأمم فان اعلانها الحرب رسمياً على دول المحور واليابان في شباط ١٩٤٥ هياً لها العضوية في هيئة الأمم المتحدة.

في ذلك الوقت تقدم البريطانيون لفاروق بلعبة جديدة من نوع أخاذ مالبت ان ملك عليه مذهبها: لعبة الجامعة لدول عربية يكون مركزها القاهرة. ويكون لمصر فيها المركز الاول بين الأقران (Premus Inter Pares) ربما شعر البريطانيون بأنهم وراء سراب خادع ساير سياستهم العامة مع الوفد وازاء مصر؟ ها هم الآن يتكون فاروق لمواقته وتحكمه في تأليف الحكومات وخفضها حين وجدوا في طموحه وشهوته لقيادة العالمين العربي والاسلامي تعادلان شهوته الى الجنس والمال، حتى انهم لم يستعجلوا الحكومات المتعاقبة خلال الحرب على اعلان الحرب رسمياً على المحور، بل لم يروا ضرورة لذلك<sup>(١٩)</sup>.

لم يبد حتى نهاية الحرب من كتاب مصر ومثقفها وساستها ومن المصريين عموماً أي اهتمام لا بالعروبة ولا بالشؤون العربية، كانت هناك القومية المصرية، والأمة المصرية، والمستقبل المصري وفي ١٩٤٨ كان التدخل العسكري المصري في قضية فلسطين بدافع ديني محض وتأكيداً لدور مصر القائد في جامعة الدول العربية.

على ان الصحافة المصرية بتشجيع من الملك ومن الحكومات الموالية له راحت تبدي اهتماماً بتحركات الدول الناطقة بالعربية، وزاد التقارب بحكم عضويتها في الجامعة.

وكثيراً ما وجدنا الحكومات المصرية تتبادل صيغاً وتعابير غامضة عن العروبة والعرب ومستقبل البلاد العربية في الرسائل الرسمية المتبادلة، لا يخرج معظمه عن مبادلة عواطف

(١٩) شاعت غرائب الاتفاق ان يكون اعلان الحرب في عين اليوم الذي خرّ رئيس الوزارة الدكتور احمد ماهر باشا صريعاً برصاصة مجهول يعتقد انه من جماعة المسلمين. كان وفدياً ثم انشق عن الوفد ليؤلف مع النقراشي وتشجيع من صافية (ام المصريين) زوج سعد زغلول التي كانت تكره النحاس - ما عرف بالكتلة السعيدية.

لم تتقدم جامعة الدول العربية خطوة واحدة نحو اقامة علاقة قومية او نوع من وحدة. سئل سعد زغلول يوماً عن وحدة العرب فأجاب: "لو انك اضفت صفراً الى صفر فماذا سيكون المجموع؟" (٢٠).

انك لا تجد في كتاب الدكتور طه حسين (مستقبل الثقافة في مصر) (٢١) ذكراً واضحاً للعروبة أو تنويهاً بالعرب. وفي ميدان الرقي الحضاري والثقافي لم يتردد هذا المفكر في وضع مصر بمرتبة ايطاليا وفرنسا. اعني انه نسبها الى العالم الاوربي وحوض البحر المتوسط، مؤكداً انها تمت الى التراث الهيليني (اليوناني القديم) اكثر من ارتباطها بالعالم الشرقي ومركز حضارته الهند والصين.

وفي الاربعينات كان واضحاً ان العروبيين، ودعاة الوحدة العربية الشاملة لا يدخلون مصر والسودان ولا شمال افريقيا في حسابهم ولا يعتبرون تلك الاقطار مشمولة بالوحدة (٢٢).

ويتفق وهذه النظرة المؤرخون الاسلاميون العظام الاوائل. وفي مقدمتهم ابن خلدون وهو أبرزهم.

في تشرين الثاني ١٩٤٧ وضعت مصر اول قدم لها على سرج العروبة، ففي هذا الشهر صوتت هيئة الأمم المتحدة لصالح تقسيم ارض فلسطين الى دولتين: عربية ويهودية وأسرع الجزء اليهودي المحدد باعلان دولة اسرائيل واسرعت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بمنح صك الشرعية لدولة اليهود هذه بالاعتراف بها.

في العام ١٩٤٣، عندما كان البريطانيون يروجون لاقامة الجامعة العربية، وفي خلال مشاوراتهم مع رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس، كانوا يلوحون بالزعامة المصرية وارتفاع مصر ورغبة الملك في قيام مصر على رأس هذه الجامعة المقترحة والملك المصري من جهته كان يطمح في ان يغدو الزعيم الذي لا منافس له على العالم الناطق بالعربية كافة الأمر الذي

(٢٠) ساطع الحصري: «العروبة اولا» ط. بيروت ١٩٥٥ ص ٨٩.

(٢١) القاهرة ١٩٣٨ ج: ١ ص ١٨٠ وما بعدها.

(٢٢) مجيد خدوري العراق المستقل The Independent Iraq ص ١٨٤. يورد طرفاً من المحادثات التي تمت بين الجانب الالمانى والجانب العربي قبل حركة مايس (جرت في برلين في آب ١٩٤٠). وعلى أثر المحادثات التي تمت بين كمال عثمان حداد مبعوث المفتي الحسيني وبين الدكتور فريتز كروبه كتب هذا الأخير مذكرة حول المقترحات العربية تحدثت بوضوح تام عن البلاد المعترف بعروبتها. وعن مصر والسودان خارج اطارها. انظر كذلك الصباغ: «فرسان العروبة». انه يؤكد ما كان مسلماً به عالمياً حين يقوم بتقويم المواقف السياسية. فهو يفرد مصر عن سائر البلاد الناطقة بالعربية ويميزها عرقياً.

سيمهد السبيل الى الخلافة الاسلامية. وقد لوحظ بعد ابرام ميثاق الجامعة انه اطلال لحيته وحرص على ان لا يخرج للناس الا ومسبحة الصلاة في يده، وان يشارك في صلاة الجماعة ايام الجمع. فيما كانت حكايات عهده وجشعه حديث قصور وابهاء ساسة الدول العربية ورؤسائها (٢٣) من وقائع لاحتصى وتجرأ صحف للتحدث عنها لكن بالرمز والكناية والتلميح دون التصريح.

بدأت فصول تكوين الجامعة العربية في مشهد جلسة مجلس العموم البريطاني المؤرخة في ٢٥ من شباط ١٩٤٣ كما قلنا سابقاً فقد رتب أن يقوم احد اصحاب المقاعد الخلفية Back Benchers من حزب المحافظين بطرح سؤال لوزير الخارجية معد سلفاً: "هل توجد للحكومة نية في تحقيق تعاون سياسي اقتصادي وثيق بين الدول العربية قد يفضي بالنتيجة الى قيام نوع من اتحاد عربي؟"

فرد (ايدن) بجواب معد سلفاً ايضاً: "ان حكومة صاحب الجلالة (البريطانية) تنظر بعطف الى اية مبادرة من العرب تسعى الى قيام وحدة اقتصادية وثقافية وسياسية بين دولهم. ومن نافلة القول ان المبادرة الى مشروع كهذا يجب ان يبشره العرب انفسهم وبحسب علمي لم يصدر منهم حتى الآن شيء يدل على هذا".

كانت بريطانيا تفكر في سياسة طويلة الأمد لما بعد الحرب ترمي الى تنظيم علاقاتها بالدول الناطقة بالعربية وعلى ضوء حتمية ظهور الاتحاد السوفياتي منافساً لها هناك فضلاً

(٢٣) واقعة ذاع أمرها وشاع كرهت أن أضن بها على القاريء: ذات مساء عاد فاروق الى قصر عابدين متأخراً. وهو يغلي حنقاً فقد خسر على مائدة القمار اكثر من خمسة آلاف جنيه. راح يذرع غرفته ذاهباً آيباً حيناً. ثم استدعى مستشاره الصحفي والوزير فيما بعد كريم ثابت. أمر مستشاره الداهل بالجلوس وأملى عليه هذه الرسالة «الاخ العزيز صاحب الجلالة عبدالعزيز آل سعود: ان اخاك بحاجة ماسة آنية الى عشرة آلاف ليرة ذهبية. وسأزدها لك في اقرب فرصة ممكنة». ووقع الرسالة ثم اتصل بالمطار العسكري وامر بتجهيز طائرة تطلع الى السعودية في الصباح الباكر. فوصل رئيس مرافقيه مع عدة ضباط الى الرياض يحمل رسالة الملك. وتناقلت وكالات الانباء والصحف العالمية النبا بدهشة وراحت التكهنتات تشير الى قرب ابرام حلف عسكري مصري - سعودي الا ان الوفد لم يمكث كثيراً فقد لبث بضع ساعات تم خلالها نقل صناديق ثقيلة الى الطائرة. ويذكر المستشار كريم بك ثابت انه دخل مكتب فاروق فوجده منشغلاً ببسط القطع الذهبية على طاولته الكبيرة، يقلبها ويصنفها ويتفحصها واحدة واحدة بمكبرة وعليه سيماء الطفل الذي حظي بهدية. هذه جنبهات من ضرب الملكة فكتوريا وأخرى عليها صورة جورج الثالث. وتلك دبلوماسيات اسبانية، الى جانب دوقيات ايطاليا من ضرب البندقية. وليرات رشادية وأخرى حميدية، يقوم بعزلها وتصنيفها وهو يتمم حيناً بعد حين كلما عثر على قطعة ناقصة الوزن: انظر كيف خدعني هذا اللص؟ (يقصد الملك السعودي). قال كريم ثابت انتهزت فرصتي فسألت «لكن كيف ستسدها يا صاحب الجلالة؟» فنظر الي نظره استخفاف وأجاب: ومن قال اني سافعل ذلك؟ انسيت ما كتبته له؟ الله وحده يعلم متى ستأتي هذه الفرصة الممكنة!» [عن كتاب «فاروق» لمايكل شتينر].

عن الولايات المتحدة. لم يكن من المعقول ابداً أن تستمر بريطانيا في اتباع سياسة ما بعد العام ١٩١٨، وبدا العام ١٩٤٣ مناسباً للتفكير في خطوط سير جديدة بعد أن تحول مجرى الحرب بشكل واضح الى صالح الحلفاء<sup>(٢٤)</sup>.

ولم يفت على الملك عبدالله حقيقة الجامعة والهدف الذي تسعى اليه بريطانيا منها فكتب وهو العاهل النابه المجرب - عنها هازلاً:

"الجامعة العربية صوت فاه به نوري باشا السعيد، وتلقفه مصطفى النحاس باشا وايدته المستر انطوني ايدن فهو جراب أدخلت فيه سبعة رؤوس: اليمن، ونجد<sup>(٢٥)</sup> والعراق والشام ولبنان ومصر وشرق الأردن بسرعة عجيبة في وقت كانت سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي وشرق الأردن تحت الانتداب البريطاني والعراق ومصر تحت المعاهدتين الساريتين الآن. فالدول العربية كانت حينذاك في قيود انتدابية وعهدية، ما عدا اليمن ونجد، فانهما كانتا حرتين، وفي هذا يتحلى للأمة العربية التسابق العجيب بين دولها السبع. سياق مقيد ومطلق: اما قيد الاحتلال واما قيد عهد واما قيد جهالة. وفي نظر الدول نفسها نعم الحجاب الساتر لما يريدون كتمه. ونعم التمدح غير المجدي بما يريدون اذاعته وظن الغرب الراضي عن هذه الجامعة انها ستكون خير اداة لدوام الانتداب ودوام الاحكام العهدية وان يترك لغيري تغيير هذه الظنون."<sup>(٢٦)</sup>

لم يطل الأمر بهذه الجامعة التي خرجت الى الوجود في ٢٢ من آذار ١٩٤٥ لتلقى امتحانها

(٢٤) فيها حقق الهجوم البريطاني في العلمين نصراً ساحقاً على قوات المحور وانهى التهديد الالمانى لمصر. وفيها تم انزال الجيوش الاميريكية - البريطانية في شمال افريقيا وفي كانون الثاني من السنة نفسها بدأت اولى انكسارات الجيوش الالمانية بمعركة ستالينغراد الفاصلة التي حولت مجرى الحرب هناك. كما لاحق اولى الانتصارات على اليابان في الپاسيفيك وآسيا.

(٢٥) أغفل ذكر «العربية السعودية» بعنوانها الرسمي عمداً لأن فيه اعترافاً ضمناً بمشروعية سيطرتها على الحجاز. لكنه كان مرغماً على ذلك عند توقيعه الميثاق بانشائها!

(٢٦) ليس هناك ما يؤيد زعم الملك عبدالله بان أصل فكرة الجامعة العربية كان لنوري السعي. وما لدينا في هذا الصدد انما يشير الى اهتمام هذا السياسي بمشروع الهلال الخصيب. وهو لم يتكتم به عندما دعاه النحاس في الثالث من تموز ١٩٤٣ لاقتناعه بجدى قيام الجامعة. فقد ظل السعيد متمسكاً بفكرة الهلال الخصيب وحاول بيعها لزميله المصري. اي باسبوعية مشروع وحدة سورية والعراق قبل قيام الجامعة العربية. وحاول ايضاً اقناع البريطانيين هناك ايضاً اثناء مقابله نائب وزير الدولة البريطاني والمستشار الشرقي للسفارة. الا ان مساعيه لم تثمر. وأضطر أخيراً الى النزول عند رغبة البريطانيين. والاستجابة لعواطف المصريين. [للاستزادة راجع كتاب اللورد بيردود: نوري السعيد دراسة في الزعامة العربية.

لندن ١٩٥٩ الص ١٩٨-٢٠٨ Lord Bird wood: Nuri As-said: A Study in Arab Leadership.

الأكبر بقرار التقسيم وبه بدأت سلسلة اخفاقها في تقديم أي شيء مفيد للأمة التي كانت اولى اهدافها توحيدها ولم شملها والأخذ بيدها لتتوقل سلم الرقي والنهضة الاجتماعية. كانت بالأحرى جامعة رؤساء الدول العربية وميدان سباقهم في صياغة القرارات البليغة الفاشلة وساحة نزال لهم يتبادلون فيها الشتائم والتهديدات حيناً والعناق والقبلات حيناً.

واذن كانت فلسطين المشكلة المركزية للجامعة حينذاك.

اعلنت مقاومتها قرار التقسيم، الا ان قرارها لم يوضح كيفية المقاومة. وبقي الأمر غامضاً حتى نهاية الانتداب في مايس (ايار) ١٩٤٨ ثم ارسلت جيوشها في آخر لحظة.

كانت الحكومة المصرية برئاسة محمود النقراشي (الصدوق) مترددة كثيراً في زج الجيش المصري، ولم تفعل ذلك الا في نيسان وبعد الحاح فاروق واصدر الأمر للجيش بوصفه القائد الأعلى له.

لم يكن هذا الجيش مستعداً لقتال خارج حدود بلاده. ويتوالي الهزائم زاد التذمر بين ضباط الجيش. واتسعت عصبة السادات - عبدالناصر البارعة وزادت تنظيماً.

كانت بريطانيا تشجع من طرف خفي دخول الجيش المصري أراضي فلسطين أي اشراك مصر في الحرب. وهناك اسباب عدة منطقية يقف في رأس قائمتها زيادة اعتماد مصر على بريطانيا في تجهيزها بالمواد الحربية وارتيكانها الى قواتها في عالم الدبلوماسية. ومنها ايضاً امتصاص النقمة الخالدة على المعاهدة والتواجد العسكري البريطاني في القناة والقواعد الأخرى وما يتخللها من انفجارات شعبية وحوادث عنف<sup>(٢٧)</sup>.

في ليالي ايار ١٩٤٨ لاحظ المقدم (البكباشي) جمال عبدالناصر ضابط ركن لواء المشاة السادس، كغيره من الضباط الآخرين - باستغراب ودهشة انتقال كميات ضخمة من المعدات الحربية البريطانية في القناة وتسليمها للجيش المصري وهو طريقه الى فلسطين فكتب:

"كان غريباً ان يكون الانكليز في قناة السويس، وهم الذين يفتحون لنا الطريق

(٢٧) كانت وسيلة كل حكومة مصرية للبقاء الوعد بالتفاوض الالغاء المعاهدة ١٩٣٦. او تعديلها على الأقل. وفي ٩ شباط ١٩٤٦ اثر اعلان حكومة العمال البريطانية عن رغبتها في التفاوض. قدحت شرارة مظاهرات عنيفة جداً وخرج طلاب المدارس يطالبون بالغاء الفوري الناجز واصطدمت الشرطة بالمتظاهرين ووقع عدد من القتلى والجرحى. استقال النقراشي على أثرها وخلفه (اسماعيل صدقي) من الاحرار الدستوريين. ولم تسفر مفاوضات عن شيء وواجه تظاهرات عنيفة مماثلة وحوادث شعب واستقال في كانون الاول وعاد النقراشي بحكومة ائتلاف من السعديين والاحرار بوعد لاستئناف المفاوضات.

على قناة السويس، وكانت قاعدتهم الكبيرة هناك وراءها ونحن نتقدم عبر سيناء الى فلسطين وقد اثار دهشتي انا كنا نتقدم لنحتل مواقع الفرقة الثانية البريطانية حول غزة في نفس الوقت الذي كانت فيه هذه الفرقة تخلي مواقعها عائدة الى مصر.

كانت الاحكام العرفية قد اعلنت اثر سوق الجيش الى فلسطين على غرار ما تم في العراق واصدرت حكومة ابراهيم عبدالهادي (السعدي) قراراً بغلق مكاتب الاخوان المسلمين وتحريم نشاطهم لكنها بقيت ناشطة فعالة بالغطاء الذي اسبغه عليها الوفد والعناصر السياسية المعارضة الأخرى.

في اواخر العام ١٩٥٠ فاز الوفد بأغلبية مقاعد البرلمان وعاد النحاس الى الحكم وبعودته عادت المعاهدة القضية المركزية لحكومته ولمصر وتبددت احلام السيادة الفاروقية على العالمين العربي والاسلامي بطريق القضاء على اسرائيل ومعها اختفت اصوات العروبية القليلة التي حاولت ان تجتهد لها سامعين خلال السنتين المنصرمتين وتركز امل فاروق وحكومته في المحافظة على لقب (ملك مصر والسودان) عن طريق تعديل المعاهدة.

لا ادري كم تصدق قولة كارل ماركس عن حرب ١٨٥٥، على البلاد الناطقة بالعربية بنتيجة حرب فلسطين وكم قامت بالمهمة التي غزاها للحروب بصورة عامة:

"مظهر الحرب، مظهر منعش فهي تعجم عود الشعب ومثلما تتحلل المومياوات وتتفكك فور تعرضها للجو، كذلك كان عمل الحرب فهي تلفظ حكم الموت على كل الأجهزة والهيئات والمؤسسات التي لم تعد تملك حيوية وقوة دافعة."

الا أن ما حصل في مصر بعد الحرب - مثلما حصل في البلاد المشاركة الأخرى كان بعكس ذلك تماماً. فالاحداث العنيفة التي هزت كيانات تلك البلاد السياسية لم يكن لها أي مظهر منعش ماركسي ولم تتفكك المومياوات ولم تصب الاجهزة والهيئات والمؤسسات بضرر والمعروف عن ماركس وان قرأ آثاره قراءة تمحيص وحياد أنه يقفز في احيان كثيرة الى التعميم بناء على حدث معين واحد. على اني اراه قد اصاب كيد الحقيقة في رأي كل من وجد في الانقلابات العسكرية والهزات الدموية التي شملت معظم البلاد الناطقة بالعربية خلال الاعوام الثلاثين والخمسة التي تلت هذه الحرب. مظهراً منعشاً، حكم على الانظمة التي قضت على كل آثار الديمقراطية الليبرالية ووضعت قيم العبودية للحكم الدكتاتوري والتوتاليتارية في معاجم ابناء الأمة العربية. تلمع وتبرق عند تعرضها للجو.

واستغرقت المفاوضات في تعديل المعاهدة أربعة عشر شهراً دون نتيجة<sup>(٢٨)</sup> وعندها قررت الحكومة المصرية إلغاء المعاهدة من جانب واحد فضلاً عن الغائها اتفافية الحكم الثنائي على السودان في ١٩٥١ ولم يكن لهذا اثر في اخراج القوات البريطانية من قواعدها في القناة وترك أمره لما ادعي في حينه (بحرب الأنصار) وهي غارات يقوم بها عصابات مسلحة غير حكومية على منشآت الجيش البريطاني، وعنصر الغرابة هنا هو تبني هذا الأسم من قبل الدوائر الرسمية ووسائل الاعلام عندما أعلن بأن تواجد هذه القوات الاجنبية غير قانوني من وجهة نظر الدولة، فهو جيش محتل ومن المقتضى أن تستخدم الدولة قواتها العسكرية لاجراجه، على نحو ما فعل رشيد عالي والضباط الاربعة في مايس.

والادعى الى الاستغراب هو ان عناصر المقاومة هذه كانت تتألف من تلك العناصر التي دأبت على التظاهر واثارة الشغب والقتال ضد الحكومات المتعاقبة بغية ازاحتها وعرقلة اعمالها فما هي ذي الآن تعتبر تلك العمليات واجباً وظيفياً وكفاحاً مشروعاً، والسبب من هذا صعب عليها السيطرة أو وضع حدود واصول لها. وكان عليها ان تشجعها لتلقي العون من رجال الادارة وضباط الجيش والصحافة. على ان هذه الغارات لم تترك دون عقاب فكان ثم اشتباكات دموية وحملات تأديب بريطانية. القت بتلك العناصر الى الشارع لتقتل وتدمر وتحرق وتنهب في ٢٥ من كانون الثاني ١٩٥١ وكان بها نهاية الوفد ثم نهاية الملكية بعدها باشهر قلائل<sup>(٢٩)</sup>.

وغاب الوفد عن الساحة وذهبت ريحه. وإن ظل يدعي بأنه يمثل الأمة المصرية واعتبرته بريطانيا كذلك.

لم تؤمن الاحزاب السياسية ورجال الطبقة الحاكمة في مصر، بالدستورية ولا بالمباديء الديمقراطية ايماناً حقيقياً، ومثلما كانت الحال في سورية والعراق لم يكن حرصها القولي على مظاهر لها معينة، الا بقدر ما يمكن ذلك الحرص من البقاء في دست الحكم أو الوصول اليه، او بقدر ما يمكن استخدامه سلاحاً في لعبة الصراع على الحكم. لم يكن عند أي فريق منهم

(٢٨) من شهر آذار ١٩٥٠ الى شهر تشرين الاول ١٩٥١.

(٢٩) على أثر قرار القيادة البريطانية طرد البوليس ورجال الدرك من مدينة الاسماعيلية، بغية وقف مساعدات هؤلاء للعناصر التي كانت تهاجم الجنود — وتكثاتهم. رفض قائدها الانصياع لأمر القيادة البريطانية بناء على أمر صريح من وزارة الداخلية فشنت القوات البريطانية حملة على تكتات البوليس ودمرتها وقتلت زهاء ٥٠ شرطياً وجرحت اضعاف ذلك. وفي اليوم التالي قامت عناصر التخريب باستباحة القاهرة ودمر خلال حوادث العنف والشغب مئات المنازل وفقد عدد كبير من الاجانب والمصريين ارواحهم. وأعلنت الاحكام العرفية ثم انزل الجيش الى الشارع وفي اليوم التالي أقال فاروق مصطفى النحاس.



رغبة في أن يجعل من الديمقراطية هدفاً، ولا من الدستورية كائناً حياً فاعلاً.

ولا يصدق الجيل الذي نشأ في تلك العهود الانقلابية العروبية والاشتراكية القومية، والدكتاتورية العسكرية وتوتاليتاريات الحزب العقائدي الواحد، ما يتحدث به اولئك المسنون الذين ادركوا العهدين عندما تفرض المقارنة نفسها. فقد اهل الكتاب الثوريون الجدد ومؤرخو هذه النظم الحديثة اطناناً من التراب والنفايات والقاذورات فوق العهود السابقة - بكل عبقرياتهم ومواهبهم التي وفرتها الثورة. واسوء ما فعلوا طراً هو محاولة إلقاء الذنب بعثراتها وقصورها على كل شيء يخطر بالبال ما عداها وقد بدأوا بعملية التزييف منذ هزيمة العام ١٩٤٨ ووصلوا في تحليلهم في ان الخذلان كان نتيجة مؤامرة امبريالية واسعة النطاق شاركت فيها الحكومات الغيبية.

فايسلاف سيزويت شخص عادي من اهالي موسكو، علق قائلاً على ظاهرة الدفء التي شملت روسيا خلال الشتاء الماضي (١٩٩٦) (لم ير له مثيل خلال مائة عام): "ليست روسيا ان لم يسقط الثلج ففي الايام الأولى (يقصد عهد الاشتراكية) كنا سنظن ان ذلك من عمل وكالة الاستخبارات الامريكية CIA" (٣٠).

وقد رأينا من الكتب التي ألفها مشاهير ادباء النصف الأول من القرن العشرين المصريين ومن عدد آخر خنقت اصواتهم ايام الحكم الناصري. كم كان حنين المصريين الى العهد الذي سبقه، ويتجلى الأسف والحنين في محاولة النظام الحالي طمس معالم ثورة ٢٣ يوليو وطى صفحة آثارها السياسية المهلكة. ولا ادري من قال هذا:

"إن كان فاروق بكل عمره وطعمه. وفؤاد وزغلول والنحاس قد عاقبوا المصريين بالوسط والمقرعة. فان ضباط الجيش الذين خلفوهم، قد عاقبوهم بالعقارب."

قصة ثورة يوليو وكيفية الإعداد لها كتبت فيها عشرات الكتب فضلاً عن مذكرات دونها بعض صانعيها ومهندسيها والمشاركين فيها. ولا يسعنا ان نمر بمرحلة التحضير والاستعداد لها أو أن نظويها طياً لئلا يغمض على الفهم الكثير من ارهاصاتنا التالية. لا يناقض السادات احد مناقضة جوهرية في زعمه على ما يبدو بان جمعيتهم جمعية الضباط السرية اتخذت في العام ١٩٤٩ خطوة هامة بتأسيسها لجنة تنفيذية مؤلفة من اعضاء خمسة اضيف اليهم مثلهم فيما بعد (٣١) وتألف بناء الجمعية من خلايا وكانت قليلة العدد. والمعول

(٣٠) مجلة نيوزويك «Perspection» رقم ٢٣ كانون الاول ١٩٩٦.

(٣١) الخمسة الاوائل هم: جمال عبدالناصر، وكمال الدين حسين، وخالد محي الدين وحسين ابراهيم =

عليه وهو ما اثبتته دائرة المعارف البريطانية أن مجموع الاعضاء لم يتجاوز (٨٩) ضابطاً ذا رتبة (٣٢).

في تشرين الأول ١٩٥٠ وزع اول بيان للجمعية التي اطلقت على نفسها اسم الضباط الأحرار وقد ظهر التوقيع في ذيله (٣٣). في هذا البيان وفي البيانات اللاحقة لم يكن ثم ما

= وعبدالمنعم رؤوف. والخمسة الملتحقون هم: جمال سالم انور السادات وصلاح سالم وعبدالحكيم عامر وعبداللطيف بغدادي [ومن الضباط الأوائل البارزين الذين لم يضموا الى اللجنة التنفيذية [ثروت عكاشة، وعلي صبري ويوسف منصور صديق] كان اثنان من العشرة الأوائل برتبة مقدم وستة برتبة رائد واثنان برتبة نقيب واعمارهم تتراوح بين ٢٨ و٣٢ سنة. وذكر السادات وجود تنظيم سري آخر سابق لرئسه الرائد مصطفى كمال صدقي (أشار اليه لأجل التعريف بانه الزوج الرابع للممثلة السينمائية والراقصة (تحية كارويكا) وقال ان التنظيم هو مجموعة ارهابية تتألف من ٢٣ ضابطاً ونائب ضابط ثم أنظم التشكيل في ١٩٤٨ الى الاخوان المسلمين في حرب فلسطين وكان مشاركاً في الاغتيالات السياسية المنسوبة الى الاخوان خلال ١٩٤٨-١٩٤٩. قبض على رئيسهم وهو نائب ضابط وحكمته محكمة عسكرية بالسجن سبع سنوات وطرده من الجيش بتهمة حيازته اسلحة ومفجرات. الا ان الملك فاروق سارع الى اصدار عفو عنه واعادة الى الجيش ثم ضمه الى «الحرس الحديدي» الذي كان قد شكله لمواجهة عنف الاخوان المسلمين. في ١٩٥٤ حكم عليه بالسجن خمس سنين بتهمة انتمائه للحزب الشيوعي المصري.

(٣٢) في (الرئيس The Boss) لروبرت سان جون Robert st John ص ١١٠. نيويورك ١٩٦٠. يقدر عدد ضباط تلك الخلايا بثلاثمائة. وفي مذكرات محمد نجيب «مصري مصر» نيويورك ١٩٥٥. ص ١٠١. N. Na. gib: Egypt's Destiny يقدرون ببضع مئات ويقدرهم أندرو تولي Andrew Tully في كتابه دائرة الاستخبارات المركزية القصة الدفنية CIA: The Inside Story. نيويورك ١٩٦٢. ص ٢٠٤ بحوالي سبعمائة ضابط.

(٣٣) الصدفة وحدها هي التي كسبت لهم هذه الصفة ولسائر الضباط الآخرين في انقلابات عراقية وسورية ويمينية وغيرها نسجاً على المنوال المصري. يتحدث خالد محي الدين وكان اليساري الوحيد بين كتلة الخمسة الاوائل، عن هذه الصدفة الغريبة، فيقول انهم احتاجوا الى شراء آلة (رونو) لطبع منشورهم فقامت بشرائها «الحركة الديمقراطية للتحرير الوطني» وهو الاسم الذي كان الحزب الشيوعي المصري يتستر به وكان للحركة دورها البارز في التنظيم وصياغة البيانات وطبعتها. بعد ان تُعرض على عبدالناصر وقلما كان يعدل فيها. ثم ان «الحركة» انابت الملازم الأول جمال منصور لكتابة البيانات. يقول محي الدين: عندما انجز (منصور) كتابة البيان الأول. أدركته الحيرة في اختيار الاسم الذي يذيله به. ثم تفتق ذهنه عن مصطلح «الضباط الاحرار» فضربه على الآلة الكاتبة وأسرع عبدالناصر يعلن استحسانه وموافقته الحماسية على هذا الاختيار. يقول (محي الدين): ان منظمة الحزب الشيوعي تطوعت لتوزيع البيانات وكتابة عناوين المظاريب التي طبعت على الآلة الكاتبة. وكان الضباط يخشون اقتضاح امرهم لو كتبوا بخط اليد. ومما يذكره خالد بالمناسبة انه رتب موعد لقاء لعبدالناصر مع سكرتير عام الحزب الشيوعي الذي عرف اسمه السري (الرفيق بدر) وقد خرج عبدالناصر من اللقاء منبهراً ومعجباً بشخصيته وحديثه وسألني: «مين الرفيق بدر ده» قلت هو امين السر العام ل(حذتو) فسأل بيتشغل ايه؟ فكررت الجواب وكرر الجواب: قلت ببساطة انه ميكانيكي فهتف عبدالناصر: «ميكانيكي؟ يعني انك ممكن تبقى عضو في الحزب ده وتتلقي الاوامر من ميكانيكي؟ أجبت ان المسألة ليست مسألة اوامر وانما هي مسألة الاقتناع بفكرة». وبقيت مسألة «الميكانيكي» عالقة في ذهن عبدالناصر وظل يردد دوماً احياناً باستنكار. وحتى بعد =

يشير الى نية القيام بانقلاب او تغيير حكومي بل عكست فحسب تضايق الضباط من الوضع وسوء حال الجيش وتردي اوضاعه والعار الذي ركبه في فلسطين وافتقار البلاد النزاهة والعدالة في رجال الحكم وبذخ الارستقراطية على حساب فقر الغالبية المربع ولم يكن فيها مطالب واضحة بصدد الوضع الداخلي والعلاقات الخارجية. بيان خطابي يضرب على وتر العاطفة حفل بالعبارات الحماسية المنمقة ولم تحد البيانات التالية عن هذا الخط<sup>(٣٤)</sup> حتى قيام

= الثورة وفي اجتماعات مجلس قيادة الثورة. ومرة قال مشير الي «ده زعيمه ميكانيكي!» [كان الاسم الحقيقي لسركتير الحزب سلمان الرفاعي وهو فعلاً ميكانيكي في القوة الجوية المصرية].  
(٣٤) دونك نموذجاً من البيانات:

«ايها الضباط، كنا نعتقد ان المحنة التي اصابت البلاد في حرب فلسطين أعطت درساً قاسياً للمسؤولين لينهضوا بالجيش ويعملوا على تدريبه وتسليمه ويعدونه (كذا) عن تلك المظاهر الخادعة كالاشتراك في الحفلات واقامة الزينات والعالم اليوم تمر به المحن والخطوب فتتهز اركانه. وتستعد الامم لكل طارئ وتفق الشعوب والحكومات الى كل نافع، إلا نحن في مصر حيث بصّر سياستها واولي الأمر فيها ان يعيشوا عيش الدعة والبهجة فيقيموا الاحتفالات والمباهج بمناسبة وغير مناسبة عليها تنسى الشعب ما هو عليه من جوع وعري وحرمان. هل يليق ببلد يعاني ابناؤه سكرات الموت من المرض والانحلال انتقام فيها (كذا) الافراح والزينات وتنفق الاموال بغير حساب بمناسبة سعيدة؟ اليس من الأسعد ان تنفق هذه الاموال لحياء هؤلاء الموتى من العدم؟ لقد اجبروكم على دفع اموال طائلة لهذه المناسبة من مرتباتكم التي انتم في أشد الحاجة اليها في هذه الظروف العصيبة تزلفاً من كبار الضباط للحصول على الرتب والنياشين (الايوسمة) ولو لا تدمركم ومعارضتكم لهذه الفكرة الفاسدة لما رد اليكم ما جمعه من اموال وتصدمت الهدايا النفسية ولا أقيمت المآدب الفاخرة والحفلات الصاخبة قرباناً للمناسبة السعيدة...».

وجاء في المنشور المؤرخ في شباط ١٩٥٢ وهو من أواخر ما وُزِع.

[لاحظ الاسلوب الواضح الذي كانت تكتب به بيانات الاحزاب الشيوعية في البلاد الناطقة بالعربية ابان قيام الحرب الباردة]:

«... توالى مؤامرات الاستعمار الانكلو اميريكي في الفترة الأخيرة في مصر بغية القضاء على الحركة الوطنية وصرف الانتظار عن الكفاح المسلح ضد الاستعمار في القتال الى المشاكل الداخلية في القاهرة. فبعد ان أعلنت حكومة الوفد قطع المفاوضات والغاء المعاهدة ورفض حلف الشرق الاوسط الرباعي الاستعماري وتكوين الكتائب الوطنية وبعد ان اتقدت جذوة الوطنية في البلاد حتى كادت مصر ان تصل الى حقوقها كاملةً دبر الاستعمار واذنابه انقلاب ٢٦ يناير الماضي (يقصد حريق القاهرة الذي نوهنا به)... وجاءت حكومة علي ماهر... وكان الاستعمار والخونة المصريون يأملون الكثير في علي ماهر... بتسليمه تسليمياً كاملاً بمطالبهم بقبول الحلف الرباعي وحلّ البرلمان واعتقال آلاف الوطنيين واستخدام الاحكام العرفية... لكن رجاءهم خاب فيه... وكان ابد اذن من انقلاب جديد لتحقيق التوايا الاستعمارية بالقيام بحركة تطهير واسعة بحجة رص الصفوف قبل مواجهة قوى الاستعمار. ووصل الهلالي (نجيب) الى الحكم وأعلن بصراحة ان مهمة وزارته الرئيسية هي التطهير والقضاء على الفساد متناسياً ان مصدر الفساد الاكبر هو الاستعمار وانه لا يمكن القضاء على الفساد الداخلي الا اذا قضي على اسبابه ومصدره... ان اهداف الضباط الاحرار هو محاربة الفساد بكل مظاهره وهو ضد الرشوة وضد المحسوبية وضد الاستغلال النفوذ... لكن يجب ان لانعمل لهذا الا بعد القضاء على الاستعمار واي اتجاه آخر هو خيانة وطنية.

حرب الانتصار حين تبدلت اللهجة.

ويتفق كل من كتب، على ان السفارة الامريكية كانت تتابع صفحات الانقلاب وهي باتصال دائم و(علي صبري) وهو ضابط الاتصال كان يطلعها على كل ما يستجد من انبائها ويعزم الضباط الاحرار على احداث الانقلاب والاطاحة بالملك مؤكداً صيانة حياته وصيانة املاك الاجانب ومصالحهم بل قام السفير الامريكي نفسه بالقضاء على تردد فاروق والرضا بتنازله عن العرش لابنه الطفل كما قام بالدور المزدوج في اقناع البريطانيين بعدم التدخل لمصلحة الملك وعدم التحرك للقضاء على الانقلاب كل ذلك كان معلوماً ولم ير الانقلابيون حرجاً في الاعلان عنه. ولم يكن بالغريب والحالة هذه أن يرتاب السوفييت في الثورة فعرفوه بانه انقلاب قام به جماعة من الضباط الرجعيين المرتبطين بالولايات الامريكية<sup>(٣٥)</sup> كانوا يدركون حاجتهم الى ضابط كبير يؤمرونه عليهم ويصدرون باسمه بياناتهم واوامرهم بعد الاستيلاء على السلطة قدر ما يدركون بان انقلابهم سيمنى بالفشل لو اعلنوا عن انفسهم برتبهم الصغيرة في جيش يتألف من ست فرق ويعج بالجنرالوية والقادة ذوي الرتب العالية فوجدوا بغيتهم في اللواء (اركان حرب) محمد نجيب<sup>(٣٦)</sup> الذي امره عليهم ليكون واجهة لهم، وليخلق لهم بعد سنتين مشكلة التخلص منه.

(٣٥) كان السوفييت مصيبيين في نقطة واحدة على الاقل: [الانسكلوبيديا الروسية طبعة ١٩٦٢ ج ١٥] «من كان يدري بما سيؤول اليه الانقلاب في يوليو لولا الدعم الاميريكي والجهود التي بذلتها الدبلوماسية الاميريكية مع بريطانيا للحيلولة دون محاولة لاحتباط الانقلاب (كما فعلت في ١٨٨٢) ويعد ان الكد الانقلابيون للسفارة البريطانية بانهم سيحافظون على بنود المعاهدة يطبقونه نصاً وروحاً وان انقلابهم هو داخلي محدود الاهداف. من مظاهر السلطة التي كانت السفارة الاميريكية تمارسها على الانقلابيين اصرارها على توديعهم الملك المتنازل بكل المراسيم الخاصة ومظاهر التكريم ولهذا ارسلوا رأس الانقلاب محمد نجيب الى الاسكندرية فأنطلق يسابق الريح ليؤدي التحية الأخيرة للملك وهو يستقل يخته الخاص حاملاً معه ٤٥٠ صندوقاً مملوءاً بالنفائس والاموال العامة دون عائق ودون تفتيش.

(٣٦) في هذا العسكري توفرت كل الخصائص التي كان ينشدها الانقلابيون من رئيس يطلعون به على الشعب. ولد محمد نجيب في ١٨٩٩ أو ١٩٠١ في الخرطوم من ام سويدانية ونقيب مصري قتل اثناء هجوم المهدي قبل ساعتين من مقتل الجنرال غوردون حاكم السودان. وفي العام ١٩٤٨ كان برتبة عميد اثناء حرب فلسطين وبرز فيها وفي ١٩٥٠ رقي الى رتبة آمر لواء. وعرف بشجاعة وصدق وتواضع تزينها ضحكة «صادرة من القلب» مع اربعة جراح نالها اثناء المعارك. عرفه الانقلابيون من مقالات كان يكتبها في مجلة (روز اليوسف) بالاسم المستعار [الجندي المجهول] حول سوء الادارة في الجيش وسوء التخطيط الذي رافق حرب فلسطين. في العام ١٩٤٩ فضل عليه الملك (حسين سري عامر) في قيادة سلاح الحدود. فتأثر كرامته وهم بالاستقالة الا أن عبدالناصر (كما شاع) ألح عليه بالبقاء ورتب امر ترشيحه فلم يعبأ. وأدعى فيما بعد انه كان رئيساً حقيقياً لكتلة الضباط الانقلابيين منذ ١٩٤٩ لكن ليس هناك دليل يؤيد ادعاءه وأدعى أيضاً أن اجتماعاً للضباط «الاحرار» جرى في منزله يوم ١٩ يوليو الذي تقرر فيه تعيين يوم الانقلاب (لم يؤيده احد في هذا).

وكما ظلوا ردحاً من الزمن يخشون الاعلان عن انفسهم ويتسترون تحت رتبة هذا القائد، ظلوا طوال سنتين يتحاشون اطلاق كلمة (ثورة) على انقلابهم. كان بيان الانقلاب يتحدث عن نهضة وعن حركة الجيش المباركة ضد الفساد واخلال النظام والأمن وعن تصحيح الأوضاع<sup>(٣٧)</sup>. وكالعادة اخرج من الجيش كل من يفوق محمد نجيب رتبة وقدماً وفي اوائل آب احدثوا وساماً سمي نوط التحرير يمنح لكل ضابط ونائب ضابط كان في الخدمة الفعلية عند حصول الانقلاب بهدف اشراك الجيش كله في عملية الانقلاب. ان لم يكن فعلياً فأديباً.

وتكررت صفة حركة الجيش في كل البيانات التالية كالأمر الانذاري الصادر في ١٣ تشرين الثاني: "من القائد العام للقوات المسلحة بوصفه قائداً لحركة الجيش" كما تكرر الاصطلاح في ١٨ كانون الاول في الأمر القاضي بحل كل الاحزاب السياسية. كما ظهر أيضاً في الدستور المؤقت الصادر في شباط ١٩٥٣ عند تعداد السلطات الممنوحة لـ(قائد الثورة) وفي الشهر عينه ظهر مصطلح مجلس قيادة الثورة.

\*\*\*

حقق ادباء ومفكرو وشعراء مصر خلال العقود الاربعة التي سبقت انقلاب يوليو سيادة ذهنية على جميع البلاد الناطقة بالعربية. وانتشر منتوج قرائحهم فيها وكانت سيادة الميدان وصاحبة الفضل الكبير في ايصال ثمار الثقافة والفكر الغربيين بكل ما أخرجته المطابع المصرية من الترجمات في شتى الفنون والعلوم<sup>(٣٨)</sup>.

كانت مصر قد حفظت اللغة العربية من الاندثار بشهادة المؤرخ العظيم ابن خلدون نفسه:

"لما تملك العجم في الديلم، والسلجوقية بعدهم بالشرق، وزناته والبربر بالمغرب وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية، فسد اللسان العربي وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين حفظ بهما الدين وسار على ذلك مرجحاً لبقاء اللغة العربية المصرية من الشعر والكلام الا قليلاً بالامصار، فلما ملك التتر والمغول بالشرق ولم يكونوا على دين الاسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية على الاطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك الاسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وارض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد

(٣٧) كتبه عبدالناصر والسادات واذاعه عبدالحكيم عامر وللاستزادة راجع (قصة الثورة كاملة) القاهرة ١٩٥٦.  
(٣٨) واشهرها دار الهلال، دار المقتطف. المطبعة العصرية دار الكتب المصرية وعدد آخر لا يحصى من دور النشر القاهرية.

الشمال وبلاد الروم وذهبت اساليب اللغة العربية من الشعر والكلام، الا قليلاً يقع تعليمه صناعياً بالقوانين المتدراة من كلام العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك. وربما بقيت اللغة العربية المصرية بمصر والشام والاندلس بالمغرب لبقاء الدين طلباً لها فانخفضت بعض الشيء واما في ممالك العراق ووراءه فلم يبق له اثر ولا عين حتى ان كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي وكذلك تدريسه في المجالس والله اعلم بالصواب.<sup>(٣٩)</sup>

إلا أن هذه الغزوة الثقافية الفكرية أعاققت الحركات الثقافية الفكرية في البلاد الناطقة بالعربية وقتلت القوى الخلاقة فيها. وبدا ادباء ومفكرو وشعراء تلك البلاد في الدرجة الثانية من التصنيف أدنى من صحف القاهرة. كان المثقفون هنا يتابعون بلهفة تلك المناقشات والمناظرات السياسية التي تملأ صحف الاحزاب والجرائد المصرية والمجلات واسعة الانتشار. ان شئنا وان لم نشأ فقد اضحى هؤلاء المعلمون والمفكرون المصريون في الواقع - معلمي الجيل الجديد الناطق بالعربية والقبلة التي يتجه اليها المثقفون ورجال السياسة والاجتماع الأمر الذي حال دون بروز معالم ثقافية وفكرية محلية يعتد بها او قد تكون موضع مضاهاة حتى لبنان نفسه، فانه ما كان ليقوى بمطابعه ونشراته الدورية وصفحه على نزول حلبة المباراة.

كاد كل هؤلاء الادباء والمفكرين والكتاب يمتهن الكتابة في الصحف والمجلات الدورية الى جانب التأليف. وكاد كلهم يدينون لها بشهرتهم. والى ولوج باب الاحتراف والتفرغ. والصحافة هي السياسة وكلهم كانوا ذوي انتماءات سياسية وعقائدية يعملون في صحف ومجلات سياسية مستقلة او تابعة لحزب من الاحزاب. اسما لمعت في تاريخ الفكر ووضعت بصمات لا تمحى في عقول واتجاهات جيل الثلاثينات والاربعينات والخمسينات. ومعظم هؤلاء حصل على تعليمه العالي في بلاد الغرب او في مصر فتزودوا بالثقافة الغربية فضلاً عن الثقافة المحلية وكتبوا بعربية سليمة وباساليب قوية محكمة رشيقة صارت مثلاً يحتذى لادباء العربية. كلهم نشأوا في احضان سياسة البلاد وخاضوا عباها وعالجوا الشؤون العامة وتصدوا للمشاكل الاجتماعية بجرأة ودون خوف. ورغم ان قلة منهم لوحقت وضويقت<sup>(٤٠)</sup> في ارزاقها

(٣٩) يعتبر ابن خلدون [١٣٣٢-١٤٠٦] من افذاذ المؤرخين المفكرين لم يقم له نظير في جرائعه على قول ما يراه صحيحاً وهذه الفقرة هي جزء من الفصل الثاني والعشرين من مقدمته الشهيرة لتاريخه العام الذي كتبه في القاهرة. واللغة المصرية التي يقصدها هي لغة القرآن.

(٤٠) لا اذكر من تعرض للملاحقة القانونية والمحاكمة والسجن غير الكاتب الكبير عباس محمود العقاد. الذي اصدرت محكمة جزائية حكماً باسابيع سجن لتجاوزه حدّ التقذير ما ما أعتبر قذفاً صريحاً وكان ثمرة سجنه كتب عنوانه «في عالم السود والعثور» وصف فيه تجربته السجينة. واذكر مما اذكر الاعتداء =

الا انه لم يوضع قيد يذكر على اقلامهم. فالطبقة الحاكمة رغم عدم اختلافها في الجوهر عن الطبقات الحاكمة في لبنان وسورية والعراق اعني في جشعها واستغلالها النفاذ وتهافتها على الحكم. الا انها كانت من غير الطينة التي جبل بها اولئك فهم لم يكونوا عسكريين سابقين من ضباط الجيش المصري او العثماني ولم تفرضهم سلطة اجنبية ومعظمهم انحدر من اسر معروفة او موسرة. ورثت العمل السياسي كإبراً عن كابر، او من حملة الشهادات العالية في القانون والهندسة والطب وعلوم الاقتصاد والاجتماع ظلت بلادهم تحت الحماية الاجنبية وكادت صلتها تكون مقطوعة بالحكم العثماني قبل أن يرى معظمهم نور الحياة. لذلك لم تكن تضيق صدورهم بالنقد الموجه اليهم حتى كادت الصحف اليومية الكبرى والمجلات الشهيرة ذات التاريخ الطويل - تكون محصنة من قرارات التعطيل او الالغاء - قرارات كانت تصدر بسهولة وكثرة تفوق الحصر في العراق وسورية من قبل الحكومات المتعاقبة.

ليس في الامكان قط ان ننكر هذه الحقيقة: كانت صدور حكام مصر المدنيين واسعة لاقبالت النقد الشديد الموجه اليهم. كان ثم مفاهيم ديمقراطية واضحة لحرية القول والتعبير لايجراً الحكام على تخطيها.

توجه قادة الفكر السياسيون والاعلانية من الادباء للكتابة في الفكر والأدب باوسع رحابه وتحدثوا عن الحريات السلبية وصنوف البؤس الذي يعانیه سواد المصريين وشقاء فلاح الأرض الأجير والاعتداءات على الدستور والمبادئ الديمقراطية، وعن استقلال مصر وتاريخها المجيد ولم يؤثر عنهم أي اتجاه قومي عروبي، بل تحدثوا عن المصرية والمصريين والوطنية والوطنيين. وناضل كثير منهم باقلامهم ضد المعاهدة واثوا روحاً متوثبة في الاحزاب الحاكمة، زادت قوة وصلابة في المطالبة بالحرية وجملاء الاجنبي، كان هناك اجماع فكري على هذا، لم يجرأ حزب واحد وكتلة على خرقه بعقد صفقة ذليلة مع البريطانيين، كان تأثير حملة القلم ورجال الفكر ورسل الثقافة المصريين عظيماً جداً بدا في احجام الطبقة الحاكمة عن الرضا بأقل من الجملاء التام والغاء المعاهدة لكن لم يحلم أي فريق منهم بقيام حركة في الجيش لتطيح بالملك الكريه ثم بالمملكة ثم بالطبقة الحاكمة وبدت لهم لأول وهلة حركة شبيهة بتلك التي حصلت قبل سبعين عاماً وبمطاليب شبيهة بتلك وهكذا اراد هؤلاء الضباط الصغار النكرات ان تبدو لطبقة الانتجسليا المذكورة فاخفوا أنفسهم وتركوا الناس في بلبله وحيرة يجسم الغموض لهم الأمور

= المدبر الذي وقع على عميد الادب العربي الدكتور طه حسين من قبل بعض المتشددین المتعصيين المسلمين اثر صدور كتابه «في الادب الجاهلي» الذي شكك فيه صحة ما عزى من شعر الى شعراء جاهليين.

على غير حقيقتها ليصل بهم الخيال الى أن الجيش كله يقف وراء الانقلاب. انها مناورة متآمر باقعة بلغ بها عبدالناصر الغاية من الاتقان والتعمية بتلك السلطة الروحية شبه الابوية التي حازها بجدارة على زملائه الضباط الانقلابيين.

عملية التخفي كانت ضرورية قدر ما كانت حاسمة لضمان النجاح التام، لم يكن بوسع عشرة من الضباط الصغار الرتبة بـ(٨٩) آخرين من الملازمين والنقباء وبألف او نحوها من الجنود مواجهة الاحزاب وتاكتيكها بل مواجهة هذا الجيش اللجب من حملة القلم ورجال الفكر. كان عليهم ان يدجنوا بعضاً من هؤلاء ويجتذبوهم الى صفوفهم. فالعنصر المدني كان مفقوداً بينهم وهم لا يريدون أن يدخل محرابهم العسكري أوحد منهم بل يكتفون بمساندتهم الهامشية، وقد فعلوا ذلك باتقان لا مزيد عليه.

حافظوا على الدستور ولم يلغوا النظام الملكي وانما نادوا بالطفل احمد فؤاد الثاني ملكاً وعينوا له اوصياء ثم جاؤوا بحكومة مدنية على رأسها رئيس وزراء سابق سعودي، هو علي ماهر الذي تعرفنا اليه في اثناء الحرب وعلى ميوله الى المحور. وكان قد اعتقل مع بضع مئات بعد الرابع من فبراير.

اعلنوها بالاول حركة عسكرية اصلاحية مثلما اعلنها بكر صدقي العسكري في العراق قبل ستة عشر عاماً. وعندما ذهبت ريح النظام الملكي واعلنت الجمهورية مع تشكيل ما دعوه بمجلس القيادة العسكري، اعلنوا بان حركتهم هي ثورة وظهروا للملا بعد سلسلة من الاوامر والبيانات المقيدة للحريات. منها وضع الرقابة على الصحف<sup>(٤١)</sup> واعلان حالة الطوارئ.

(٤١) صدر بعد يومين من الانقلاب عن «مجلس القيادة العسكري» وهو مصدر سري لايعرف مسؤولوه أو صلاحياته - بغرض الرقابة العسكرية على الصحف والمجلات وسائر المطبوعات وتولى مراجعة المقالات رقبا يرتدون البزات العسكرية. وفي ١٥ من كانون الثانية ١٩٥٣ بلغ عدد الصحف المغلقة سبعا وأعتقل ١٥ صحافياً من كتابها ومحريها وقبل نهاية هذا العام لقيت الصحف الديمقراطية واليسارية التي ابت السير في خط الانقلاب عين مصير الصحف الأخرى التي لم تكن لهجتها تعجب الانقلابيين. وبحركة غير معهودة في مصر اقتحم الجنود مكاتبها ووضع النظام الجديد يده عليها وعلى مكائن طباعتها. وعين انور السادات رقيباً عاماً لغرض تصفية املاكها ومصادرتها. وفي شهر ايار ١٩٥٤ اصدر مجلس الوزراء برئاسة جمال عبدالناصر قراراً بتعطيل ٤٢ صحيفة ومجلة حزبية. واعقبه بقرار ثانٍ يقضي بحل مجلس نقابة الصحافيين وعلى اثر اتهام الصاغ (الرائد) صلاح سالم خمس عشرة جريدة ومجلة، وأربعة وثلاثين صحافياً بتلقي اغانات مالية سرية من «جهات مشبوهة» أعتقل عدد كبير من الصحافيين وادعوا معسكات الاعتقال التي انشئت لهذا الغرض في مجاهل الصحراء الشرقية بعد ثلاثة أشهر من قيام الانقلاب. واقرب الامثلة الى الاصناف التي كانت تختار لهذا الاعتقال واحد من مشاهير الادباء والكتاب السياسيين في العالم الناطق بالعربية. هو القصصي (احسان عبدالقدوس) صديق قادة الثورة وأول من أعلن تضامنه معهم وفتح صدر مجلته لهم (آخر ساعة). فقد جرى تدجينه بأحقر طريقه «سادية» مما =

وفرض رؤساء تحرير جدد على الصحف والمجلات وموظفين للاذاعة ياتمرون بأمر السيد الجديد ويسبحون بحمده ويشيدون بالانقلاب ويرفعونه الى مرتبة الثورة.

المفكرون المصريون الذين لجمت الرقابة العسكرية أفواههم ودفعت بهم الى زاوية الخمول مالبثوا أن صحوا من نومتهم. كانوا يدركون جيداً الفرق بين الثورة وبين ما حصل في ٢٣ يوليو وسلموا مبدئياً بأن القاسم المشترك بين الاثنين هو اسقاط النظام القائم بالعرف او بالتهديد باستخدام العنف؟ الا انهم كانوا يدركون تماماً بأن الفرق بين الاثنين هو ان الانقلاب عمل منفرد واحد في حين ان الثورة هي سلسلة متواصلة من الأعمال فالانقلاب هو مجرد مرحلة واحدة، او وجه من الوجوه، او مهمة من المهمات وليس هو الأول والأخير، فهو حدث او حدث او حدث. في حين ان الثورة هي عهد مقطوع والانقلاب فضلاً عن هذا يحدث تغييراً في الاشخاص أما الثورة فهي تحدث تغييرات جديدة في بنية المجتمع، في شكل الحكم في العلاقات بين طبقات الشعب. والعامل الحاسم هو دور الشعب.

في الانقلاب يبدو الشعب وكأنه خارج الساحة، بليداً غير فعال، مثل النظارة الذين يتابعون تمثيلية أو فلماً سينمائياً ذا مشاهد متعبرة. قد ينسجم الشعب مع وقائع التمثيلية ويصفق لهذا الممثل او ذاك معبراً عن استسحانه لادائه دوره. الا انه لايساهم في التمثيل اما في الثورة فان فصائل كثيرة من الشعب تشارك مشاركة رئيسية في التمثيل والتحرك الثوري، القيادة الثورية السياسية التي تقف على رأس الحركة وتحدد لها اهدافها ونظامها تكون في عين الوقت قريبة من جماهير الشعب ومعتمدة عليها ومحرضة لفاعلياتها.

ان اعتصاب ميناء بوسطن والقاء صناديق الشاي في البحر جرى قبل اعلان الاستقلال الامريكي وحمل السلاح ضد بريطانيا. كذلك كان الحال في الثورة الفرنسية فاحتلال الباستيل والتظاهرات الشعبية سبقت تغيير الدستور الفرنسي، وتشكيل السوفييات واستيلاء الفلاحين على الأراضي جرى قبل تنازل القيصر في ثورة شباط الليبرالية الروسية للعام ١٩١٧.

= تعوده الحكام المستبدون وبعد احراره على متابعة خطه الليبرالي في انتقاد أوضاع ما قبل الانقلاب. اودع السجن الحربي وابقى في سجن انفرادي ثلاثين يوماً وبعد ان امضى ثلاثة أشهر وخمسة ايام، اطلق سراحه. ودعا جمال عبدالناصر صباح يوم الافراج عنه لتناول الطعام معه ومما قال له: «ان سجنه كان جزءاً من برنامج تربيته» وبقى شهراً كاملاً يدعو لمشاركته الطعام. بطبيعة الحال حدثت هذه التربية» أثرها في عبدالقدوس. الا انها كما يبدو لم تفلح مع صحافي آخر متحمس للانقلاب هو الصحافي المعروف جداً رئيس تحرير اخبار اليوم. الذي اتهم بالتجسس للاميريكاني! وأُتقل بالحبس المؤبد. خلال سنة واحدة وتمت ازالة كل رؤساء التحرير ومحرري الاقسام الرئيسية من الصحف الباقية التي كسبت شهرة عالمية كالاهرام واودع امرها الى ضباط يشرفون على نهجها الجديد.

في مصر كان غليان ثوري لا شك فيه، الانفجار العفوي الجماهيري يوم السبت الأسود (كانون الثاني ١٩٥٠) قتال المتطوعين العنيف بين قوات الانصار في الاسماعيلية والقوات البريطانية، الازمات الوزارية العديدة، كلها بوادر تشير الى مقدمات النزاع الطبقي بين المدينة والقرية، وقد تصاعدت جدية الهجرة المخيفة من الريف الى المدن.

ماذا كان موقف الضباط الاحرار من هذا بعد نجاح الانقلاب؟ أي قرار اتخذ بحق العمال والفلاحين يرمي الى انعاشهم وانتشالهم من اوضاعهم البائسة؟ والبدء بصياغة مصر جديدة.

الا أن ما بدا من الانقلابيين في الاسابيع القليلة بعد ٢٣ يوليو كان برمته مؤشرات ومظاهر خوف من الشعب. امن لهم الامريكان عدم التدخل البريطاني وقاموا قبل الانقلاب باستحداث روابط تنسيق مع مختلف الاحزاب والمنظمات ابتداءً بالحزب الشيوعي وانتهاءً بالاخوان المسلمين الا انهم لم يتعاونوا معها بعد ان استتب الأمر لهم، بل راحوا يتعقبونها ويتسقطون هفواتها ليوقعوا بها. وحولوا انظار الشعب واهتمامه الى الماضي وبدأوا بالنظام الديمقراطي المريض الذي جاء به دستور ١٩٢٣ وقع بيدهم كما يقع الجمل الشير الذي سلمه صاحب له الى ايدي الجياع فتكاثر عليه سكاكينهم طعناً وجزراً وراجت الصحف غير المدججة تتبارى مع الصحف المدججة في نشر فضائح فاروق وحاشيته، وفساد رجال الحكم واوعز للاجهزة الحكومية باستخدام ما يمكن استخراجه من الملفات ضدهم<sup>(٤٢)</sup> وبدا التغيير بطيئاً دعائياً صرفاً بغية صرف أنظار الجمهور<sup>(٤٣)</sup>.

\*\*\*

برز عبدالناصر بين زمريته الانقلابية بروزاً واضحاً. وسلّم الجميع تقريباً بتفوقه الفكري، وبراعته في التاكتيك السياسي اللذين امانا له القيادة المطلقة دون منافس حتى آخر دقيقة من حياته. ولم يتفق لاي زعيم من زعماء الشرق الاوسط ما اتفق له من دهاء وحنكة في مقارعة الخصوم، وتحطيمهم وفي قلب الهزيمة الى نصر والفشل الى نجاح ولا في كسبه تلك السمعة الدولية التي بلغت به القمة. رغم كل ما سببت خططه ومشاريعه وسياساته من احباط، وما اجترحته من آلام بشرية. وما زهق من ارواح بريئة جرأها في كل الاقطار الناطقة بالعربية التي

(٤٢) من التوافه التي خطيت بعناوين رئيسية حول تلك الفضائح. ان وزارة المالية أكتشفت فجأة بان الملك لايدفع ضريبة دخل عن رواتبه ومخصصاته. وان مصطفى النحاس يحصل على حوالي ١٥٠ كيلو من السكر الذي كان يوزع بالبطائق خلافاً للتعليمات.

(٤٣) على مستوى الشارع رفعت العناوين الاجنبية التي كانت تتخذها محلات تجارية مخصصة واستبدلت بعناوين «ثورية» صميمة. وشجعوا رفع لافتات تشيد بالانقلاب؛ وبقيادة الانقلاب.

وجد اسمه ومبادؤه فيها مقبلاً وقد اضطره اصلاجه الزعامة والمحافظة عليها ان يلج في الدم وهو كاره في الظاهر او هكذا يدعي (٤٤).

بودي أن اعترض السياق هنا لأعرج الى الجانب الايجابي من حركة الضباط ويوصفه بأنه اعظم تغيير اجتماعي حصل في مصر بمبادرة وتصميم عبدالناصر واقصد به الاصلاح الزراعي الذي بدء بتنفيذه في ٩ من ايلول ١٩٥٣.

ظل هذا العمل موضع أخذ ورد في جدواه وآثاره حتى يومنا هذا، قانون في غاية من الاعتدال لا يرقى قط الى مستوى ثورية قانون الاصلاح الزراعي الياباني الذي اصدرته حكومة ديمقراطية وطبقته بعد الحرب العالمية الثانية وكان له اثره الباقي في التطور التكنولوجي الهائل الذي حققته تلك البلاد، وقد استوحى من قوانين الاراضي التي اصدرتها حكومات الدول الاشتراكية في اوربا عقب الحرب، محدوداً معتدلاً ومع هذا فان عبدالناصر نجح به في تحطيم اسس التسلط الاجتماعي لطبقة اجتماعية كانت حتى ساعة صدور القانون تحكم البلاد حكماً عائلياً اكثر منه طبقياً. اجل بقي اصحاب الاطيان اغنياء الا ان وضعهم الاجتماعي تغير تماماً فقبل ذلك كانوا يملكون الاراضي ايضاً مع المال، فيخضعون عمالهم الزراعيين مثلما خضع الاقنان في روسيا قبل تحريرهم في ١٨٦٣، ويستغلون مثل زنوج امريكا قبل العام ١٨٦٤ يسيطرون على آرائهم في الانتخابات وفق مزاجهم ويعيشون عيشة بذخ وترف في المدن من مداخيل الغلة وعرق جبين الفلاح كان منهم وزراء ونواب وقادة عسكريون ومدراء كبار الا ان الاصلاح الزراعي الذي قضى عليهم كطبقة احل محلهم طبقة جديدة ماثلة لا فرق بينها وبين الاولى الا بان نفوذها لا يعتمد على ما تملك من مساحات اراض بل من حجوم

(٤٤) تحدث في كتابه «فلسفة الثورة» عن محاولته اغتيال (حسين سري عامر) المرشح الرسمي الملكي لرئاسة نادي الضباط منافس محمد نجيب قال بالحرف «وقررنا ان يزال شخص معين من الوجود والموعود هو في السابع من كانون الثاني في العاشرة ليلاً. كان حسين سري في سيارته عائداً الى داره فصوبت اليه من مسدس أتوماتي سبغ اطلاقاً من مسافة قريبة (من يد عبدالناصر نفسه)» الذي يأتي الى وصف ما اختلج في نفسه من ندم وتائب ضمير قال انه لم ينم تلك الليلة التي تقرر ان تؤخذ فيها روح هذا الضابط. وشرح كيف ان شعوراً غامراً بالراحة شاع في نفسه عندما علم ان الضحية المقصودة لم يقض عليها. وانا بطبيعة الحال ملزم بالآخذ بقول عبدالناصر وصدق شعوره في تلك المناسبة. الا ان كثيراً من ضحايا اعمال هذا القائد قد يتساءل أكان عبدالناصر سيكتب هذا لو نجحت عملية الاغتيال وقضى على حسين سري عامر. وماذا كان سيكتب بدل ذلك. اكان سيقع اسيراً لوخز الضمير بواقع انه طوى في روايته هذه جزء هاماً وهو ان اطلاقاً من السبع التي اطلقها احدثت اصابة بليغة بسائق الجنرال (نائب العريف احمد موسى) في حينه وكما اوضح هو ان الضباط الاحرار لم يكونوا يعارضون في الاغتيالات من حيث المبدأ. بل في الواقع قرروا اتباع سياسة الاغتيالات لرؤوس النظام رداً من الزمن. وقد مارسوا مبدأ الارهاب الفردي هذا بعد وصولهم الى الحكم ليس في مصر وحدها بل في الدول الناطقة بالعربية الأخرى.

الابنية ووشائج القربى برجال الثورة وهي على تلك «الطبقة الجديدة» التي تحدث عنها (ميلوثان جيلاس) في كتابه الذي اختار له هذا الاسم حلت محل طبقة النبلاء والاقطاعيين في العالم الشيوعي (٤٥).

ثم ماذا عن موقف ثوار يوليو من العمال.

للحركة العمالية في مصر تاريخ مجيد قدر ما هو عريق وقد اتينا الى طرف منه لقي النظام الجديد قبل ظهوره للملا وفي اثناء تخفيه حركة عمالية منظمة تقودها نقابات بفضل النهضة الصناعية والاقتصادية التي اطلقها (طلعت حرب) وبلغت ما امكن مقارنته بالثورة الصناعية في انكلترا في مفتتح القرن العشرين، وقد بلغت الحركة شأواً بفضل النشاط الاقتصادي الصناعي الذي باشرته طبقة جديدة من رجال الاعمال المصريين من امثال أحمد عبود باشا.

ان مأساة (كفر الدوار) التي دمغت بالعار الحكم الجديد تقوم دليلاً على الخوف الذي كان يملك هؤلاء النفر من مضاعفات قد تطيح بانقلابهم قدر ما كانت تدل على انهم ويعين العقلية التي سادت تعامل الحكام القدماء مع الحركات العمالية "نحن نعرف ما هو مصلحتكم ونحن نقررنا لا انتم".

بعد ثلاثة اسابيع من نجاح الانقلاب اعلن عمال شركة مصر للنسيج في معاملها بالقرب من الاسكندرية اضراباً شاملاً. وهو معمل يضم ١٠٠٠ عامل مسؤول عن اعالة ثمانين الف انسان، ومطالب متواضعة تتعلق بزيادة طفيفة في اجورهم اليومية (كانت تتراوح في حينه بين ١٢ و ١٥ قرشا) (٤٦) وزيادة في ايام العطل باجور (كانت أربعة ايام فقط في السنة الواحدة) وكذلك الاعتراف بنقابتهم ومعظم هذه المطالب كانت قد قدمت قبل ازالة العهد الملكي بستة أشهر، فيجري التفاوض بشأنها ويماطل في أمرها بعزل. هؤلاء العمال الذين خدعوا بشعارات العهد الجديد فاستبشروا به، كانوا يعتقدون أن الحكام الشبان الذين تعهدوا بالقضاء على مظاهر ظلم الحكم الماضي والاستغلال لن يسمحوا بتأجيل او مماطلة لاسيما ان مصنعاً مثلاً

(٤٥) لايخفى خالد محي الدين (مذكراته) دهشته من موقف الدكتور السنهوري المعارض لسن هذا القانون. ويقول انه اتخذ من القانون ذريعة لضرب الاتجاه نحو الديمقراطية فقد قال: «اذا كنتم تريدون كسب الشعب من خلال قانون الاصلاح الزراعي فان آثار هذا القانون لن تظهر قبل خمس سنوات اوست. فكيف تريدون المسارعة بالانتخابات في فبراير ١٩٥٣؟ وبدأ يستحثنا على ضرورة تأجيل الانتخابات لفترة تكفي لضمان اكتساب جماهيرية حقيقية. كما ان (علي ماهر) الذي كان رئيساً للوزارة اصدر بياناً هاجم فيه الحكومة فاستقال ثم استرضي فرجع عن استقالته (ولم يطل به الامر واستقال نهائياً بعد ان وجد ان لا هو ولا وزراته تملك سلطة.

(٤٦) يعادل ١٢٠-١٥٠ فلساً بالعملة العراقية حينذاك ويعين القوة الشرائية.

برأسمال بريطاني مصري كان قد سلم قبل ايام قلائل لعماله بعين مطالبهم.

لم تستجب الادارة واستنجدت بالشرطة التي راحت تستخدم القوة لتشتيت شمل المجتمعين وكسر الاضراب. فدافع المضربون عن انفسهم بقذف المهاجمين بالحجارة ففتح رجال الأمن النار عليهم. ويادر المضربون عند ذلك باشعال النار في بنايتين من بنايات المصنع واعلنوا اضراب قعود واستحكام.

في اليوم التالي ارسل الحكم الجديد وحدات من الجيش وأذّر المعتصمون باخلاء المصنع وعند رفضهم شرع الجيش في اقتحام البناية وجرى اشتباك عنيف بين مسلحين وعزل وقتل ثلاثة جنود وستة من العمال وجرح اكثر من عشرين، وتم القاء القبض على اكثر من مائتين حين أهوى الجنود والشرطة على آلاف منهم بالعصي والهاويات دون رحمة.

واسرع الضباط الأحرار فشكّلوا مجلساً عسكرياً صحراوياً برئاسة زميلهم (عبدالمنعم رؤوف) حكمت على اثنين منهم بالموت شنقاً واثقل ٣١ منهم باحكام سجن مختلفة نفذت جميعها بعد اقرارها من مجلس القيادة<sup>(٤٧)</sup>.

وكما المعت اليه في صدد هذا الحادث انه ليكشف عن موقف الضباط الذين قبلوا على انفسهم تسميتهم بالاحرار ازاء حركة شعبية مستقلة عنهم فلاحية اكانت ام عمالية هدفها اعادة حقوق سلبية او ضمان حريات معينة، أو أي نوع من النضال من اجل رفع المستوى المعاشي والاقتصادي وظل هذا ديدن الحكم الثوري الى الأخير. قد نظلمهم لو انكرنا عليهم حسن النية، أو عيناهم لقلّة تفكير في بؤس العمال، او عدم اهتمام بصالح حالهم، فهناك دلائل عديدة تشير الى ان الطبقة الحاكمة الجديدة بذلت جهوداً للتخفيف عن متاعب العمال والفلاحين وتحسين اوضاعهم. الا ان كل ما فعلوه في هذا الصدد كان "منهم" لا "معهم".

قد يعيب قارئني عليّ شدة اهتمامي بحادث (كفر الدوار) الا انه مثل لايسعني اغفاله للاتجاه البعيد عن المباديء الديمقراطية التي سلكها النظام الناصري منذ البدء واصر عليه الى النهاية.

يعرف ابراهام لنكولن الحكم الصالح بانه: "من الشعب وللشعب وبالشعب". وبأكثر ما يمكن

(٤٧) اختار الضباط الأحرار العلنية الفوغائية لتنفيذ احكام الموت ويصف مراسل صحيفة التايمس الذي شهد التنفيذ «الذي قصد به الانقلابيون استعراض قوتهم ومدى سيطرتهم- للرأي العام» فأحضرُوا مئات عديدة من الجنود واقتيد حوالي الف عامل من المصنع وغيره ودفعوا كالانعام وأوقفوا في صفوف على ثلاثة جوانب من ساحة كرة القدم التابعة للمصنع بمواجهة الجنود وحيء بالحكومين الى وسط الساحة وقام ضابط بقراءة قرار الحكم بمكبر الصوت، ثم تلا ضابط آخر أمر اللواء محمد نجيب.

التسامح فيه: اذا سلمنا للضباط الأحرار بانهم من الشعب وللشعب فمن المتعذر علينا ان نسلم بالثالثة لهم أي بالشعب.

في ١٨ من كانون الاول ١٩٥٣ اصدر مجلس قيادة الثورة قراراً بحل جميع الاحزاب السياسية معلنا بدل ذلك قيام تنظيم شعبي بديل اطلق عليه اسم هيئة التحرير.

كان الضباط الأحرار او ما دعوه بمجلس القيادة، قد نضا عنه ثوب التخفي وخرج الى الملأ وراحت الصحف تلتقط الصور لاعضائه ببزاتهم العسكرية يتوسطهم محمد نجيب والى يمينه عبدالناصر. انتهى فصل الخوف او ايام العدة كما اطلق عليه مصري فكّه وبدأ فصل التحكيم وترصين المكاسب. والتنظيم الذي حكموا بانشائه كان بمثابة ملء فراغ بينهم وبين الشعب المصري كما عللته طائفة الكتاب والصحافيين الذين ربطوا حظوظهم بالعهد الجديد.

كانوا بعد التصفية العظيمة في الجيش واحالة جنرالية ورجال حكم سابقين الى محاكم الثورة واثقالهم باحكام سجن طويلة، وبعد ابعادهم العناصر التي يخشى منها وبعد تأمينهم السيطرة التامة على وحدات الجيش واصنافه عن طريق ضباط ثوريين أحرار من الدرجة الثالثة، كانوا يشعرون بأنهم يعيدو الصلة بالشعب المصري، يستمدون قوتهم من تخفيهم وعدم الاعلان عن اسمائهم، وتستترهم بجبة اللواء محمد نجيب وسمعته في الجيش وشعبيته الكاسحة التي كسبها وعملوا هم على تضخيمها.

بالأخير والمحدوديتهم السياسية والقانونية كان لايد لهم من الاستعانة برجال السياسة والقانون. فضلاً عن الوزارة التي اتخذوها غطاء لقراراتهم رداً من الزمن ثم اقالوها وفضلوا بعد ظهورهم الى العلن الاستعانة بمستشارين وخبراء فضلاً عن قوى سياسية معينة متلهفة للتعاون معهم ووجه الغرابة هنا هو ان المستشارين الذين اختاروهم وكان معظمهم قد اتصف بالميل الديمقراطي ودافع عن النهج الديمقراطي طوال حياتهم العملية والفكرية بدوا وكأنهم يجذبون استمرار العسكريين في الحكم، ويعادون السير في النهج الديمقراطي والحياة البرلمانية.

من اساطين القانون والدستوريين الذين استعانوا بهم اذكر الدكتور عبدالرزاق السهروري رئيس مجلس الدولة السابق. استطارت شهرته بتأليفه القانونية الرائعة التي حظيت باحترام عميق في ارجاء العالم الناطق بالعربية<sup>(٤٨)</sup> ونائبه في ذلك المجلس القانوني الضليع

(٤٨) انتدب الدكتور السنهوري في اواسط الثلاثينات لعمادة كلية الحقوق العراقية وتخرج على يده قضاة ومحامون وموظفون كبار. انكر في مقدمتهم الزميل والصدوق ضياء شيت خطاب احد تلاميذته المعجبين الذي بلغ أعلى مركز قضائي في البلاد اي رئاسة محكمة تمييز العراق (محكمة النقض والابرام =

سليمان حافظ، وفتحي رضوان المحامي الشهير بمواقفه في الدفاع عن الحريات والديمقراطية وحقوق الفرد في الدولة. والاستاذ سيد صبري استاذ القانون الدستوري بكلية الحقوق في جامعة القاهرة. والدكتور راشد البراوي وهو واحد من المؤلفين والكتاب التقدميين الاشتراكيين المعروفين هؤلاء كلهم كانوا يشجعون كتلة الضباط على تجاوز المثل الديمقراطية تقريباً منهم. مؤكدين لهم بان ما فعلوه هو ثورة، وللثورة دستورها. وليس عليها ان تتمسك بالنصوص، وانما هي بحاجة الى خطوات ثورية والى فقه ثوري، راح هؤلاء مدفوعين باشمئزاز وتقزز من حياة الاحزاب ومناوراتها الرخيصة - يبتدعون لتلك الثورة حججاً لتبرير ملاحقة الحياة الحزبية ويرسمون لضباطها خططاً ترمي الى ارباكها لتزيد من ضعفها ومن عجزها عن الاحتجاج والمقاومة تمهيداً لحلها دون ضجة. ويطرب الضباط لهذا ويتقبلون النصح برضا واعجاب فهو من مصلحتهم وتكبر اقدارهم في عين انفسهم، ويزداد ابتعادهم عن فكرتهم القديمة التي اعلنوها وهي تسليم الحكم للمدنيين بالأخير.

في البداية افتوا بوجود قيام الاحزاب بتطهير نفسها. من هو المطهر ومن هو المطهّر؟

تنصاح الاحزاب للأمر خوفاً وتأخذ بالمبدء الغريب بتشجيع الشقاق الداخلي بين زعمائها وقادتها. من يجب ان يخرج ومن يجب أن يبقى؟ من يملك سلطة الاخراج والابقاء؟

وحصل أمر عجيب لا تجد له مثيلاً الا في الروايات الخيالية الفكاهية: راح بعض يطرد بعضاً وأمل الفوز بالنتائج التطهيرية وهي التأسيس الجديد بأمر حكومي لاحزاب نشأت تلقائياً وبدون ترخيص او اجازة ولايلقى اللوم كله على كتلة الضباط الحاكمين هنا فقد شارك في موتها الموقف المتخاذل الذي وقفه زعماء تلك الاحزاب اذ لم يخطر ببالها قط ان تتجاهل هذا الأمر لتحقق نصراً وتحدياً قد يكفل وقفة في عجلة الاندفاع الثوري ويتيح للحكام الجدد صحوه للتفكير فيما يفعلون. بعد عملية التطهير يكتشف الضباط الأحرار ان التطهير لم يتم كما يجب وانه لايستوفي النتائج المعلقة عليه. وبمعونة الخبراء والمستشارين اولئك يسن قانون تحكمي ملتنو لاصدار اجازة النشاط الحزبي يمنح فيه وزير الداخلية حق الاعتراض على أي واحد من المؤسسين<sup>(٤٩)</sup>.

= بالمصطلح المصري) وقد بقي الصديق ضياء على صعيد المراسلة معه حتى آخر عمره. كان للسنبوري الدور الاكبر في وضع مسودة القانون المدني العراقي الذي سن في ١٩٥١. وكان ايام الانقلاب يوليو رئيساً لمجلس الدولة، وهو المجلس القضائي الاعلى الذي يفصل في نزاعات الاشخاص مع الدولة اما الدكتور البراوي فهو احد المفكرين اليساريين الكبار في مصر ومتروجم كتاب «راس المال» لكارل ماركس. (٤٩) من المفارقات المضحكة في هذا الباب ان وزير الداخلية اعترض على اسم مصطفى النحاس الذي كان رئيساً للوفد بعد سعد زغلول! [نقول شهد على شعبيته ومكانته في قلوب بسطاء المصريين ووجهائهم =

راحت الاحزاب تدور في حلقة مفرغة بين اعتراض ورفض وتجديد طلب واستبعاد شخص وابداله بمؤسس آخر حتى قررت جماعة الضباط ان لا حاجة للبلاد الى هذه المؤسسات وقررت تصفيتها كما اسلفنا واصدرت اوامر بالقاء القبض على ٣٠ من قادتها و٦٠ من الشخصيات البارزة فيها ووجهت اليهم تهمة الاتصال بالدول الاجنبية والجاسوسية كما القي القبض على ٧٠ عضواً بارزاً من اعضاء الحزب الشيوعي المصري (حدثوا) ومن بينهم السكرتير العام (الميكافيلي) الذي اعجب به عبدالناصر، وصديقه الخاص القاضي المثقف احمد فؤاد وكان عبدالناصر قد كلفه مع الدكتور راشد البراوي بوضع مسودة قانون الاصلاح الزراعي. واثار قانون الاصلاح ازمة سياسية خطيرة اتخذها الضباط الأحرار ذريعة ليتنصلوا عن الوعد الذي قطعوه بإجراء انتخابات عامة واصلوا عن فترة انتقالية بدل ذلك امدها ثلاث سنين.

كل ذلك كان يكمن وراءه رغبة عبدالناصر الخفية وقراره النهائي بالاستغناء عن الاحزاب السياسية كافة وقد اتضح ذلك بالشكل التالي: بعد شهرين من ٢٣ يوليو أصدر مجلس القيادة عفواً عاماً عن السجناء السياسيين وافرج عن المعتقلين الذين اعتقلوا في العهد الملكي وكان معظمهم من جماعة الاخوان المسلمين ومن المحكومين بجرائم الاغتيالات والتظاهرات وحريق القاهرة والمصادمات المسلحة في حوادث الشغب. واستثنى من العفو الشيوعيين واليسار والاشتراكيون القوميون، يقول خالد محي الدين:

"اذكر اننا كنا مجتمعين في مجلس القيادة عندما دخل علينا سليمان حافظ ومعه مشروع القانون الخاص بالافراج عن المسجونين السياسيين وسألته ببساطة: هل يطبق القانون على الشيوعيين؟ فاجاب بزهو: لا فقد وجدت لهذا الأمر مخرجاً قلت: وكيف. فقال: ان الشيوعية ليست جريمة سياسية وانما هي جريمة اجتماعية اقتصادية قلت: لكنها جريمة سياسية وان قلت كده ولم تفرجوا عن الشيوعيين تبقى بايخة قوي خصوصاً وان التهمة الموجهة اليهم هي قلب نظام الحكم وتغيير النظام الاجتماعي وهم بذلك يحاكمون كمتهمين في جريمة رأي فالفضل عندي هو الاعلان بأنه لن يفرج عنهم لاسباب سياسية بدلاً من استخدام تفسيرات غير قانونية وغير منطقية. فرد علي مندهشاً: حيرتوني قلتهم بلاش (بدون) شيوعيين

= ذلك التشيع الشعبي التلقائي الهائل لجنارته في القاهرة في ١٩٦٥ بتحد صريح للسلطة الناصرية وهي في اوج سلطانها) وقد أدى هذا الاعتراض على اسمه الى احداث خلل في صفوف الوفديين فتارة كان مقدمو الطلب يرفضون اعتراض الوزير ويسحب اسم النحاس. ما مرت برهة على هذا الانقسام حتى القي القبض على معظمهم وبينهم (النحاس) نفسه. ومنهم الدكتور صلاح الدين (وزير خارجية سابق) وابراهيم فرج وفؤاد سراج الدين (وزير سابقان) واحيلوا الى محكمة الثورة بتهمة الفساد.



فلقينا الحل وبعد رافضين وتقولون بايخة قوي؟ فضحك الزملاء في المجلس وقالوا له: معلى اصله خالد مختلف في هذا الموضوع." (٥٠)

والموضوع في الواقع ان عبدالناصر اعتمز القضاء على الاحزاب السياسية سرياً وعلنياً واراد كسب الاخوان المسلمين الى صفة بمبادرة العفو هذه.

وتزامنت فترة الانتقال المعلنة مع صدور الدستور المؤقت الذي الغى النظام الملكي واحل محله النظام الجمهوري واثبت لمجلس قيادة الثورة السلطة العليا والسيادة على الدولة مع رئيس مجلس القيادة في مجلسه والمعنى المقصود هو ان رئيس المجلس (اللواء محمد نجيب) لا يملك السلطة بمفرده وان المجلس لا يملك السلطة بمفرده فكان من الطبيعي بعد هذا ان ينشأ الخلاف بين محمد نجيب وعبدالناصر الذي يسيطر على مجلس القيادة في الواقع. ومحمد نجيب الذي وصلت شعبيته القمة بدا حريصاً على ان يتقاضى ثمن منح اسمه ومكانته لحفنة من الضباط المغامرين الصغار الذين تمكنوا بهما من انجاح حركتهم الجريئة وعندما ابى عليهم قادة آخرون ذلك. وهؤلاء الضباط الذين ذاقوا طعم السلطة والحكم، والمخولون من الجمهور وجدوا في محمد نجيب رجلاً طارئاً على حركتهم لا يقنع بمشاطرتهم السلطة، بل يريد لها كلها لنفسه.

والضباط من جهتهم - بحسب ما جاء في تصريحاتهم ومذكراتهم - وبالشكل الذي بدأوا فيه يمارسون السلطة ظلوا خلال الاشهر الخمسة الأولى يعلنون باصرار متواصل تمسكهم بالمباديء الديمقراطية وتقديم الحياة النيابية باعتبارهما اساساً يُرسى عليه نظام الحكم المقبل لكن ما ان تمكنوا من السلطة ومارسوها حتى نسوا عهدهم وبات شغلهم الشاغل التمسك بها والذب عن حياضها.

في الأسبوع الاول من شهر آذار ١٩٥٤ بلغ الصراع على السلطة بين محمد نجيب ومجلس القيادة منتهاه. اولهما بمساندة القوى اليسارية وثانيهما بدعم الاخوان المسلمين. رأى عبدالناصر ان الوقت قد حان للامساك بالأعنة وانتزاعها من يد محمد نجيب وكان الى جانبه كل اعضاء مجلس القيادة باستثناء شاب متحمس يساري متسرع طائش هو الرائد خالد محي الدين.

آثر عبدالناصر طوال هذه المدة أن يحكم قبضته فحسب على مجلس القيادة وان يبقى القوة المهيمنة فيه تاركاً الاضواء تسلط على محمد نجيب وكان قد درس نفسية هذا الرجل وتأكد

(٥٠) أغفل انور السادات وعبداللطيف بغدادي في مذكراتهما اي تنويه بمحكمة الثورة هذه ولم يتطرقا الى وقائعها ربما خجلاً أو استكباراً الا خالد محي الدين فصل في امرها. (راجع المذكرات)

بأن وصوله الى السلطة بهذه السهولة وتمتعه بالشعبية الكاسحة سيدير رأسه ويدفعه الى تحدي صغار الضباط هؤلاء باصرار على استخدام كل ما يعينه منصبه بوصفه رئيساً للجمهورية ورئيساً للوزراء وقائداً عاماً للقوات المسلحة.

وانه لا يلبث ان يرتكب بعض الحماقات التي ستؤدي به الى السقوط.

وقد تم ذلك كما قدره عبدالناصر بمعاونة من ذكاء خارق وحذق تأمري فيه.

في شباط ١٩٥٤ وجد الضباط الأحرار ان محمد نجيب ينوي احتواء مجلس قيادتهم أي ان ينفرد بالسلطة كان هناك اليساريون والشيوعيون الذين بدأ اضطهادهم وملاحقتهم المبطنة تخرج الى العلن باعتقالات السلطة لاجنائهم وملاحقتهم، واستعداد العناصر الدينية عليهم بشخص علماء الازهر والاخوان المسلمين. ولم يكن لديهم من يمثلهم في السلطة غير ضابط واحد من اصل ١١ عضواً الا انهم كانوا يعتمدون على غالبية ضباط تقدميين في صنف المدرعات (سلاح الفرسان) الذي كان له الدور الحاسم في نجاح انقلاب ٢٣ يوليو.

لم يتحدث محمد نجيب عن الديمقراطية ولم يخطر بباله الحكم النيابي الا بعد أن بدأ عبدالناصر بعملية ازاحتته عن مركز السلطة فقد كان من انصار اطالة فترة الانتقال وابعادها عنه مسافة تزيد كثيراً عن السنوات الثلاث المقررة، أعد نفسه ليكون الحاكم المطلق المؤبد، بدليل فاروق مثلما اعد عبدالناصر نفسه ليكون كذلك. الا ان الأخير كان اكثر ذكاءً والمعية واطول باعاً في فن التآمر.

واستخدم كل واحد أسلحته، لجأ محمد نجيب الى الجمهور والى الخطب والى الاحتكاك الشخصي برجل الشارع، ونال ما اراد فاراد ان يستخدم تلك الخطوة للهيمنة على مجلس القيادة. فبدأ هذا المجلس بتقليل اظافره عن طريق قطع علاقته بالجيش. وبمرسوم صغير لم يشر انتباه أحد قفز الصاغ (الرائد) عبدالحكيم عامر موضع ثقة عبدالناصر اللامحدودة - الى رتبة لواء وبمرسوم تال رفع الى رتبة مشير (فيلدمارشال) ليغدو قائداً عاماً للجيش (٥١). في حين كان عبدالناصر وزيراً للدخلية، وعبداللطيف بغدادي وزيراً للحربية، وصالح سالم وزيراً للارشاد.

لفترة قصيرة بدا كأن زمام الأمور يكاد يفلت من يد عبدالناصر.

(٥١) لم يمر الترفيع الثاني بهوء وسهولة كالاول فشاغ في الجيش سخط عظيم وحدث نفرة وحالة من القلق في مؤسسة الضباط وحصلت استقالات عدة بين امراء الالوية وفي مقدمتهم أمر القوة الجوية حسن محمود الا ان عبدالناصر والبغدادي اسرعا بملء الفراغات بقيادة يركن اليهم ويوافق عليهم عبدالحكيم عامر.

كان محمد نجيب اثناء جولاته الشعبية الصاخبة وصادقاته الشخصية ولقاءاته مع زعماء الاحزاب السياسية المنحلة قد نجح في كسب فولوها الى جانبه بعد وعده بالديمقراطية والحياة الديمقراطية فعقدوا عليه الامل في العودة الى الشرعية، وكان لا بد من عمل مضاد، ابتدراها صلاح سالم الغيبي عن طريق كذبة كانت نتيجتها ان كسب محمد نجيب بعد افتضاحها مزيداً من الشعبية عززت فيه وهُم مقدرته على السيطرة الكاملة. فكر صلاح سالم في احداث رجة سياسية تمكن مجلس القيادة من ضرب خصومها دفعة واحدة فاعلن انه يمتلك وثيقة خطيرة تكفي لادانة كثير من الزعماء السياسيين السابقين المتظاهرين بالانتصار لمحمد نجيب. وخيل لناصر مبدئياً ان اطلاق اشاعة بوجود مؤامرة ضد الثورة قد يفيد كثيراً في الهاء الجمهور وتحويل انتباهه الى وجود خطر محدد تصرفه عن الاهتمام بالصراع الخفي المحتدم الدائر فاعلن موافقته على تشكيل ما دعي به (محكمة الثورة) (لمحاكمة المتهمين المقبوض عليهم بتهمة الجاسوسية والاتصال بدولة اجنبية) وهي بالضبط الولايات المتحدة!

مهد لتشكيلها بضجة اعلامية في الاذاعة والصحف وبخطب نارية لناصر ضد الامبريالية ومخططات الاستعمار لاعادة مراكزه التي فقدها بالثورة، عن طريق خدمه وعملائه القداماء.

الا ان العصا المعقوفة ارتدت الى مطلقها فقد بات واضحاً في اول جلسة من المحاكمات الورطة الكبيرة التي اوقعها صلاح سالم بزملاته الحكام. لم تكن هناك اية مؤامرة والوثيقة الخطيرة الدليل الدامغ على المؤامرة هو مجرد تقرير رجل أمن حول قيام موظف في السفارة الامريكية بزيارة لابراهيم عبدالهادي باشا في منزله. وعن اجتماعات حفلية واتصالات تلفونية جرت فيها احاديث عادية. ومع هذا وتبريراً لتشكيلها واثباتاً لأصالة الخطب التي القيت بالمناسبة كان لا بد من صدور أحكام توازي خطورة التهمة. ونال ابراهيم عبدالهادي حكماً بالموت واثقل الآخرون باحكام سجن طويلة. وكما نوهت خفض حكم الموت الى الحبس المؤبد، ثم اطلق سراحه وسراح المحكومين الآخرين بهدوء ودون ضجة بعد فترة قصيرة.

\*\*\*

في ١١ من شباط اعلن عبدالناصر لزملائه بان الانسجام والتعاون مع محمد نجيب بات محالاً ووافق الآخرون على قوله، كان محمد نجيب يهدد بالاستقالة ظاهراً وهو على ثقة بان مجموع الضباط الاحرار لا يقوى على الصمود في وجه الهياج الجماهيري الذي يطالبه بسحب استقالته. وامتطى اليسار الموجة وراح يطالب بعودة الحياة الديمقراطية واجراء انتخابات برلمانية حرة.

وفي عين الوقت، اعترض جمال سالم وخالد محي الدين على قبول الاستقالة الا انهما اثبتا مع الآخرين عبدالناصر رئيساً للوزارة ورئيساً لمجلس قيادة الثورة. وأرجأوا البت في استقالة رئيس الجمهورية.

وفي ٢٣ من شباط قدم محمد نجيب استقالته، وبعث بها مع مرافقه الرائد اسماعيل فريد وكان عبدالناصر قد وضعه عيناً على خصمه. فثار الغضب بعبدالناصر وصرخ بالرسول: «روح بلغ نجيب يبقى في بيته ولا يغادره. وأنت لا تغادر هذا المكان. قل لنجيب المسألة مش لعبة!» وبين الأمر بعدم مغادرة المكان وابلاغه برسالة يقولها لنجيب وقف هذا الضابط حائراً أي الأمرين يطيع (٥٢).

بعد يومين اعلن صلاح سالم قبول استقالة رئيس الجمهورية وراح يفسر التغييرات بشكل سقيم سخيف بدا به عبدالناصر للمواطن المصري فيها ذلك الشاب الغر الغاضب المتخذ صورة المستبد المطلق العنان لطموحه الجامح، مقابل محمد نجيب المفتر الثغر، اللطيف الشمائل والوقور الكيس، ومما قاله عن نجيب انه:

"كان شديد الاحاح على نشر صورته في الصحف وتلاوة خطبه في الاذاعة حتى ضقت ذرعاً بالحاحه الى الحد الذي اضطرتت معه الى الذهاب الى السجن الحربي ووضع نفسي فيه!"

وبطبيعة الحال لم يكن هناك من يصدق أن بإمكان عسكري أن يعتقل نفسه بأمر منه ثم كيف يمكن ان يحرم رئيس جمهورية من اذاعة خطبه ونشر صورته؟ ان فرض الانسان السجن على نفسه هو اكثر من ان تحتمله العقلية المصرية المهرفة الحس التي اشتهرت في البلاد الناطقة بالعربية بمنطقية واصالة التعبير فلا غرو ان وجدت في القول مادة للسخرية وانداحت دائرة النكتة لتشمل مجلس القيادة نفسه.

وسرى نبأ اعتقال محمد نجيب في الشارع سريان النار الآكلة.

بدأ طلبة جامعة القاهرة بتنظيم مظاهرات مؤيدة لنجيب، تهتف بسقوط حكم الجيش وتطالب بالديمقراطية واجراء انتخابات (٥٣).

(٥٢) قام كمال رفعت من الضباط الاحرار (الطبقة الاولى) وحسن التهامي من طبقة الضباط الاحرار الثانية باقتحام منزل محمد نجيب واخذه معتقلاً الى تكتات صنف (سلاح) المدفعية.

(٥٣) خرج صلاح سالم من دار الاذاعة بعد القائه الحديث ليحدد وقعه ورد فعله في الشوارع التي غصت بالمظاهرين الهائجين وهم يتجهون بجموعهم الغفيرة نحو ميدان عابدين يهتفون بشعار موحد «لا رئيس الا نجيب» «لا بديل عن الديمقراطية» سيول دفاقة وامواج هادرة اتقن الحزب الشيوعي والطلبة =

في السودان كان حزب الاتحاد الوطني مالك الاغلبية. وهو مدين بشعبيته لاصراره على موقفه المؤيد لمصر المبتنى على ثقته واحترامه لشخص محمد نجيب نصف السوداني فكان يجد في ازاحة هذا العسكري خطراً يهدد ما يتمتع به من الهيمنة السياسية في السودان. فعجل بارسال وفد الى القاهرة ليعرب عن قلقه من التغيير وما يترتب عليه من فقدان رصيد الحزب في السودان. وتجمع خارج منزل محمد نجيب عدد من الضباط الساخطين كما تجمع في مجلس القيادة عدد من المؤيدين وعلن ضباط سلاح الفرسان (المدرعات) تضامنتهم مع نجيب واعتصموا وهددوا بالزحف على مجلس القيادة.

كان سلاح الفرسان واهم واخطر صنف في الجيش المصري يسيطر عليه خالد محي الدين ورفاقه الضباط الديمقراطيون واليساريون.

في الخامس من آذار بلغت التظاهرات اوجها وبدا لناصر وكأنه خسر الجولة وعاد من الاجتماع الصاخب بضباط سلاح الفرسان لينبيء رفاقه بفشله وليعزو الاعتصاب الى خالد محي الدين عندها قدم هذا الضباط الذي لم يكذب يبلغ الحادية والثلاثين من عمره اقتراحاً حول اعلان المجلس بياناً باجراء انتخابات عامة واقامة حكم برلماني وحل المجلس وعودة الجيش الى ثكناته فرد عليه عبدالناصر بحزم انه لايعتبر الوقت ملائماً للخطوة واذا ارتأى رفاقه فإنه يتنازل عن رئاسة الوزراء، يقول محي الدين: "فُوِّضْتُ بايلاج الأمر لنجيب".

خلال ذلك وضعت الشروط للعودة الى الحكم المدني وتطبيق المبادئ الدستورية. وتقرر ان يكون يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٤ موعداً لانتخابات عامة لمجلس تأسيسي والعودة الى النظام الدستوري، الا ان هذا القرار لم يعمر اكثر من عشرين ساعة، ولم يتح لرئيس الوزراء الجديد وقت لانتقاء اعضاء وزارته، فقد حدث تغيير مثير سريع خلال تلك الساعات. كان عبدالناصر يعمل بسرعة فائقة.

= تنظيمها وحشدها، امواج لا اول ولا آخر. خارت عزائم صلاح سالم وفقد كل ثقة بما قاله في الراديو. وانقلبت آراؤه ومشاعره وهو يسمع باذنه الشتائم تنصب عليه من المتظاهرين واقلها «ابن الكلب» ويذكر خالد محي الدين (المرجع السالف ص ٢٥٤ وما بعدها) ان «صلاًحاً» اسرع بدخول صيدلية (مظلوم) بالقرب من ميدان عابدين وتحدث مع عبدالناصر قائلاً «يا جمال لازم تأخذ قراراً بسرعة بعودة نجيب فالناس تهتف بحياته فرد عليه «تعال فوراً» وعند عودته الى مكتب عبدالكريم عامر والمجلس مجتمع فيه كثر قوله بضرورة اتخاذ قرار بعودة نجيب وبقي عبدالناصر صامتاً. قال صلاح يا جمال موعد نشرة الاخبار قرب ولايد ان ابلغهم فوراً بخبر عودة نجيب لاذاعته والا فالبلد سيثور ضدنا. ولم يرد جمال وعاد صلاح يلح. وأصر جمال على الصمت فامسك صلاح بالهاتفون وطلب الاذاعة وهو يقول يا جمال اني سأبلغ الخبر بالاذاعة ولم يرد جمال فكرها أكثر من مرة فلما واصل جمال الصمت، قالها صلاح بصوت مرتفع ليسمعها كل من كان في الغرفة» وعاد نجيب.

اعلنت صحيفة الأخبار في مقال رئيس ان عبدالناصر كان الزعيم الحقيقي للثورة وسيظل كذلك. وفي عين الوقت تمكن بمساعدة الضباط المتعاطفين مع المجلس. من تحويل سلاح المشاة والمدفعية والطيران ضد سلاح المدرعات تحت شعار رفض العودة الى النظام الديمقراطي لأن ذلك سيؤدي الى القضاء على الثورة. ووجد سلاح الفرسان نفسه محاصراً من الأرض والجو. من جهة أخرى استغل ما بين الشيوعيين والايوان المسلمين من عداة<sup>(٥٤)</sup> فأطلقهم على التظاهرات الطلابية والديمقراطية بتظاهرات معاكسة بشعارات (تسقط الديمقراطية) (تسقط الاحزاب) (تحيا الثورة) (عاش مجلس القيادة) في عين الوقت اعلن عمال النقل اضراباً عاماً قصد به شل حركة التنقل في القاهرة<sup>(٥٥)</sup> وبتحريض من عبدالناصر وتوقيت دقيق منه دعت نقابات العمال الى اضراب عام وظهر اولئك الذين استأجرهم وعرفوا بصيبة القروش العشرة بمظاهرات ضخمة يساندها الاخوان تدعو الى الاستمرار في حظر نشاط الاحزاب السياسية القديمة وتوسيع نطاق عمليات التطهير على نطاق الجيش والجهاز الحكومي. وهاجمت عصابات من الغوغاء مبنى مجلس الدولة معلنة استنكارها لعودة الرجعية ونشرت جريدة (اخبار اليوم) لصاحبها (علي امين) وشقيقه التوأم (مصطفى) المشايخين لعبدالناصر تسجيلات صوتية زودهم هو بها لمحادثات تلفونية بين محمد نجيب ومصطفى النحاس توحى بأن اولهما يعمل بجد لعودة الوفد الى السلطة وسارت الصحف الأخرى على منوالها. ودبر تلك الانفجارات التي عرفت بانفجارات القاهرة<sup>(٥٦)</sup>.

خلال فترة وجيزة لانتجاوز تسعة ايام تمكن عبدالناصر بدائه واستخدامه اخص تاكتيك سياسي مقصود لتحويل عواطف الغوغاء والدهماء الى صفه - وبمعونة ومساندة اعضاء

(٥٤) كما سبق بيانه كان عبدالناصر قد كسب الاخوان المسلمين باطلاق سراح سجنائهم وفي مقدمتهم الهضيبي مرشدهم العام الذي زاره بعد اطلاق سراحه ليشكره في حينه. وكان جمال قد انتهى ايضاً خلفه مع سلاح المدفعية باطلاق سراح ضباطه الذين كانوا قد اعتقلوا في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٣ بتهمة التهيئة الانقلاب.

(٥٥) تحدثت كتاب المذكرات من الضباط الاحرار مثل عبداللطيف بغدادي وثروت عكاشة وخالد محي الدين حول الاضراب ويذكر خالد محي الدين ان جمال قال لهم بكل صراحة انه هو الذي دبر حركة اضراب عمال النقل. وشرح ببساطة انه فعلها رداً على اجتماعات ضباط سلاح المدرعات معه وهي الاجتماعات التي عرفت «باجتماعات القاعة الخضراء» وقال ايضاً بانه وراء تفجيرات القاهرة. قال لخالد محي الدين ان اخراج الاضراب لم يكلفه أكثر من ٤٠٠٠ جنيه... «انتم (مخاطباً محي الدين) تحركتم في الفرسان (المدرعات) وانا رديت عليكم، واحدة بواحدة! نبقي خالصين (المرجع السالف ص ٣٠).

(٥٦) انفجار واحد في حي القاهرة. واثنان في الجامعة وواحد في حي (كروبي) وآخر في مخازن الصحافة بالسكك الحديدية. روعي في تفجيرها وبناء على تعليمات مشددة من عبدالناصر بان لا تؤدي الى خسائر في الارواح ولا تخلف اضراراً.

مجلس القيادة ولم يكن أي واحد منهم يكن ذرة عطف على الشيوعيين او ايمان بالديمقراطية وبالضباط الجدد الذين وضعهم في مراكز قيادية من اعتلاء محاولة الانقلاب وتوجيهها لصالحه. تخلص من ضباط المدرعات باعتقالهم وفصل زعيمهم خالد محي الدين من مجلس القيادة وابعده الى الخارج. واتم تفريق مشايخي محمد نجيب والشيوعيين بسهولة. ويات في موقع قوة ليعلن "استجابة مجلس قيادة الثورة لرغبة الجماهير وتراجعته عن قرار اجراء انتخابات للمجلس التأسيسي والاستمرار في الفترة الانتقالية".

لكنه كان مضطراً الى التسليم ببقاء محمد نجيب رئيساً للجمهورية اذ أن حامية الاسكندرية اعلنت تضامنها معه وخشي عبدالناصر حصول انشقاق في صفوف الجيش قد يؤدي الى حرب اهلية وفي ١٧ نيسان ارغم محمد نجيب على التخلي عن منصب رئيس الوزراء لعبدالناصر الذي الف الحكومة من كل اعضاء مجلس القيادة تاركاً وزارتي الخارجية والمالية لمدينيين. وواصل محمد نجيب رئاسة دون سلطة ونفوذ او صلة خارجية كان شبهه حبيس يحيط به جواسيس عبدالناصر، يعد ايامه المتبقية. وصفه ننتنك:

"كان عسكرياً بسيطاً يفوق غروره حصافته. فقد سمح لنفسه ان يبدو فعلاً اداة بيد الساسة القداماء وان يبدو في الوقت عينه اداة بيد المتطرفين من أقصى اليمين الى أقصى اليسار... هكذا بدت الأمور على الأقل لعبدالناصر ولمن هم مثله اولئك الذين يرفضون أي حل وسط بخصوص مبادئ ثورتهم... الا انه لم يكن رجعيّاً ولا مخادعاً كما زعم خصومه، ولم يكن نداءً لعبدالناصر في حلبة التآمر كما برهنت الاحداث ولما خدعته شعبيته المؤكدة وحملته على الايمان بان الشعب لن يفضل حكم عبدالناصر على حكمه المعتدل، اساء تقدير سعة حيلة منافسه في التآمر ولم يدخل في اعتباره طبيعة الشعب المصري في الانحناء امام القوة الباطنة كتلك التي استطاع مجلس قيادة الثورة تعبئتها ولم يكن نجيب بطبيعة الحال الضحية الكبرى الوحيدة في القراع على السلطة، فخالد محي الدين بدوره اساء التقدير، ونبذه رفاقه اعضاء المجلس، غير ان عبدالناصر اظهر في موقفه منه جانباً عاطفياً من شخصيته كان خالد وهو في الحادية والثلاثين اصغر اتباعه سناً وكان يكن لهذا الضابط الموهوب الذي شاركه النضال الطويل الصعب حباً جمّاً. هذا فضلاً ان انه كان يأبى قطيعة سافرة مع رفاق ما قبل الثورة وقد برهن على ذلك طوال المراحل الأولى من حكمه. بل كان يميل في اغلب الاحيان الى التجاوز عن عثراته

وحماقاتهم، وفي الوقت عينه لم يكن خالد يعارضه فحسب في صراعه مع محمد نجيب ويحرض سلاح المدرعات على الثورة ضد مجلس القيادة بل كان فوق هذا كله شيوعياً مؤمناً وداعية للاشتراكية المادية التي حرمها عبدالناصر بوصفها ايديولوجية غريبة وافدة لا تخدم مصالح الشعب المصري وهي ضد تعاليم الاسلام." (٥٧)

يذكر خالد محي الدين بصريح العبارة ان عبدالناصر دعاه وافهمه بانه اذا بقي في مصر فسوف يلقي القبض عليه و اشار عليه ان ينفي نفسه بقبوله وظيفة اسمية في الخارج. أكان خالد وزملاؤه يؤمنون حقاً بالديمقراطية الليبرالية بوصفه اصلح نظام للحكم كما يدعي؟ كلاً، انظره يقول:

"كان الضباط (الاحرار) يعلنون تمسكهم بالديمقراطية كحل صحيح لنظام الحكم الا انهم ما قفزوا الى السلطة حتى نسوا ان من مبادئ الديمقراطية هي تداول السلطة، والفصل بين السلطات، والارادة الشعبية وتمسكوا بالسلطة وقد لقي ذلك قبولاً من الجميع لاسيما محمد نجيب وجمال عبدالناصر وكلاهما كان يطمح الى السلطة بالقدر الذي خصصه دستور ١٩٢٣ للملك بل وبكثر، لذلك بدأ النزاع بينهما في الداخل".

ان كان خالد في ١٩٥٢ وما قبلها يؤمن حقاً بهذا النوع من الديمقراطية فبالأكيد ان جماعة اليسار التي يعمل معها لم تكن في نيتهم اقامة هذا الشكل الديمقراطي من نظام الحكم في مصر لو استظهر سلاح المدرعات في ذلك اليوم المشهود واودع عبدالناصر السجن او استقرت رصاصة في مخه كما يقول (ننتنك) كذلك سيكون مصير رفاقه الآخرين.

من المشكوك فيه كثيراً ان اولئك الذين قادوا مظاهرات ١٩٥٤ او دفعوها وكانوا وراءها يؤمنون حقاً بالديمقراطية الليبرالية أو يحلفون بجعلها اساساً لنظام الحكم لو كتب لهم النجاح. اليسار الاشتراكي ولاسيما الشيوعيون لم يؤمنوا بالديمقراطية الغربية في أي وقت. إلا أنهم كانوا يتخفون تحتها ويلبسون رداءها وينادون بها اثناء كفاحهم من اجل السلطة منذ ان بدأت عمليات القضاء على النظم الديمقراطية الليبرالية في اواسط اوربا اثر نهاية الحرب في ١٩٤٥ وما من شك في ان ديمقراطية مظاهرات ١٩٥٤ واعتصاب سلاح المدرعات في حالة النجاح ستكون نسخة من تلك الديمقراطية الشعبية. ان ايمان هؤلاء بها ما كان ليزيد عن ايمان

اولئك الذين يعارضونهم فيها وشعار (تحيا الديمقراطية) الذي انطلق من حناجر المتظاهرين في ميدان عابدين ومن ثكنة سلاح المدرعات لم تكن قيمته الحقيقية تزيد عن قيمة شعار (تسقط الديمقراطية) الذي اطلقتها حناجر انصار عبدالناصر والاخوان.

وبدأ حكم عسكري سافر في مصر. ربح عبدالناصر المعركة وكان نصره فيها كاملاً ولم يعد احد يملك القوة للوقوف في وجهه بعد تصفية الاخوان المسلمين وحانت فرصته المنتظرة فيهم.

ففي فجر يوم ٢٧ من تشرين الأول وبعد عشر ساعات تقريباً من فشل محاولة اغتياله وجد عدد كبير من زعماء الاخوان انفسهم في زنانات السجون وعلى رأسهم مرشدهم العام الهضيبي الذي كان قد اطلق سراحه قبل بضعة اشهر كما سبق بيانه. وبلغ عدد المعتقلين خلال الاسابيع الثلاثة التالية اكثر من الف. حكمت محكمة الثورة على الهضيبي وعلى عبداللطيف محمد مطلق الرصاص واثنين آخرين بالاعدام. ونفذ الحكم بالثلاثة وخفض الحكم عن الهضيبي الى الاشغال الشاقة المؤبدة واهتبت الفرصة لزج اسم محمد نجيب اثناء المحاكمة ليبدو وكأنه اداة طبيعة بيد المتآمرين فتم في ١٤ من تشرين الثاني اعفاؤه من منصب رئاسة الجمهورية وتولى عبدالحكيم عامر تحديد محل اقامته الجبرية.

وعرضت رئاسة الجمهورية على احمد لطفي السيد<sup>(٥٨)</sup> فاعتذر وعندها تولى عبدالناصر مهام رئاسة الجمهورية الى حين ارتفاعه الى هذا المنصب.

(٥٨) من مشاهير علماء مصر وادبائها وكبار الساسة. وزير خارجية سابق ورئيس المجمع المصري مترجم كتب ارسطو الثلاثة: (في السياسة والطبيعة والكون والفساد) لأرسطو. كان في الثانية والثمانين عندما عرض عليه المنصب. فبادر الى نشر اعتذاره في الصحف مبيناً فيه بصراحة ان المنصب المعروف عليه لا ينطوي على اي سلطة تنفيذية وانما مجرد واجهة وحتى لو تضمن سلطة ما فإنه عازف عنه بسبب كبر سنه.

يوسفني للغاية أن يأتي هذا الفصل للقاريء خلواً من هوامشه وتعليقاته الخاصة به وقد أشرت إليها بالأرقام في متنه. وكنت قد شرحت في (المدخل) المتاعب التي واجهتني في الكتاب، وكانت نتيجة وفاة صاحب دار النشر الأولى المفاجئة وعدم احتفاظي بنسخة ثانية من مسودات الكتاب، ورفض ذلك الشخص الذي ذكرته في المدخل أي تعاون على رد ما يعتبر أمانة من تركه متوفى. وأخيراً أنا أرحب بأي لوم يوجهه إليّ القاريء لفرط الثقة التي أوليتها أناساً لا يستحقونها إن كان يصح اللوم.

لم يكن يوسعي تذكر هامش واحد أو مرجع معين واحد، فهناك (٥٩) هامشاً وتعليقاً روجع في أمرها أكثر من أربعين مرجعاً. ولم يكن هناك من سبيل للإستغناء عن هذا الفصل وحذفه من الكتاب فهو حلقة وصل لا محيص عنها، وأنا على كل حال طامع بغفران القاريء الذي عودته الصدق في إيراد المراجع الصحيحة لا اختراعها أو ابتداعها من وحي الخيال.

المؤلف

## الفصل الرابع والعشرون

عبدالناصر . القومية العربية لا الوطنية المصرية . شعار "العزة والكرامة" ولا منهاج واضح للعمل القومي . رابطة اللغة والدين . ساطم الحصري وعبدالناصر . الحصري عدو البعث الأول . هجوم متقابل . (فلسفة الثورة) مقتطفات منه . جمال عبدالناصر ونوري السعيد . الجامعة العربية . خيبة عبدالناصر بها . هجومه اعلامياً على سياسة العرب "الرجعيين" . موقفه من حلف "بغداد" . إجراءات القمع وسلطات أجهزة الاستخبارات في مصر . إقامة المعتقلات الصحراوية . التطويق المرعب لحريات الفرد المصري . القبط : موقفهم من دعوى العروبة والوحدة ، أحوالهم في عهد الحكام المستبدين وفترة المماليك ، دفاعهم عن الهوية المصرية . النزوم القبطي الجماعي إثر تطبيق القوانين الاشتراكية . إسقاط "القبضية" من التاريخ المصري . الدكتور لويس عوض سجين القومية . التضامن العربي لا الوحدة أو الاندماج . دعوى فاروق في رئاسة العالم الاسلامي . عودة الجيش السوري الى حلبية السياسة . وزارة صبري العسلي . عدنان المالكي معاون رئيس للأركان ، اغتياله . فارس الخوري ، إرغامه على الاستقالة وعودة العسلي . اختيار شكري القوتلي رئيساً للجمهورية . توحيد الجيشين السور والمصري . بروز عبدالحميد السراج . تشديد قبضة الأمن على الجو السياسي . محاكمات السراج الثلاثة . البطش بالحزب القومي السوري (المحاكمة الأولى) . محاكمة الرجعيين والمحافظين من النواب والسياسة المعتدلين . محاكمة كبار ضباط الجيش بتهمة محاولة قلب نظام الحكم والعمل على اتحاد سورية بالعراق . مقارنة بين قومية البعث وقومية عبدالناصر على الصعيد النظري

كانت "مصرية" عبدالناصر حجر الزاوية في انقلاب ٢٣ يوليو، وبقيت كذلك حتى استتب له الأمر وتخلص من مزاحميه وعلن حكماً عسكرياً بكل مظاهره وجوهره.

في كتابه (فلسفة الثورة) الذي اصدره في ١٩٥٤ عام نصره المبين تحدث عن الادوار المجيدة التي لا تجد ابطلاً ينهضون باعبائها وحدد طموحاته في ان يكون زعيماً لمائة مليون عربي ومئتين واربعة وعشرين مليون افريقي وأربعمائة مليون مسلم.

وعبدالناصر يدرس خطواته ويهيء لها . ففي اوائل هذا العام أنشأ في القاهرة اذاعة خاصة سماها (اذاعة صوت العرب من القاهرة) وانتقى لها طاقم تهريج إذاعي، وكتاباً ماهرين ووضع لها برنامجاً واضحاً تذاق من خلاله خطبه الى جانب اقوال حماسية تدعو الى وحدة الصف العربي والانتفاض على الحكومات والدول التي تمشي في ركاب الامبريالية والاستعمار وتنفذ خططها، وراحت تلك الاذاعة من المبدء توزع اتهاماتها وهجمات منسقة مع مواقف عبدالناصر الآنية وعلاقاته بها كلاً على حدة.

في ٢٣ تموز ١٩٥٤ لاح في جو المنطلقات الايديولوجية المصرية الجديدة اول تبين رسمي لقضية العروبة، في هذا اليوم فاجأ سمعي خطبة بمناسبة الذكرى الثانية للثورة - معلنة عن قيام عهد جديد من العلاقات مع العرب يقوم على الاخوة الصادقة والصراحة وان هدف « مصر الثورة» هو ان يكون العرب امة واحدة قادرة على الدفاع عن نفسها بمواجهة الامبريالية والاستعمار ورفض الخضوع للاجنبي.

كانت هناك مقدمات حرب فلسطين حيث تم احتكاك الضباط بالمقاومة العربية الفلسطينية وبزعمائها ولم تكن لفظة العروبة والانتماء العروبي بالأمر الذي يحتاج الى تمهيد كبير لتستسيغه الأذن المصرية، كانت هناك هجرات عربية عديدة عبر التاريخ وهناك قبائل مصرية تعزز باصلها العروبي وتتمسك بتقاليدها العربية<sup>(١)</sup>.

في (فلسفة الثورة) تحدث عبدالناصر عن الفتوح الاسلامية التي جاء في اعقابها موجات من الهجرات العربية الى مصر في القرون الوسطى، مثلما تحدث عن الغزوات اليونانية والرومانية لها مؤكداً في عين الوقت أن مصر لا يمكنها اغفال تاريخ الفراعنة مطلقاً.

وفي الخطب التي كان يلقيها في العام ١٩٥٤ دأب على التنويه بسعد زغلول واحمد عرابي

ومصطفى كامل وعمر مكرم ومحمد فريد ووصفهم بالآباء الروحانيين لحركة الضباط الأحرار، وهؤلاء الخمسة لم يهتم أحد منهم بالقومية العربية.

وهو بمقارنته بالقومي العربي صلاح الدين الصباغ ادق واكثر تركيزاً منه على اولئك الذين عددهم الضباط العراقي قادة ومرشدين روحيين له وهم عبدالكريم الريفى (المراكشي) وعبدالقادر الجزائري واحمد عرابي وسعد زغلول وابو درة (الفلسطيني) ويوسف العظمة والشريف الحسين بن علي والحاج امين الحسيني.

لم يبق عبدالناصر وقتاً طويلاً حائراً بين اطلاب الزعامات العربية والاسلامية والافريقية فقد اهتدى بذكائه الوقاد وحسه التأمري المرفه اللذين أمنا له مركزاً لم ينازعه فيه أحد طوال ستة عشر عاماً - الى حل واقعي، قضى على الاخوان المسلمين كحزب ينازعه السلطة الا انه ارتفع بالاسلامية وبمظاهر التقى وتحبب رجال الدين - الى حد التعصب الذي لم تر له مصر مثيلاً قط في اي عهد، ولانستثنى عصر الفاطميين وقد ادى هذا بطبيعة الحال الى ذلك التضييق والاضطهاد الاقتصادي والاجتماعي للقبط المصريين وتفشت فيهم هجرات كادت تكون جماعية الى اوربا وامريكا وهذا ما سيكون موضع بحث تال.

والانتمائية الافريقية كانت عنده انتمائية اثنوغرافية لا شائبة فيها ولا انفكاك عنها فالعنصر العربي المتسرب الى الدماء المصرية مهما بلغ حجمه والمبالغة فيه كان يذوب ويتمثل في العنصر «الحامي» المصري كلما صبّ في قدره مقدار الا انه توسل بالاسلامية لتوقل السلم العربي قدر ما توسل بالتراث الحضاري للغة العرب، وكان يتفق في هذا التقرب الاسلامي مع كل من سبقه من زعماء القومية العربية ومفكريها.

ومن كليهما ممتزجين اتخذ نضاله ضد الوجود العسكري الاجنبي - اي الاحتلال كما سماه عين الشكل الذي اتخذته دعوة صلاح الدين الصباغ مترابطين بالكره الشوقييني الاعمى لكل ما هو اجنبي، بالتعصب الديني الذي لا يقره الاسلام النقي.

ذلكم هو الرداء التقليدي الذي لبسه عبدالناصر عندما اهتدى الى القومية العربية في وقت متأخر ولم يكن بالشيء الجديد.

يذكر هيكل مؤرخ الزعيم المصري ما نصه:

"لم يكن لعبدالناصر وزملائه اي مشروع سياسي عندما قاموا بشورتهم ومن واجب الانصاف للحقيقة والتاريخ، يقتضي التسليم بان جمال عبدالناصر لم يكن لديه حين قامت الثورة غير مضمون الشعار الذي لم يكن يردد غيره في تلك الأيام

وهو شعار "العزة والكرامة" ومن التجني على الحقيقة والتاريخ ان يزعم احد ان جمال عبدالناصر كان لديه في هذه الظروف منهاج كامل او شبه كامل للعمل الوطني يشتمل على تغييرات اقتصادية او اجتماعية او سياسية محدودة، على ان نفس الواجب يفرض التسليم بان مضمون شعار "العزة والكرامة" ينطوي على ايماءات واضحة (كذا!) اولها اعادة السلطة الى الشعب والثاني تخليص الوطن من سيطرة واستغلال الملك فاروق والاقطاع والاحتلال البريطاني."

ومما ظهر فيما بعد من زعيمه، صعب علينا قبول التفسير الذي اعطاه هيكل لشعار "العزة والكرامة" هذا، بل وجدنا فيه ايماءات واضحة على تأكيد فضل عبدالناصر وصحبه في القيام بالثورة ليس الا لا يستبطن اي شيء مما عزاه هيكل اليه، كان صاحبه يستخدم العبارة في مناسبات بعيدة كثيراً عن تقدير هيكل... للتدليل على فضله على المصريين ليس الا<sup>(٢)</sup>.

هكذا يصف (هيكل) اهتداء سيده الى القومية العربية، ويعين ذلك بعد فترة من وصوله الى السلطة المطلقة واعتباره رجل مصر الأول، في الواقع ان (هيكل) فشل في التحديد الزمني، كان عبدالناصر اكثر ذكاء وابعد نظراً من مؤرخه هذا. ففي الوقت الذي يقرر مؤرخه ذلك بشكل عرضي، نراه لا يجد ضرورة للبحث عن سر اهتمامه بالقضية العربية او الارجح انه كان كشأنه يفتقر الى العمق والمقدرة على تحليل دوافع زعيمه ومحاولة الكشف عن سر اهتمامه، الا انه يعطينا مفتاحاً لذلك بقوله:

"انقلاب رابع في سورية قادته مجموعة من الضباط المتعاطفين مع حزب البعث - ولم يكن جمال عبدالناصر قد التقى باحد من قادة حزب البعث بعد لكنه قرأ بعض مؤلفات زعيمه الاستاذ ميشيل عفلق واهتم بها، كما لفت نظره ان حزب البعث استطاع ان يجند بين صفوفه مجموعة ممتازة من الشباب العربي ظهر اسهامها الفكري والتنظيمي في العمل السياسي في كثير من البلدان العربية..."

ان سطحية هيكل وتبرمه من عملية الغوص في الاغوار وحرصه في الاستفادة المادية المتأتية من الحديث عن مآثر الرجل الذي "ملاً الدنيا واشغل الناس" يوماً، لم يفلح في هتك الستر عن تعلق مثله الاعلى هذا بأهداب القومية العربية فجأة ومن دون سابق انذار.

ادرك عبدالناصر القوة الكامنة الهائلة في تعبئة قومية عروبية قد تكون اسهل منالاً لتحقيق طموحه السياسي اللامحدود - من اطلاب الزعامات الافريقية وعرف ان رابطة اللغة والدين اللتين تشدان مصر الى البلاد الناطقة بالعربية هما اقوى من رابطة العنصرية التي تشد

مصر الى افريقيا، وان زعامة العالم العربي باسم القومية العربية اضمن بكثير من محاولة تزعمها على اساس الدين واللغة والتاريخ، وانه لأسهل على المصريين ان ينقلبوا الى عرب من ان يتمسكوا باهداف الحامية - الفرعونية - الافريقية.

وفي سبيله هذا إما أنه وجد في النمط القومي لحزب البعث منافساً قوياً واما انها لم تعجبه ككل رغم مشاركته في كثير من مفاهيمها، او لعله ذلك الاعتزاز بالنفس: العزة والكرامة؟ والثقة بالقدرة على اختراع نمط جديد من القومية يتغلب فيه على النمط البعثي، وهو واحد من الاسباب الرئيسة التي كرهته من المبدء في سلوك السبيل البعثي، بزعيمة وملهمه الروحي ومؤسسه عفلق الذي أبى باصرار ان يتنازل عن الرئاسة فيه لاحد. وبضطرنا السياق الى العودة الى هيكل ثانية:

"وفي هذه الفترة (ربما يقصد السنة التي تولى عبدالناصر الحكم المطلق مباشرة) اطلع جمال عبدالناصر على كتابات المفكر القومي الكبير ساطع الحصري وانكب على قراءتها بشغف ثم طلب مجموعة مؤلفاته كاملة وكان ساطع الحصري وقتها يتردد على القاهرة ما بين فترة واخرى وكان في زيارته للقاهرة ينزل في فندق صغير هو فندق (لاجينه فور) في شارع (الانتكخانه) وفوجيء الاستاذ ساطع الحصري ذات صباح بدعوة للقاء جمال عبدالناصر وكانت الدعوة مفاجأة سعيدة فقد كان ساطع الحصري يؤمن بالدور المركزي للقاهرة في اي عمل قومي وفي نفس الوقت فان اليأس كان يعتريه بعض الوقت في امكانية تنبه مصر الى هويتها العربية والى دورها الكبير المنتظر في العمل القومي، وكان ساطع الحصري قد علق الكثير على ما ذكره جمال عبدالناصر في (فلسفة الثورة) عن الدائرة العربية واعتقد انها بداية تنبهه وكان رأيه ان العالم العربي بالنسبة الى مصر هو اكثر من دائرة ضمن ثلاث دوائر العربية والاسلامية والافريقية، وذهب ساطع الحصري الى موعده مع جمال عبدالناصر وهو يحمل له مجموعة من مؤلفاته، وادهشه ان يعرف أن جمال عبدالناصر قرأها جميعها. مع ذلك فهو سعيد بالحصول عليها بتوقيع كاتبها الكبير، وكانت المناقشات بين المفكر القومي العجوز وبين الناثر العربي المصري طويلة وممتعة." (٣)

ذكرنا ان قومية ساطع الحصري، كانت على طرفي نقيض من القومية البعثية، وقد هاجمها بعنف وشدة، وهاجم فيلسوفها بنوع خاص ورأى في افكاره منافساً خطيراً ينبغي القضاء عليه

كيفما كان لذلك حاول باستماتة ان يبيع من عبدالناصر آراءه في العروبية، تارة بالكره الذي تحسسه فيه للبعث وتارة بعامل الاعتزاز الفردي (كما شرحنا) ملوحاً له ومشهداً بان الزعامة العربية هي للقاهرة فحسب وليست لدمشق ولا لبغداد اعني انها له شخصياً.

ساطع يهاجم البعث، والبعث يهاجمه الى الحد الذي كان يحث على مقاطعة ما يكتبه علناً، وهو مطرود من العراق بسبب دوره في الحركة القومية وفي حركة وشيد عالي في ١٩٤١.

وهذه الحلقات الثلاث التي أشار اليها الحصري في حديثه هي في الواقع الصدى المحبب الحسن الوقع في آذان عبدالناصر فهي تكرر لما كتبه في (فلسفة الثورة):

"المصريون تحيط بهم ثلاث حلقات، يتوجب عليهم وهم ضمنها ان يركزوا نشاطهم ويوجهوه وهي بالترتيب الحلقات العربية والافريقية والاسلامية."

ثم يتساءل: أيكون في وسعهم تجاهل الحلقة الأولى وهي جزء منهم وهم جزء منها وتاريخها هو تاريخ المصريين؟ ثم ايكنهم في عين الوقت تجاهل القارة الافريقية "وقد حكم القدر ان تكون مصر جزء منها، كما حكم القدر عليها ان تخوض نضالاً مريراً من اجل استقلالها. نضال ستكون نتيجته لنا او علينا شئنا ذلك او أبنينا" او بامكانهم أيضاً أن يتجاهلوا وجود العالم الاسلامي الذي اتحدنا معه لا بالرابطة التي أحكمتها وحدة العقيدة بل بالرابطة القوية التي استحدثتها وقائع التاريخ.

ايدولوجية الحلقات الثلاث - والتحيز للاتجاه العروبي في القسم الأخير من (فلسفة الثورة) بالانتقال من الوطنية المصرية الى القومية العروبية، ينبط بحسب تخريجه من مصادر عدة، نوه باثنين منها: هما الارادة لخلق قوة عظمى في المنطقة والكره العظيم لاسرائيل والصهيونية.

هذان المصدران وحدهما كانا كافيين للجمع بين الحصري وعبدالناصر اعني بين عبدالناصر وبين القومية العربية.

عبارة أخرى خرجت من فمه عفو الخاطر بعد ان طاشت الاطلاقات الست التي خرجت من مسدس الاخوانجي محمود عبداللطيف في الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين من عصر يوم ٢٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٤ خرجت من دون تفكير مسبق كتلك التي اوردها قبلًا:

"ياها الاخوة... ان الخلفاء الراشدين، الخلفاء الاوائل ماتوا كلهم شهداء في سبيل الله، وانا ايضاً مستعد لتقبل الشهادة الف مرة في سبيل الله ولمصر... لو اني مت



فكلكم جمال عبدالناصر.

في عين تلك الليلة القى هو وبعض زملائه من اعضاء مجلس القيادة على الجماهير خطباً تشير الى أن نجاحه انما هي دليل على التقدم والنجاح الذي اختارته العناية الالهية لمصر، تلك هي حلقة الدين... للاسلام وللوطن المصري فحسب.

لم يكن الانتقال العملي الى الايديولوجية العربية انقلاباً، وقد اقتضت له مراحل رسمية: بدأت ديباجة الدستور المصري الصادر في حزيران ١٩٥٦ بعبارة "نحن الشعب المصري"، وأكدت مادته الأولى ان "مصر جمهورية ديمقراطية عربية مستقلة ذات سيادة، وان الشعب المصري جزء من الأمة العربية". وجاء بعدها النص الذي لا بد منه: "الاسلام هو دين الدولة الرسمي".

استحدث عبدالناصر عضويته في العروبية لكن الأساس بقي "مصر". ويلاحظ ان المواد الباقية من الدستور لم تأت الى ذكر عبارات لقومية عربية، ولا تنويه بوحدة او تضامن عربيين.

في ذلك الزمن كان قد مر اكثر من خمس سنين على اختراق البعث الحدود السورية. وبرنامج حول القومية فيه من الوضوح الكافية، وهدفه في انجاز الوحدة العربية لا موارد فيه ولا مماناة، وكان على عبدالناصر في المباراة ان يسبق البعث وان لا يكتفي باللحاق به.

وهكذا كان، فبعد سنة واحدة، وعندما وجد عبدالناصر نفسه في العام ١٩٥٧ رئيساً للجمهورية وحاكماً مطلقاً لا حدود لسلطانه بدأ العمل جدياً للوحدة العربية لكنه كان اكثر واقعية فيها وقل طموحاً من البعث. لسبب واحد: لانها كانت عنده بمثابة مرقاة او سلم لسياسي ذي وزن عالمي، ففي رحلته السياسية العظمى التي تخللها فشل متلاحق وانتهت بوفاته محطماً كسير القلب، كان واقعياً ذا تجربة تزيد كثيراً على تجربة قادة البعث المستجدين الأغرار، فأفاقه العربية كانت في الحقيقة متواضعة سياسية صرفاً، أساء فهمها انصاره في سورية والعراق وغيرها من البلدان الناطقة بالعربية، وعجزوا عن فهم حدودها ولجأوا في سبيلها الى العنف وخوض بحار من الدماء تماماً كما فعل خصومهم البعثيون واضطر عبدالناصر الى اسنادهم ومشايعتهم مرغماً وهذا واحد من اخطائه الجسام.

لم تكن نظرات عبدالناصر الى القومية العروبية كنظرات ميشيل عفلق ولا كصديقه الحصري: نظام ايديولوجي خالص تبنى نظرياته من خلال مناقشات فكرية لمجموعة من المتفلسفين والعلماء والمفكرين وتجري في اروقة المعاهد او قاعات الدراسة او فوق المنصّات،

بل كانت مجرد علامات طريق تم تشييت الواحها على طول طريق العمل السياسي الناصري ليس إلا. وهذا ما عرف فيما بعد بالناصرية واتباعه "بالناصرين" او "بالقوميين الناصريين".

كان هناك علاقة طريق ارشده وهدته الى العروبية والوحدة العربية اكثر واقعية من النهج البعثي اليها وفي الفضاء الواسع لدائرة اربعة اكبر بكثير من الحلقات أو الدوائر الثلاث التي نوه هو بها.

ففي مفتح النصف الثاني من القرن العشرين ظهرت الى الوجود فكرة "العالم الثالث" أعني انشاء جبهة تشارك فيها تلك البلاد السائرة في سبيل التطوير، ومعظمها من البلاد التي كانت في يد الاستعمار او مرتبطة بنفوذ أجنبي فنزعت وتخلصت منه، وبدت حريصة على استقلالها وسيادتها برغبة في تحاشي اي رباط يخل به سواء مع "الشرق" او مع "الغرب".

جبهة ذات حَوْلٍ وطُولٍ جماعي دولي، وخصوصاً باحرازها الاغلبية في الهيئة العامة للأمم المتحدة مما يمكنها من القيام بعمل دولي موحد، وقد ادرك عبدالناصر انه سيكون فيها وعن طريقها قوة دولية يعتد بها لو تمكن من استخدام فكرة القومية العروبية تأكيداً لسلطانه واداة لتوجيه سياسات الدول الناطقة بالعربية في مسرى سياسته لاسيما من اجل دعم مركز مصر الدولي.

\*\*\*

في نظر القوميين العروبيين كانت الوحدة التي قامت بين سورية ومصر أعظم نصر حازته النسخة الناصرية من القومية، وتفوقت به على النسخ الأخرى منها في حين انها كانت عملاً اعظم فشل للايديولوجية العروبية البعثية، الا انها في عين الوقت لم تكن نصراً للناصرية في الواقع فقد برهنت بشكل لا مرد له ان تلك القومية التي بنيت على فكرة الوحدة الشاملة لما سموه بالأمة العربية هي لا اكثر من حلم افلاطوني لمجتمع عربي مثالي لم يسعده الحظ طول اكتنافه العقلية القومية تلك، بزعيم او قائد خلصت نيته وعمل لهذا وبإنكار ذات خالص، ليضمن على الأقل بقاء هذا الحلم عالقاً في الاذهان او لينظر اليه بشيء من الجدية، لايشير سخرية بقائه او ازدراء بالمدافع عنه، سيما بعد ان قضى نحيه آخر الانبياء واقواهم وابعدهم صينياً فطواه الثرى مع حلمه ودعوته.

\*\*\*

بعد اعلانه عن تبني قضية العروبية، وهدف مصر الثورة في ان تكون العرب امة واحدة قادرة

على الدفاع بوجه الامبريالية والاستعمار تناولت اذاعة صوت العرب رأس الخيط واذا بها تغدو بادارة مذيعةها الأولى (احمد سعيد) مدرسة قائمة بذاتها، يصلول فيها هذا ويجول مثلما كان يفعل يونس بحري من اذاعة (حي العرب) من برلين ايام الحرب العظمى الأخيرة<sup>(٤)</sup> وفي عين الوقت لجأ عبدالناصر تطبيقاً للسياسية التي فصلنا فيها الى الضغوط السياسية على حكام الدول الناطقة بالعربية وقد خلفت والحق يقال تأثيرها على سياساتهم. بعض صمد لها وبعضهم استنابم وقد ملكه الرعب، واستخدمت ساعات صوت العرب الأربع والعشرين استخداماً حاداً لممارسة تلك الضغوط فكانت تبتز وتهدد وتتوعد وتنذر الحكام بنشر فضائحهم صدقاً او كذباً، وجاء عبيدها الأكبر عند توقيع المعاهدة البريطانية - المصرية التي وضعت امداً محدداً للجلاء التام عن القناة. راح صوت احمد سعيد يلعلع في سماء البلاد الناطقة بالعربية، موجها الى العراق بنوع خاص اذ كان حكامه قد انتظموا في سلك الناتو عند عقد حلف المعاهدة المركزية:

"اخي العربي في كل مكان في هذا اليوم كسرت مصر العربية آخر قيد من قيود الاستعمار والتبعية. مصر العربية حققت هذا الهدف خلال عامين فقط، استمع اليها وهي تقول لك، انه ليس ممكناً الدخول في احلاف الا مع العرب... اخي المطاطيء الرأس في العراق... اخي العربي على حدود فلسطين، وفي الاردن وشمال افريقيا، تذكر جيداً ما حصل في العامين الماضيين وعندئذ سترفع رأسك في عزة وكرامة... العراق يتحرر بتحرر مصر، والامبرياليون سيرغمون على خطب ودك والسعي الى صداقتك... ارفع رأسك عالياً... اخي لقد حقق اخوانك المصريون العرب نصراً عظيماً لك..."<sup>(٥)</sup>

في العام ١٩٥٥ بدا نوري السعيد العقبة الكبرى في وجه مشاريع عبدالناصر فانداح سخطه عليه لينصب على كل الحكام الذين أطلق عليهم صفة الرجعيين ووسمهم بميسم العمالة للاجنبي، وهم كل من يرى رأي نوري السعيد وينهج نهجه ومنهم كميل شمعون رئيس الجمهورية اللبنانية.

وعلينا ألا نغفل العامل الشخصي، عامل حفظ النفس والاحتفاظ بالسلطة فقد كان لهما دخلهما ايضاً، ولعاطفة الحب والبغض الشخصي دخلها ايضاً - كما يعلمنا التاريخ وتجاريه في رسم السياسات وصياغة احداثها الكبرى: عبدالناصر المزهو بنفسه الحديث النعمة، ونوري السعيد السياسي الخرف ذو عقدة النقص البريطانية الذليلة!

هذا ما رآه أحدهما في الآخر. عند اول لقاء ادرك السعيد لاول وهلة بان هذا المصري بكل ما ابداه من كياسة وادب وتواضع يريد ان يعلو ظهره للوصول الى زعامة الأمة العربية فقرر من المبدء أن لا يكون درجة من درجات السلم الذي سيرتقي به الى هذا المقام.

لم يغضب عبدالناصر على صلاح سالم وعلى سداجته بقدر غيظه لخسارة جولة سياسية أمام سياسي كان قد وضعه في افضل الاحوال في مرتبة تلك الطائفة من الپاشوات المصريين الذين خضعوا للاحتلال الاجنبي، ففضى عليهم في يوليو بضربة واحدة كما تسحق قشاشة مجموعة من الذباب.

وللحقيقة والتاريخ ورغم المعركة الاعلامية التي شنها عبدالناصر فيما بعد على نوري والطبقة الحاكمة العراقية التي يمثلها، لم يحاول في مبدء الأمر الاطاحة بنوري بل حاول احتضانه ولف جناحيه عليه فكان اقصر واضعف كثيراً من احتوائه.

بدأ عبدالناصر في اظهار عرويته بالادعاء بأن ارتباط اي دولة عربية بالغرب عن طريق حلف دفاعي قد يعرض حياد الجامعة العربية للخطر، فمن الواجب القومي عدم التورط في التزامات اجنبية، لتعطى الجامعة الفرصة من اجل توحيد صفوفها وتقوية مكائنها، وليحال بين الغرب وبين التدخل في شؤون الدول الناطقة بالعربية وليضربوها بعضها ببعض.

كان للسعيد كغيره من حكام العرب رأيه الخاص في الجامعة وفي جدواها منذ تأسيسها. كانت كما أشرنا فكرة بريطانية بحثة قصدت بريطانيا بها المحافظة على نفوذها القديم في البلاد الناطقة بالعربية، واتخذها فاروق فيما بعد مطية، وبدت للعالم العربي كله وبشكل واضح خلال الاعوام العشرة التالية من عمرها، وهي ممسحة للحذاء المصري، بوجودها في مصر وبأمينها العام المصري الذي يوكل اليه اختيار موظفيها وتوجيه سياستها وصياغة قراراتها لانجد لها وصفاً ابرع من وصف الكاتب اللبناني الباقعة (منح الصلح) بعد مرور خمسين عاماً على قيامها:

"ذهبت ادراج الرياح، لا وحدة الأمة (العربية) فقط، بل جميع التنظيرات المعدلة التي كانت تطرح. الا يسلم العربي باي شكل من الاشكال بالفرقة، فحين يعجزون عن تكوين ادارة سياسية واحدة، يقيمون بدلاً منها جامعة دول عربية هي في الحقيقة مؤتمر دائم للحكومات العربية ليس الا، وحين يعوزهم الهدف الواحد الجامع يكتفون (بوحد الصف) وحين تعوزهم وحدة الصف هذه يكتفون بالتخفيف عن الخصومات فيما بينهم تحت شعار التضامن (العربي) وقد جربوا خلال مسيرة

الجامعة العربية وخصوصاً في الوقت الذي لم يكن يقودها رأي واحد - سياسة سيروا سير أضعفكم وهي (السياسة) المنبثقة من آداب القوافل في الصحراء التي تقول انه اذا كان ثمة شيخ عجوز او طفل صغير أو جمل اعرج فان القافلة كلها ينبغي ان تسير وفقاً لظروف الواحد منهم، ومع ذلك لم تستطع الجامعة العربية ان تحافظ على دور معقول من وجودها وفعاليتها، فهاجرت من مصر الى تونس، ثم عادت منها الى مصر وما تغير منها وفيها الشكل والروح".<sup>(٦)</sup>

لكن عبدالناصر اراد ان يجعل من الجامعة العربية سلاحاً ضد ما اسماه بالأحلاف الاجنبية بالأحرى، وان يبعد التأثير البريطاني عنها باي ثمن كان لئلا تستخدم وسيلة للبقاء العسكري في القناة<sup>(٧)</sup>، وتبعاً لذلك رفض سياسة نوري السعيد جملة وتفصيلاً في حالة صوابها وخطئها، في حالة نفعها أو ضررها، واعتبرها خطراً على الخط السياسي العام الذي انتهجه وضربة معول عنيفة موجهة الى الدعاية التي يقوم عليها شعاره الجديد "تحقيق الوحدة العربية والاستقلال". وخبا نجم صلاح سالم ولفه ظلام الخمول حتى اخترمه الموت اثر نوبة قلبية ولحق به شقيقه جمال سالم فكان الثالث بين ضباط ٢٣ يوليو ممن استغنى عنهم عبدالناصر.

وبقي عراق نوري السعيد وصحبه العروبيون المخضرمون ضباط الثورة الحجازية شوكة في خاصرة عبدالناصر طوال سنتين آخرين حتى هبطت عليه ازمة السويس والعدوان الثلاثي هبة من السماء فخلالها احدثت سياسة نوري خللاً عظيماً في خطط الزعيم المصري، وجاء العام ١٩٥٦ تمحو آثاره الخيبة العظمى التي مني بها في مؤتمر القاهرة المنعقد في ٢٢ من كانون الثاني ١٩٥٥ بهدف اقامة جبهة عربية ضد العراق إثر دخوله عضواً في حلف المعاهدة المركزية. مؤتمر الجامعة هذا عزز موقف العراق بصورة لم يتوقعها لا الذي دعا اليه ولا الذي خاف عقباؤه<sup>(٨)</sup>.

ليس من اغراض هذا الكتاب شرح العلل والاسباب التي استند اليها عبدالناصر ولا وصف الجهود اليائسة التي بذلها. دفع بصبر واصرار المزاعم والعلل التي عرضها خصومه دون جدوى، وخسر لأنه لم يكن لديه في ذلك الحين سياسة بديلة بناءة يستطيع تفويها. وكل ما عرضه من حجج ودفاع لم ينجح الا في كسب السعوديين واليمنيين، ولم يحظ اي مقترح من مقترحاته بإجماع، بالأخير صرح وقد تملكه قنوط:

"اني اقترح الغاء ميثاق التضامن الأمني الخاص بالجامعة العربية ولتكن الجامعة مجرد منظمة للتعاون الثقافي فحسب."

ويعلق انتوني نثنج على هذا بقوله: "كانت هذه مجرد حركة مرشح اكثر منها اقتراحاً جدياً"<sup>(٩)</sup>.

كانت التجربة الأولى لهذا السياسي المستجد، صدمة أليمة غير متوقعة لزورقه الذي يخوض عباب تيارات البلاد الناطقة بالعربية. وهي تيارات عاصفة سريعة التحول بأسوأ الفروض ورغم معرفته بالخيوط التي تشد حكامها بالغرب. كان هذا الزعيم الشاب يتوقع على الأقل ان يبدي المجتمعون استعداداً للقيام بتجربة ارغام الغرب على التعامل معهم جميعاً، وكقوة متحدة متراسة بكل ما يملكون من ثروات طبيعية ومواقع استراتيجية وزاد من حنقه وخيبتته انه لم يجد بينهم من يشاركه الرؤية في اهمية بناء صرح للجامعة العربية يصلح ليكون اداة سياسية فعالة قادرة على التفاوض وفرض الشروط نيابة عن الجميع من موقع قوة، كما استاء كثيراً وهو يراهم يكثرن حول الثرثرة حول العروبة والوحدة العربية مثلما يهرف النائم وهو في حلم لذيد.

لاندرى كم كانت سيطرة مصر السابقة على هذه الهيئة ومسؤوليتها عن وضع الجامعة البائس مثلما نجهل كم كان عبدالناصر يدرك بأن دول الجامعة تعي بدرجة كافية بأنه ينوي فوق كل شيء أن يمتطبها ويستخدمها ويستخدّم الدول العضوة معها لمنفعتهم.

ومهما يكن من أمر فهذه التجربة الكبرى كانت ذات آثار مهلكة وخطيرة، فقد ادرك عبدالناصر منها انه لا يمكن ان يفرض رأيه على حكام البلاد الناطقة بالعربية، وان عليه ان يلبجأ الى خطته التأميرية، تلك التي ضمنت له النجاح وامنت له السلطة المطلقة، ومكنته من القضاء على خصومه في مصر.

الخطوة الجديدة: استعداد الشعوب على حكامها واستغلال المعارضة في الداخل، بشعارات القومية العروبية والخطر الامبريالي على الوحدة.

راح يناشد تلك الشعوب للعمل على التخلص من حكامها الفاسدين صنائع الغرب، واطلق اذاعة صوت العرب لتهاجم السعيد وشمعون ونظام الحكم السوري بعنف لم يسبق له نظير في تاريخ العلاقات العربية ومشاحناتها؛ دعت العراقيين والسوريين واللبنانيين الى الثورة على حكامهم الخونة الذين يريدون تسليم مقدراتهم ومستقبلهم للامبريالية والمستعمرين الذين يدأبون على السير في عين الخطوط الرهيبة الرامية الى العودة بالعرب المسلمين الى عصور الجاهلية عن طريق السيطرة السياسية والعسكرية وتكبيهم بقيود "التبعية" وباستخدام اسرائيل رأس جسر بالتعاون مع "العملاء" المحليين امثال السعيد وكميل شمعون والخوري

وخالد العظم. ونال الملك حسين وقائده كلوب على الأخص هجوماً مقدعاً صاحباً بوصفهما عميلين أصيلين للإمبريالية يستغل ثانيهما منصبه كقائد للجيش الاردني لخدمة المصالح البريطانية لا غير، وقد أثرت هذه على الملك الشاب وهزت اعصاباً فيه تعوزها التجارب فلم يصمد لها وبادر فجأة بعزل (كلوب) وأمره بمغادرة البلاد خلال اربع وعشرين ساعة.

ووقعت حادثة زادت في الحملة الاعلامية سعاراً واستخدمها عبدالناصر الى ابعد حد. في ٢٤ شباط ١٩٥٥ تم التوقيع على حلف المعاهدة المركزية ولم يدخل في حساب نوري السعيد ان اسرائيل ستقوم بعد اربعة ايام فقط من هذا التاريخ بهجوم محدود النطاق على الجيش المصري في قطاع غزة مخترفة خطوط الهدنة بهدف تدمير مقر الجيش ونحن لاندرى اكان عبدالناصر يعتقد فعلاً بأن تزامن التوقيع على حلف بغداد والهجوم في قطاع غزة انما هو جزء من مخطط غربي مدبر للقضاء عليه وعلى ثورته واعادة الامبريالية الى البلاد العربية؟ أم انه استغل الحادث في مطابخه الاعلامية ليبدو كذلك للرأي العام العربي؟

في ذلك الحين كانت المصادفة لقية ثمينة وصدقها القوميون العرب ونزلت عندهم منزلة المسلمين<sup>(١٠)</sup> في ذلك الحين وبالوصف الذي نالته هذه الوقعة الصغيرة من اذاعة صوت العرب والصحف المصرية وتلك الموالية في الاقطار الأخرى، لو حَلَّتْ له بالثقلين ولو جاءت ملائكة السماء بقيادة جبريل ليقول لهم ان الاسرائيليين مثلهم ومثل غيرهم من الناس يقعون أحياناً ضحايا خطأ وتهور وسوء تقدير ويقدمون على تصرفات هوجاء خالية من الحكمة، فيفرغ صبرهم احياناً ويبدو نفاذ الصبر بشكل اعتداءات وانفجارات حمقاء، وهذه واحدة منها ليس الا لما صدقوا. ان حماسة عبدالناصر لضم الرأي العام العربي الى صفه وجعله تحت رعايته ورهن اسارته، وحرصه على ان يبدو اشد المدافعين عن الحق العربي في فلسطين انساه بان الغارات المتتالية التي كان يشنها الفلسطينيون من قطاع غزة على المستوطنات الاسرائيلية بأسلحة الجيش المصري المرابط وحياناً بمشاركة وحدات من الجيش المصري وكذلك سياسة التطويق الظاهرية التي اتبعها بطرحه شعار "وحدة الصف العربي" ترجمت خطأ من قبل دعاة الحرب الإسرائيليين الذين حملوا خلال السنوات العشر المنصرمة شعار "وراء كل صخرة عربي مسلح يتربص بهم".

يعاني البشر تجارب معينة وانقلابات فكرية دورية متطرفة، وهم في حالة استغراق وتأمل وجدانية في غرف مغلقة الابواب لا يستطيع احد اقتحامها عليهم وقصارى ما يمكن عمله في هذه الحالة أن نقف لنحدس ونعقل ونستنتج عندما تفتح الابواب - وكثيراً ما نخطيء وكثيراً

ما نصيب.

في كانون الاول من العام ١٩٥٥ كتب عبدالناصر لمجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs الامريكية:

"لا مكان للحرب في السياسة البناءة التي وضعناها لتحسين احوال شعبنا... الحرب تجعلنا نخسر ولا تناسب الكثير مما نسعى الى تحقيقه."

ويؤيد (ثننگك) هذا بشكل اوضح:

"كان عبدالناصر على استعداد لترك اسرائيل تتمتع بكل مزايا التعايش السلمي دون الاعتراف بها رسمياً، بالاضافة الى استعداده لوضع القضية العربية ضد اسرائيل في ثلاجة بحسب تعبيره هو."<sup>(١١)</sup>

كان طبيعياً أن يعطف على الفلسطينيين بوصفه الحالي الداعية الاكبر للوحدة العربية الشاملة، وان يخرج لكل المهتمين بها مرتدياً كفن الشهادة، ناذراً نفسه للجهاد في سبيل رد حقوقهم المشروعة، الا ان الدافع الكامن وراء كل هذا المظهر - كان المرارة والغيبظ اللذين لازماه منذ الهزيمة المهينة التي حلت بالجيش العربي في ١٩٤٩ - ضد اولئك الذين ارسلوا جنودهم الى المعركة ليموتوا فحسب<sup>(١٢)</sup> بدون تخطيط وتنسيق مسبق.

لو صح الحكم على ما يستجد من الأفعال - على ضوء النوايا قديمها أو حديثها لما كان بوسعنا قط ان نحيل احداً الى محكمة التاريخ فيدان ويعاقب، أو يبرأ فيطلق بإحسان واعتذار.

بدأ عبدالناصر حياته السياسية بالتآمر وصنع ما يعده المؤرخون ثورة تقدمها انقلاب عسكري - في سبيل مصر والمصريين. ثم مالبت أن حمل لواء العروبة ونهض باعباء الوحدة التي تدعو اليها، وتسبب من اجل ذلك في سفك دماء عربية وغير عربية كثيرة والقضاء على منافسيه وخصومه فيها طوال حياته، فكم كنت تراه مستعداً لتنازل مصري وطني في سبيل المذهب العربي الذي اعتنقه؟ كم كان مستعداً لوضع مصلحة القومية العربية الخالصة ومستعداً لقبول زعامة قومية أخرى والعمل معها جنباً الى جنب وعلى قدم المساواة للوصول الى هذا الهدف.

وهناك بالأخير تساؤل اصغر واقل شأناً بكثير من هذه التساؤلات. كم كانت عسكرية عبدالناصر مستعدة للخضوع والاستسلام للشباب المدنية التي ارتداها بعد انتخابه رئيساً

لم يفتن أحد من الكتاب والمؤرخين الى ان السياسة البريطانية ازاء مصر ٢٣ يوليو كانت من جملة الأسباب التي دعت الى تبني عبدالناصر القومية العربية وان البريطانيين هم الذين اجتذبه الى الفضاء الأوسع من مصر أي العالم الناطق بالعربية. يذكر سر همفري تريفيديان:

"في هذا الوقت (آب ١٩٥٥) كانت مسألة مصر واحدة من اعقد المشاكل في السياسة البريطانية، وكان من الصعوبة بمكان على اي وزير خارجية التعامل مع العلاقات المصرية بموضوعية وإيجابية عندما يعرضه كل قرار بخصوصها الى هجوم من هذه الجهة او تلك، فعند اي اجراء قد يبدو فيه المُقَدِّم عليه صديقاً لمصر او مستجيباً لمطالبها - يسبب صورة كارىكاتورية تمثل عبدالناصر الظافر وهو يعلو بجزمته ذات المسامير الضخمة جسم وزير الخارجية البريطاني المرتعب والمنكمش، ولو اتخذ موقفاً صلباً من تلك المطالب فانه سيجد من الصعب أن يترجمه الى الواقع ذي التأثير، بكل القطيع الدولي ضده ولل فرد الانكليزي العادي بدت مصر رمزاً لانحلال الامبراطورية البريطانية وان لم تكن في اي وقت من الاوقات جزءاً منها والشعور بالعقم والحبيبة - وهو شعور طبيعي تلقائي في فترة التحول هذا - وجد منطلقه في الهجوم العنيف على اي وزير بريطاني يمكن ان يصور للامة بأنه ضعيف امام عبدالناصر... كانت اشباح العام ١٩٣٨ تخيم تماماً على الحكومة وتهمته تهدئة الدكتاتور والتنازلات له تطوي على اعظم الخطورة للسمعة والمستقبل السياسي". (١٤)

صورت (صوت العرب) للعرب حلف بغداد بمثابة محاولة تسلل بريطاني ثانية الى البلاد الناطقة بالعربية بعد ارغامها على الجلاء عن مصر بموجب اتفاقية الجلاء التي عقدت في تشرين الاول ١٩٥٤<sup>(١٥)</sup> ولم يفكر أحد في حينه ان من الشروط التي تضمنتها الاتفاقية ما يجعلها في مستوى شروط حلف بغداد، فقد جاء فيها ذلك الشرط "المخيف" الذي يخول بريطانيا الحق في العودة الى احتلال القناة في حالة قيام قوى خارجية بهجوم على اية دولة عربية أخرى او على تركيا.

إذن فضمان التسلل البريطاني كان واقعاً مصرياً قبل أن يؤكد حلف بغداد بسنة واحدة على الأقل، ولم يفتن أحد بل لم يجراً قلم حر شجاع على التصدي للحقيقة، سكت العارفون القوميون لان سكوتهم خدمة قومية وسكت اللاقوميون خشية وصمهم بالعمالة والدفاع عن

مصالح الاجنبي، بل خوفاً من الاعتقال.

اللهم غفرانك فأنا لا ادافع عن حلف المعاهدة المركزية ولا عن سمعة نوري السعيد الا ان عبدالناصر وحكومته وصفا اتفاق الجلاء بانه:

"اعظم انجاز حققته مصر لأمانيتها الوطنية... نحن نريد ان نتخلص من الحقد في قلوبنا ونبدأ في بناء علاقاتنا مع بريطانيا على اسس ثابتة من الثقة والاخلاص - التي امتدت خلال السبعين عاماً المنصرمة."

ذلك ما علق عليه عبدالناصر بالمناسبة من خلال احدى خطبه.

من فترة عقد الاتفاقات الدولية ضد الاتحاد السوفياتي، حاولت بريطانيا عبثاً جر مصر الى حلف الاطنطي وحلف المعاهدة المركزية، وربما كان عبدالناصر في رفضه يشعر بالندم وثقل جريمة اتفاقية الجلاء وهي صفقة مساومة مجردة قد كان سينبو عنها ذوق (الوفد) لو عرضتها عليه بريطانيا بالتأكيد، فقد كانت هناك جبهة معارضة في حين قضى عبدالناصر على المعارضة.

ولذلك كان في رد فعله فظاً عنيفاً عندما تخطاه نوري السعيد فعقد صفقة الحلف وارتبط بالنااتو تبعاً، شعر بالتأكيد ان الغرب نبذه بنقل بؤرة القوة من القاهرة الى بغداد، بجعل العراق دريئة محتقراً مصر بشخصه، مرتفعاً بالعراق بشخص نوري السعيد الذي بدا وهو يدور بالحلف على الدول الناطقة بالعربية بائعاً فكأنه هو المتحكم بمصائرنا<sup>(١٦)</sup>.

وفي الوقت الذي كان الغرب لا ينظر الى الحلف اكثر من كونه اتفاقاً دفاعياً ضد الاتحاد السوفياتي، رآه عبدالناصر بمنظار المصير العربي. أي دولة عربية ستضم اليه؟ واي دولة ستحذو حذو مصر؟ وانساق ولم يشعر الا وشبكة العروبة الكثيرة العقد تكتنفه، دخلها من بابها السياسي البحت لا من بابها المبدئي او العقائدي كقسطنطين زريق وساطع الحصري وعفلق والارسوزي فبقدر ما كانت القومية تكفل له زعامة الدول الناطقة بالعربية التي قال: قد وعدت ببطل يبحث له عن دور في مسرح خال. فان نجاحه في هذا المعترك كان يرمي بالدرجة الاولى الى لعب الورقة الدولية في مجال العلاقات الدولية لتعزيز مكانة مصر بوصفها قوة يحسب لها الحساب في متغيرات الشرق الاوسط السياسي.

"ان سجلات التاريخ تحفل باسماء أبطال، حازوا لأنفسهم ادواراً بطولية عظيمة لعبوها في مناسبات خطيرة على خشبة المسرح، لست ادري لماذا اتصور دائماً وفي المنطقة التي نعيش فيها وجود دور يتجول هنا وهناك باحثاً عن بطل يقوم بتمثيل

ذلك الدور... لماذا وجب... ان يستقر هذا الدور بالأخير على حدودنا متعباً منهك القوى ليظالبنا بالحركة، يظالبنا بأن نتقصمه، ان نقوم بتمثيله عندما لا يوجد هناك من قادر عليه" (١٧)

يحفل كتاب (كفاحي) بامثال هذه الأفكار والعبارات، فهتلر فيه هو رجل القدر الذي يصير على الاحساس العميق برسالته لقومه وللعالم:

"من ملايين الرجال رجل واحد يبرز الى الامام ليبنى بالعزم والقوة مباديء من مثل العالم المتخاذلة لاوسع الجماهير... من الضروري وجود مؤثر ما يدفع هذا البطل العبقري الى خشبة المسرح، ان شرارة العبقرية هي دفاع البطل الخلاق، ظلت كامنة فيه منذ ساعة ميلاده والبطل العبقري الاصيل هو عبقري بالفطرة ولا تأتية العبقرية بالعلم والتثقيف... الرجل العظيم صانع التاريخ هو مزيج من السياسي الواقعي ومن المفكر ويتفق في فترة من فترات التاريخ ان يقوم بدور تندمج فيه شخصية السياسي بشخصية المفكر، وكلما ازداد اندماجهما عمقاً كلما كثرت العقبات." (١٨)

قد يمكن اعتبار هاتين الانطلاقتين الفكريتين لرجل الاقدار الغربي والشرقي من قبيل توارد الخواطر لولا مسيرة عبدالناصر القومية (المصرية بالاول والعربية بالتالي) واحتقاره للديمقراطية وتفضيل حكم الحزب الواحد والزعامة الفردية عليها، الى جانب الأساليب العنيفة التي اتبعت في القضاء على الخصوم واضطهاد الاقليات الدينية حتى بأخذ عاملي الزمان والمكان وروح العصر.

كان العالم عند وصول عبدالناصر الى الحكم قد اطلع بأكثر من الكفاية على جرائم النازية والفاشية واطل اطلالة واضحة على فظائع الستالينية المريعة، كان من الجنون او الخوف ان يخص سياسي واحد بكلمة اعجاب او ثناء "للوغدين" الكبيرين اللذين انجبتهما البشرية في ليلة ظلماء.

لاول مرة في تاريخ البلاد الناطقة بالعربية تبنى نظام من نظمها اساليب واجراءات قمع مستمرة ثابتة باجهزة خاصة مدربة لتطبيقها وفي العام ١٩٥٦ بدت مصر دولة بوليسية بكل ما يدل عليه هذا الوصف. الصحف الكبرى تؤمم وتوضع تحت اشراف الدولة مباشرة. اخضاع الصحف غير المؤممة للرقابة العسكرية، الانصات على اجهزة التلغراف والمكالمات والبرقيات. وضع اجهزة استراق السمع في المحلات العامة والخاصة (١٩) تفتيش غرف الضيوف، زج

الخصوم السياسيين في المعتقلات الصحراوية البعيدة عن العمران، القبض والتفتيش الاعتباطي غير القانوني والسجن دون محاكمة، التعذيب المنظم كوسيلة قانونية لانتزاع الاعترافات، المحاكم الاستثنائية والعسكرية باسم محكمة الشعب او محكمة الثورة، اخضاع الجمعيات المهنية والنقابات للدولة، اخضاع الكتاب قبل الطبع للرقابة، رقابة المطبوعات الخارجية (٢٠) الشديدة. الحجر على حرية السفر والتنقل. اختفاء الناس من منازلهم، مصادرة الأموال واحتجازها، وقد بات ذلك سنة اتبعها القوميون اثناء ممارستهم السلطة في سورية والعراق، ذلكم هو البديل الذي اختاره القوميون للديمقراطية في مصر ثم في البلاد الأخرى الناطقة بالعربية.

\*\*\*

هذا الرجل اعتلى المسرح القومي العربي رسمياً رغم ملامحه المصرية الصميصة (٢١) وتأكيديه طوال السنوات الأربع الماضية على تلك المصرية - باعلانه في دستور العام ١٩٥٦ بان مصر دولة عربية اسلامية تتبع نظام حكم الحزب الواحد.

ومن دلائل سبقت خلال هذه الفترة وأنتهت بهذا الاعلان ادرك القبط المصريون انهم مقبلون على فترة غامضة من تاريخ مصر الديني، فقد نظروا دوماً الى انفسهم بأنهم المصريون الحقيقيون الاصلاء المنحدرون رأساً من العنصر الفرعوني، عصمهم تمسكهم بديانتهم من التزاوج والاختلاط بالاقوام الوافدة والمهاجرة وفي مقدمتهم العرب والبربر واليونان والسوريون.

نبذت مصر الوثنية تماماً وتحولت الى المسيحية في عهد الامبراطور قسطنطين (٣٢٤-٣٣٧) وبدأ تحولها الى الاسلام منذ ايام بني امية. الا ان هذا التحول كان بطيئاً، واقتضى له ستة قرون تقريباً ليستظهر الاسلام وليكون صاحب الاغلبية الساحقة، ولم يكن حجم الهجرات كبيراً وقد انصهر القادمون هؤلاء في البوتقة المصرية العامة، ولذلك وجد مجتمع مصري خالص لا يمكن التفريق من خلاله وخلال الممارسات والتقاليد المشتركة بين من هو المسيحي ومن هو المسلم فيه.

ويقر ابو سيف يوسف بهذا الواقع (وهو من الكتاب المحدثين):

"ان الاسلام انتشر في مصر في بيئة طبيعية وجغرافية لم يطرأ عليها تغيير ايضاً بعد مجيء العرب الى مصر، كما تعاملت الهجرات العربية مع تركيبة اقتصادية - اجتماعية، تميز عدد من عناصرها المادية والايديولوجية بقدر من

من المصريين حتى ان الحروب الصليبية التي غزت مصر في عقر دارها<sup>(٢٥)</sup> لم تنجح في اثاره روح عداة او كراهية او اذكاء نار خصومة، الا ان الوضع طرء عليه تغيير متدرج ليحل التضيق محل الاغضاء والسماحة، والشك محل الثقة، سيما حين كانت الانبياء ترد من الشرق عما كان يتعرض له المسلمون من اذى على يد الوحدات العسكرية التي ألّفها التتر والمغول من المسيحيين الجيورجيين والأرمن - قد يبلغ احياناً حد القتل والنهب. وبسبب ما عرف عن المغول والتتر (قبل دخولهم الاسلام وبأول غزواتهم لبلاد الرافدين) من محاباة للمسيحيين واستخلاصهم من المذابح التي كانوا يوقعونها بالمسلمين<sup>(٢٦)</sup>.

وبمرور الزمن بدأت تظهر آثار ذلك في بعض المؤلفات الدينية والفقهية<sup>(٢٧)</sup> التي كانت تتقصد إثارة عامة المسلمين عليهم وعلى ممارساتهم. وتأجيج غضبهم واتهامهم بالكثير وباختراع اساليب محقرة للشخصية للتضييق. ففي فترات كثيرة كان يؤمر القبط بوضع شارة خاصة على ثيابهم لتمييزهم عن المسلمين او ان يرتدوا زياً خاصاً او ان يمنعوا من حمل سلاح او ركوب خيل، وكثيراً ما صدرت أوامر تقضي بعدم بناء اماكن عبادة او اصلاح المتهم منها الا باجازة وان لاتعلو بنايتها حال السماح - على المساجد والجوامع.

مع ذلك كله فقد امتت المجتمعات القبطية ولقيت الحماية الكافية. وفي زمن الأسرة الحاكمة المتأخرة كان الأنبا (البطريك) يحتل مركزاً له نفوذ ويحظى باحترام كبير مثلما تمتع امثاله من رؤساء المذاهب المسيحية في ديار الاسلام سيما في حرية وسلطة تطبيق شرائعهم الخاصة على معاهدهم الدينية وعلى محاكمهم الشخصية لفض النزاعات المتعلقة بقوانينهم.

كثيراً ما سلطت اسباب النقمة على المركز الذي تحتله المرأة في المجتمع القبطي. والحرية التي اعتادها لها القبط والمسيحيون عامة، عندما اخذ الميزان الديني في القرون التالية لحكم الأمويين يتغير لصالح الإسلام وفقدت الاغلبية المسيحية موقعها في الهلال الخصيب فنشأ التنطع الديني بظهور المذاهب الاسلامية وفقهها. وانصب الهجوم في مصر بصورة خاصة على الحرية التي تتمتع بها المرأة وهي حرية تقليدية ورثها القبط عن اجدادهم الفراعنة.

ويظهر أيضاً ان النقمة على القبط كان مبعثها الحقد والحسد وكثيراً ما يتخذ ابعاداً عامة تؤدي الى مشاحنات واضطرابات. ويسجل تاريخ القبط في مناسبات كهذه ان اشعال النار في اماكن العبادة كان متبادلاً. والقبط كالمسلمين يلجأون الى هذا ايضاً ويؤجج علماء الدين هذه النار بكتاباتهم واستعداداتهم بكل اساليب التحريض، فيضطر الحكام المماليك الى طرد القبط من الوظائف العامة وسحب امتيازاتهم والتضييق على حرياتهم. ويسجل لنا تاريخ المماليك

الثبات الملحوظ، في الوقت نفسه فان الاثنية العربية الوافدة الي مصر كان ابرز قسماتها ثقافياً في المحل الاول وفيه مقدمتها اللغة العربية والدين الاسلامي، لكننا نعلم ان هذه القسمات لم تستقر نهائياً وتغلب وفقاً لتخطيط مسبق او بوتائر متساوية... وفي المجتمع المصري الذي احتفظ بقدر كبير من المدونات الثقافية الدينية السابقة على الاسلام - كان (للدن الشعبي) سيطرة واضحة. وفي اطار مكونات هذا الدين وعلى امتداد قرون عديدة كان يتشابه ويتقارب الى حد كبير، بل ويتطابق العديد من الممارسات اليومية للمسلمين والقبط.<sup>(٢٢)</sup>

وللقبط لغتهم الخاصة، وهي لغة الفراعنة المصريين المتطورة بدخول كثير من المفردات اليونانية عليها ونبذها الكتابة الهيروغليفية الى الابدية اليونانية في عهد البطالمة، راحت تخلي السبيل للغة العرب تدريجاً، طبقاً لنظرية تنازع البقاء وبقاء الأصلح، لم يكن بامكانها أمام سهولة اللغة الجديدة بمقابل تعقيدها - ان تصمد طويلاً، كما انها كانت لغة الحكام والبورقراطية، ظل القبط الريفيون يتكلمون بها بلهجاتها المحلية في تعاملهم البيتي، حتى انقرضت وبطل استعمالها في اواسط القرن التاسع عشر وانزوت في الكنائس والأديرة بوصفها لغة طقوس الكنيسة القبطية<sup>(٢٣)</sup>.

القبط هم مجموعة مسيحية في البلاد الناطقة بالعربية، وقد يبلغ عددهم اليوم ستة ملايين، يواقع نسبتهم الثابتة في كل تعداد او تخمين سكاني للشعب المصري وهي ١٠٪ وهم ينتشرون على طول وادي النيل وينقسمون قسمة تكاد تكون متساوية بين الريف والحضر واعظم تركيز لهم في القاهرة ومصر العليا (الجنوب) في المنيا، وهم يفخرون ولا احد ينازعهم في هذا - بكونهم المصريين الأصلاء الحقيقيين لان دينهم حال دون الاختلاط العنصري.

\*\*\*

خلافاً للمغول والتتر - حافظ ممالك مصر على التراث العربي بشكل ما وبسبب لجوء افواج من العلماء والفقهاء والادباء والشعراء والفنانين والحرفيين المهرة الى مصر هرباً من اضطهاد الحكام الاجانب في وادي الرافدين وفي جزء من سورية، حيث وجدوا الحماية والرعاية من دولة الفاطميين اولاً ثم المماليك بعدهم، وازدهرت اللغة العربية التي كانت لغة الدواوين ولغة البورقراطية عموماً<sup>(٢٤)</sup> وباستثناء حوادث قليلة رويت عن اضطهادات ومضايقات تعرض القبط لها مع الأقلية اليهودية الصغيرة فلما كان حكام هذين العهدين يتدخلون في حياتهم ماداموا يدفعون ضرائبهم ويقومون باعمال السخرة في الاوقات التي تطلب منهم اسوة بغيرهم

تسع مناسبات على الأقل متماثلة بين الاعوام ١٢٧٩ و ١٤٤٧، من ذلك انه صدر في العام ١٣٠١ أمر باغلاق جميع كنائس النصارى. في تلك المناسبات يعتقد المؤرخون بأن عدداً كبيراً من القبط نبذوا ديانتهم واعتنقوا الاسلام ومما لايشك هؤلاء فيه هو ان النسبة العددية الاسلامية في مصر ما رجحت لتصل الى ما بلغته الآن الا في اواخر عهد المماليك أي في نهاية القرن الخامس عشر<sup>(٢٨)</sup>.

ولا يقر المرجع الذي نوهنا به - ولا القبط عامة بهذا الاحصاء فهو عندهم شبيه بغيره من الاحصاءات الدعائية المكذوبة التي كانت حكومة عبدالناصر تضطلع بها في نواح عديدة اقتصادية ومالية وصناعية لتبرهن على التقدم الذي حققته ثورة يوليو. بعضهم يعزو الرقم الرسمي هذا الى الرغبة الرسمية في المحافظة على صورة مصر العربية زعيمة العرب والمسلمين والميل تبعاً لذلك الى تقليل عدد الاقلية المسيحية فيها قدر الامكان. وليوضع في الحسبان أيضاً تردد كثير من قبط مصر العليا والريف في تسجيل انفسهم اقباطاً وإحجام عدد آخر يسكنون مناطق اسلامية بحتة حيث يكونون موضع شك ومقاطعة حكومية وشعبية فتراهم يؤثرون (التقية) أي عدم التصريح بمسيحييتهم عندما يسألهم موظف الاحصاء عن دينهم ويذكر (برتن) هذا:

"من يقرأ صحيفة الاهرام المصرية الرئيسة خلال فترة متتابعة من الايام لا بد سيلاحظ العدد الكبير من القبط المتوفين الذين كانت الجريدة تنشر خبر وفاتهم في حقل الوفيات. وكثيراً ما تعلن اغلبية منها عن هذه الوفيات. وفي الوقت الذي يتوقع من مجتمع مسيحي متقدم ثقافياً وواع اجتماعياً ان يكون ميالاً للقيام بمجهود اعلان الوفيات من افراده - علينا ان نلاحظ بأن كل المتوفين القبط الذين نشر خبر نعيهم بالاسماء ينحدرون من اسر غنية معروفة او ذات مكانة في المجتمع وهناك عدد قليل منها نشرت صورة المتوفى وهو بالجلابية (اللباس الريفي المصري الشائع) لأفقر الفلاحين وكما ذكر لي مؤلف قبطني بارز هو الآن مواطن امريكي منذ اواخر العام ١٩٦٦: "عندما لا يخشى القبطي تهديداً بالتمييز الديني، لا تتردد اسرته في الاعلان عن مسيحيته."<sup>(٢٩)</sup>

وليس بعد الموت ما يخشى طبعاً. في عهد محمد علي وخلفائه ساهم القبط في الحياة السياسية العامة لاسيما خلال العهود الملكية الثلاثة الأخيرة. وناضلوا قبل الاستقلال مع سائر المصريين من اجل انهاة الحماية الاجنبية. وقد كتب في ذلك اكثر من الكثير. واعترف لهم

الكتاب المصريون المسلمون بهذا وسلموا لهم بالاصالة المصرية:

"يوضح تدقيق النظر في دور الاقباط في التاريخ السياسي لمصر الحديثة أنهم لعبوا دوراً محسوباً في المجتمع واهتموا بالتجانس السياسي والانصهار الكامل في الحياة السياسية ولم تختلف افكارهم وآمالهم عن افكار وآمال بقية المصريين، كما كانت ظروفهم الاجتماعية تتحدد وفقاً لنزعة الحاكم وميوله. فعندما كان الحكام يحسنون معاملتهم ويتميزون بالسماحة تجاه معتقداتهم كان الاقباط يقومون بدور فعال اجتماعياً وسياسياً ولكن حين كان الحكام خلاف ذلك في بعض مراحل تاريخ مصر الاسلامية كان الاقباط ينسحبون من الحياة العامة ويتحولون الى طائفة منكمشة ويصبحون سلبيين على الصعيدين الاجتماعي والسياسي."<sup>(٣٠)</sup>

عرف تاريخ مصر الحديث مواقف مصرية وطنية للقبط لا شائبة فيها فالجنرال بلنت قائد القوات البريطانية صاحب كتاب (التاريخ السري لاحتلال مصر) يذكر انهم على العموم كانوا الى جانب وزارة ثورة العام ١٨٨٢ وان الأنبا كيرلس الخامس (١٨٧٤-١٩٢٧) أيد احمد عرابي ووضع توقيعاً على القرار الشهير الذي صدر اثر الاجتماع الوطني بحضور عرابي ومحمود سامي البارودي وبدعوة منهما، ذلك القرار الذي نص على مقاومة الغزو البريطاني<sup>(٣١)</sup>.

ليس هناك شك، وبسبب واقع مصر الإثنوغرافي وانتماءاتها العرقية<sup>(٣٢)</sup> وتاريخها، كان حظ اقباط مصر من التسامح الديني منذ الفتح العربي واستظهار الاسلام يفوق كثيراً حظ اخوانهم الشرقيين حيث اصبح المسيحيون فيها أقلية أيضاً، ولايصعب على القاريء استنتاج اسباب ذلك من بعض ما ذكرنا قبل هذا، الا ان هذه الحقيقة لا يمكن أن تجعلنا نغفل عامل التسلط والامتياز للاغلبية. حيث يحتل الدين المركز الاول في الحياة اليومية وكغيرهم من الاقليات المسيحية الأخرى استقر في الاقباط شعور متوارث بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، وهو شعور مرهف دقيق كثيراً ما يدفع فيهم رغبة شديدة للمنافسة في المشاعر الوطنية ومباراة الاغلبية في الحقل السياسي والاجتماعي يتجلى احياناً في اعمال فردية بطولية وفي الصدق والأمانة في مجال الوظائف العامة القليلة التي تناط بهم<sup>(٣٣)</sup>.

لم يكن للاقباط في سلك القضاء تمثيل يذكر، وفي السلك العسكري رغم الاقبال والرغبة فقد كان قبولهم لا يتناسب والمجموع النسبي لهم ويقدر الدكتور مايناردس<sup>(٣٤)</sup> نسبة المقبولين



في الكليات العسكرية وبالتالي نسبة ضباطهم في الجيش المصري بواحد من ثلاثين وهي لا تتفق ونسبة العشرة بالمائة القبطية الى مجموع السكان العام ومع ذلك فبخلاف الجيش العراقي والسوري وجدنا عدداً ملحوظاً منهم بلغ مرتبة القيادة والدرجة الرفيعة في المسلك، وفي الانتخابات النيابية للعام ١٩٦٤ لم يوجد في المجلس المنتخب غير قبطني واحد عن اسيوط من اصل (٣٦٠) عضواً. وفي خلال السنوات الثماني عشرة من حكم عبدالناصر كان هناك وزيران قبطيان انيطت بهما وزارتان ثانويتان حفظاً للمظاهر كما يبدو وكلاهما من اكفاء الاداريين لكنهما لا يتمتعان بنفوذ سياسي<sup>(٣٥)</sup>.

ويدافع من هذه الرغبة وجدنا اعداداً كبيرة منهم تنتسب الى حزب الوفد والى الحزب الشيوعي، مثلما كان يقبل المسيحيون والكرديون العراقيون على الانتساب للحزب الديمقراطي (الحزب الوطني الديمقراطي، حزب الشعب والحزب الشيوعي واليسارية، ويجافون الأحزاب القومية)، بوصفها احزاباً تقدمية تطرح افكاراً ديمقراطية علمانية ويتسع رحاب قاعدتها الشعبية العريضة لاحتضان ابناء المواطنين كافة بصرف النظر عن وضعهم الاجتماعي وعقيدتهم الدينية. كانت نسبة القبط في هاتين المنظومتين، اكثر بكثير من نسبهم الى مجموع سكتة مصر.

ولم يحاول الضباط الأحرار فيما يبدو أن يفتحوا ضابطاً قبطياً واحداً أو يعملوا على ضم أي واحد لا في دائرة التسعة ثم الثلاثة عشرة الضيقة، ولا في خلاياهم ولم يعرف فيما بعد عن وجود شخصية عسكرية قبطية ذات وزن في كل حركة الجيش. وقد شاعت الحركة من الاول ان تظهر بطابع اسلامي صارخ في الاتجاه والممارسة العملية، وربما كان سلوكها هذا السبيل يهدف الى انتزاع المبادرة من الاخوان المسلمين الذين اعتمدوا عليهم وخصوهم بعطف وسمحوا لهم بالتعاون معهم لتعديل ميزان القوى الشعبية ازاء الاحزاب السياسية الأخرى وفي مقدمتها الوفد.

لذلك وكما اشرنا اليه قبل قليل، لم تكن فترة الحكم الناصري تمثل أي تواجد للقبط على الساحة السياسية في المستوى القيادي، "واكتفي بالبحث عن قبطني من التكنوقراط الفنيين لكي يقوم بتمثيلهم في الوزارة وكان الاختيار لهذا الوزير او ذاك مبنياً على حسن سمعته وعلى تخصصه الدقيق في مادته الشخصية"<sup>(٣٦)</sup>.

في مبدأ الأمر لم يجد القبط خطراً في حركة الأخوان المسلمين بشعارهم: "الله الهنا، والرسول زعيمنا، والقرآن دستورنا"، وعدوها واحدة من تلك الانفجارات العقائدية العديدة في

الاسلام المصري عبر تاريخه الطويل، تفتعلها الطبقة الحاكمة احياناً، وتغض الطرف عنها ان وجدت في الاغضاء فائدة، وقد تستخدمها سلاحاً عند الحاجة كما حصل للاخوان انفسهم لفترة قصيرة ايام العهد الملكي على انها لا تتردد في توجيه ضربة ماحقة اليها ما ان تشعر بخطورة في امتداد تلك الدعوة الى حد تهديد سلطتهم.

واتفق ان الاخوان حين ذلك كانوا في شغل شاغل عن القبط، تحتكر جهودهم واورقاتهم مقارعة السلطة وتنظيم الخطط لزعزعة اسس الحكم باللجوء الى حوادث الشغب وتديبر الاغتيالات السياسية للوزراء وكبار الساسة، وكذلك بالتعبئة الاسلامية العامة لاستنقاذ فلسطين الاسلامية. وما من شك في ان بعض قلق كان قد انتاب القبط عندما وجدوا الحكام الجدد يخطبون ودّ الاخوان ويتعاونون معهم تعاوناً بلغ وقت ازمة "نجيب - ناصر" حد استخدامهم في التظاهرات الموالية لناصر، ومكافئتهم باطلاق سراح سجنائهم ومعتقليهم الآلاف دون غيرهم من المعتقلين والسجناء السياسيين الآخرين. وظل القبط مع هذا في حالة قلق وترقب غير مريح منذ ١٩٥٢ حتى تنفسوا الصعداء في اواخر العام ١٩٥٤ عندما اوقع عبدالناصر بالاخوان فشعروا بنوع من الأمان الا انهم استمروا في سلبيتهم في عالم السياسة.

وادركت الانتلجنسيا القبطية والاقباط عموماً بعد صدور دستور ١٩٥٥، ما تعنيه عبارة: كون الشعب المصري جزءاً من الأمة العربية وما تلاها من الدعوة الى الوحدة العربية في ظل حكم مطلق شبه عسكري يملئ ارادته بالقوة وبالساليب القمع والبطش. وينزل بمن لا ينزل عن رأيه أشد العقاب<sup>(٣٧)</sup>.

لم يبد القبط ما يدل على تبرمهم بالانقلاب. كان بالنسبة اليهم حدثاً سياسياً واحداً من احداث سياسية عدة سألقة تمخضت بقيام حكم جديد وزوال حكم آخر وحاولوا بمختلف الأساليب ومظاهر الولاء<sup>(٣٨)</sup> البرهنة للحكام الجدد والتقرب منه، في حين عملت الدعوة الى القومية العربية والتحول الاشتراكي - على ابعادهم. إذ كان من مقتضى اعتبار مصر جزءاً من البلاد العربية والانتماء الى العروبة - يتضمن سلبهم مصريتهم - في حين اوقعت القوانين الاشتراكية بالطبقة المتوسطة في الحواضر والمدن ضربةً لا قيام بعدها بتجميد نشاطها التجاري - الاقتصادي - الصناعي عن طريق حصر التجارة بالمؤسسات العامة، والمصادرات التي ألبست رداء التأميم.

واذذاك بدأت الهجرة الجماعية الى اوروا وامريكا.

وهو ما لم يحاوله القبط في أي عهد من العهود الاسلامية منذ الفتوح الأولى، رغم كل ما

تعرضوا له من مضايقات ومتاعب، لاسيما في العهود العثمانية. لم تعمل السلطة الجديدة شيئاً لتبديد مخاوفهم. فبرغم شطب قوانين عديدة قديمة عفا عليها الدهر واستحداث قوانين تقدمية أخرى لم يتعرض الحكام الى تلك القوانين التي قيدت حرية القبط في مزاوله عقائدهم وربطها بمشيئة الدول<sup>(٣٩)</sup>.

ولكل كاتب قبطي وهم غير قليلين، اسلوبه الخاص في التعبير عن مشاعره الجريحة بسبب الطريقة القاسية التي اتبعها الاتجاه العروبي نحو الاشتراكية في مصر - بهدف سلب القبط اهم ما يعتزون به وهو مصريتهم وبتحديد مجال نشاطهم الفكري والتجاري والاقتصادي مدار حياتهم ومورد رزقهم، خذ مثلاً من هذا الكاتب الذي لم يستطع أن يصحو تماماً من تأثير الجو الذي ساد مصر ايام الفترة الناصرية (١٩٥٦-١٩٦٧) العروبية الا انه لم يجرأ مع ذلك على قول ما كان يعتبر قوله في تلك الفترة جريمة مخلة بأمن الدولة تبلغ منزلة الخيانة وتستوجب باقل تقدير الاعتقال في واحد من المعتقلات الصحراوية المرعبة. يقول في مقدمته لكتاب له:

"لكن لهذا الكتاب هدفاً مضمراً هو الدفاع عن الهوية الوطنية للشعب المصري في اطار القومية العربية والانتماء العضوي والمصيري الى الحضارة العربية الاسلامية - لكن هذا الهدف ليس مقصوداً لذاته وانما هو نتائج رؤية الخطر الذي يتهدد هذه الهوية سواء من الذين مجدوا زيفاً حضارة السبعة آلاف سنة وكأنهم ينزلون هويتنا في ماضٍ منفصل عن التاريخ العربي او الذين ينتسبون زوراً الى شعارات دينية وكأنهم يختزلون هويتنا في الدين ومن ثم يبتعدون من هوية ابناء الوطن الواحد والشعب الواحد لأنهم اتباع دين آخر.

المثل الآخر الذي اضربه على الفجوات المظلمة في العقل الجمعي او تمزقات الذاكرة الشعبية فهو غياب العنصر القبطي من تاريخ مصر، ومن ثم غياب المعنى من وجود الاقباط الى يومنا. أي ان جزءاً من اشكالية الحاضر يعود الى غيبة المنظور التاريخي. ومن المفارقات ان اقسام الفلسفة والتاريخ في جامعاتنا تهتم بتاريخ المسيحية وتاريخ الكنيسة في اوروبا. اما مصر القبطية فانها تسقط من الوعي التاريخي سقوطاً تاماً. الا في المتحف القبطي والمعاهد الدينية القبطية هكذا تنشأ الازدواجية والرؤية بعين واحدة. تقول مدراسنا الوطنية ان هناك مصر الفرعونية ومصر اليونانية والرومانية ومصر الاسلامية ومن الغريب حقاً ان نعترف اذا كنا متدينين بعصر الوثنية، واذا كنا وطنيين بمصر المغزوة من اليونان والرومان

لا نعترف بمصر الفرعونية هو الآثار العظيمة، والباقي من اليونان والرومان هو آثارهم، بينما الباقي من مصر القبطية الى جانب آثارهم هم البشر الذين يعيشون بيننا خيطاً اصيلاً في نسيج الشعب المصري... وهكذا فالاقباط ليسوا عصباً تاريخياً فقط وليست مصر القبطية تراثاً دينياً فقط وانما الاقباط هم جذور وفروع مستمرة في البنية التاريخية للشعب المصري ووحدة نسيجه الوطني فالعصر القبطي مرحلة زمنية هو أحد جذور الشعب كله، وليس مرحلة منفصلة او منغلقة على ذاتها تضم الاقباط وحدهم وهو جذر اشمل من ان نحاصره في العقيدة الدينية لأنه جذر ثقافي وحضاري للمقاومة البطولية ضد روما وبيزنطة هي مقاومة الشعب المصري وأحد شرايين الوعي الوطني الممتدة الى عصرنا ومصرنا جميعاً. والاقباط عاشوا في العصور الاسلامية المختلفة حتى الوقت الراهن مما يبرهن على ان الاسلام بالرغم من فترات الاضطهاد التي لم ينج منها المسلمون انفسهم قد حافظ في النهاية على الوجود القبطي ضمن النسيج المصري العام وهو أمر كان من شأنه اغناء مكونات الوطنية المصرية.<sup>(٤٠)</sup>

كم كان يدري هذا الكاتب وأضرابه بان عملية مماثلة تفوقها قسوة جرت على ارض الرافدين خلال التيار العروبي الكاسح؟ بعد قيام دولة العراق مباشرة حيث طمست او كادت - معالم الحضارة المسيحية والفكر المسيحي الذي كان سيداً من غير منازع على هذه الأرض خلال خمسة قرون او نحوها، قلما نجد لها تنويهاً او ذكراً خاصاً في كتب التاريخ الحديثة، كان حوض دجلة والفرات بشعبه طوال هذه القرون مركزاً يشع منه تراث متمايز للفكر المسيحي والاداب السريانية الى الشرق بكنيسة مستقلة فكرياً وفلسفياً عن الكنيسة الرومانية - البيزنطية في روما والقسطنطينية مستقلة عن كنيسة انطاكية في سورية وعن كنيسة القبط في الاسكندرية - انفردت كنيسة قطيسفون - بابل عن هذه الكنائس قاطبة بنشاط وحمية وانتقلت الى ايران وتركستان شرقاً وشمالاً والى افغانستان والهند والسند حتى بلغت الصين آمنة بمعلميها الافذاذ في حماية سلطة اكبر امبراطوريتين حينذاك. كل هذا غاب في كتب التاريخ العراقي مثلما غاب تراث القبط عن تاريخ مصر. ومثله أيضاً تجد ذاك التاريخ يتحدث بإسهابٍ وفخر عن حضارات وادي الرافدين العتيقة سوميريتها وبابليتها وكلدانيتها وآشوريتها ولكنه يسقط عن عمد وتقصد هذه الحلقة التي تجمع الماضي الى الحاضر لئلا يرغم القوميون العرب المسلمون على البحث عن اصول ومكونات الشعب الذي يسكن عراق اليوم.<sup>(٤١)</sup>

في مجال العودة - وفترة الصحوة بعد السكر - يقوّم الكاتب (المعداوي) نظرة القبط الى

القومية العربية وهو تقويم كان سيكلفه ايضاً حريته لو فاه به في العهد الناصري:

"ان نظرة الاقباط للقومية العربية والتيار الوحدوي لا يمكن فهمها وتفسيرها في فراغ... فحيثما يعظم دور الاقباط اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً في الحياة المصرية فانهم كغيرهم من فئات المجتمع المصري يحسون بقوة الانتماء وبالحرص على خدمة الكيان المصري فلو راؤا ان خدمة هذا الكيان تتم على احسن صورها من خلال الوحدة، فانهم سيصبحون من اول الداعين اليها والسائرين في ركبها لكن حين يتقلص دورهم في لحظة تاريخية معينة في مجتمعهم الأم وهو مصر، فان أي كلام عن ذوبان او تلاحم هذا المجتمع في كيان اكبر يكون مدعاة للخوف من زيادة في تدهور دورهم السياسي بوجه خاص.

الموضوع اذن بالنسبة الى الأقباط المصريين كما هو لأي فئة اجتماعية أخرى ليس مع وحدة القومية العربية او ضدها بالمعنى المطلق لهذين المفهومين وانما السؤال بالنسبة لهم هو: أي نوع من الوحدة واي نوع من الكيان يمكن ان ينبثق عنها واي دور يمكن ان يمارسه؟ والى أي مدى سيسمح لهم هذا الكيان بالمحافظة على تراثهم وحياتهم الدينية والمدنية؟" (٤٢)

الا ان الدكتور (لويس عوض) يحمل المصير المحزن الذي آلت اليه دعوى القومية ولا يترك أملاً لعشاق الوحدة في قيام دعوة قومية ليبرالية على أنقاض القومية الناصرية او البعثية او الحُصْرِيَّة (نسبة الى الحصري) او ما شئت وهي التي كلفته سنتين من حياته سجيناً كما كلفت ألوفاً مؤلفة حياتهم:

"الوحدة العربية المبتناة على ان الشعوب والقوميات من الخليج الفارسي الى المحيط الاطلسي كما يزعمون يمثلون امة واحدة، هي حديث خرافة ليس امة واحدة فحسب من وجهة النظر الثقافية والحضارية، بل وايضاً من ناحية الدم والعنصر. هذه الخرافة الاسطورية تركز على فرضية كاذبة عن الرسالة العربية والمجد التليد للعصر العربي العظيم ايام الفتوحات العربية. ان اسطورة وجود عنصر عربي خارج الجزيرة العربية لا يقل خطراً عن اسطورة وجود العنصر الآري التي جاء بها النازيون، والاساطير المشابهة عن تفوق المصريين، والفينقيين، والاسرائيليين، ان كل دعوة قومية شوفينية انما تعتمد على مقولة التفوق العنصري والسيادة العنصرية لشعب من الشعوب على الشعوب الأخرى وعلى بناء مجد الأمة عن

طريق السيطرة والتحكم في اقوام أخرى وعلى التمايز المتوارث عن الاجناس الأخرى، وهذا هو الذي يبرر الاستعمار والاستعباد والتفرقة العنصرية، هذه هي النظرية التي تدعو الى حل القضايا الاجتماعية والاقتصادية لبعض الشعوب على حساب الشعوب والأمم الأخرى.

نحن نشعر بضرورة التضامن العربي في سبيل الأمن العربي الشامل منه والخاص لكل دولة عربية على حدة. على ان المشكلة هي ضرورة انقاذ العالم العربي من خرافات الوحدة والاندماج، والمهمة الراهنة هي بناء نوع من التعاون العربي ضمناً للأمن العربي، يشاد على الواقع السياسي بدلاً من قيامه على الخيال الرومانسي الذي يفترض وجود ضرورة لوحدة كاملة، او لانعزال في ابراج عاجية والمشكلة تتعلق ايضاً بان العرب لا يدركون مصالحهم الحقيقية، ولا يعرفون الطرق التي تؤدي الى تحقيقها." (٤٣)

\*\*\*

كان المفهوم القومي المصري السياسي العام كما وجده عبدالناصر في ٢٣ يوليو وعرفه قبلها - ان الاقلية في مصر هما فئتان منفصلتان متميزتان تماماً احدهما القبط الذين يلتفون حول كنيستهم القومية المستظهرة، ولا يمكن انكار المصرية على اتباعها. وفئة أخرى تستقطب الاقليات الدينية الآشورية والأرمنية واليهودية وغيرها وهم يعتبرون اجانب عموماً رغم حملهم الجنسية المصرية. وبصورة عامة كان كل شرائح الرأي العام القومي ضد هذه الفئة الأخيرة. وللسمعة التي كسبها جراء تعاونهم ومساندتهم سلطات الاحتلال البريطاني وبعدها، وكذلك لأنهم كانوا يؤلفون جزءاً من نشاط طبقة صناعية وتجارية اجنبية ظلت تسيطر على الحياة الاقتصادية المصرية اجيالاً ثلاثة متعاقبة.

وبالنسبة الى القبط فقد انقسم رأي الاغلبية المسلمة الى نزعتين رئيسيتين واحدة مثلها حزب الوفد، الذي حاول ابعاد القومية المصرية عن الدين وعمل على تثبيت وضع ثابت يقر لكل المصريين حقوقاً وواجبات واحدة. ونظر الوفد الى الكنيسة القبطية نظرتة الى كنيسة مصرية والى القبط مواطنين كاملين المواطنين، وربما كان هذا نتيجة المساندة الفعالة القبطية للوفد منذ تأسيسه، وكذلك بسبب تأثير المفهوم الفرنسي للمساواة القومية المدنية لدى الطبقة المتعلمة. لكن كان يوجد مفهوم آخر للقومية غير مفهوم الوفد لا يستمد وحيه من الغرب، بل من الاسلام كما يفهمه الازهر. اعني الجامعة الاسلامية قبل الجامعة المصرية، وهذا المفهوم

لا يعترف بالعضوية الكاملة في المجتمع المصري لمن كان غير مسلم فهو يعتبر مصر جزءاً من الجامعة الإسلامية العالمية فقط. هذا المفهوم لا يعادي القبط بطبيعة الحال الا انه لا يعتبرهم جزءاً من المجتمع السياسي.

ويظهر ان هذا الميزان الذي كان يرجح الى جانب الوفد قد انقلب في أواخر العهد الملكي لصالح الفئة الثانية، واسبابه متعددة، وظهرها هو الخلاف الشديد بين زعيمى الوفد الكبيرين، رئيسه المسلم وسكرتيره القبطي الذي انشق عن الوفد واخذ منه الاغلبية القبطية فيه، الأمر الذي أضعف الحزب كثيراً، وجعله أقل سماحة في مسائل الدين، اذ انضم الى هذا ظهور الاخوان المسلمين واحتلالهم الساحة السياسية في الوسط المتعلم وطبقة الموظفين وطلاب الجامعات والريف<sup>(٤٤)</sup> فضلاً عن دعوى الملك في زعامة العالم الاسلامي بالتقرب من الأزهر، والنشاط الفجائي الذي دب في حركة اقامة روابط مذهبية ودينية بين مصر والبلاد الاسلامية.

هكذا كان الوضع عندما استتب الأمر للضباط الأحرار، كان قلق القبط واضحاً خلال الستينيات التاليتين عندما بدأ التعاون بين الحكام الجدد والاخوان المسلمين واضحاً<sup>(٤٥)</sup> ولم يتبدد هذا القلق عندما انقلبوا على الاخوان المسلمين بالاسلام ومزقوهم شر ممزق. لأنهم كانوا مضطرين الى مقابلة اسلام الاخوان المسلمين بالاسلام أيضاً على ان يكون الاتجاه الاسلامي مترابطاً مع التحول الى القومية العربية عن القومية المصرية.

لا يعلم بالضبط أو حتى بالتقدير القريب من الواقع عدد القبط الذين نزحوا عن مصر خلال العهد الناصري وبسببه.

ومما لا شك فيه ان العامل الاقتصادي كان السبب الرئيس لمعظم الحالات فقد حاولت شريحة هامة من المجتمع القبطي السير مع التيار العروبي والتعاطف مع الوحدة لاسيما ذوو الاتجاهات اليسارية منهم اعتقاداً منهم ان العروبة والوحدة تخدم مصر وتصمد بمواجهة الأخطار التي تهددها وتأمين قيام مصر على رأس هذه الوحدة. الى جانب تيار آخر متحفظ من قضية العروبة والوحدة لا يعاديها ولكن ينظر اليها بريية لأسباب اهمها امتزاج المفهوم القومي العروبي بالاسلام تاريخياً وعملياً، الى جانب الخوف من انصهار الهوية الذاتية: المسيحية منها او المصرية.

أجل، لا يعلم قط عدد القبط الذين الجأهم التضييق الاقتصادي وقطع الارزاق بالقوانين الاشتراكية واجراءات التأميم - على ترك وطنهم نهائياً وقد وجدنا من يقدره بمائة ألف، ووجدنا من يخفضه الى خمسين ألفاً. وجلها تقديرات لا تستند الى معلومات احصائية كما لم

يصدر من المقامات الدينية او مجالسها المدنية ما يهدي السبيل الى تقدير قريب من الواقع. ولكن الثابت ان الهجرة فشلت بين أوساط الطبقة الوسطى فى الحواضر والمدن، وشملت القادرين مالياً وذوي المؤهلات والكفاءات القادرين على شق طريق لهم الى حياة جديدة وبقي الفلاح القبطي فى ارضه قانعاً بحاله وبوضعه. اذ لم يكن له خيار ومهما بولغ فى عدد النازحين فسببى نسبة ضئيلة جدا الى مجموع المواطنين القبط العام في مصر.

والخطوة تكمن في انها ظاهرة اجتماعية سيئة جداً لشعارات القومية العروبية لم يكن يتصور انها ستشمل مصر بعد تجاربها المرة في العراق القومي في العام ١٩٣٣ وما بعده، وفي سورية عند بدء الانقلابات العسكرية وقد بدا اثرها المدمر عندما اخلت القومية الناصرية المسرح للتشدد الاصولي الاسلامي وارهابه. وما جر من صدامات مسلحة في الريف القبطي واعتصابات واشتباكات في الحواضر ايام رئاسة انور السادات.

عملية النزوح هذه، لم يارسها القبط حتى في احلك ليالي اضطهادهم خلال العصور السالفة.

في آذار ١٩٥٥ حشدت تركيا قوات على الحدود السورية، واحدة من تحشدات كثيرة سابقة مماثلة، وكمظهر من مظاهر التوتر العصبي التركي المزمع. فسارع راديو صوت العرب يحذر الاتراك من مغبة أي تهديد موجه الى الاشقاء العرب، معلناً استعداد مصر للوقوف عسكرياً الى جانب سورية ضد أي اعتداء؟

ما الذي دفع عبدالناصر الى هذا؟ خصوصاً بعد عودة الطاقم المخضرم القديم الى الحكم اثر سقوط دولة الشيشكلي وحين لم تكن القومية العربية في سورية مطلب الساعة؟

يفتضي الجواب بعض تفصيل:

ارادت الحكومة الجديدة التي ألّفها (صبري العسلي) رئيس حزب الشعب أن تكسب الجيش بعملية ظاهرها الحصافة وبعد النظر لكنها ارتدت عليه بأسوأ ما تصوره لها اذ سرعان ما ادت الى عودة الجيش الى السلطة الفعلية بضباط ينتمون الى البعث، والعربي الاشتراكي. فقد عينت الحكومة لجنة عسكرية برئاسة العميد (شوكت شقير) لدراسة ملفات الضباط الذين فصلوا او طردوا او احيلوا الى التقاعد في عهد الشيشكلي الا ان شخصية العقيد عدنان المالكي العضو فيها، والعضو المتقدم في حزب البعث كانت تهيمن على اللجنة، والنتيجة ان الضباط المعادين الى الخدمة كانوا إما بعثيين او قوميين اشتراكيين. ودعا صبري العسلي حزب البعث العربي الاشتراكي (بعد الاندماج) للمشاركة في وزارته، الا ان زعيميه رفضا

وأثراً انتهاج سياسة سلبية تهدف الى عرقلة اعمال الحكومة.

لم يطل عهد استبشار المحافل السياسية بنهاية عهد السيطرة العسكرية على مقدرات الحكم وقالوا: ما من شك في ان دروس السنوات الخمس الماضية القاسية كانت كافية للسوريين. الا ان العسكريين لم يكونوا يرون هذا الرأي فقد اعتقدوا ان مراقبة الحكومة المدنية التي ساعدوا في عودتها هي من واجبههم وكانوا على الدوام يجدون لفكرتهم هذه مناصرين ومتعاونين من المدنيين، ودفع الثمن هؤلاء المدنيون الذين كانوا مستعدين منذ العام ١٩٤٩ على الاستنجد بالعسكريين ضد منافسيهم<sup>(٤٦)</sup>.

بدأت مشاهد روائية جديدة بعد تمام الانتخابات. فقد تعذر اتفاق الاحزاب والكتل السياسية على تأليف وزارة وأسقط في يد الرئيس الأتاسي. أخيراً لم يربداً من تكليف شخصية وطنية حيادية هو (فارس الخوري) البالغ واحداً وثمانين عاماً فنهض بالمهمة ولم يكن عضواً في المجلس.

لم يشارك فيها البعث ولا كتلة خالد العظم فسارع البعثيون بحشد طلابهم في مظاهرات عنيفة احاطت بالبرلمان اثناء ما كان (الخوري) يتلو بيان وزارته.

كان موضوع الساعة الرئيس هو الحياد السوري، وتفسيره: عدم دخول سورية في حلف غربي موجه ضد الاتحاد السوفياتي وهو حظ عبدالناصر بمواجهة حلف المعاهدة المركزية الذي تهيأ العراق للمشاركة فيه. وقد تحقق الفوز لفكرة الحياد في تلك الانتخابات بالفشل الذي اصاب حزب الشعب الموالي للعراق في الانتخابات.

فازت وزارة الخوري بالثقة. وقد تعهدت بعدم الدخول في أي حلف غربي، الا ان العرب الاشتراكيين والبعثيين كانوا قد عقدوا الخناصر على تشويه سمعة أي سياسي لا ترضى عنه سياستهم القومية المتطرفة واصبح فارس الخوري هدفهم. كانت الشتائم البذيئة تنصب عليه من المتظاهرين في الخارج وفي حين بهاجمه نواب البعث داخل البناية ويتهمونه بالخيانة الوطنية والعمالة - امتداداً للعملية الاعلامية المصرية القبيحة في كانون الثاني وقت ان رفض ادانة العراق.

وتبين في حينه ان العقيد (عدنان المالكي) قد تهيأ ليقوم بانقلاب لو لم يسارع الخوري بالاستقالة<sup>(٤٧)</sup> وكلف العسلي ثانية فاسرع يختار خالد العظم وزيراً للخارجية فكان دليلاً على دخول سورية الفلك المصري، والوقوف موقف المعارض الفعال لحلف المعاهدة المركزية<sup>(٤٨)</sup>.

وكان للجيش دوره البارز في توجيه السياسة السورية الى هذا الاتجاه وزجها في الحرب

الباردة بارتفاع الآمال السوفياتية وتعاطم المخاوف الغربية<sup>(٤٩)</sup>.

وتواصلت المشاهد الروائية السريعة:

استقال العسلي في ايلول ١٩٥٥ فدعي (سعيد الغزي) لتأليف الوزارة، واسندت الى حزب الشعب المخذول اربع وزارات لم يجد مندوحة معها من القبول بسياسة الحياد ازاء الصراع الذي نشب بين المحور السعودي - المصري والمحور الاردني - العراقي. والقبول في ٢٠ من تشرين الاول بتوقيع ميشاق توحيد الجيشين المصري والسوري. وهو بالاصل اتفاق لا تحتجاجة سورية عملاً وكانت به الخطوة التمهيدية الأولى للوحدة.

في حزيران ١٩٥٦ عاد العسلي ليؤلف وزارته الثالثة. وضم اليها وزيرين بعثيين للخارجية (البيطار) والاقتصاد الوطني (عفلق) وعند اعادة تشكيل الوزارة في نهاية ١٩٥٦ تم التخلص نهائياً من حزب الشعب باستبعاد ممثليه فيها.

في العام ١٩٥٥ فاز شكري القوتلي في انتخابات رئاسة الجمهورية<sup>(٥٠)</sup>.

\*\*\*

تعاون حزب الشعب مع الكتلة الوطنية لترجيح كفة القوتلي ضد منافسه خالد العظم مرشح البعثيين. وحفظ شكري القوتلي درسه ايما حفظ مدركاً أن احتفاظه بكرسي الرئاسة سيبقى ابداً مهوناً برضا العسكريين، تماماً كرئيس وزرائه العسلي الذي لم يكن خلال الأشهر التسعة عشر غير واجهة لحقبة شهدت استظهار البعث ونفوذ الجيش. وسهل على القوتلي ان يبيع اولئك الذين ثبتوه على كرسي الرئاسة وفي مقدمتهم حزب الشعب ليغدو مجرد صنيعة و خادم ذليل للضباط المتنفذين والبعث، ومروجاً لسياسة عبدالناصر لا حول له ولا طول.

مشاكل السياسة الخارجية السورية وفي مقدمتها مشكلة تنظيم العلاقات مع البلاد الناطقة بالعربية والحرب الباردة. وطروحات القومية العربية في الوحدة، ساعدت الضباط السوريين بدرجات اساسية على زج انفسهم في خضم الحياة السورية السياسية المتلاطم، وبدا كل ضابط صغير الرتبة او متوسطها يعد نفسه لذلك اليوم الذي سيرفعه للتحكم في مصائر الآخرين ورسم الخط السياسي لمستقبل بلاده. الروح التي كانت تسود هؤلاء الضباط، غصت الى حد الاختناق بأحلام اليقظة ورؤى اليوم الموعود، وتركزت حياتهم بمتابعة الفرص التي تتيح لهم ذلك التدخل الضامن تحقيق تلك الأحلام. ويأتي العون من حيث لا يتوقعون.

فلاحزاب السياسية المحلية والدول الاجنبية، والدول الشقيقة كانت أبداً تبحث لها عن

اصدقاء واحلاف داخل الجيش السوري. والمال يحل كل العقد وهو ضمن الوسائل للوصول الى الضباط السوريين ذوي الرواتب الصغيرة التي لا تتفق مطلقاً والمكانة التي يحتلونها ولا تفي بجزء من مطالب المظهر. من اندفاعات وتآمر للضباط الذين عادوا لينتظموا في مجموعات وكتل متحولة الولاءات، في حين وقع اعظمهم نفوذاً تحت تأثير التيار البعثي - الناصري وغرق في دوامة الحياض الايجابية والوحدة العربية ومناهضة العراق والغرب. وموالاة عبدالناصر والتقرب من الاتحاد السوفيتي.

في العام ١٩٥٦ كانت البلاد الناطقة بالعربية أشبه بغابة كثيفة مألئى بالموانع والفخاخ عندما وضع عبدالناصر رجله في ركاب حصان العروبة الجامح ونادى بالوحدة الشاملة. مراكش بملكها (محمد الخامس) لم يمر عليها وقت طويل منذ استقلت عن فرنسا. وفي السنة عينها بلغ (بورقيبة) بتونس الى الاستقلال وليبيا دولة فقيرة تعتمد اعتماداً كلياً على المنح الغربية ويحكمها الملك ادريس السنوسي حكماً دينياً. السودان طلعت عليها شمس الاستقلال في اول يوم من العام ١٩٥٦ وحققت انفصالها التام عن مصر وتبنت نظاماً ديمقراطياً برلمانياً. ولبنان الفريد في ديمقراطيته الليبرالية وموازنته الطائفية والدينية بلد صغير مرفه اقتصادياً قانع بحاله مهتم بمشاكله الداخلية فحسب. والاردن بدء ينفذ عن نفسه غبار الوصاية البريطانية معززاً مركزه بالحاق البقية الباقية من فلسطين التي تركها له التقسيم. وفي العراق حكومة مستقلة على رأسها ملك دستوري تسيطر على مقدراتها طبقة حاكمة غليظة عشوم وتسوسها يد نوري السعيد الباطشة القوية. وفي السعودية حكم ديني منغلقت شديد الوطأة تربطه مع الغرب وشائج واواصر محكمة. وكالعراق تدفقت عليه فجأة اموال طائلة من عائدات النفط. وفي اليمن حاكم ديني آخر هو الامام (احمد حميدالدين) مستبد ببلاد لم ينقل اهلها قدماً واحدة للخروج من ظلام القرون الوسيطة الى نور القرن العشرين. واليمن الجنوبية ما زالت بيد البريطانيين كالكويت واميرها. وعمان دولة قلقة شبه مستقلة تشيع الحرب الاهلية في جنبااتها. ودول (امارات) الخليج وان كانت مستقلة اسمياً تحت حكم شيوخها المطلق، الا انها مرتبطة بمعاهدات مع بريطانيا تحم من استقلالها. والجزائر لم تكذب بعد تضع قدمها فوق لهب الثورة المحرق.

فسورية الحالية هذه هي المرشح الوحيد للتجربة القومية العظيمة وقد بدت قطوفها دانية. بدت السفارة المصرية للمصريين وكأنها مقر رئاسة الجمهورية ثان. والسفير المصري الجديد الذي وصل دمشق في آخر ايام العام ١٩٥٥ كان ضابطاً سابقاً في الجيش المصري برتبة عميد (امير آلي) هو على صلة وثيقة وصدافة مع الضباط البعثيين البارزين فاز بتعاونهم ضد

حلف بغداد كما فاز بعقد ميثاق الدفاع المشترك مع بلاده في ٢٠ من تشرين الاول ١٩٥٥ قبل تعيينه سفيراً وبتشجيع منه ووساطة حذت سورية حذو مصر بعقد صفقة سلاح مع السوفييت ورفعت به من مكانة العسكريين وحلفائهم المدنيين ورفعت في الوقت عينه من منزلة السوفييت في نظر السوريين، وأدت الى تقوية مركز الشيوعيين وارتمى اقطاب البعث المدنيين في احضان السفير وصاروا من مرتادي السفارة الدائمين كما ارتمى قادة الجيش في احضان العقيد (جمال حماد) الملحق العسكري.

وبلغ الأمر بالوزراء البعثيين أنهم تقمصوا دور الساعي والخادم للسفير ينقلون اليه كل ما يدور في مجلس الوزراء ويلتزمون بالرأي الذي يمليه عليهم. وكثيراً ما كانوا يهددون بالانسحاب من الوزارة وانفراط عقد حكومة التجمع الوطني، ان لم يقبل مجلس الوزراء بهذا الرأي او ذاك<sup>(٥١)</sup>.

كانت أنباء الانقلابات العسكرية المتسارعة - في وسائل الاعلام الخارجية توحى بفكرة مضخمة عن بلد لم يتجاوز عدد سكانه آنذاك اربعة ملايين الا قليلاً. وقد روت الصحف السورية حديثاً جرى بين (القوتلي) وبين جواهر لال نهرو الذي زار دمشق ذلك العام بدعوة رسمية. سأل نهرو الرئيس السوري عن عدد سكان سورية فقال القوتلي: "ما هو تقديرك؟"، قال نهرو ببعض تردد: "اربعون مليوناً؟". "هذا تقدير كبير جداً يمثل عشرة اضعاف المجموع الحقيقي".

فبهت نهرو وقال معقّباً: "هذا العدد المتواضع من سكان سورية قد خلد اسم البلد. ان اسم سورية يتردد في كل مدينة في العالم"<sup>(٥٢)</sup>.

كم كان هذا الصدى العالمي الكبير مدعاة للفخر والاعتزاز؟

الكتلة المعارضة في المجلس كانت قوية الى الحد الذي يمكنها من تحدي سياسات البعث وصخبهم، كما كان يمكنها اظهار استيائها بعمل جذري - من تدخل الضباط اذ كان يدعهما في الخارج عناصر معتدلة ومحافضة عانت كثيراً من آثار الحكم العسكري وتطرف الثلاثي القومي (الحواراني- عفلق - البيطار) وفي الجيش كان الضباط المحترفون المعادون للناصرية والبعث والشيوعية يفوقون الآخرين عدداً. الا ان المعارضة لم تكن متحدة. وعلى عاتق (السراج) ألقى عبء تدمير العناصر المعادية للبعث مدنيين وعسكريين، وشن حملة ارهاب عامة منظمة ظهرت بشكل ثلاث محاكمات سياسية اخضعت مبادئ القانون والعدالة لشر طموح - طموحه وطموح حلفائه. وجرت تقريباً بعين اسلوب محاكم مصر الثورية - وامتازت

عنها بقسوة، امتهان صريح لمبادئ القانون اكثر من تلك بكثير. الحلقة الأولى من هذه سلسلة "المحاكمات الكبرى" او "محاكمات التطهير السياسي" هذه استهدفت الحزب القومي السوري الاجتماعي ونجحت في تصفيته واستئصال قيادته وكانت الذريعة اغتيال العقيد عدنان المالكي رئيس المكتب الثالث في وزارة الدفاع ومعاون رئيس هيئة الأركان العامة<sup>(٥٣)</sup>.

كان المالكي بعثياً - اشتراكياً، وقد عمد الى طرد عدد من الضباط القوميين السوريين وبينهم المقدم (غسان جديد العلوي). ومالبت بعدما اردته رصاصة القاتل ان اصبح شهيداً من شهداء العروبة وبطلاً قومياً. جعل الحزب القومي السوري مسؤولاً عن الجريمة فدوهم مقره والقى القبض على زعمائه وقدموا للمحكمة العسكرية الخاصة التي شكلت لهذا الغرض. وتم طرد جميع الضباط القوميين السوريين من الجيش.

وشملت لائحة الاتهام ما يزيد عن ٣٥ من اعضاء الحزب البارزين بضمنهم قيادته كلها وحوكم غيابياً بعض من كان يعيش في الولايات المتحدة وفي بيروت. تعرض المتهمون الى فصول تعذيب طويلة بكل صنوفه في سرايب المكتب الثاني وبإشراف السراج، وفي ١٣ من تشرين الاول ١٩٥٥ احيلوا الى المحكمة، وفي ١٣ من كانون الأول اصدرت المحكمة قرارها باعدام ثمانية. منهم خمسة غيابياً. وحكمت على ثلاثة بالاشغال الشاقة لمدة عشرين عاماً بضمنهم ارملة (انطون سعادة) مؤسس الحزب<sup>(٥٤)</sup> ولم يثبت طوال المحاكمة دليل واضح وجود أي مؤامرة حزبية.

وراح البعث بموافقة تامة من الجيش ومساندة حارة من الحزب الشيوعي السوري في سبيل خلق اسطورة عدنان المالكي الذي قتلته الرجعية. وقدم حياته ثمناً لانقاذ القومية العربية من اخطار الأحلاف الغربية، واقيم له ضريح باذخ مهيب تسيير اليه المواكب وينثر فوقه الزهر وتتلى الخطب والقصائد امامه، كما كانت تقام لذكرى يوم اغتياله مهرجانات حكومية كل سنة يدعى اليها الادباء والخطباء والشعراء للمشاركة في رثاء الضحية القومية منتهزين فرصتهم للثناء والتملق تقريباً من زعماء العروبة المجدد، وصبّ سخريتهم على الحكام العرب المواليين للغرب.

المحاكمات الثانية كان هدفها القضاء على معارضة المعتدلين والجناح المحافظ في مجلس النواب والخط من سمعتهم وهي اشهر الثلاث واهمهن وادعاهن الى الاهتمام بسبب منزلة المتهمين ومكانتهم في المجتمع، وكذلك بسبب الاساليب الهمجية التي استخدمت بحقهم اثناء التحقيق وخلال المحاكمة وبسبب قسوة الاحكام وفداحتها.

في تشرين الثاني ١٩٥٦ اتهم العقيد السراج (٤٧) سياسياً وعسكرياً بجرم التآمر لقلب الحكومة بالتعاون مع السلطات العراقية وبدأت المحاكمة في ٢٢ من كانون الأول وختمت في ٢٦ من شباط وصحبت المحاكمة اعظم ضجة اعلامية شهدتها سورية في أي مناسبة أخرى وتم عقد المحكمة والمرافعة في القاعة الكبرى للجامعة السورية (كان الاساتذة يواصلون القاء الدروس بعد انتهاء الجلسات مباشرة) وأنيطت رئاسة المحكمة بالعقيد (عفيف البزري).

كان بين المتهمين وزراء سابقون ورجال دولة واعضاء في مجلس النواب. عرضت في المحكمة مجموعة من البندقيات (كأداة جرمية) ووجهت الدعوة العامة لمن يرغب في مشاهدة المحاكمة العلنية وسمح عفيف البزري لنفسه بكل ما يؤهله منصبه له من حرية في توجيه اقبح الشتائم وصنوف التحقير والاذلال الى المتهمين والظعن في كراماتهم وادخر لذوي المقام الاعلى منهم اكثرها سوقية، وكل ما يرقى اليه التصور من تهكم وتعليقات زقاقية، مصحوبة بزجر وتعنيف المعلم الطاغية غير المؤدب لتلاميذه الصغار<sup>(٥٥)</sup>.

في ٢٦ من شباط ١٩٥٧ اصدرت المحكمة قرارها بحق المتهمين وجاهاً وغياباً فقضت على اثني عشر منهم بالاعدام شنقاً او رمياً بالرصاص وعلى اغلبهم بالسجن آماداً طويلة بلغ مجموعها ٣٥٧ سنة بحسب تقديرات الصحف وقتذاك<sup>(٥٦)</sup>.

كان هناك بين المتهمين من يعمل لمشروع الهلال الخصب مثلما كان هناك من يعمل للوحدة السورية المصرية. وكان بينهم من يتسلم مساعدات مالية من الحكومة العراقية سعياً وراء أهدافهم الخاصة. والمسألة هي بكل بساطة من كان بين الفئتين يملك اليد العليا ليدفع الأخرى بالخيانة والعمالة في الوقت المناسب والظرف المناسب والمكان المناسب.

كان نتيجة القضاء على مروجي مشروع الوحدة العراقية - السورية تقوية التطرف العروبي ونفوذ الحليف المصري. كما كانت نتيجته منح السراج مزيداً من السلطة والمكانة فقد استطاع بسعة حيلة ودهاء مثيرين للاعجاب ازاحة اشد الناقدين للنظام اخلاصاً وحسن نية بدمغهم بميسم الخيانة.

واتخذت الحلقة الأخيرة من سلسلة المحاكمات ذريعة للتخلص من مجموعة كبيرة من الضباط المحترفين غير السياسيين (اليمنيين: كما اطلق عليهم) وعدد من الموظفين الكبار ومع انها لم تكن بعين مستوى الاوليين الا ان آثارها كانت بعيدة في الجيش.

المتهمون كانوا عشرة فقط. والتهمة هي الاعداد لمؤامرة ترمي الى قلب نظام الحكم اعلن عن اكتشافها راديو دمشق في ١٢ من آب ١٩٥٧ كان من آثارها طرد ثلاثة من الدبلوماسيين

الامريكان<sup>(٥٧)</sup> وكان محور التهمة اتصالات جرت بين المتهمين وبين اديب الشيشكلي والملحق العسكري السوري في روما العقيد ابراهيم الحسيني<sup>(٥٨)</sup> وهي محاولة لم تمتد الى اكثر من احاديث ومحاولات تجميع قوى.

من آثار المحاكمة التي قضت بالسجن على المتهمين - القيام بتطهير جذري في الجيش فأحيل العميد (توفيق نظام الدين) رئيس الاركان الى التقاعد (وكان قد جيء به بعد تخلص الضباط العقائديين من سلطة شوكت شقير) لأنه رفض التوقيع على اوامر التطهير. وعين عفيف البرزي في محله بعد ترفيعه الى رتبة عميد. في حين اصبح (امين النفوري) نائباً له. وتولى كل من العقدا (احمد عبدالكريم) و(مصطفى حمدون) مناصب مهمة في وزارة الدفاع والجيش واجريت تنقلات واسعة في القيادات، وترقيات غير قانونية.

\*\*\*

بدا وكأن البعث العربي الاشتراكي سيد الميدان. لكنه لم يكن في الواقع كذلك. اذ خلت الساحة السياسية المحلية من خصم يعتد به. وشكراً للسراج خادم عبدالناصر<sup>(٥٩)</sup> وان كانوا يعتمدون على كتلتهم القومية في الجيش فهناك خصم قوي خارجي يصولهم بعين سلاحهم له كتلته بين ضباط الجيش ايضاً قد تفوق كتلتهم قوة. والضباط انفسهم الذين كانوا اطوع واكثر استجابة لطموحهم الشخصي من تمسكهم بعقيدتهم البعثية او القومية وعلى صعيد الكتل السياسية فيهم كان هناك الشك المتبادل والخوف الدائم من تأمر بعضهم على بعض.

ورأى البعث السدود بين مصر وسورية تنهار واحداً بعد الآخر وبعامل الشك في النوايا المتبادل وبالسمعة الداوية التي كسبها عبدالناصر قبيل العدوان الثلاثي وبُعیده أدركوا انهم مقبلون على حرب نظرية مع النسخة الجديدة من القومية التي نبعت من تربة وادي النيل فجأة وبصورة غير متوقعة فوجبت محاربتها والتصدي لها، نظرياً على الأقل. فالرأي القومي الوافد يقدم الاشتراكية على الحرية (وتعني بعد التعيين التحرر من النفوذ الاجنبي) وتراها الناصرية مسايرة للوحدة وفي حمى المعركة النظرية التي سبقت الوحدة اعترت عفلق حالة من حالات التشوش الذهني التي كثيراً ما تصيبه في الاوقات العصيبة، يصحبها خوف عظيم، وخير مثال يمكن تقديمه في هذا الصدد هو الاستشهاد بفقرات من خطاب له في حفل استقبال اقامته القيادة القطرية السورية لنقابات العمال العربية في اذار ١٩٥٦. قال:

"يوم امس تحدثت لجماعة من التلاميذ في جامعة بيروت فسألني عدد منهم لماذا اهتم الآن او فيما بعد بالاشتراكية قبل تحقيق الوحدة العربية؟ الا يجعل نضالنا

في سبيل الاشتراكية وحدة بلادنا صعبة ويبدد طاقاتها؟ أليست الوحدة عند تحقيقها هي الضمانة لبلوغ ما تنشده الامة العربية من حرية وعدالة ورفاه؟ يجب عليّ ان اشير الى ان هذا السؤال نفسه قد طرح عليّ قبل عشر سنوات بشكل آخر من قبل الحكام واحزابهم ومناصريهم عندما شككوا في ان العمل من اجل الاشتراكية ووحدة العرب يمكن المجازة قبل التحرر من النفوذ الاجنبي.

أجبت التلاميذ القادمين من بيروت، ان الوحدة العربية ليست مسألة عمل سياسي، مفاوضات او اتفاقات تعقد بين الحكومات لكنه عمل ثوري، ونضال يخوضه الشعب الذي وحده صاحب الحاجة لها والذي يكرس جهوده للوصول اليها ولهذا فان النضال من اجل الوحدة العربية لن يكون متصوراً ولا واقعياً الا اذا اقترن بالنضال الجماهيري للشعب العربي من اجل حقوقه الاساسية، ومن اجل رفع مستواه الاقتصادي وعلينا ان نعلم بان اعداء الوحدة هم الامبريالية واسرائيل التي ما وجدت الا لغاية واحدة هي تعويق الوحدة واحباطها وكذلك الى مصالح الرجعية المحلية وكل ما يسود مجتمعنا من امراض وتعصب وجهل وتأخر. ومن المستحيل التغلب على هذه المجموعة المخيفة من الاعداء بعمل حكومي لا غير لاسيما عندما نعلم بان الحكومات مازالت على الاغلب تمثل تلك المصالح التي تتعارض مع الوحدة. لذلك كان من اللازم ان يتحمل الشعب كله اعباء الوحدة. ان يجد فيها خبزه اليومي وتحرير ارضه من الاجنبي وان يخاطر بحياته في سبيلها لأنها هي الطريق الى الحرية وكرامة الانسان. عندما نربط الوحدة بالاشتراكية فنحن لانقدم على هذا متسرعين ومن دون سبق تفكير فنحن نراها الطريق الوحيد لتغدو الوحدة ديناميكية وحقيقة حية في حياتنا. يجب ان تكون مطلب كل عامل كادح من اجل خبزه اليومي ورفع اجوره والعناية الصحية لاولاده مطلب كل فقير وفلاح مستقل باصراره على استعادة حقوقه فيما اوجده ورفع الظلم والعبودية عن كاهله. ذلكم هو السبيل لجعل الوحدة أمراً واقعاً في ظروف الحياة اليومية وقوام حياتهم وهي حاجاتهم المادية."

ما هي الرسالة التي اراد نبي البعث توجيهها للزعيم القومي الجديد في هذا الخطاب؟ بامكاننا الاستشهاد بكثير من امثال هذا في كراريسه وخطبه وموقفه من الاشتراكية الذي يكاد يكون استخفافاً بها بعكس الناصرية التي كانت فيها الاشتراكية حجر زاوية. وهي ايضاً



تعكس كما كانت اقواله تعكس دائماً روغاناً من موقف صريح واضح بخصوص المطالب السياسية والاقتصادية - اليومية للعامل والفلاح. وهو - وعلينا ان نقر له - موقف يشاركه فيه عبدالناصر وكل المفكرين والزعماء الروحيين للقومية العربية.

فلانجد في هذا المجال أي فرق بين عقل واعدائه ومعارضيه خارج الحزب او داخله فكلما زاد نزول النظرية البعثية العروبية من اجواء الفضاء والسمااء العليا المتنفة بالسجاياء العربية والمحفوفة بالامجاد المؤثثة ودنت من ارضنا هذه "واادي الدموع" الحافل بالمشاكل الطبقيية الملحة وصراع الرأسمال الصناعي، كلما زادت غموضاً وشقت على الفهم.

سرعان ما ضاق الضباط البعثيون ذرعاً بهذه المتناقضات. كانوا طلاباً وتلاميذ فآمنوا بها عاطفياً وها هم اليوم يمارسون السلطة التي كفلها لهم مسلكهم والسلطة التي توصلوا اليها بطموحهم التآمري السياسي والانقلابات التي تتم من فوق ظهر الدبابات وتحت مظلة الطائرات الحربية، انهم يريدون الاحتفاظ بسلطاتهم تلك لا بالنظريات بل بمنطق القوة.

بمناسبة انتخاب عبدالناصر رئيساً للجمهورية في حزيران ١٩٥٦ وصل القاهرة من سورية وفد رسمي لتهنئته برئاسة (صبري العسلي). وقدم الوفد له نص قرار اتخذه مجلس النواب بالاجماع يطالب فيه الحكومة ببدء مفاوضات فوراً لتحقيق اتحاد فدرالي بين القطرين فأعلن عبدالناصر موافقته فوراً. اذن فليقتنع نوري السعيد بعراقه. لا احد يجسر من بين الدول الناطقة بالعربية على شراء بضاعته من متجر حلف المعاهدة المركزية بوجود عبدالناصر. في عين الوقت كان بطل ثورة يوليو يستقبل رسلاً من ضباط عراقيين يستشيره ويسألونه النصيح في انقلاب مماثل، مؤكداين بذلك صحة التقارير والمعلومات التي كان السراج يزوده بها حول وجود حركة سرية لضباط من الجيش العراقي ترمي الى الاطاحة بالملكية وبنوري السعيد والطبقة الحاكمة صفقة واحدة.

صورة تشخص اليها الأبصار في سمائها. وبنوع خاص أبصار أولئك الضباط المؤتمرين على أنظمة حكمهم بإسم القومية والإصلاح والقضاء على الفساد والإستغلال. والكل يحلم بأن يكون نسخة من عبدالناصر.

وحول هذا العدوان كتب الكثير ورويت الحكايات الطوال والقصار والمراجع فيها تفوق الحصر. يسهل الرجوع اليها لمن شاء تقصي تفاصيلها الروائية الطريفة. وما يهمنا منها هنا، آثارها في الدعوة القومية للوحدة تحت الزعامة الناصرية وما أحدثته من ردود فعل وأيقظته من أحلام عند الضباط الإنقلابيين في البلاد الناطقة بالعربية. ثم ما جرت الدعوة وما آلت اليه من إخفاق وفشل واحتراب ووقائع دامية. على أني لأرى مندوحة من إستعراض يسير لخلفياتها:

كان تأميم القناة نقطة البداية.

فبالإضافة الى العملية السياسية البارعة التي وضع تفاصيلها ضابط ركن كفاء يتقن فن التعمية وأهمية الكتمان وعامل المفاجأة. فقد كان فيها للجلاء المعنى المنشود<sup>(١)</sup> وهكذا بدت.

(١) عهد عبدالناصر بعملية الإستيلاء الفعلي لمهندس توسم فيه القدرة والكفاءة إسمه (محمود يونس) وإختار المناسبة بعين الدقة وكانت يوم ٢٦ من تموز وهو الذكرى الرابعة لتنازل فاروق. ألقى خطاباً في ميدان محمد علي بالمنشية في إجتماع قدرته إذاعة صوت العرب بمائتي ألف. وبدأ خطابه في السابعة والدقيقة الأربعين مساءً مبتدئاً بالعربية الفصحى لينقلب بعد بضع دقائق الى العامية المصرية تخلصاً من صعوبة الأداء في الظاهر، متعمداً في الباطن خطة عشوائية غير منسقة، مثلاً قوله:

"اللورد كيلرن، كلنا يعرف اللورد كيلرن. وقف في مجلس اللوردات وبدأ يشتم مصر. في آذار إلتقيت بالسفير البريطاني في منزلي وقلت له إننا لانقبل الإهانة التي يوجهها إلينا النواب واللوردات لاسيما اللورد كيلرن" وغيرها.

أراد بها أن يستدرج نفسه ليلفظ كلمة السر التي إتفق عليها مع محمود يونس، ليبدأ هذا في وضع اليد على مقرات شركة القناة. وكانت كلمة السر (فريديناند دلسيس) وهو المهندس الفرنسي الذي شق القناة. قال:

نظرت الى مستر بلاك الذي كان يجلس على كرسي، رأيته في خيالي وكأنه فريديناند دلسيس" توقف قليلاً ثم إستطرد:

"تجيء السنة الخامسة من الثورة، ويعين الوسيلة وكما ترك فاروق في ٢٦ يوليو، فإن شركة قناة السويس تترك في نفس اليوم"، [الواقع وكما كان الكثيرون يدرون بأن العملية رغم إتقانها كانت عملية شكلية بحتة. قصد منها إستدرار المزيد من الإعجاب بالزعيم. وشجع عبدالناصر فيما بعد على القول الذي لقي إنتشاراً واسعاً- بأن القناة أخذت عنوة وبحد السيف وليس في هذا ذرة من الصحة. فقد كانت القناة دائماً تحت السيطرة المصرية وشركتها خاضعة للقوانين المصرية، وتتولى حراستها والمحافظة عليها قوات وسلطات أمن مصرية بحتة. ولم يكن هناك إحتمال حصول أي ممانعة أو إصطدام. إذ طلب يونس من المدراء تسليم البيانات والسجلات بأدب وتم ذلك بهدوء تام.]

## الفصل الخامس والعشرون

الإئتمار بنظام عبدالناصر . حرب القناة . العدوان الثلاثي . محاولة اسقاط النظام الثوري . الاخوان المسلمون يؤيدون القوى المؤتمرة بعبدالناصر . مناشير تنادي بإسقاطه . الحرب الباردة تنقذ عبدالناصر - الدور الامريكي - السوفياتي في صد العدوان . حسم المعركة بالنصر وقيام اسطورة عبدالناصر في البلاد الناطقة بالعربية . تدمير سمعة نوري السعيد خصمه الألد . سورية أقرب أهدافه القومية العروبية . برقيته الجوابية الوقحة لتهنئة العراق بنصره . حزب البعث في سورية ، انقسامات سياسية بين ضباط الجيش ويد البعث فيها . حملة للحصري على البعث . مجلس القيادة العسكري أعلى سلطة في الدولة . طلب المجلس من مصر اقامة وحدة شاملة للقطين . دور السفير المصري محمود رياض . انقلاب عسكري ضد الحكومة الدستورية ودور البعث - البيطار ووفد الى القاهرة . قبول عبدالناصر بعد اجراء استفتاء . بيان الوحدة المشترك . الهجوم الاعلامي على كميل شمعون . تهديد النظام الديمقراطي اللبناني . المعارضة والجبهة الوطنية المتحدة . شعارات العروبة والقومية العربية . صائب سلام يتزعم الحركة الموالية للقاهرة . تدخل مصري سافر في أحداث لبنان . التدخل العسكري الامريكي . خاتمة الحرب الاهلية . انتخاب فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية . حكاية البغل اللبناني . موقوف الرئيس الجديد من الاجنبي الفلسطيني . فتح باب الهجرة من الاردن . تسهيله نقل تشكيلاتهم العسكرية . التزام الطائفة الشيعية اللبنانية بالحياد . الفلسطينيون يقيمون في لبنان "دولة داخل دولة" . اليقظة الشيعية وحركة "أمل"

لاأذكر حرباً كتب فيها النصر للمغلوب على الغالب إلا ويتبادر الى ذهني حرب القناة في ١٩٥٦، تلك الحرب التي نزلت في سجلات التاريخ الحديث باسم "العدوان الثلاثي". وفيها تجلّت حماقة ساسة دوليين عرفوا بالثقافة العالية والتجربة الطويلة. كيف يهبط بهم طمعهم وحرصهم "الأشعبي" الى درك تأباه الأخلاق الدولية. وفيها وهو بيت القصيد- حققت ثورة يوليو نصراً سياسياً وعسكرياً لم يكن في حساب بطلها مطلقاً، وبها صعد نجمه في سماء البلاد الناطقة بالعربية، واحتل واسطة عقْد القومية العربية: مركز لاينازعه فيه منازع. وبات

كانت هناك أربع دول تهتم بمصير القناة بنوع خاص هي الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإسرائيل. في مبدء الأمر بدا قلق الولايات المتحدة من التأميم مساوياً لقلق بريطانيا رغم أن أهميتها وأثرها عندها يقلان عن الأهمية والأثر الأوروبيين. لكن وجه الغرابة هو أن جون فوستر دالاس وزير الخارجية كان يساند في الأيام الأولى من التأميم بحرارة ويقوة إتخاذ إجراءات صارمة ضده، لينتهي بالأخير الى إدانة التدخل العسكري وللخطة الانكلو فرنسية<sup>(٢)</sup> التي كانت ترمي بجوهرها الى إسقاط عبدالناصر.

(٢) لا أرى من الصحيح إغفال تأثير العوامل الشخصية والعواطف الخاصة على الأحداث التاريخية الكبيرة منها والصغيرة؛ فمثلاً كان بين أنطوني ايدن وجون فوستر دالاس جفوة وكره شخصي لا يستطيعان كتمانها تحت ستار الدبلوماسية. ولهذا بقي يشكو في فترة حماسة الولايات المتحدة ضد التأميم بأنه لا يحصل على التأييد الذي يستحقه منها. وكانوا يعانون فترة كتابة وغضب من مبادرة عبدالناصر الى الاعتراف بالصين الشعبية. وأنطوني ايدن بدا من دلائل عديدة وكأنه يخوض معركة شخصية مع عبدالناصر زادت ونمت بما اعتبره السياسي البريطاني إستخفافاً به من ضابط صغير برتبة مقدم. ايدن هذا الذي كان يقف بصلابة وشجاعة ضد عدوان هتلر في مطلع حياته السياسية ولم يبلغ الثانية والثلاثين - وجد عبدالناصر دكتاتوراً مستهدداً آخر له عين الصفات التي تميز بها هتلر فكتب عنه في مذكراته "تأثر عبدالناصر خطى هتلر، حتى بفتح معسكرات الإعتقال ونشره كتاب (كفاحي) بين ضباطه (في هذا غلو، فقد نصح بمطالعة فقط). وتفهم وطبق وسائل كوبلز الدعائية بكل ما تتضمنه من قسوة وغلاظة..." ووجده حاكماً مطلقاً على إمبراطورية تمتد من المحيط الأطلسي الى الخليج. كانت هذه آراء سخيفة مبعثها الخوف علي مستقبل هذا السياسي البريطاني أكثر من كونها واقعية. وفرنسا كانت تخوض معركتها الخاصة. منذ مدة طويلة- اثر إنتصار القوميون والوطنيين في سورية ولبنان - وهي تتطير من الموجة القومية الجديدة. أرغمت على التخلي عن إنتدابها في هذين القطرين، وبعد أن قضى القوميون والضباط على فرصة التقارب التي باشرها حسني الزعيم ضاقت زرعاً بمساعدة عبدالناصر الحركة الوطنية في الجزائر.

راحت الحكومات الفرنسية تتعاون مع إسرائيل بشكل مكن "الهاغاناه" وهو الجيش الإسرائيلي السري من تلقي تدريبه في ثكنات الجيش الفرنسي سراً. وظلت تزود الإسرائيليين بالسلاح. وبضمنها طائرات نفاثة ودياباب (لموازنة صفقة السلاح المصرية من الإتحاد السوفياتي) عندما رفض آيزنهاور طلب بن غوريون تزويده بها. كانت فرنسا قبل فترة قد فقدت الهند الصينية وأرغمت على منح تونس والمغرب إستقلالهما. وأدرك (كي موليه) ووزير خارجيته أن بقاء وزارته يتوقف على الحيلولة دون مزيد من الهزائم أمام الدعوة القومية المتنامية في الجزائر. كانت الأسلحة المصرية تندفق الى الثوار الجزائريين، وزعيمهم أحمد بن بلا وهو نائب عريف في الجيش الفرنسي خاض غمار الحرب العالمية الثانية ببطولة وقُلت فيها أرفع الأوسمة، كان صديقاً شخصياً لعبدالناصر. وإعتقد البريطانيون أن كلا من (بن غوريون) و(ايدن) و(كي موليه) يتفقون بخصوص فكرتهم حول عبدالناصر. وسمع مرات عدة يؤكد أن أعظم خطر تواجهه إسرائيل هو من الدكتاتور المصري. كان كذلك يخشى أن تقفل القناة بوجه السفن الإسرائيلية أو السفن القادمة الى إسرائيل. كما كان يريد إذلال الجيش المصري والحط من مكانة عبدالناصر، وإشاعة الخوف في سورية والأردن.

وفي ١٥ من تشرين الأول على إثر مقابلة تمت بينه وبين الجانبين الفرنسي والبريطاني صرح بن غوريون يقول أن هناك تطوراً مواتياً سيحصل وشيكاً. قاصداً تمام وضع الخطة النهائية للتدخل العسكري.

في العام ١٩٥٦ بات تأميم المصالح الأجنبية من الإجراءات المألوفة التي تلجأ إليها الدول كمحاولة لإنهاء الإستغلال الإقتصادي والنفوذ الخارجي. ومصلحة القناة هي شركة دولية مقرها باريس.

فشل كل الوساطات الدولية، واللقاءات السياسية. وتواصلت إجتماعات ثنائية بين فرنسا وبريطانيا تقرر فيها بالأخير إستخدام القوة.

وفي البلاد الناطقة بالعربية لقي عمل عبدالناصر إستحساناً عظيماً وقبول بحماسة جنونية. ليغدو صاحبه فجأة رمزاً للنضال ضد الهيمنة الغربية. وعملية التأميم ماثرة رائعة من مآثر إستعادة التراث العربي ونزعه من يد الغاصب ووجدنا في مقدمة المتحمسين شكري القوتلي والملك سعود ورئيس حكومة السودان. وفي ٣ من آب أعلنت الجامعة العربية بالإجماع أنها تساند مصر وأن أي إعتداء على "أية دولة عربية سيعتد إعتداءً على الدول العربية كافة".

كلمات جريئة حقاً. لكنها كسابقاتها ولاحقاتها ما كانت تعني شيئاً في الواقع العملي وبقية مصر وحدها في الميدان عند نشوب الحرب.

في ٩ من آب، وفور إعلان إتحاد النقابات العربية مناشدتها عمال النفط بالتوقف عن الإنتاج محرضاً إياهم على تدمير منشآتة اذا تعرضت مصر للهجوم، بادر عبدالناصر الى إصدار مرسوم يقضي بتشكيل "جيش التحرير الوطني" من خمسين ألف مقاتل، الى جانب الجيش النظامي وعدته عشر فرق (أكثر من مائة ألف ضابط وجندي). كما أمر بزيادة إنتاج الأسلحة الخفيفة في معامل مصر. ووضع البلاد في حالة إنذار قصوى، وخطب عبدالناصر منذراً:

"الحرب معنا ليست نزهة كما يعتقد أولئك الذين يحملون بذلك".

وفي أوائل أيلول وبعد التأكد من التحشد العسكري الانكلو فرنسي<sup>(٣)</sup> قال أنه سيطلب العون من الإتحاد السوفياتي اذا دعت الحاجة.

في الوقت نفسه شق أجواء مصر صوت مذيع من إذاعة سرية جديدة للإخوان المسلمين ينذر المصريين من عواقب سياسة عبدالناصر الخطيرة:

"أيها المصريون إلتزموا جانب الحذر الشديد. إن العمل الجنوني الذي أقدم عليه

(٣) هيكل: سنوات الغليان ص ٤٦٣- الحاشية: "إستطلاع المكتب الثاني في الجيش السوري (المخابرات العسكرية) بقيادة عبدالحميد السراج أن يحصل على كمية لا بأس بها من المعلومات عن القوات البريطانية في قبرص وبعث بها في الوقت المناسب الى القاهرة.

الطاغية، سيجره الى الهاوية، وسيؤدي الى احتلال جديد... تريدون الخلاص من هذا الطاغية الذي إستغل مصر وإستعبدها... ألا صبراً قليلاً، لأن أبناء مصر البررة سيحررون مصر...  
وما الى ذلك.

وبقيت حكومة المحافظين والحزب نفسه هدفاً للطعون والتجريح من الصحافة البريطانية وغيرها لإتهامها بإستخدام إسرائيل غطاءً وذريعة للهجوم على مصر. وقد واجها أعظم الحراجه وركبهما الخجل وهما ينكران رسمياً هذا التواطؤ<sup>(٤)</sup>.

في ٢٨ من تشرين الأول إختزقت القوات الإسرائيلية الحدود في سيناء معلنة أن الهدف هو تدمير قواعد الكوماندو (المجاهدين)، وفي اليوم الثلاثين توسع الهجوم ولم تمر أربع وعشرون ساعة حتى غدت المقاومة المصرية أثراً بعد عين، ولم يعد يفصل بين القوات الإسرائيلية والقناة غير ثلاثين كيلومتراً وعندما أستدعي السفيران المصريان والإسرائيليان في كل من لندن وباريس وسُلما إنذاراً بوجود انسحاب قوات الفريقيين من منطقة القناة بمسافة ستة عشر كيلومتراً ورفض عبدالناصر الإنذار. إلا أن الإسرائيليين قبلوا به طبعاً، وإنسحبوا من

(٤) لجأت الحكومة البريطانية الى التزييف وإخفاء الحقائق (سببت فيما بعد سقوط حكومة ايدن ووزير خارجيته سلوين لويد وغياهما تماماً عن الميدان السياسي). وقد تناولت كتب كثيرة الأمر بإسهاب وتفصيل لانجد حاجة الى تعدادها وكيفي التخليص: ظهر فيما بعد أن ايدن وسلوين لويد أخفيا نواياهما عن زملائهما في الوزارة وكذلك عن دبلوماسيهما وعن الولايات المتحدة. ويسجل اللورد مونتباتن الذي كان وقتها أمير البحر الأول. أن تقريراً نظمته قائد القوة البحرية التي هاجمت القناة، دس فيه بعض الوقائع المثبتة للتواطؤ مع إسرائيل. قال (من المذكرات): "قامت بإعادة كتابته لإخفاء الواقع... وبأن يتم إحراق الأصل فتم ذلك". وموشي ديان (المذكرات) الذي كان رئيساً لأركان الجيش الإسرائيلي وقتئذ، رأى سلوين لويد "وكان التجربة كلها بدت له شيئاً قذراً لا يريد أن يلمسه".

في ١٤ تشرين الأول إجتمع (ايدن) بوزير الحرب الفرنسي (البرت كازيه) وبالجنرال (موريس شال) في مقر القوة الجوية الفرنسية، وبسط (شال) لهما الخطة التي تضمن لبريطانيا وفرنسا السيطرة العسكرية على القناة: أن تقوم إسرائيل بهجومها وعندما تبلغ قواتها القناة تصدر إنكلترا وفرنسا إنذاراً للمصريين والإسرائيليين بالانسحاب من صفتي القناة وبعدها تقوم قواتها بإحتلال المنطقة بزعم الحيلولة دون إستمرار القتال ومن أجل ضمان الملاحه فيها. لكن بن غوريون إشتراط لموافقته على الخطة أن يتم تدمير الطيران المصري قبل الهجوم. ومن وراء ظهر بن غوريون أجرى الجانبان مباحثات إضافية بخصوص غزو مصر. وأبلغ الأمريكان عبدالناصر وقد بدوا غاضبين جداً من بريطانيا وفرنسا- أن الجنرال كاتيلي Gen. Keightly عين قائداً للغزو. هناك إشارات عديدة في أكثر من مرجع على أن نوري السعيد كان يدري بلا شك بالهجوم المرتقب. وبقي عبدالناصر الى حين يرفض تصديق ذلك. متعللاً كما يقول مؤرخه (هيكل) بفكرة، وهي أن الحكومة البريطانية لايمكن أن تطوح بمنزلة بريطانيا في البلاد العربية بشن حرب على مصر بالتعاون مع إسرائيل.

الشاطيء في ٣١ منه. وعندها بدء الغزو الأصلي بإبحار القطعات المشتركة من قبرص ومالطة<sup>(٥)</sup>.

للتاريخ مفارقات ومفاجآت لاتدخل قط في حساب البشر ولاتعتمد على ذكاء فريد، ولا على نهاية من الدقة في التخطيط.

في الوقت الذي راح نظام عبدالناصر يتداعى، وراديو الإخوان المسلمين يطلب منه التنحي عن الحكم "تجنباً للمزيد من الآلام للشعب المصري". وتحفز الساسة القدماء لتسلم الحكم بتشكيل وفد لعبدالناصر يناشدونه التخلي عن السلطة. وصعق العالم الناطق بالعربية. ولم تبدِ دولة حراكاً وأخذت الضجة تتهافت في الشارع... في هذا الوقت بالذات خرج المغلوب منتصراً، لا بنظامه المتداعي، ولا بجيشه، ولا بالتعبئة المصرية خلفه ولا بالتأييد الكلامي والضجة الإعلامية في البلاد الناطقة بالعربية. بل بفضل الحرب الباردة.

غزت مصر دولتان عظيميان ودولة صغيرة ذات جيش حسن التدريب والتجهيز مهياً سايكولوجياً للحرب. ومصر إذ ذاك بلد لايملك قوة عسكرية مهيئة معنوياً وعدة لخوض غمار أي حرب، بجيش لايتوقع له قط الصمود أمام مهاجم كهذا.

فيفضل أقوى دولتين في العالم، قطبي الحرب الباردة الطاحنة تم إنقاذ عبدالناصر، بل تحقق نصره.

كلا هاتين القوتين لم تكونا تعيران أقل إهتمام ببقائه أو سقوطه بعد أن أعلن في مؤتمر

(٥) بدأت الطائرات البريطانية تقصف الأهداف العسكرية في القاهرة وغيرها. وراح راديو الشرق الأوسط من قبرص يحث المصريين على التخلص من عبدالناصر. ودمرت القوة الجوية المصرية تدميراً تاماً قبل أن يتاح لطائرة واحدة منها التحليق. وفي ٥ من تشرين الثاني أنزلت قوات مظلية مشتركة في مينائي (بورفؤاد وبورسعيد) وفي عين الوقت أتم الجيش الإسرائيلي إحتلال شبه جزيرة سيناء برمتها حتى شرم الشيخ. وفي اليوم التالي قام البريطانيون بإنزال بحري في بورسعيد وإحتلوها شارعاً إثر شارع. وفي عصر ذلك اليوم تلاشت المقاومة وتمت السيطرة على المدينة. وقدردت الخسائر المصرية بـ (٢٧٠٠) بين قتيل وجريح وبلغت إصابات الانكلو فرنسيين ١٤٠ بين قتيل وجريح. إلا أن "تشك" المرجع السالف ص ٢١٠ ذكر أن عدد القتلى من الجنود المصريين بلغ ألفاً فضلاً عن مئات المدنيين الذين فقدوا أرواحهم أثناء القتال في بورسعيد، ووقع ٦٠٠٠ فلسطيني ومصري أسيراً في أيدي الإسرائيليين. وخسر الإسرائيليون (١٧١) قتيلاً من الجنود. ولم يتعد قتلى الحملة الانكلو فرنسية (٢٦). وتم تدمير عدد هائل من مباني بورسعيد وسد مدخل القناة، وإغتتم الإسرائيليون معظم السلاح الذي تلقاه الجيش المصري من السوفييت.

[كان البريطانيون قد أعلنوا مسبقاً أن الأهداف التي توخوها من الحملة محددة، وليس في النية إحتلال مصر كما حصل في العام ١٨٨٢. على أن النتيجة النهائية التي كان الغزاة يعقدون الأمل عليها وهي سقوط عبدالناصر، لم تتحقق].

باندونغ إبتعاده عنهما ورفضه الدوران في فلك أي منهما، بتبنيه سياسة عدم الإنحياز<sup>(٦)</sup>.

فكلا هذين القطبين كان يخشى أن يجر هذا الغزو الكريه الى أن تنقلب الحرب الباردة الى حرب حارة يستخدم فيها سلاح الذرة. مارسا نفوذهما في مجلس الأمن وهددا بتدخل الأمم المتحدة ثم هددا بريطانيا بإنهيار النقد البريطاني (قاعدة السترنج).

الإتحاد السوفياتي الذي كان منشغلاً بإخماد الثورة الديمقراطية الهنغارية، أسرع ليهدد الانكلو فرنسيين بهجوم صاروخي إن لم ينسحبوا فوراً من مصر. وأخذت الولايات المتحدة التهديد السوفياتي مأخذاً جدياً فرفضت رفضاً قاطعاً أي تنسيق سياسي وبأي وجه قبل تمام الإنسحاب الثلاثي<sup>(٧)</sup>.

أعضاء حلف بغداد طالبوا بالإنسحاب الفوري. ودول عدم الإنحياز أدانوا الغزو بمنتهى الشدة.

كان هناك إجماع لا نظير له ولا سابقة في تاريخ التعامل الدولي على إدانة الغزو.

في منتصف ليلة ٦ من تشرين الثاني وافق الغزاة على قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار. وفي ٢١ منه نزلت قوات الطوارئ الدولية. وفي ٢٢ من كانون الأول سحب الانكلو-فرنسيون آخر جنودهم من أرض مصر<sup>(٨)</sup>.

(٦) هم البانديت نهرو، وأحمد سوكارنو، وشوان لاي أصدقاء عبدالناصر الشخصيين.

(٧) مقتبس من نص الإنذار الموجه للدول الثلاث: "ترى حكومة الإتحاد السوفياتي لفت نظركم الى الحرب العدوانية التي تشنها فرنسا وبريطانيا على مصر، هذه الحرب ستتمخض بأخطر النتائج على السلم العالمي... ماذا كان يحدث لو وجدت بريطانيا نفسها معرضة لهجوم دولة تفوقها قوة؟ دول تملك جميع أنواع أسلحة الدمار الشامل الحديثة؟ هناك دول ليست الآن بحاجة الى إرسال أساطيل بحرية أو قوات جوية الى السواحل البريطانية لكن بمقدورها استخدام وسائل أخرى كالصواريخ... إننا عقدنا العزم الاكيد على سحق المعتدين وإعادة السلام الى الشرق الأوسط عن طريق استخدام القوة. وفي هذه اللحظة العصيبة لنا الأمل الوطيد في أن تظهروا الحكمة وتستخلصوا النتائج المناسبة" [انظر: پول جونسون "حرب السويس" لندن ١٩٥٧ ص ١٤٥ Paul Johnson: The Suez War. يعلق تريفيليان: المرجع السالف ص ١٢٩ على التهديد السوفياتي بقوله: "لم يأخذ البريطانيون الإنذار السوفياتي مأخذاً جدياً. إذ كان الروس يريدون صرف الإهتمام عما يفعلونه في هنغاريا وأن يسببوا لنا أعظم ما يمكن من المتاعب. وقد فعلوا ليزيدوا من نفوذهم في مصر وسائر البلاد العربية بتقديمهم كل مساندة ممكنة لمصر. لكن لم يكن محتملاً أن يورطوا أنفسهم توريطاً عميقاً ولا أن يخاطروا بإعطاء سبب للأمركان للتحويل الى الجانب الآخر. لم يكونوا بحاجة الى أكثر من التظاهر بأن إنذارهم كان العامل الحاسم لإنسحابنا حين وقفت أمريكا وكل بلد عضو في الأمم المتحدة ضدنا". كما يذكر في ص ١٢٨ قوله: "كان ونستن تشرشل على حق عند إنتقاده العملية بقوله (ما كنت لأفعلها بدون الأمركان)".

(٨) في ٧ من تشرين الثاني أمرت الأمم المتحدة إسرائيل بالإنسحاب الفوري من سيناء فلم يسع بن غوريون غير الموافقة. إلا أن الجيش الإسرائيلي إتبع سياسة الأرض المحروقة عند إنسحابه فدمر كل ما وجده =

كان عدواناً صريحاً غاشماً من أي وجه نظرت اليه وبأي تقويم قومته. وإستغل دعائياً في رفع مكانة عبدالناصر ونظامه بقوة الخذلان الذي مني به في الأخير وبشكل ما، إن شئت أم لم تشأ أصبح دور القوتين ثانوياً بالمقارنة مع عبقرية عبدالناصر وضموده وقوة الإرادة المصرية على مقاومة العدوان. وهذان هما اللذان حققا النصر.

يقول تريفيليان معلقاً، وهو يصف مخاطر ذلك العدوان:

"هنالك العامل السياسي. البريطانيون والفرنسيون لا يمكن أن يبقوا يحتلون البلاد الى ما لا نهاية وسترتب عليهم الإنسحاب ثانية، وعندئذ سيخلق المصريون أسطورة مؤداها أنهم هم الذين طردوا القوات الأجنبية وحرروا أنفسهم. وسيبدو البريطانيون في كتب الدراسة المصرية ليس فقط معتدين هذه المرة، بل المعتدون الذين تم طردهم يسواعد المصريين الأبطال.

بعد مرور زمن طويل قال لي عبدالناصر: إن المصريين يقضون أوقاتهم بلوم الحكومة ونسج الحكايات المضحكة والفكاهات عليها. لكن عندما تغدو البلاد مهددة تراهم متحدين في الدفاع عنها"<sup>(٩)</sup>.

ويادر عبدالناصر الى تسليم السفيرين البريطاني والفرنسي أوراق إعتمادهما وأمر البعثتين الدبلوماسية بمغادرة أرض مصر خلال أربع وعشرين ساعة. كان خبيراً في إستثمار نصر لم يكن له فيه فضل. فلأول مرة في تاريخ العلاقات الدبلوماسية تقوم دولة ناطقة بالعربية بقطع علاقاتها مع هاتين الدولتين المهابتي الجانب. ولأول مرة بدأ العروبيون يشعرون بأهمية شعار "العزة والكرامة" الذي رفعه هذا الثائر المغوار<sup>(١٠)</sup>.

وتم طرد عدد كبير من الفرنسيين والبريطانيين المقيمين في مصر، وحجزت أموالهم، وطرد

= قائماً وهو في سبيله، من طرق معبدة الى سلك حديد الى منشآت وأبنية.

(٩) سر همفري تريفيليان: المرجع السالف ص ١٠٦: لأرى شعباً يفوق المصريين في "التنكيت" وإختراع الفكاهة. وعبدالناصر هنا لايتعدى الواقع في قوله. وقد بقي أبداً يخشاها ويرتقب منها ويحسب لها ألف حساب كما سنعرض فيما بعد.

(١٠) يعرض هيكل في "سنوات الغليان" صورة لعبدالناصر من عواطف متضاربة من حيرة إمتلكته أول الأمر، وعدم تصديقه بأنباء الغزو وشلل فكري مؤقت. ثم تبخر ذلك كله وحل محله إستعداد تام للمقاومة بإصداره الأمر بمقاومة الغزو. وبهذه المناسبة يذكر تريفيليان الذي كان وقتذاك سفيراً لبلاده الطريقة المهينة التي اتبعت في قطع العلاقات، قال أستدعيت من قبل نائب وزير الخارجية ورئيس البروتوكول وأبلغت بقطع العلاقات وبقيت حبيساً مع رجال سفارتي وحوالي مائة من الرعايا البريطانيين حتى تم نقلنا تحت الحراسة.."

أحد عشر ألف يهودي مصري من البلاد أو أرغموا على تركها وصدورت ممتلكاتهم كما حصل في العراق. وتركت موجة الغضب الشعبي المنطلقة تتصاعد، وناهاها توجع بالإعلام الحكومي المدرس والمخطط.

للتاريخ منطلقات عجيبة، ومفارقات تتحدى المنطق. ومع هذا يقبلها العقل البشري لينزلها منزلة المسلمات. والفرضيات المعكوسة لا تجدي هنا مطلقاً. فكما كان من السخف التساؤل عما كان سيحدث لو لم تتدخل الدولتان العظميان والأمم المتحدة للقضاء على العدوان؟ لو لم تكن هناك حرب باردة مستعرة؟ أو ماذا لو سارت الحملة الثلاثية في مجراها وإنتهت بسقوط عبدالناصر؟

في سنة كتابة هذه السطور يكون قد مر مائة وعشرون عاماً على هزيمة الجنرال "جورج أرمسترونغ كستتر" وإبادة كتيبته معه إلى آخر جندي إثر كمين نصبه له شيخ قبيلة من الهنود الحمر. ويسبب هزيمته في تلك المعركة كتب لهذا القائد الصغير الخلود والشهرة اللتين ما كان ليحظى بهما لو إنتصر في تلك المعركة. ولبدأ نصره هذا واحداً من عشرات الوقائع الصغيرة التي دارت طوال قرن من الزمن بين الجيش الأمريكي والهنود الحمر فلم تحظْ بأكثر من هامش صغير في تاريخ أمريكا. إلا أن هزيمته تلك كانت سبباً في خلوده وشهرته؛ ذلك البطل الذي صُرع والسيف في يده يقاوم مهاجميه وهو مشخن ولا سبيل له إلى النجاة. ولتحظى سيرته بعشرات الكتب وبأكثر من ثلاثين فلماً سينمائياً عالمياً، ولتكتب عنه البحوث الطوال حتى الساعة.

وقعة [لتل بگ هورن] بقيت مصدر خيال. وموضع إكبار. مثلما نسجت حول العدوان الثلاثي ووقعة بورسعيد<sup>(١١)</sup> روايات البطولات وآيات الفداء، والقياس مع الفارق طبعاً. فماذا لو تحقق النصر للمعتدي وأدى إلى سقوط عبدالناصر؟ بأقرب احتمال وفي أفضل الأحوال ربما عومل هو وعومل إنقلابه في ٢٣ يوليو بمثل ما تعامل التاريخ مع واحدة من إنقلابات الضباط السوريين والعراقيين. ولما حظيت سيرته وفترة حكمه القصيرة بأكثر من هامش في تاريخ الشرق الأوسط وتاريخ مصر، وليس بعشرات الكتب وآلاف البحوث. والفضل كل الفضل يعود لأولئك الكتاب بناء الأساطير حول أبطالهم الذين يفرضون أنفسهم على التاريخ وعلى أصحاب الأدوار فيه مثل ما يفرض الفاتحون أنفسهم عليه. و"المنتصرون

(١١) جرت محاولات عدة لتخليد ووقعة بورسعيد، منها قيام معامل السلاح في مصر بإختراع رشاشة يد أطلق عليها إسم المدينة لكن سرعان ما تبين أن هذا السلاح أكثر خطراً على حامله من الهدف الذي يصوب إليه. فبطل إستخدامه بوقت قصير جداً وضاعت من المدينة الفرصة.

في الجولة الأخيرة يبنون أساطير مريحة حول ضحايا المؤامرات التي أتوها، والضحايا الذين سببتهم مغامراتهم ليخففوا من وقع إجراءاتهم وتصرفاتهم" على حد قول برتراند رسل<sup>(١٢)</sup>.

\*\*\*

أخطأ أيذن كثيراً عندما قوم حملته فوصفها "بالنجاح القصير العمر". وغفل مما غفل عن إعتبارها واحدة من الأسباب الرئيسة التي زودت خصمه بالطموح والقوة والعزم على إمتطاء حصان القومية العروبية الجموح وخوض عباب الوحدة المتلاطم.

وكان يختلف عن غيره من دعاة العروبة السابقين. لم يكن طائشاً غيبياً مثل صلاح الدين الصباغ، ولا نظرياً خيالياً صوفياً كعفلق والأرسوزي، ولا مدرسياً تربوياً كسامي شوكت حامى الفتوة، ولا متفلسفاً حائراً كقسطنطين رزيق وساطع الحصري، وغيرهم وغيرهم من دعاة القومية الصغار. كان عبدالناصر تكتيكياً وعملياً وواقعياً.

أدرك أولاً قيمة المفاجآت وأثرها في أعصاب الجمهور، لاسيما في الشرق العروبي الذي تستهويه البطولات الفردية وتفعل فيه سحر ما تفعله قصيدة جديدة تغنيها أم كلثوم.

وبواقع أصول شعب مصر العرقية كان يدري أن البحث عن العنصر العربي الخالص لجعله أساساً للإدعاء، كتلك النظرية التي بحثت عن العنصر الجرمانى الخالص فكبت بصاحبها، هو عبث وعمل صيباني. وقد وضع مفكرو القومية العربية مقاييس واسعة جداً للتعريف من هو العربي وكلها يؤدي إلى صهر الأقليات وإذابتها في البلاد الناطقة بالعربية. وتلك النظريات والتعاريف لا تحل له مشكلة صغيرة. بل ستخلق له مشاكل كبيرة هو في غنى عنها لاسيما هناك في أقصى الشرق من الوطن العربي وفي أقصى الغرب منه.

لكنه كان يعرف قيمة الإعلام وكيفية إستثمار النصر وعواطف الجمهور والتآمر وإحداث الإنقلابات وإقتناص ولاء الأنصار والمنتشيعين في الوقت المناسب قدر ما كان يدرك قيمة العنف وإستخدام القوة في الوقت المناسب.

هبت جماهير البلاد الناطقة بالعربية وقامت قومة رجل واحد مشيدة بصلاية مصر وصمودها قيادة وشعباً. وراحت التهاني تتدفق إثر فشل العدوان من كل جهة. في حين كان راديو صوت

(١٢) Lord Bertrand Russell (١٨٧٢-١٩٧٠) من مشاهير فلاسفة القرنين التاسع عشر والعشرين، وحائز جائزة نوبل ١٩٥٠ في الأدب. من دعاة اللاعنف سجن بسببها مرتين (في ١٩١٨ و ١٩٦١)، أسس في ١٩٦٣ مؤسسة برتراند رسل للسلام. تحظى تأليفه العديدة بإحترام كبير، وأخصها بالذكر سيرته التي كتبها وتقع في ثلاثة مجلدات.

العرب يشير بكل تواضع الى أن هذا النصر هو في الواقع نصر للعروبة وللأمة العربية قبل أن يكون نصراً مصرياً. ولم ينسَ خلال ذلك أن يشير الى أولئك العملاء والخونة من حكام الدول العربية الذين ساندوا العدوان وعاونوه وسهلوا له حملته بتزويده بالوقود الضروري نتيجة الإرتباط غير المشرف بأحلاف إستعمارية. وكانت الإشارة صريحة والمقصود بها معلوماً<sup>(١٣)</sup>.

(١٣) من البداية وضع الإعلام المصري موقف الحكومة العراقية موضع شبهة كبيرة. والواقع هو أن موقف حكومة نوري السعيد لم يكن يفتقر عن الموقف السوري الذي كان يربطه بمصر إتفاق عسكري يتضمن وحدة الجيشين، ولا عن الموقف السعودي وغيرهما من البلاد الناطقة بالعربية. فقد كان عند الجميع موقفاً قولياً. بفرق واحد وهو أن الإعلام السوري نحا منحى الإعلام المصري في التهويل وبث الإشاعات والإتهامات بالموقف العراقي. بلغت هذه الشائعات الحد الذي إنطلت على أكثر الساسة الوطنيين حذراً وأشدهم تمسكاً بالبياديء الديمقراطية دك من الملايين من البسطاء، وهو السيد كامل الجادرجي فأوقعته في ورطة كلفته الكثير. كان آنذاك في دمشق مدعواً لحضور المؤتمر الشعبي العربي، وصدق ما إنتشر ونزل منزلة الحقائق بأن الحكومة العراقية واصلت ضخ النفط عبر سورية الى الغزاة البريطانيين الأمر الذي ألجا السلطات السورية الى نسف أنابيب شركة النفط العراقية!

أسرع الجادرجي دون تبصّر بإرسال برقيته الشهيرة الى رئاسة مجلس الأعيان ببغداد في ١٤ من تشرين الثاني، أي بعد تطبيق قرار وقف إطلاق النار، وهذه هي: "إن لجنة الإتصال للمؤتمر الشعبي العربي تستهزئ ضمائركم لتبادروا بإنزال العقوبة بحق المتآمرين الذين إرتكبوا الخيانة العظمى بالسماح للبتروال العربي في العراق أن يتدفق الى حيفا لتستخدمه إسرائيل والإنكليز والفرنسيون للقضاء على الأمة العربية. إن التاريخ يسجل موقفكم، وإن الأمة العربية بأجمعها تنتظر ما سوف تتخذونه على هذه المؤامرة الإستعمارية المنكرة، على المتآمرين من أعوان الإستعمار. وفقكم الله سبحانه وتعالى الى ما فيه رضاه ومصصلحة الأمة العربية".

هذه البرقية تدل على مبلغ التأثير الدعائي والإعصار القومي الذي عصف بالجو العربي في تلك الفترة ليدفع سياسياً ديمقراطي النزعة ذكياً نزيهاً سديد الرأي الى كتابة برقية إتهام صريحة بحق حكومة ينتمي اليها ويخضع لقوانينها دون التحقق من صحة ما نسب. كانت خدعة سورية ضحي فيها بهذا الرجل. فالأنابيب التي نسفت كانت معطلة مية منذ ثمانية أعوام لم تجر فيها نقطة نفط واحدة منذ حرب العام ١٩٤٨. ما لبثت الشائعة أن أفتضح مصدرها كما بيئاً- أعني أجهزة عبدالناصر. وعصف الغضب الشديد بنوري السعيد وحكومته إذ لم يكن للتهمة أساس قط. [أقر الجادرجي فيما بعد بأنه خُدع. وقد كتب برقيته بضغط عظيم من أعضاء المؤتمر السوري والمصريين.]

وأحيل الجادرجي الى المجلس العرفي العسكري وأقر بأنه صاحب البرقية ولم يتصل من توقيعه، فحكم عليه بالحبس ثلاث سنين [قضى منها سنة واحدة وبعض سنة سجيناً سياسياً يتمتع بحرية تامة من زيارات دائمة الى مجلس خاص وصلة متواصلة بالخارج]. [انتهاز عبدالناصر فرصة العدوان للقضاء على سمعة خصمه (نوري) وتدمير سمعته، فمن بين التهم التي قرأناها وسمعناها من الإعلام المصري: أن الطائرات البريطانية التي أغارت على مطارات القاهرة ودمرت القوة الجوية المصرية وقتلت آلاف المواطنين المصريين الأبرياء، إنما كانت تزود بالوقود من القواعد البريطانية في العراق. وأن المستشفيات العراقية كانت تستقبل الجرحى والمصابين المنقولين جواً من ساحات القتال في بور سعيد وبورفؤاد لعلاجهم. وأن نوري السعيد في أثناء الإنزال الانكلو فرنسي لم يخف إستبشاره بين أصحابه عن قرب الإطاحة بعبدالناصر. ركب الحزب الوطني الديمقراطي موجة القومية العربية مع الآخرين مثلما ركبها في العام ١٩٣٣ حين ساند إجراءات حكومة الكيلاني الدموية ضد الآشوريين، وهو دليل آخر على ضعف المفاهيم =

ويصح أن يتخذ العراق نموذجاً لأثر التحريض الإعلامي بالهياج الهستيرى الشعبي الذي عم معظم المدن والقصبات بشكل مظاهرات بالغة العنف ضد الموقف الحكومي. شاركت في تأديتها المنظمات والأحزاب كافة<sup>(١٤)</sup>.

ليس هناك وصف للشكل الذي أريد أن يصوره النظام المصري للنصر المزعوم أدق من برقية التهئة الجوابية التي أرسلها عبدالناصر لملك العراق بمناسبة إنسحاب قوات الغزو من منطقة القناة. بكل ما فيها من صلافة وتبجح وتعريض خفي. وإليك فقرات منها:

"إن كفاح مصر المجيد في معركة الحرية والكرامة قد أنقذ الأمة العربية من المستعمرين ومآربهم. وإن إنسحاب قوى الشر والعدوان عن أرض بورسعيد المدينة الخالدة رمز البطولة والفداء قد أعز جانب العروبة وسان للشعوب العربية كيانها. وإنه لمن أحب أمني أن تتوحد كلمة العرب وتتساند قواهم لعلاء مكانة القومية العربية وتدعيم سيادتها...

= الديمقراطية عند التنظيم الديمقراطي الوحيد في العراق.

(١٤) في بغداد جرت مظاهرتان عيفتان يومي ٢ و ٣ من تشرين أخرجهما الطلبة وقتل فيها تلميذان. وفي مظاهرة ٢١ تشرين نقل أكثر من أربعين جريحاً الى المستشفيات. وفي النجف إستمرت المظاهرات العنيفة المسلحة وقتل فيها طالبان وفرضت المدينة على نفسها إضراباً عاماً إمتد الى رجال الدين الذين إمتنعوا عن أداء صلاة الجمعة ودامت حملة الإضراب أسبوعاً كاملاً. وساندت بغداد إضراب النجف ودخلت مقاومة الشرطة دور تنظيم دقيق تولاه القوميون والبعثيون والشيوعيون، وفي ٢٧ من تشرين الثاني بدت بغداد مدينة مية بإضراب عام أقيمت فيه الحوانيت مقللة وأغلقت المطاعم والصيدليات وإنتشر رجال الأمن والجيش يعتقلون مئات من المتظاهرين والساسة وقيادات الطلبة ورجال الأحزاب. [يذكر الحسني ج ٩ ص ١٠٧ من المعتقلين القوميين البارزين أعضاء حزب الإستقلال كلاً من فائق السامرائي ومحمد صديق شنشل وعبدالرحمن البراز وجابر عمر. ويقول أيضاً أن الوزارة ركنت الى الهيئات التدريسية لإعداد قوائم بالناشطين في المظاهرات كما إستخدمت دائرة التحقيقات الجنائية عدداً من الطلاب كجواسيس على زملائهم وراح ضحية هذا العمل حوالي ١٠٠٠٠ طالب عوقبوا بالفصل أو الحبس أو الإبعاد (في الرقم مبالغة كبيرة طبعاً).

وفي الموصل كانت مظاهرات عديدة بلغ أهدها من الشدة أن طوقت مديرية الشرطة والأمن المركزية. وإقتضى الأمر الإستنجاد بالجيش لفك الحصار عنها والحيولة دون إقتحامها. وسيق مئات من المتظاهرين والحزبيين الى المجلس العرفي العسكري في كركوك. وإجتاحت المظاهرات البصرة وتدخل الجيش للحيولة دون إنتشار المظاهرات الى عمال الميناء. وجرحت حملات تفتيش وإعتقالات في سائر المدن العراقية الأخرى، وشاركت المدن الكردية في أربيل وسليمانية وكركوك في مظاهرات تضامنية مع نضال الشعب العربي. في الواقع تألّت كل القوى السياسية في العراق بمناسبة العدوان على حكومة نوري السعيد وكانت لناصر فرصة نادرة للغمز في قناة هذا السياسي العجوز. وفقد معظم الساسة "الرجعيين في البلاد الناطقة بالعربية مصداقيتهم أمام مواطنيهم". [الرجعيون هنا هم الذين لايقرون سياسات عبدالناصر ولايخضعون لمشيئته].

والله أسأل أن يلهمنا سبيل الرشاد ويتم علينا نعمة الوثام والتضامن ويأخذ بيدنا جميعاً لما فيه خير الأمة العربية ووحدتها".

هذا النجاح الذي شعر به رائد القومية الجديد كان في طياته يتوارى خطر عظيم. الآن يدق هذا الرجل باب القومية العربية بقوة يد بطل العالم العربي، فبدا مؤرخه هيكلاً "ذلك الأسد الذي شد بالسلاسل" مقيداً لا ينتحاله الزعامة المصرية وحدها بل ينتحال الفضاء الأرحب فضاء العالم العربي بدخوله عاملاً فاصلاً حلبة المشاريع العربية ومشاكلها التي لا نهاية لها. فبعد ١٩٥٦ لم يعد حراً في التفرغ لشؤون مصر وحدها وقد انداحت أهدافه إثر العدوان للتأثير على مجرى الأحداث هناك: من دعم للزعماء الحاكمين الذين يعترفون له بحق التقدم عليهم أو يدينون له بالولاء أو الذين يؤيدون سياساته، إلى التبرص بغيرهم ونسج المؤامرات لإسقاط من يخالفه منهم ولا يعترف بتقدمه عليهم، تحت زعم تصفية كل آثار الكولونيالية والإستعمار والعمل من أجل تحقيق الوحدة العربية وإستكمال العدة لسحق إسرائيل وإزالتها من الوجود. وكل واحدة من هذه الغايات تقتضيه مجهودات متواصلة وتصدياً لمشاكلها المتفاقمة، يقيم أحلافاً وإتحادات تارة ثم ينقضها أو تنتفض عليه تارة. يتدخل عسكرياً بشكل مباشر ويقحم نفسه عسكرياً بشكل غير مباشر. يوزج الإعلام الدعائي في معاركه المتواصلة بشكل لم يشهد له الشرق الأدنى مثيلاً، يغازل أعظم دولة إشتراكية لضمان مساعدتها العسكرية ويتودد إلى أعظم دولة رأسمالية ناشداً الصدقات والعون الإقتصادي، دون أن يرى في ذلك حرجاً و"تلك هي شروط التاريخية التي حددت مصيره وحملته عبناً أكبر من أن يتحملة أي من البشر. إتخذته العروبة بطلاً لها وحملته خارج مصر إلى دور دولي - عروبي" (١٥)

في مجموعة من البلاد تتفاوت في التطور السياسي، بأنظمة متباينة متصارعة، وعقائد متنازعة، وبالنفوذ الأجنبي كانت الوحدة العربية التي "يؤمن" بها ويعلنها الجميع مستحيلة عملاً. وهو يراها أيضاً متعذرة بوجود حكامها الرجعيين المحافظين المياليين إلى الغرب أكثر من اللزوم. وهذا هو "العبء الذي كان أكبر من أن يتحملة أي بشر". تطويعهم أو إسقاطهم.

وفي هذه السنة، وبعد مرور خمسة عشر عاماً على آخر إنقلاب عسكري عراقي، بوسعنا القول وبناءً على مختلف الشهادات والمصادر - أن الضباط الإنقلابيين العراقيين تمكنوا خلال أربع سنوات من تكتل وتفرق، وإنقسام وإنتقام، وفرقة ولقاء من تشكيل هيئة عليا إستعارت لها إسم ضباط ٢٣ يوليو، وتعيين أهدافها وهي القضاء على نظام الدولة وإزاحة الطبقة

الحاكمة وإعلان الجمهورية.

\*\*\*

كانت سورية أقرب الأهداف القومية لعبدالناصر.

أطلقت الدوائر السياسية والمجالس الخاصة على السفير المصري في سورية لقب المندوب السامي وبدت السفارة المصرية في العام ١٩٥٦ وأوائل ١٩٥٧ أشبه بخليعة نحل، كانت الأرجل التي تدخلها وتخرج منها أكثر من تلك التي تختلف إلى ديوان رئاسة الوزراء ومقر رئيس الجمهورية. ويتحريض وتجنيد من هذا "المندوب السامي" المصري أقدمت حكومة العسلي على خطوات سياسية تنسجم مع الخطى السياسية المصرية في المجالين الداخلي والخارجي<sup>(١٦)</sup>، ببركات حزب البعث الذي ضاعف نشاطه أتباعه من الطلاب وواصل النضال "حتى آخر طالب"<sup>(١٧)</sup>

وفي دنيا العسكر بدأ الإنقسام والإضطراب بين مختلف المجموعات وظاهرة التحول المستمر في لواءات الضباط فاشية ومستمرة. وحاول القوتلي إبعاد "السراج" بتعيينه ملحقاً عسكرياً لسفارته في مصر، فأخفق بسبب معارضة الحوراني وخالد العظم والكتلة العسكرية الموالية

(١٦) إعترفت سورية في ١ تموز بالصين الشعبية، وفي ٢٠ آب عقدت إتفاقاً ثقافياً مع الإتحاد السوفياتي أعقبها تبادل وفود ثقافية وإرسال مئات من الطلاب للدراسة فيه وفي توابعه من دول الكتلة الشرقية، وقام وفد برلماني سوفيتي بزيارة لدمشق في ٤ حتى ١١ من أيلول، وفي تشرين الأول حل القوتلي ضيفاً رسمياً على الحكومة السوفيتية، فكان أول رئيس من الدول العربية يفعل هذا. وظهرت الأفلام السوفيتية في صالات العرض السورية إلى جانب أفلام مصر الإخبارية للنظام المصري في الشؤون الدولية لتحل محل أفلام الغرب، وخير مثال يمكن عرضه للنفوذ المصري هو الضغط الذي مارسه الناصريون بتشجيع البعث والحزب والشيوعي وضباط الجيش طوال أربعة أشهر (كانون الأول ١٩٥٦ - آذار ١٩٥٧) لتفضيل العرض الشيوعي في صفقة السلاح على العرض الغربي في حين كان الأخير أفضل من الأول بكثير. [قام نزار أرسلان وكيل شركة بروكون Procon وهي الشركة التي قدمت العرض الأفضل بنشر التفاصيل في ٢٤ نيسان ١٩٥٧، بشكل إعلان صحفي دفع ثمنه].

كان موظفو وزارة الخارجية السورية يعلقون ساخرين على الإجتماعات التي يعقدها وزيرهم (البيطار) ووكيل الوزارة (صلاح طرزي) وعبدالله الريماوي (وهو القائد البعثي الأردني وزير الخارجية الذي طرده الملك الأردني) وينعتونه "بالمجلس السوفيتي الأعلى".

(١٧) في ٣١ من آب ١٩٥٦، هاجم جلال السيد (أحد مؤسسي حزب البعث) بعد إستقالته من الحزب، في خطبة له بمجلس النواب "أولئك السياسيين الذين يتسترون وراء الطلاب ويقولون سنحارب إلى آخر طالب" قاصداً علق والبيطار وقادة البعث الآخرين. لم يسكت حزب الشعب لا في المجلس ولا في الشارع. وإتسم بعض الصحفيين بالجرأة الكافية لإنتقاد الحكم المستبد بالحريات، وبالإنعطاف نحو اليسار ومهاجمة البعث، والإشارة إلى مخاطر وضع الإقتصاد تحت رحمة السياسة والمصالح الحزبية، الأمر الذي أدى إلى خسارة سورية أسواق الدول الجارة. وتعالق الضجة "بريكم أبعدوا الإقتصاد عن السياسة".



بعد إخفاق (القولتي) في تحقيق نوع من التوازن بين اليسار والفتنات المعارضة من فلول الأحزاب القديمة، رأى أن يشخص إلى القاهرة ليحل المشكلة مع عبدالناصر فانتشرت إشاعات حول إعتزاه الإستقالة.

في أثناء ذلك بدا وكأنّ البعثيين صاروا يدركون الخطر الذي يتعرضون له جراء تعاطف النفوذ السوفيياتي ومحاولات الشيوعيين الفوز بمواقع سياسية وإمتميازات. وفي أثناء بحثهم عن مخرج ماوجدوا أنفسهم إلا وهم يشخصون بأنظارهم إلى المنقذ القومي الجديد في أرض الكنانة، ليفقدوا أملهم في الإستمرارية بإلقاء سورية في أحضانه<sup>(١٨)</sup>.

كانت سورية في أواخر العام ١٩٥٧ مهددة مبلبله ضائعة الرشد. أشبه بكرة تتقاذفها أقدام لاعبين كثار وبأكثر من هدفين في الملعب: أطماع حزبية، شهوة إلى السلطة، ثارات سياسية، إرهابات خارجية، مخاوف من إنقلاب عسكري دموي وما إلى ذلك<sup>(١٩)</sup>.

(١٨) رانت على الجو أزمة سياسية دولية جراء هذا التحول فأرسلت الولايات المتحدة نائب وزير خارجيتها (لوي هندرسن) في ٢٤ آب إلى الشرق الأوسط ليصغي إلى مخاوف تركيا من خطر قيام نظام شيوعي على حدودها الجنوبية، وكانت قد صدرت الأوامر للجيش التركي بالإحتشاد على الحدود السورية بحجة القيام بمناورات، ويحث مجلس الأمن في الشكوى التي رفعتها سورية ضد الضغوط التركية - الأمريكية. (١٩) ليس من الإنصاف هنا أن ننسى اللاعب السعودي الذي يمثله الوسط الحريص على الإستقلال الوطني بعيداً عن العراق ومصر والإتحاد السوفيياتي. كان نجم عبدالناصر الصاعد قد دق جرس إنذار خطير في أذن السعوديين الذين كانوا يدعون إلى الوحدة الإسلامية بدلاً من الوحدة العربية. كان الأمراء الحاكمون الذين أصبحوا أغنى من في الدول العربية كافة يتطرون من دعوة القومية العربية والعروبيين والوحدة. فلايفرقون بين من يدعو إليها ويدعو إلى الشيوعية فكلاهما في نظرهم حركة هدامة تخفي نية القضاء على الإسلام (أي القضاء عليهم) والدعوة إلى الوحدة إنما هي دعوة لإقتسام ثروتهم أي لإنتهابها. بقيت السعودية صديقة لمصر عبدالناصر عندما كان هذا يتحرك في حدود مصر ويعمل لمصر فقط مستبشرة بقوته لتحديد العرشين الهاشميين اللذين مازالا يعتبران الحجاز ملكاً لهما بالوراثة وتراث أوسرتيها الثوري الذي أمن للجزيرة العربية خلاصاً من الهيمنة العثمانية. لكن ما أن أعلن الزعيم المصري بأنه قائد الأمة العربية يحمل رسالة إنقاذ العالم العربي من الإمبريالية والإستعمار وقيادته إلى الوحدة الشاملة حتى إنقطعت حبال الود وإنتهت زيارات الصداقة وعفى على ميثاق التضامن الثلاثي (راجع ما سبق) وراحت السعودية تسعى بكل ما أوتيت من عزم ومقدرة مالية على إجهاض صفقة الزواج. ففي العام ١٩٥٧ قام مستشار الملك السعودي الشيخ يوسف الياسين بزيارة سرية للقولتي ليضعها معاً برنامجاً يؤدي إلى جعل سورية عضواً في إتحاد إسلامي أو وحدة، وأن يحاول إقناع الضباط به أو يتخلص منهم ويفك ارتباط بلاده بالإتحاد السوفيياتي والمرء لايسعه بالمناسبة المقارنة بين سداجة القولتي القريبة من البله وبين دهاء السراج المتناهي. كيف إستطاع إحران ثقة القولتي بهذه السرعة ليأتمنه على سر خطير ومفاوضات مع دولة سبق للسراج إن قدم متأمريها في محاكمة صاحبة، وهو الذي سعى إلى التخلص منه قبل أشهر بتعيينه ملحقاً عسكرياً فأخفق. ما من شك في أن هذه الثقة هي التي حفزت السعودية على إختياره =

أفعى أوديسيوس المتعددة الرؤوس - هي الشهوة إلى الحكم التي ملكت على تجار السياسة السوريين مذاهبهم، مدنيين كانوا أم عسكريين. كلما زاد واحد من الرؤوس نمواً زادت شهوته وشراسته. وفي سورية كان كل رأس، أعوزه الطعام أم لم يعوزه، ينثني إلى الرأس الآخر ليحاول إبتلاعه.

عندما أنهكت المحاولات تلك الرؤوس وقصرت عن أكل بعضها بعضاً، وعندما وجدت صولاتها لا تؤدى إلى نتيجة، ضمت الرؤوس نفسها يائسة وشدت أعناقها في باقة تقدم إلى المنقذ. ذلك المرتقب المتوقع المحتوم الذي أحكم تدبيره، المتريص بسيفه البتار عبر القناة ليقطع به تلك الرؤوس صفقة واحدة.

لم يكن هناك حزب أو تجمع سياسي في سورية قادر على تأمين غالبية مطلقة تشد أزره. وكان بين الرؤوس المتصارعة خلاف مؤيدي الوحدة - من لا يجد أي حكمة فيها. وإن إنجازها قد يفضي إلى إنشطار في المعسكر المناوي للإستعمار والإمبريالية، وإن من شأنه إبعاد السعوديين وهم العرب الأقحاح الذين كانوا يخشون قيام وحدة بين سورية ومصر قدر ما يخشون من قيامها بين سورية والعراق. وكان لهم أشياعهم الكثيرون، وهم ليسوا عملاء لهم قط كما تبين عند وقوع الانفصال. فالأولى كانت ستفضي حتماً إلى تسلط القومية العربية ذات المنحى الإشتراكي مما يهدد نظامهم الإسلامي، مثلما يهددهم العرش الهاشمي المزدوج وهو العدو اللدود المقيم. وعن موقف البعث، فقد كان يعيش أزمة داخلية، إليك هذا القول للفريق مصطفى طلاس:

"...لكن والحق يقال، إذا كان الأساتذة الثلاثة (يقصد الحوراني والبيطار وعفلق) رأوا بتحقيق الوحدة مكاسب شخصية لكل منهم وخلصاً وحلاً لمشاكلهم وخلافاتهم التي ما كانت تنتهي، إلا أن الأهم من كل هذا أو ذاك أن الوحدة

= (من بين الناس جميعاً) لتنفيذ خطة تصفية عبدالناصر جسدياً. حماقة كلفت الملك سعود عرشه فضلاً عن مبلغ يقارب مليوني پاون سترليني وفضيحة كبرى دوت في أرجاء العالم. بطبيعة الحال جرى التنسيق للإيقاع بالسعودية. أسرع السراج ليزف نبأ إختياره بالذات لتنفيذ عملية الإغتيال التي إتفق على أن تتم بوضع قنبلة موقوتة في طائرة عبدالناصر التي ستقله من دمشق إلى القاهرة. ودفع للسراج مبلغ ١.٩٠٠.٠٠٠ پاون بموجب ثلاثة صكوك لحامله مسحوبة على فرع البنك العربي في لندن، أولها بمبلغ مليون پاون مؤرخ في ١٩ من شباط ١٩٥٨، وثانيها بمبلغ مائتي ألف وثالثها بمبلغ سبعمائة ألف مؤرخين في ٢٦ منه. بعد قبض المبالغ خرجت الصحف القاهرية والدمشقية بالتفاصيل مدعمة بصور للصكوك التي تم سحبها، وبدت السعودية وملكيها أضحوكة عالمية، وأستبدل ملكها بأخيه فيصل فوراً. لم يكن هناك مجال للإنكار أو وجه للتبرير والدفاع.

جاءت لتخلصهم من تناقضاتهم مع قواعدهم الشعبية. فقد أصبحت الشُّلُل (جمع شلة) والتكتلات والمحسوبة تفعل فعلها الساحر، ولم يعد للموضوعية والنضال الحزبي أي دور في تقييم الرفاق الحزبيين. ولذلك بدأت الهوة تكبر أكثر فأكثر ما بين قيادة الحزب وقواعده، ولذلك فقد رأت القيادة العليا للحزب أن الوحدة هي خشية الخلاص<sup>(٢٠)</sup> من كل المشكلات التي ستفجر في وجهها مستقبلاً وهي غير قادرة على مجاراتها أو كبتها أو اللحاق بها وتجاوزها لأن عقلية التنظيم والعمل الحزبي الصحيح والروح الديمقراطية كانت بعيدة عن قاداتنا بعد الأرض عن السماء<sup>(٢١)</sup>

هنالك أيضاً أولئك القوميون العروبيون الذين أطلقوا على أنفسهم إسم "الناصرين" وإليهم تعزى عقيدة القومية العربية الناصرية. نجدهم يحملون بلسان عميدهم ومفكرهم "ساطع الحصري" الذي فتن بشخصية عبدالناصر كما فتن قبل عشرين سنة بشخصية "بكر صدقي"

(٢٠) مصطلح مسيحي النجار واسع الإنتشار بين الكتاب السوريين واللبنانيين، فالخشبة في هذه الإستعارة يقصد بها الصليب الذي سمر عليه المسيح مقدماً نفسه فداءً من أجل خلاص البشرية بحسب عقيدة المسيحيين.

(٢١) الأقليمية جذورها وبذورها: الص ٧١٧-٧١٨ المرجع المتقدم. نقول: في النصف الثاني من ١٩٥٧ بدت فكرة الوحدة عند البعث "عملية" أكثر من كونها مجرد شعار. وتناولت فجأة مسألة قيام إتحاد فدرالي مع مصر بأسلوب مندفع وبوصفه ضرورة قصوى. ظاهرياً خشي البعثيون إنقلاباً عسكرياً لأرجحية المناصب العسكرية الكبرى في يد شيوعيين، تظاهروا بخوف لا مبرر له لأنهم كانوا مهدين بإنشفاق كليل بالقضاء على الحزب. إذ كان حزبهم يجتاز أزمة داخلية تنذر بأسوأ العواقب أثارها تقرير خاص وضعته لجنة حزبية (فوق العادة) في شهر تموز جاء فيه أن أعضاء الحزب قد إنقسموا الى تيارين متناقضين، تيار يأخذ بالتفاسير الماركسية وتيار يتجه الى النازية-الفاشية، أو الإشتراكية الغربية الليبرالية، أو يتمسك بمبادئ النظام المصري. وأشار التقرير أيضاً الى خطورة الإتجاه الخاطيء في تفسير معنى "الرسالة العربية الخالدة" التي أصبحت في الواقع رسالة الإسلام. وعدد التقرير أيضاً جملة أخرى من أسباب الشكوى كإنعزال القيادة عن الجماهير الحزبية بقوله نصاً: "أصبح الحزب لا أكثر من منتدى إجتماعي، من مظاهره تباين آراء القياديين لتبدو القيادة من خلاله وكأنها منشقة على نفسها، وقد غلبت عليه روح الإنهزامية. ويبدو أن السراج حصل على هذا التقرير "السري للغاية" وبعثه الى عبدالناصر، بدليل أنه ذكر قادة الحزب الذين جاؤوه للشروع في محادثات تجربة ثانية للوحدة في العام ١٩٦٣ إذ قال لهم "إن معلوماتي حول الحزب أيام محادثات الوحدة في شهر كانون الثاني ١٩٥٧ أنه كان يعاني من مشاكل كادت تستعصي على الحل وكندا تتصور جميعاً بأنكم مقدمون على حل الحزب". ومهما يكن قد جال في أذهان قادته بخصوص مصيرهم إذ ذاك فقد كان الأمر واضحاً تماماً: تعلقوا بقلق الفريق المشرف على الهلاك بفكرة إيجاد رابطة دستورية مع مصر كعلاج وحيد باق لضمان حياة الحزب. لذلك لم يلاقوا صعوبة في إثارة حماسة جماهيرية وعدلوا فجأة عن شعار الإتحاد الفدرالي الى الدعوة للوحدة الشاملة الكاملة.

فوق أسير حفاوته به وقت ذله ليعتبره "المنقذ الأكبر للأمة العربية ومحقق وحدتها بعد الرسول"<sup>(٢٢)</sup> تراه يحمل حملة شعواء فيها من الصراحة والصدق ما فيها- على البعث وعلى عفلق فيلسوفه متهماً إياه بسرقة فلسفته في القومية وتشويهها، رافضاً بإستنكار وشدة أن يكون البعث من أقدم المنادين بالوحدة العربية، عائباً في الوقت ذاته ضحالة تفكير عفلق لاسيما في إعتقاده بأن الإيمان بالعروبة الوجدوية وحده يكفي:

"إن هذه الكلمة غامضة لاتقنع الآخرين الذين يرغبون في أن تكون أسس كل الأشياء المعرفة القائمة على الإستقلال، وإن الإدعاء بأن البعث كان له الدور الأول في قيام الوحدة هو إدعاء كاذب بعيد عن الصحة، والصحيح هو أن الجيش السوري هو الذي وضع حزب البعث وأقطابه أمام الأمر الواقع"<sup>(٢٣)</sup>

وفي الفقرة الأخيرة من هذا القول لانستطيع مجادلة الحصري فتلك الوحدة لم تقم على أسس شعبية أو إرادة حرة جماهيرية، وإنما كانت وسيلة للحيلولة دون إلتقام الرؤوس للرؤوس والوثوب بعضها على بعض.

وكان للحزب الشيوعي السوري طائفة من كبار الضباط: العميد أمين النفوري نائب رئيس الأركان كان صديقاً للحزب وإن تظاهر بالحياد، والمقدم أحمد عبدالكريم رئيس المكتب الثالث (الحركات) شيوعي يحمل بطاقة الحزب، وفوق كل ذلك كان رئيس الأركان نفسه اللواء عفيف البزرة (البزري) من أنصاره والمتعاطف بشدة مع الحزب. والى جانب هؤلاء الثلاثة كان هناك حشد كبير من القادة الصغار وصغار الضباط. إلا أن قيادة الحزب الشديدة الحساسية واليقظة - بعد طلاقها البيائن من البعثيين - كانت قد إستوعبت لب القضية وأدركت الباعث الحقيقي للإنتقال الفكري البعثي والإنتقال الفجائي من شعار الإتحاد الفدرالي الى الوحدة الناجزة

(٢٢) في نظر الحصري "كل من ينتمي للأقطار العربية ويتحدث بالعربية فهو عربي بصرف النظر عن إسم الدولة التي يعد مواطنها رسمياً وبصرف النظر عن أصله أو نسبه أو حسبه". وهاجم المصريين غير العروبيين بقوله "ليس من حق المصريين أن يولوا ظهورهم للعروبة إستناداً لإرتباطهم بالحضارة الفرعونية". العروبة أولاً، بيروت ١٩٦٠، ص ١٩١. وشأنه في هذا شأن كل مفكري القومية العربية فقد وضعوا مقاييس واسعة جداً للتعريف بمن هو العربي، وكلها كما شرحنا- يؤدي الى إلتهام وصهر الأقليات القومية الأخرى في البوتقة العربية، والنهاية واحدة: الكل ينكر حقوق الأقليات القومية والعنصرية للآخرين.

(٢٣) من مقال نشرته جريدة (الأنوار) جريدة الحزب للدكتور بدرالدين السباعي عضو اللجنة المحلية في حمص جاء فيه "أن كل الطرح حول قيام إتحاد فدرالي مع مصر ما هو إلا ستار يغطي سعي البعث الى إحتكار السلطة. إن أعين الشيوعيين السوريين مفتوحة ولن يتركوا البعثيين يخذعونهم ويعملون من وراء ظهورهم...".

الكاملة، ففيها تهديد عظيم لكيان الحزب إذ لم يكن أسهل على البعثيين عند تمام الوحدة اللجوء الى القوانين المصرية الصارمة التي إشترعها عبدالناصر للقضاء على الشيوعيين وإستئصال الشيوعية. وقد رأوا بأمر أعينهم كيف نثر أشلاء الحزب الشيوعي المصري نثراً. سيفعلون ذلك دون أن يمكن توجيه اللوم اليهم أو أن يتحملوا مسؤوليته الأدبية والسياسية إزاء الشيوعية العالمية والبلدان الإشتراكية والأحزاب التقدمية في الخارج. إذن كان على الحزب أن يتحرك في مجال إصلاح جسوره مع البعث بعد المعارك الصحفية العنيفة التي نشبت بينهما إثر دعوة حزب البعث الى الإتحاد الفدرالي. ففي ٣١ كانون الأول ١٩٥٧ كتب خالد بگداش أمين سر الحزب العام مقالاً ضافياً حذّر فيه من محاولات الإمبريالية الأمريكية خلق خلافات بين الحزب الشيوعي السوري وحزب البعث.

لكن الموجة العارمة المتجهة نحو شاطيء الإتحاد الفدرالي كانت كاسحة لم يكن بمقدور الحزب الشيوعي الصمود لها. وبدت حاجته الى الإنطلاق في تكتيك أكثر حصافة وذكاء.

في ١١ كانون الثاني ١٩٥٨ فوجيء البعثيون مفاجأة لم تكن في حسابهم مطلقاً وكان عليهم أن يعملوا بسرعة لئلا يدفعوا الى الخلفية، ويفقدوا الدور "الطليعي" الذي إدعوه دائماً. إن القصة تستحق التسجيل فعلاً، وهي ليست من نسج الخيال وإن بدت خيالية روائية شبيهة بروايات "رفائيل ساباتيوني وألكساندر دوما".

في ذلك اليوم قام عفيف البزري بمعرفة الحزب الشيوعي وإطلاعه وبمساندة من العميد أمين النفوري وأحمد عبدالكريم والسراج، وبتشجيع من خالد العظم رئيس الوزراء<sup>(٢٤)</sup> بإقناع مجلس القيادة العسكري (وهو أعلى سلطة في الدولة) بالطلب من مصر إقامة وحدة شاملة كاملة بين القطرين وكتبت مذكرة لعبدالناصر على شكل نداء، وهذا أهم ما جاء فيها:

"نظراً للظروف الراهنة التي نجمت عن الإنتصارات التي حققتها الأمة العربية في

(٢٤) يحاول خالد العظم أن يتنصل من كل دور له رئيس وأن يجعل نفسه "عامداً" أسير إرادة الضباط فهي أسهل تبعاً من إلقاء مسؤولية الوحدة على عتبه منزله، يقول: لست أدري اذا كانت خلافات العسكريين هي التي جمعتهم لقيام الوحدة مع مصر، أم أن مؤامرات أجنبية توصلت الى إقناعهم ولو عن طريق مباشر بأن البلاد سائرة نحو الإنيهيار إن لم يتدارك الأمر عبدالناصر بنفسه [المرجع السالف: المذكرات ج ٣ ص ١١٩]. (يكتنف الغموض سبب تحمس البزري لفكرة الحزب الشيوعي وإنضمامه الى كتلة الوحدة، فقد تمت تنحيته بعد إتمامها (هذا الضابط رفع مرتين خلال سنة واحدة). يذكر أنطوني نثنج أن العالمين بخفايا الأمور أمثال خالد العظم وغيره بددوا هذا الغموض بقولهم أن رئيس الأركان هذا لم يكن يؤيد فكرة الوحدة إلا بتوقعه أن عبدالناصر سيرفض العرض مرة أخرى كما فعل إثر إتصالات سرية سابقة تمت بينه وبين الضباط الآخرين.

كل من مصر وسورية، وكان من نتائجها إرتباط قضيتنا العربية بالسلام العالمي الى حد كبير، الأمر الذي أتاح الفرصة لإتخاذ خطوات عملية سريعة من جانبنا تتفق وأهمية إنتصاراتنا. ونظراً لإحتمال حصول تغيير في هذه الظروف سيما وأن الإمبرياليين إستطاعوا أن يبلغوا بإستعداداتهم الحد الذي قد يمكنهم من المغامرة بحروب محلية أو عالمية (كذا!) بسبب تهديد مصالحهم الحيوية في الوطن العربي. فقد دعا هذا الى ضرورة إتخاذ قرار فوري بإقامة كيان سياسي لوحدة شاملة مع مصر ووضعه موضع التنفيذ حالاً..."

وأسرع خالد العظم الى طرح هذه "الضرورة" في الشارع شعاراً مدعماً بوسائل الإعلام الرسمية مدافعاً عن فكرة الإندماج الكامل بوصفه عملاً طبيعياً أكثر من الإتحاد الفدرالي. بان عجز حزب البعث في وجه التيار الجارف وقضي على أملهم في أي نجاح تحوزه أطروحاتهم في الإتحاد الفدرالي وطوق الضباط البعثيون وحُصروا في زاوية لا مخرج منها إلا بالإنحياز الى جانب القيادة. صق "الخوراني" جذلاً لهذا الطرح. ذلك المغامر السياسي الذي لا يدين بمباديء أو ولاءات خلا إصراره على أن يكون الفائز في كل لعبة سياسية، وكان له دوره الرئيس في تحويل بقية زعماء البعث عن طروحاتهم في الإتحاد الفدرالي بمعونة قريبة من السراج، الذي طرب كثيراً للتحويل الشيوعي المفاجيء وإهتمامه بإستباق الآخرين الى طلب الوحدة والإمسك بزمام المبادرة التي تتيح له أفضل المقاعد.

إلا أن مركز الثقل الحقيقي في اللعبة، والمرجع الأخير، لم يكن غير المندوب السامي، السفير محمود رياض، وهو الآن يتحرك بإرشاد رئيسه في القاهرة بدقة وتكتيك بارع.

هناك عامل الخوف الأعظم الذي يهيمن على السياسة والأحزاب وكتلات الضباط في أثناء صراعها على حيابة السلطة، وعبدالناصر سيستغل هذا الخوف الى أبعد حد: ف"تحت ظل الخوف يأتي تكرار الرفض ويتبعه الإلحاف"

في الوقت الذي دفعت فكرة الوحدة الى أذهان الجمهور. هرع السراج<sup>(٢٥)</sup> بتدبير سابق -

(٢٥) يصفه نثنج (المرجع السالف- الفصل ١١) "شاباً شاحب البشرة صموتاً نزر الكلام ذا عينين حادتي النظر، جهم عبوس جدي لا يبتسم ولا يعرف للفاكهة معنى. ملك عليه مذاهبة إعجاب شديد بالزعيم المصري عند أول لقاء لهما، كان يجعله يحمّر خجلاً كلما توجه اليه عبدالناصر بالحديث. وقد عمقت حرب السويس هذا الإعجاب وبدا طوال سنوات ١٩٥٦-١٩٥٨ وكأنه ضابط إستخبارات لا للجيش السوري بل للزعيم المصري. وقد سجلت له زيارات سرية للقاهرة طوال العام ١٩٥٧ كانت لغرض اللقاء به وإطلاعه على المواقف السياسية هناك وتلقي الإرشاد منه". ونقلت جريدة نيويورك تايمس (عدد ٢٩ أيلول ١٩٦١) عن مسؤول مصري كبير تحدث حول السراج فوصفه "بكلب الرئيس الأمين". ووصفه هيكل مرتين (المرجع =

إثر مقابليته الأخيرة للملحق العسكري الأمريكي - الى البيطار وإتفق الإثنان على الحل الأوحده: عرض الوحدة الإندماجية على عبدالناصر رسمياً، وحثه على مواجهة "المندوب السامي" ففعل.

كرر محمود رياض إعتذار مصر عن القبول بالوحدة، فسأله البيطار: "ما الذي يخشى من قيامها؟". قال محمود رياض: "الواقع هو أن مصر وسورية لاتتحدثان بلغة واحدة". [كان يتعمد جواباً غامضاً لا معنى له]. فأعاد البيطار عرضه بإلحاح: "إلا أنك توافق من حيث المبدء على الوحدة. أليس كذلك؟". أجاب رياض: "الأمر سواء، أوافق مصر على الوحدة أم لم توافق. فسورية في الواقع غير مستقرة حالياً الى الدرجة التي يمكن معها الموافقة على الوحدة". قال البيطار: "ما الذي تقصده من عدم الإستقرار؟"

- إن الجيش يتدخل في السياسة أكثر مما ينبغي. وقد عانت سورية إنقلابات عسكرية كثيرة، ولو بقيت الحالة على هذه الشاكلة لوجد احتمال في وقوع المزيد منها. الجيش هو الذي يقبض على ناصبة الحال.

أجاب البيطار: "ما قولك لو أن الجيش نفسه يطلب تحقيق الوحدة؟"

ولم يجب محمود رياض بشيء. لكن البيطار أدرك بأن عبدالناصر لا يرى جدوى في أن يقدم خاتم الخطوبة للساسنة قدامتهم ومحدثيهم. وأن الجيش هو المطلوب. حتى حزب البعث العربي الإشتراكي الذي كان أعلى الأصوات وأشدّها إرتفاعاً في تأييده عند الغزو، بل حتى أقرب المناصرين له، فقد كان يدرك من تقارير السراج ومنذويه السامي أن لا سيطرة شعبية هناك للبعثيين أو للقوميين. وهما كالحزب الشيوعي وقلول حزب الشعب والكتلة الوطنية أسرى بيد ضباط الجيش. إنثنى البيطار الى السراج ليعلمه بالحقيقة التي كان السراج يعلم بها: "عبدالناصر غير واثق منك ومن زملائك في الجيش وعليكم أن تدبروا شأنكم معه".

لم يجد البعث صعوبة تذكر في تخريج فلسفي جديد لشعاره يتفق والمأزق الذي وقع فيه: أول خطوة في تحقيق الشق الأول من الشعار هو الوحدة. ثم أن عبدالناصر برهن عملياً على جديته في تحقيق الشق الثالث وهو الإشتراكية بتأميم القناة والإصلاح الزراعي ومصادرة أموال الأسرة المالكة وتأميم المصالح والصناعات الكبرى وإصدار قوانين أخرى تنخرط في مجال المنحى الإشتراكي.

= (السالف) و"ما الذي جرى في سورية" بهذه العبارة: "كان يوسع السراج أن يسمع ديبب نملة في سورية".

ماذا عن الشعار الثاني؟ هذا يمكن تأجيله.

كان عبدالناصر يعلم بأن الضباط الأربعة عشر الذين جاؤوا بسورية إليه ليسوا غير مجموعة من العسكريين الطموحين الأغرار المتأمرين المغرمن بتدبير الإنقلابات، وإن ما يصنعونه الآن لا يخرج بجوهره عن دائرة إنقلاب عسكري قامت به مجموعة من الضباط المتأمرين المدربين على الإنقلابات، إنقلاب عسكري آخر بكل معنى الكلمة ضد حكومة مدنية دستورية في دولة تامة السيادة.

إنقلاب عسكري ساهمت فيه وأحدثته بالتآمر والدسّ والوقيعية دولة خارجية هي مصر.

وهذا فعلاً ما تبادر الى ذهن رئيس الجمهورية القوتلي عندما إتصل بمحمود رياض السفير عشية سفر الضباط الى القاهرة ليقول له ما جاش بنفسه في تلك الساعة:

إن ما حصل هو إنقلاب عسكري وإن الحكومة الشرعية لاتدري به (٢٦).

بدا عبدالناصر مستعداً للقاء ومتوقفاً: إشتراط عليهم أن لايتدخل الجيش في السياسة وأن تحل جميع الأحزاب السياسية نفسها. فوافقوا وهذا موطن عجب: إن كان يسهل على الضباط التفريط بالحياة الحزبية والنظام البرلماني، فكيف فرطوا باللعبة الأثيرة على قلوبهم ليستنازلوا عن دورهم السياسي بمثل هذه السهولة؟ (٢٧) بعد الإيجاب والقبول وإضافة شرط ثالث

(٢٦) قالوا إنهم عندما رحلوا الى القاهرة (على متن طائرة عسكرية) أنهم كانوا يحملون عرضاً موقفاً من القوتلي يناشد فيه عبدالناصر بقبول الوحدة. وقرروا أنه في حالة رفضه، البقاء ورفض العودة حتى يجاب الى مطلبهم ولو أدى ذلك الى إعتقالهم! كانوا في عجلة من أمرهم حتى أنهم لم يأخذوا بجاماتهم معهم حين بقي السراج وأمين النفوري وثلاثة آخرون من المؤتمرين في دمشق للسيطرة على الوضع. ولم يعرف القوتلي يسفرهم إلا في اليوم التالي. وقال له الضباط الباقيون أنه لايستطيع أن يفعل شيئاً وأن مستقبل سورية هو الآن بيد عبدالناصر، وكل ما كان في إمكانه أن يفعل هو أن يلوذ بالصمت ويعقب الأحداث ويحاول مسيرتها عند وقوعها.

أما الوفد فقد كان في إستقباله المشير عبدالحكيم عامر الذي صحبهم الى منزل عبدالناصر. وبعد نقاش إستمر أربع ساعات أعلن عبدالناصر قبوله. وفي دمشق ذهب السراج الى القوتلي وأطلعه على بيان الضباط. [بالإختصار عن نتجك: المرجع السالف]

(٢٧) ذكروا (وكان هذا بعد الإنفصال) أن الضباط الأربعة عشر فوجئوا بشروط عبدالناصر، إذ لم يكونوا في الواقع قد حملوا معهم مشروعاً أو مخططاً للوحدة التي يتصورونها وقد جاؤوا دون أن يصحبهم مستشارون أو خبراء. ولم يقدم أي واحد منهم على شرح منظوره للوحدة التي يبتغونها، لأنهم لايعرفون. وقد قالوا فيما بعد معتذرين أنهم كانوا يتصورون نوعاً من رباط كونفدرالي أو فدرالي فيه تحافظ الدولتان على مؤسساتهما ونظامهما السياسي ودستوره. [في الكتاب الذي ألفه هيكال "ما الذي جرى في سورية"- القاهرة ١٩٦١ الص ٢٩-٤١ أوضح أن الجيش السوري كان المبادر (ويعني طائفة قليلة العدد من الضباط) معللاً ذلك نصاً "لأنه لم يكن هناك أي أمل في حل لمشاكل سورية إلا من خلال الوحدة مع مصر". وقص بإسهاب ومبالغة كيف أن ٢٢ ضابطاً، يمثلون ٢٢ كتلة في الجيش السوري ركبوا الطائرة =

(صوري) وهو إجراء إستفتاء عام.

أعلنت دمشق بالصفقة. وفي إجتماع وزاري إقترح البيطار إرسال وفد حكومي الى القاهرة لبيسط وجهة نظر الحكومة. فحوّل بالذهاب ومعه مسودة مشروع إتحاد فدرالي، رفضه عبدالناصر جملة وتفصيلاً بالطبع، وتمسك بإتفاقه مع الضباط. قال وكان مصيباً تماماً:

"إن السوريين هم الذين جاؤوا إليه وتوسلوا به، مذكراً البيطار بأن الزعيم الآخر في حزبه (يقصد عفلق) تمسك للوحدة التامة وعارض الإتحاد الفدرالي في حينه"، فأسقط في يده.

وكل ما إستطاع إنتزاعه منه هو أن يسمح عبدالناصر للأحزاب السورية في المستقبل بالإتضمام الى الإتحاد القومي، المؤسس حديثاً في مصر، بشكل منظمات سياسية. بالأخير سأل البيطار: "أتوافقون على أن يجري ترشيحك لرئاسة الجمهورية المتحدة من قبل القوتلي؟" فلم يمانع.

جرت هذه الصفقة "الصغيرة جداً" في منزل صغير جداً، ليس فيه غير دورة مياه واحدة.

وإرتاح عاقده الصفقة للنتيجة كما يرتاح للصوص عندما يقبض عليهم جميعاً من دون أن يفلت منهم واحد.

وقبل عفلق - ومنح تمنياته للبيطار قبيل سفره. ولا مشاحة، فعفرق مثل غيره من زعماء الأحزاب القومية العروبية بكل أنانيتهم وعدم إكترائهم بالإرادة العامة، وتبلد شعورهم بالسمو الخلقي العقائدي - يؤثر التضحية بالحزب كله على أن يكون مهدداً بالإنتقسام بين زعامتين وأيديولوجيتين<sup>(٢٨)</sup>، فهو كما إتضح الآن يفضل أن يباد حزبه ويقتلع من جذوره على أن يرى زعامة ثانية له أو أن يحرز درجة ثانية فيه، كان أول الموافقين على حل حزبه العقائدي المبني على أهداف عربية بعيدة، ولاتقبل بأجبي عنه زعيماً ومرشداً.

كذلك كان الحزب الشيعوي بزعيمة بگداس سعيداً بالنتيجة. رغم أن البعث سرق منه الفصل الختامي في رواية كان له فيها المبادرة. فهذا حزب صغير يحاصره كره كل الأحزاب،

= في ١٤ من كانون الثاني، ليقابلوا عبدالناصر في منزله وليشرحوا له لماذا يجب أن تتم الوحدة. فسألهم أيديري القوتلي بمجيئهم وبمهمتهم في القاهرة فأجابوا "لايستطيع أن يعترض على أي شيء". لأننا سنرسل له العميد أمين النفوري ليعرض عليه رغبة الجيش فلايسعه غير القبول. وعندما أعرّب عبدالناصر عن أسفه لذلك لأنه لايستطيع القبول بالوحدة بمثل هذه الأحوال، عندها قرر الضباط إرسال وفد الى دمشق ليتبين رد فعل الحكومة. وفي صباح ١٦ من كانون الثاني غادرت القاهرة طائرة لتعود بعد الظهر بصلاح البيطار وزير الخارجية، ليعلم في إجتماع ذلك اليوم موافقة الحكومة. [يجب أن تؤخذ أقوال هيكلك بكل تحفظ فقد تعود أن يكتب من منطلق عبدالناصر فقط].

(٢٨) راجع ما سبق في أول الفصل.

لايسنده أحد حتى الإتحاد السوفياتي الذي كان رمى بكل ثقله السياسي الى البعث صاحب الكلمة النافذة في الحكومة. والحزب على كل حال هو حزب سري بالأصل وأعضاؤه، رغم حرية نشاط نسبية، مازالوا سريين. فهو والحالة هذه سيكسب كثيراً جراء الإلغاء الرسمي للأحزاب السياسية.

وإستسلم خالد العظم وحكومته للأمر الواقع وبرروا إستقلالها بأن الوحدة العربية هي الأهم. وقال الحوراني الذي كان يحلو له أن يظهر أبدأً بمظهر الظافر "إن سورية أنقذت بأعجوبة". وكان عفيف البزري في منتهى السعادة، كان أسرعهم يقبول شروط عبدالناصر لأن الوحدة مهّدت له سبيل الخروج بشرف قبل أن يزيحه إنقلاب آخر من منصبه، ويركله كما تركل الحجر، أو ربما يفقد فيه حياته.

وأعظمهم سروراً كان "السراج" فقد حان وقت المكافأة، وقبض ثمن الأتعاب مع الفائدة، فقد أمن له مركزه الأول في القطر الشمالي السلطة المطلقة التي كان يحلم بها. في اليوم الأول من شباط ١٩٥٨ وصل القوتلي وحكومته القاهرة، فقد قام اللواء عفيف البزري بشحنهم وحشرهم معاً في طائرة، وإنتشرت الإشاعة في سورية أن البزري خيّرهم بين الطائرة وبين سجن المزة<sup>(٢٩)</sup>.

وختمت الرواية كما تختم التمثيلية أو الأوبرا، بظهور الممثلين والمخرجين المجيدين لتلقي هتاف النظارة وتصفيقهم، وقد تم ذلك بأبداع ما يمكن من شرفة سراي عابدين، وحظي القوتلي بلقب المواطن الأول في الجمهورية الجديدة كما تحظى زوج رئيس الجمهورية الأمريكية بلقب السيدة الأولى<sup>(٣٠)</sup>.

\*\*\*

مع أن كل ما جرى بين عبدالناصر والضباط السوريين من إعداد لدمج القطرين كان وراء أبواب مغلقة، وبمنتهى السرية، فقد بدت العملية في حينه طبيعية جداً باعثها شعور قومي وصلة تاريخية ربطتا أبناء العروبة برباط خالد لاتنقف أمامه حدود أو سدود أو قيود (من تعابير إذاعة صوت العرب). وبرهن عليه الإستفتاء، الذي إشرطه الزعيم المصري، فقد وافق على الوحدة ٩٩.٩٩٩٩٪ من المصوتين في القطر المصري و ٩٩.٩٩٪ من إخوانهم في

(٢٩) اللواء عبدالكريم زهر الدين: مذكراتي عن فترة الإنفصال. بيروت ١٩٦٨ ص ١٨.

(٣٠) هيكل الدولة المؤقت. إتخذ النظام الرئاسي أي الجمع بين رئاسة الدولة ورئاسة الحكومة. ومجلس تنفيذي لكل قطر (يمارس سلطة مجلس وزراء). ومجلس تشريعي واحد يختار أعضاؤه بالمنافسة من المجلسين المنطليين.

ومثلما خفيت هذه الحقائق عنا في العام ١٩٥٨ وبقيت مستورة طوال أربعة أعوام، كذلك بدأ الشك كثيراً في كل ما حملنا كتاب مصر وصحافيوها الثوريون على تصديق موقف عبدالناصر منها. فكل ما كشفوا بله فضحوا من أسرار كان بعد الانفصال لا هدف له إلا لإظهار الزعيم المصري زاهداً في الوحدة، بل واحداً من أشد المعارضين لها وأنها فرضت عليه فرضاً.

لم تطأ قدما عبدالناصر الأراضي السورية. ربما حانت منه التفاتة إليها من الجو أثناء واحدة من رحلاته إلى الإتحاد السوفياتي. ومن كل ما تحدث به وتسرب من أقواله، يبدو أنه لم يكن مطلعاً على التكوين العنصري والاجتماعي لهذا القطر، كان يدري فحسب أن تلك الأرض بقيت رديحاً من الزمن تحت حكم المصريين وأنها كانت منذ فجر التاريخ ميدان حروب لا تحصى بين حكام مصر وغزاة سورية. وليس ثمة شك كبير في أن قبوله، أو لنقل لهفته، أو عمله أو قل ما شئت - لتلك الوحدة كان يلميه إيمان بشيئين: رسالته، ودوره كبطل العرب أو رجل القدر الذي إدخره لتحقيق الوحدة الشاملة "ذلك الدور الذي يتجول على غير هدى باحثاً عن البطل..." كما ذكر في كتابه "فلسفة الثورة".

ها قد وجد البطل دوره وأنجز الكثير من رسالته: حقق الجلاء وتخلص من النفوذ الإمبريالي وطرد شركة قناة السويس وأمم القناة. عقد صفقات سلاح مع الإتحاد السوفياتي، لأول مرة في تاريخ البلاد الناطقة بالعربية يكسر حاكم في الدول الناطقة بالعربية احتكار الغرب هذه البضاعة الكريمة، ضمن تمويل بناء السد العالي فخر مصر وأمنيتها العزيزة، حقق النصر الساحق على غزاة القناة. ماذا يريد العرب أكثر من هذا من أي بطل؟ كيف يسعه رفض رجاء الضباط السوريين القادمين من دمشق يحملون له رأس سورية في طبق؟ أليست الوحدة جزءاً من الرسالة وواجباً على البطولة؟ إن رفض الوحدة معناه رفض الرسالة، وهي الوحدة العربية الشاملة.

ورد الفعل التلقائي لا بد أن يكون تلك الوحدة كما يريدونها هو، لا كما تريدها الشعوب الناطقة بالعربية. لأن ما يريد هو بالفعل ما تريده تلك الشعوب أو تلك الأمة والدليل: إشارة منه تكفي لتلهب مشاعر الجماهير وتشيرها ضد حكامها فتنقض عليهم في حالة وقوف هؤلاء ضد مسيرته العروبية.

= في بلد يعتبر كل شخص فيه نفسه إلهاً [لم يشر الكاتب إلى مصدره هنا. إلا أنه عزا في عين الفصل قولاً آخر للقولتي نقله له السفير الأمريكي رايموند هير في سورية: "هذه الوحدة ستسبب لك صداماً شديداً".]

أريد أن ألفت نظر القاريء إلى هذه العبارة التي جاءت في بيان الوحدة المشترك:

"وبإعلاننا هذه المقررات يشعر المشاركون بفخر عظيم وفرح طاع في مد يد العون لإتخاذ مثل هذه الخطوة الإيجابية على طريق الوحدة والتضامن العربيين".

وخطب عبدالناصر من الشرفة، ومما قاله:

"في هذا اليوم لم تعد القومية العربية مسألة شعارات وهتافات، أصبحت حقيقة واقعة، في هذا اليوم الشعب العربي في سورية إتحاد مع الشعب العربي في مصر".

وأجاب القولتي رداً على هذا، وبكل حماسة يقتضيه الموقف (وكان قبل أيام معدودات يتآمر على المؤامرة، ويعمل جاهداً لإحباطها):

"هذا اليوم هو من أعظم أيام التاريخ وأجدرها بالخلود. إنه جزاء كفاحنا المجيد الماضي. إنه الأمل لمستقبل الأمة العربية... في إعلاننا إتحاد هذين البلدين العربيين العزيزين، هذين الشعبين المكافحين ذلك الكفاح الطويل الأمد من أجل الوطن الواحد... إننا لم نقم بعمل إرتجالي، بالعكس فقد أعدنا الأمور إلى وضعها الصحيح"<sup>(٣٢)</sup>.

(٣١) جرى الإستفتاء العام في يوم واحد لكلا القطرين هو ٢١ شباط ١٩٥٨.

(٣٢) ليس هذا إستباقاً للأحداث. فالمقابلة هنا تفرض نفسها فرضاً، قال عبدالناصر قبيل الانفصال رسمياً: "تعلمون إن رأيي أن الوحدة عملية شاقة، كان من رأيي أن الإستعداد لها يجب أن يكون بصورة تدريجية على مدى عدد من السنين... لكن كان عليّ الخضوع للإرادة السورية الشعبية (!) في هذه اللحظة أشعر ليس من الحتمي أن تبقى سورية جزءاً من الجمهورية العربية المتحدة لكن من الواجب أن سورية تبقى سورية.. الوحدة الوطنية السورية هي تثبيت للوحدة العربية والإستعداد الحقيقي لبلوغها. [ليلاحظ أنه قال هذا بعد فشل تأمره في لبنان والأردن والعراق بغية ضمها إلى الوحدة].

في حين قال القولتي تعقيباً على الانفصال "كنت أؤمل أن أشارك في المسؤولية في الدولة الجديدة والمساهمة في إجتذاب شعوب عربية أخرى إلى الإتحاد. إلا أنني أصبت بخيبة أمل كبيرة. النظام الناصري أنزل غالبية الشعب منزلة الخونة. يحكم بالإرهاب ويطأ على شرف المواطنين وكراماتهم... أعطى الناس جمعية وطنية عملها الوحيد هو المصادقة على القرارات الآتية من فوق... لم يفهموا قط أن ما يمكن تطبيقه في مصر لا يمكن تطبيقه في سورية.

يذكر "نتنك: المرجع السالف- الفصل ١٢" أن شكري القولتي دعا كميل شمعون علناً إلى الإنضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة، ووجه الغرابة هو تذبذب القولتي الغريب غير اللائق، فكل المصادر كادت تجمع بأنه كان ضد الوحدة وأنه أرغم عليها. ويؤكد ذلك نتنك في موضع آخر من الفصل فيعزو للقولتي قوله لعبدالناصر عند أول زيارة رسمية لسورية بعد الوحدة "إنك وضعت نفسك في ورطة بتسليمك المسؤولية =

لكنه كان على ضلال مبين في تقدير إندفاع الجماهير إليه. وكانت تقتضيه حرب مدمرة أخرى ليدرك ذلك، حرب سبقتها سلسلة من الإنخزال السياسي المريع والتآمر الدموي الفاشل، لم يتعظ البطل القومي بأي واحدة منها.

وعندما أراد تجربة حظ الوحدة في لبنان كان جهله بتركيب لبنان القومي - الديني - الاجتماعي - الثقافي - الإقتصادي يفوق جهله بالذي في سورية أضعافاً. كان يقرأ فحسب تقارير السراج المفصلة وجهاز مخابراته الخاص، ويتابع ما يكتبه الصحفيون العروبيون في لبنان وعن لبنان<sup>(٣٣)</sup>.

وفي لبنان كان الرئيس كميل شمعون ورجال الكتلة الوطنية خلفه، حريصين تمام الحرص على إستقلال بلادهم بعد طول معاناة في إنتزاعه. كما كانوا واعين تماماً بأن الغرب والأمريكان هما ضمانة هذا الإستقلال الكبرى. لذلك لم يعترض لبنان على قيام حلف بغداد قط ولم يحاول أن يثني الآخرين عنه. واستاء (شمعون) كثيراً من موقف عبدالناصر منه كما إشتد القلق به من محاولات توجيه السياسة العربية الخارجية والسيطرة على مسيرتها. ولم يخف شمعون في مذكراته قناعته التامة بأن هدف الزعيم المصري في لبنان هو القضاء على الموازنة الراجحة للمسيحيين، وهي الموازنة التي عقد كل لبناني مسيحي العزم على إبقائها بأي ثمن. وكان كميل والمسيحيون اللبنانيون قاطبة يراقبون حركة الهجرة القبطية من مصر بأسى وتخوف عظيم، ونظراً لشمعون<sup>(٣٤)</sup> بدا خطر عبدالناصر على لبنان أعظم بكثير من خطر اليسار الشيوعي وهو عنده خطر بعيد خلافاً لما إعتقده نوري السعيد، والأقرب منه خطر الدعوة الى الوحدة العربية الشاملة التي تصدر من مصنع القاهرة.

كان شمعون أكثر الحكام العرب ثقافة وإطلاعاً، يتقن الى جانب العربية السليمة ثلاث لغات أخرى عالمية، ذا ماضٍ سياسي لاتشويه شائبة لم يستطع أشد خصومه عناداً وشرّاً أن يلصق به تهمة إستغلال المركز للكسب المالي، وكان مناضلاً وطنياً عريقاً ضد الإنتداب الفرنسي مثلما كان أبوه مناضلاً عروبياً ضد العثمانيين، وهو رجل قوي الإرادة، عميق الإيمان<sup>(٣٣)</sup> يتفق خصوم عبدالناصر مع عدد من معاونيه ومقربيه على أن معلوماته كان يستمدتها من الصحف بالدرجة الأولى. وأنه كان فقير القراءة لاسيما في التاريخ العربي. واذا نبه الى أهمية كتاب أو عرّفه بتلخيصه له. وكان قد إستحدث مكتباً يقوم بتلخيص أهم ما تكتبه الصحف الأجنبية.

<sup>(٣٤)</sup> أشرت فيما سبق الى العلاقة التي نشأت بين الرئيس اللبناني وبين كاتب هذه السطور عن طريق الصديق المرحوم عبدالرحمن عذرة السفير، وقد تطورت العلاقة الى زيارات. أهداني مذكراته التي كتبها بالفرنسية وسمعت منه الكثير، وجله تفصيل أو ملء بعض فراغات من مذكراته، وبعضه أمور أوئمت عليها فلا مجال لسردها. عرفته وقد تجاوز السبعين سياسياً مجرباً، التواضع طبع فيه فلا يتعمده. ويجيد الإصغاء ويسأل أسئلة تنم عن فطنة غير عادية، ولا يخجل قط من الإعراف بجهله في هذه القضية أو تلك.

راسخه بالحريات العامة والديمقراطية، ذو شعور بمسؤولية في الدفاع عنها كجزء من سلامة أرض لبنان بوجه التوتاليتارية ومشاريع الحزب القومي السوري وهي مسؤولية صعبة الى حد ما - بسبب موقف معين يقفه بعض الزعماء المسلمين الباحثين لهم عن شعبية لدى الناخبين القوميين المعجبين بعبدالناصر ضمناً للفوز بمقعد نيابي.

وقد بات هذا خط عمل كلاسيّ لكل خصم من خصوم شمعون مهما كانت أسباب خصامه<sup>(٣٥)</sup>.

في العام ١٩٥٦ إستنجد عبدالناصر بشمعون في أزمة القنال، وأرسل إليه مبعوثه الخاص مصطفى أمين للتوسط مع الدولتين الفرنسية والبريطانية.

وفي العام ١٩٥٧ بدت محاولات الناصريين الجدد هؤلاء للإرتفاع بأنفسهم الى مرتبة قيادة لبنانية للقومية العربية، ومن تلك المحاولات قيامهم بأداء فريضة "الحج القومي" الى كعبتي القومية تلك: القاهرة ودمشق. أستقبلوا بصخب إعلامي وضجيج وبحفاوة وتكريم غير عاديين، ولتظفر تصريحاته ضد الرئيس اللبناني في صدور صحافتهما ولتقدم كل الأنباء في إذاعة "صوت العرب" مصحوبة بعناوين وتعليقات إستفزازية منفرة حول "سياسة لبنان الذيلية العميلة"، وتنقل صحف بيروت المشتراة من السفارة المصرية والسائرة في الركاب تلك

<sup>(٣٥)</sup> كان شمعون قد دعا الى إجتماع قمة للجامعة العربية في ٣٠ من تشرين الأول لبحث أزمة السويس بعد فشل وساطته التي أشرنا اليها، فإنتهز الوزيران والزعيمان السنيان صائب سلام وعبدالله اليافي مناسبة إجتماع للوزارة في ١٣ من تشرين الثاني ليقدموا إستقالتهما إحتجاجاً على رفض لبنان قطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا وبريطانيا بسبب العدوان وإجراجاً لشمعون، وتقرباً من عبدالناصر، ولنيل الشعبية. [فسر شمعون إصراره على عدم قطع العلاقات بعله إمكانه التوسط لمصلحة مصر، وقد فعل ذلك. أنظر مذكراته، المرجع السالف ص ١٢٦؛ وكذلك ليلي ميو "لبنان: بلاد غير محتمة" Liela Meo Lebanon, Improbable Nation ط إنديانا في الولايات المتحدة ١٩٦٥ الص ٩٩-١٠٠]. وبخصوص وساطة شمعون، كتب الصحافي (مصطفى أمين) في (أخبار اليوم) أنه وصل بيروت قبل صدور قرار وقف إطلاق النار بثلاثة أيام يحمل رسالة من عبدالناصر الى الرئيس اللبناني يناشده فيها القيام بمهمة الوساطة لوقف إطلاق النار. ويصف شمعون (المصدر السالف ص ٢٠٠) عروبة المستقلين بأنها وسيلة من وسائل جمع المال ومصدر من مصادر الدخل ونقطة إنطلاق رخيصة للحصول على الشعبية، بل هي تمثيلية على مسرح للأقزام والمشعوذين والدجالين. وقد نميل الى تصديق ما كتبه شمعون عن إستقالتيهما بأنهما كانتا مجرد لعبة لكسب تلك الشعبية، ففي عين يوم تقديم الإستقالة وبعد نشر نبأهما في الصحف قصدها طالدين منه أن يرفضهما. ويؤيد [سامي الصلح] في مذكراته [بيروت ١٩٦٠ ج ٣ الص ٣٧٧-٣٧٨] أنهما أرسلتا (العويني) الى الملك سعود ليتوسط عند شمعون كي لايقبل الإستقالة، كذلك توسط صائب سلام فضلاً عن الملك السعودي بإسماعيل الأزهرى رئيس حكومة السودان فأعيد الى منصبه دون (اليافي) لكنه ما لبث أن إستقال مرة أخرى بعد إجتماعه بالسفير المصري. بعدها غادرا بيروت الى القاهرة فاستقبلا إستقبال الأبطال.

التعليقات بكل الحرية التي يتيحها جو لبنان الديمقراطي<sup>(٣٦)</sup>.

على أثر إعطاء الضوء الأخضر بدأت حملة راديو القاهرة وصحافتها هجومها الكاسح، وحذت الصحافة والراديو السوريان حذوهما. وفي بيروت صارت القنابل تنفلق بالقرب من المباني العامة والدوائر الحكومية. لم يكن الملحق العسكري المصري يهتم بالالتزام جانب الحذر في إمداد مفجريها بالصواعق والديناميت في حين باتت السفارة المصرية ملتقى الصحفيين والسياسة ومشيعي الإرهاب من المعارضين، فحصل السفير المصري من الصحف الموالية على عين ما حصل نظيره في دمشق من لقب المندوب السامي في لبنان. وتسلل رجال المخابرات العسكرية لخطف وإغتيال اللاجئين السياسيين الذين إحتما بلبنان<sup>(٣٧)</sup>.

وقف رئيس الوزراء الجديد سامي الصلح الى جانب شمعون بشجاعة وبصيرة رغم كل ما وجه اليه من شتائم وتشنيع وتهديد والى جانبه شارل مالك وزير الخارجية، وهو واحد من المدافعين القليلين عن الحريات الديمقراطية وعن الحق العربي وتطلعاته وحرية. وقد وقف وهو مندوب لبنان لدى الأمم المتحدة يشجب بشدة وعنف العدوان الثلاثي ويدافع عن حق مصر في تأميم القناة - عن عقيدة وإيمان شخصيين.

كان النظام الديمقراطي اللبناني في العام ١٩٥٧ مهدداً. وقد شعر شمعون بخطورة المواجهة الدموية، وعمد بناءً على ذلك بموافقة الحكومة وأغلبية برلمانية كبيرة على القبول بمبدء آيزنهاور في ١٦ من آذار ١٩٥٧ بدافع حماية إستقلال البلاد من عدوان خارجي<sup>(٣٨)</sup>.

(٣٦) نقلت الصحف البيروتية عن عبدالناصر قوله في شباط ١٩٥٨: "أن اللبنانيين بوسعهم صيانة إستقلالهم بأفضل صورة لو إرتبطوا بالوحدة الجديدة". إلا أن شمعون لم يكن يابته بمثل هذه الإقتراحات، فلايرد عليها إطمئناناً الى قاعدته الشعبية. [نتنك: المرجع السالف، الفصل ١٢]

(٣٧) في أثناء إقامتي في بيروت نشأت علاقة بيني وبين هذا المثقف الكبير، زاد في قوتها إكتشافه أن واحداً من أقربائي كان زميلاً له وصديقاً حميماً أثناء دراستهما معاً في جامعة هارفرد، وأنهما نادراً ما إفترقا، وقد أيد لي ذلك المأسوف عليه قريبي جميل توما. وجدت الدكتور مالك في العام ١٩٧٠ يعيش ببساطة زاهداً بكل ما يسبغه عليه ماضيه السياسي ويذكر أنه كان رئيساً لدورة من دورات هيئة الأمم المتحدة في الستينات.

(٣٨) كان ذلك قبل نهاية فترة رئاسة (شمعون) بشهرين. ويعرف هذا المبدأ رسمياً بهذا العنوان: The Congressional Joint Resolution to Promote Peace and Stability in The Middle East

ويترجم تقريباً الى: "قرار الكونغرس المشترك في السعي لإحلال السلام والإستقرار في الشرق الأوسط". ومن مقتضى هذا المبدأ الذي أطلق عليه عموماً إسم مقترحه، أي الرئيس الأمريكي، إبقاء الشرق الأوسط مفتوحاً للغرب عن طريق تقديم المساعدات لشعوبها الحرة سعياً وراء البقاء والصمود في وجه المؤامرات الشيوعية ودرء الخطر الشيوعي. والإتفاق الذي أبرم مع لبنان بموجبه تضمن التعهد الأمريكي بمساعدات إقتصادية وعسكرية والوقوف بجانبه ضد أي تدخل أو خطر تدخل أو تهديد بالتدخل ولايفرض إلزاماً ما على لبنان.

وبدا الإتفاق بيد الناصريين والقوميين والبعثيين والشيوعيين أداة ثمينة للغمز في قناة الرئيس اللبناني ومادة للهجوم الإعلامي السوري- المصري على شخصه بإتهامه بالعمالة للأجنبي والسير في ركاب الإمبريالية.

بمعنى آخر أن لقومية عبدالناصر العربية وحدها الحق في توثيق علاقاتها بأمریکا، وقبول منحها المالية والغذائية وعقد صداقات وتعاون أمني مع دائرة المخابرات الأمريكية CIA<sup>(٣٩)</sup> وأنه ليس عيباً ولا هي عمالة ولا سيراً في ركاب الإمبريالية عندما يستنجد زعيم القومية هذا بالبيت الأبيض لينقذ شرفه وشرف مصر من عار الهزيمة في السويس.

كذا كان شأن هذا الرجل، يأبى على غيره من زعماء العرب ما يرضاه هو لنفسه بإعتباره البطل القومي وليس لغيره هذا الإمتياز وهو يحتكره كقومي مخلص وهم عندما ينازعونه فيه خونة للقومية العربية وخونة لبلادهم.

روى لي الدكتور عبدالله الدمولوجي<sup>(٤٠)</sup> في حينه أن نوري السعيد كان يمازح كميل شمعون وقتذاك حين يلتقيان، بقوله: "الحمد لله صار لي صاحب ولم أبق وحدي".

لم يكن من العسير على الرئيس اللبناني اعتبار إستمراره في تولي منصب رئاسة الجمهورية خلال هذه الفترة أمراً جوهرياً إلا أن الدستور اللبناني لايسمح بتجديد الرئاسة. فإلى جانب تكتل العناصر التي ذكرناها في جبهة واحدة موالية لعبدالناصر، كان يخشى أن يفضي مثل هذا التآمر المكشوف الى إنقسام المسيحيين أنفسهم وتردد شمعون كثيراً- وهو المعروف بإحترامه للدستور في إتخاذ هذه الخطوة<sup>(٤١)</sup> وراجت الشائعات حول نيته في تعديل الدستور

(٣٩) في "سنوات الغليان ص ٢٢٨" ذكر هيك ما نصه "كلف عبدالناصر علي صبري مدير مكتبه بإجراء إتصالات مع الولايات المتحدة عن طريق "كرميت روزفلت" وكان تصوره أنه من خلال (كرميت) يتعامل مع البيت الأبيض مباشرة... ووافق عبدالناصر على إيفاد عدد ممن يثق بهم هو الى الولايات المتحدة لكي يحصلوا على تدريب مخابرات خاص بحيث يسهل عليهم التعامل مع أساليب الإتصال الجديدة (التجسس والتآمر) وكان أن رشع عبدالناصر لهذه المهمة أربعة من الضباط الشبان هم "كمال رفعت" و"لطفى واكد" و"حسن التهامي" و"صلاح دسوقي" ومن الغريب أن معظم هؤلاء بعد تجربتهم المباشرة مع النشاط الأمريكي في مصر تحولوا الى أقصى اليسار، بل أصبح من بينهم أبرز أقطاب اليسار في مرحلة لاحقة.. أراح جمال نفسه في النهاية بأنه اذا كانت هذه هي الطريقة الأمريكية في السياسة فلا بأس من تجربتها".

(٤٠) واحد من الضباط (الأطباء) العثمانيين. شارك في الجمعيات السرية. وأصبح مستشاراً خاصاً للملك عبدالعزيز آل سعود. عاد الى العراق في الثلاثينات وتولى عدة وزارات في حكومات مختلفة. كان واحداً من أصدقاء نوري السعيد المعتمدين.

(٤١) كان إقتراح الدكتور شارل مالك تعديل الدستور بمد فترة الرئاسة عامين فقط بموافقة البرلمان، فراح زعماء المعارضة يضربون على النغمة الوطنية قائلين أن الرئيس خرق ميثاق ١٩٤٣ الوطني بإتفاقه مع =



توصلاً إلى إعادة إنتخابه ثانية.

في الواقع لم تكن المعارضة متجانسة موحدة الهدف. إلا أن الطابع الإسلامي كان غالباً عليها، فهناك فريق من أهل السنة والشيعة إنضوى تحت قيادة (صائب سلام) و(رشيد كرامي) وثمة مجموعة درزية يتزعمها (كمال جنبلاط). وهناك قيادة القطر اللبناني البعثية تتلقى أوامرها من قيادة دمشق "القومية" ومن السراج. والقوميون الناصريون والفلسطينيون (الحركة القومية في الجامعة الأمريكية) يخضعون لتعليمات القاهرة عبر سفارة مصر في بيروت. والشيوغيون الذين يتحركون في إطار الحرب الباردة وسياسة موسكو، وجدوا في الإتفاق الأمريكي اللبناني نصراً حققه حلف بغداد. أخيراً هناك مجموعة من المسيحيين يقودها البطريرك الماروني المعوشي. وآل فرنجية (حميد وشقيقه سليمان) وهم مجرد خصوم شخصيين لشمعون.

ولم يتردد صائب في قبول إقتراح السراج بالتهئية لإنتفاضة مسلحة ضد ما سماه "بالتدخل الأمريكي" فبدأت الأسلحة تتدفق الى لبنان عبر الحدود السورية.

وبمناسبة الشروع في الإنتخابات البرلمانية العامة إنتظمت أجنحة المعارضة في نيسان ١٩٥٧ بما أسمته "الجبهة الوطنية المتحدة". وعلى ضوء قانون الإنتخابات الجديد وبمحاولة الفوز بأغلبية المقاعد راحت الجبهة تعقد إجتماعات عامة وتدفع بالمظاهرات والمسيرات الى الشارع. وإنطلقت إذاعتها القاهرة ودمشق تحرض الطوائف الإسلامية على الثورة جهاراً. وتعاقب الخطباء في المساجد على المنابر يهتفون لأول مرة بحياة العروبة والوحدة العربية الشاملة من المحيط الى الخليج. وعلى إثر ذلك رفع شارل مالك شكوى لبنان الى مجلس الأمن متهماً عبدالناصر والسراج صراحة بالتحريض على العصيان والثورة ضد النظام القائم عن طريق تزويد المعارضة وتزويد الإرهابيين<sup>(٤٢)</sup> بالسلاح.

= دولة أجنبية وتشجيعها.

(٤٢) بنتيجة الشكوى أرسلت الأمم المتحدة مراقبين على الحدود. إلا أنهم لم يفلحوا في إكتشاف عملية واحدة من عمليات نقل السلاح (طبعاً) لأنها كانت تجري ليلاً وعلى طول حدود معظمها موهوم يزيد طولها على مائتي كيلومتر. وعندها أعلن شمعون أنه حر في طلب العون من أية دولة إذا إمتنعت الأمم المتحدة عن تقديمه بموجب المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة، وهذا منطوقها: "ليس في الميثاق ما يعارض أو ينتقض الحق الطبيعي للدول فرادى أو جماعات في الدفاع عن أنفسها إذا إعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء هذه الهيئة، الى أن يتخذ مجلس الأمن الدولي الإجراءات الكفيلة بحفظ الأمن والسلم الدوليين. ويبلغ المجلس فوراً بالتدابير التي إتخذها الأعضاء لمباشرة حق الدفاع عن النفس. ولا تؤثر تلك الإجراءات بأي حال على سلطة المجلس ومسؤولياته.

وإنقلبت الحرب الكلامية الى مناوشات مسلحة بين أنصار الحكومة ووراءها غالبية ساحقة مسيحية تساندها فصائل إسلامية شيعية وسنية، وبين مجموعات المسلمين والدروز بمؤازرة أقلية مسيحية رفعت شعار الوحدة العربية الشاملة.

كانت نموذجاً لحرب أهلية صغيرة، فيه من الغرابة ما فيه وأظهر وجه لغرابته بقاء الجيش بعيداً عن الخصومة إذ لم يشأ شمعون إستخدام سلطته بوصفه القائد الأعلى، متحدياً موقف القيادة، ربما لأن الإشتباكات كانت موضعية ذات حجم صغير في بادئ الأمر ولم تكن تتصف بالتواصل والإستمرارية<sup>(٤٣)</sup>.

وزادت إذاعتا دمشق والقاهرة في حملة التآليب والتشهير والتحريض بأسلوب يعافه الذوق

(٤٣) تألف قوام الجيش اللبناني من ٤٠٪ من المسيحيين ومثله من المسلمين و٢٠٪ من الدروز بأغلبية ضباط مسيحيين، وقائده وهو العماد فؤاد شهاب الذي تقلد منصبه في كانون الأول ١٩٤٥ ينتمي الى الأسرة الشهابية المشهورة، وهو ماروني. كان في الوقت نفسه قائداً لقوات الأمن الداخلي (الدرك). إعتذر فيما بعد لموقفه بقوله أنه كان يخشى على وحدة الجيش بإقحامه لثلاث تمرقه الخلافات الطائفية. وكثرت الأقاويل حول موقفه هذا. كان شمعون قد وضع الجيش في حالة إستنفار منذ اليوم التالي لإنتفاضة العنف في ٩ أيار. وقد إعتقدت جهات عديدة أنه لو تحرك الجيش في ذلك اليوم واليوم الذي تلاه لإنتهى كل شيء. كان يعتبر جيشاً حسن الإنضباط والتدريب ولديه من المعدات ما يكفي للقضاء على الفوضى. لكن (شهاب) رفض إتخاذ موقف حاسم وترك الموقف يتدهور بسرعة. ولشمعون في مذكراته تفسير لرفضه سجله من دون أن يداخله شك في كفايته كعسكري، قال "كان مبتلياً بالتردد وموصوفاً بالكسل العقلي وهاتان الخصلتان جعلتا عاجزاً عن بذل مجهود أو تحمل عواقب أمر قد يقتضي منه جهداً" المذكرات ص ٤٠٩. من التفسيرات الأخرى التي قدمت في هذا الباب ما جاء في كتاب ج. كيرك: مختصر تاريخ الشرق الأوسط ط نيويورك ١٩٦٢ ص ٢٢٤ G. Kirk: Short History of The Middle East وكذلك (قبعين) المرجع السالف ص ٨١- طبعة خامسة. قال: "كان شهاب يريد المحافظة على بكارته كمرشح محاييد لرئاسة الجمهورية". وفسر آخرون موقفه على ضوء نظريته بأن النزاع ما هو إلا مجرد خلاف بين الساسة سببته شائعة نية الحكومة في تعديل الدستور. وإعتقاده بأن الخلاف يجب أن يسوى من غير زج الجيش فيه. ولعله كان قد وقع منذ بدء الإضطراب تحت تأثير الانطباع بأن شمعون كان سيبادر الى تقديم إستقالته مثلما فعل بشارة الخوري مثله في ١٩٥٢، ومن دون أن يدرى الفرق العظيم بين الرجلين وبين الموقفين. إن توقعاته هذه أدت به الى إعتبار كل عمل حاسم من قبل الجيش أمراً ثانوياً يؤدي فحسب الى عزله عن المعارضة التي كانت تستعديه على شمعون وتناشده علناً- صدقاً أو كذباً- بالإستيلاء على السلطة. يذكر سامي الصلح رئيس الوزراء (المرجع السالف ص ٧٤٢) أنه ذهب بنفسه في أول الإضراب الى وزارة الدفاع، وبحضور كل من رئيس الأركان توفيق سالم ونائب القائد العام عبدالقادر شهاب، ليلطلب ٢٥ عسكرياً ودبابتين فقط لكسر الإضراب فكان جواب الثلاثة أن تسوية وشيكة ستتم. مشيرين بأن الرئيس سيسنتقل. ويعتبر (الصلح) فؤاد شهاب مسؤولاً عن خطئه في تقدير الموقف والقوى التي تدفع الثورة، وهو كذلك "مسؤول بصورة خاصة عن وضعه نفسه والجيش فوق الحكومة". وهذا الذي أرغم شمعون على طلب المعونة العسكرية من الولايات المتحدة بعد إقتراب ١٤ تموز في العراق ذلك الذي قوى في معنويات المعارضة في لبنان وأذنت بوقوع المذبحة.

وسارت صحافتها في ركابها وأرتكبت جرائم وحشية وسفكت دماء<sup>(٤٤)</sup> غزيرة.

مع هذا كله ضمنت الأغلبية لمناصري شمعون في الإنتخابات رغم التدخل السوري - المصري السافر وشراء الأصوات بالثمن الباهظ<sup>(٤٥)</sup>. وهزمت كتلة صائب سلام وعبدالله اليافي في بيروت، وكتلة كمال جنبلاط وأحمد الأسعد في جنوب لبنان. فشلوا في الفوز بمقاعد فبادروا الى إتهام الحكومة بالتلاعب، إذ لم يكن يتصور فشلهم في الأحوال الإعتيادية والحق يقال. إلا أن زعماء آخرين كرشيد كرامي وصبري حمادة وحميد فرنجية نجحوا. وعلى أية حال كانت الجهات المتنافسة تتبع الأسلوب المألوف بشراء الأصوات. لكن لم يتم هناك أي شك في أن نجاح مؤيدي الحكومة يعود سببه أساساً الى إدراك الناخبين بأن المعركة التي يخوضونها هي معركة إستقلال لبنان، وأن التصويت الى جانب المعارضة معناه الإستسلام لمصر، ولم تغلق مجهودات السفارة المصرية ولا المخابرات السورية في إقناع رجل الشارع. وكانت حصيلة تلك المعركة الديمقراطية موضع خيبة عظيمة للمعارضة جرحت كبريائها في موضع حساس وقضت على طموح زعمائها.

وفشلت الزعامة المصرية والسورية في محاولة إنجاح ثورة "إسلامية - عربية" سيما بعد أن

(٤٤) في أثناء الإنتخابات العامة، عمدت القاهرة الى حيلة رخيصة لتشويه سمعة (الدكتور شارل مالك) وزير الخارجية ووصمه بالخيانة. فقد نشرت صحف دمشق والقاهرة في وقت واحد صوراً بالفوتوستات لوثائق مزورة زعمت أنها رسائل متبادلة بين الوزير اللبناني ونظيره الإسرائيلي (ابا اييان). أسرعت الحكومة بتكذيب وإحتجاج شديد مظهرة بالدليل التزوير.

ومما وقع من مأس، المذبحة الفظيعة في كنيسة قرية (مزيارة) حين إقتحمها على المصلين في ١٦ من حزيران جماعة من آل فرنجية بقيادة سليمان فرنجية (أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية) وفتحوا نار رشاشاتهم على آل الدويهي أنصار شمعون، فقتلوا ٢٣ وجرحوا أضعافهم. وفي ٣٠ أيار أخرج المعارضون في بيروت مظاهرة مسلحة عنيفة إشتبكت مع الشمعونيين فأدت الى مقتل ٧ أشخاص وإصابة ٦٠. وأصيب صائب سلام الذي كان على رأس المظاهرة برأسه نتيجة ضربة بأخضص بندقية بعد أن سدّد لكمة لقائد البوليس فأوقف ساعات ثم أطلق سراحه. وهوجم مخفر حدود (شتورة) وقتل جميع أفراد الشرطة فيه. هذا بعض ما جرى قبل نشوب الحرب الأهلية.

(٤٥) تحدثت الصحف في حينه عن ٦٥ مليون ليرة سورية، أنفقها السراج على شراء أصوات الناخبين. وذكر أنطوني نتنك (المرجع السالف، الفصل ١٢) أن حرباً تلفونية قامت بين صائب سلام وشمعون، وأن أولهما كان يستخدم ألفاظاً زقاقية نابية في مكالماته، كما كان يمضي الساعات الطوال في التحدث الى عبدالحميد السراج مطالباً بالمزيد من الأسلحة رغم علمه بأن السلطة كانت تستمع الى الأحاديث، لكنها لاتجرأ على قطع أسلاك التلفون لئلا يرد المعارضون - كما أخبرني صائب سلام نفسه حينذاك - بتدمير مجاري مياه القصر الجمهوري التي تمتد أسفل معقله في حي (البسطة). ولكي تكتمل الصورة المضحكة للمأساة، وبوجود حظر التجول ليلاً - شاعت الفكاهة بأن عدد من يقتل جراء الإشتباكات يقل كثيراً عن عدد الذين يدعسهم سائقو التاكسي البيروتيون الذين اشتهروا بالرعونة".

أعلن شمعون عدوله عن فكرة تعديل للدستور يسمح له بتمديد فترة رئاسته. وبدا عبدالناصر للدوائر السياسية الغربية والإعلام الغربي متورطاً في عمل لا يلبق بزعميم إتحاد عربي<sup>(٤٦)</sup>.

بين نهاية الإنتخابات. وبداية الثورة في أيار ١٩٥٨، بدأت في بيروت أعمال التخريب، وفي سائر لبنان انتشرت الإشتباكات المسلحة. كانت (المختارة) قلعة كمال جنبلاط، و(دير العشائر) على الحدود السورية و(الحرمل) في البقاع مراكز تدريب المطوعين. وقوى مراكز المعارضة إعلان الوحدة. فقد ألهمت نار الحماسة في غالبية المسلمين اللبنانيين من أجل العمل للوحدة. وعندما بدأت الإحتفالات في سورية ومصر بالمناسبة - عطلت الدراسة في المدارس الإسلامية وشاركت بإحتفالات خاصة. وسافرت وفود من المعارضة الى دمشق للقاء عبدالناصر عند زيارته. وفي ٢٥ من شباط كان ثم لقاء بينه وبين صائب سلام الذي خاطبه بوصفه الناطق الرسمي بلسان الجبهة الوطنية المتحدة بقوله:

"أنت لست مسؤولاً فحسب عن هذه الجمهورية (العربية المتحدة) وحدها لكنك مسؤول عن كل الأمة العربية أينما وجدت لاسيما عن لبنان، وإن الشعب اللبناني يشعر بالإطمئنان من هذه المسؤولية<sup>(٤٧)</sup>."

وفي أوائل أيار شخص زعماء المعارضة الى دمشق وإتفقوا مع السراج الذي أسند اليه منصب وزير الداخلية في القطر السوري - على خطة عمل ضد الحكومة اللبنانية. كانت الخطة أن يعلن إضراب عام تعقبه أعمال شغب وتخريب ترغم الرئيس اللبناني على الإستقالة خلال أسبوع لا أكثر<sup>(٤٨)</sup>، وشدد على أن يكون الإضراب ذا طابع دموي وعنّف بالغ، لأنه لن يتصف بالعمومية كما كان الأمر في ١٩٥٢ فأدى الى سقوط بشارة الخوري.

(٤٦) تتابعت تقارير مراسلي الصحف الأجنبية وتواترت تقارير السفارات الأوروبية لنفي كل شك حول وصول الشاحنات السورية المتواصل وهي محملة بالأسلحة والعتاد. ووقفها جهازاً أمام مبنى السفارة المصرية حيث كان ينتظرها مجموعات من مقاتلي المعارضة التابعين لصائب سلام ورشيد كرامي محتشدة أمام باب السفارة لتسلم السلاح بإشراف من السفير المصري عبدالحميد غالب ومعاونيه.

(٤٧) فهيم قبعين: أزمة في لبنان. ط واشنطن ١٩٦١ ص ٦٢ Fahim Quboin: Crisis in Lebanon وكذلك ليلى ميو وفرانسوا نور. المرجع السالف ص ١٥٩. الإقليمية اللبنانية وعرب لبنان, Laila Meo Francois Nur: Particularism Lebanonism et Lebanais Arab لوريان عدد ٧ (١٩٥٨) "في جو الإحتفالات الساخن قام بعض الشبان في بيروت بتمزيق العلم اللبناني ووطئه ومسح أحييتهم به، وعندما حكم على ثلاثة منهم بالحبس قامت مظاهرات عنيفة، وبلغ الخوف بالمسيحيين اللبنانيين حداً دعا (نسيب المتني) وهو صحافي شيوعي الى ضرورة جلب إنتباه أولئك الذين يذهبون الى دمشق الى واجبه نحو لبنان، وأن المسيحيين قلقون جداً ويجب أن يعطوا ضمانات"<sup>(٤٨)</sup> شمعون: المرجع السالف ص ٤٩٩.

وجرى ذلك فعلاً لكنه فشل في إسقاط شمعون وإتقلبت الى ثورة واسعة النطاق<sup>(٤٩)</sup> طوال خمسة أشهر، وإتخذ الإضراب طابع العنف كما قرر له وقذفت الدكاكين التي أبى أصحابها إغلاقها - بالقنابر اليدوية ووقعت إشتباكات دموية في طرابلس بين الموالين والمعارضين، ونصبت الموانع والمتاريس في القطاع المسلم من بيروت. وبدأ العصيان المسلح، وقد شابته من المبدء غرابة ملفتة للنظر. بدا نزاعاً طائفياً بين أنصار شمعون المدافعين عن إستقلال لبنان بغالبية مسيحية، وبين مساندي حلف المعارضة مع الناصرية بغالبية مسلمة ويسبب من أحقاد وعداوات شخصية مع شمعون كان أصحابها قادة لتلك المعارضة وللثائرين كل في منطقته الخاصة<sup>(٥٠)</sup> ووقفت بين هذين قوة ثالثة من زعماء المسيحيين تزعمها ريمون أده<sup>(٥١)</sup> وهنري

(٤٩) ووقت ساعة الصفر لبدء الإضراب والثورة بإغتيال الصحافي الوارد ذكره نسيب المتني صاحب جريدة "التلغراف". أسرع المعارضون يتهمون الحكومة بإغتياله وأمروا بإغلاق الدكاكين وأعلنوا إضراباً عاماً متواصلاً حتى يتنحى شمعون. وبطبيعة الحال لم يعثر على الجناة. لكن بعض الجهات تعتقد أن المسؤول عن قتله هو جهاز مخابرات العربية المتحدة في سورية بإشراف السراج المشهور بتعقيبه الشيوعيين وقتله (فرج الله الحلو) زعيم الحزب الشيوعي اللبناني، فقد أراد ذلك كشائه ضرب عصفورين بحجر واحد. وظهر عبدالناصر في ١٦ آيار بعد عودته من موسكو ليخطب مؤبناً الفقيه الصحفي متهماً الحكومة اللبنانية بقتله وقال مما قال: "إن ضمير الشعب اللبناني صدم بهذا العمل الإجرامي لأنه يعرف القتلة المجرمين (الخطبة منشورة في الأهرام عدد ١٧ آيار)"، كذلك أنظر كتاب "السراج ومؤامرات الناصرية" لكاتب مجهول (مطلع) الطبعة الثانية ص ٦٣-٦٤، فهو يذكر أن (أبو حكيم) وهو من رجال المخابرات العسكرية السورية مع كومانداو سوريين إجتمعا بالجناة اللبنانيين في منزل (خيري الكاكي) صاحب جريدة (المشرق) من المعارضة ثم إنطلقوا للفتك بالمتني، وأن (أبو حكيم) هذا عاد الى دمشق فور ذلك لينبئ السراج بإتمام المهمة وبحضور مدير الأمن العام عبدالمجيد جمال الدين. أنظر كذلك: نهاد القادري: الكتاب الأسود، ط دمشق (بلا تاريخ) ص١٢٨.

(٥٠) بدت خارطة العصيان بالشكل التالي: كان رشيد كرامي السني يتزعم طرابلس وضواحيها. وصائب سلام وأعوانه السنوني على رأس مسلمي بيروت. والزعيمان الشيعيان صبري حماده وحميه أحمد الأسعد يقودان بعلبك وجنوب لبنان على التوالي. وكمال جنبلاط يتزعم جزءاً كبيراً من جبل لبنان يعاونه الدرزي الآخر شبلي العريان في منطقة راشيا وكان هذا يسيطر على مساحة واسعة حدودية مع سورية حتى مشارف بيروت. وبين كل هؤلاء كانت هناك عشيرة فرنجية في زغرنا شمال لبنان التي إنحازت الى الثوار وزعيمها حميد فرنجية أحد منافسي شمعون على رئاسة الجمهورية. وإنجاز البطيريك الماروني المعوشي اليه بسبب عداة شخصي لشمعون. كان موقف هذا الحبر موضع إستنكار مسيحيي لبنان والخارج وشناه وندد به كل المطارنة والأكليروس الذين ساندوا شمعون وقد أشيع في حينه أنه كان ينفذ تعليمات الفاتيكان التي أوصته بالحياد وإجتناوب حرب طائفية قد تؤدي الى إلحاق ضرر كبير بالمعاهد والمؤسسات الكاثوليكية في الشرق الأوسط.

ليس من أوجه الغرابة أن يقف الحزب الشيوعي اللبناني وحزب البعث وحزب الهنشاق اليساري الأرمني في صف الثورة. في حين وقفت الأحزاب السياسية وزعمائها الى جانب الحكومة وتلقّت من الحزب القومي السوري الإجتماعي دعماً مؤثراً وفعالاً. وهو موقف منطقي لأنه كان يدعو الى الوحدة السورية وليس من أهدافه في شيء وقوعه في إطار وحدة عربية مع مصر، وكذلك كان موقف حزب الفلاح =

الفرعون وجورج نقاش وشارل حلو، حاولوا عبثاً إيجاد حل يتم به تفادي سفك الدماء. وسعى أولهما مع سامي الصلح - فنشرت الحكومة بياناً تنفي فيه نية شمعون في تعديل الدستور لتمديد فترة رئاسته، لم يفلح ذلك في وقف أعمال العنف ولا خفف من حدة الصراع. فقد كانت التعليمات من القاهرة واضحة: الإستمرار بشدة وعنف. وإرسال مئات من المطوعين المسلحين فضلاً عن المهيمات العسكرية<sup>(٥٢)</sup>.

وزود العراق أنصار الحكومة بالسلاح، ودعم موقف لبنان في المحافل الدولية، يعد أن إتخذ طابعاً دولياً بسبب تدخل العربية المتحدة المباشر والشكاوى المرفوعة الى مجلس الأمن. ووضوح البيد الناصرية فيها.

ويعزو بعض المؤرخين موقف مجلس الأمن والأمم المتحدة المائع الى علاقة ود بين عبدالناصر وداگ همرشولد الأمين العام لها. وقد ظهر ذلك جلياً من إنتداب عدد ضئيل جداً من المراقبين على طول الحدود لتعقيب عمليات تهريب السلاح لايتناسب مع المهمة وطول الحدود، ونفي همرشولد رسمياً على الأقل ضلوع الجمهورية العربية المتحدة (ج.ع.م) في الحرب الأهلية

= بزعامة الشيخ الجميل وموقف حزب الطاشناق الأرمني وفريق هام من الطائفة الدرزية بزعامة الأمير مجيد أرسلان وإثنين من زعماء جبل لبنان، كما وقف الى جانبه من المسلمين أنصار آل الصلح وغيرهم من الوزراء المسلمين، ومن الشيعة وقف الفريق البيروتية المناويء لشيوعية الجنوب يشد أزرق شمعون، وبقي سامي الصلح رئيس الوزراء صامداً بشجاعة حتى نهاية فترة رئاسة شمعون رغم الضغوط الشديدة عليه. (٥١) ذكر لنا [ريمون أده] أنه مدين بحياته في تلك الأيام لضابط في الدرك (الشرطة) كردي من آل الملي يدعى بهزاد، فقد سحبه الى الخلف ومنع مهاجميه عنه مهدداً بفتح النار عليهم. وكان ذلك في العام ١٩٧٠ وقد مضى على الحرب الأهلية اثنا عشر عاماً، وأبدى دهشته لأن منقذه لم يحاول طوال المدة لقاءه أو الإتصال به. وسألني عما اذا كنت قادراً على التحقيق عنه، وكنت أعرف الحادثة وقد رواها لي صاحبها، أحضرته له في زيارة ثانية، فوسع له وإحتفى به وأشاد بعمله أمام الحاضرين في مجلسه وسأله عن أي حاجة يقضيها له بنفوذه الكبير، فشكره الضابط وأجاب بالنفي. (كان قد تأخر ترفيع ذلك الضابط وكان بمقدور (أده) أن يزيل الغبن عنه بكل سهولة).

(٥٢) سامي الصلح: المرجع السالف ص ٥٥٤؛ يذكر هذا الحادث الغربي: "في ١١ آذار أوقف (مسيو دي سان) القنصل البلجيكي العام في دمشق على الحدود وفتشت سيارته لأول مرة، فعثر في صندوقها على مجموعة كبيرة من الأسلحة للتوار في بيروت وضبطت رسالة من السوريين حملها (لجهة معينة) توصي بالإستمرار في أعمال الإرهاب، وفيها تعليمات بوجوب إطلاق النار طوال النهار ونسف (سوق الطويلة) بالديناميت وبأعمال نفس أخرى في شارعي (الحمرا) و(السادات) والقصر الجمهوري، وتفجير القنابر اليدوية، ويقتل كل من (حسني البرازي) و(بدوي الجبل) الشاعر وكلاهما من المعارضين السوريين. وعلى سبيل الإنتقام من شرطة الحدود الذين كشفوا السلاح والرسالة، قام المغاوير السوريون التابعون للجيش (قدر عددهم بمائتين) بإقتحام المركز في الليلة التالية وقبضوا على ستة من ضباط حدود نقطة (المصنع) وقتلوا وشوهوا أجساد المسيحيين الخمسة منهم وأطلقوا سراح سادسهم وكان مسلماً على ما قيل.

لبنان، إلا أنه نبيه عبدالناصر سراً بأنه تجاوز الحد وأن عليه التوقف عن التدخل العسكري والإثارة في الراديو والإعلام. لكن نصحه هذا لم يفد وتواصل دعم (ج.ع.م) للحرب الأهلية وضبطت الحدود جماعات أطلقت على نفسها اسم (المجاهدين) ونزعتها بالقوة من يد شرطة الحدود اللبنانية، ورؤي زعماء المعارضة في دمشق وحمص ويزاولون عملهم في وضع النهار في تجنيد المطوعين، وخصص في المدينة الأخيرة جناح في مستشفى شهلاً لإستقبال الجرحى الذين كان ينقلهم صبري حمادة<sup>(٥٣)</sup>، ورفعت أعلام (ج.ع.م) خفاقة مكان العلم اللبناني في أحياء من بيروت يسيطر عليها الثوار وفي مدينة طرابلس.

كانت دمشق تشرف على العمليات العسكرية بمقتضى تعليمات تصدر من القاهرة ومن مكتب عبدالناصر بالذات<sup>(٥٤)</sup>، ووصفت إذاعة القاهرة ما يجري بقولها: "تتخذ المعركة في لبنان الآن شكلاً واضحاً. إنها معركة بين الحاكم وبين الشعب الذي يعلن الثورة على الطغيان، إنها تشير الى بداية الحرية في لبنان".

وفي الوقت الذي راحت أموال (ج.ع.م) تنصب على الزعماء العروبيين الجدد فتزيد في غنى صائب سلام وعدنان حكيم<sup>(٥٥)</sup> المفاجيء. كان بوسع السلطة الشرعية منذ أيام الحرب الأولى

(٥٣) من مقال لجريدة الثغر السورية مؤرخ في ١٤ أيلول ١٩٦٢.

(٥٤) ذكرت الصحف السورية واللبنانية بعد الانفصال أن الأوامر العسكرية كانت تصدر من المشرفين في القاهرة برسائل ومن إذاعة صوت العرب متخذة تكتيكاً فريداً في بابه على بساطته، كأن تعلن الإذاعة عن وقوع هجوم مسلح على هدف معين في وقت معين فيكون ذلك أمراً بالهجوم عليه خلال الساعات الأربع والعشرين التالية. وفي طرابلس كان الحلف البعثي-الشيوعي بإمرة ضباط سوريين يستقل في نشاطه الحربي عن ميليشيا (كرامي) وقد زودهم الجيش الأول السوري بأسلحة متقدمة كالبازوكا ومدافع الهاون وقنابر ضد الدروع، في حين كان قائد الحركات في صيدا (معروف سعد) يتزود بالأسلحة والعتاد بحراً من الحامية المصرية في غزة.

(٥٥) للكاتب المجهول (مطلع) المرجع السالف ص ٥٥. كذلك القادري المرجع السالف الص ٦٠-٦١، هذان وغيرهما يذكران أن كمال جنبلاط وعبد الحميد السراج رفع كل من جانبه تقريراً لعبدالناصر عن إختلاسات قام بها هذان [وتعرض هذه المصادر، فضلاً عن هذا، أرقاماً بالمبالغ التي أنفقتها الجمهورية العربية المتحدة، ومن ضمنها الرواتب الشهرية التي كانت تدفع لأصحاب الجرائد وقدرت بمائتي مليون ليرة سورية (٦٥ مليون دولار بسعر الصرف وقتذاك) وتساوي بالنظر الى قوتها الشرائية في مصر ٤٠٠ مليون دولار تقريباً كانت البلاد بحاجة إليها في بناء السد العالي]. كما قدرت المصادر التي ذكرناها عدد المقاتلين الذين جندتهم المعارضة بعشرة آلاف منهم ثلاثة آلاف سوري، وقدر عدد الضحايا من الجانبين بـ ٣٠٠٠ قتيل ثلثهم من السوريين وهو مبالغه [كان بوسع السلطات اللبنانية تحديد هويات القتلى والأسرى].

لايفوتنا أن نذكر هنا الرد الذي جاء في جريدة (النصر) السورية بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٦٢، أي بعد الانفصال - على الوصف الذي كتبه محمد حسنين هيكل في جريدة الأهرام للجرائد اللبنانية- وفي أثناء

تزويد الأمم المتحدة بأسماء السوريين المدنيين والعسكريين القتلى والأسرى. ورفعت مذكرة إحتجاج لسفارة (ج.ع.م) في بيروت حول تلك المساعدات المالية وحول المشاركة مع قواتهم، وحول الموقف الإعلامي السوقي في عاصمة القطرين. لكن ناصر نفى بكل بساطة أية مسؤولية لإتحاده العربي الجديد في عمليات سفك الدماء حين وقف خطيباً في دمشق يوم ١٦ آيار ليقول:

"أيها الأخوة، أنتم وأنا لانرضى ولن نرضى بأي وجه من الوجوه إراقة الدماء في لبنان. لأن دماء الشعب اللبناني هي دماء عربية، دماء عربية غالية عزيزة"<sup>(٥٦)</sup>.

وكذلك أنكرت (ج.ع.م) أي تدخل لها في أحداث لبنان عند إجتماع عقده الجامعة العربية في بنغازي بليبيا يوم ٢٨ آيار، وكالعادة أصدرت بياناً توفيقياً إستراتيجياً غامض العبارة تؤكد فيه مبدء عدم التدخل في شؤون الدول الأعضاء دون توجيه لوم الى (ج.ع.م) بل حتى دون تنويه بإسمها في أي مجال.

التدخل الأمريكي لم يقع إلا بعد شهرين ونيف من بدء الحرب الاهلية. وعلى اثر قيام ثورة ١٤ تموز في العراق. وافتقاد النصير الوحيد المعول عليه للسلطة الشرعية بين سائر الدول الناطقة بالعربية.

في مبدء الأمر اشترط ايزنهاور مساندة الدول العربية طلب لبنان المعونة الأمريكية. وقال الرئيس الأمريكي ان قواته لن ترسل لغرض ضمان تمديد فترة رئاسة شمعون<sup>(٥٦)</sup> وواجه (دللس) وزير خارجيته موقفاً عسيراً. فمن جهة كان من الخطورة بمكان أن يترك نظام لمصيره الغامض بمواجهة عدوان خارجي سافر. ومن جهة كان من سياسة أمريكا اجتناب الاصطدام بعبدالناصر بعد العلاقات الطيبة التي أعيدت إثر العدوان الثلاثي. وخشية أن يؤدي ذلك الى مزيد من التقارب مع الاتحاد السوفييتي والكتلة الشرقية وكذلك هنالك احتمال بأن إنزال مشاة الاسطول قد يؤدي الى إغلاق قناة السويس أو تفجير أنابيب النفط في سورية.

إلا أن يوم ١٤ تموز في بغداد قلب تلك الموازين، وكان هناك خوف حقيقي أن يؤول مصير

الحرب الأهلية بعد أن نقلت ما كتب، وهو هذا: "هناك في لبنان صحف معينة تتحدث عن الحرية، والحرية عندها هي تجارة يبيعونها مع لبنان صباحاً من السفارة البريطانية، ويبيعونها ظهراً مع لبنان من السفارة الأمريكية، ويبيعونها مع لبنان مساءً الى أي رجعي خلفه بئر نفطي وفي جيبه صرة من الذهب".

علقت جريدة النصر على هذا بقولها: "تسي هيكل الجرائد التي تباع الحرية مع لبنان ومع العالم العربي الى المندوب السامي (السفير المصري) في بيروت.

(٥٦) نشرت الخطبة كاملة في العدد المؤرخ ١٧ آيار ١٩٥٨ من جريدة الأهرام.

النظام اللبناني كما آل إليه النظام العراقي سيما بعد أن تعالت من بغداد تهديدات الثوار المنتصرين تتوعد شمعون وحكومته بمصير مشابه لمصير الأسرة المالكة الهاشمية ونوري السعيد والطبقة الحاكمة الرجعية.

وفي دمشق انطلقت شائعات قوية بأن شمعون قد استسلم للمعارضة إثر عملية انقلاب قام بها حرس القصر: راحت يدها تدق على باب البيت الأبيض بعنف.

وفي الساعة الثانية من بعد ظهر ١٤ تموز أعلنت الولايات المتحدة إنها وافقت على طلب الحكومة اللبنانية توفيقاً للمادة ٤١ من ميثاق الأمم المتحدة وتوجه الأسطول السادس لينزل في اليوم التالي ١٧٠٠ ضابط وجندي من مشاة البحرية (المارينز Marines) وليعقبها في الأيام القلائل التالية بدفعات تكاملت لتبلغ ١٤٠٠٠ مقاتل.

فالثورة في العراق إذن هي التي جاءت بالقوات الأمريكية.

وأعلن آيزنهاور إثر الإنزال بأن لبنان كان "ضحية عدوان غير مباشر" وأن الغرض في نزول القوات هو المحافظة على سيادته وصيانة حدوده.

كانت العملية مفاجأة أليمة للعروبيين اللبنانيين والسوريين، رغم أن تلك القوات لم تشارك قط في أي إشتباك طوال وجودها. صدمة صعب على عبدالناصر الصمود لها، ولم يخفف من وقعها زوال حكم خصمه العنيد نوري السعيد، وخروجه نهائياً من المسرح السياسي، وما عقبه من إنهيار حلف المعاهدة المركزية والاتحاد الهاشمي.

عملية صانت نظام لبنان الديمقراطي، وأنقذته لمدة ١٧ سنة من فوضى ومذابح مؤكدة لا يعلم مداها غير الله.

كانت خيبته عظيمة أضيفت الى خيبته في الأردن. ومن يوغوسلافيا، حيث كان يجتمع (بتيتو) طار الى موسكو لا لبحث أمر صيانة ثورة العراق من التدخل الخارجي كما روج مؤرخوه، بل ليرى ماذا سيكون رد فعل السوفييت إزاء إنزال قوات غربية في البلاد التي يعتبرها ضمن منطقة نفوذه - وهل سيكون مشابهاً لما حصل منهم في العام ١٩٥٦. إلا أن السوفييت لم يفعلوا شيئاً بل نصحوه بالتخفيف من غلوائه وعدم زج نفسه في مغامرة أخرى قد تورطهم مع الغرب. ولكنه نجح في إخفاء خيبته حين وقف في دمشق يشيد بالنصر الذي حققته الأمة العربية في العراق مؤكداً للموفد العراقي الذي زاره وهو في دمشق، وللذين زاروه في القاهرة: "أن علم الحرية سيرتفع قريباً فوق عمّان وبيروت والجزائر مثلما رفع هذه اللحظة في بغداد".

استمر قتال متقطع رغم الوجود الأمريكي، إلا أن المطوعين السوريين راحوا ينسحبون بالتدريج ويهدوء بناءً على أوامر صادرة من دمشق، وبانسحابهم بدأت آمال المعارضة في نصر سريع تتهافت وتتبدد، على أنهم وصلوا إضرابهم رغم فوز مرشحهم العماد فؤاد شهاب بالرئاسة<sup>(٥٧)</sup>. مورست ضغوط متعددة على النواب لإنجاحه، وكانت في الواقع بمثابة تسوية وتطمين لعبدالناصر الذي قوى موقفه فعلاً، قدر ما كانت بمثابة ترضية للكتل المعارضة. وبناءً على مساعي السفير الأمريكي روبرت مورفي<sup>(٥٨)</sup>. كان من المفروض أن تتبع الحكومة سياسة "لا غالب ولا مغلوب" إلا أن ذلك لم يحصل تماماً.

كان متوقعاً من الرئيس الجديد أن ينحو هذا المنحى وأن يسير على هدي الميثاق الوطني، فلم يفعل. كان صديقاً لعبدالناصر ولزعما المعارضة يأتمر بأمرهم وينزل الى رغباتهم، حتى أنه كلف (رشيد كرامي) بتأليف وزارة ضمت أعضاء كادوا يكونون كلهم من زعماء مشعلي الحرب الأهلية ليظهر الثائرين بمظهر المنتصر، فأعطى الفرصة للجانب الآخر ليجرد قوته الحقيقية، وهي القوى الشعبية التي لاتستند الى سلطة حاكمة، بأن دعا الموالون للحكم السابق وحزب الكتائب والحزب القومي السوري والكتلة الوطنية الى إضراب عام بهدف إسقاط الحكومة.

تم ذلك بدقة وأطاع الجمهور وشتت الحياة الاقتصادية، وتوقفت وسائل النقل، ولم يعد أثر

(٥٧) فاز بأغلبية ٤٨ صوتاً مقابل ثمانية أصوات حازها منافسه (ريمون أدّه) المرشح الثاني زعيم الكتلة الوطنية.

(٥٨) "ديبلوماسي بين مقاتلين Diplomat Among Warriors ط نيويورك ١٩٦٤ ص ٤٠٨.

ألح فؤاد شهاب على مزاوله مهام منصبه فور إنتخابه وقبل إنتهاء أجل رئاسة شمعون، وأصر شمعون على البقاء الى آخر يوم. كما أصر سامي الصلح على عدم الإستقالة رغم تهديده بالقتل، وترك بيروت الى أستنبول ليعت بكتاب إستقالته من هناك في آخر يوم، لكن أعداءه نفسوا عن حقدهم بإيّن شقيقه (وحيد الصلح) فأغتالوه في ١٣ من تشرين الأول ولم تقم حكومة شهاب بتحقيق جدي وهدر دمه تماماً مثلما حصل لفؤاد الأحذب المعلق السياسي لجريدة (العمل) لسان حال حزب الكتائب، إثر نشره مقالاً جارحاً بعبدالناصر فيه من السخرية والنقد اللاذع ما فيه، فقد تم إختطافه بعد أربعة من تولي شهاب الرئاسة بأمر صادر من عبدالناصر على ما قيل. والاعتقاد السائد هو أن مصيره كان طبق مصير (فرج الله الحلو) زعيم الحزب الشيوعي اللبناني، الذي إختطفه السراج كما إختطف (غسان جديد) قبله وعذبه وقتله وقطعه أوصالاً وأذابه في حامض النتريك.

أظهر اللبنانيون عموماً عواطفهم الحقيقية إزاء الرئيس شمعون بالتوديع الجماهيري الرائع. ووصفه لي كثيرون أثناء وجودي في لبنان، قالوا أن المشرف من الجبل كان يشاهد منظرأً أخاذاً لألوف السيارات في خط متواصل يأخذ بعضها بحجز بعض طوله يزيد عن كيلومترين ولا نهاية له يخرج من بيروت متوغلاً في الجبل خلف سيارة الرئيس. ما رأيت المحدثين بيالغون عندما باشرت في وقت متأخر بقراءة مذكرات شمعون، فقد أسره هذا المنظر على ما يبدو حتى انه بدأ الفصل الأول منها به.

الحياة في بيروت التي عزلت تماماً عن بقية البلاد لأن هذه الأحزاب كانت تسيطر على جميع الطرق وظلت الحال على هذا المنوال طوال ثلاثة أسابيع حتى أضطر (كرامي) الى الإستقالة وإعادة تشكيل تلك الوزارة التي أطلقت عليها صحيفة نيويورك تايمس عبارة "حكومة موازنة الخوف"، فقد ضمت بيير الجميل رئيس حزب الكتائب وريمون أدّه، تعهدت بالمحافظة على سيادة لبنان، وبأنه سيبقى دولة عربية مستقلة.

إنتهت الحرب الأهلية في لبنان بنصب عسكري على رأس الدولة، إلا أنه أنتخب كما أنتخب آيزنهاور فعلاً. أنتخب بطريقة دستورية لا يفرض نفسه بإنقلاب عسكري كما حصل في سورية ومصر والعراق والسودان واليمن. وأنقذت الديمقراطية في هذا البلد لا بقوى الجيش المحلي بل بمظاهرة عسكرية غربية ناجعة ألجئت اليها الولايات المتحدة مكرهة!

في ظروف إستراتيجية كان موقف قائد الجيش اللبناني الذي وصفناه - قد يرقى الى مرتبة الخيانة الوطنية. لكن وفي خضم صراع طائفي المظهر سببه التآمر العربي الذي تمثله (ج.ع.م). كان من المتوقع أن تختلّف وجهة أي فريق بحسب إنتمائه الديني أو الطائفي أو الحزبي.

لكن التاريخ سيبقى فوق هذا وذاك، وله في آخر الأمر القول الفصل وكلمته الحاسمة. وقد لفظها بعد سنوات قليلة عندما هدأت النفوس وبردت العواطف، وتغلّبت الروية والحكمة على التسرع والغبي في إصدار الأحكام.

فالحكمة التي عزيت الى قائد الجيش بدت وقد بولغ فيها كثيراً. ذلك لأن العصيان المدني سرعان ما إنقلب الى حرب أهلية شاركت فيها دولة خارجية مشاركة فعالة، وتدخلت فيها تدخلاً مباشراً سافراً، وبان عجز الجيش عن حماية أرواح الأهلين وممتلكاتهم، بل رفض قائده القيام بهذا الواجب، مثلما بان عجزه عن المحافظة على إنضباط أفراداه فلم يقدم على شيء لمنع أعداد من الجنود والضباط من الإلتحاق بصفوف الثوار. ولم يحل دون قيام فريق من الضباط ببث دعاية مباشرة لعبدالناصر بين جنوده الى حد تعليق صوراه على جدران ثكناتهم. ثم أن عدداً كبيراً من الضباط الذين إستنكروا منه موقفه وحنقوا عليه الى الحد الذي ألجأ فريقاً منهم الى وضع خطة للقبض عليه وإزاحته عن مركز القيادة.

والحديث في هذا كثير. وفيما ذكرناه غنى عن المزيد.

\*\*\*

كانت فترة رئاسة (شهاب) همماً ثقيلاً رزحت تحته نفوس اللبنانيين الذين يقصدون الحريات الديمقراطية. كان على حد قول الكاتب اللبناني المعروف "الأستاذ كمال صليبي" حكماً سرياً فاشستيّ الإتجاه متلصصاً والى حد ما مخاتلاً ومخادعاً<sup>(٥٩)</sup>. ترك شهاب باب لبنان مفتوحاً لعبدالناصر - ألدراية منه أو بغفلة - ليتدخل في شؤون لبنان المحلية وليضمن إنحياز لبنان الى السياسات الناصرية. وإستهواه من نظام (ج.ع.م) نظام التجسس والسيطرة البيروقراطية بواسطة المخابرات العسكرية. وهو ما عرف بالمكتب الثاني Deuxem Bureau. كان يشعر خصومه ومناوئيه دائماً بأنه مدين للمعارضة ولعبدالناصر بمركزه، وربما كان يرى اللبنانيين بعين المنظار الذي رآهم به يوماً ما جده الأعلى عندما وقف ذات يوم أمام حاكم مصري آخر متهماً في معاملته الفظة لهم... اتباعاً لسياسة جده الأعلى ولهذا حكاية:

عندما كان الجيش المصري بقيادة (إبراهيم باشا) ابن (محمد علي) يحتل جبل لبنان في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، تراكمت شكاوى الأهلين وتدمرهم من الأمير بشير الشهابي بسبب الضرائب والمعاملة السيئة التي يلقونها على أيدي رجاله والأتاوات التي يفرضها. فبعث بطلبه وإستفسر منه عن صحة ما أسنوده اليه، فأجابته: "يا سعادة البابا إني مغلول اليد، ولا حيلة لي بغير هذا. فهو وحده يكفل الهدوء والسكينة لنا معاً. فليسكان جبلنا عادات البغال اللبنانية، ومن الضروري معاملتهم معاملة البغال".

سأله إبراهيم باشا وكيف يكون هذا؟

فشرح له الأمر هكذا، قال: "أما لاحظتم أن البغال اللبنانية لا تسيير بهدوء وإنتظام ويرجل ثابتة، إلا اذا كانت محمّلة بثمانين بطماناً<sup>(٦٠)</sup> كما تعودت؟ إن خفضتم سعادتكم حملها، ترونها تحرن وترفس ويصعب قيادها وتحاول قذف حملتها عن ظهورها طول الطريق، فتتهك قواها بسبب من ذلك أكثر بكثير من تعبها في الحمل الثقيل".

فضحك إبراهيم باشا طويلاً وعقّب قائلاً: "هذا عين ما نفعله في مصر. الآن فهتم كيف أمنا المحافظة على الهدوء، وضمنّا الطاعة هناك".

(٥٩) السياسة في الشرق الأوسط: إيلي خضوري ص ٢٤١، ط مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٩٢ Elie Kadouri:

Politics in The Middle East

(٦٠) زنة لبنانية تعادل مائتي كيلو ونيّف، وعندنا يسمى طفار.

وصرفه مشيئاً بالرضا والثناء.

وأفسح الرئيس شهاب تقريباً لـ (ج.ع.م) مجال العمل السياسي والعسكري للاجئين الفلسطينيين بشكل غير مسبوق وفتح لهم باب الهجرة من الأردن على مصراعيه مسهلاً نقل الأسلحة الى تشكيلاتهم العسكرية من مصر وسورية. وعلى عهده نمت أحياء خاصة في بيروت لهم، كادت تكون مغلقة في وجه السلطة اللبنانية تماماً مثلما كانت مخيماتهم الكبرى في جنوب لبنان الشيعي تتمتع بهذا الإمتياز. وزحفت على ألسن العامة تدريجياً عبارة "دولة داخل دولة" لوصف الوضع السياسي الفلسطيني في لبنان. وفي عهده كان تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية تأكيداً لهذا النعت. وتصاعدت الهجمات الفلسطينية في الجنوب على الأراضي الإسرائيلية فقبولت بحملات عسكرية في عمق الجنوب اللبناني، فأوقعت الدمار والخراب بقرى الشيعة ومزارعهم واضطرت أعداد كبيرة منهم الى تركها والنزوح الى العاصمة والمدن الأخرى.

بقي الشعب عنصراً سلبياً هادئاً في دنيا السياسة اللبنانية قانعاً بزعامه وجهائه التقليديين حتى الساعة. لكنه بدأ يتململ بفعل الحرب الأهلية والهجمات الفلسطينية والحملات المقابلة التي جعلت أراضيه ميدان حرب متواصلة، وبسرعة فائقة تعلم ممارسة أسلوب الدعائي الناشط من السياسة. وكان لشخصية (موسى الصدر) شأن كبير في هذا.

موسى الصدر روحاني إيراني النشأة لبناني الأصل<sup>(٦١)</sup>، بات فجأة في أواخر الخمسينات مركز الثقل الشيعي. هاله ما يحدث في جنوب لبنان من دمار وتقتيل ونزوح، فراح يهاجم السلطة لإهمالها الطويل الأمد وتقاعسها عن حفظ أمن الأهلين في تلك المناطق. وعزا إليها أسباب الرزايا التي تحل بأفراد طائفته من الفلاحين والقرويين الفقراء. وإتهم الحكومة بالفساد والإستغلال وطالب بالحماية العسكرية من العمليات العسكرية المتقابلة. ومن أجل إسترعاء الإهتمام العام بقضايا طائفته، نظم إضراباً شيعياً في بيروت، وأسس حركة (أمل) للمحرومين وأقام لها جناحاً عسكرياً لتأمين الدفاع. وإتخذ سبيل التطرف في خطبه المعادية المشيرة والحماسية:

"لا نريد عواطف بل عملاً... لن أبقى ساكناً منذ اليوم... نحن نريد كل حقوقنا

كاملة... يا أيها الجيل الصاعد، إن لم تستجب مطالبكم فسوف ننطلق لأخذها بالقوة، إن لم تكن تعطى في هذا البلد فيجب أن تؤخذ"<sup>(٦٢)</sup> وغيرها وغيرها.

بازدياد الإشتباكات بين منظمة التحرير الفلسطينية والجيش الإسرائيلي زاد الصدر من ضغطه ومن محاولات تنظيم جماعات مسلحة للدفاع عن الجنوب، وأطلق شعار "السلاح حلية الرجل". وأقام علاقات مع السوريين وأنشأ علاقات غامضة خفية نوعاً ما مع (معمر القذافي) كلفته حياته<sup>(٦٣)</sup>.

لم تفتن الشيعة دعوى العروبة والقومية.

(٦٢) المرجع السالف [نقلاً عن أ. رابينوفيتش: حرب من أجل لبنان War for Lebanon ١٩٨٢-١٩٧٠. دراسات شرقية ص ٢٣]. ص ٢٤٣.

(٦٣) في آب ١٩٧٨ شخص هو وإثنان من أتباعه الى ليبيا - بناءً على دعوة من القذافي كما قيل في حينه، وإختفى الثلاثة جميعاً دون أن يخلفوا أثراً بعد وصولهم البلاد. ولم تسفر الجهود المبذولة عن دليل يشير الى مصيرهم. وقد زعم الليبيون أن الثلاثة غادروا البلاد فعلاً.

(٦١) عرفته بزيارات كنا والكاهن أوغسطين (من دهوك) نقوم بها لمجلسه، وجدته إنساناً متفتحاً لطيف المعشر نبيهاً واسع الإطلاع تأنقاً للمزيد من المعرفة. كنا نمازحه بسبب بشرته البيضاء وعينه الزرقاوين وشقرته برد أصله الى العنصر الصليبي الغربي كلاً أو جزءً على الأقل، فيشاركنا المزاح والفكاهة ويضحك.

## الفصل السادس والعشرون

الأردن والشعارات القومية . القوى الناصرية . مستقبل غامض لدولة صغيرة . دعاية عبدالناصر وضغوط إعلامية . الزخم الفلسطيني . إنهاء العمل بالمعاهدة الأردنية - البريطانية . مغادرة الحاميات البريطانية . طرد كلوب من الجيش الأردني . أبو نوار رئيساً للأركان . نشاطه مع الناصريين . مسيرات ضخمة أثناء العدوان الثلاثي . قطع المعونة المالية الانكليزية . الإعلامات المصري والسوري يشيدان بوطنية حسين وعروبته . وقوعه تحت تأثير المخادعين الناصريين وقوميينه . السعوديون يشعرون بالخطر ويتقربون من الحسين . الفوضى والمظاهرات . الحسين يوجه انذاراً للنبلسي بوجوب وضع حد لانتشار الآراء والعقائد المتطرفة . النبلسي أداة طيعة بيد عبدالناصر ساعة الحسم . محاولة الانقلاب . أبو نوار قائد المحاولة . صمود الحسين وأعوانه . فشل الانقلاب والتصفية . اضراب عام . الانذار الأمريكي ونزول مشاة الأسطول السادس ساحل لبنان . اجتماع الحسين بالعاهل السعودي . حلف جديد . التأمير على حياة الحسين . الفشل المتواصل . فشل الناصرية في أحداث تصدم أردني . السودان . مؤتمر الخريجين . رفض وحدة مصر والسودان . حكومة الأزهرى . التهديد المصري العسكري . شكوى السودان أمام مجلس الأمن . انقلاب الفريق ابراهيم عبود . البيان الأول . المجلس الأعلى العسكري اللبناني . محاولات انقلاب . المجلس الاشتراعي . ثورة شعبية تطيح بدكتاتورية عبود

ساورني بعض التردد في تقديم ما أثمرت به إرهابات قومية عبدالناصر العربية في الأردن على ما زرعته وأنبنته فوق أديم لبنان . أعني عندما باتت أيديولوجيتها في الوحدة في (ج.ع.م) الهدف الأسمى خلال العامين ١٩٥٧ و١٩٥٨ .

كانت الجهود الناصرية في القطرين متزامنة تقريباً، ومتداخلة في أحيان كثيرة . ثم إستقر الأمر على ما وجدت وكما ستري . على أن تلك الجهود ، ولنسمّها بالدساتيس فالوصف أقرب الى الحقيقة، لم تتمخض في الأردن بحرب أهلية كبيرة كما حصل في لبنان للسهولة النسبية التي تم فيها إحباطها . وأرى أن الفضل الأكبر في هذا يعود الى صلة الطبقة الحاكمة الأردنية

بالبطاز القديم من القومية العربية المستمد من تراث مؤسس الدولة وأبيه القومي . في مبدء الأمر سمحت هذه الطبقة لأسطورة عبدالناصر بنمو سلمي طبيعي ولم تجد مانعاً ولا تحرجاً ، وعلى رأسها يقوم ملك شاب عربي لا شائبة في عروبته، يفخر بنسبه ولا يعتقد مطلقاً بمقدرة أحد منازعته مقامه هذا من بلد غير بلده . إلا أنه كان بحاجة الى التجربة فقد تولى العرش في ظروف إستثنائية غريبة: شاهد جده يسقط على درج المسجد الأقصى مضرباً بدمائه بيد فلسطينية قبل خمس سنوات، ووضع التاج على رأسه وقت كان والده يُحمل الى خارج البلاد ليودع في مصح للأمراض العقلية . وها هو الآن يحكم بلداً أكثر من نصف سكانه فلسطيني<sup>(١)</sup> أقاموا الدنيا ولم يقعدوها إحتفاءً بإنذار الحار العدوان الثلاثي . وراقب صور هذا الزعيم المظفر ترفع لتحتل أفضل مكان في غرفة إستقبال كل منزل في العاصمة الأردنية، وإلتزم خط المجاملة والمصافاة والإغضاء .

وفي بغداد تزايد القلق على مستقبل الأردن الغامض، وإغضاء الطرف عما يجري وتبدلت زيارات خاطفة بين رئيسي الدولتين السعودية والعراق وصدرت إثرها بيانات حول "مصالح الأمة العربية" و"ما فيه الخير للأمة العربية" طوال العام ١٩٥٧، كما كانت هناك زيارات لنوري السعيد الى لندن وعمّان<sup>(٢)</sup> . كان نوري في العاصمة البريطانية عندما أقدم عبدالناصر على تأميم القناة ف"ألحّ على الحكومة البريطانية لإتخاذ إجراء ضد مصر وأنذرنا بقوله: إن لم يسقط جمال خلال فترة قصيرة، فإن عناصر مدمرة عظيمة ستنشط من عقالها في البلاد الناطقة بالعربية وسينفرط عقد حلف المعاهدة المركزية، أو يغدو حبراً على ورق . ونصح ايدن ألا يورط نفسه مع الفرنسيين أو الإسرائيليين في أي عمل مضاد" .

بوقفه عنيدة واحدة لم تكلفه شيئاً حول هزيمة العدوان الى نصر . وبقليل من الجهد إستيق خصميه اللدودين العراق والسعودية الى سورية - لتطويقها وتحقيق الوحدة معها - وليجعل من حكام البلدين المذكورين أعداءً للأمة العربية وعقبة كأداء في سبيل تحريرها من النفوذ الأجنبي وإستعادتها عزتها وكرامتها ومجدها الغابر . وبدت الأردن في خارطة الوحدة، فهي (١) في الرابع والعشرين من نيسان ١٩٥٠ أعلن الملك عبدالله "موافقته" على ضم الضفة الغربية في "دولة واحدة هي المملكة الأردنية الهاشمية.. مع عدم المساس بالتسوية النهائية لقضيتها العادلة في نطاق الأمان القومي والتعاون العربي والعدالة الدولية" .

(٢) نتنك: المرجع السالف ص ٣٥١، د.كوري: المرجع السالف. لندن، هجسون ١٩٦١ الص ١٧٧-١٧٨ "قامت بغداد بتظاهرة كاذبة لم يصدقها أحد، إنتصاراً لمصر وإظهاراً لتضامنها العربي معها - بسوق قوات عسكرية الى الأردن لحمايتها من إعتداء إسرائيل . وقاطع العراق إجتماعات حلف المعاهدة المركزية عندما حضرتها بريطانيا . وقطع علاقاته مع فرنسا . وأكد لي المقربون من نوري أنه صدم صدمة عنيفة عندما علم بمشاركة الإسرائيليين، إذ لم يكن يتوقع ذلك . وراح يضرب يداً بيد قائلاً "هؤلاء خربوا علينا كل شيء" .



في العام ١٩٥٦ كان ثمّ حلف أردني مع سورية ومصر بعد الإنتخابات العامة التي دفعت الى المجلس بأغلبية واضحة للقوميين العروبيين. إلا أن الملك ومستشاريه ما كانوا بدرجة من الحمق لقطع أواصر تشد عرشه الهاشمي بالعراق.

وفي العام ١٩٥٧ كان يقوم على رأس الحكومة رجل يكرهه عبدالناصر ولايشق به، هو "سليمان النابلسي" فعمد الى التخلص منه. وفي حمى التقارب الأردني- السوري المصري، وقبل إعلان الوحدة ببضعة أشهر ذاق الملك الحسين صدمته الأولى الموجهة.

كانت جهود عبدالناصر قد نجحت في حمل السعودية وسورية على إقناع حكومة الأردن برفض المساعدة السنوية المالية التي كانت تمنحها بريطانيا، لقاء تعهد الدولتين ومصر بها، وإستطاع أيضاً أن يحمل الحسين على إنهاء المعاهدة البريطانية - الأردنية في آذار من تلك السنة، مع الطلب من الحاميات البريطانية مغادرة الأردن خلال ستة أشهر. بمعنى أن البلاد أضحت "مستقلة تماماً و... مهيأة للوحدة".

وأقدم عربوناً على ولائه لعبدالناصر وبرهاناً على عرويته، على إقالة الجنرال "جون باجيت كلوب"<sup>(٣)</sup> قائد الفيلق الأردني مع خمسة عشر ضابطاً بريطانياً في آذار ١٩٥٦ فجأة ومن دون سبب ظاهر وأمرهم بمغادرة البلاد خلال أربع وعشرين ساعة، وشد أزره ضباط عروبيون من الجيش الأردني يتزعمهم المقدم (ثم اللواء) علي أبو نوار البالغ من العمر ٣٣ عاماً في حينه.

وقد سبق إقالة الضابط حملة صحفية وإعلامية مصرية شعواء على شخصه متهمه إياه مع بريطانيا بكل أنواع الآثام والخيانات ونوايا السوء<sup>(٤)</sup>.

(٣) كان كلوب من ضباط الحملة البريطانية على العراق ١٩١٥-١٩١٨ وبقي في الجيش البريطاني الى الثلاثينات، برتبة رائد وعرفه جنوب العراق بلقب "أبو حنيك" بسبب ذقنه المدب وإعوجاج في خده. قاد في ١٩٢٦ الحملة على "الإخوان" المغيرين بقيادة الشيخ فيصل الدويش فهزمه متفادياً بذلك حرباً بين السعودية والعراق. كما قاد اللواء الأردني في حركة مايس حتى بغداد. طبعت مذكراته: جندي مع العرب Soldeir With The Arabs في (نيويورك ١٩٥٧) وهو الذي شيد قلعة نقرة السلطان التي استخدمت فيما بعد سجناً صحراوياً للمجرمين العائدين، والسجناء السياسيين الشيوعيين.

(٤) كذلك إشتد حنق الملك الشاب بسبب مقال نشرته مجلة "أنباء لندن المصورة" في لندن The Illustrated London News تحدثت فيه عن "كلوب" ووصفته بملك الأردن غير المتوج. على أن الملك كتب في مذكراته بأن إعتبارات قومية ومسلكية هي التي حملته على إقالته، وأنه إختلف معه في خطة استراتيجية للدفاع عن الأردن في حالة هجوم إسرائيلي مفضلاً فيها الإنسحاب من الضفة الغربية إلا أن كلوب (المرجع السالف يكذبه بقوله إن الملك إستحسن خطوته تلك، ووافق عليها. وأن لديه وثيقة تثبت ذلك، مؤكداً أن إزاحته =

ومن أثر ذلك كان دخول الضباط الأردنيين حلبة السياسة. ذاقوا طعمها وسرت في عروقهم من العدوى السورية فراخوا بعدها يتآمرون على الملك وعلى النظام نفسه.

سلمت قيادة الجيش بعد كلوب للواء (راضي عتاب) الذي ما عتم أن أحيل على التقاعد. وفي ٢٥ من أيار ١٩٥٦ أسند منصب الأركان العامة بعد مناورات ومساع خفية الى المقدم علي أبو نوار برتبة لواء. عرفه كلوب بعثياً متحمساً لعبدالناصر يبطن شعوراً عدائياً للملك وكرهاً للنظام الملكي، ولهذا أبعدته عن الجيش بتعيينه ملحقاً عسكرياً في باريس خلال ١٩٥٤ فكان يلزم الملك ويظهر له فنوناً من الولاة والتعلق أثناء زيارته فرنسا. وفي أواخر العام ١٩٥٥ إستدعاه الملك وجعله مرافقاً له بعد ترفيعه الى رتبة مقدم - رغم إنذار كلوب وتحذيره.

ما أن إستقر (أبو نوار) في مركزه القيادي بعد أربع ترفيعات خلال سنة واحدة وبضعة أشهر - حتى بدأ ينشط مع القوميين العروبيين ويعمل معهم يداً بيد، مؤثراً أبلغ تأثير على تقارب الملك مع سورية ومصر.

وفي أثناء تأميم القناة والعدوان إنطلقت المسيرات الضخمة في العاصمة وفي الكرك وغيرهما من المدن بتأييد مصر تحمل شعارات مثيرة، وبهتافات تشق عنان السماء كما وصفتها الصحف في حينه - بحياة عبدالناصر والوحدة العربية - وبحماية من الجيش، وقد تولى تنظيمها وقيادتها البعثيون بالتعاون مع الفلسطينيين. وفي ١٦ آب ساد الأردن إضراب عام نظم تأييداً لعبدالناصر ضد الفرنسيين والبريطانيين.

وصحا الملك الشاب من غفوته والفضل -إن كان يعد فضلاً- للهجمات الإسرائيلية العنيفة على خط الهدنة بين شهري أيلول وتشرين الأول. فدار صوب الشرق نصف دورة ليعقد إتفاقاً عسكرياً مع العراق يسمح بموجبه بإرسال قطعات من الجيش الى بلاده ويقام طلعات جوية عراقية في سمائه. وبادرت سورية لإعلان إستعدادها لهذا أيضاً وتبعتها مصر في ٢٥ من تشرين الأول، كيلا ينفرد العراق بالحظوة. وجعل الجيش الأردني رقيباً على الجيش العراقي يرصد حركات قياداته، وأمّر الفيلد مارشال عبدالحكيم عامر قائداً عاماً للجيش الأربعة في

= كانت مؤامرة ناصرية نفذها الضباط الأردنيون. إن الإعتقاد السائد حول أسباب طرده هو إعتياده الوقوف بحزم ضد الترقية الإعتباطي السريع الذي كان مطمح أولئك الضباط. وكذلك تطبيقه النظام العسكري الإنكليزي الدقيق الصارم كوسيلة لإمتصاص النقمة عليه، وتبديد شعورهم بالغبن جراء ترفيعات بعضهم، وإبعادهم عن عالم السياسة. لكن ما حصل هو العكس تماماً، فقد زاد حنينهم الى لوج عالم السياسة، كما وضع لقيادات الجيش شباناً أغراراً قليلي التجربة والخبرة طموحين الى أبعد حد مثلما حصل في سورية واليمن ومصر الى حد ما.

هكذا كان الوضع عندما نُجحت تلك المحاولة للإطاحة بالنظام الملكي بهدف إقامة حكم موالٍ لعبدالناصر، وجرى ذلك عقب الإنتخابات العامة في ٢١ من تشرين الأول بنتيجة تشير إلى منحى قومي يساري واضح رغم أن فصائلها مجتمعة لم تكن أغلبية. حاز القوميون الإشتراكيون نجاحاً متفوقاً بخروجهم بأحد عشر مقعداً، وحاز الشيوعيون بعنوان "الجبهة الوطنية" بثلاثة مقاعد، وتلاههم البعثيون بإستقلالهم بمقعدين. أما الآخرون فكانوا من الإخوان المسلمين ومن الحزب العربي الدستوري أو من المستقلين الذين صوت بعضهم إلى جانب اليسار القومي. وألف سليمان النابلسي، زعيم القوميين الإشتراكيين، الوزارة.

وبدأت الحكومة الجديدة بإلغاء المعاهدة البريطانية - الأردنية، وإقامة علاقات دبلوماسية مع الإتحاد السوفياتي والصين الشعبية، وراجت معها دعوة عبدالناصر للحياد الإيجابي وعدم الإنحياز، لتغدو بعد فترة قصيرة شعاراً رسمياً.

في ١٥ تشرين الثاني، طلبت الحكومة من بغداد رسمياً سحب الجيش العراقي من دون طلب مماثل لسورية أو العربية السعودية، فتم سحب اللواء العاشر في كانون الأول التالي، وكان من بين أمراء أفواجه ضابطان عراقيان هما عقيد ركن يدعى عبدالكريم قاسم ومقدم ركن يدعى عبدالسلام محمد عارف، كانا وثيقي الصلة بالضباط السياسيين الثوريين السوريين والأردنيين. وقالوا إنهم أحاطوهم علماً بوجود تنظيم سري بين ضباط الجيش العراقي يعمل للإطاحة بالنظام هناك<sup>(٦)</sup>.

وبدا من تصريحات "النابلسي" الصحفية وكأن الأردن يسير بخطى حثيثة للإرتقاء في أحضان دمشق والقاهرة<sup>(٧)</sup>.

وإنطلقت الحكومة حال تشكيلها في عملية تخليص الجهاز الحكومي من جميع الموظفين المعروفين بولائهم للعرش أو يعطفهم على الغرب. وكمثل سورية إنتشرت الأفلام السينمائية

(٥) كان في الأردن عند حرب القناة قوات سعودية وسورية وعراقية. وكل جيش كان يراقب حركة الآخر للتأكد بأنه لن يحاول إبتلاع الأردن.

(٦) ذكر اللواء عفيف البرزي في تصريح له لجريدة النصر الدمشقية بتاريخ ١ تموز ١٩٦٢ أن (قاسماً) إجتمع به في خيمة بمطار الفرق على الحدود وقتما كان يقود وحدة سورية شمال الأردن.

(٧) في إجتماع عام في عمّان، بتاريخ ٢١ كانون الأول، راح النابلسي يمجّد عبدالناصر ويعدد مآثره في (معركة المصير) طوال نصف ساعة، دون أن يورد إسم الأردن في خطابه مرة واحدة. وقبلها بخمسة أيام صرح لندوب جريدة نيويورك تايمس (هانسن بلدوين) بأن الأردن لا يمكن أن يعيش (أردناً) إلى الأبد وعليه أن يقيم علاقات عسكرية وإقتصادية وسياسية مع دولة عربية أخرى (ولم يسم الدولة).

السوفيتية والصينية في صالات العرض وسمح لوكالة (تاس) بجهازها التجسسي بالعمل في عمّان وبتأسيس مكتب لها لتوزيع نشرات أنبائها على أوسع نطاق، في حين أجاز الحزب الشيوعي الأردني بإصدار جريدته (الجماهير)، وبدأت في الوقت عينه حملة منظمة ضد الحكومة العراقية وحلف المعاهدة المركزية.

وفي سبيل الإعداد لإلغاء المعاهدة مع بريطانيا، تم عقد إتفاق ١٩ كانون الأول بين مصر وسورية والعربية السعودية على أن تتكفل هذه الدول بتسديد المنحة السنوية المالية التي كانت بريطانيا تدفعها للفيلق العربي (الجيش العربي)<sup>(٨)</sup> كما ذكرنا. وفي اليوم عينه وقّع في القاهرة بين هذه الدول الإتفاق الذي عرف بـ"ميثاق التضامن العربي".

وشرعت الحكومة في مفاوضات إلغاء المعاهدة البريطانية - الأردنية، وفي بغداد قامت قيامة نوري السعيد وعبدالإله، وبذلت محاولات مستميتة مع الملك للتدخل شخصياً من أجل وقف هذه المسيرة السياسية.

في ذلك الوقت كانت تكتنف الملك بطانة غريبة من أولئك المخلصين لآرائهم والكاذبين فيها. وكل فرد منهم ينشد الحظوة والتقرب من العاهل، بالنصح الذي يتضمن ثناءً على الخط السياسي العام في مسيرة الأردن القومية والتقدمية، والنأي عن مشاريع الغرب المشبوهة وأحاييلها الإمبريالية.

إن الناس يكذبون عندما يعتقدون أن الخداع والكذب قد يضمن لهم مكسباً، ويصدقون أيضاً للسبب عينه أي للفوز بما يريدون أو بما يحقق لهم رغبة، كأن يكونوا موضع ثقة جزاء إخلاصهم وصدق نصيحتهم - إنهما كما يقول هيرودوتس:

"طريقان مختلفان فعلاً، لكنهما يفضيان إلى نتيجة واحدة، ويهدفان إلى غرض واحد، فحيثما لا يوجد شك في الفائدة المنشودة تجد المخلص الحسن النية يكذب على أغلب الإحتمال مثلما يفعل الكذاب غير المخلص ذو النوايا السيئة، والكاذب أيضاً يقول الحقيقة بعين السهولة واليسر الذي يقولها الصادق وللغرض عينه".

ووقع الملك الشاب لفترة غير قصيرة بين يدي هذين الفريقين، ليقضي ما تبقى من عمره في

(٨) تعهدت كل من مصر والسعودية بدفع ٤٠ بالمائة منها وأن تدفع سورية البقية أي ٢٠ بالمائة. والمنحة هي ٣٦ مليون باون سترليني. بعد فترة وجيزة تبين للملك أن لا سورية ولا مصر تعترضان الوفاء بتعهدهما، أما السعودية فقد دفعت حصتها مرة واحدة فقط.

عملية شاقة من التنقيح والتصحيح، ضائعاً خلالها بين القيادات السياسية الصحابة العجاجة التي دفع بها الزعيم القومي الجديد، فمرة يصمد لها ومرة يجرفه تيارها. فيعثر ليقوم وليعثر ليقوم ثانية وهكذا.

إنتهت المفاوضات على إنهاء المعاهدة بإلغائها، وتوقفت المنحة المالية في الأول من آذار واحتفلت الأردن بهذه المناسبة إحتفالاً رسمياً وأعلنت بالمناسبة عطلة رسمية أمدها ثلاثة أيام. تحرر الأردن فعلاً وخرج من دائرة النفوذ البريطاني لكنه وضع نفسه في عين الوقت تحت رحمة جيران أقوى منه ذوي مزاج ناري متحول عاصف لا وجه شبه بينه وبين الحلف البريطاني الهادي المتزن.

وراقت الصحف والإعلام المصري والسوري تكيل المدح جزافاً للملك العربي الذي أحيا أمجاد الثورة العربية التي فجرها سميه جده الأعلى قبل أربعين عاماً.

لكن، متى شعر الحسين بالخطر؟

من الصعب إثبات تاريخ لهذا، إلا أن الوقت لم يطل لحسن حظه. كان كما ألمعنا تحت تأثير المخادعين المخلصين لـ"عبدالناصر" وللعاصفة القومية التي أثارها. لم يعر أذناً صاغية لابن عمه عبدالإله، وكانت تردده بأشكال شتى. وبدا ضعيف الحيلة غير منتبه بأن قوائم عرشه تهتز تحته وأن عيوات ناسفة ذات ماركة قومية قد وضعت في أماكن حساسة من نظامه الدستوري<sup>(٩)</sup>.

في تلك الأيام بدء الملك سعود من جانبه يشعر بالخطر وبأنه مضى بعيداً في مسانדתه عبدالناصر. كان في بداية ١٩٥٧- أمراء السعوديين ومستشاروهم يتوقعون أن تسقط الأردن في قبضة السوريين والمصريين بين يوم وآخر، وأقلقهم كثيراً تحول حليفهم السريع الى اليسار الثوري.

وفي أثناء زيارته الولايات المتحدة (أوائل شباط ١٩٥٧) نبهته وزارة الخارجية الى الخطر

(٩) ذكر كميل شمعون في مذكراته (المرجع السالف: أزمة في الشرق الأوسط Crise Au Mayon Orient ط. باريس كالليمار ١٩٦٣ الص ٣٢٥-٣٢٨ أنه إتهز فرصة زيارة الملكة (زين) أم الملك بيروت فبسط لها خطة عبدالناصر في إضعاف إبنها وعزله قبل تسديد الضربة القاتلة مستخدماً للعبارة الأخيرة المصطلح الفرنسي Coups de grace التي نترجمها عادة بطلقة الرحمة، وهي الإطلاقة التي يسدها منفذ حكم الموت على الضحية بتسديدها الى رأسه توثيقاً لموته. ويعتقد شمعون في كتابه أن الخطوات الثلاث المدروسة لإضعاف الحسين هي: أولاً، إقناعه بدخول وحدات سورية - عراقية؛ ثم عزله الجنرال باجيت كلوب؛ ثم إنهاء المعاهدة مع بريطانيا.

المحدث، والى عاقبة علاقاته الوثيقة بحليفه، فحصلت منه على وعدين أولهما توطيد علاقاته بالعراق، وثانيهما إجتناح أي عمل مع عبدالناصر قد يؤدي الى الإيقاع به وإسقاطه<sup>(١٠)</sup>. ولم يكن لا هو ولا أعضاء أسرته بحاجة الى ضغوط أمريكية خاصة، فقد أكد لهم تسارع الأحداث صحة هذا، ولم يعيش ميشاق التضامن العربي (السعودي-السوري-المصري) غير أشهر قليلة ثم مات دون ضجة.

لمّ الحسين أطراف شجاعته وقد إستبد به الفزع. وبعث بطلب رئيس الحكومة وأنذره بالعزل إن لم يتدارك الأمر ويضع حداً للإلتحاف الجماهيري ووجه إليه خطاباً رسمياً في الأول من شباط ١٩٥٧، مستخدماً لهجة شديدة لم تسمع منه من قبل:

"إن لم يوضع حد لإنتشار المباديء والعقائد الوافدة، والآراء التي تسربت الى هذا البلد فإن الإمبريالية التي كادت تلفظ أنفاسها في الشرق العربي سوف تخلي مكانها لشكل آخر من الإمبريالية. وإن إستعبدنا هذا الشكل الآخر فسوف نعجز عن التخلص من أو إزاحته عننا... وأستعري الإنتباه أيضاً الى الخطر المتأتي من أولئك الذين يدعون بأنهم قوميسون عروبيون في حين لا تربطهم بالعروبة أية رابطة..."<sup>(١١)</sup>

لكن النابلسي لم يكتف بتحذير الحسين، وأبدى عبدالناصر قلقاً، وإنبرى البيطار وزير الخارجية في سورية لإنتقاد الرسالة، وبلغ به الحمق حداً أنه بعث برسالة الى الحكومة الأردنية يوصيها بإظهار المزيد من التقرب والصدقة للعالم الإشتراكي، وقرن ذلك بالإيعاز للبعث واليسار وللفلسطينيين بإطلاق المظاهرات والمسيرات - بعد إستئذان القاهرة والحصول على موافقتها طبعاً.

وعصفت المسيرات والتظاهرات بجو البلاد لتقام بمناسبة أو غير مناسبة، وبشعارات مهاجمة للغرب والتحذير من مؤامراته. كانت بجوهرها ترمي الى تخويف الملك ويطانته الجديدة ذات الميول المحافظة. وبتحريض من اليسار أصدرت الحكومة قراراً بتعطيل نشاط الحزب القومي السوري في حين إنهالت على الصحف الموالية للملك رسائل تهديد غفل عن التوقيع، تحثها

(١٠) مذكرات الملك حسين بعنوان "يستقر الرأس قلقاً Uneasy Lies The Head" نيويورك ١٩٦٢ ص ٢١٤،

كذلك أنظر كلوب: المرجع السالف ط. نيويورك هاربر ١٩٥٧

(١١) المرجع السالف ص ١٥٩؛ كذلك أنظر النص الكامل في كتاب "الدول العربية والجامعة العربية: سجل وثائقي: مجلدان (جمع محمد خليل بيروت ١٩٦٢ - مكتبة خياط الص ٩١٦-٩١٩ ج ٢ The Arab States and The Arab League: A Documentary Record.

على توجيه النقد لراعيها وحاميها بسبب تجاهله موقفه من القوميين العربيين واليسار.

في نهاية آذار، هدد النابلسي بالاستقالة إثر رفض الملك عزل "عناصر معينة غير مرغوب فيها" من وظائفهم الحكومية، ولأنه يجري "اتصالات مع دول غربية دون علم الحكومة". لكنه تلقى أمراً من عبدالناصر بالبقاء وعدم تقديم إستقالته.

وفي الثاني من شهر نيسان - ورغم معارضة الملك - صوتت حكومته الى جانب إنشاء علاقات دبلوماسية مع الإتحاد السوفيتي. وقد حصل هذا بعد وصول (علي أبو نوار) من دمشق بيوم واحد يحمل معه عرضاً سوفيتياً سخياً لصفقة سلاح للجيش الأردني.

كان الجيش همّ الحسين الأكبر، وقد بدأ يلحظ إنقسامه الى شيع وكتل سياسية، ذلك الجيش الذي إشتهر رغم صغره بالانضباط والإحتراف والفعالية. وهاله أن يجد قادة في الجيش ومسؤولين كباراً في الحكومة يجرفهم التيار ويقعون فريسة للنفوذ المصري السوفيتي. هناك فضلاً عن (أبي نوار) مثلاً (شفيق رشيدات) وزير العدل، و(عبدالله الريماوي) وزير الدولة للشؤون الخارجية من بين كثيرين غيرهم. وقد ساد الاعتقاد بأن الثلاثة الذين ذكرناهم كانوا يتلقون هدايا ثمينة ورشاوى مالية لأنفسهم وللآخرين من السوريين والمصريين والسوفييت، وتعددت زيارة هؤلاء الثلاثة دمشق بشكل منتظم جالب النظر. كان هناك تقرير رفعته دوائر الأمن الى رئيس الديوان الملكي، جاء فيه:

"لو أن الشرطة فتحت حقائب هؤلاء في نقطة (الرمثة) على الحدود لوجدت مبالغ نقدية في كل واحدة منها<sup>(١٢)</sup>".

ولوحظ بشكل ملفت للنظر غشيان الضباط الأردنيين ملاهي ونوادي بيروت ودمشق الليلية، وإنفاقهم مبالغ كبيرة لاتتناسب قط مع رواتبهم المحدودة. وإنتشرت إشاعة في دمشق - تخطت حدود سورية وسمعناها في العراق - بأن الريماوي كان يؤكد لزوجته بأنها ستغدو في غضون وقت قصير سيدة الأردن الأولى. في حين كان (أبو نوار) يتهياً ليغدو رجل الأردن القوي، كحسني الزعيم أو الشيشكلي، ولا أذكر عبدالناصر، الذي كان أبو نوار مفتوناً بشخصيته معجباً بها نهاية الإعجاب بنجاح حركته وسياسته وكان على صلة دائمة به<sup>(١٣)</sup>.

(١٢) الحسين: المرجع السالف ص ١٥٧

(١٣) تبدلت نظرة علي (أبو نوار) كثيراً في العام ١٩٨٩، فقد كتب في مذكراته: "إذا كنا ندرس لنستفيد للمستقبل، فإن أول درس يجدر بنا أن نحفظه في ذاكرة أمتنا هو: أن لاتذهب الى الإنبهار في القادة الى درجة فقدان العقل، وأن لاتذهب في سبيل أهدافها النبيلة الى القسرية التي تخرجها عن سلامة تلك الأهداف" [جريدة الشرق الأوسط: العدد ١٤٥٦، في ٢٣ تشرين الأول ١٩٨٩].

في نيسان بدا، فلا مفر من ساعة حسم بين الملك وحكومته. وكانت النتيجة بطبيعة الحال تتوقف على موقف ضباط الجيش، وبخاصة رئيس الأركان الذي كان الجميع يقر بأنه أصبح في الآونة الأخيرة مركز ثقل في المعادلة السياسية. ودنت الساعة في الثالث عشر من ذلك الشهر، بعد إقالة الحكومة بثلاثة أيام. طلب الملك من النابلسي بخطاب تقديم إستقالته والإعتزال، معهداً أعمالاً إعتبرها تحدياً لسلطته، وإهمالاً لأوامره. كما أصدر الملك في عين الوقت مرسوماً بتعيين العميد (محمد مقيطه) مديراً للأمن العام بدلاً من اللواء بهجت طبره.

كان النابلسي في إجتماع للوزارة عندما دخل عليه "بهجت التلهوني" رئيس الديوان الملكي ودفع إليه بكتاب العزل. فبعث (النابلسي) يستقدم اللواء (علي أبو نوار) وإثنين من الضباط الموالين وسألهم النصح، فأشار عليه (أبو نوار) بالاستقالة وكان يتوقع، كما إتضح فيما بعد، أن تعقب الإستقالة أزمة وزارية تعطيه الحجة ليقوم بإنقلابه في حالة عدم تكليف النابلسي ثانية بتأليف الوزارة، فإنصاع النابلسي وتوجه الى القصر لتقديم إستقالته رغم وصول برقية من عبدالناصر اليه، جاء فيها: "لاتستسلم. إبق في منصبك". وبهذا نما الكره بين الإثنين.

ومثلما توقع (أبو نوار) بقي الحسين أياماً ثلاثة يحاول تأليف حكومة جديدة. كلف بالأول الدكتور حسين الخالدي الفلسطيني، إلا أنه تخلى عن المحاولة لأن القوميين الإشتراكيين وغيرهم من قوى اليسار المساند للنابلسي أصدروا بياناً عارضوا فيه تأليف حكومة برئاسته، كما تحدث البيان إستطراداً عن "الإعتزام على إقامة إتحاد فدرالي مع مصر وسورية".

توجه الملك الى "عبدالرحيم النمر" زعيم الجناح المعتدل من القوميين الإشتراكيين وكان وزيراً للدفاع في حكومة النابلسي، فأصر هذا على إدخال عناصر متطرفة في وزارته. وتبع ذلك في يوم ١٢ منه، مظاهرات صاخبة هادرة بقيادة عناصر بعثية - ناصرية - يسارية - قومية - إشتراكية.

في اليوم التالي إستدعى الحسين السياسي العتيق (محمد سعيد المفتي) وهو صديق لجده ومن أصل چركسي، وكلفه بتأليف الوزارة. فلم يعد للمؤتمرين من مخرج دون الإفصاح عن هوياتهم والعمل السريع، وتكفل (أبو نوار) بالمهمة إذ أرسل، وهو في مقر قيادته خارج العاصمة بطلب حضور المكلف بتأليف الوزارة فإمتثل الرجل. وهناك طلب منه أن يحمل الى الملك الرسالة الشفوية التالية:

"إن لم تسند مهمة تأليف الوزارة الى (عبدالرحيم النمر) خلال فترة لاتتعدى الساعة التاسعة من مساء اليوم، فإنه لن يكون قادراً على الحيلولة بين الجيش

وبين إتخاذ إجراء خطير." (١٤)

وأكد أبو نوار إنذاره هذا لرئيس الديوان الملكي مضيفاً إليه عبارة "وعليك أن تعتبر هذا القول إنذاراً نهائياً".

فعاد الملك يطلب (النمر) ويكلفه ثمانية، وهو خال النابلسي، ولكن محاولة الانقلاب بدت عملاً أثناء المقابلة. كانت العناصر الثورية واثقة جداً بأن الملك سيرضخ لشروط (النمر)، حتى أنه وفي الساعة التاسعة مساءً بالضبط وهو موعد تلاوة نشرة الأخبار من راديو دمشق، أعلن المذيع نبأ تشكيل الوزارة برئاسة النمر وذكر أسماء الوزراء كل الى جانب الوزارة التي أسندت اليه (١٥).

في تلك الساعة، لم يكن هناك حتى تكليف رسمي. لذلك بدت إذاعة أسماء الوزراء من راديو دمشق بمثابة أمر للملك بتعيين هؤلاء.

لم يكن الملك وحيداً في هذا الجو المكهرب الخانق - فقد ساندته الجهات السياسية المحافظة والمعتدلة ولم تكن تفتقر الى الجرأة، وصمدت الى جانبه في عباب هذه البلبللة والتوتر العظيم. ولم تلق صدقاً في النفوس تلك الحكايات والقصص العجيبة التي كان ينشرها راديو القاهرة ودمشق وصحافتها لتروجها العناصر البعثية والناصرية والإشتراكيون القوميون والفلسطينيون، عن مؤامرات إمبريالية تحاك في الخفاء ضد إستقلال الأردن. ووزعت الأحزاب أسلحة على أعضائها وأعد الطلاب والفلسطينيون العدة للمسيرات والتظاهر، إلا أن الإخوان المسلمين وقفوا هذه المرة الى جانب الملك، فقد تغلبت نعمتهم من عبدالناصر على كراهيتهم الملك. ورجح خوفهم من سيطرة اليسار على كل نفرة لهم من النظام الملكي. أسرع زعمائهم لمساندة الحسين وأعلموه بتفاصيل المؤامرة التي يضطلع بها أربعة عشر ضابطاً بقيادة (أبو

(١٤) ريجارد سانجر: حيث يجري الأردن. واشنطن ١٩٦٣- الص ٢٨٠-٢٨١، Richard Sanger: Where The Jordan Flow [إلا أن رواية الملك (المرجع السالف ص ١٦٨) لإنذار (أبو نوار) الذي حملته للمفتي لايرد فيها إسم النمر ولا التهديد بالتدخل العسكري. وهي هكذا "إن لم تشكل حكومة رضي عنها الشعب وكل الأحزاب خلال مدة لا تتجاوز التاسعة من هذه الليلة فلن نكون أنا وزملائي مسؤولين عن أي شيء يقع".

(١٥) يقول سانجر (المرجع السالف ص ٢٨٢) أن النمر كان أكثر من قبل تصلباً فأنهى الملك المقابلة. أما الحسين (المرجع السالف ص ١٦٩) فيذكر أن النمر كان أقل تصلباً وقد أقر هو نفسه بأن "أصدقاؤه" هم المتعصبون. ثم إفترقنا على موعد لقاء ومحادثات تالية. لكن مجلة ميدل إيست جورنال: السنة التاسعة، العدد ٣، Middle East Journal تنوه بتأليف النمر حكومة، وتقدم قائمة بأسماء وزرائه. ثم تقول أن الملك عمد الى إقالتها في يوم ١٤ نيسان بعد فشل الانقلاب ولم تسن لها مباشرة أعمالها.

نوار)، وكان الملك قد إتصل سراً بالوحدات البدوية الموالية له بضباطها وجنودها الأشداء وأنبأهم بالمحاولة الانقلابية. وكان أبو نوار يخشى تلك الوحدات، لكنه توهم بأن إسناد قيادتهم الى عمه المقدم (معن أبو نوار) كفيل بتحبيدهم.

تألقت خطة الانقلابيين من صفحتين: أولاً؛ إرسال كتيبة السيارات المدرعة الأولى بقيادة (نذير رشيد) صديق (أبو نوار) وشريكه من معسكر الزرقا (يبعد بمسافة ٢٨ كم شمال عمان) لمحاصرة العاصمة وإحتلال القصر الملكي وإلقاء القبض على الملك إن دعت الحاجة. والصفحة الثانية إزاحة الأفواج البدوية وإخراجها من الصورة بإرسالها في تمرين مسيرة الى (الأزرق) في الصحراء، كما هي علم خاص للأردن بدل العلم المقرر ليرفع عند إعلان الجمهورية (١٦).

لم يكن مجموع اللواء البدوي (١٧) بتلك السذاجة ليغفل عن معنى الأوامر الشاذة الغربية بخصوص إجراء تمرين ليلي بمسيرة الى الأزرق دون أسلحة أو عتاد وفي شهر رمضان والكل صائم طوال يومه. هذه محاولة إنقلابية لاشك فيها، وستتم الليلة وهم بعيدون. وعرف الملك عن طريق المقدم (عاكف الفايز) ابن شيخ قبيلة بني صقر المبرز، بحركة الكتيبة المدرعة الأولى نحو عمان. وفي الوقت الذي أستدعي (أبو نوار) للإستبضاح منه حول ما يجري، كان القتال قد نشب في معسكر الزرقا بعد أن رفض اللواء البدوي التجمع في ساحة العرض والتهيبؤ للتمرين، بل إقتحم أفراده وضباطه مستودعات الذخيرة الحية وزودوا أنفسهم بالعتاد، وفقدت القيادة السيطرة عليه. وإنطلق قسم منهم الى عمان إثر سماعهم شائعة إغتيال الملك. فحرك المتآمرون وحدات المدفعية بمواجهتهم، وصوبوا مدافعهم نحو الوحدات الموالية، ولم يكتفوا عنهم نيتهم في تحقيق إنقلاب وبأنهم أعلنوا عصياناً على الملك. ونشب قتال كانت حصيلته ثلاثون قتيلاً وجريحاً من الضباط والجنود (١٨).

وفي القصر، لم يمكث أبو نوار طويلاً، وأخذ الملك الى المعسكر. وكان الوقت التاسعة ليلاً. وعندما بلغا جسر الرصيفة الممتد فوق مجرى (جبوك) إلتقى الملك بالوحدة العسكرية الموالية

(١٦) عثر في درج (أبو نوار) على نموذجين منه عند إقتحام مكتبه، والقماش هو من صنع مصر. كان واثقاً من نجاح إنقلابه بحيث أنه لم يحاول إتلافهما.

(١٧) هو عين اللواء الذي أستخدم قبل ١٦ عاماً لسحق حركة مايس العراقية.

(١٨) إختلفت المصادر في عدد القتلى. فسانجر (المرجع السالف ص ٢٨٤) يثبت ما جاء في المتن. وكلوب (المرجع السالف ص ٤٣٦) يثبت قتيلين و٢٥ جريحاً. أما مجلة ميدل إيست جورنال (المرجع السالف) فتذكر مقتل ثلاثة ضباط من جماعة (أبو نوار) وعشرة جرحى ومثلهم من الأسرى.

القاصدة العاصمة، وما إن تبين أفرادها الملك حتى إنطلقت من حناجرهم هتافات بحياته. ولما شاهدوا (أبو نوار) معه صاحوا "فليسقط الخائن" فأسرع أبو نوار يتشبث بـ(جاكيتة) الملك جرياً على العادة البدوية عند طلب الدخالة. وراح يتشقق ويطلب الحماية بعد أن توجهوا اليه بنية قتله.

طلب (أبو نوار) أن يُبعث به الى عمّان. فأرسله الملك الى القصر، وواصل رحلته الى المعسكر حيث كان يسمع هزيم المدافع ودوي الرصاص من بعيد. وما إن بلغ ميدان المعركة حتى توقفت النار، فإعتلى مدرعة وراح يخطب في الجنود ليقاطع بالهتاف بحياته مع زغردة وتصفيق وحماسة. وأمر قبل رجوعه بإعتقال الضباط الأربعة عشر رؤوس الانقلاب.

في القصر الملكي، كرر (أبو نوار) طلب الدخالة والرحمة وحفظ حياته. والظاهر أن الحسين لم يكن يريد أن يجعل من رأس الانقلاب بطلاً أو شهيداً قومياً، كعادة القوميين في معاملة ذكرى الضحايا من زعمائهم الفاشلين، وشملت رحمة الملك الشاب فلم يمسه بسوء، بل أمره بمغادرة البلاد فوراً، فشحخص الى دمشق ومنها الى القاهرة، وواصل تأمره على إستقلال الأردن وعلى الذي رأف به. وليس هذا بمستغرب، فقد فطن الى هذا الواقع قبل تسعة عشر قرناً مؤرخ روماني شهير إذ أتى الى وصف حدث خيانيّ شبيه بحدث (أبو نوار) فقال معلقاً:

"أرى البشر أكثر ميلاً الى تسديد دين الإهانة أو الضرر، من تسديد ثمن العطف والفضل. والحقيقة هي أن الإعتراف بالفضل وبالمنة مسألة يتضايق منها الإنسان، في حين أن الإنتقام هو ربح بين مضمون." (١٩)

(١٩) المؤرخ الذي أقبسنا منه هو تاكيتوس Cornelius Tacitus (في حدود ١٢٠-٥٢م) صاحب كتاب "التواريخ". نقول: عين الملك بمنصب (أبو نوار) اللواء علي الحيارى، وكان ضالماً هو الآخر في المؤامرة إذ ما لبث أن غادر البلاد ملتحقاً برفاقه المتأمرين الآخرين والساسة الهارين. وقد منح الكل حق اللجوء السياسي في دمشق والقاهرة. وعزا الحيارى سبب هروبه الى عدم رغبته في القيام بعملية تطهير في صفوف ضباط الجيش. وأخرجه السراج في تمثيلية من راديو دمشق زعم فيها أنه لم تكن هناك أية مؤامرة إنقلابية وأن الملك إختلق كل هذا بغرض فرض إرادته في تأليف الحكومة التي يريد بها. (ميدل إيست جورنال: المرجع نفسه). وكذلك زعم (أبو نوار) نفسه في مذكراته (المرجع السالف).

من المفيد هنا أن ننوه بمحاولة إنقلابية عسكرية سبقت المحاولة الكبيرة بخمسة أيام مستخدماً فيها (أبو نوار) عين الكتيبة التي إستخدمها في ١٣ نيسان، فقد أصدر أمراً لها بالزحف على عمّان وإحتلال كل مفارق الطرق والنقاط الحساسة حول العاصمة والإحاطة بالقصر الملكي وقصر والدة الملك (زين). عندما إستفسر الملك من رئيس الحكومة ووزير الدفاع عن الغرض من هذه الحركة، إدعيا بالجهل. فبعث الملك يستقدم (أبو نوار) الذي أسرع يشرح له الأمر بأن الحركة هي مجرد تمرين عسكري، فأمره الملك بسحب الكتيبة فوراً فأطاع (أبو نوار) وإنسحبت الكتيبة. إن أولئك الذين رأوا في هذه محاولة إنقلابية (أو مجرد تمرين مسبق للمحاولة الثانية) زعموا أن أمر الكتيبة كان يحمل كتاب تنازل الملك في جيبه وأنه زود =

في الأيام التي تلت المحاولة الفاشلة والإجراءات الحاسمة. إنطلق الحسين في جولة شملت المعسكرات والمقرات ليسع يمين الولاة يؤديه له الضباط والجنود علناً وليستمعوا هم الى خطبته الحماسية بصوته الجهوري مستحضراً فيها روح جده الأكبر وسميّه (الحسين بن علي) مفجر الثورة العربية الكبرى، تلك الثورة التي كان فيها "البعث" الحقيقي لا الزائف "للعزة والكرامة" العربيتين الأصيلتين. كان يشدد في تلك الخطب على هذين المصطلحين بنوع خاص. ولا يحتاج القاريء الى تفسير هذا منا. كما كان يهتبل كل فرصة ليشرح طبيعة المؤامرة وأهدافها ليكون "الشعب العربي الأردني، على بصيرة من الأمر" على حدّ قوله.

تعلم الملك من الحدث بسرعة. تعلم من عبدالناصر وغيره فائدة الخطب الطنانة الرنانة الحماسية التي تخاطب العاطفة قبل العقل. وأفاد دروس اللغة العربية التي كان جده يصر عليها، فحفظ كثيراً من الكلمات والأوصاف الفخمة ليستخدمها بمناسبة أو غير مناسبة. في تلك الخطب المسهبة التي يمكن إختصارها بثلاث عبارات أو نحوها، وإن إمتدت ساعة، وإن كان يتفوق على خصمه بامتلاكه ناصية اللغة الى حد ما وعدم لجوئه الى العامية. إلا أن الأول بقي يتفوق عليه بجماهيره الغفيرة المعبأة بدقة وعناية وإعلامه السليط اللسان الى حد البذاءة والإسفاف الأدبي. وهو ما كانت تتوق الجماهير العروبية الى سماعه سيما اذا كانت مصحوبة بنكات (أي قفشات) مصرية أصيلة.

وإنقلب فجأة وصف "الملك التقدمي" و"الملك العربي الأصيل" و"الملك الحرص على إستقلال بلاده" في إذاعة صوت العرب الى أوصاف محقّرة معاكسة وأظهرها وليس أقلها شأناً الإشارة إليه فحسب بكلمتي "الحسين ابن زين". ثم وبعد أن تم التقارب بينه وبين الملك السعودي والعراق، أضافت إذاعة صوت العرب وراديو دمشق لقب "عضو نقابة الملوك" الى الألقاب الجديدة المخترعة للمناسبة، ومسح إسمه من سجل العروبة بعين السهولة التي أدخل فيها.

من الإجراءات التي إتخذها الحسين بعد فشل المحاولة، قيامه بتحشيدات عسكرية في (المفرق) بمواجهة القوات السورية. كما خف الملك (سعود آل عبدالعزيز) لنجدته بوضعه اللواء السعودي المربط في الكويت تحت قيادته المباشرة.

في ٢٦ آيار، إنسحبت القوات السورية المواجهة من مواقعها الى الخلف، وكانت قد أرسلت

= بتعليمات تقضي بحمل الملك على التوقيع وإن أدى ذلك الى إستخدام القوة. وقالوا أن فشل المحاولة يعزى الى جبن وتردد (أبو نوار) وخوفه من قيام باقي القطعات ضد حركته. إذ لم يكن لضباطها علم سابق بها. لكن آخرين فسّروا العملية بأنها لم تكن غير تمرين وتجربة للمؤامرة الحقيقية التي رسم لوقوعها تاريخ أمد خمسة أيام.

"إن إستقلال الأردن ووحدة أراضيه هما من صميم مصالح الولايات المتحدة الحيوية".

ثم صدرت الأوامر بتحريك الأسطول السادس الأمريكي شرق البحر المتوسط. وكان على الملك أن يعمل بسرعة خشية أن تنقلب المظاهرات الى إشتباكات مسلحة. إذ كان المتظاهرون يملكون من الأسلحة ما يكفي، فجمع شيوخ العشائر العرب الذين أعلنوا تضامنهم وإستعدادهم غير المحدود لأي معونة. وأستدعي السياسي المخضرم (إبراهيم هاشم) لتأليف الوزارة الجديدة. وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة عشرة صباحاً أعلنت الحكومة أمر منع التجول، وراحت دوريات دبابات القوات البدوية تجوب شوارع العاصمة. وفي صبيحة يوم ٢٥ أعلنت حالة الطوارئ والأحكام العسكرية، وأصدرت الحكومة قراراً بحل الأحزاب ووضعت الشرطة وقوات الأمن تحت إمرة الجيش. وعيّن (سليمان طوقان) وزير الدفاع حاكماً عسكرياً. وشرعت السلطة بحملة إعتقالات واسعة شملت زعماء الناصرية، وقادة البعث والحزب الشيوعي والقوميين الإشتراكيين. ووجد المتظاهرون الذين تجاهلوا قرار منع التجول أنفسهم بمواجهة حراب القوات العسكرية المركبة على بندقياتها، فأجبروا على التراجع والفرق. وذكروا أن الجنود البدو ظلوا أوجههم بالسخام كي لا يمكن التعرف عليهم إن اضطروا الى فتح النار على المتظاهرين.

تم قمع الحركة وإنتصر الملك.

كانت دليلاً آخر على أن الجيش سيبقى العامل الحاسم في نجاح الإنقلابات العسكرية في البلاد الناطقة بالعربية، بصرف النظر عن الرداء الذي يسبغه الإنقلاب العسكري على نفسه. وفي معركة القومية العربية الحديثة، أي العروبة التي تهدف الى الوحدة الشاملة يتوقف النجاح على رجوح كفة الميزان التي يتجمع فيها الضباط القوميون، على كفة الميزان التي يقف فوقها معارضوهم.

وفي هذه الإنقلابات التي يتحد فيها طموح الضباط السياسيين الشخصي الى السلطة مع التآمر الخارجي على مصير البلاد. كان من الضروري للإتقاليين دوماً أن يتخذوا لهذا الإتحاد الكريه غطاءً وحجة من إستبداد النظام القائم وفساده وبعده عن الشعب وفقدان الحريات الديمقراطية وتردي الأوضاع الإقتصادية. وتلك هي الشكوى الحقيقية والواقع الأليم الذي يضيع ويداس تحت أقدام المتظاهرين وسرفات الدبابات التي تحت السير للقضاء على قلاع الإستبداد والإستغلال الفردي.

لم يكن القضاء على آثار المحاولة الإنقلابية سهلاً. فالقوى الشعبية التي كانت تقف وراء العمل العسكري لم تصب يوهن، والملك والموالون للعرش يدركون خطرها. وقد بدا ذلك بمظاهر شتى، منها ضم (النابلسي) الى الوزارة الجديدة التي ألقها (توفيق الخالدي) بإسناد منصب وزارة الخارجية اليه.

وأمسك بزعماء المعارضة المتطرفون خوف شديد من التحقيق القضائي الذي شرع فيه حول المؤامرة قد يكون من نتائجه تصفية أنصارهم في الجيش. فبادرت الفئات المناوئة الى عقد إجتماع سمّوه "المؤتمر الوطني"، عقدوه في نابلس وحضره مندوبون عن الأحزاب المعارضة كافة. وفي ٢٢ من نيسان قدموا للملك والحكومة مطالب المؤتمر التي توصل إليها (٢١) بعد المداولة وطلبوا من الملك أن يحققها. فألقاها في سلة المهملات كما كان متوقعاً، في حين دعا المؤتمر الى إضراب عام ومظاهرات دعماً للمطالب وترويعاً للملك.

عند بدء الإضراب، وضع الملك قواته في أقصى حالات الإنذار ووزع قوات البدو في نقاط حساسة من العاصمة، في حين تجمع المتظاهرون أمام بناية رئاسة الحكومة وتوالى الخطباء يدافعون عن تلك المطالب ووجوب تحقيقها ويرفعون شعارات مثيرة ومناوئة للنظام. ومما قريء من تلك الشعارات:

"إرفعوا أيديكم المجرمة عن الضباط القوميين"

"أعيدوا الضباط المبعدين والمحالين للتقاعد الى الجيش"

في اليوم التالي، الخامس والعشرين من نيسان، قدّم (الخالدي) إستقالته. وعلى اثر ذلك صدر من البيت الأبيض التصريح الإنذاري التالي:

(٢٠) قدرت بخمسة آلاف ضابط وجندي وكانت طول وجودها على إتصال بالقوى المناوئة وقد شاركت عملاً في كل الفعاليات السياسية.

(٢١) رفض الملك هذه المطالب جملة وتفصيلاً. ولا عجب فالمرء يحار حقاً، ومعه كاتب هذه السطور، في أي صفة جديدة بها. أَيْغَلْب الصفاقة على الحماقة لنعته، وللقاريء أن يختار الوصف اللائق بعد عرض تلك المطالب التي تضمنت: طرد السفير الأمريكي (لسن مالوري) وملحقه العسكري، ورفض مبدأ أيزنهاور وكل المشاريع الإمبريالية الأخرى، وإقامة إتحاد فدرالي مع سورية، وإعادة الضباط المحالين الى التقاعد، وإطلاق سراح المعتقلين بتهمة محاولة الإنقلاب والسماح بعودة المبعدين منهم بسبب ما نعتته ب(الأزمة) وتطهير الجهاز الحكومي من عملاء الإمبريالية. وضعت هذه المطالب فوق مكتب رئيس الحكومة الجديد فحملها الى الملك.

فبأي ميزان يحكم المؤرخ على هذه الانقلابات؟

كل إنقلاب نجح في وضع الضباط السياسيين محل النظام القديم، برهن في الزمن القصير أو الطويل الذي أتت له - بأنه أشد وطأة على الحريات الديمقراطية وأقل إحتفاءً بها بمقدار كبير، بشكوى الجمهور وبتحقيق مطالبه في الأمن والحرية والرخاء من النظام الذي أزاحه. كم كان الحق بجانب الإعلام المصري-السوري عندما وصف فشل إنقلاب أبي نوار - بإنتصار الرجعية على حركة تقدمية؟

\*\*\*

في الثامن والعشرين من نيسان، كان الحسين يجتمع في الرياض بالملك سعود ليرسم خط التعامل السياسي، وليعيد النظر في علاقاتهما بالنظامين التقدميين السوري والمصري. وعاد وهو يحمل من الملك السعودي الحصة المصرية والسورية من المنحة التي قررتاها ولم تدفعاها للجيش الأردني وفي الثاني من حزيران ١٩٥٧، قام بزيارة رسمية للعراق على رأس وفد كبير ضم رئيس الوزراء ووزير الخارجية (سمير الرفاعي) و(أنستاس حنانبا) وزير المالية وصدر بيان من ستة بنود بعد يومين فقط. جاء فيه تأكيد على إستقلال دولتيهما وصيانتهما وصيانة إستقلال سائر البلاد العربية، والعزم على مقاومة الحركات الهدامة، ودرء كل خطر يهدد كيانها، وشجب "تدخل أية دولة عربية في شؤون أية دولة عربية أخرى".

بهذا تم شطب الحلف السوري - المصري - السعودي، ليحل محله حلف سعودي - عراقي - أردني. ولم يمض على الأول منهما أكثر من سنة واحدة وبضعة أشهر. نعته الحسين بـ"ميثاق ميت لايساوي الورقة التي كتب عليها". وكان قد وصفه وقت توقيعه بـ"ذلك الإتفاق الذي سيفتح آفاقاً واسعة لتقدم الأمة العربية وإعلاء شأنها".

في السابع من آيار أبي الملك المصادقة على ذلك القرار الذي إتخذته وزارة النابلسي بإنشاء علاقات دبلوماسية مع الإتحاد السوفياتي. وضربت قوات الأمن والشرطة نطاقاً محكماً حول السفارتين المصرية والسورية في عمّان، وقيدت حركات دبلوماسييهما، وأخضع مرتادوهما الأردنيون الى تحقيق عنيف. فتم عزلهما عزلاً تاماً بعد أن كانتا قبل أيام أشبه بخليتي نحل لاتنقطع الأقدام عنهما ليلاً أو نهاراً.

في نهاية تموز، تعرض الملك الى أشنع حملة إعلامية، عند بدء محاكمات الضالعين في المؤامرة، من راديو سورية ومصر وصحفهما. بقي زهاء أسبوعين هدفاً لشتائم وسباب مخجل تعافه لغة الشوارع تناول الأعراض والشرف العائلي، ومن بين التهم وليست أقلها شأناً تلك

التهمة الخالدة التي تعودّ زعماء العربوة وحكامها أن يقذفوا واحدهم بها بوجه الآخر: تهمة التعاون مع إسرائيل والقيام بمفاوضات سرية تهدف الى تصفية القضية الفلسطينية. ودعت وسائل الإعلام أبطال العربوة الى إلحاق الملك بجده عبدالله، وإسقاط نظامه الذي وضعه في خدمة المصالح الأجنبية، والجهاد في سبيل إعادة الأردن الى الصف العربي.

ولم يسكت راديو عمّان وصحفها عن أولئك "الذين باعوا أنفسهم للشيوعية، وراحوا يستغلون القومية العربية لتحويل الرأي العام المصري والسوري عن واقعهما المترددي في بلادهما، ولقبت عبدالناصر بـ"دون كيخوتي" الذي يطاعن الطواحين والهواء بسيف من الخشب فلا يفعل أكثر من إلحاق الأذى بنفسه". وراحت صحف عمّان تنشر أنباء الفضائح المالية والرشاوى والعمولات التي كان أعضاء حكومة النابلسي يتلقونها من النظامين المصري والسوري، ومن صفقات تجارية مشبوهة كانوا يروجون لها ويسندونها بنفوذهم ليتقاضوا عمولات عنها<sup>(٢٢)</sup>.

وإنقلبت إذاعة صوت العرب على الملك الذي سمّته قبل أسابيع معدودات بالملك الوطني التقدمي الذي أبي أن يحني رأسه للإمبريالية، وبذلك القومي الذي تعقد عليه القومية العربية أملاً عراضاً في السير بها نحو الوحدة. فاذا به اليوم "الحسين ابن زين" تعريضاً بوالدته، وتأكيداً للإشاعة التي أخرجتها مطابخ القاهرة حول فضيلتها وعلاقتها الزوجية بقرينها "طلال" والد الحسين المحجور عليه في أحد المصححات بسبب مرضه العقلي<sup>(٢٣)</sup>.

في ٢٧ من تموز بدأت المحكمة العسكرية بمحاكمة القائمين بمحاولة الإنقلاب، وأصدرت بعد شهر واحد أحكامها على المدانين، فحكمت على أبو نوار والحيارى وإثنين آخرين بالسجن مدة ١٥ عاماً، وعلى إثني عشر بالسجن عشر سنوات<sup>(٢٤)</sup>.

كانت مؤامرة نيسان الفاشلة ضربة أليمة لعبدالناصر، ها هم حلفاؤه ومناصروه كلهم إما في السجن أو في المنفى. والسعودية تخلّت عنه، بل راحت تناصبه العدوان وتعدّه خطراً على

(٢٢) نشرت صحف سورية (منها صوت العرب الدمشقية) وصحف الأردن في عين الوقت (١٨ آيار) فضيحة تتعلق بصفقة سكر مربحة جداً فاز بها تاجر بعثي بمسعى من عبدالله الريماوي الذي تلقى منه ثمن أتعابه مبلغ ٢١ ألف دينار أردني (تعادل ٦٠ ألف دولار). (كان الريماوي وقتذاك قد إنشق على القيادة القومية التي يمثلها محور علق-البيطار-الحوارني، وهو السر في إجتماع الإعلاميين الخصمين عليه).

(٢٣) من المعلوم أن نسبة الإبن لأمه دون أبيه هي نسبة غير مشرفة في قاموس العرف والتقاليد العربية، وتعني مما تعني الإشتباه في صحة نسب الإبن الى والده.

(٢٤) لم يقض المحكومون إلا مدداً قصيرة في السجن فقد أصدر الملك بعد بضعة أشهر عفواً عنهم وأطلق سراحهم.



كيانها الى الحد الذي حاول حكامها شراء السراج لإغتياله. وزادت مخاوفه عندما ألقت الولايات المتحدة بثقلها على الأردن لتغرقه بالمساعدات المالية والعسكرية، وزادت مخاوفه في أن يغدو معزولاً<sup>(٢٥)</sup>، فضاغف من نشاطه في لبنان ليكون فيه التعويض عن ضياع الأردن. إلا أن تأمره على الحسين ونظامه إستمر دون إنقطاع. وكانت صحف عمّان تطالع قراءها خلال الأشهر الطويلة من صيف ذلك العام، بأنباء إحياط هذه المؤامرة وتلك. وفي هذا يذكر الملك:

"بلغ من إحكام وتنوع المؤامرات التي نسجت لشخصي، بحيث صرت أشعر أحياناً وكأنني الشخصية المركزية التي تدور حولها رواية بوليسية... ولم تعد تلك المؤامرات تقلقني لأنني كنت أكتشفها في الوقت المناسب." (٢٦)

ولم تخلف الصولات الإعلامية القاهرية على شرف الحسين وعلى نظامه أثراً في نفوس الأردنيين؛ مما يفضل القرف والإستنكار بسبب اللغة السوقية والأكاذيب غير الناضجة. وثاب بعض المفتونين بعبدالناصر الى رشدهم. وإنقلب تشييعهم له الى تنصل وجفوة بسبب المناورات المخادعة والتزوير المتعمد في الوقائع. ومن حياتهم اليومية أدركو أن الأخبار التي تذيعها (صوت العرب) عن إشتباكات دموية وإضطرابات عنيفة في الأردن لا ظل لها من الحقيقة.

إلا أن عاهل الأردن وجد نفسه على مفترق طريق بعد إعلان الوحدة وقيام الجمهورية العربية المتحدة (ج.ع.م) في ١٩٥٨؛ لم يتردد كما كان شأنه قبلاً فإستدار نحو الشرق ليقبل عرض

(٢٥) نقل (روبرت مورفي) مبعوث أيزنهاور للشرق الأوسط أثناء الأزمة اللبنانية قول عبدالناصر له بأنه "لم يكن يعتقد بأن تقوم للأردن قائمة كدولة مستقلة ولم يكن يعتقد مطلقاً بأن الملك حسين قادر فعلاً على الإعتماد على ولاء جنوده" (المرجع السالف: دبلوماسي بين محاربيين. نيويورك ١٩٤٦- ص ٤١١)

(٢٦) المرجع السالف- ص ٢١٢ لم يكن الملك هنا يعدو الحقيقة وإن كان كعادته يبالغ ويضخم في الأمور. إلا أن الفضل في الكشف عن تلك المؤامرات كان يعود بالدرجة الأولى الى إستخباراته وحاشيته المقربين والى حرسه الملكي المؤلف من الجركس والكوارد. ومن تلك المؤامرات مؤامرة التاسع من حزيران التي أدت الى طرد المحقق العسكري في السفارة المصرية، العقيد أحمد فؤاد هلال، الذي دفع مبلغاً لرجل من العامة للفتك بالملك، فضلاً عن دسياسة أخرى أتهم بها محمد عبدالعزيز، فنصل مصر العام في القدس الشرقية، الذي قام بتهرب كميات كبيرة من الأسلحة عبر (غزة) وسلح بها عصابات فلسطينية للإنقضاض على الملك وقتله أثناء تأديته فريضة صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، فسبق تسعة عشر شخصاً الى المحاكمة بتهمة الإعداد لها. وطلبت الحكومة الأردنية سحب القنصل. كما جرت محاكمة سبعة عشر آخرين، إثر ضبط رسالة موجهة من الممثل المصري في القيادة العربية المشتركة بعمّان الى العقيد (يسري قنصوه) في قيادة الجيش المصري العامة بالقاهرة حول خطط معينة يجري إعدادها للقضاء على النظام الملكي. وإعترف هؤلاء جميعاً بأنهم أرسلوا من سورية لتنظيم عملية تهريب السلاح ونسف الجسور والطرق ثم الهجوم على القصر الملكي وقتل الملك وأسرته.

نوري السعيد في وحدة كونفدرالية مع العراق بإسم "الإتحاد العربي الهاشمي"<sup>(٢٧)</sup>. لم يحاول مهندسوه مثلما غطى الآخرون زيفه، وواقع فرضه بإرادة ملء قبضة يد من الحكام على عشرات الملايين بإجراء إستفتاء عام لاحق.

لم ير السعيد وصحبه ضرورة لمثل هذه العملية في العراق والأردن. وكانوا أصدق مع أنفسهم بإجتناّب تزويرها عن طريق طرحها على الرأي العام للحصول على ٩٩٪ من الأصوات قبلاً.

وهبني قلت هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء؟

كان الجميع يعلم أن غرض هذا الإتحاد إنقاذ الأردن من العروبة الناصرية وقيام جبهة عروبية موالية للغرب ازاء جبهة عروبية موالية للشرق. وهذا جزء من "الحرب الباردة" المستعرة بين المعسكرين. وقد بلغت ذروتها آنذاك.

\*\*\*

في نيسان ١٩٥٨ كان الأسطول السادس الأمريكي قد دنا كثيراً من ساحل البحر المتوسط الشرقي تلبية لنداء الأردن العاجل كما أسلفت. وفي منتصف شهر حزيران طلب الرئيس اللبناني رسمياً من البيت الأبيض تدخل الجيش الأمريكي -لكن الولايات المتحدة - تلكأت ولم تتحرك إلا في الرابع عشر من تموز.

في الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم أنزلت السفن الحربية مشاة البحرية برّ لبنان، أي

(٢٧) تم خلاله دمج وزارتي الدفاع والخارجية لكلا البلدين كل في وزارة واحدة في حكومة إتحادية كان يرئسها نوري السعيد. في حين قضى دستور الإتحاد الذي تم إشتراعه أن تكون رئاسة الدولة الكونفدرالية متناوبة بين الملكين وأعطيت الفترة الأولى لفيصل الثاني. وجدير بالإنتباه هنا، رد الفعل الناصري الذي يتجلى في برقية التهنة المرسلة الى رئيس الإتحاد الجديد وفي تقديم "نوري السعيد" هذا الإتحاد للرأي العام بإعتباره الصدى البعيد للثورة العربية الكبرى في الحجاز: "في هذا اليوم لايسعني إلا أن أتوجه بتحية عاطرة لذكرى المنقذ الأعظم والبطل الشهيد جلاله المغفور له الملك حسين الذي رسم لنا طريق الوحدة وألهمنا الكفاح للوحدة... واذا ما مجدنا صرخة المنقذ الأعظم فإننا نذكر كذلك أنجاله الغر الميامين الذين حملوا السلاح تحت رايته وواصلوا السير في الطريق التي رسمها لهم لتحقيق الحرية والإستقلال والوحدة الشاملة للأمة العربية في مختلف أقطارها وأصهارها..."

ونجد عين الزيف والمخادعة في برقية التهنة الناصرية، وهي طويلة: "إن الإتحاد العربي الذي وحد اليوم بين العراق وبين الأردن، هو خطوة مباركة تتطلع اليها الأمة العربية كلها بأمل كبير بإعتبارها إتجاهاً يستمد قوته من أعماق الضمير العربي... إن الأيام التي تعيشها الأمة العربية الآن أياماً (كذا) خالدة مجيدة... إن القومية العربية ستفخر وستعتز بالخطوة التي إتخذتموها في عمّان اليوم واثقة أنها تقرب منا يوم الوحدة العظمى... إني أبعث لجلالتكم تهاني متمنياً من صميم قلبي أن يوفقكم الله..." [أنظر النص الكامل لبيان السعيد والبرقية في (الحسني: المرجع السالف ج ١٠- الص ١٧٨ وما بعدها)].

بعد بضع ساعات من نجاح إنقلاب الجيش العراقي على النظام وتصفية الطبقة الحاكمة في هذا القطر.

وكما قيل أن ثورة الرابع عشر من تموز حسمت تردد الولايات المتحدة. فقد حار هذا السؤال على ألسن الساسة والمعلقين والمؤرخين:

ماذا لو أن الولايات المتحدة قررت إنزال قواتها قبل هذا التاريخ بيوم واحد؟

أما كان هذا اليوم سيمر في حياة العراق كغيره من أيام الصيف الفائضة؟

في يوم ١٢ تموز إتصل نوري السعيد بالسفير الأمريكي (والدمار غالمان)<sup>(٢٨)</sup> في بغداد، وسأله: أما ستفعل حكومته شيئاً لإنقاذ الموقف في لبنان؟

كان السفير على علم بالوقت، فلم يجد عنده غير جواب غامض غير مشجّع وإذ ذاك إتخذ هذا العجوز العنيد قراراً كان سيكلفه حياته وحياة النظام الذي تعب في إقامة صرحه. قرر سوق اللوائين التاسع عشر والعشرين لتعزيز القوات العراقية المرابطة على الحدود الأردنية، فخرج بهما المؤتمرون الى بغداد بدل ذلك وحققا الإنقلاب.

وغدا الإتحاد العربي الهاشمي أثراً بعد عين. وعاد الحسين وحيداً؛ هدفاً لتآمر عبدالناصر.

في الواقع إن محاولات عبدالناصر القضاء على الملك الأردني لم تفتقر أو تتوقف بقيام ذلك الإتحاد. فقبل الرابع عشر من تموز بإثني عشر يوماً فشلت محاولة جادة لإغتياله شارك فيها عدد من ضباط الجيش الأردني، وإستخدموا فيها ملازماً يدعى (أحمد يوسف الحيارة) من مرتبات اللواء المدرع الرابع. كان من المقرر أن يقدم هذا الضابط على كذبة المنصة التي يقف عليها الملك بعدد من القنابر اليدوية - أثناء إحتفال عام. لكن تم إلقاء القبض على الملائم فضلاً عن سبعة من الضباط المتآمرين بينهم العقيد (راضي عبدالله) وهو صديق مقرب للملك<sup>(٢٩)</sup>.

(٢٨) أيزنهاور: حرب السلام Waging Peace نيويورك ١٩٦٥- ص ٢٦٢، وكذلك الفصل الخاص بلبنان. أنظر أيضاً Waldman J. Gallman "ذكرياتي عن نوري السعيد" My Recollection of Nouri Al-Said ط بالتيمور- مطبعة جون هويكنز ١٩٦٤ ص ١٤٦ ومن المرجع عينه (ص ٢١٠) إن هذا السفير الذي بقي في العراق ردهاً من الزمن بعد الإنقلاب سأل عبدالكريم قاسم في مقابلة له معه (أنظر المرجع السالف ص ٢١٠) سؤالاً بهذا المال، فأجاب قاسم أن ثورة الرابع عشر من تموز ما كانت لتحصل في ذلك اليوم لو أن مشاة البحرية كانوا موجودين في لبنان. ويستتلي السفير المشار اليه مطلقاً أن الإنزال الأمريكي في لبنان لم يكن مبعثه الخوف على نظام شمعون، بل القلق على المصالح الأمريكية في البلاد العربية، خشية أن تمتد الثورات المعادية للأمريكان الى غير لبنان لتلفح ظهور دول النفط العربية.

(٢٩) مما ذكره الملك (المذكرات: ص ١٩٤) أن هذا الملائم أكد في إعتراقاته أن إنقلاباً وشيكاً سيقع في =

في صباح اليوم التالي هبط فوجان مظليّان بريطانيان الأراضي الأردنية، بحماية وغطاء خمسين طائرة أمريكية نفائة. وقد تم إتخاذ القرار في ال(وايت هول) إثر إجتماع عاجل للحكومة تم فيه دراسة وثائق الإستخبارات حول المؤامرة الأخيرة<sup>(٣٠)</sup>.

في اليوم ذاته رفع الأردن شكوى الى مجلس الأمن إتهم فيها (ج.ع.م) صراحة بتدبير المؤامرة الإنقلابية. وبادر الى قطع العلاقات الدبلوماسية معها.

وبقيت القوات البريطانية في الأردن كما بقيت القوات الأمريكية في لبنان تحمي هذين البلدين العربيين من غوائل حكم عروبي ثوري، لم تقوَ الجامعة العربية على الحد من نشاطه الثوري وجهاده القومي.

ولم تفتقر همة القاهرة ودمشق حتى آخر لحظة من لحظات حياة (ج.ع.م) في نسج الحبائل لإنتراع روح هذا الملك. وفي غضون السنوات الثلاث مثلت دراما جانبية ممتعة على صعيد العلاقات الدبلوماسية بين القطرين في ثمانية فصول تخللت تلك المؤامرات بين قطع العلاقات وإعادتها، حتى بدا وكأن السفراء المساكين لا عمل لهم إلا تقديم أوراق إعتمادهم وإنتظار صدور أمر الرحيل عن البلاد في أية لحظة.

في شهر آب ١٩٥٨ سيق الى القضاء الأردني ٢٧ متهماً سورياً تسللوا عبر الحدود بأسلحة ومتفجرات للقيام بعملية إنقلاب فحكم على ١٣ منهم بالموت وعلى الباقي بالسجن مدداً مختلفة.

وتلت هذه بعد يوم واحد محاكمة خمسة آخرين أتهموا بالقيام بأعمال إرهابية ترمي الى زعزعة النظام.

كان بين المتهمين فتاة تدعى (نادية الصليتي) أصبحت محاكمتها موضوعاً شائعاً لإعلام

= العراق في منتصف شهر تموز بتدبير من (ج.ع.م) كما سيقع إنقلاب مماثل في الأردن. يقول الملك أنه نقل هذا الإعتراف لرئيس أركان الجيش العراقي الذي حلّ عمّان بعد هذا الإعتراف، إلا أنه لم يأخذ هذا القول مأخذاً جدياً. ويتابع الملك قوله أن الضباط الأردنيين قرروا بعد وقوع الإنقلاب العراقي تأجيل عملتهم الى يوم ١٧ من تموز إلا أن السلطات الأردنية نجحت في إعتقالهم جميعاً ليلة ١٦ منه. [أنظر أيضاً أندرو توللي: سي. أي. أي. Andrew Tully: CIA ص ٨٢- واشنطن ١٩٦٦ (يدعي أن دائرته هي التي كشفت المؤامرة)]. نقول ليس في وسعنا التحقق من صحة ما ذكره الحسين، فالمعروف وكل الدلائل تدعم ذلك- أن خطة إنقلاب تموز كانت في غاية من السرية، وهي في الواقع فرصة من الفرص تم إقتناصها إذ لا أحد كان يدري بأن نوري السعيد سيقدم على سوق هذه القطعات الى الأردن.

(٣٠) في ٢٢ من تموز أعلن سلوين لويد وزير الخارجية البريطاني لمجلس العموم أن إحباط المؤامرة تم بالتدخل البريطاني.

(ج.ع.م). نالت أولاً لقب البطل القومية، ثم شُبهت بالمناضلة الجزائرية (جميلة بو حيرد) ثم صارت مادة لحملة شعواء على النظام الأردني. ولكن المحاكمة إستمرت وحكم على إثنين بالإعدام، كما نالت البطل القومية الجديدة حكماً بالسجن أمده سبع سنين وستة أشهر<sup>(٣١)</sup>.

وهذه عملية أخرى لم يسبق تدبيرها ونسج خيوطها، بل وقعت بمحض الصدفة في حوزة (ج.ع.م): في العاشر من تشرين الثاني ١٩٥٨، غادر الحسين بلاده الى أوروبا على متن طائرته الخاصة التي كان يقودها بنفسه. وقد أعلن عن ذلك مسبقاً. بدخوله الفضاء السوري طلب الجواز فأعطي لكن ما مرت دقائق حتى أبلغ بوجود هبوطه في دمشق. ولم يكن بحاجة لا هو ولا العقيد دالكليش المستخدم في القوة الجوية الأردنية، المرافق له، الى كثير من الجهد ليتبيننا المكيدة فعادة من حيث أتيا، وحين إقتربا من مطار عسكري سوري هاجمتها طائرتان نفاثتان من طرا (ميگ-١٧)، لكن دخولهما الفضاء الأردني كتب لهما النجاة<sup>(٣٢)</sup>. كانت هناك ضجة إعلامية وتبودلت التهم. وقال الإعلام القاهري-الدمشقي إنها حكاية إختراعها الملك للدعاية ولتشويه سمعة (ج.ع.م).

وفي آذار ١٩٥٩، إعتزم الحسين زيارة للولايات المتحد - وكان قبلها قد حصل على دلائل قوية تثبت أن الفريق (صادق الشرع) رئيس أركان الجيش كان قد دبر مع عدد من الضباط تنفيذ عملية إنقلابية أثناء غيابه<sup>(٣٣)</sup>. عندما أزم موعد الرحيل، قرر الحسين فجأة أن يكون رئيس الأركان هذا من جملة المرافقين له، فأسقط في يده وحاول التذرع بشتى المعاذير. وفي أثناء غياب الملك تم إلقاء القبض على الضباط المتآمرين، ولم يظهر الحسين أثناء الزيارة أي إشارة تدل على شكه في رئيس أركانه ورفض طلب إنفكاكه عن الوفد المرافق، فألقي القبض عليه عند عودته وحوكم<sup>(٣٤)</sup>.

ووضعت في دمشق خطة ثالثة لقتل الملك وعمه الشريف ناصر ورئيس حكومته صديقه (هزاع المجالي). تم إكتشافها إثر إلقاء القبض على الرسول الموكل إليه أمر التنسيق مع المتآمرين، فادلى بإعتراف نجم عنه إلقاء القبض على عدد من المتعاونين<sup>(٣٥)</sup> ووجه عبدالناصر

(٣١) خفضه الملك فيما بعد الى سنة واحدة.

(٣٢) المرجع السالف: الفصل ١٥، ص ٢١٩ وما بعدها.

(٣٣) كذا، ص ٢٤٣. تم تعقيب مراحلها والتعرف على الضالعين فيها بطريق إندساس ضابط موال بين صفوف المتآمرين، كان يزود السلطة بالمعلومات عن كل خطوة.

(٣٤) حكم على رئيس الأركان بالإعدام. وخُفض الى الحبس المؤبد.

(٣٥) إن المؤامرة التي تلتها في ٢٩ من آب ١٩٦٠، وكان هزاع المجالي ضحيتها خلفت آثاراً مريعة. وقد تم تدبيرها بوضع قنبلة موقوتة في درج مكتب رئيس الوزراء، وتم تفجيرها ففضت على رئيس الوزارة =

إهانة مقصودة للملك.

كان ذلك بمناسبة تعيين (ج.ع.م) قنصل عام جديد لها في القطاع الشرقي من أورشليم القدس. فلم يوجّه كتاب التعيين الى الملك، بل صُدّر بعنوان: "الى كل من يهمه الأمر". وحدد الكتاب صلاحية القنصل بهذه العبارة المهينة:

"كل المناطق الواقعة غرب نهر الأردن التي تحتلها القوات الأردنية."

وقطعت العلاقات الدبلوماسية، ثم جددت في آب ١٩٥٩ إثر فترة تخلّت فيها القاهرة عن إستعمال اللقب الجديد الذي إختارته إذاعة القاهرة للملك بتلقيبه بـ"عميل الإمبريالية الأنكلوأمركية".

وفي ٢٤ من حزيران ١٩٦٠ تعمّد عبدالناصر توجيه شتيمة للحسين أدت الى قطع العلاقات فقد راح في خطبة له بالإسكندرية يؤلّب فيها العرب على خصمه حاثاً على تصفيته وإلحاقه بجده:

"هناك مازال يوجد خونة في البلاد العربية... من أولئك الذين ورثوا ممالكهم عن آبائهم وأجدادهم... إن الواجب الأول للملقى على عاتق العرب هو التخلص من

= ونجم عنها تدمير نصف البناية، ومقتل إثني عشر شخصاً من المراجعين. كان المتآمرون يتوقعون أن يهرع الملك إثر وصول النبا اليه لتفقد البناية موقعياً، فوضعوا قنبلة موقوتة أخرى ليتم تفجيرها بعد ولوجه. وصح ما توقعوا فقد أسرع الملك الى الموقع. إلا أن اللواء حابس المجالي، وهو ابن عم لرئيس الوزراء القتيل أوقفه، وحال بينه وبين الدخول. وفعلاً انفجرت القنبلة الثانية. (المرجع السالف، ص ٢٥٣) لم يعد مجال للصبر بعد هذا إتهم الملك (ج.ع.م) علناً وبصراحة بتبوير تلك الجريمة. وفي خطبته أمام هيئة الأمم المتحدة في ٣ تشرين الأول تكلم بمرارة عن أفاعيل (ج.ع.م) "تحريضها على إسقاط حكومتنا وإغتيال زعمائنا مما يذاع دوماً في راديوها الحكومي...". ويغلب على ظني أنه كان متسرعاً كشأنه دوماً في محاولته شدّ عبدالناصر الى عجلة الشيوعية الدولية، بقوله في الخطاب [نصاً]:

I detect a significant parallel between tactics used against us and these used by communists the world over "إني أستخلص مطابقة بارزة بين الأساليب التي تتبع ضدنا وبين تلك التي يستخدمها الشيوعيون في شتى أرجاء العالم". إن كان ثم عضو في الأمم المتحدة يتفق معه في هذا، فيقينا أنه ليس الولايات المتحدة. ومن المعلوم جيداً أن الإغتيال وأعمال الإرهاب الفردية لم تكن قط من الأساليب التي يتبعها الإتحاد السوفياتي في محاولة إسقاط الحكومات وإقامة أخرى يسارية موالية للمعسكر الشيوعي خلال معارك الحرب الباردة.

وفي الأردن عقدت محاكمة للمتآمرين والفاعلين أمام محكمة عسكرية في كانون الأول ١٩٦٠ وفيها ذكر المدعي العام العسكري الرائد (محمد رسول كيلاني) أن مسؤولية المؤامرات ضد وحدة البلاد خلال السنوات الثلاث المنصرمة تقع على (جمال عبدالناصر) وعملائه في القاهرة ودمشق. وبنتيحة المحاكمة نال سبعة من أصل أحد عشر متهماً حكماً بالإعدام، نُفذ بأربعة منهم.

هؤلاء عملاء الإمبريالية أعداء القومية العربية والأمة العربية".

وكشفت محاولة أخرى لقتل الملك وأسرته داخل القصر. فيها من عناصر الإمتاع والإثارة الكثير مما تشاهده في المسلسلات البوليسية الفكاهية الجنائية التي تنتجها شركات الأفلام الأمريكية.

إستخدم وكلاء (ج.ع.م) مساعد طاه في البلاط لتنفيذ الجريمة وزود بكمية من السم لدسه في طعام الملك وأسرته. إلا أن الجاني لم يكن متأكداً من الكمية الكافية كما يبدو فعمد الى تجربة بعضه في القلط الملكية، لتحديد المقدار الكافي. ويبدو أن الجرعات التي أعطيت لم تقتلها بالسرعة المطلوبة كما أنه إرتكب غلظته التي فضحته - بترك القلط الملكية المسمومة سائبة تتجول برهة في أرجاء القصر لتسقط ميتة الواحدة بعد الأخرى (٣٦).

ومثلما إتخذت المؤامرات الناصرية على حياة الملك طابعها الروائي كذلك إتخذت علاقة المتآمر مع المتآمر عليه.

ففي العام ١٩٦١، بدا عبدالناصر يعيش فترة قلق شديد وخيبة فقد إستولت عليه الهموم والإرهاصات السورية وخابت آماله في قومي العراق وكاد يفقد الأمل فيهم. وفجأة وبدون إنذار سابق توقف الإعلام القومي من القاهرة ودمشق عن مهاجمة النظام الأردني وملكه، وإنقطع دابر التآمر بعد حادث القلط. بعد مرور فترة هدوء لم ينعم بها هذا العاهل خلال السنوات الأربع المنصرمة، خيّل له أن الوقت مؤات لمد يد الأخوة العربية لغريمه ربما إطاعة لتلك الحوافز العاطفية المفاجئة التي تميزت بها أعماله. أو ربما بتشجيع من الولايات المتحدة التي كانت في تلك الفترة تحرص على علاقاتها الطيبة مع (ج.ع.م). ففي ٢٣ من شباط ١٩٦١ وهو بداية الأسبوع الثاني من صيام رمضان، إنتهز الملك الفرصة فكتب رسالة الى عبدالناصر يناشده فيها نسيان الماضي وفتح صفحة جديدة للعمل لمصلحة الأمة العربية. وتلكاً عبدالناصر في الرد ثم وجه اليه جواباً بعد عشرين يوماً. كان رداً متحفظاً للغاية. فيه أبدى شكواه من التفرقة التي يعانيتها العرب، وأن هذه التفرقة ليست من البساطة بمكان. وهي تعكس التناقض في الموقف العربي... الخ...

(٣٦) المرجع السالف، ص ٢٥٣ وما بعدها. إعترف الجاني الذي سمم القلط بأن سفارة (ج.ع.م) هي التي جندته. كما ذكر الحسين محاولة مماثلة أخرى إستخدم فيها واحد من خدم القصر لملء زجاجة الدواء الذي يستخدمه الملك لأنفه عادة بسم قاتل، وقد تم إكتشاف ذلك في الوقت المناسب. لم يكن الحسين كما يبدو من الفريق المنتقم الذي يحفظ غلاً ولا ينسى إساءة. فقد أطلق سراح كل المحكومين في المؤامرات المتتالية، ولم يقض أي واحد منهم فترة طويلة في السجن.

وأعيد السفراء كل إلى مكانه، ولم ترفع الرقابة الأمنية عنهما في كل من القاهرة وعمّان، وظل مرتادوهما موضع تحقيق وملاحقة. ثم تغيرت الأمور فجأة في ٢٨ من أيلول ١٩٦١ عندما أسرع الحسين للإعتراف بالنظام السوري إثر الانفصال، وعصف الغضب بعبدالناصر وبادر الى قطع العلاقات معلناً:

"إني لم أكن في أي وقت مؤمناً برسائل المصالحة التي بعث بها" (٣٧). وإتهمه بأنه إستخدم أموال السعودية لتمويل مؤامرة الانفصال.

وعاد الهجوم الإعلامي على الحسين، إلا أنه لم يكن مركزاً كالسابق عليه. فقد توجه بصورة رئيسة الى مديري عملية الانفصال في سورية والى قاسم العراق الذي يادر فوراً بالإعتراف بالحكم الجديد، وزاده بقاء مع رئيس الدولة السورية الجديد مؤكداً وقوف العراق بحزم ضد أي إعتداء خارجي. ونال إمام اليمن "أحمد" نصيبه من الهجوم بسبب خصومته مع عبدالناصر التي إنتهت بحلّ الإتحاد الفدرالي الذي عرف بإتحاد الدول العربية.

وعاد راديو القاهرة يشن حملة شعواء أخرى عليه. لكنه كان في ذلك الوقت يشعر بأمان وراحة، فالعراق وسورية هما الآن في حكم الحليفين له في حرب العروبة التي يخوضها عبدالناصر ضد حاكمي هذين القطرين، وقد بدا هذا وحيداً منكسر الخاطر مهيب الجناح.

نجاح عبدالناصر في إدراء حملة السويس الثلاثية، حملت بذور خطر عظيم فقد وجد نفسه يلج باب مرحلة الشعبية الطاغية. فهو بطل العالم العربي لا تقتصر مهمته على قيادة مصر - بل قيادة ذلك العالم الأوسع أفقاً. الأمر الذي إنحدر به الى مشاكل ومشاريع عربية لا أول لها ولا آخر. فلم يعد له من سبيل للتفرغ الى شؤون مصر. وأما أهدافه في ذلك العالم الناطق بالعربية فقد إتجهت إتجهاً شبه منهجي الى التأثير على مجرى الأحداث فيه. يثبت ويدعم الحكام الذين يسيرون في سبيل سياسته. ويعمل على تقويض نظم الحكام الذين يخالفونه ومحاولة تصفيتهم جسدياً. وعذره في هذا هو أنه يريد أن يمحو آثار الإمبريالية والكولونيالية من أجل إقامة الوحدة العربية، والكفاح ضد إسرائيل. كل هدف من هذه الأهداف الثلاثة جره الى أمور وسياسات ربما لم يكن يجرؤ على التفكير فيها، ولنقل في العام ١٩٥٤ - التآمر على الأنظمة لغرض إزالتها - إقامة حلف أو إتحاد تم إلغاؤه، التورط العسكري المباشر وغير

(٣٧) كتب الحسين بصدد الانفصال في مذكراته "إن جيراننا السوريين عادوا مرة أخرى أحراراً بنبذهم الإمبريالية الناصرية، التي هدت لا بدمارهم وحدهم بل بدمار بقية العالم العربي (ص ٣٠٥). وعزا الأساليب التي تتبعها الدعاية الناصرية الى واقع كونها تعتمد على قلة تقدير لمستوى ذكاء الشعب العربي الإعتيادي.

المباشر، التقرب من الإتحاد السوفياتي لضمان استيراد السلاح، مغازلة الولايات المتحدة إستدراراً للمساعدة الاقتصادية<sup>(٣٨)</sup>.

\*\*\*

تتفق الحركات القومية العروبية جميعاً على أن السودان هو جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير، تشمله الوحدة الكبرى المنشودة، على أن قطاعات كبيرة من الشعب السوداني لا تتفق معها. ورغم الواقع الصارخ بأن نصفه الجنوبي بقي حتى يومنا هذا بعيداً عن لغة القرآن ودين القرآن، عنصراً زنجياً خالصاً، يدين بالمسيحية وبالعبادات الزنجية الأفريقية الطوطمية.

وفي النصف الشمالي من البلاد بدأ العرق العربي - الحامي (المصري) الممتزج بالدم الزنجي واضحاً كل الوضوح لاحتياج الى دراسات أنثروبولوجية. إن إلتصاق الجنوب الزنجي بالشمال الهجين كان بالأصل من عمل الكولونيات البريطانية، ونتيجة الحملات العسكرية التي يمكن رد أوائلها الى العصر الفرعوني. وفي خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة، كانت اللغة العربية هي لغة ذلك الجزء من الوطن السوداني، سادت بقوتها الذاتية منذ أن دخل الإسلام وقبل الإدعاء المصري بها بقرون عديدة. وبالضبط عندما بدأ في العام ٦٥١ الميلادي تحوله عن الديانة المسيحية الى دين الإسلام.

في العام ١٨٩٩، وضع السودان بموجب إتفاقيية الحكم الثنائي بيدي الحكم المصري - الإنكليزي، وبقيت اليد البريطانية العليا الى الأخير. كما بقيت مسألة مستقبله السياسي

(٣٨) في ١٦ من تشرين الأول وبعد مرور بضعة أيام على إرسال القوات العسكرية الى اليمن، أقدم في خطبة عامة له على الكشف عن شخصية الزعيم الراحل من نفسه الذي لا يمكن أن تتعرض قراراته للمساءلة أو النقاش أو الشك:

"كان إختياري أن أقضي الأيام الماضية متفكراً. فكّرت في أمتنا في كل مكان... أردت أن تكون إختياري خياراتهم (خيارات الأمة) وأن موقفي هو تعبير عن موقفهم (موقف الأمة)... وأنا أقول لكم الآن بأنني قد إخترت... وإختياري كان، هو أن طريق الثورة يجب أن يكون طريقنا. التقدم بكل ثبات وقوة نحو الإنجازات الثورية هو الجواب الوحيد لكل مطالب كفاحن القومي... إن مسؤوليتنا هو (هي) إعادة بناء الوطن الأم وتحريره".

وفي العام ١٩٦٤ أي بعد أربع سنين، عاد لمراجعة نفسه إثر فشله في تطويع عبدالسلام محمد عارف (لا بأس أن نستبق الأحداث هنا):

"كنا نعتقد في السابق بأن الثورات العربية التقدمية تجعل الوحدة ممكنة. لكننا في هذه الأيام نجد أن مفهوم الوحدة في ذاته، هو في أزمة. ففي الوقت الذي يعتز كل بلد عربي بحزب فإن الوحدة مستحيلة تماماً. ولأجل أن تتحقق الوحدة يجب علينا أن نطرح حركة عربية قومية موحدة يمكن أن تندمج فيها كل الحركات القومية في الوطن العربي".

تثار في كل مفاوضات بريطانية - مصرية حول الجلاء، وبقي المصريون عموماً يصرون على وحدة وادي النيل تحت التاج المصري ورغبوا أن يمنحوا في إطار تلك الوحدة - نوعاً من الأوتونومية للسودانيين، وهو ما كان مطمح الشماليين جميعاً خلا جيوب صغيرة.

وكما مرّ، ألغت الحكومة المصرية في العام ١٩٥١ إتفاق ١٩٣٦ من جانب واحد. كما ألغت إتفاق العام ١٨٩٩ وأعلنت (فاروق) ملكاً لمصر والسودان. إلا أن البريطانيين رفضوا إقرار ذلك، وقالوا: يجب ألا يحال بين السودانين وبين حقهم في تقرير المصير.

في عين الوقت نشطت الطبقة المتعلمة والمثقفة سياسياً، ومعظم هؤلاء من خريجي كلية (غوردون) في الخرطوم. وإنتمت لعمل وطني هدفه التعريف بأمانيتها الوطنية الخاصة للسلطين الحاكمين اللتين كانتا منذ نهاية القرن التاسع عشر قد تعودتا إتخاذ قرارات للسودان في معزل عن رأي السودانين. وفي العام ١٩٣٨، أقدم هؤلاء على تأسيس تنظيم سياسي عرف بـ"مؤتمر الخريجين العام"، وإنطلقوا من خلاله في سبيل أنشطة إجتماعية وتربوية، وكانت أغليبيتهم من الموظفين والمعلمين تزعمهم "إسماعيل الأزهري" أستاذ الرياضيات في كلية غوردون، وهو من خريجي الجامعة الأمريكية ببيروت في العام ١٩٣٩.

في نيسان من العام ١٩٤٢، لبس مؤتمر الخريجين ثوب الناطق بإسم "الشعب السوداني" عندما قدموا للإدارة الثنائية في الخرطوم جملة من المطالب الوطنية، فرفض البريطانيون الإعتراف بالدور السياسي للمؤتمر وكذلك بمطالبه، وإذ ذاك ولّى "الأزهري" وجهه شطر مصر مؤيداً شعار "وحدة وادي النيل".

وفي إنتخابات المؤتمر للعام ١٩٤٣، نجحت كتلته في السيطرة على المؤتمر. فأقدم من فوره على تأسيس "حزب الأشقاء"، وهو أول حزب سياسي سوداني نشأ في التربة السودانية. ولقي هذا الحزب دعماً من السيد علي الميرغني رئيس الختامية<sup>(٣٩)</sup>. وإنفصل عن المؤتمر أعضاؤه المعتدلون المعارضون للوحدة مع مصر، وأسسوا ما عرف فيما بعد بـ"حزب الأمة" الذي لقي بالمقابل دعماً من السيد عبدالرحمن ابن المهدي زعيم الجماعة الدينية التي عرفت بـ(الأنصار). إستمد الحزبان شعبيتهما الطاغية بفضل إرتكاز كل منهما على حركة دينية مرهوبة الجانب. وإليهما إنتقلت المنافسة والصراع التاريخي التقليدي بين "الختامية" و"المهدية": الختامية تخشى

(٣٩) تلك هي طريقة دينية حالفت الإدارة المصرية طوال القرن التاسع عشر، وإنتابها ضعف شديد عند إستظهار الحركة المهدية وممارستها الحكم الفعلي خلال فترة من الزمن حتى القضاء عليها بالحملة المشتركة في العام ١٨٨٦.

عودة الحكم الى المهديّة. والمهديّة (الأنصار) يكرهون التسلّط الختمي. وقد هالهم النجاح الذي حققه حزب الأشقاء المدعوم بالنظام المصري.

وبقيت المعادلة السياسية المزدوجة سنوات يحكمها هذا الوضع الغريب:

حزب الأمة + الأنصار، الى الجانب البريطاني يعملون من أجل الإستقلال التام

حزب الأشقاء + الختمية، الى الجانب المصري يدعون للوحدة مع مصر

وخطر على بال البريطانيين، وهم على أبواب النصر في العام ١٩٤٤ أن يضعوا الشمال السوداني على عتبة الحكم الذاتي بإنشاء "المجلس الإستشاري" بهدف تعويدهم على ممارسة الحكم وقد فعلوا ذلك دون مفاوحة المصريين. وكان معظم الأعضاء الثمانية والعشرين فيه من حزب الأمة، ولم يكن فيه ممثل واحد للسودان الجنوبي. وقد إنصرف الذهن العام وقتذاك الى نية مستترة لبريطانيا في شطر السودان الى جزئين<sup>(٤٠)</sup>.

وفي العام ١٩٤٧، طرحت قضية السودان على هيئة الأمم المتحدة. وكالعادة أصرت مصر على وحدة التاج المصري - السوداني، في حين تمسكت بريطانيا بحق السودانين في تقرير مصيرهم أو إستفتاءهم على الأقل.

بقيت القضية معلقة، إلا أن بريطانيا بادرت بعد عام واحد الى حل المجلس الإستشاري وإقامة جمعية خوّكت سلطة التشريع مع إستحداث مجلس تنفيذي، نصف أعضائه من المواطنين السودانيين. وطمأنت القوميين الشماليين بخصوص وحدة السودان بضم أعضاء من السودان الجنوبي الى الجمعية الاشتراعية والمجلس التنفيذي؛ وبذلك أنهوا الفصل الإداري بين الجزئين.

عارضت مصر هذه الإجراءات وأبت المصادقة عليها. وعارضها حزب الأشقاء الذين قاطعوا إنتخابات الجمعية والمجلس وبذلك تركوهما لحزب الأمة. وأنتخب الضابط السابق (عبدالله خليل) رئيساً للجمعية الاشتراعية.

وواجهت الجمعية يوم إفتتاحها في ١٩٤٨ مظاهرات إحتجاج دفع بها حزب الأشقاء -

(٤٠) لم يكن من صلاحية المجلس معالجة شؤون الجنوب فقد بقيت السياسة البريطانية تعالج شؤونها بشكل منفصل مستوحية الواقع في إختلاف الأصول العرقية والدينية والحضارية والإجتماعية التي تفرق بين الشطرين. فازبوعون بالمائة من مجموع سكان السودان هم من العنصر الزنجي الخالص Negroid مسيحيين ووثنيين وطوطميين، يتخاطبون بعدد من اللغى الأفريقية. وفي كثير من الأصقاع يعيشون وكانهم في العصر الحجري المتأخر.

واعتقل بسببها رئيسه "الأزهري".

وإنتخبت الجمعية مجلساً تنفيذياً.

ورفضت قرار حكومة الوفد المصرية وحدة التاج المصري السوداني. إلا أن فاروق أصر على إستخدام اللقب حتى إزاحته في إنقلاب ٢٣ يوليو.

ويدا وكأن الضباط الإنقلابيين يتعجلون الوصول الى إتفاق حول ما يُعمل في السودان. وقدموا المشكلة على مشكلة الجلاء عن القناة. لم يصروا على السيادة المصرية وسلموا بحق السودانيين في تقرير المصير، ربما لوثوقهم من النتيجة وإطمئناناً الى شعبية حزب الأشقاء، الى جانب تلك الأواصر التاريخية والعرقية والحضارية التي ربطت شمال السودان دوماً بمصر<sup>(٤١)</sup>. وعلى أساس من هذا وقع الإتفاق الأنكلومصري في ١٢ من شباط ١٩٥٣، وينص على حق أهالي السودان في تقرير مصيرهم وعلى أساس الوحدة بين الشمال والجنوب.

وحددت الإتفاقية الفترة الإنتقالية بثلاث سنوات، يمارس فيها السودانيون الحكم المحلي فقط وترتب أن تمارس السلطة معهم ومع الحاكم العام البريطاني لجنة دولية خماسية. وأن تشرف لجنة دولية أخرى على الإنتخابات النيابية العامة قبل قيام الأهالي بتقرير مستقبل بلادهم. كان ذلك بتوجيه من الأمم المتحدة.

وفي إنتخابات كانون الثاني ١٩٥٣ العامة حصل حزب إسماعيل الأزهري على الأغلبية في مجلسي النواب والشيوخ فألّف الحكومة برئاسته. ونام ثوار يوليو في القاهرة على المفاجأة السارة التي إنتظروها طويلاً وقد صحّت حساباتهم بفوز حليفهم. لكن الأيام راحت تمر والأزهري لا يتقدم خطوة واحدة في سبيل الوحدة.

المسألة هي أنهم أخطأوا الحساب.

فالسودانيون لم يودعوا ثقتهم الأزهري وحزبه بهدف وحدة مع مصر، بل لأنهم كانوا يريدون

(٤١) كان رئيس الجمهورية المصرية اللواء محمد نجيب وأخوه، وهو ضابط كبير في الجيش المصري، نصف سودانيين. كذلك كان الصاع (الرائد) صلاح سالم وشقيقه جمال سالم، وكلاهما من الضباط الأحرار. كثيراً ما تزوج الضباط والموظفون المصريون بنساء سودانيات أثناء خدمتهم في السودان منذ إستيلاء محمد علي على البلاد في ١٨٢٣، وممن كان لأمثال هؤلاء أدوار رئيسية في التاريخ المصري الحديث أحمد عرابي باشا قائد ثورة ١٨٨٢، في الواقع لم تكن الدعاية للإندماج قانعة برصيد مصر هذا، وبالإعتماد على حزب إسماعيل الأزهري، فقد نشطت بزيارات عديدة متبادلة. وتحفظ ذاكرتي بينها صورة لصلاح صلاح سالم ملأت صحيفة كاملة من مجلة المصور المصرية الكبيرة الحجم - في وثبة فضائية أثناء مشاركته رقصة سودانية وهو عارٍ إلا ما ستر عورته- بمناسبة زيارة له.

التخلص من النفوذ البريطاني وهيمنتته اللتين كانتا ممتثلتين في حزب الأمة. فهذا الحزب لم يحز ثقة الأغلبية لأنه بقي يتعاون مع البريطانيين، بدليل أن "الأزهرى" واجه يوم الأول من آذار ١٩٥٤ وهو يوم إفتتاح المجلس - مظاهرة عارمة صاحبة شعبية مثلت كل الفئات السياسية وبضمنها حزبه، تهتف بشعارات معادية لمصر، وضد أي نوع من الوحدة. أدت مما أدت الى إصطدام دموي وقع خلاله عدد كبير من القتلى.

وأدرك "الأزهرى" دون إعمال فكر أن القطاع الأكبر من المجتمع السوداني يعارض الوحدة ولا يريدتها. وتجلت في الإعلام السوداني ودوائر المثقفين نفرة السودانين من الأساليب الرخيصة السوقية التي مارسها الضباط المصريون للتأثير على الإنتخابات العامة. كما تابعوا بهلع وإشمئزاز الأساليب القمعية المنهجية التي إتخذوها في مصر ضد الإخوان المسلمين والحزب الشيوعي هناك. وكل هذا لم يكن معروفاً عندهم أثناء الحكم البريطاني الذي سمح بنشاط هاتين الفئتين ولم يتعرض لهما قط، ثم كان سقوط محمد نجيب الذي أحبه السودانيون كثيراً.

وبدا حلم الوحدة، أثراً بعد عين عندما أعلن "الأزهرى" في شهر آيار ١٩٥٥ رسمياً إستقلال السودان وسيادته، وسودنة الإدارة والشرطة والقوات المسلحة بإحلال السودانيون محل المصريين والبريطانيين فيها، وأمرت الوحدات البريطانية والمصرية بإتمام الجلاء عن البلاد قبل نهاية السنة.

وبعد أن وضع حزب الإتحاد الوطني نفسه (وهو الحزب الذي شكّله الأزهرى بدلاً عن حزب الأشقاء) الى جانب الإستقلال، لم تعد ثم حاجة للإستفتاء. وفي ١٩ كانون الأول ١٩٥٥ وافق البرلمان بأغلبية ساحقة على إقتراح الأزهرى بإعلان السودان جمهورية مستقلة. وصدر القرار في الأول من كانون الثاني ١٩٥٦.

مع ذلك بقي أمر الصلة مع مصر مصدر قلق وتوتر قدر ما كان الجنوب مصدراً له ووقعت حوادث عنيفة<sup>(٤٢)</sup> سفكت فيها دماء من الطرفين.

كان بناء السودان الإجتماعي - الإقتصادي يختلف إختلافاً بيناً عن بُنى سائر البلاد الناطقة بالعربية. فقد تحرر تماماً من المشاكل التي يخلفها الإقطاع والملكيات العقارية الكبيرة. لأن ما

(٤٢) من ذلك ما حصل في آب ١٩٥٥ - قبيل إعلان الإستقلال. فقد أعلن الإقليم (مديرية) الإستوائى ثورة قتل بنتيجتها مئات من السودانيون الشماليين. حنق الجنوبيون من إرسال الحكم الجديد موظفين إداريين متغرسين غير مجريين وغير متسامحين بل متعصبين دينياً، بخلاف ما عهدوه من الإداريين البريطانيين.

يزيد عن ٩٠ بالمائة من الأراضي هي ملك للدولة، فهي المالكة والمنتجة في عين الوقت، وهي المديرية والقائمة على الإدارة فيها عن طريق مشرفين ومدراء ومستأجرين يحصلون على عقد إمتياز من الدولة لإستغلال الأرض بالمشاركة النصفية مع الفلاح.

وفت الحركة العمالية في البلاد خلال الفترة التي سبقت الإستقلال، وبدت نقابة السكك الحديدية أقواها وأوسعها نفوذاً. رغم أن طلب تأسيس إتحاد عام للقطاعات رفض في ١٩٥٠ فقد لقيت من حزب الأشقاء حليفاً قوياً يتجه نحو اليسار. وتغلغت فيها الأفكار الشيوعية ليبدو فيها عدد من شعاراتها. وان لم تكن هناك حركة قومية عروبية ولا شعارات تتم عن وجود لها.

ديمقراطية السودان كانت أشبه بالطفل الحديث الولادة، معرض لكل العلل والنكسات التي لاحظناها في ديمقراطيات البلاد الناطقة بالعربية الأخرى التي قضى عليها التسلط العسكري. من أظهر تلك العلل وأكثرها شيوعاً التحالفات المؤقتة بين السياسيين وبين الأحزاب والإقسام الفكرية الناجم عن الولاءات للأشخاص لا للمناهج والتضحية بالأخيرة للإحتفاظ بالأولى، التآمر السياسي السري والإنتهازية والطموح الشخصي واحتقار الإرادة الشعبية والعمل بمعزل عنها... وما الى ذلك.

بقي الأزهرى على رأس الحكومة طوال الفترة الإنتقالية وبعدها بقليل. لكنه أضطر الى تأليف وزارة إئتلافية مع حزب الأمة في شباط ١٩٥٦ وبعد ثلاثة أشهر حصل إنشقاق في حزبه، وإنفصل عنه جناح ليؤلف حزباً جديداً أطلق على نفسه إسم "حزب الشعب الديمقراطي"، وهذا الجناح كان يدعو الى الوحدة مع مصر، وقد حظي بتأييد (سيد علي الميرغني) رئيس الحتمية. كان من أسباب الإنشقاق أن الأزهرى حاول إبعاد حزبه (الإتحاد الوطني) عن الإتحاد الإسلامي الذي تدفعه اليه الحتمية.

ووقع الأزهرى في تموز ١٩٥٦ ضحية مؤامرة برلمانية بنزع الثقة منه فاضطر الى الإستقالة. وألّف (عبدالله خليل) رئيس حزب الأمة الوزارة بالتعاون مع الحزب الجديد (حزب الشعب) المنشق.

كان تحالف الحزبين على الأزهرى عملية إنتهازية صرفة ترمي الى إقتلاعه، فبين أهداف الحزبين المتآمرين بون شاسع.

بقيت وزارة (عبدالله خليل) حتى وقوع الإنقلاب العسكري الأول في ١٧ من تشرين الثاني ١٩٥٨ وعانت التجربة الديمقراطية خلال الفترة متاعب شتى بقيت عاجزة عن إمتصاصها

بسبب تغليب المصلحة الحزبية على المصلحة العمومية، والإساءة الحمقاء الغيبية الى الجنوب النجفي بثتى أساليب الإستفزاز والإثارة<sup>(٤٣)</sup>. كان الجنوب يطمح الى نظام حكم فدرالي. ولم يدع ضباط يوليو المصريون الحكم الجديد في راحة.

كان على حكام البلدين تسوية مشكلة مياه النيل. ومن ضمنها الموافقة على المنطقة التي سيتم إغراقها بالمياه بعد إقامة السد العالي. وإتخذت مصر (ج.ع.م) موقفاً عدائياً صريحاً. ففي الوقت الذي كانت السودان تتهياً لإجراء الإنتخابات أرسل عبدالناصر قواته الى منطقتين إدعى بعائديتهما، واحدة تقع على ساحل البحر الأحمر وأخرى على نهر النيل. نزلت القوة المصرية الصغيرة في المنطقة الأولى دون أن تلقى مقاومة، في حين زحف رتلان على الثانية من أسوان<sup>(٤٤)</sup>.

ورفع السودان شكوى الى مجلس الأمن في شباط ١٩٥٨، فبادرت مصر الى سحب القوات متهمه السودان بأنها تبالغ في شكوى لا أساس لها وأن "الإمبرياليين هم وراء المشكلة" وهو ما صورته الدعاية الناصرية في حينه.

وأطلق حكام القاهرة فذائفهم الإعلامية على السودان "الشقيق" دون رحمة وأتهم السودانيون بنكران الجميل والتنكر لعلاقات الأخوة والوشائج التي تربطهم بالمصريين. ونوشد "شرفاؤهم" بالعمل على وقف المؤامرة الإمبريالية وإحباطها وكس نفوذ القوى الخارجية التي عملت وما زالت تعمل على تفريق الصفوف، الخ...

في تشرين الأول شخص (علي عبدالرحمن) رئيس حزب الشعب الديمقراطي والعضو في

(٤٣) حاولت الحكومة إزالة الفروق الثقافية والتعليمية بين الجزئين، فقامت بدمج النظامين التعليميين معاً، ثم أشرفت عليه وبدأت في مصادرة المدارس التي فتحها المبشرون وأرسلت معلمين من الشمال لملء الفراغ الذي خلفه الإستغناء عن المعلمين السابقين لفرض المناهج التعليمية الجديدة ومنها تعليم اللغة العربية والتاريخ الإسلامي، ففجرت غضباً شعبياً كان قد تراكم جراء سياسة الإنتشار العسكري في الجنوب. ودبّ دبيب الإنحلال في الحلف حول موضوع قبول المساعدة الإقتصادية والتقنية الأمريكية، كان حزب الأمة يشعر بالحاجة إليها في حين وقف حزب الشعب الديمقراطي ضدها. وبدا أن المعارضة كانت مفتعلة، وقد وصفت بأنها إشارة إحتجاج على نزول القوات الأمريكية لبنان وقد جاء التحريض عبر الحدود المصرية. مع ذلك فقد عقدت الإتفاقيه وصادق عليها البرلمان أخيراً.

(٤٤) زحف الرتل الأول الى وادي حلفا. فيما حاول الثاني الوصول الى هدفه (أبو رمدة) عبر الصحراء، فضل أولهما طريقه وهلك عدد كبير من الجنود عطشاً. [أنظر كريغوري بلاكسلاند "مصر وسيناء" نيويورك ١٩٦٦، ص ٢٩٦ Gregory Blaxland: Egypt and Sinai] في ١٤ تموز ١٩٥٨، وبتشجيع من الإنقلاب في العراق أرسلت القاهرة العقيد (علي خشبة) مستشاراً لسفارتها في الخرطوم فلم يضيع وقتاً في مباشرة خلق الإضطراب في الجو السياسي ولم تضيع الحكومة السودانية وقتاً في التفكير بما تفعل له فقد أمرته بعد ثلاثة أيام من وصوله بمغادرة البلاد.

الوزارة - الى مصر وإجتمع بعبدالناصر دون أن يُعلم رئيسي الحزبين الآخرين المشاركين في الوزارة. وبعد أيام لحق به ساسة آخرون، ثم لحق به (عبدالله خليل).

وسرى القلق العظيم في أوساط حزب الأمة من هذا التقارب. إلا أن الخوف الأعظم كان مستولياً على ضباط الجيش، فهؤلاء كانوا يشعرون شعوراً حقيقياً بتفوقهم الثقافي العسكري على أقرانهم الضباط المصريين وكثير ممن بلغ مراتب القيادة فيهم - تلقوا معارفهم في معاهد ودورات عسكرية ومعاهد إنكليزية. وقد شعروا بعد الإستقلال والحرية في قيادة الجيش السوداني بمعزل عن التسلط العسكري البريطاني الذي لم يكنوا له وداً بأية حال - شعروا أنهم مهددون بالتسلط العسكري المصري، ولم يكونوا نيماً عندما بدأت المؤسسة العسكرية المصرية - فور قيام الوحدة مع سورية تزحف بثبات منهجي على المؤسسة العسكرية السورية للهيمنة عليها وإبتلاعها.

في تشرين الأول - وبدافع هذا الخوف العظيم - بدأت الحلقة الأولى من سلسلة الإنقلابات العسكرية. لتنتهي كما بدأت بالصراع المعروف بين الساسة والضباط السياسيين على السلطة.

كان الإنقلاب الأول هادئاً تماماً - لم ترق فيه قطرة دم واحدة، لكن أريقت فيه دماء الديمقراطية البرلمانية وقضي عليها قضاءً مبرماً بسلسلة متتابعة طويلة من الإنقلابات إمتدت حتى يومنا هذا.

هذا الإنقلاب تزعمه الفريق إبراهيم عبود القائد العام للقوات المسلحة، البالغ من العمر ٥٨ عاماً. أتم إحتلال الخرطوم بأربعة آلاف جندي، وتبع الأسلوب الإعتيادي بإحتلال الإذاعة ودوائر الإتصال الخارجي وبنابات الحكومة وغلق الحدود، وما الى ذلك. وكالعادة أذيع البيان الأول وهو ما سماه ب"مرسوم الدفاع عن السودان". ووضع أعضاء الحكومة تحت الإقامة الجبرية في منازلهم مسنداً السلطات الى ما دعاه في بيان آخر ب"المجلس الأعلى للقوات المسلحة" الذي ترأسه بنفسه.

وأعلن في بيان ثالث "حالة الطوارئ" في سائر أنحاء السودان وخوّل القادة العسكريين في المديرية صلاحيات الحكم والسلطة كل في حدود مديريته. وأصدر المجلس الأعلى بيانات أخرى قضت بتعطيل القانون الأساس المؤقت، وحلّ البرلمان، وإهدار الأحزاب ومنع إصدار الصحف والمطبوعات... الى إشعار آخر.

قلنا كان السبب الأساس للإنقلاب هو الخوف من وقوع السودان في قبضة مصر، ومن



التهديد الدائم بالدساتين المصرية والمؤامرات ضد إستقلال السودان. إلا أن البيان الأول الذي صدر بتوقيع إبراهيم عبود لم ينوّه بهذه الحقيقة، ولكنه علّل تدخله العسكري بالإشارة إلى "الصراع الشديد بين الأحزاب في محاولتها الحصول على مكاسب شخصية بكل وسيلة شرعية وغير شرعية... لن ندّخر وسعاً في تحسين علاقاتنا مع مصر بغية حل جميع المشاكل القائمة ولوضع حد للتوتر المصطنع الذي بقي قائماً حتى الآن".

تلك إشارة واضحة إلى أن السودان سيبقى بعيداً عن كل محاولة ضم أو اتحاد مع مصر. وعاد البيان يحمل على الأحزاب منوّهاً بالفوضى والتمزق وعدم الإستقرار والبؤس الذي يعانیه سكان البلاد ملقياً اللوم عليها، في إستغلال مصادر الثروة الوطنية لمكاسبهم الخاصة. وإتخذ نغمة البيانات العسكرية التي ألفناها في إنقلابات البلدان الناطقة بالعربية:

"كان الجيش ينتظر من الحكومات الحزبية تحقيق الإستقرار الشامل. إلا أن الوضع إستمر في التردّي فلم يعد من خيار للجيش السوداني وقوات الأمن غير تسلم السلطة لوضع حد لهذه الفوضى... إن الجيش لا يهدف إلى مكاسب شخصية وإنه لم يقم بواجبه هذا بدافع من حقد أو سوء نية لأي فرد أو جهة... وهدفنا هو تحقيق الإستقرار والإزدهار والسعادة للبلاد وللشعب".

لم يواجه الإنقلاب معارضة من الكتل السياسية التي أزيحت عن السلطة، ولا من الزعماء الدينين. وافق (سيد عبدالرحمن) زعيم الأنصار المهديّة على مضيض، وتوفي بعد أشهر قتائل ليخلفه في الإمامة ابنه (صديق)<sup>(٤٥)</sup>، وأبدى زعيم الختمية موافقته على الإنقلاب وكان قد أعلن مراراً كرهماً شديداً للسياسات الحزبية ودساتينها<sup>(٤٦)</sup>.

\*\*\*

في السابع عشر من تشرين الثاني صدر المرسوم الدستوري رقم (١)، معلناً السودان "جمهورية ديمقراطية. والشعب مصدر السلطات. وأن السلطات الدستورية أتيّطت به المجلس الأعلى للقوات المسلحة" المؤلف من إثني عشر من الضباط الأقدمين برئاسة إبراهيم عبود. وأن

(٤٥) كان هو الذي تزعم فيما بعد معارضة "المهديّة" للحكم العسكري كما سيأتي بيانه.

(٤٦) تبين فيما بعد أن الإنقلاب جرى بسبق معرفة وتفاهم مع رئيس الحكومة المقال (عبدالله خليل) فقد منحه الإنقلاب هو والأزهري تقاعداً سخياً. وذكروا عنه أنه كان يقرّ في كثير من المناسبات بسبق معرفته بحركة الجيش معللاً موافقته عليه بأن الجيش هو أكثر إستعداداً ومقدرة على الوقوف ضد المخططات المصرية فيدا الإنقلاب وكأنه مجرد تسليم وتسلم بين النظام البرلماني والعسكر.

أنظر: ك. د. د هندرسن: جمهورية السودان K.D.D Henderson: Sudan Republic لندن ١٩٦٥  
الصفحة ١٣٢-١٣٣

المجلس المذكور أودع إلى الرئيس صلاحيات ممارسة السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية، علاوة على تشييته بمنصب القائد العام للقوات المسلحة. فهو بهذه الكيفية رئيس للدولة ودكتاتور عسكري.

تألّف المجلس الأعلى من ضباط كبار وقادة وحدات، وأقدم على تأليف وزارة ضمّت سبعة من أعضاء المجلس الأعلى وخمسة من المدنيين.

لم يقدم الحكم الجديد للمحاكمة أيّاً من رجال العهد المباد كما حصل في البلاد الأخرى الناطقة بالعربية، بل عاملهم برفق وجمالهم<sup>(٤٧)</sup> وبدا وكأن كل شيء على ما يرام وهجعت الأحزاب والنقابات. وسكتت إذاعة القاهرة برهة. إلا أن الدساتين والتأمر لم ينقطعاً وتحوّلاً من الساسة إلى الضباط. حتى قيل أن محاولات الإنقلاب العسكرية التالية كانت من المجهودات المصرية أكثر منها نزاعاً على السلطة بين المتحاسدين.

لم تكد تمر أشهر أربعة وأسبوعان حتى جرت محاولة إنقلابية تزعمها العميدان (محي الدين عبدالله وعبدالرحيم شتان) وهما من قادة المناطق. قالوا كان الدافع حنقهما على إستبعادهما من عضوية المجلس الأعلى الذي ضم ضباطاً أصغر منهما رتبة، إلا أن أولهما كان يعتبر تقدماً مشايحاً لمصر محاسداً للواء (محمد عبدالوهاب) عضو المجلس.

في صباح الثاني من آذار الباكر ١٩٥٩، زحف العميدان المتمردان بقواتهما على الخرطوم فدخلتها واحتلت نقاطاً استراتيجية وإنطلقا لإلقاء القبض على اللواء عبدالوهاب وإثنين آخرين من أعضاء المجلس.

لم يحاول (عبدالوهاب) مواجهة القوة بالقوة - ربما لأنه لم يكن واثقاً من إنحياز العميد (حسن البشير) قائد قوات العاصمة وإنتصاره له. إلا أنه إستنجد بالزعمين الدينين اللذين أشرنا إليهما. وإنتهى الأمر بتسوية سلمية، وبدعوة إلى الاعتدال وإلى وحدة الجيش. وأخلي سبيل عبدالوهاب والضباط الآخرين المعتقلين. وإنسحبت القوات من العاصمة.

(٤٧) تسلم أعضاء الحكومة المعزولون رسائل شخصية بتوقيع (عبود) يشكرهم فيها على خدماتهم مع هدية نصف راتب شهري. [لاحظ أن ذلك لا يتفق مع الهنات والتهم التي وجهت اليهم في البيان الأول]. وعندما رفع تمثالا (غوردون) و(كتشنر) من ميدانيهما بموجب قرار من المجلس الأعلى في ١١ كانون الأول ١٩٥٨، وتم نقلهما بعناية إلى إنكلترا. [المرجع السالف ص ١٥١]. [في الرابع عشر من تموز هجم المتظاهرون بتأييد حركة الضباط على تمثالي الملك فيصل والجنرال مود وحطاهما بالفؤوس والمعاول وداسوا كسرهما بالأقدام، ولم يكن شخصاهما في أي وقت عاملي شر أو ضرر مثل ما ألحق الضباط من ضرر أو شر بالبلاد بأي حال من الأحوال].

ولم تنه فصول الكوميدي بهذا، فبعد يومين إنتهبت الحواظر السوداء رأس العميدين الظافرين وراجعا موقفهما فوجدا أنهما أخطأ بالإنسحاب الفوري قانعين بمثل هذه التسوية الصغيرة. وأدركهما خوف من مؤامرة تحك ضدهما. فأصدرا أمراً لقواتهما بالعودة وطوقا بها العاصمة، وطلبوا حلّ المجلس الأعلى لأن "الشعب والجيش يشكوان كثيراً من سياساته وتصرفاته".

وبعد إجتماع صاحب للمجلس قدم أعضاؤه جميعاً إستقالتهم لإبراهيم عبود. وأعيد تشكيله في ٥ من آذار، بإخراج خمسة من أعضائه وإبقاء سبعة بينهم (محمد عبدالوهاب) وضم الى السبعة الباقين العميدان المتمردان والعميد (مقبل الأمين) قائد المنطقة العسكرية الوسطى. وأسند الى ثلاثتهم مناصب وزارية.

وفي التاسع من آذار، عندما إلتم المجلس الجديد لأداء اليمين القانونية، رفض (عبدالوهاب) أداءه قبل إنسحاب القطعات العسكرية الثائرة من العاصمة والعودة الى مناطقها. فأصدر المجلس الجديد بياناً بإحالة العميد (عبدالوهاب) الى التقاعد (٤٨).

إن التبديل الفجائي في نعمة الإعلام المصري والتشجيع الذي لقيه هذا الانقلاب، أكد ما أشيع بأنه حصل بتأثير القاهرة.

لكن الخلاف تواصل. شعر العميدان بمكيدة إثر صدور أمر من إبراهيم عبود يقضي بعدم تحريك أي وحدة عسكرية إلا بإذن صادر منه. عندها قاما بمحاولة إنقلاب ثالثة ففشلا.

في ٢٢ من أيار ١٩٥٩، تقدمت وحدتان (غدراق) بإقليم (مديرية) الشرقي نحو العاصمة فعاجلها إبراهيم عبود بإرسال اللواء المدرع لمواجهة فأسرعت الوحدتان بالإنكفاء على عقبهما. وفي (شندي) قام اللواء حسن البشير باللقاء القبض على المتآمرين، وكانوا تسعة بينهم شقيقان للعميد شتان قائد الحركة. وفي ٢٧ من آذار ألقى القبض على قائد المديرية الشرقية وثلاثة عشر ضابطاً آخرين، بينهم العميدان محي الدين وشتان، وأحيلوا جميعاً في الأول من حزيران الى محكمة عسكرية علنية بتهمة التحريض على العصيان بسوق الجنود الى العاصمة لإحداث إنقلاب هدفه الإطاحة بالنظام. وأصدرت المحكمة في ٢٢ من أيلول حكماً بالموت على العميدين (٤٩)، وقراراً بطرد ٢٠ ضابطاً من الخدمة، وبالحبس على

(٤٨) مُنح مكافأة، فضلاً عن مرتبه التقاعدي، ما مساحته ٥٠٠٠ آلاف دونم من الأراضي الزراعية. [المرجع السالف]

(٤٩) خفض الى الحبس المؤبد ثم أطلق سراحهما بعد فترة.

طائفة. وعزل عضو واحد في المجلس الأعلى لعلمه المسبق بالمحاولة وإحتفاظه بسرهما لنفسه. وكانت محاولة إنقلاب عسكري رابعة - علم بأمرها المجلس الأعلى قبل وقوعها. كذلك كان على دراية بموعدها وهو يوم الذكرى الأولى للإنتقلاب الأول، فأصدر بياناً ينذر فيه بأشد العقوبات على الفاتمين بها موضحاً بأن الأحكام لن تخفف. إلا أن المتآمرين لم ينتشوا. وكانوا من صغار ضباط صف المشاة في الكلية الحربية بأمر درمان، مع تلاميذهم وبالإتفاق مع طلاب الجامعة وبينهم شيوعيون وعدد من الضباط المطرودين.

في يوم ٩ تشرين الأول ١٩٥٩ تم إحتلال مدرسة المشاة. وزحفت وحداتهم على العاصمة، إلا أن اللواء حسن البشير وفق الى القضاء على الحركة بسهولة وألقى القبض على قادتها. وأحيلوا الى محكمة عسكرية فقضت على خمسة من الرؤوس بالإعدام وعلى ١٧ ضابطاً آخرين بالطرد من الجيش (٥٠).

بدت الدكتاتورية العسكرية في السودان أخف وطأة على الأهالي نسبة الى الدكتاتوريات العسكرية الأخرى في البلاد الناطقة بالعربية. كان الحكم (سودانياً وطنياً) خالصاً لا أثر فيه للدعاوى والإنتماء القومي العربي. ولا مجال لنمو حركة قومية عقائدية ذات شعارات عروبية صارخة. وقد فشلت الناصرية كما فشلت المحاولات البعثية في إقامة قيادة قطرية داخل السودان مثلما باءت المحاولات الإعلامية المصرية بالإخفاق - في محاولتها جرّ السودان الى المعتزك القومي، والشمال منه لا يختلف عن الجنوب في هذا.

السودانيون الجنوبيون بقوا الى الأخير في نجوة عن التغلغل اللغوي والديني، والتزواج العنصري. في حين كان الشماليون يدركون جيداً بأنهم ليسوا عربياً أقحاحاً وإن مازج الدم العربي دماءهم منذ أن تحولوا عن المسيحية الى الإسلام بعملية متواصلة من فجر الإسلام وعن طريق اليمن والبحر الأحمر لا عن طريق مصر على الأغلب.

هناك فرق آخر. فيما كانت الإذاعات في دمشق والقاهرة وبغداد تصدع الآذان وتقلق الرؤوس بالأغاني التافهة الرخيصة التي تدور حول تمجيد القائد والزعيم الذي حطّم عرش الطغاة ووضع البلاد على طريق الرفعة والمجد والعزة والكرامة وتصفها بالأناشيد الوطنية والقومية. وفيما كان "عُباد السرير" يتزاحمون ويتبارون في إختراع أجمل الألقاب لوصف

(٥٠) يذكر هندرسن (المرجع السالف ص ١٢٥) أن الحكم صدر بالإعدام شتقاً لا رمياً بالرصاص ونفذ بهذا الشكل بالمحكومين. ويعط هندرسن (المرجع السالف ص ١٢٥) ذلك بدافع الخوف من أن يرفض الجنود إطلاق الرصاص على ضباطهم المحكومين وهم بين رائد ونقيب.

مآثر هذا البطل أو ذاك. لم يعمد القادة السودانيون الى بناء زعامة بطولية للفريق إبراهيم عبود واللواء طلعت فريد الذي يليه في الزعامة واللواء حسن البشير وأضرابهم. ولم يحاول هؤلاء إثارة الجماهير كالأخرين بشياطين التهديد الخارجي، أو التحذير من النفوذ الأجنبي. وقد وجدنا العكس من هذا، فكثيراً ما وجدناهم ووجدنا صحفهم في تلك الفترة تعيب "عبدالناصر" وتنتقده:

"صَحَاب، كثير الكلام، متسرّع أكثر مما ينبغي، متهور، طائش في إتخاذ القرارات... مازال في مرحلة البدء بعد عشر سنوات من الحكم..." الخ...

سمّى السودانيون الإنقلابيون نظام حكمهم في الدستور المؤقت بالجمهورية الديمقراطية. وعدّوا إنقلابهم ثورة، وكان لهم مفهومهم الخاص فيها كما كان لهم أسلوبهم في تطبيق ديمقراطيتهم كما رأوها<sup>(٥١)</sup>. فأسسوا في الأول من تموز ١٩٦١ ما دعي بالمجالس البلدية

(٥١) في صيف العام ١٩٦٠، جرت مقابلة صحفية للصحافي محمد حسنين هيكل، مع اللواء طلعت فريد (عضو المجلس الأعلى ونائب رئيس الوزراء ووزير الأنباء) حول النظام العسكري في السودان (لم تنشر إلا بعد إزاحة نظام عبود في العام ١٩٦٤). نشرها في جريدة الأهرام ١ كانون الثاني ١٩٦٦. أنقلها ها هنا، مستبعداً الشك العظيم الذي يساورني في أمانة كل ما يكتبه هذا الصحافي، بسبب لهجة الصدق الظاهرة ولحتواها الذي يتعزّر إختراعه مهما أوتي صاحبه من خيال. قال هيكل: قلت له: علمت أن المعارضة تعدّ مذكرة، وأنها تنهياً لتقديمها الى الحكومة مطالبة بإستقلالها. أجب: ما قيمة المذكرة؟ أليست هي قطعة من الورق يمكن تمزيقها كأى ورقة عادية؟ قلت: لكنها ستقدم إليكم ومن ورائها مجموعة. ومن ورائهم الشعب. قال: متسائلاً: أبلغك نبأ قديمي اليسرى؟

(أسلمني سؤاله هذا الى دهمشة. والواقع هو أنني لم أسمع شيئاً عن قدم اللواء طلعت فريد اليسرى، وبدا إستفساره هذا ولأول وهلة لا رابطة له مع موضوع المقابلة، إلا أنه أضاف قائلاً: كنت فيما مضى لاعب كرة قدم طائر الشهرة في بريطانيا. والمتفرجون يعلمون ما أن تحتوي الكرة قديمي اليسرى، حتى تسجل هدفاً مؤكداً.

وشعرت بأن هذا النوع من النقاش لا فائدة فيه فتحوّلت الى ما كان يشغل بالي وسألته:

- إسمح لي بهذا السؤال: لماذا تسمي ما حدث في السودان "ثورة"؟ ففي رأيي أن الثورة تعني تغييراً إجتماعياً شاملاً. وأنا لأدري ذلك قد حصل في السودان. التغيير حصل في شكل الحكومة وقد حصل بإنقلاب أكثر مما حصل بثورة، إلا أنك تصر على إستخدام لفظ "ثورة" فلماذا؟

للمرة الثانية كنت أتوقع نوعاً من الجواب لكن ما ظفرت به من اللواء هو سؤال آخر. قال لي: ما إسمك الأول؟

ويتردد ومن دون أن أفهم القصد من السؤال، أجب: "إسمي محمد إن لم تخنّي الذاكرة".

قال: ومن الذي إختار لك هذا الإسم؟

قلت: إن لم أكن مخطئاً فإن أبي هو الذي إختاره لي.

قال: حسن. إن كان الأمر كذلك فنحن آباء هذا الحدث الذي وقع في ١٧ من تشرين الثاني، ونحن أحرار في إطلاق أية تسمية نشاؤها عليه وقد إختارنا له إسم "الثورة". قال هيكل: فلم أستمر في المقابلة. (من

ومنحوها سلطة إدارة تامة وتشريع. ولكنها كانت برئاسة ضباط أقدمين يمارسون صلاحياتهم بوصفهم ممثلين للسلطة المركزية (رقباء).

وفي ١٧ من تشرين الثاني ١٩٦٢، أصدر المجلس الأعلى ما دعي بقانون المجلس المركزي. وبموجبه تم تأليف مجلس إشتراعي من ٧٢ عضواً بينهم ٥٤ تنتخبهم المجالس البلدية، ويعين البقية رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة. وأنيط به خلاف ذلك صلاحية المصادقة على المعاهدات ومساءلة الوزارة، ورسم بأن يرأسه ضابط أقدم يعينه عبود.

قاطع معظم أطراف المعارضة (الأحزاب والنقابات) هذا المجلس. ورفضوا التسليم بشرعيته، لكن ما حصل هو أنه ضم عدداً كبيراً من الشخصيات الجريئة النظيففة الذين شرعوا ينتقدون سياسة الحكومة في جنوب البلاد. وهاجموا اللواء طلعت فريد لإجرائته المتعسفة ضد حرية الصحافة. كما كشفوا عن بعض الفضائح والفساد في الإدارة العسكرية وإتهموا بها ضباطاً معينين<sup>(٥٢)</sup>، وإبصار منهم كشفت التحقيقات عن تصرفات لا قانونية. كمنح إجازات الإستيراد للمحاسب والمقربين من السلطة. وضاق الأهلون ذرعاً بغطرسة الحكام العسكريين وهو أمر لم يتصوره أيام الحكم البريطاني.

وإنتهز الزعماء ورؤساء الأحزاب المنحلّة تلمل الرأي العام فأقدموا على خطوة غير مسبوقة في تاريخ الدكتاتورية العسكرية في البلاد الناطقة بالعربية كافة. فقدّمت المعارضة المذكرة الجريئة التي أتينا الى التنويه بها مطالبة بإنهاء الحكم العسكري وعودة الجيش الى ثكناته. ولم تحدث أثراً بل تم تمزيقها على حدّ تعبير اللواء طلعت فريد<sup>(٥٣)</sup>.

وفي منتصف شهر حزيران ١٩٦١ واجهت الدكتاتورية العسكرية تحدياً جماهيرياً حقيقياً، بدأ بإعلان نقابة السكك الحديد إضراباً عاماً مطالبة برفع الأجور بنسبة كبيرة، فشلت حركة النقل في البلاد تماماً. ورد العسكريون بإلقاء القبض على زعماء النقابة. ثم عمّ الإضراب مدن

كناينا: العراق في عهد قاسم، ج ٢ الص ٥٦١-٥٦٢). وما أظن "هيكل" أدرك بأنّ "اللواء فريد" كان يلعب به كما يلعب بكر القدم. ولو كنت مكان هيكل لما نشرت هذا الحديث مطلقاً، ففيه برهن اللواء على أنه يفوق مخاطبه ذكاءً ولباقة وأنه إنما يعرض في الحقيقة بثورة يوليو. [المذكرة التي دار البحث حولها هي تلك التي رفعت الى عبود مطالبة بإنهاء الحكم العسكري وإعادة الحياة البرلمانية؛ قدمت في ٢٥ من تشرين الثاني ١٩٦٠ موقّعة من زعماء الأحزاب المعطّلة ومنهم سيد صديق المهدي زعيم الأنصار وزعيم حزب الأمة والأزهري وعبدالله خليل].

(٥٢) أنظر هندرسن، المرجع السالف ص ١٤٤. وكذلك "بيتر كلنر" في [الحكومة العسكرية في السودان: السنوات الحالية الثلاث Peter Kilner: Millitary Government in Sudan: The Present Three Years

المرجع السالف، الص ٢٦١ و٢٦٦.

(٥٣) على أنها عاقبت من الموقعين الأزهري وخليل بحرمانهما من روايتهما التقاعدية.

السودان عندما إنتشر نبأ قيام سلطات الأمن بالقضاء القبض على شاب شيوعي يوزع منشور ضد السلطة - وتعذيبه جسدياً. فوجّه زعماء الأحزاب برقية قاسية التعابير الى إبراهيم عبود أجاب عنها بالقضاء القبض على الإثني عشر الموقعين عليها وإبعادهم في ١١ من تموز ١٩٦١ الى بلدة (حوبا) في الجنوب<sup>(٥٤)</sup>.

وفي بيان له وصفهم:

"بمجموعة من أشخاص لا همّ لهم غير وضع مصالحهم فوق مصلحة بلادهم... فسلكوا بطيش وتهور سبيل المعارضة ضد مصالح البلاد. وأقدموا على نشر الشائعات الباطلة لتضليل البسطاء. وتحريض الطلاب على أعمال الشغب."<sup>(٥٥)</sup>

\*\*\*

في الثاني من تشرين الأول من السنة عينها توفي الإمام سيد صديق المهدي عن عمر يناهز الخمسين. كان واحداً من المؤمنين إيماناً عميقاً بالمدنيّة والديمقراطية وبالاستورية. ومدافعاً لاتلين قناته عن الحريات العامة وحقوق المواطنين في التعبير وهو أمر غير مألوف من الزعماء الدينيين المسلمين بصورة عامة. كان مثلاً يدافع عن حق الجنوب في الحكم الذاتي، ويبيد إشمئزاه وقرفه من محاولة الحكام فرض مناهج تعليمية على الجنوب لا يفهمون منها حرفاً. وخلفه في الإمامية أخوه "السيد الهادي" في حين وقعت زعامته السياسية في رئاسة حزب الأمة لإبنه "الصادق المهدي" الشاب خريج جامعة أكسفورد.

في كانون الثاني ١٩٢٦ أعيد الزعماء السياسيون من مناهم. لكن الثورة كانت تعصف في نفوس طلاب الجامعة وأعضاء النقابات<sup>(٥٦)</sup>. وبان فشل الحكام العسكريين في حلّ مشكلة الجنوب الناقم على فرض التوحيد بالشمال بالتعريب اللغوي والإسلام، وقاوموا بشدة الإجراءات الرامية الى توحيد النظام التعليمي الذي ينحو منحى عربياً إسلامياً، كما تحدّوا قرار الحكومة بإعتبار نهار الجمعة عطلة رسمية بدلاً من نهار الأحد. ولم يعبأوا بالضغط التي يمارسها الحكام لإحباط حركة تنصير القبائل الزنجية الوثنية التي تباشرها البعثات الدينية التبشيرية. الى جانب نشاطها في نشر التعليم. فإنفجرت براكين الغضب والنفرة فجأة في العام ١٩٦٠ على شكل مظاهرات وتجمعات بعضها مسلح. وبدء عدد كبير من زعماء

(٥٤) منهم الأزهري ومحمد أحمد محبوب وعبدالله خليل، وأستثني سيد صديق المهدي.

(٥٥) نشر النص الكامل للتصريح في جريدة "النصر" الدمشقية بتاريخ ١٣ تموز ١٩٦١.

(٥٦) كلنر (المرجع السالف ص ٢٦٥). كذلك "روبرت و. تكتوتوليس: مصر والسودان Robert O. Tigner

Tollins: Egypt and Sudan ط. انكلود كليز ١٩٦٧ الص ١٥٤-١٦٠.

الجنوب السياسيين والأساتذة والطلاب بهجرة عن البلاد شبيهة بالهجرة القبطية في مصر، والهجرة المسيحية في كل من سورية والعراق. وأولدت حركة الإعتصاب المدني تنظيمياً سياسياً عرف بالإتحاد الوطني الأفريقي للسودان، في المنفى. دعا الى إتحاد فدرالي بين الشمال والجنوب إلا أن الدعوة قوبلت بمزيد من التشديد والمضي قدماً في سياسة التعريب ونشر المفاهيم الإسلامية. وكان العالم كله يتوقع أن ينقلب الإعتصاب المدني الى ثورة مسلحة - بإستثناء حكام السودان على ما يظهر<sup>(٥٧)</sup>.

في أوائل العام ١٩٦٣ بدأت الثورة المسلحة في الجنوب.

ولم تكن في مبدئها منظمة تخضع لقيادة مركزية. بل بدت بغارات وأعمال إرهاب ضد المنشآت الحكومية، وقفت الحكومة المركزية أمامها عاجزة. وأرغم (عبود) في أيلول ١٩٦٤ على الإعلان عن تأليف لجنة خاصة للتحقيق في أوضاع الجنوب ودعي السودانيون لإبداء رأيهم.

وفي جامعة الخرطوم، عقدت مناقشة عامة. وفي أول إجتماع لها إنتقلت مسألة الجنوب الى موضوع الحكم ودعا المجتمعون الى وجوب إستقالة الحكومة العسكرية قبل البحث في مسألة الجنوب. فبادرت السلطة الى فض الإجتماع بالقوة وقفل باب المناقشة حول حلول للمسألة.

ولم تمرّ أسابيع حتى أطاحت الثورة الشعبية بالحكم الدكتاتوري.

(٥٧) في شهر آذار من العام ١٩٦٤، أصدر المجلس الأعلى قراراً بطرد البعثات التبشيرية والإنسانية في الجنوب. بإعتبارها تدعو الى الانفصال وزرع الشقاق بين أبناء الوطن الواحد.